تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني و العصر الإسلامي

تأليف : نخبة من العلماء

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني
والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

ألفه
نخبة من العلماء

أمين الخولي
محمد مصطفى زيادة
إبراهيم نصحي
مراد كامل
حسين مؤنس
جمال الدين الشيال
محمد عبد العزيز مرزوق

الموزع
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)

القسم الأول

العصر اليوناني والروماني

مصر في عصر البطالمـــــة

للدكتور ابراهيم نصحي

الفصل الأول ـ دولة البطالمة

الفتح المقدونى ـ قيام دولة البطالمة ـ الفتح الرومانى

حبا الله مصر بوفرة من موارد الخير وأسباب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والعرفان ، ومسر على الراشدين من حكامها اعلاء شأنها ، ولفت أنظار الطامعين اليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تنشد بناء امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت دولة الفرس وقامت على أنقاضها امبراطورية المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل وفتحت صفحة جديدة التقت فيها الحضارتان المصرية والاغريقية جنبا الى جنب . فالى أى مدى صدق العلامة ابن خلدون فى قوله ان المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب ? سنحاول بقدر ما تسمح لنا المصادر القديمة ، أن نبين الى أى مدى تغيرت أم بقيت على حالها مختلف نواحى الحياة فى مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق فى عصبة كورنثا برعامة مقدونيا ومشروع محاربة الفرس ، ذلك المسعى المشترك لمقدونيا والاغريق ، لدعم زعامة مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة البحار فان الاسكندر قرر أن يقضى على سيادتهم البحرية بالاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسى ، ولذلك سرعان ما استولى على شواطئ آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر وقدمت له برقة فروض الطاعة .

أولا ـ الفتح المقدونى

١ ـ الاسكندر فى مصر :

فتح الاسكندر مصر فى خريف عام ٣٣٢ ، وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ولتتويج نفسه فى معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء ، لكى يظهر أمام المصريين فى ثوب ملك شرعى خليفة الفراعنة القدماء ، لضمن اخلاص المصريين وخضوعهم له . لكن الاسكندر لم ينس أيضا أنه يوم خرج من بلاد الاغريق قاصدا فتح الشرق قد أعلن انه رافع لواء الحضارة الاغريقية ، ولذلك أقام فى منف حفلا اغريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه فى منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون فى واحة سيوة ، فقد كان

ذلك المعبد يتمتع بشهرة عالية تضارع ما كان لأعظم معابد الوحى عند الاغريق . ويبين ان الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك المعبد النائى تحقيق ثلاث غايات : أولاها ، اثبات صلة نسبه بالآلهة أمام الرأى الدولى العام ، فقد كان على وشك بناء امبراطورية واسعة مترامية الأطراف تضم بين جوانبها عناصر شرقية وعناصر غربية ، وكان يرى ان تأليهه أقوى ضمان لسيطرته على هذه الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من الحج الى معبد الوحى فى سيوة الحصول على تأييد الاله آمون لمشروعاته التى كانت ترمى الى بسط سيادته على العالم . أما غايته الثالثة فكانت اشباع ميوله للمخاطرة ورغبته فى اقتفاء اثر بطلى الأساطير الاغريقية برسيوس وهرقل اللذين شاع الاعتقاد قديما ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتهما وورد فى الأساطير انهما تزودا بمشورة آمون سيوة قبل الاقدام على جلائل أعمالهما .

وحين عاد الاسكندر الى منف أقام حفلا اغريقيا ثانيا ووضع نظاما دقيقا لحكم مصر ثم تركها فى ربيع عام ٣٣١ فى حماية جيش وأسطول مقدونيين ليستأنف منازلة الفرس . وفى العام نفسه أنزل الاسكندر بدارا ملك الفرس هزيمة فاصلة فى موقعة جوجميلا Gaugamela ، ثم أوغل فى أواسط آسيا حتى قلب اقليم البنجاب للاستيلاء على ولايات الامبراطورية الفارسية . وحين عاد الى بابل وافته المنية فى ١٣ من يونية سنة ٣٢٣ ولما يتم الثالثة والثلاثين من عمره . وبوفاة الاسكندر يبدأ فى العالم الاغريقى العصر الذى اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهيلينستى . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح المقدونى قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم الاغريقى فان عهد البطالمة ينتمى الى العصر الهيلينستى الذى ينتهى بموقعة اكتيوم فى عام ٣١ ق . م . تلك الموقعة التى بسط الرومان فى أعقابها سلطانهم على مصر : آخر مملكة هيلينستية .

مؤتمر بابل

وغداة وفاة الاسكندر اجتمع قواده فى بابل ليبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية التى توفى مؤسسها قبل أن ينظم وراثة العرش وطريقة الحكم فيها ودون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له . وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على أنه يرقى العرش شاب معتوه يدعى فيليب أرهيدايوس Arrhidaeus كان أخا غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف بحق جنين روكسانا Roxane (زوجة الاسكندر الفارسية) اذا كان ذكرا فى مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت الوصاية . وبهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة فى الشكل فقط اذ أنها تمثلت فى الفصل بين قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذى اتخذه أولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

فيما بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأطماع التي تجيش في صدور أغلب هؤلاء القــــواد واضــحة جلية ، ولذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت لديهم القـــوة الكافية لتأييــد رغبتهم في الاســتقلال . وقد كان كذلك بين قرارات مؤتمر بابل : أن يكون برديكاس القائد العام للجيش والمهيمن على شئون الامبراطورية ، وأن يكون كراتروس وصيا على الملك المنتظر وكذلك على طفــل روكســانا عندما يولد ، وحامي شخصيهما وحامل أختام الدولة ، لكن المؤتمر لم يقرر لمن تكون السيطرة والكلمة النافذة ، البرديكاس أم لكراتروس ، وبذلك أضاف عاملا آخر من عوامل الشقاق

ثانيا ــ قيام دولة البطالمة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطليموس . فمــا كانت أهــداف بطليموس مؤســس أسرة البطالمة التي حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت أهداف خلفائه ؟ لكي نتفهم سياسة البطالمة الداخلية على حقيقتها يجب أن نلقي أولا نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن النظم التي وضعوها لحكم مصر تأثرت الى حد كبير بالدور الذي أرادوا أن يلعبوه في العالم الاغريقي .

ومن الجــلي أن سياســة مصر الخارجية تتكيف عادة بمجمــــوعتين من العوامــل : احداهما هي العوامل الطبيعية التي جعلت مصر أولا جزءا من وادي النيل ، بل جعلت حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانيا وفيرة الخيرات في بعض النواحي ، مع فقرها الشديد في بعض النواحي الاخرى ، وجعلت مصر ثالثا حلقة الاتصال بين افريقيا وآسيا وأوربا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر الى انشاء صلات خارجية لتصريف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر اليه ، وأن يكون لنشاط السياسة المصرية ثلاث جبهــات : احــداها افريقيــة والأخــــرى أسيوية والثالثة أوربية . ومن الطبيعي أن يتباين اهتمام مصر بكل جبهة تبعا للظروف الدولية المحيطة بها في كل عصر . وهذه الظروف الدولية هي المجموعة الثانية من العوامل التي تتكيف بها سياسة مصر الخارجية .

وفي ذلك العصر من عهد الفراعنة حين كانت مصر ، أو كادت أن تكون ، المركز الأوحد للحضارة ، كان طبيعيا أن تستنفد الجبهــة الافريقية نشاط الســياسة المصرية . وحين قامت الى جانب مصر مراكز للحضارة في آســيا ، كان طبيعيا أيضا أن يكون للجبهة الأســيويه كذلك شأن كبير في الســياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الافريقية تستأثر باهتمام السياسة المصرية . وعنــدما أخذت تظهر في شمال البحر الأبيض المتوسط

مراكز جديدة للحضارة استرعت هذه المراكز في الحال انتباه مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية فانه لم يكن للجبهة الأوربية الا حظ يسير من اهتمام مصر قبل العصر الصاوي .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا اذ انه حين كان نجم الحضارات الشرقية قد أفل كانت حضارة الأغريق قد تقدمت الى الأمام فتقدمت حاملة أوصلتها سريعا الى ذروة المجد حتى تضاءلت الى جانبها الحضارات القديمة طرا ، وغدا بحر ايجة أهم مركز للحضارة في العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل في حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفى الاسكندر في شرخ الشباب والنصر فوق امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يعنينا من أمرها ثلاث : احداها أن عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة ، والنتيجة الثانية ، نشوب صراع عنيف بين قواد الاسكندر دام أربعين عاما وتمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هي دولة البطالمة في مصر ودولة السليوكيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هي احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطالمة والسليوكيين .

١ ـ تفكك الامبراطورية المقدونية

ومهما اختلف المؤرخون في تفسير سياسة البطالمة الخارجية فلا خلاف في أمرين : أحدهما أن الجبهة الأوربية في نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر أن البطالمة كانوا يريدون انشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وابنه وخليفته من بعده يريدون انشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان يتعين أولا وضع الأساس الذي يقام عليه هذا الصرح ، أي بناء دولة قوية غنية مستقلة في مصر . ولا ريب في أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصم عرى الامبراطورية المقدونية ومكافحة كل من تحدثه نفسه باحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه الخاص . ولذلك فان بطلميوس الأول اشترك في عدة محالفات كانت أهمها ثلاث : احداها ضد پردیکاس الذى أراد أن يلم شعث الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر ليجعل من واليها عظة للولاة الآخرين لكنه قتل أمام خط النيل الحصين ولقى حتفه هناك (عام ٣٢١) وكانت المحالفتان الأخريان ضد أنتيجونوس Antigonos الذى أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الأمر بالقضاء عليه في موقعة إبسوس Ipsos عام ٣٠١ ق . م . وبموت أنتيجونوس ماتت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية؛ وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

منهم بولايته انهم حذوا حذو انتيجونوس ولقبوا أنفسهم ملوكا (عام ٣٠٦ — ٣٠٥ ق . م .) .

ووسط الأطماع الجامحة التي كانت تجيش في صدور خلفاء الاسكندر استشعر بطلميوس الحاجة الى جيش كبير واسطول قوي ليعزز باستقلال مصر ويحافظ على هذا الاستقلال ويحرز مكانة سامية في السياسة الدولية . ولما كانت تحت امرة منافسي البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، اذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر ، وأمهر المقدونيين والاغريق ، فقد اعتقد بطلميوس وخلفاؤه الأوائل انه لتحقيق سياستهم الخارجية بل المحافظة على كيان دولتهم ، لابد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك ضرورة استخدام الاغريق وأشباههم للخدمة في قوات البطالمة المحاربة . ولما كانت ثروة مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحاجات الجيش والأسطول فانه كان يتعين استيراد الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج . وقد كانت الطريقة المثلى لضمان الحصول على هذه الضروريات هي الاستيلاء على بعض الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

٢ ـ بناء امبراطورية البطالمة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدوني ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة كان بطلميوس الأول وخلفاؤه في حاجة الى رءوس أموال والى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفاني في خدمتهم . ومعنى ذلك ان البطالمة الأوائل كانوا يستشعرون الحاجة أولا الى الاغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد كانت تتوافر لديهم رءوس الأموال وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض المتوسط . وثانيا الى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها الخارجية . فلا عجب ان اعتبر بطلميوس الأول وخلفاؤه سيادة بحر ايجه عماد كيانهم السياسي ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وازاء كل هذه العوامل نرى ان بطلميوس الأول حين كان معنيا بالفوز باستقلاله لم بالذود عنه قد : (١) استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية ، (٢) استولى على جوف سوريا (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطئ

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر اليها وادى النيل ، والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة مصر فى بحر ايجه . و (٣) بين الدول الحديثة الى الانجاز بالحرية قائمة تحت ستار انقاذ عصبة بحر ايجة من ربقة انتيجونوس ، طرد حاميات انتيجونوس من عصبة الجزر ووضع مكانها حاميات بطلمية للذود عن « الحرية الاغريقية » ، ثم سارع الى بلاد البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية فى سيكيون وكورنثا حماية للحرية الاغريقية من أعدائها الظالمين ! ولا شك فى أنه لم يهدف من وراء ذلك الا الى الفوز بسيادة بحر ايجة وكسب عطف الاغريق فيسيطر على الطرق التجارية فى العالم القديم ويحصل من العالم الاغريقى على ما يحتاج اليه من الرجال ورءوس الأموال .

ويجب أن نلاحظ أن السيطرة على عصبة جزر بحر ايجة كانت لا تكسب البطالمة الا سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر ايجة ، وان استكمال السيطرة على هذا البحر كان يقتضى فرض حماية مصر على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وكذلك الاستيلاء على موانى فلسطين وفينيقيا وقد شيد بطلميوس الأول جانبا مهما من هذه الامبراطورية وترك لخلفائه استكمال بنائها لأن السياسة التى وضع هو أساسها لم يحد عنها أحد من خلفائه الأوائل .

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ؛ فقد غدت الجبهة الأوربية أو ان شئت الجبهة الأوربية الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها الرئيسى . وقد أفضت الظروف الى اتجاه جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجبهة الأسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام مصر لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قبلا من الأهمية فى هذه الجبهة مثل ما اكتسبت تكتسبه منذ أيام بطلميوس الأول . وفضلا عن ذلك فان الاتجاه الأسيوى لم يكن يوما وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربى للسياسة المصرية على النحو الذى نراه منذ بداية عهد البطالمة .

وعندما ارتقى عرش مصر بطلميوس الثانى كانت دولته كبرى دولة فى العالم الهيلينستى . وكانت تليها دولة السليوكيين وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر فى بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) . وكانت الدولة الثالثة هى مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الاغريقية فى شبه جزيرة البلقان . وقد عنى بطلميوس الثانى أولا بدعم حدود مصر الغربية ، وثانيا بارسال حملة تأديبية الى قبائل النبط فى البتراء ، واخضاع الأدوميين والبحر الميت وشرق

الأردن . وذلك لضمان الحصول على التجارة الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه بالطرق التي تربط وادي النيل بالبحر الأحمر . وثالثا وطد حدود مصر الجنوبية وأمن طرق تجارة أعالي النيل . ورابعا دعم سلطان مصر في جنوب سوريا . وخامسا استرد ممتلكات مصر على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبي التي كان أبوه قد فقدها في عام ٣٠٦ وأضاف إليها ممتلكات جديدة هناك ، وعلى شاطىء آسيا الصغرى الغربي. وسادسا بسط نفوذه على كريت وثبت سلطانه على عصبة جزر بحر إيجة .

وهكذا يبين أن الاتجاهين الجديدين اللذين ظهرا في أفق السياسة المصرية على عهد بطلميوس الأول قد استمرا مسيطرين على هذه السياسة في عهد بطلميوس الثاني أيضا . بل لعل سيطرتهما قد ازدادت قدرا ما في عهد بطلميوس الثاني على نحو ما يتضح من اتساع نطاق فتوحه في بحر إيجة وعلى شواطىء آسيا الصغرى . لكن لعهد بطلميوس الثاني ميزة خاصة ، ففي عهده بدأ اتجاه

رأس تمثال من المرمر لبطلميوس الثالث .

رأس من المرمر يظن أنها تصور برنيكي الثانية زوجة بطلميوس الثالث .

جديد كل الجدة في سياسة مصر الخارجية ويدل على ذلك أن مصر في عهده هذا كانت أول دولة هلينستية أنشأت علاقات سياسية مع روما، ففي عام ٢٧٣ ق. م. أوفد بطلميوس الثاني بعثة إلى روما نجحت في عقد اتفاق بين الدولتين. ويبدو أن هذا العمل كان جزءاً من سياسة عامة انتهجها بطلميوس الثاني مع الدول الغربية، إذ تنهض الأدلة على وجود علاقات ودية حوالي ذلك الوقت بين مصر وسيراكوز أعظم دولة في صقلية وكذلك بين مصر وقرطجنة. ومن المحتمل أن الدوافع التي حدت ببطلميوس الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية قبل كل شيء، لأن الأسواق الغربية كانت تستطيع استيعاب قدر كبير من حاصلات مملكته.

إن السياسة الخارجية التي وضع بطلميوس الأول أسسها وسار بطلميوس الثاني على نهجها أصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الأوائل. وآية ذلك أن بطلميوس الثالث أيضاً لم يكد يرتقي العرش حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف نفسها والوصول بها إلى نتيجتها المنطقية. فهو لم يسترد فقط الممتلكات التي فقدتها مصر أيام أبيه على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية بل أضاف إليها أملاكاً أخرى على تلك الشواطئ، وكذلك على شاطئ الدردنيل وفي غاليبولي وتراقيا. أما الحملة التي قام بها بطلميوس الثالث حتى سلوقية على نهر الدجلة في مستهل حكمه عندما توفي بطلميوس الثاني ملك سوريا ونشبت حرب لاوديكي بين زوجه الأولى لاوديكي وزوجه الثانية برنيكي شقيقة ملك مصر — فإنها لم تكن إلا مجرد حملة لنصرة أخته والدفاع عن حقوق أبنائها، فهو لم يحاول عندئذ الاحتفاظ بالفتوحات التي تمخضت عنها هذه الحملة كما أنه لم يحاول فيما بعد استغلال الأزمات التي هزت أوصال امبراطورية السليوكيين لتوسيع رقعة امبراطوريته داخل آسيا، مع أن الفرصة كانت مواتية له إذ ذاك لاقتطاع ما يشاء من الولايات الشرقية في تلك الامبراطورية. ولا جدال في أن امبراطورية البطالمة قد وصلت في عهد بطلميوس الثالث إلى أقصى اتساعها، ولا في أن هذه الامبراطورية كانت امبراطورية بحرية. أما فكرة تكوين امبراطورية عالمية فإنها كانت بعيدة عن أذهان البطالمة لأنها حتى إن كان من الميسور تحقيقها فإنه لم يكن من الميسور المحافظة عليها. وجملة القول أن بطلميوس الثالث اقتفى بدقة خطوات أبيه في اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب.

٣ ـ بداية النهاية

وعندما ارتقى بطلميوس الرابع عرش مصر في مثل العمر سهولة الحالمة، اعتقد بطلميوس الثالث أن الفرصة قد سنحت سلب مصر جوهرة سوريا، فعبر به عنصر تها

لتحقيق ذلك برز بطلميوس عشه ومجونه وجهه للدفاع عن امبراطوريته . ومن حسن ذلك أعاد تنظيم الجيش وأدمج بعض الاهالي في جيوشه فجاوزه عددا كبيرا من المصريين دربهم وسلحهم وفقا لأصول فنون الحرب الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر في الانتصار في موقعة رفح في عام ٢١٧ ق . م . ولما كان جيش انطيوخوس يتكون من الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يعتبرون سادة فنون القتال في ذلك العصر ، فان النصر الذي أحرزه المصريون في هذه المعركة ينهض دليلا على أن الجندي المصري لا ينقصه الا التدريب والسلاح لاثبات كفايته في ميدان القتال ، أعاد الى المصريين الثقة بأنفسهم وحفزهم على القيام في وجه حكامهم الطغاة الذين أوسعوهم ظلما وارهاقا

ويتضح مما أسلفناه أنه كان للسياسة الخارجية التي اتبعها الملوك الثلاثة الأوائل هدفان رئيسيان وهما استقلال مصر استقلالا تاما سياسيا واقتصاديا ، والتمتع بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة وقد نجح أولئك البطالمة والى حد بعيد في تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم الخارجية ذات الأسس جبهتان رئيسيتان احداهما في الشمال والأخرى في الشرق ثم أصبحت لها جبهة ثالثة في الغرب . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فان مصر لم تحاول الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها اضطرت تدريجيا الى ترك تحقيق الهدف الثاني جانبا . ثم سقطت ثلاث قوى فيه وغاية وهو ... وعجز ... وأطنبوا في الناس ... تصميم أكابر في البطالمة الأواخر وفي رجالهم الذين اتسق بينهم مقاليد الحكم ، وراء الثورات المصرية العنيفة التي كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة المصريين منتصرين من معركة رفح ، وأخيرا الى الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس الخامس

فلا عجب أن نقل المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذي بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذي أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب اليها حتى ضعفت هيبتها وفقدت سلطانها وممتلكاتها في الخارج وتزعزع سلطانها في الداخل ، وأصبحت تنوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها الأمر الى فقدان نصيب وفير من استقلالها

زوال امبراطورية البطالمة

وقد أثار مخاوف مصر تكالب أنطيوخوس الثالث على ضم امبراطوريته والتوسيع رقعتها ، فعملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما لكن اضطرابات مصر الداخلية وضعف عزيمة حكامها ومستشاريهم شجعت أصحاب المطامع ، أعداءها على تحالفه ، فان فيليب الخامس ملك مقدونيا وعدو مصر اتفق مع عدوها اللدود

أنطيوخوس الثالث على اقتسام ممتلكاتها الخارجية. وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى قبرص وبرقة. وقد أفزعت روما مطامع فيليب وأنطيوخوس خصوصا وأنها كانت تخرج في عام ٢٠٢ ق. م. منتصرة من صراعها مع قرطجنة حتى اشتبكت مع فيليب ثم مع أنطيوخوس وهزمتهما، الأول في عام ١٩٧ والثاني في عام ١٨٩، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الاغريق وأملاك بطلميوس المصرية.

٤ — وقد مهدت الأحداث السابقة أمام روما لبسط سلطانها الفعلي على مصر وان احتفظت مصر باستقلالها الاسمي. ويرجع تغلغل النفوذ الروماني في مصر الى عاملين: أحدهما الأخطار الخارجية التي ستهدد بها مصر ولا سيما من ناحية السلوكيين فانه ما كادت تتخلص من مخاطر أنطيوخوس الثالث حتى أقدم أنطيوخوس الرابع على الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نفسها مرتين. ولم ينقذها من براثنه الا تدخل روما التي أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص اليها. والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصغر بطلميوس السابع وتحكيمهما روما فيصلا وحكما في هذا النزاع الذي سمحت له روما الى أقصى حد بتحقيق أغراضها. وبرغم هذه الأحداث بداخلية الخمسة وكانوس

العقود ... لتفشل دعاة مصر ثم من حوف سوريا ... قرار باستقلال الأقاليم التي كانت تقطع أوصال الامبراطورية السلوكية لاستعادة ... الجزء الجنوبي من ممتلكاتها السابقة، لكنها باءت بالفشل. ولم تلبث أن فقدت أيضا برقة، اذ أن بطلميوس الثامن ايورجيتيس الثاني كان قد ترك عنها لابنه غير الشرعي بطلميوس أبيون وهذا أورثها روما في عام ٩٦ ق. م.

٥ — صحوة الموت

وحين بدأ يتحقق في أسرة البطالمة ... في ظرف سني قلائل كما رأينا من تسجيل أسرة السلوكيين، شاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد اشراقا يخطف الأبصار قبل أن تغيب الى الأبد. وبات واضحا أن عرش مصر قد غدا جائزة موهوبة ستكون من نصيب ... قوة روما ... أغراضها حتى كادت أن تجني من وراء ذلك امبراطورية عالمية. فقد سحرت كليوبترة أولا يوليوس قيصر الى حد انه أصبح يؤكد انه عندما يتم نصبه ملكا على روما سيتخذ زوجة منها رسميا لتشاركه مجده الواسع. لكن ... لم يتيسر أن تجهز على آمال كليوبترة عندما أجهزوا على قيصر في عام ٤٤ ق. م.

ومع ذلك لم تلبث كليوبترة أن وقعت في شباك ماركوس أنطونيوس حتى أصبح الحاكم الفعلي في النصف الشرقي من

الامبراطورية الرومانية . وقد وضع
أنطونيوس نفسه وكل ما ملك تحت تصرف
كليوبترة ، فانه تزوجها ووهبها هي و
أولادها كل الولايات [illegible] في [illegible]
وما لم تقنع كليوبترة بالنصف الشرقي في
العالم الروماني فقد دفعت أنطونيوس لمحاربة
أوكتافيوس من أجل الفوز بالنصف الغربي
أيضا ويحكم العالم الروماني بأجمعه . وهكذا
بدا لكليوبترة بعد عشر سنين من تجديد
أحلامها بمقتل قيصر أنها أصبحت قاب
قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة
العالم . لكنه لم يكن مقدرا لها أن تحقق
أحلامها فقد بدد أوكتافيوس تلك الأحلام
بانتصاره في موقعة أكتيوم (عام ٣١ ق. م.)
ودخوله الاسكندرية في العام التالي وضمه
مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

ولابد من أن يستوقف النظر فيما قدمناه
أن البطالمة لم يوجهوا جهودهم الحربية من
عاصمتهم مصر كما [illegible] أولاد الفراعنة منذ أقدم
العصور . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة
للبطالمة الأوائل الذين [illegible] الخاص من
كل جانب حتى تثبت مركزهم . فكيف نفسر
ذلك بالنسبة لخلفائهم الفاتحين ملوك الأسرة
الأوائل ؟ لقد [illegible] البطالمة الأوائل
[illegible] امبراطورية
[illegible] البحر الأبيض المتوسط
[illegible] بذلك [illegible]
[illegible] مع خلفاء الاسكندر الأكبر

على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة
[illegible] وبين الاغريق
من الوشائج حتى [illegible] عمادهم على
الاغريق في [illegible] وتقديرهم
أن امبراطورية تتألف من أقاليم [illegible] الى
الحضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز
هذه الحضارة لتكون أبقى على الدهر وأجدى
عليهم [illegible] في تحقيق ما كانوا
يهدفون اليه من لعب الدور الأول في سياسة
البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا ريب في أن [illegible]
مكانتهم الدولية — [illegible] نعتبر فيه
الحضارة الاغريقية أرقى الحضارات طرا —
كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم في
ثوب راعي لواء الحضارة الاغريقية [illegible]
[illegible] هذه الحضارة [illegible]
دولتهم . [illegible] ذلك كان أمرا
ميسورا فيما يخص مصر فيبدو أنهم اعتقدوا
أنه كان ضربا من المحال فيما يخص كل
وادي النيل [illegible] البطالمة أن يكونوا [illegible]
[illegible] تحقيق وحدة وادي النيل كان
من الممكن [illegible] عطفا
عليهم باعتبارهم ملوكا اغريقا أخرجوا من [illegible]
تفكيرهم بناء دولة قومية وذلك لأن وحدة
الوادي [illegible] من احياء سيرة
الفراعنة العظام ومجد وادي النيل القديم [illegible]
[illegible] وادي النيل من جديد ،
[illegible]
الحضارة الاغريقية ولا شك أن [illegible]

وطنى عرش وادي النيل ومن ثم علق البطالمة بوجه عام كبيرًا لمحافظة على سلامة حدود مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مع جنوب الوادي والاهتمام بتجارة الجنوب والشرق.

وسنجد لذلك من كل ما مر بنا أنه إزاء الظروف التي اكتنفت البطالمة اتخذت سياستهم الخارجية وجهات جديدة صوب الشمال والشرق والغرب، فقد عرفوا أنه كان يمكنهم الاستغناء عن وحدة وادي النيل بامبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية التي أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب والشرق. لكن يبين أن التوفيق قد أخطأهم في هذا المضمار، ومن ناحية كلفهم بناء هذه الامبراطورية جهودًا مضنية وأموالًا طائلة ودفعهم إلى ممالأة الاغريق على حساب المصريين واستنزاف موارد البلاد وإثارة حقد الكثيرين عليهم.

ومن ناحية أخرى عندما اشتد ساعد منافسيهم وأخذت روما تتسع باطراد في شرق البحر المتوسط فقد البطالمة امبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا في داخل دولتهم عضدًا كافيًا حتى للاحتفاظ بملكهم من العدوان الخارجي. وهكذا استنفد البطالمة قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم

الفصل الثاني — إدارة الحكم

السلطة المركزية — مصادر الأعلام — السلطة المحلية — موارد الحكومة

أولا ـ السلطة المركزية

١ ـ الملك

منذ منح بطليموس الأول على برديكاس عبر بطالمة مصر خصصت آلت اليهم بحق الفتح ، لكي تكون سلطاتهم د ... وسيادتهم راسخة ... مستمدة ... سائدة بين رعاياهم ... نفسهم آلهة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يستند ... حق الفتح فحسب بل أيضا في حق ملوك الآلهي . فلا عجب ان كان بطليموس كان يعتبر صاحب مصر وسيدها رقيبا مطلقا . فقد كان على رأس الأداة الحكومية والمشرف القضاء والقائد الأعلى للجيش والأسطول ومصدر القوانين التي يخضع لها جميع سكان البلاد والدساتير التي تعيش في كنفها مدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبية التي تكون خارج تلك المدن .

٢ ـ الوزراء

ولما كان يتعذر على الملك أن يباشر بنفسه كل السلطات التي يتمتع بها فانه كان يعتمد على مساعدة عدد من الموظفين الكبار . وكان الملك يختار عدد مساعديه ... من بطانته ممن يكونون أفرادها على مضي الزمن بلاطا ينقسم طبقات يتميز كل منها عن الأخرى بألقاب معينة . ولما كان أول هم ... هو أن ... بعض هذه ... بالبركات ، فقد كان يرى ... أحمر ... مثلا شأنا وأوسعهم نفوذا في حد أنه كان يكاد يسيطر سيطرة تامة على كل نواحي الحياة العامة في البلاد وكان هذا الوزير الخطير يدعى ديويكيتس Dioiketes وهو لقب يحمل معنى « مدير الضيعة » وبذلك يحدد المعنى دلالة واضحة على أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة .

ويحمل تلك مقدار الخيرات من ضيعة كان يجب أن يولي اهتمامه لتصريف العدالة حتى يستتب الأمن وينصرف الناس في مزاولة أعمالهم ؛ ولذلك كان موظف كبير يدعى أرخيديكاستس Archidikastes ، ومعناه كبير القضاة ، يعتبر ساعده الثاني ...

وعلى عهد البطالمة الأول عني الملوك عناية كبيرة في الخصوص بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو ... ولذلك كان يوجد وزير للأشغال Architecton

كانت مهمته تحصيل نظم الري وصيانة وسائله ويرجح أنه كان يوجد كذلك وزير مختص يقوم بالإشراف على تحديد الحدود ووضع علامات الحدود ومنح الإقطاعات

ولما كان الملك مصدر جميع السلطات والمرجع الأول والأخير في تنفيذ القوانين سواء منها سلطات مركزية و محلية فقد كانت له شخصيا توجه إليه الشكاوى والالتماسات ومنه شخصيا كان يصدر كثير من الأوامر ، فقد كانت له سكرتيرية خاصة كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشئون مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر بالأوامر وفيما يتعلق أيضا بالتوقيع على الشكاوى المرفوعة إلى الملك

ويتبعه العام كان يصدر عن الملك وسكرتيريته ووزرائه يهيمن على شئون حكم وضعت له نظم دقيقة محكمة في بلاد عريقة متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من موظفين المدربين ويتضح من أعمال البطالمة اتجاههم في إنشاء هذه الإدارة الحكومية بدعة في بلد أجنبي من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . ولا شك في أن هذه الإدارة الحكومية نامت إلى حد ما [illegible] الماضي لكنها عدت في مجموعها أداة [illegible] وتتألف رؤساؤها ومعظم مصالحها مختلفة أنشأها المتحدرة من الغربيين لم [illegible] ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه الأعباء معقدة . وإذا كان البطالمة قد خالفوا هذه الإدارة الحكومية على عهد البطالمة الأوائل فإنها تستمد [illegible] في عصر البطالمة وأصبح كل همه [illegible] الأهالي [illegible] من أموالهم غير أن مرد ذلك ليس إلى عيوب في تصميم الإدارة الحكومية ذاتها وإنما إلى الظروف التي كانت تعمل فيها والأهداف التي وجهت إليها

ثانيا ـ المدن الإغريقية

وقد كانت في مصر البطلمية ثلاث مدن إغريقية ، وهي الإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس . وبالرغم من تمتع هذه المدن في مملكة يحكمها ملك مستبد مطلق السلطة ، ووسط مدن مصرية تخضع لهذا الملك وموظفيه خضوعا تاما وليس لها أي رأي في حكم نفسها ، فإن المدن الإغريقية وإن شاركت المدن المصرية في خضوعها للملك وذلك بوصفها [illegible] لأنه لم يكن سلطان الآلهة [illegible] وقد فقدت بعد ذلك سيادتها ، فإنها لم تفقد حق إدارة شئونها بنفسها ، أو بعبارة أخرى حق تمتعها باستقلال ذاتي يعفي مواطنيها من حكم الملك

وقد كان هذا الاستقلال الذاتي [illegible] يفرق بين [illegible] مدينة مصرية [illegible] المواطن الإغريقي عن المواطن المصري فقد كان الإغريقي يرى أنه يعيش في مدينة ويشترك في حكم الجماعة التي يعيش في ظلها أما المصري وغيره من الشرقيين فإنهم في نظره كانوا

لا يعيشون الا في قرى لأنه مهما كان اتساع مدنهم ومهما بلغ عدد سكانها فهي لم تكن مدنا الاغريقية فالمدن لم تتمتع بأي نوع من أنواع الاستقلال بل كانت تخضع لأي حاكم موفد من قبل السلطة المركزية . وإذا كان انشاء مدن الاغريقية في مصر لم يؤثر في أي تأثير في نظم المدن المصرية فان نظم هذه المدن الاغريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها الى جانب المدن المصرية . وإذا قلنا ان مدن مصر الاغريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد على ذلك بأن ذلك لم يكن خاصة تنفرد بها مدن مصر الاغريقية فقد كان أيضا شأن كافة المدن الاغريقية التي قامت في الممالك التي انشئت على أنقاض الامبراطورية المقدونية

وقد كان انشاء المدن الاغريقية في مصر أمر ضروريا ، لأن الاغريق يؤمنون بالفكرة القائلة بأن المدينة هي البيئة الأساسية لحياتهم العامة والنظام الطبيعي الوحيد الذي يستطيع أن يعيش في كنفه رجال الأحرار ، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأي والعمل وتبيح لهم المشاركة في ادارة دفة شئونها وتوفر لهم من أسباب الحياة ما هو خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . فلا عجب ان كان الاغريق ينشئون مدينة لأنفسهم حيثما وجدوا في مكان والعدد مستقر [illegible]

٢ ــ الاسكندرية

وهي أول مدينة نعرف عن يقين ان الاسكندر قد أنشأها في خلال حملته . ولعل الاسكندر كان يرمي من وراء انشاء الاسكندرية ثلاثة أهداف : أحدها انشاء مدينة اغريقية تكون مصدرا لاشعاع الحضارة الاغريقية بين ربوع مصر ، وثانيها أن تخلف هذه المدينة صور في العالم التجاري ولا سيما ان مصر برغم ازدياد علاقاتها مع العالم الاغريقي ازديادا مطردا لم يكن لها على شواطيء البحر الابيض المتوسط ميناء جدير بها ، وثالثها اقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجه وشرق البحر الأبيض المتوسط

وقد جعل بطلميوس الأول مقره في منف في أول الأمر ، بعد انتصاره في عام ٣١٢ على ديمتريوس ، الذي قدرته على الدفاع عن شواطيء مصر الشمالية ، وعندئذ نقل مقره الى الاسكندرية التي أصبحت منذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر . وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينة اغريقية في العالم تفوق في اتساعها أكبر المدن الاغريقية القديمة . وغدت كذلك في مقدمة مواضع الحضارة الاغريقية وباتت محتفظة بمكانة الصدارة طوال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد الى حد أن حضارة هذين القرنين عرفت باسم الحضارة الاسكندرية . وإذا كان ما كشفت الحفريات عنه لا يمكن من تصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة في عصرها الزاهر ، لأن أكثر معالم مدينة

فالمدينة لا تزال مغمورة تحت مياه البحر. المدينة الحديثة فلا نستطيع أن ننسى ما كتبه شعراء القرن الثالث منهم كشعر ثيوكريتوس يعظم مدينته في العالم حيث تتوافر كل نعم الحياة ومتعتها. وحسبنا أن نستشهد من أرجوزة هيروداس Herodas على لسان امرأة مصرية تتحدث الى شابة رحل عنها زوجها الى الاسكندرية وقد مضت عشرة شهور منذ سافر ماندريس Mandris الى مصر لكنه لم يرسل اليها كلمة واحدة ولا شك في أنه قد نسيك وانتهل من معين سرور آخر مصر [يعني الاسكندرية] هناك حيث يوجد بيت الالهة (أفروديتي) وكل شيء يمكن وجوده في أي مكان آخر ثراء وملاعب ومجد ورفاهية وعظمة ومناظر وفلاسفة وذهب وشباب ومعبد كريم ... ونبيذ وكل الاشياء الطيبة التي يمكن أن تتوق اليها النفس ، ونساء ... في عددهن ويضارعن في جمالهن الالهات اللاتي احتكمن الى باريس .

ويبدو أن الاسكندر قد اختار المكان الذي شيدت فيه الاسكندرية بعيدا عن مصب فرع النيل الكانوبي ... ولسهولة ... ولقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه . فقد كانت الجزيرة ... تحمي ... ساحله ... كما أنه ... جسر من الجزيرة

الى الشاطئ فتصبح للمدينة مرفآن على البحر ... الميناء الكبير وميناء العربي ... ... الريح

وقد وضع تخطيط الاسكندرية المهندس الرودسي دينوكراتس وفقا لأحدث قواعد فن تخطيط المدن . وكانت المدينة مستطيلة الشكل يحدها جانباها الطويلان في محاذاة البحر من ناحية وبحيرة مريوط من ناحية أخرى . وكانت تشق المدينة شوارع تتقاطع عموديا مع بعضها بعضا ... أهم الشارعين الرئيسيين فيها ، وكان أحدهما يمتد من باب كانوب ... في الشرق الى باب ... في الغرب . أما الآخر فكان يجري من باب ... بحيرة مريوط في الجنوب الشرقي الى باب القمر شرقي جسر الهبتاستاديون الذي ... جزيرة فاروس بالبر

وقد كانت المدينة تتألف من خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من حروف الهجاء الاغريقية الخمسة الأولى . وكان أهم هذه الأحياء جميعا هو حي القصور الملكية وكان يشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ويطل على الميناء الكبير ويمتد حتى شارع كانوب ويحتوي أهم معاهد العاصمة ، فقد كانت توجد فيه القصور الملكية ودار العلم والمكتبة و... و... ومدافن الاسكندر الأكبر ... أما ...

سباق الخيل وساحة الألعاب فاتصف ثانيًا بجمال في أطرافه جديد، وبهما في الناحية الشرقية وناحيتها في الناحية الجنوبية الغربية، في حي «كوم الشقافة» أهم معبد السرابيوم.

وفي مواجهة حي القصور الملكية وعلى صخرة شرقي جزيرة فاروس شيدت منارة الاسكندرية المشهورة التي كانت احدى عجائب العالم القديم. ورغم اندثار معالم هذا البناء الشامخ منذ عدة قرون فان بعض نتائج الأبحاث الحديثة تستطيع أن تكون فكرة تكاد أن تكون تامة عن هذه المنارة. ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة المنارة جسر مائل يرتفع رويدًا رويدًا ويقوم على ستة عشر قوسًا ويبلغ طوله ٦٨ مترًا تقريبًا وشيد حول القسم الأول من المنارة لحمايته من طغيان البحر سور ضخم يبدو انه كان يحيط بكل جوانبه من الخارج الفريد لا يشرف عليه. وفي الوسط داخل هذا السور أقيمت المنارة نفسها، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعلوها المصباح. وكان القسم الأول رباعي والثاني ثماني والثالث اسطواني الشكل. أما المصباح فانه كان يتكون من ثمانية أعمدة تحمل قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه بما فيه أمتار تقريبًا، ويرجح أنه كان تمثال بوسيدون اله البحار. ولقد بنيت المنارة من الحجر وزخرفت بزخارف مصنوعة من المرمر والبرونز.

واذا كان كليومنيس النقراطيسي هو أول من بدأ في تشييد الاسكندرية فانه كان لبطلميوس الأول والثاني أكبر نصيب في ذلك حتى ليبدو أنه في عهد بطلميوس الثاني كانت المدينة قد استكملت أهم مظاهرها التي اشتهرت بها في عصر البطالمة والرومان. ومع ذلك فان كل بطلمة تقريبًا قد أسهموا في تجميل الاسكندرية.

ولم يتألف سكان الاسكندرية منذ فجر تاريخها من الاغريق والمقدونيين فقط، الا أن هذه المدينة بما توافر فيها من أسباب الكسب والحياة البهيجة الرغدة بوصفها عاصمة البطالمة والثغر المهم ومركز صناعي كبير جذبت اليها الناس من كل فج وغدا سكانها مزيجًا غريبًا عجيبًا من مختلف الأمم مما جعل استرابون يصفها بأنها «خزان عام». ولئن كان من العسير تتبع ما مر بسكان الاسكندرية من تطورات فانه يمكن الجزم على الأقل بالنسبة للاغريق أنهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من الاستقلال الذاتي. ولعل هذا هو ما حدا بالفيلسوف فيلون الى القول بأن الاسكندرية «عدة مدن داخل مدينة واحدة». والأمر الآخر أنهم كانوا ينقسمون دائمًا طبقات تأتي في مقدمتها طبقة المواطنين، وكانت تتألف من أفراد أقدم الأسر الاغريقية وأعظمها شأنًا، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة. ومثل ما كانت الحال في أكثر المدن الاغريقية كان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات

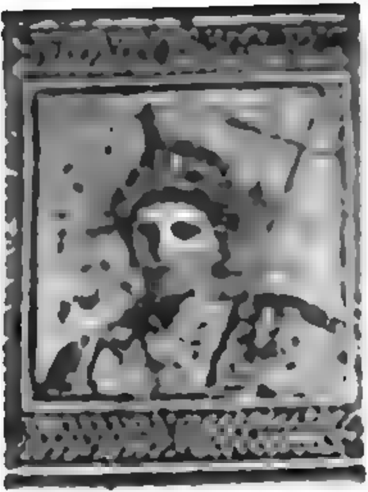

والرأي السائد اليوم أنه في عهد البطالمة الأوائل كان بها للمواطنين مجلس للشورى Boule وجمعية شعبية، لكن يبدو أنه في عهد خلفاء البطالمة الأوائل ألغيت هاتان المؤسستان اللتان كانتا تعتبران من أهم مظاهر الحياة العامة في المدن الإغريقية. ولما كانت الإسكندرية تتمتع باستقلالها الداخلي وكان الاستقلال السياسي يستتبع حتماً وجود استقلال قضائي، فإنه كانت للإسكندرية محاكم مستقلة. وبوصف الإسكندرية مدينة مستقلة كان بها حكامها المحليون الذين ينتخبهم أفراد طبقة المواطنين.

٢ ـ نقراطيس

أما نقراطيس، تلك المدينة الإغريقية القديمة التي تأسست في عهد بسمتيك الأول والتي كانت شديدة الشبه في مظهرها الخارجي بأي بلد مصري، فقد كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة. لكن نقراطيس مثل الإسكندرية وبطوليميس كانت تختلف عن المدن المصرية اختلافاً بيناً من الناحية السياسية، إذ أن مدن مصر الإغريقية لم تخضع للسلطة المحلية، وإن لكل مدينة منها كيانها المستقل ودستورها الذي يكفل لمواطنيها حقوقاً سياسية تمكنهم من الاشتراك في حكم مدينتهم والحد من استبداد السلطة المركزية. ويسير الرأي إلى أن نقراطيس قد احتفظت في عصر البطالمة بنظمها بوصفها مدينة لم تعد حرة، وتشير الأبحاث إلى أن دستورها كان يشبه دستور مدينة Massilia ونظام حكمها أرستقراطي. وقد كان منذ فقدت أهمية نقراطيس التجارية بعد تأسيس الإسكندرية، لكن معابدها الأثرية تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة في عصر البطالمة الذي احتفظت فيه كذلك بالمذاهب الإغريقية وأنجبت عدداً من أبرز رجال الأدب الإغريقي.

٣ ـ بطوليميس

أما بطوليميس التي أنشأها بطليموس الأول غربي النيل في أقاصي الصعيد (المنشأة) بالقرب من أخميم، لتكون معهداً للحضارة الإغريقية في الوجه القبلي ومركز مقاومة نفوذ العاصمة المصرية القديمة طيبة، فقد بلغت من الرقي حداً جعله يتصور الجغرافيون أنها كانت شبيهة بنقراطيس والإسكندرية، وإن كان الأرجح أن مؤسسي بطليميس الأول اتخذوا من الإسكندرية نموذجاً يحتذونه في تشييد بطوليميس.

ولا تدع الوثائق سبيلاً إلى الشك في أن بطوليميس كانت تتمتع بكل النظم الدستورية المألوفة في المدن الإغريقية، فقد كان بها مجلس للشورى وجمعية شعبية ومحاكم مستقلة وحكام ينتخبهم مواطنوها. وكان مواطنوها يتمتعون بمزايا وأعفاء وحقوق مثل التي كانوا يتمتعون بها في بلادهم الأصلية من معابد ومعاهد ومسارح

حذا البطالمة حذو الفراعنة في تقسيم البلاد إلى مديريات ، فقسموا الدلتا ووادي النيل — فيما عدا الواحات التي خضعت لسلطان الاسكندرية — إلى مديريات ، كان كل منها يؤلف وحدة إدارية مستقلة عن الأخرى وأحدث البطالمة من التعديلات في التفاصيل ما يضمن لهم حسن تطبيق سياستهم في البلاد والسيطرة على البلاد سيطرة تامة . ومن أمثلة ذلك أنه حتى فتح المقدوني كان يحكم كل مديرية مدير Nomarch لكن سلطته لم تلبث أن اقتصرت ... كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد Strategos أجنبي ومدير ... وكان من اختصاص القائد الإشراف على شئون المنطقة العسكرية ، ... فقد أصبح مدير ... للقائد ... لم يعد ... في القرن الثاني قبل الميلاد ... في الادارة

وكانت كل مديرية تنقسم إلى عدد متفاوت من الأقاليم topoi ، وكما كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل اقليم عاصمة حيث تتركز ادارته ، وكان كل اقليم ينقسم إلى عدد من القرى Komai ، وكان لكل منها حاكمها الادارى epistates ومسئول الادارة المالية ... وكان يسيطر في ادارة ... القرية جماعة من شيوخها ... خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ... شيوخ المزارعين أو شيوخ مزارعي الملك

وتجدر بالملاحظة أولاً أن مديرية الفيوم وكان تلك سكانها من الاغريق ... خضعها السلطة ... في عهد ... ، اذ كانت تنقسم ثلاثة أقسام merides على رأس كل قسم منها ... والى ... منطقة ... الشمال ... إلى توبارخيات ، والتوبارخيات إلى أقاليم والأقاليم إلى قرى . وثانياً أن المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمديرية هرموبوليس حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة ، وأنه منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت تحت سلطة حاكم عام ، وذلك فضلاً عن تقسيمها إلى عدة مديريات أسندت ادارتها إلى عدد من القواد كان لكل منهم نائب على رأس كل مديرية تقع في دائرة اختصاصه وثالثاً ، أن بطلميوس الخامس ذهب إلى حد اقامة حاكم عام على كل أقاليم مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب ، ... الادارى الذى انفردت به منطقة طيبة ويرجع فيه القيود والضوابط إلى الثورات القومية التي اندلع لهيبها على عهد البطالمة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم معاقلها

رابعاً — طوائف الشعب

١ — الجنس

عرفنا أن مصر كانت جزءاً من امبراطورية الاسكندر ، ... بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ... تلك

الأمر أطول به من حكومته ... بطليموس الأول كان سبيلا الى استقلال مصر وسيادتها ... ضرورة تكوين جيش ... من الجنود من ... مملكته ... حدودها ...

وقد اتخذ بطليموس من ... كان الاسكندر قد تركها في مصر حامية ... قوات أكثر من ذلك وأعظم. ولذلك لا نعرف كيفية تكوين الجيش البطلمي فانه نعرف على الأقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتألف من ثلاث عناصر رئيسية وهي الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية. وتشير القرائن الى أن أكثر أفراد الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجه. ومع ذلك فان هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب أنها كانت في الأصل كذلك. وبسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدوني، ولا سيما أن الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك بطليموس. وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان وفرق المشاة، وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين أولاهما أرفع مكانة من الثانية وقد كانت فرق المرتبة الأولى تتميز بالأرقام، أما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تتميز بحسب جنسية أفرادها. وكانت فرق المشاة النظامية تتميز بالأرقام وتعتبر أعلى مرتبة من فرق الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش في ... معركة رفح في عام ٢١٧ ق. م.

وكانت الفرق ... في ... وحاجاته ... أما الفرق الأخرى فكانت تلك الفرق القومية التي كانت تحتفظ في الجيش الذي تنضم اليه بملابسها وأسلحتها القومية وتتميز في ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذي اشتهرت به وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا باسم جنسيتها وأحيانا بالاسمين معا. أما الفئة الثانية فانها كانت تتكون من أوساط الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة اما من بين مواطنيهم واما من أسواق الجنود المعروفة في العالم الاغريقي. وكان يمكن استخدام الجنود ... مشاة أو فرسانا. واذا كان الجنود المرتزقة لا يعاقدون في الأصل الا على القيام بحملة ... فيما يبدو أصبح ... الجنود المرتزقة يكونون فرقا دائمة في خدمة البطالمة

وحين وقعت ... على مصر ... كانت لا تزال ... من ... المصريين ... حتى كانت تحت امرة ... أساطيل مؤلفة من ... جنود العصر ... المقدونيين والاغريق الذين ... الاسكندر وخلفائه

سبوجات في العصر الحجري بالمحسوسات المفترسة عثر عليها بين اطلال منف ، حيث رهبته ، حيث وجدت نماذج عديدة كثيرة.

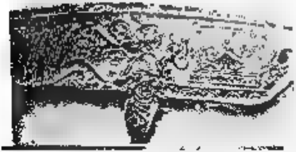

سرير من الخشب التي توجد الى الآن في متحف العلم تحمله تفاصيل الزخرفة

يضعوهم على قدم المساواة مع المصريين كانوا من ... فماذا فعل البطالمة ؟ لا شك في أن البطالمة الثلاثة الأوائل عمدوا إلى أقصى حد في تكوين جيشهم على المقدونيين والإغريق لثقتهم في كفاءتهم ، ولخوفهم من ألا يخلص المصريون للبطالمة ، ورغبتهم في عدم استثارة همة المصريين وبعث روحهم القومية ، فالجيش في كل دولة وفي كل عصر قلب الأمة النابض ، لكن لابد من أن أوائل البطالمة كانوا يخشون أيضا إغفال أمر الجنود المصريين كلية ، وذلك لكيلا يشعر أولئك الجنود بروح التذمر في بلادهم . فكيف حل البطالمة الأوائل هذه المشكلة ؟ يبدو أن البطالمة الثلاثة الأوائل لم يستخدموا المصريين مقاتلة لكنهم كانوا لا يستخدمونهم في القتال بل يعهدون إلى بعضهم بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية ويسلحون بعضهم الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحة مصرية الصنع لاستخدامها للطوارئ في حالة الضرورة القصوى ، إلى أن تهددت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة في وقت نضب فيه معين الرجال في بلاد الإغريق ، ونقص فيه عدد الجنود الأجانب الذين كان البطالمة قد أنزلوهم في مصر ، فاضطر بطلميوس الرابع ، لمواجهة هذه الأزمة ، إلى تدريب المصريين وتسليحهم مثل الإغريق والمقدونيين وتكوين قلب جيش منهم . ويحدثنا بوليبيوس بأن ما فعله بطلميوس الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر لكنه كان بدعة خطيرة بالنسبة للمستقبل . ووصف عمل بطلميوس الرابع بأنه بدعة يدل على أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد من البطالمة ، والخطر الكامن في هذه البدعة هو أن انتصار المصريين في معركة رفح على عدو جيش أنطيوخوس المؤلف من الإغريق والمقدونيين أشعل روح الوطنية الكامنة في صدور المصريين وأعاد إليهم الثقة بأنفسهم فانتصروا ثائرين على البطالمة .

وإذا كان المصريون قد نجحوا في صفوف الجيش على عهد بطلميوس الرابع فإنهم لم يؤلفوا فرقا مستقلة بهم ولم يكونوا جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو . ولابد من أن ثورات المصريين على البطالمة الأواخر قد جعلت هؤلاء البطالمة لا يسيرون على بدعة بطلميوس الرابع ، وذلك لأنهم لم يعتمدوا ثانية على المصريين في تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على إخراج المصريين من الجيش .

٢ — الأسطول

إذ كان البطالمة الأوائل قد بنوا إمبراطورية بحرية واسعة وأحرزوا انتصارات بحرية كبيرة ، فلا سبيل إلى الشك في أنه كان لهم أسطول بحري قوي ، لكن تنقصنا بيانات معلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول ولا عن قوته في العهود المختلفة .

وعلى كل حال يجب أن نفرق بين عنصرين من رجال الأسطول وهما عنصر الملاحين وعنصر المحاربين . وحيث أن بحارة الأساطيل القديمة كانوا يتألفون من أدنى طبقات السكان ، وأن البطالمة وضعوا المصريين في أسفل الدرك ، فلابد من أن بحارة الأسطول البطلمي كانوا يتألفون من المصريين وحدهم ، وهذا ما تؤكده بردية يونانية . وإذا كان البطالمة الأوائل قد حرصوا على جعل عسكرهم من المقدونيين والإغريق في تكوين جيوشهم البرية فلابد من أنهم فعلوا الشيء نفسه في تكوين

دواتهم الحربية، إذ لا نعلن إلا نصيب أولئك البطالمة على المصريين في تكوين هو نهب المرتزقة بين يعتمدون عليهم في تكوين دواتهم الحربية. وعندما أصبح البطالمة مصريين في مطلب الجيش منذ عهد بطلميوس الرابع لا نجد أنهم عملوا ذلك يجب في الأسطول، ومع ذلك هات حيث أنه بعد كان الجاب في الجيش، كان أكثر جنود البطالمة المصريين وأرفعهم مقاما، حتى بعد عهد بطلميوس الرابع، من الإغريق ومن على شاكلتهم

٣ ـ الشرطة

وكان رجال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالا وثيقا، إذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة محاربون مصريون، ومنذ القرن الثاني كان رجال الشرطة يساهمون في تكوين القوات المحاربة

ويمكن تقسيم رجال الشرطة بوجه عام ثلاث فئات رئيسية، وهي أولا، أولئك الذين كانت مهمتهم ضمان الأمن أو الإدارة لكبار الموظفين وتنفيذ أوامرهم إذا اقتضى الأمر، وثانيا رجال الشرطة بأدق معاني الكلمة، وثالثا فئة تقوم أفرادها بمهام مختلفة بحسب تخصصها

ويبدو أنه في القرن الثاني قلل تصاعد ورفع رجال الشرطة مقاما من الإغريق، ثم أصبح معظمهم تدريجا للمصريين. أما رجال الشرطة العاديون فإنهم كانوا في الغالب من مصريين منذ القرن الثالث، وكان رجال الشرطة المصريون يمنحون اقطاعات متواضعة منذ بداية الأمر، أما غير المصريين فإنهم كانوا يمنحون مرتبات، لكن يبدو أنه بمضي زمن أخذ يتسع نظام منح الاقطاعات لرجال الشرطة حتى شملهم جميعا، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين

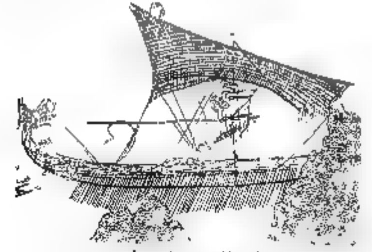

هذه صورة إحدى سفن بلاد مخطط منحوت في جدار مقبرة في بيروس في ديلوس والصورة تمثل سفينة حربية إغريقية مما كانت تمخر عباب بحر إيجه في العصر الهيلينستي

لقد عرفنا كيف كانت سياسة البطالمة ترمي لتدعيم سيادة مصر تحت الفتح ، لكي تكون سلطتهم دائمة وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الملوك الإلهي ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعاياهم ، وبذلك كان التسامح الديني أبرز ما تتصف به سياسة البطالمة الدينية بوجه عام

أولا ـ البطالمة والمصريون

١ ـ اتخاذ صفات الفراعنة

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق على أهلها ، فقد كان من الفطنة والسياسة رأى أن يتخذ البطالمة صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكانتهم بسلطة وسلطانهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويصبح مركزهم بصفة شرعية في نظرهم ، ولا ريب أن الإسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعونا في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التي درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن . وتشير القرائن إلى أن البطالمة اتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج ، فعلى الوثائق الهيروغليفية والديموطيقية منذ عهد بطلميوس الأول قد حمل بعض ألقاب الفراعنة التقليدية ، أما بطلميوس الثاني والثالث فقد حملا خمسة الألقاب جميعها . ويستخلص من القرار الذي أصدره الكهنة في منف عقب موقعة رفح أن بطلميوس الرابع قد ذهب إلى مدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة ألقاب الفراعنة التقليدية بل إنه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يقتفي سائر البطالمة المتأخرين أثر بطلميوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضعافا ويعتمدون على موالاة المصريين .

٢ ـ احترام الديانة المصرية

ولازم رغبة البطالمة الملحة في أن يظهروا أمام المصريين في ثوب الفراعنة الحقيقيين المتمسكين بالديانة المصرية عن رغبة ، واستمر المصريون يجرون عبادة آلهتهم القديمة . ولكي يثبتوا إجلالهم واحترامهم للديانة المصرية جروا على عادة الفراعنة في تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئين إليها ، وإنشاء المعابد والهياكل أو إصلاحها وزخرفتها ،

ووضع ألقابهم على عروشهم وكذلك على المعبود والأحجار الكريمة في شكل آلهة مصرية.

أن نبوءة مثل نبوءة « صانع الفخار » التي تتحدث عن تحرير مصر من دخلاء الأجانب وإعادة العاصمة إلى منف وإقامة فرعون وطني لتعبر تعبيرا بليغا عما كان يجيش في صدور المصريين من الآلام والآمال والشعور بـ حقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد. وإن دلت هذه النبوءة على شيء فهي تدل على أنه مهما أنفق البطالمة من جهد في الظهور أمام المصريين في ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فإن قلوب المصريين لم تطمئن إليهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين و[illegible] في الإسكندرية عاصمة البلاد. فلا عجب أن كان المصريون يتوقون إلى فرعون وطني يقيم في عاصمته الوطنية بغية أن يحرر الوطن من مغتصبيه الأجانب.

٣ ـ موقف البطالمة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ عهد بعيد مركزا رفيعا وأهمية خطيرة في حياة البلاد، يحسب الملوك حسابهم ويعتبرهم الأهالي مرشديهم وزعماءهم الروحيين، يستمعون إلى نصحهم ويعتمدون على آرائهم. ولذلك حرص البطالمة على أن يجعلوا منهم أداة لنشر نفوذهم وتمكينه في البلاد، وكذلك عاملوهم حتى أظهروا إخلاصهم وعرفانهم للدولة المصرية، فنشأ من النظام ما يكفل تعيين أفراد رجال الدين وحصر عددهم. وقد كان الجانب المادي من أهم الوسائل التي توسل بها البطالمة للحصول على طاعة الكهنة، فإنهم أخضعوا إدارة أراضي المعابد إلى الحكومة، واستولوا على دخل الضريبة التي كانت المعابد تجبيها من أراضي الكروم والفاكهة والحبوب، وألغوا احتكار المعابد لصناعتي الزيت ونسج الكتان لكي يقللوا من قوة الكهنة ويسيطروا عليهم بأيديهم أو يكفلوا لهم موقف الكهنة منهم.

ويبين أن تضييق الخناق على الكهنة قد زج بهم في صفوف الثوار مما حدا بالبطالمة الأواخر إلى محاولة كسب ود الكهنة بشتى الوسائل. ومع ذلك يبدو من تجديد المنح للكهنة في عهود مختلفة بل في العهد الواحد نفسه أن الكهنة لم ينجحوا في استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التي كان البطالمة الأوائل قد سلبوهم إياها، وذلك لأنه كلما ضعفت السلطة المركزية وضعفت الأداة الحكومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها.

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا وأشياعا إزاء سياسة البطالمة نحوهم، إذ حين كانت العلاقات متوترة بين البطالمة وكهنة آمون في طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالمة ومناصري أولئك الكهنة ولا سيما كهنة منف

ثانياً ـ البطالمة والاغريق

١ ـ عبادة البطالمة عبادة اغريقية عامة

وكما عمل البطالمة لكسب ولاء المصريين ودعمهم عملوا أيضاً لكسب ولاء الاغريق ودعمهم ، وقد كان الاغريق يدينون لحكامهم بالامتيازات التي منحوهم ، لكن لما كانت غالبيتهم رجالاً أحراراً نشأوا في جمهوريات اعتادوا الاشتراك في حكمها ، وكانت مصر في عهد البطالمة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، فقد لجأ البطالمة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة للملوك عبادة اغريقية رسمية عامة في الدولة حتى لا يرى الاغريق غضاضة في تمتع أولئك الملوك بالسلطة المطلقة .

وبرغم ما يكتنف نشأة هذه العبادة من الغموض ، فانه يستطيع أن نميز أربع خطوات . أما الخطوة الاولى فقد خطاها بطلميوس الاول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر ديناً اغريقياً رسمياً عاماً في مصر ، له كاهن مقدوني أو اغريقي يتمتع بمكانة رفيعة ويعينه الملك كل عام وتؤرخ باسمه كافة الوثائق في طول البلاد وعرضها ، سواء ما كان منها مكتوباً باللغة الاغريقية أم المصرية . ولما كان بطلميوس خليفة الاسكندر في حكم مصر ، فقد أصبحت سلطته مستمدة من الاسكندر المستمدة من مصدر الهي ، وبذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الكاملة في مملكته . وفضلا عن ذلك فان بطلميوس قد وضع على هذا النحو سنة تأليه حاكم مصر بعد وفاته ، وسنرى في الآثار العديدة التي ترتبت على اتباع هذه السنة .

ويشير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثاني هو الذي خطا الخطوة الثانية في هذه العبادة . وقد كان أول ما عمله هذا الملك أنه اتبع سنة أبيه ، فرفعه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقد كان الاغريق يألفون تأليه موتاهم الذين أسدوا مجداً جماً ، وبطلميوس الأول لم يؤسس مدينة فحسب بل مملكة عظيمة . ويبدو أنه منذ موت زوجته برنيكي أم بطلميوس الثاني شركها في العبادة مع أبيه الملك .

وقد مهد تأليه بطلميوس الأول السبيل لتأليه سلالته ، لأن تأليه رأس أسرة البطالمة أكسب سلالته صفة غير عادية سمت بهم فوق سائر البشر ، فلم يكن عسيراً عليهم بعد ذلك أن يرفعوا أنفسهم الى صف مؤسسي هذه الأسرة . فكان على حين أن بطلميوس الاول وزوجته رفعا الى مرتبة الألوهية بعد وفاتهما رفع سلالتهما من ملوك مصر في هذه المرتبة في حياتهم واحتفظوا بها بعد مماتهم . ولم يعد اليوم سبيل الى الشك في أن بطلميوس الثاني رفع نفسه وزوجته الى مصاف الآلهة في أثناء حياتهما وعبدا الاثنان معاً باسم «الالهين الأخوين» او ادلفوي Adelphoi ، وأقيم لهما معبد خاص في الاسكندرية ، وقرنت عبادتهما بعبادة الاسكندر

الرسمية لعبادة فكان يشرف على طقوس المادين كاهن واحد أصبح لقبه عندئذ "كاهن الاسكندر والالهين الأخوين" ، إلى حين أن عبادة بطلميوس الأب وزوجته لم تكن قد قرنت بعد مع عبادة الاسكندر .

وعندما خطا بطلميوس الثالث الخطوة التالية فإنه سمح باستمرار قرن الالهين الأخوين في العبادة مع الاسكندر بعد وفاتهما ، وبذلك يبدو أنه أغفل حقوق أبيه ورفع نفسه وزوجته في حياتهما إلى مصاف الآلهة وقرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والاسكندر . فكانت هذه هي المرة الأولى التي عرفت فيها عبادة الملك الحاكم وزوجته بعبادة سلفيهما وعبادة الاسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاعدة أن كل بطلميوس وزوجته يصبحان بمجرد توليهما العرش إلهين ويخلع عليهما لقب يميزهما عن غيرهما من الملوك المؤلهين وتقرن عبادتهما بعبادة سلالتهما وعبادة الاسكندر ، فتنساب على مر السنين وتعاقب الملوك والملكات البطالمة سلسلة جديدة من الآلهة . وعندما لاحظ بطلميوس الرابع أن سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون مع الاسكندر الأكبر في العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطلميوس الثاني وزوجته ، على حين أنه كان من حق مؤسس الأسرة وزوجته أن يكونا في المقدمة ، خطا الخطوة الأخيرة في تحويل هذه العبادة إلى عبادة أسرية بوضعه بطلميوس الأول وزوجته على رأس سلسلة البطالمة المؤلهين الذين تقرن أسماؤهم في العبادة مع الاسكندر .

٢ ـ احترام الديانة الاغريقية

وقد كان البطالمة مثل غيرهم من مقدونيين عصرهم في كل نواحي حياتهم وفي تقاليدهم ودياناتهم وإلى حد كبير في أسمائهم بل في اعتبار أنفسهم من سلالة الآلهة الاغريقية . وبما أن ثقافتهم كانت اغريقية وكانوا يعتبرون أنفسهم اغريقاً وديانتهم الاغريقية كان طبيعياً أن يظهروا احترامهم للديانة الاغريقية ويتخذوا منها ديانة رسمية في دولتهم .

وفضلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسي له وزن كبير في نظر البطالمة ، فقد كانوا في حاجة إلى رجال ورءوس أموال من بلاد الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الحربية والاقتصادية . ولذلك كان يعنيهم كسب عطف الاغريق ، وأن يظهروا أمامهم في ثوب حماة الحضارة الاغريقية ، وأن يثبتوا عملا جميع ميلهم للديانة الاغريقية . فلم يكتف البطالمة بالاعتراف بالديانة الاغريقية ديانة رسمية في مصر ، بل أسبغوا عليها شتى مظاهر العطف ، فشيدوا معابد لآلهتها ، وخصصوا الضياع لمعابدها ، وأباحوا للاغريق حرية إقامة شعائرها ، وأقاموا حفلات دينية سنوية فيها من أكبر الحفلات في بلاد الاغريق ثم أنشأوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الكبرى أو حفلات الألعاب الاغريقية ، كان يجتمع فيها الشعب ، ويفد زوار من كافة أنحاء العالم الاغريقي . وحسبنا أن نذكر البطلمية وكما كان يحدث في [illegible]

الاسكندرية في أثناء اقامة هذه الحفلات الصيد ، ومختلف الالعاب الاغريقية . ومن الآنية الفخارية التي عثر عليها في الاسكندرية وكانت تضم رماد جثث بعض مبعوثي الرسميين الى هذه الحفلات ممن توفوا في الاسكندرية في أثناء أداء مهمتهم الرسمية

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات البطولميا Ptolemaea التي أنشأها بطلميوس الثاني تخليداً لذكرى أبيه الملك ويحسن أن هذه الحفلات التي كانت مثل الحفلات الأوليمبية تقام كل أربع سنوات ، قد أقيمت لأول مرة في عام ٢٧٩ ق. م بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بطلميوس الأول . ويبدو أن المهرجان الذي وصفه كاليكسينوس Callixenos كان مناسبة احياء هذا الحفل أول مرة

وقد بدأ كاليكسينوس وصفه الرائع بوصف قاعة الولائم وكانت على شكل سرادق مستطيل يستند أربعة من أعمدته المصنوعة من الخشب على طراز مصري في شكل النخيل ولم يدخر الملك جهداً ولا مالاً في تجميل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علقت حولها ستائر من نسيج وجلود حيوانات مفترسة ووضعت على جانبيها مائة أريكة موشاة بالذهب وفرشت أرضها بالطنافس الفارسية ونثرت بالورود والأزهار وزين السرادق بأبدع ما أخرجه المبرزون من المثالين والمصورين وأجمل ما ابتكره أمهر صناع من الأقمشة المزركشة بالذهب والدروع الموشاة بالذهب والفضة ووضعت في مكان بارز من السرادق أريكة ذهب عليها آنية كبيرة من الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة

ويحدث كاليكسينوس بأن المهرجان أقيم في مضمار السباق ودام من الصباح حتى

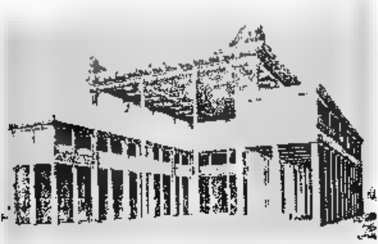

جناح ولائم بطلميوس الثاني على نحو ما وصفه كاليكسينوس (بتصور أحد المحدثين)

الليل ، وبذلك كان تتقدمه ذلك القسم من مهرجان الذي يمثل نجم الصباح ، ويأتي في مؤخرة القسم الذي يمثل نجم المساء . وقد تبع نجم الصباح القسم الخاص ببطليموس الأول وزوجته المؤلهين . ثم تلا ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لإله واحد أو أكثر ، وكان أحدها للإله ديونيسوس ، وآخر للإله الإسكندر الأكبر وبطليموس الأول ، وآخر للإله زيوس وغيره من الآلهة ، وكان يصور كل قسم مجموعة من التماثيل والأشخاص تحملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعداد غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الأسطورية ، ويرتدى بعضهم الآخر أبهى الثياب ويحملون أكاليل الورد أو آنية من الذهب أو الفضة تمتلئ بالنبيذ أو المأكولات أو البخور أو العطور.

وقد عرضت في المهرجان أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور النادرة واشترك فيه ٢٣,٢٠٠ فارس و ٥٧,٩٠٠ راجل كاملى العدة . وبعد القسم الذي يمثل عموده

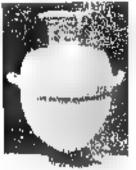

صورة آنية جنائزية مما دفن فيه رماد الأجانب الذين توفوا في الإسكندرية عند حضورهم ممثلين لبلادهم في حفل البطولمية

ديودوروس مظفرا من الهند كان [illegible]
هذا المهرجان الرائع الذي كان يسوده روح
المرح والبهجة ويغلب عليه طابع احتفالات
ديونيسوس . واذا كان مثل هذا الموكب
الذي تم بمصر [illegible] والاسراف في عرض
ثروته [illegible] قد أنفق على اقامة
هذا المهرجان ما قيمته اليوم [illegible]
مليون جنيه مصري ، فان هذا يدل على مدى
الأهمية التي كان يعلقها على اظهار اهتمامه
بمظاهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على
[illegible] دلائل ثراء دولته [illegible]
[illegible] الأجنبية

ثالثا ـ الاغريق والديانة المصرية

وقد كان الاغريق ينظرون الى الديانة
المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قدم
عهدها وغموض أسرارها . ودرج الاغريق
منذ عهد هيرودوتوس على تشبيه الآلهة
المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب في أن
هذا التشبيه لم يكن الا تشبيها سطحيا
لم يصل الى أعماق عواطف الاغريق الدينية
بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهة
الاغريقية ، وآية ذلك ان الاسكندر الأكبر
والبطالمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة
الاغريق وآلهة المصريين . ونلمس القرائن الى
أن اغريق مصر سواء أكانوا يعيشون في مدن
مصر الاغريقية أم في خارج تلك المدن قد
تمسكوا بعبادة آلهتهم القديمة [illegible]
وهيرا وديمتر وافروديتي وغيرها . ولعله قد
ساعد على استمساك الاغريق بآلهتهم ، وعدم
اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير
هذه الآلهة في أشكال تنافي ذوقهم وعقليتهم
وتصورهم لما يجب أن يتوافر في تصوير
الآلهة من صفات تتلائم مكانتها الرفيعة
ومع ذلك فان بعض الاغريق ، كنتيجة لتلك
التشبيهات ، وباعتبارهم نزلاء في تلك البلاد
التي تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة
وأصالة الرأي كسب عطف هذه الآلهة
ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت
أسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضا بعضها
الآخر بأسمائها المصرية حين لم تكن ثمة
مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتع
بشعبية كبيرة بين المصريين استرعت أنظار
الاغريق ، ومثل ذلك بيس Bes وتورت
Taurt وسيبك . ولا يمكن أن نعد قربان
من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد
أفضى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية
بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب ألا نبالغ
في قيمة ذلك ، لأنه اذا كان بعض الاغريق
لم يروا غضاضة في بعض الأحيان في عبادة
الآلهة المصرية فان الاغريق جميعا لم ينقطعوا
عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المدن
الاغريقية . فقد كان المجال متسعا أمامهم
لعمل ذلك ، اما في الجبانات أو الجمعيات
الاغريقية أو في بيوتهم الخاصة

ومن ناحية أخرى تمسك المصريون
على [illegible] بديانتهم ، التي كانوا [illegible]

ومصريون المذاهب الاغريقية صورة مقنعة بها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من بعض في حد سيستقر مشاعرهم ... أتباعها. فلا عجب انه لم يقم دليل واحد على أن مدينة الاغريقية ... من المصريين

رابعا — البطالمة وعناصر السكان الاخرى

١ — اليهود

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق في دولة البطالمة. ويرجع استقرار اليهود في مصر الى عهد بعيد يسبق عصر البطالمة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة في أعقاب الفتح المقدوني وكذلك بعد ضم فلسطين الى مصر في بداية عصر البطالمة. وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود في مختلف أرجاء مصر ، لكن أكثرهم كانوا يعيشون في الحي الرابع في الاسكندرية. وكان يهود مصر يزاولون مختلف المهن والحرف ، وكان من بينها الاشتغال بالتجارة واقراض الأموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عملهم الرئيسي. وقد منح البطالمة الجالية اليهودية في الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأي جالية أخرى في أي مدينة اغريقية ، لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين.

وقد كانت السياسة الدينية التي انتهجها البطالمة بوجه عام ازاء اليهود ، تقوم على أساس التسامح الديني الذي قامت عليه سياستهم الدينية ازاء المصريين والاغريق ، فانه باستثناء بطليموس الرابع ، الذي أراد أن يفرض على اليهود عبادة ديونيسوس واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم ، كانوا شأن سائر الجاليات الأخرى يتمتعون بحرية العبادة.

ويبدو أن سياسة البطالمة بوجه عام كانت مشبعة بروح العطف على اليهود ، لأن فلسطين كانت واقعة بين شقي الرحى ، أو بعبارة أخرى كانت ميدان معركة من الحروب العديدة بين البطالمة ومنافسيهم السيلوكيين ، الذين كانوا يتطلعون دواما الى حرمان مصر منها. وبطبيعة الحال كان عطف البطالمة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياستهم السورية.

٢ — الفرس

وتتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يدعون « فرسا » أو « فرس السلالة » ، مع أن أقلهم فقط يحملون أسماء ايرانية ، على حين أن أكثرهم يحملون أسماء اغريقية أو مصرية أو اسما اغريقيا ولقبا مصريا. وتشير الوثائق الى وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود وأبناء الجنود في مصر البطلمية والى أن هؤلاء الفرس استمروا يكونون فئة خاصة حتى في العصر الروماني. وقد اختلف المؤرخون في تفسير كثرة عدد الفرس فلا ريب في أن الفرس كانوا يتمتعون بالحرية الدينية في مصر البطلمية

٣ ـ عناصر أخرى

وتشير القرائن الى أن سائر العناصر الاجنبية الاخرى التي استقرت في مصر ، مثل الرومان والفرس والسوريين والفلسطينيين والعرب ، انها احتفظت بعاداتها وتقاليدها شأنها شأن الاغريق واليهود ، وانها قد احتفظت بمعتقداتها الدينية في ظل ذلك التسامح الديني الذي كان أحد المعالم الاساسية التي أقام عليها البطالمة سياستهم الدينية .

خامساً ـ ديانة سيرابيس

لما كان بطلميوس الأول يعتقد ان ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والاغريق معاً في العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار التقارب الديني الذي كان هيرودوتوس قد لاحظه من قبل لابد من أن يقوي الالفة بين الفريقين ، فانه رأى من الضروري أن يؤلف بين قلوبهم بنشر ديانة جديدة تكون رابطة روحية وولاء بين المصريين والاغريق عندما يشتركون جميعاً في العبادة في كنفها ، وبذلك يدركون انهم يتعبدون الى نفس الآلهة وان كل فريق منهم على النحو الذي كان يألفه . ولابد من أن بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة في أن تجمع ديانة المصريين والاغريق ، وهذا تفسير ديانة الاسكندر الأكبر الذي وجهه هو وسلالته الى الديانة الجديدة .

ويحدثنا بلوتارخوس بأن بطلميوس الاول كون لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق لبحث فكرته . وقد استقر رأي اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثاً يتألف من سيرابيس Serapis وزوجته ايزيس وابنهما هاربوكراتيس Harpocrates . ويتفق الجميع على أن ايزيس وهاربوكراتيس كانا الهين مصريين . أما سيرابيس ، كبير آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأي السائد اليوم انه كان أصلاً الاله المصري أوزيريس ـ ابيس ، اله العالم الآخر في منف الذي عرف بين سكانها من الاغريق Artemisia حتى قبل عهد بطلميوس الاول كانوا ينادونه باسم اوسيرابيس Oserapis . وعلى كل حال فان آلهة الثالوث قدمت للاغريق في شكل اغريقي وللمصريين في شكل مصري ، ويبدو التباين بينهما في أجلى صوره في حالة سيرابيس الذي قدم للاغريق في شكل رجل كهل يشبه الى قرب الاله زيوس وأضفيت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون في شكل العجل ابيس ، وكان يعرف بعد وفاته باسم أوزيريس ابيس .

وإذا كان بطلميوس الأول هو الذي أنشأ عبادة سيرابيس واتخذ الصورة التي قدم فيها [illegible] الاغريقية ، ثبت ان بطلميوس الثاني هو الذي شيد المعبد الكبير الذي أقيم لهذا الاله في حي راقودة بالاسكندرية على ذلك التل الذي

تمثال سيرابيس

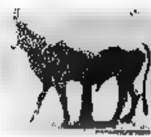

تمثال للعجل أبيس أهداه
الإمبراطور هادريان لسيرابيوم الإسكندرية

لا يزال قائماً حتى اليوم في حي كرموز. وقد ذاعت شهرة مباني هذا المعبد بما كانت تضمه من مكتبة وأروقة وأبنية تقوم عليها الأعمدة والتماثيل ويؤدي إليها سلم كبير يتألف من مائة درجة.

ولا جدال في أن الديانة الجديدة قد نجحت من حيث انتشارها نجاحاً كبيراً في الاتساع فإنها لم تنتشر في مصر فقط بل انتشرت أيضاً في أرجاء بحر الأبيض المتوسط، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقاً حتى الهند وغرباً حتى بريطانيا. لكن النجاح الحقيقي لهذه الديانة يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت في تأديته الغرض المنشود من إقامتها. فهل حققت هذا الغرض؟ هل نجحت في جمع المصريين على عبادة آلهة الثالوث المقدس، ولم يكن في وجهها مصري وإغريقي

في عداد الآلهة التي ظلوا على ولائهم لها جميعاً، ولم تصبح بوصفها آلهة هذا الثالوث الآلهة الوحيدة التي يتعبد المصريون إليها. وكذلك اعتنق الإغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدمت لهم آلهته في ثوب إغريقي بل على أنها نسخة لآلهتهم الإغريقية. ومع ذلك وبرغم ما أظهره الإغريق لآلهة الثالوث المقدس من رعاية واحترام فإنهم لم ينصرفوا إلى عبادتها دون غيرها، بل إن هذه الآلهة لم تحتل المكانة الأولى في عبادتهم … ذلك أنهم … ظلوا مرتبطين في كل … في مدن مصر الإغريقية … كانوا … لآلهتهم الإغريقية … يكاد … حتى إن … للإغريق … البطالمة كانت إلى جانب عبادة آلهة … التي

أتى منها ، والى حد كبير مصادر المذاهب ذات الأسرار التي كانت معروفة في بلاد الاغريق وبين الاغريق أنفسهم وبصفة خاصة ذلك في كل مذهب العابد الاغريقي ، مثل مذهب ديمتر ومذهب الاورفيين ومذهب ديونيسوس زاجريوس Zagreus

ولا شك في أن الديانة الجديدة قد كسبت مكانة كبيرة ، لكن لما كانت تلك المكانة نتيجة لاتجاه الحكومة ، وكانت تلك الديانة ديانة مصطنعة ، وكان البطالمة قد أتاحوا ضمائر رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والاغريق هي الديانة التي كان يألفها كل من الشعبين ، فلا عجب ان الديانة الجديدة لم تحقق الغرض المنشود من اقامتها

الفصل الرابع

السياسة الاقتصـــادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — النقود

أمدت اعتبارات كثيرة عن البطالمة سياستهم الاقتصادية ، فقد كان تحقيق أهداف سياستهم الخارجية يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة ، وكانوا في حاجة الى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولما كانت قد استقرت في البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هذه العناصر من الاغريق أو ممن لهم ميول اغريقية فانه كان يجب توفير سبل العيش لهذه العناصر وسد حاجاتها .

وقد رأى البطالمة أن الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضي زيادة الانتاج المصري ، ورفع مستوى المنتجات المصرية ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مقادير كبيرة من منتجاتها لتكسب بها الأسواق الخارجية ، فيفيض عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تفتقر اليه البلاد من المواد مثل الأخشاب والمعادن . وازاء ذلك عمل البطالمة على زيادة مساحة الأرض المزروعة ، واستغلال الأرض المزروعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكثار من المصانع واستخدام كافة الوسائل الفنية المعروفة وتنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، يستغل الى أقصى حد مجهودات الأهالي والنزلاء الأجانب تحت اشراف ادارة مالية يقظة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التي تفيض عن حاجة البلاد ، واستيراد المواد التي تفتقر اليها ، وتأمين طرق الملاحة .

أولا — الزراعة

وقد كانت الزراعة في مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصريفها ، فقد عنى البطالمة بشق القنوات واقامة الجسور وصيانة هذه المنشآت وقد عنوا أيضا بايصال المياه الى الأراضي المرتفعة ، وابتكر الاغريق آلتين جديدتين لهذا الغرض وهما الساقية والطنبور ، وسارع المصريون الى الافادة من هاتين الآلتين الى جانب شادوفهم العريق . واستغل البطالمة الأوائل مهارة الاغريق الهندسية ، وخبرة المصريين بالزراعة في استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم ، وكذلك في مناطق أخرى مشابهة لها . وهكذا توفر لدى البطالمة من الأراضي

ن مكنهم من اعواله لكنه بن من الاعتبار في الاستغلال في البلاد. ولم تهمل البطالمة وسعها في استغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل. مكنهم أكملا تصميم الزراعة وضعوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية يحسب كانت الأرض لا تترك عاطلة ملائمة أعوام متتابعة. وعندما كان الحديد من بين المواد التي اهتم البطالمة باستيراد كميات وفيرة منها لسد حاجة البلاد، وترتب على ذلك أن أصبحت الأدوات الزراعية كالفأس والمحاريث والمناجل وبعضها وعجل العربات أصبحت تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد.

ولم يدخر البطالمة جهداً في توفير الأسباب التي تكفل الإكثار من زراعة الحبوب وغرس الكروم والفاكهة ومختلف أنواع الأشجار، وتحسين أصناف كل هذه المزروعات القديمة أنواع جديدة منها، وإدخال أنواع عديدة من محاصلات التي لم يكن لمصر بها عهد من قبل. فتحدثت الوثائق عن زراعة القمح السوري والفارسي والحمص البيرنطي، وعن استيراد أشجار التين من جيوس وميديا، وأشجار رمان تيس شمرها ..... ، وأشجار مشمش نشم في العام مرتين، وكروم تنتج أصنافا ممتازة من العنب، ونباتات ثوم بيكة وكرنب رودس وأنواع كثيرة من الأزهار.

ولما كانت الثروة الحيوانية تمد مطالب الزراعة ومطالب الدولة ومطالب المستهلك الوطنية من غذاء وكساء، فإن البطالمة عنوا بتنمية هذه الثروة، وساعدهم على ذلك وفرة المراعي في البلاد. ومن أجل تحسين الأصواف مصرية استخدم بطلميوس الثاني من يجلب نوعا من الأغنام كانت لأصوافها قيمة كبيرة عند اليونان، بل كانت تغطى بمرافيها وبها كانت تنزع منها مثلا من أن تتسخ. وقد أولى البطالمة عنايتهم كذلك بتربية النحل، فقد كان عسله يستخدم حيث يستخدم السكر اليوم، وإلى تربية الدواجن، وخاصة الحمام، لأنه كان أرخص أنواع الترف لدى الأهالي، وفضلا عن ذلك كان له أهمية خاصة بسبب غنى روثه ووفرته.

ولقد كللت جهود البطالمة الأوائل بالنجاح إذ كان أكبر نواحي الحياة الاقتصادية في مصر في خلال القرن الأول من حكم أولئك ملوك زيادة مساحة الأراضي المزروعة، وازدياد المحاصيل الزراعية بوجه عام والحبوب بوجه خاص. لكنه كان من المحال وصفه نتيجة الأشياء أن تدوم هذه النهضة الاقتصادية. ولا أدل على ذلك مما نلاحظه منذ آخر عهد بطلميوس الثالث من نقص مطرد في مساحة الأرض المزروعة وكذلك في الماشية وفي عدد سكان القرى. فقد كان سبب أن تدهور الزراعة في كيف دقة نظام مالي التكرمة الذي وضعه بطلميوس الثاني، لأنه أثقل كاهل الأهالي. ولا سيما

عندما قام على سعيده موظفون ، غير أن مساوئه ما دفع الأهالي الى الفرار من مزارعهم أو رحيلهم في أداء عملهم ، بل الى الثورة في وجه حكومته . وحين كانت الثورات القومية تسري في كل أنحاء البلاد هرباب الدار في الصميم ، ووسط الاضطرابات العنيفة التي أثارتها الانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة رجعت البلاد أضدادها ، أهملت وسائل الري بل عمد الأهالي الى تخريبها . وزاد الطين بلة أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب التي نجمت عن غزوة أنطيوخوس الرابع . وقد بذلت الحكومة كثيرا من المجهودات لاصلاح الحالة لكن التوفيق لم يحالفها بوجه عام في وقف تيار التدهور الذي جرف اقتصاديات البلاد .

ثانيا — الصناعة :

كانت الطبيعة مصر العوامل التي جعلتها مهد الحضارة ، فقد حبتها بوفرة في موارد الثروة وفي عدد السكان الذين اشتهر الكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أن نشأت في مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة ناجحة لم يكن لها منافس في بعضها ومثل ذلك ورق البردي والمنسوجات الكتانية والزجاج والعطور اللامع وغير ذلك مما كانت مصر تصدره الى الكثير من بلاد العالم القديم .

لكن بلاد الاغريق ما كادت تتقدم في سلم الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس الصناعات المصرية وأصبحت مركز الحاضرة الاقتصادي ، غير أنه بعد وفاة الاسكندر الأكبر انتقل ذلك المركز الى الممالك الهلنستية العظيمة التي قامت في مقدونيا وآسيا ومصر واستقر أبناء الاغريق ، فيرجعوا أفواجهم فيها وشاركوا في انشاء صناعاتها وباقي نواحي حياتها الاقتصادية . وقد كان لمصر نصيب كبير من أولئك المهاجرين الذين رحلوا اليها من مختلف بلاد شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة وآسيا الصغرى .

وقد كانت المشاكل التي واجهت البطالمة في ميدان الصناعة مماثلة لما واجهوه في ميدان الزراعة ، وهي توفير سبل العيش للكثير من المهاجرين ، ورفع مستوى الصناعة ، وسد حاجة السوق المحلية والسوق الخارجية فقد استقرت في البلاد عناصر جديدة كثيرة أغلبها من الاغريق أو ممن لهم ميول وعادات اغريقية ، وازدادت القوة الشرائية لدى الدولة البطلمية ، وكذلك الطلب على المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب وسد ما تفتقر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجاري في صالحها ، أنشأ البطالمة مصانع كثيرة ، واحتكروا انتاج بعض الصناعات ، واشرفوا على انتاج وبيع البعض الآخر ، وعملوا على زيادة انتاج صناعات عديدة ، وتحسين أصنافها ومراعاة ذوق المستهلكين .

وبفضل مهارة المصريين ومواهب الاغريق استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب الصناعة. وقد ساعد على ذلك أن تدفق المعادن وتوفر الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة، وأن الحركة العلمية في مدينة الاسكندرية جعلت الصناعة تجني ثمرة تقدم العلوم وأن البطالمة الثلاثة الأوائل اهتموا بتنشيط الصناعة اهتماما لم نعرف له مثيلا في أي عهد من عهود تاريخها الطويل. وقد كانت من أهم الصناعات شأنا في عهد البطالمة صناعة المنسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنبيذ والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق والزجاج. ونستطيع أن نتبين اهتمام البطالمة بسد حاجة الاغريق من اقمشة صناعة المنسوجات الصوفية وتحسين أنواع النبيذ المصرى واحتكار صناعته واستيراد زيت الزيتون من الزيوت التي كانت الحكومة تحتكر استخراجها وبيعها.

وقد اقتبس الاغريق في عهد البطالمة فنون الصناعة التي كان المصريون قد سموا بها في عهد الفراعنة حد يقرب من الكمال. وبطبيعة الحال كان شأن الاغريق في مصر شأنهم في أي مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الراقية القديمة، ومعنى ذلك أنهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنية، وقلدوا كل ما لم يعرفوه قبلا. وكذلك أخذوا عنه بعض المظاهر والأشكال الزخرفية. ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الاغريقية وصنعوه موائما لذوق الاغريق حتى اقبلوا عليها. فامتلأت أسواق العصر الهلينستي بأدوات مصنوعة على أساس الأساليب المصرية في الصناعة والزخرفة، وإن كان طرازها مصبوغا بصبغة اغريقية، ونجد أمثلة طريفة لذلك في الآنية الفخارية والزجاجية والمعدنية التي كشفت الحفريات عنها.

وإذا كان يبدو أن أكثر الصناع المصريين بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بتقاليدهم القديمة ورغبتهم في سد حاجة عملائهم الذين بقيت عاداتهم المصرية بمنأى عن كل مظاهر الحضارة الاغريقية، لم يستهوهم بوجه عام فنون الصناعة الأجنبية ولذلك استمروا في انتاج مصنوعاتهم التقليدية، فانه يبدو كذلك أن بعض الصناع المصريين كانوا ينتجون أيضا سلعا تقلد المنتجات الاغريقية تقليدا كاملا أو في بعض نواحيها فقط مثل الشكل أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنعة لكنها مصطبغة بالصبغة المصرية، فاننا نجد بين الآنية الفخارية والمعدنية التي صنعها المصريون في عصر البطالمة أشكالا كانت مألوفة بين الاغريق. ولا يبعد أن ما حدث في هذه الصناعة قد حدث كذلك في صناعات أخرى.

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة في مصر نزوح الكثيرين من الريف إليها، وكانت الاسكندرية في مقدمة المدن التي هرعت إليها أعداد كبيرة من العمال والصناع. ومما يجدر ملاحظته أن أرباب

كل حرفة كانوا يحتمون بها في أنحاء معينة ويؤلفون نقابات تعاونية . وتدل الوثائق على أنه قبل مجيء الاغريق الى مصر لم يستهم العبيد اطلاقا في حياتها الاقتصادية لكن الحال كان على عكس ذلك في بلاد الاغريق ، فهل أدت مساهمة الاغريق في حيــــاة مصر الاقتصادية الى ادخال نشاط العبيـــد في الصناعة ؟ لا يبدو انه في مدن مصر الاغريقية ، وخاصة في الاسكندرية ، حيث يرجح انه كان يعيش ٤٠٠٠٠٠ عبد ، كانت توجد مصانع يعمل العبيد فيها . أما خارج المدن الاغريقية ، أو على الأقل خارج الاسكندرية ، فاننا لا نجد في نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل سواء في الزراعة أم الصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيهما . ومعنى هذا ان الاغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد بوجه عام .

وقد ترتب على كل العوامل التي سلفت الاشارة اليها ازدهار الصناعة في القرن الأول من حكم البطالمة ، ولما كانت أغلب الصناعات المصرية صناعات زراعية ، فان تدهور الزراعة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث كان يستتبع حتما تدهور الصناعة . وفضلا عن ذلك فان الأسباب التي كان لها أبلغ الأثر في تدهور الزراعة قد تمخضت عن نتائج مماثلة في ميدان الصناعة ، حيث ضاعت أيضا كل الجهود التي بذلتها الحكومة لوقف تدهورها والنهوض بها من جديد .

ثالثا ـ التجارة

وقد كان طبيعيا أن يوجه البطالمة عنايتهم الى تجارة مصر الخارجية ، اذ كان ذلك جزءا من سياستهم الاقتصادية العامة التي كانت تستهدف زيادة الانتاج الزراعي والصناعي ورفع مستواه لسد حاجة الســـوق المحلية وكسب الأسواق الخارجية ، لتفيض عليهم الأموال وكذلك السلع التي تفتقر اليها مصر . ومن أجل تأمين تجارة مصر الخارجية ورواجها عمل البطالمة على بسط سيطرتهم على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ، كما عملوا على الا تقتصر علاقات مصر التجارية على ممتلكاتها فقط بل أن تكون لمصر علاقات تجارية مع بلاد أجنبية أخرى في ثلاث نواح وهي : أولا بحر ايجة والبحر الأسود وثانيا الغرب والشمال الغربي وثالثا الجنوب والشرق .

ويجب أن نلاحظ انه لم يكن في وســع ممتلكات مصر استيعاب كل صادراتها ، وانه اذا كان في وسع مصر بفضل مواردها الخاصة ووارداتها من ممتلكاتها أن تستغني الى حد بعيد عن صادرات الدول الأجنبية لسد حاجاتها الحيوية ، فانها كانت لا تزال تفتقر الى بعض حاجاتها الهامة التي لم تتوافر في امبراطوريتها ، كالذهب والفضة اللازمين لسياسة البطالمة ولشراء حاجاتهم في مصر وفي خارجها ، وكذلك القصدير والحديد اللازمين لسد حاجتها للتعدين والزراعة والصناعة . وقد كانت مصر في حاجة أيضا الى العطور والصور

والعاج والأقمشة النادرة والأخشاب الثمينة مما كانت تستلزمه كثرة الطقوس الدينية وحياة الرفاهية والترف لدى ملوك مصر وعظمائها. كذلك في عالم البحر الأبيض المتوسط. وفضلا عن ذلك فقد كان البطالمة يهتمون بترويج تجارة مصر الخارجية ليفوزوا بثراء عريض يضفون عليه معالم قوتهم، وكذلك لنشر نفوذهم في أرجاء العالم المتمدين، فالتجارة دائما تسبق العلم. وقد أسلفنا أن البطالمة كانوا يضعون ضمان تفوقهم الاقتصادي نصب أعينهم ونصب الدور الأول في سياستهم الدولية.

وقد حالف التوفيق البطالمة الأوائل، فاستمتعوا حقبة من الزمن بسيادة سياسية وتجارية في بحر إيجة، وأصبحت الإسكندرية من أهم المدن التجارية في العالم. وكانت أهم المواد التي تصدرها مصر إلى أسواق بحر إيجة هي الحبوب الغذائية وورق البردي والمنسوجات الكتانية، فقد كانت مصر أكبر مركز لإنتاج الغلال في شرق البحر الأبيض المتوسط، كما أنها كانت تحتكر صناعة لفائف البردي وتصديرها إلى كافة أنحاء العالم القديم، وكذلك كانت تشتهر منذ عهد بعيد بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة. وكانت بلاد الإغريق وآسيا الصغرى تصدر إلى مصر الكثير من منتجاتها، وكان من أهمها الخمور والأخشاب والحديد والنحاس والفاكهة والأسماك المحفوظة و[illegible] [illegible]. لكن الملحوظ أنه في [illegible] البطالمة كانت [illegible] من كمية تلك الصادرات وحسب الميزان التجاري في صالح مصر. ولا شك في أن البطالمة كانوا يأخذون [illegible] لقاء الجانب الأكبر من صادرات مصر، بمعنى أن تجارة مصر مع بحر إيجة كانت تتجه نحو تحقيق كسب ما تحتاج إليه من فضة.

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة مصر مع بحر إيجة بثلاثة عوامل رئيسية وهي: أولا، ضياع سيادتها البحرية، وثانيا، الشلل الذي أصاب اقتصادها من جراء الاضطرابات الداخلية، وثالثا، ما أحرزته رودس وبيثينيا وبونتوس وغيرها من التقدم الاقتصادي، ولا سيما في الزراعة، في خلال القرن الثاني قبل الميلاد. وليس معنى ذلك أنه قضى على تجارة مصر مع بحر إيجة قضاء تاما، إذ أن القرائن تشير إلى أن مصر كانت لا تزال تصدر إلى هذه الأرجاء بعض الحبوب فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق البردي والمنسوجات الكتانية والمصنوعات الزجاجية. وتشير القرائن كذلك إلى أن مصر أصبحت تستورد من بحر إيجة كميات كبيرة من الزبيب، فضلا عن زيت الزيتون.

وقد أصبح للبطالمة الأوائل في [illegible] علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق العربية، وجنوا من وراء ذلك فوائد طائلة. ولأن هذه الأسواق كانت تستطيع [illegible] الكثير من منتجات [illegible]، وكذلك [illegible] الكثير من [illegible] [illegible] مصر [illegible] من [illegible]

وصقلية ، وبالقمح من بطالمة صقلية ، وبالفضة من إسبانيا ، وبالقصدير من بريطانيا عن طريق قرطاجنة ... ، ... من بطالمة ، ولدينا شواهد على أن علاقات مصر التجارية مع بلاد العرب كانت نشيطة بوجه خاص في القرن الثالث قبل الميلاد حتى نشبت الحرب البونية الثانية فشلت هذه العلاقات ، لكن ليس من القرائن المحددة ما يفيد أن وشيجة هذه الحروب أوزارها أصابت بالشلل تجارة مصر مع الأسواق الغربية ، التي حدثت بعد القرن الثاني مكان بمصر ... وحدث هم ... الاسباب ... ومما يجدر بالملاحظة أن بطالمة لم تكن عندئذ في حاجة إلى حروب مصر بقدر حاجتها إلى منتجات الصناعة المصرية ومواد الترف التي كانت مصر تستوردها من الصومال وبلاد العرب والهند وقد ساعدها على رواج تجارة مصر مع الغرب استعادة قرطاجنة تدميرا كاملا بعد الحرب البونية الثالثة

وقد أظهر البطالمة اهتماما كبيرا بالتجارة مع الجنوب والشرق من أجل تصريف منتجات المصرية مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال فضلا عن النبيذ المستورد من بحر الأبيض المتوسط ، وكذلك من أجل الحصول من عالي النيل على العاج وجلود الماشية ... والعبيد ... ومن بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية والهند ، وكان العرب يحتكرون تجارة الشرقية الهامة بحر ... على العطور والبهار والبخور ... والقرفة والعاج والأرز والأحجار الكريمة واللآلئ والأصباغ والقصب والحرير .

وكانت منتجات أعالي النيل تصل مصر اما عن طريق النيل أو طريق القوافل أو هضبة أكسوم والبحر الأحمر . أما التجارة الشرقية فإنها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية في سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط ، وهي أولا : طريق الشمال ، وكان تتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل . وثانيا : طريق الوسط ، وكان يأتي من الهند برا أو بحرا إلى سلوكيا على الدجلة ثم يتجه إلى دمشق وصور ، أو إلى انطاكية ومنها إلى افيسوس . وثالثا : طريق الجنوب ، وكان طريقا بحريا من الهند إلى الموانئ في جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربي ، وكانت أهمها في عهد البطالمة عدنا وجزيرة سقطرى . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها في شحنة الاعراب ، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بالعبور بوغاز باب المندب .

وقد كانت منافذ هذه الطرق الثلاثة تقع في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وبينما ، وكان ملوك مصر يحرصون على وضع تجارة الشرقية في قبضتهم ، فإن البطالمة وجهوا عنايتهم في خلال القرن الثالث إلى

للاستيلاء على الأقاليم التي تصدر عنها تلك السلع. وعندما نازع سلطان البطالمة في بحر إيجه وعلى دولة في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وضعف في خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، اتجه اهتمام البطالمة ولا سيما في عهد بطلميوس الثامن عندما انتقل هذا القرن إلى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الجنوب قبل وصولها منافذ ذلك الطريق. ولم يلبث أن امتد هذا الاهتمام إلى المحيط الهندي أيضا.

ولقد جنى بطلميوس الثامن أطيب الثمار من جراء الجهود التي بذلها لتنظيم الطريق الجنوبي وتأمينه إذ ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر في عهده عما كانت عليه في عهد سلفه. وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهي (١) الإقبال المتزايد على السلع الشرقية (٢) كشف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الإبحار مباشرة إلى الهند دون الالتجاء إلى الأعراب، (٣) ضعف مملكة السبئيين بظهور (٤) انهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق. م

وهكذا أحيى البطالمة الأواخر سيرة البطالمة الثلاثة الأوائل في تأمين وتنظيم الطريق البحري بين مصر وبوغاز باب المندب، لكن بينما كان البطالمة الأوائل يستهدفون من وراء ذلك سبيل صيد الفيلة واستئناسها ونقلها من أجل استخدامها في جيوشهم، وعندما الاتصال بمنطقة بلاد النوبة حيث توجد مناجم الذهب، وبلاد الصومال حيث تتوافر مواد لم يكن لمصر غنى عنها منذ عهد الفراعنة، كان البطالمة الأواخر يستهدفون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند. أما صيد الفيلة فقد أصبح غير ذي موضوع نتيجة لاستغناء البطالمة عن استخدام الفيلة في جيوشهم.

وجملة القول أنه في خلال القرن الأول من حكم البطالمة، أدى ازدهار الزراعة وتقدم الصناعة وتداول النقد، واتساع ملك البطالمة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية إلى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية، وإقامة العلاقات مع الدول الخارجية، إلى رواج تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى أسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط أفريقيا.

وقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة، وانكماش ممتلكات البطالمة الخارجية، وضعف نفوذهم في السياسة الدولية، انكماش لتجارة مصر مع بحر إيجة وكذلك مع الشرق ووراء نقص موارد مصر نقصا خطيرا وزيادة الإقبال على السلع الشرقية وجه البطالمة الأواخر وخاصة بطلميوس الثامن اهتمامهم لتنشيط تجارة مصر مع الجنوب والشرق. وقد حالف التوفيق أولئك البطالمة في تلك الناحية، شأن كبير كان له أثره في انتعاش تجارة مصر مع الأسواق الشرقية بعد أن كانت

العرب البوسه عند شيئتها والحب بها مررا خطه

رابعا — النقود

حين كانت مصر الاغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، إلا أن هذا لا يعني أنها كانت تجهل تماما استخدام النقود ، فقد كشفت الحفريات في تراميس وسمنود وبني حسن في عملة من الأرض سابقة على العهد المقدوني عن نقود اغريقية وفارسية ، بعضها أصيلة وبعضها تقليدات مصرية . مما يدل على أن هاتين العملتين كانتا متداولتين في مصر وشائعتين فيها قبل الفتح المقدوني ، وإن كان تداولهما محدودا ، ويبدو أنه كان مقصورا على الاغريق والفرس ، فقد كان ملوك مصر في العصر الصاوي يستخدمون جنودا مرتزقة من الاغريق كانوا يأخذون أجرهم نقدا ، وفي عهد الفرس كانت توجد في مصر حامية فارسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجدد جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية

ويعزى إلى الاسكندر الأكبر وخلفائه الفضل في سك عملة أخذ تداولها ينتشر في مصر رويدا رويدا وإن لم يقض كلية على نظام التبادل . وتتألف عملة البطالمة من نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية ومما يجدر بالملاحظة أن النقود الذهبية والنقود الفضية نوعان أحدهما عادي وكان يسك في عهد الملك الذي يحمل صورته والآخر تذكاري لتخليد بعض ملوك الماضي . وكثيرا ما تحمل العملة الفضية عادة على الوجه صورة بطلميوس الأول مؤسس الأسرة ، واسم بطلميوس الذي حمله كل ملوك هذه الأسرة . وبطبيعة الحال تحمل النقود الذهبية والنقود الفضية غير العادية صور مختلف ملوك وملكات البطالمة الذين سكت هذه النقود لتخليد ذكراهم . وتحمل النقود البرونزية على وجهها في حالات كثيرة صورا مأخوذة من الأساطير : كانت أغلبها رأس زيوس آمون ، وفي بعض الحالات رأس الاسكندر أو أحد ملوك أو ملكات البطالمة . وقد كان الطابع الذي يميز كل نقود البطالمة ، فيما عدا فئة محدودة أغلبها تذكاري ، يشتمل على ظهر ويتألف من نسر واقف على صاعقة ، وأمامه أو تحت جناحه قرن واحد أو قرنان للرخاء . ونرى على ظهر النقود البرونزية التي سكت عندما كان يولايوس ولينايوس يتوليان الوصاية على بطلميوس السادس نسرا واقفا على صاعقة وتحت جناحه الأيسر صولجان وإلى يساره زهرة اللوتس التي تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية . ونرى على ظهر النقود الفضية التي سكها بطلميوس الثاني عشر وابنته كليوبترة السابعة يوجد جريد نخلة تحت الجناح الأيسر للنسر وتاج ايزيس أمامه

أمثلة نقود البطالمة

١

٢

٣

٤

٥

١ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطليموس الرابع وعلى الظهر نسر واقف على الصاعقة

٢ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطليموس الخامس وعلى الظهر نسر واقف على الصاعقة

٣ ـ قطعة فضية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس الإسكندر وعلى الظهر أثينا بروماخوس

٤ ـ قطعة ذهبية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس بطليموس الأول وعلى الظهر نسر واقف على صاعقة

٥ ـ قطعة ذهبية سكت تذكارا لأرسنوى الثانية تحمل على الوجه رأس هذه الملكة وعلى الظهر قرني الرخاء

وقد كانت العملة الفضية أكثر العملات المتداولة شيوعا في عهد البطالمة الثلاثة الأوائل . وحتى منتصف عهد بطلميوس الثاني لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية ، لكن في النصف الثاني من عهد هذا الملك سكت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن يستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وتشير الأدلة الأثرية والبردية التي ترجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد إلى أن العملة البرونزية الجديدة قد صادفت نجاحا كبيرا .

وبعد الفتح المقدوني كانت العملة تسك في مصر على قاعدة النظام الأتيكي ، لكن بعد أن اتخذ بطلميوس الأول لقب ملك (حوالي عام ٣٠٥ ق . م .) صك عملة أصغر حجما فضية وذهبية ، أقل وزنا من العملة القديمة لتشجيع التجارة الخارجية والتوفيق بين العملة ومصادر المعادن النفيسة التي كانت تزداد باطراد في حالة الفضة وتتناقص في حالة الذهب . ورغم أن قاعدة العملة الجديدة اتفقت تماما مع قاعدة أي عملة معروفة عندئذ ، فإنها كانت تقرب جدا من قاعدة النظام الرودسي . وبعد ذلك أنقص بطلميوس وزن العملتين الفضية والذهبية ثم باتخاذ وحدة العملة الجديدة . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية حكمهم بهذه القاعدة التي جعلتها بعد إمبراطوريتهم محررة وكانت كل البلاد التي خضعت لسيطرتهم بأي طريقة كانت .

وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كانت الفضة هي القاعدة الأساسية للعملة ، لكن عندما قلت الفضة التي كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الإغريق نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، وضياع ممتلكاتها الخارجية ، ونقص سيطرتها على الطرق التجارية ، ودخول الحرب البونية الثانية مرحلتها الحاسمة ، اضطرت مصر إلى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية للعملة . وإذا كان هذا التغيير قد أفضى إلى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فإنه لم يؤد إلى القضاء كلية على قاعدة الفضة .

ولما كانت حالة البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سيء إلى أسوأ ، ونقصت تبعا لذلك موارد الخزانة بينما لم تنقص التزاماتها ، فإنهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجأوا إلى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٣ ق . م . حتى سقوط دولتهم . في آخر عهد بطلميوس الخامس بلغت الأجور والأسعار ١٢٠ مرة كالأجور والأسعار المماثلة في عهد بطلميوس الثاني والثالث . وعند منتصف القرن الثاني بلغت الأجور والأسعار نحو ٢٤٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطلميوس الثاني والثالث . وفي خلال الثلث الأخير من حكم البطالمة بلغت الأجور والأسعار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطلميوس الثاني والثالث .

الفصل الخامس

النظـــــام المـــالى

الإدارة المالية — نظام الأراضي — نظام الصناعات والحرف — نظام التجارة — ضرائب شتى — نظام جباية الضرائب

أولاً — الإدارة المالية

يجدر بنا أن نشير أولاً إلى أن نظم البطالمة المالية كانت شرقية في جوهرها ، فقد كانت تستند إلى أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في باطنها ، وإلى أن الأهالي يعملون عند الملك الإله بطاعة عمياء . ومع أن البطالمة صبغوا هذه النظم بصبغة إغريقية قوية تتضح في دقة صياغتها واصطلاحاتها وحرصها على تنظيم الضرائب وإشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة في نظام محاسبة وأجهزة لم يكن لمصر عهد بمثله من قبل ، إلا أن هذه النظم اختلفت إلى حد كبير عن جوهر النظم الإغريقية ، وهو يتلخص في مبدأين أساسيين : الامتلاك الخاص وحرية النشاط الاقتصادي .

وقد كان يحتفظ بحسابات الداخل والخرج خزانة مركزية تطلق عليها اسم الخزانة الملكية ، وكان مدير هذه الخزانة يسمى ديويكتيس ، ويمكن تسميته وزير المالية ، فقد كان مسئولاً عن كل الإدارة المالية في مصر وفي كل ممتلكاتها الخارجية . وكانت اختصاصات هذا الوزير مختلفة وواسعة ، فهو الذي كان يبلغ أوامره كل فروع الإدارة المالية محلياً وخارجياً في مصر وفي ولاياتها ، ويعين موظفي الإدارة المالية ويراقبهم ويعاقب المقصرين منهم ، وتقع مسئوليته على كل الذين يشتغلون باستغلال موارد الدولة مثل الأراضي والاحتكارات .

وتمدنا معلومات وفيرة من وثائق زينون البردية عن أبولونيوس وزير مالية بطلميوس الثاني . ويبدو أن أبولونيوس عين في منصبه الكبير حوالي عام ٢٦٣ ق . م وبقي فيه حتى وفاة بطلميوس الثاني ، ثم عزل وصودرت أملاكه قبل العام الخامس من عهد بطلميوس الثالث . ويتبين بوضوح من وثائق زينون أن أبولونيوس لم يقصر نشاطه على مهام منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيراً فحسب بل كان أيضاً تاجراً وصاحب ضياع ومصانع ويمتلك أسطولاً بحرياً وآخر نهرياً [illegible]

بيرتوبوس التي كان في طليعتها أوساط نوبر ، الذين لا يكتفون بالاضطلاع بأعباء مناصبهم من مكاتبهم ، إذ تحدثنا الوثائق عن مواقف تدل على أنه من أجل الإشراف على عمليات مرؤوسيه والبت فيما يعرض عليه من مشاكل ، كان يخرج في بعض الأحيان من العاصمة بضعة أشهر ، وتصحبه في هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين بحيث كانت حاشية الوزير تبدو كأنها صورة مصغرة لحاشية الملك .

وكان يوجد إلى جانب وزير المالية رئيس إدارة مراجع عام للحسابات والإحصاءات eklogistes كان له مفتشون منتشرون في المديريات . وكان للوزير نائب يساعده يسمون hypodioiketai يبدو أن كل واحد منهم كان يختص بالإشراف على سير منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . وكان للإدارة المالية المركزية مفتشون كثيرون ينتشرون في المديريات والأقاليم والقرى ، ويختص كل منهم بمهام معينة تحت إشراف رقابة دقيقة . وكان هذا الجهاز يمكن الدولة من بسط رقابتها على مختلف مرافق البلاد الاقتصادية ، وتطبيق النظم التي وضعت لتلك المرافق ، وجمع كافة البيانات الخاصة بالموارد التي تستحقها الدولة من كافة أنحاء كل مديرية ، وحساب ما يستحق على كل فرد من ضريبة للدولة من هذه الموارد .

وقد لجأ البطالمة إلى وسائل مختلفة لحساب الدولة موظفين وجباة بأمانة مثل خلف نسبي ، وبعض مختلفة من أنواع تحصيل هذه الوسائل شيئا في تحصيل الضرائب المقررة . ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل وهي : ولاء هؤلاء الموظفين للملك على الرغم من أنهم ... ذلك ، ووجود الرقابة التي كانوا يخضعون لها مستمرين من أجل المحافظة على مناصبهم ، وذلك بسبب السلطة التي كانوا يتمتعون بها على شعب أذله الحكم الأجنبي وأخضعه لسيطرته فلا عجب إزاء ذلك أن نجد موظفين يستغلون سلطتهم في خدمة مصالحهم في نواح أشد خطرا على البقية من الناحية الذين وقعت عليهم المظالم وغير قادرين على مواجهة البطالمة .

ثانيا — النظام الزراعي :

لقد عرفنا أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملوك الإلهي ولما ترتب على ذلك أن الملك كان من الناحية النظرية المالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم يمكن تقسيم الأرض في عهد البطالمة قسمين رئيسيين وهما أرض الملك ، وأرض العطاء .

١ — أرض الملك

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التي كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها لأفراد تعرف بمزارعي الملك كانوا يدعون « مزارعي الملك » . وكانت علاقات هؤلاء المزارعين بالملك ترتكز على عقود كانت في الغرب السابق على ... الأجل ، لكنه

كان من بين النتائج التي ... على تدهور الحالة الزراعية وفرار المزارعين من أرضهم إطالة مدة العقود

ومع أن المزارعين حلفاء كانوا رجالا أحرارا إلا أنه كان ينبغي عليهم زراعة الأرض التي استأجروها وعدم مبارحة قراهم طوال موسم الزراعة وحتى يسددوا مطالب جميع الزراعين فيه. وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن في وسع المستأجر أن يزرع الأرض التي استأجرها كما يشاء، وإنما وفقا للتعليمات التي كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحدد بمقتضاها المساحة التي يجب زراعتها في كل مديرية قمحا وشعيرا وأذرة وكتانا وحبوبا زيتية. ولكي تضمن الحكومة زراعة الأرض وجودة البذور، كانت تفرض على المستأجر أن يقترض منها البذور لقاء فائدة قدرها ٥٠٪. وكان يتعين على المزارع أن يحصد المحصول وينقله إلى الجرن الملكي ويدرسه تحت رقابة حراس مسئولين، وإلا يمس منه شيئا قبل أن يأخذ الملك كل ما يستحقه. وكان ذلك عبارة عن الإيجار السنوي مضافا إليه أجر استخدام مواشي الملك والفائدة عن قرض البذور وحصته من الضرائب، فكان لا يبقى للفلاح بعد ذلك إلا أقل من نصف محصوله في مقابل كل ما لقيه من جهد. فلا عجب أنه لم يكن مغتبطا راضيا عن حاله.

وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة المزارعين تعاسة حتى أن الكثيرين منهم لم يجدوا منفذا أمامهم إلا ترك عملهم والهرب. وعندما أخذت الحكومة تبحث عن التحيل لاستثمار استغلال ... من ... اضطرت إلى الالتجاء إلى الإكراه ... بحدة ... وعمدت إلى استخدام ... لزراعة ... سرعان ما هرب المزارعون حتى أصبح ... منتشرا في كل أنحاء مصر

٢ - أرض العطاء

ويبدو أنه لم يكن بمقدوره أرض العطاء محدودة ... عليه دواما حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد عندما ... لتفصل الأنواع الثانية من الأرض

- الأرض المقدسة

كانت ثروة المعابد موضع ... وكان النوع الأول منها عبارة عن ممتلكات الآلهة. وكانت أهم أملاك الآلهة عبارة عن الأرض التي كان الملوك يمنحونها منذ غابر الزمن لمختلف الآلهة، حتى أصبحت أوقاف الآلهة ممتلكات واسعة كانت مصدر ثروة الكهنة وأحد أسباب نفوذهم وسيطرتهم. لقد كان لكهنة كل معبد يديرون إدارة أرض معبودهم، إلى أن ... البطالمة الأوائل ... أراضي المعابد المصرية في الحكومة ... أحكموا ... على رقاب الكهنة ... وإن بعض البطالمة كانوا يستعيدون ... دونها من ... الحكومة بإدارة أرض المعابد. وعلى كل حال يبدو أن الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخل ... على

معابد في شكل مرتبات التي كانت تدفعها للكهنة . ويبين أنه حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، ارتفعت الحكومة الأجر الذي يتقاضاه الكهنة . وتركت رجال الدين إدارة الأرض نفسها .

أما النوع الثاني من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكونه أو ينتفعون به نتيجة للقيام بشئون العبادة ، فقد كان يتصل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدر على شاغلي تلك المناصب دخلاً معيناً . ويرجح أنه قبل عصر البطالمة كان الكهنة يستطيعون التصرف في هذه الموارد بالبيع أو التوريث ، لكن البطالمة جعلوا الحكومة هي التي تبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطي المشترين حق التصرف في تلك الموارد . ولقد حرص البطالمة على هذا الحق حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد ، ومع ذلك تشير بعض الوثائق الى أن الكهنة درجوا فعلاً على بيع مناصبهم ورهنها وتأجيرها وتقسيمها وتوريثها .

ب — الاقطاعات العسكرية

لقد سلف القول ان البطالمة ، ولا سيما أوائلهم ، اعتمدوا الى حد كبير على مرتزقة من الأجانب في بناء قواتهم العسكرية . ولقد درج البطالمة منذ عهد أوائلهم على منح الجنود اقطاعات كانت تعتبر بمثابة مرتباتهم في وقت السلم ، وكانت البطالة تعتمد على هذا النظام ولا سيما في ضمان ولائهم الى الحد الذي كلما اقتضى الأمر ذلك ، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم دائماً ، وعلى أن تنشأ قرى عسكرية جديدة في مصر ، وأن تشترك العناصر الأجنبية في أنحاء البلاد .

وكانت مساحة الاقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص ، وهل هو في فرق المشاة ، أم فرق الفرسان ذات الأرقام ، أم فرق الفرسان القومية ، وهل هو في الفرق النظامية ، أم في فرق الجنود المرتزقة ، أم في الفرق المصرية .

وفي أول الأمر كان الاقطاع ملكاً للتاج ، وكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما اذا أهمل رب الاقطاع في أداء واجباته أو توفي . ولما كان من صالح الملك أن يخلف رب الاقطاع سوف جندي جديد في الجيش وفي الاقطاع ، وكان من صالح أسرة رب الاقطاع أن تستمر في استغلال الاقطاع ، فقد أدى هذا التوافق بين صالح الملك وأرباب الاقطاعات الى جعل الاقطاع وراثياً .

وفي القرن الثالث كان الملك يمنح الاقطاعات عادة من الأرض التي استصلحتها الحكومة . لكن عندما تطورت ملكية كثير من الاقطاعات الى ملكية خاصة ، وأفضى تدهور الزراعة الى نقص مساحة الأرض المزروعة ، لم يبق هناك مجال لاعطاء الجنود الجدد سوى تلك الأراضي التي أصبحت مهملة خلال سني الاضطرابات العصيبة في القرن الثاني قبل الميلاد ، ضعفه أو عجز مستمر . ولما لم يكن كثير من أرباب

الإقطاعات عبرة بالزراعة ، وكانوا كذلك يتمتعون بالحصانة العسكرية ، وهو القسم الأعظم من الحاميات في مصر وفي الخارج ، ولكنهم ... وكانوا ... يعطونها تأجيرها لمزارعين مصريين .

وإلى جانب الإقطاعات كان الجنود يمنحون سكنا . وفي القرى الجديدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيدون لهم بيوتا ، أما في المدن والقرى القديمة ، فإن الجنود كانوا يمنحون مساكن في بيوت الأهالي . وإذا كان المصريون باعتبارهم الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد تحملوا العبء الأكبر من إيواء الجنود ، فإن الإغريق كانوا يشاركونهم تحمل هذا العبء منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

جـ - أرض الهبات

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة عن أرض تمنح لعدد من كبار موظفي الحكومة نظير ... هذه الأرض . أما النوع الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التي أغدقها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين ، الذين اشتهروا بوفرة النشاط وحسن التدبير .

وتشير الوثائق إلى أن الهبات قد تشمل ... فقط ، أو أرضا ... وحدها ، أو ... فقط ، وإلى أن الهبة كانت ... لا ... ، أو ... أو ... ، وإلى أن

الأرض الصالحة للزراعة في الضياع الموهوبة ... تماما مثل أرض الملك ، أي أنها كانت ... للفلاح ... وضرائب .

د - أرض الامتلاك الخاص

تبين من الوثائق أنه كانت توجد في جهات متفرقة في مصر مساحات كبيرة من الأرض يمتلكها الأفراد . وتشير الوثائق إلى أنه في بداية القرن الثاني قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين الفاكهة في الأرض التي هجرت بسبب جفافها أو ... عليها تكسب الزارع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكا تاما . ولا يبعد أن هذه القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضا . وكان الأفراد يمتلكون كذلك امتلاكا حرا أراضي البناء وما عليها من مبان . ويبدو أن البطالمة قد عملوا منذ بداية عهدهم على ازدياد مساحة أرض الامتلاك الخاص . فقد كان ذلك يساعد على اتساع مساحة الأرض المزروعة ، وعلى انتشار غرس الكروم وبساتين الفاكهة ، وعلى وجود طبقة من أصحاب الأملاك تمد البطالمة بأعداد وفيرة من موظفين وملتزمين وضامنيهم الذين يمكن الرجوع على ممتلكاتهم في حالة عدم الوفاء بالتزاماتهم .

وتبين من الوثائق أنه كانت توجد في جهات متفرقة وخاصة في الوجه القبلي ، مساحات من الأرض ... يمكن التصرف فيها بالبيع والشراء والرهن

والثمرات . ومع ذلك لا يستطيع اعتبارها ملكا حرا لأنها كانت تعود للحكومة . كان أصحاب هذا النوع من الأرض كانوا يحصلون عليها بحق الانتفاع ، وإذا ملك كان يستعمله بعد استرداد هذه الأرض . وإزاء ذلك لا يعد ان أرباب هذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكا حرا وانما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف في هذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض شديد الشبه بالارض المملوكة امتلاكا حرا

ثالثا – نظام الصناعات والحرف

لقد كانت في حوزة البطالمة كميات وفيرة من أحواز العامة ، كما كانت تحت أمرتهم أعداد كبيرة من الصناع مهرة ، وحكم توافر لديهم العوامل الأساسية التي تكفلان ... أرباح وفيرة من الصناعة . وقد ترتب على استغلال هذين العاملين استغلالا منظما دقيقا إلى ما يعرف باحتكارات البطالمة أو بالاقتصاد الموجه في ميدان الصناعة البطلمية . فقد كان البطالمة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كليا ، مثل استخراج الزيت والنسيج والجعة واستغلال المناجم والمحاجر ودار سك النقود والمصارف المالية ، ويحتكرون البعض الآخر احتكارا جزئيا مثل صناعة النسيج ... المحاصيل الزراعية والملح ... ونكتفي في هذا المقام بالكلام عن صناعتي الزيت والنسيج لأنهما من أهم الصناعات.

١ – صناعة الزيت

كانت لهذه الصناعة شأن كبير في مصر منذ عهد بعيد ... تالي عهد البطالمة ، فقد صاحب استصلاح الأراضي ... ، فمنحت البطالمة عناية كبيرة التي تتطلب هذه الصناعة تنظيما دقيقا زيادة الانتاج وتحسين الصنف . ومعلوماتنا عن هذه الصناعة أوفى منها عن أي صناعة أخرى.

ويتبين من اللوائح الخاصة بتنظيم هذه الصناعة ان البطالمة كانوا يرمون الى ثلاثة أهداف رئيسية وهي : أولا ، قصر استخراج الزيت على ملتزمين الذين يشترون من الحكومة حق التزام صناعة الزيت من السمسم أو الخروع أو القرطم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعابد بأن تصنع من زيت السمسم في خلال شهرين ما تحتاج اليه في عام واحد . وثانيا ، ألا يستخرج أحد زيت خفية وإلا قدم للمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وثالثا ، أن تتوفر المادة الخام والأيدي العاملة لدى ملتزمي هذه الصناعة . فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التي تزرع بالنباتات الزيتية ، وكان يفرض على الأهالي بيع المحصول كله بسعر معين لملتزم صناعة الزيت في منطقته ، ويحظر على مستخدمي صناعة الزيت مغادرة القرية الى قرية أخرى

وكان الملتزم يشترى حق الالتزام في

مقطعة معينة بلده عاملين ، ويحصر عليه عند استخراج الزيت من كل الحبوب الزيتية التي سيزرعها ، ثم جمعها كلها عنده منها حتى موعد العام التالي .

ولكي تضمن الحكومة نجاح احتكار الزيت إلى أقصى حد ممكن سواء في حماية الإنتاج الداخلي من منافسة الخارجية الشديدة فقد كان سعر الزيت في العالم الاغريقي أقل تكلفة منه في مصر ، ولذلك تقرر ألا يسمح لأحد باستيراد الزيت من الخارج للمتاجرة فيه أو أكثر من استهلاكه الشخصي مدة ثلاثة أيام ، وفي هذه الحالة كان عليه دفع ضريبة تعادل ٥٠ ٪ تقريبا من سعره . لكن يبدو أنه في القرن الثاني قبل الميلاد رفعت الحكومة الحظر الذي كانت قد فرضته من قبل على استيراد الزيت الأجنبي . وتقدر الأرباح التي كان البطالمة يجنونها من وراء احتكار صناعة الزيت وصناعته بنسبة تتراوح بين ٧٠ ٪ في حالة زيت السمسم و ٣٠٠ ٪ في حالة زيت العصفر .

٢ ـ صناعة النسيج

ويتبين من الوثائق المختلفة أن الحكومة كانت تحدد مساحة الأرض التي يجب زرعها كتانا ، ولهم أن يبيعوا لها بسعر معين مقدار معين محدد من محصول الكتان . وكانت الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يزاول النسج في كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل مديرية أن تقدم للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التي تحتاجها . ويبدو أن هذه الكمية كانت نسبة معينة من إنتاج الأنوال العاملة . وفي حالة العجز عن سداد كل الكمية دفع ثمن المنسوجات بحسب ما حددته الوثائق . وفي حالة هبوط المنسوجات عن المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المحافظة على مستوى الصناعة . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تفرض على النساجين دفع ضريبة تسمى كانت ضريبة الترخيص بمزاولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشتري كل محصول الكتان ولا تفرض على النساجين أن يقدموا لها كل منسوجاتهم فإنه يتبين من ذلك أنها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا مثل صناعة الزيت ، وإن كانت تشرف عليها وتستفيد منها . ولابد من أن الكتان الذي كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع في مصانع ملكية غير مصانع الأهالي .

ويمكننا أن نتبين مما أوردناه أن دخل الحكومة من الصناعات التي كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من إنتاج المشتغلين بها ، وضريبة لمزاولة هذه الصناعات .

٣ ـ المصارف المالية

ويبدو أن عملية تسديد النقود وسائر العمليات المصرفية قد وجدت في بلاد الاغريق

بيد أن أحد أدوات النقد منتشرة وتعم في تلك البلاد ... أن مصر قامت لم تعرف ... كاملة بأدق معاني الكلمة إلا عندما ... في كل أنحائها بعد الفتح المقدوني.

وكان ... عامة تعرف ... المصارف الملكية ترأسها في الإسكندرية وفروعها في عواصم المديريات والأقاليم والقرى ، وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزانة الملكية في أنحاء البلاد ، لكن يجب عدم الخلط بينهما لأنهما وإن اتفقا في الاسم كان لكل منهما اختصاص معين فقد كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما عمال فروع الخزانة الملكية فإنها كانت مقصورة على تسلم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالي أم من الملتزمين أم من موظفين مكلفين بجمعها . وعندما أنشئ في القرن الثاني قبل الميلاد إدارة حساب خاص أدى ذلك إلى إنشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » إلى جانب الخزائن الملكية.

وكان الملك يبيح حق إدارة المصارف الملكية لملتزمين بمقتضى عقود كانت تحدد مرتباتهم أحيانا ... وأحيانا ... أرباحا أكثر من ذلك . وكان الملك يعطي للملتزمين احتكار بيع النقود ... واستبدالها ، ويعد ... المصارف على الأقل جانب من أموالها فقد كان ... على الخزائن الملكية في القرى وفي المدن دفع ما تسلمه من الأموال العامة إلى المصارف الملكية ... في منطقته كل عشرة أيام . ومن ثم ... بيع الثروة ... الأعمال ... كان ... إلا ... التي يحصلها الملك من صناديق ...

وقد كان ... المصارف أنه على الأرجح ... من الإغريق ، وكذلك كان ... الإغريق ... أحسن المصارف وحركة ... على الإغريق يرجع إلى ... المصريين وقلة ... باستخدام النقود ولا يبعد أنه كان يرجع كذلك إلى أن المصريين كانوا يفضلون أن يحفظوا ... آبائهم وأجدادهم ويضعوا أموالهم في حماية الآلهة فقد كانت المعابد ... تقوم بالكثير من أوجه نشاط المصارف المالية.

رابعا — نظام التجارة

١ — التجارة الداخلية

ونتبين من الوثائق أن تجارة الحبوب ... في مصر كانت ... هذه الكميات التي كان الملك يحصل على بعض الزراع أن يبيعوها إياه بسعر معين ... بها فيما بعد حاجة المديريات التي تفتقر إلى ما يكفيها من الحبوب ... الاتجار في الحبوب ... كانت ... بعض ... ومن ... لا يمكن القول بأنه كان ... مطلقة.

أما ... الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد للمرسى صناعة الزيت . وكان ... بيع الزيت ...

ملتزمين سفتيفي مراد على [illegible] وبما يحمل [illegible] ان [illegible] لم يكن على سعر الربح لأن [illegible] تحدد سعر السلع [illegible] وتجزئته ، [illegible] على [illegible] في كل مكان

وكانت الحكومة تحصل على مقدار معين من محصول [illegible] بسعر معين [illegible] المحصول لم يكن خاضعا لأي قيد ، وكان يباع في الأسواق بأسعار متداولة

ويتبين من كل ما سلف [illegible] ما ذهب اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة وجود في مدن مصر وقراها ، اللهم إلا في منطقة الاسكندرية [illegible]

ويبدو [illegible] أنه في حالة السلع التي كانت الحكومة تحتكر [illegible] أو تحتم إعطاءها نصيبا معينا منها كانت الحكومة تعتبر تجارة التجزئة بمثابة عملائها الذين يساعدونها على بيع السلع للأهالي . ويرجع أن كل أصحاب الحوانيت كانوا يحصلون من الحكومة على ترخيص لمزاولة البيع [illegible] من إعطاء الحكومة [illegible] ذلك جانب كبيرا من أرباحهم

ويتضح من إحدى وثائق القرن الثالث قبل الميلاد [illegible] كان [illegible] سعر [illegible] السلع التي حددت الحكومة أسعارها [illegible] هذه السلع كانت [illegible] على [illegible] الحكومة محتكرة [illegible] الربح و [illegible] ، ومن [illegible] أيضا [illegible] و [illegible] والعطور [illegible] فكانا [illegible] السلع التي [illegible] تحددها الحكومة أسعارها كان [illegible] الأشخاص الذين [illegible] من الحكومة حق [illegible] وبيعها فقد كان كثير من [illegible] خاضعة لنظام عوائد أن يستأجر [illegible] من الحكومة حق [illegible] وبيعه في منطقة معينة مثل [illegible] لكن في بعض الأحيان كان حق البيع وحده هو الذي يستأجر مثل بيع اللحوم و [illegible] ولا شك في أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا لحالة العرض والطلب ، لكنه لكيلا يمادي التجار في أرباحهم ، رأى وزير المالية ألا يترك لهم الحبل على الغارب [illegible] طلب الى وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة . ومعنى ذلك أنه حتى في حالة السلع التي كانت الحكومة لا تحدد أسعارها [illegible] لم يكن الاتجار مطلقا ومحررا من كل قيد ، لأن الأسعار كانت خاضعة لنوع من الاشراف [illegible] ومعنى ذلك أن كافة السلع التي لم تكن لها أسعار محددة كانت خاضعة لاشراف الحكومة ، [illegible] الوثائق [illegible] أن أسعار الحبوب [illegible] كانت تتفاوت من وقت الى آخر [illegible] كما [illegible] كانوا [illegible] فاحشة [illegible] الى أن [illegible] كان أكثر [illegible] الحبوب [illegible]

ويمكن أن نوجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية في:

(أ) الأرباح التجارية التي تجنيها من المواد التي كانت تحتكر صنعها وبيعها أو بيعها فقط

(ب) الأجر الذي تحصل عليه نظير السماح بالتزام صنع وبيع سلع أو بيعها فقط

(جـ) الضرائب التي كانت تفرضها على تجار التجزئة

(د) الضرائب التي كانت تفرضها على الأهالي لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استخراجها مثل الملح والجعة

(هـ) المكوس والعوائد التي كانت الحكومة تحصلها عند نقل السلع من منطقة الى أخرى

٢ ـ التجارة الخارجية

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشبه العربية قسمين: وأحدهما المواد التي كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخمور، ويرجح ان اللازم منها لسد حاجة الجيش والأسطول وباقي مصالح الحكومة والمنشآت العامة كان يستورده وقف على تلك ... ما يلزم من هذه المواد لسد حاجة الأفراد فكان يتجر فيه الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جمركية معلومة. وكان القسم الآخر يشمل سلعا تنتج مصر مثلها، وكان التجار هم الذين يستوردونه ... ويدفعون عنه مكوسا مرتفعة ... من الوثائق ان المصانع ... على الأقل في جهة بلوزيوم ... أربع فئات بحسب المكوس الجمركية التي تجبى عنها، وكان قدرها ٥٠٪ عن الفئة الأولى و ٣٣٪ عن الفئة الثانية و ٢٥٪ عن الفئة الثالثة و ٢٠٪ عن الفئة الرابعة وكانت الفئة الأولى تشمل الزيت وعدة أنواع من النبيذ الفاخر ... ، والفئة الثانية نبيذ ... وكذلك ... ، والفئة الثالثة العسل والجبن واللحوم والأسماك المجففة والكوامخ والأسفنج والجوز والرمان والآنية الفخارية، والفئة الرابعة الصوف

ومما يجدر ملاحظته انه اذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس التي كانت تجبى في باقي بلاد البحر الأبيض المتوسط، فان هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد، فقد كانت ضريبتا ٥٠٪ و ٣٣٪ اللتين تدفعهما مستورد النبيذ الأجنبي تقابلان ضريبتي النصف والثلث المفروضتين على مزارعي الكروم، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على العسل الأجنبي تقابل ضريبة الربع المفروضة على النحالين في مصر، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدي الأسماك المحليين

كانت تصدر إلى الجنوب والشرق كثير من مصنوعاتها من منسوجات والزيوت والأنبذة الزجاجية والأسلحة وغيرها من مصنوعات الشمال ، وكذلك بعض المحصول من شمال الأبيض المتوسط . ولعل يرى أن الملك كان يساهم في تجارة الصادرات لكنه لم يحتكرها ، وإن كان يشرف عليها إشرافاً دقيقاً من أجل الحصول من التجار على ضرائب نظير مزاولتهم هذا النشاط ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس الجمركية . وقبل كل شيء من أجل ضمان عدم استنزاف كل منتجات البلاد في التصدير خشية أن يقل المعروض في الأسواق المحلية فترتفع أسعار المعيشة تبعاً لذلك مما يفضي حتماً إلى زيادة تكاليف الإنتاج فتقل أرباحه .

خامساً – ضرائب شتى

وبالإضافة إلى الضرائب المتعددة التي فرضها البطالمة على مزارعي الملك ومختلف أرباب الأراضي والمشتغلين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم دخلاً وفيراً . ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التي فرضوها على (١) مباني (٢) ... (٣) تسجيل العقود (٤) بيع والشراء (٥) المزادات (٦) انتقال ملكية الأملاك الثابتة (٧) ... (٨) مستخدمي ... (٩) مستخدمي الطرق الخ . وذلك فضلاً عن السخرة وعدد من الضرائب الإضافية

أما الرقيق فقد كان استيراده محظوراً في القرن الثالث قبل الميلاد إلا للاستعمال الخاص ، وكان محرماً عليه ... ويسمح منه في تجارة للملك ...

ويبين مما أسلفناه أن المكوس الجمركية مرتفعة لم يقصد بها حماية المنتجات المصرية تماماً ، وإنما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات

أما عن واردات مصر من الجنوب والشرق فإنه يرجح أن الملك كان يحتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار ينقلونها إلى مصر أو ممتلكاتها ، وإذا صح ذلك فإن الملك كان يحتم بيع هذه السلع له بسعر محدد معين ... ولم تكن العطور والبخور وما شابهها تستهلك عادة في شكلها الخام بل مصنوعة إلى روائح ومساحيق وأدوية ، ولكننا لم نجد بعد في الوثائق شيئاً عن النظام الذي كانت تقوم عليه صناعتها ، وإن كنا لا نستبعد أن البطالمة كانوا يحتكرون هذه الصناعة . ولا نستبعد أيضاً أن البطالمة كانوا يحتكرون تصدير هذه السلع في شكلها الخام وكذلك بعد صنعها

ونجهل اليوم جهلاً عميقاً من الذي كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر ، فقد سبق أن عرفنا أن صادرات مصر إلى العالم الغربي لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل بعض منتجات مصرية كانت أهمها القمح والورق والمنسوجات الكتانية والزجاج ومصـ

سادساً – نظام جباية الضرائب

وقد عمدت الحكومة البطالمة إلى نظام الالتزام في جباية الضرائب بوجه عام أو تقريباً، وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب بأنفسهم، كانوا يسهمون في الإشراف على جبايتها، لأنهم بمقتضى تعاقدهم مع الحكومة كانوا يضمنون لها الحصول على ما التزموا به من الضرائب على قدر معين من النقود أو الغلال.

وكان يشهر سنوياً في مزاد علني التزام كل ضريبة على حدة في منطقة معينة ثم تزداد أحياناً في كل حالة على مديرية واحدة، وكان يعلن الإعلان عن المزاد وكل ما ينطوي عليه من شروط كتابة ... في ... بعرض ... ما سيشهر في المزاد. وكان المزاد يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة ممكنة من ضريبة معينة. وتشير الوثائق إلى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد انتهائه، بشرط ألا تقل الزيادة المعروضة عن ١٠٪ مما كان المزاد قد رسا عليه. وكان يتعين على الملتزمين الذين يرسو المزاد عليهم أن يقدموا أشخاصاً يضمنون الوفاء بما تم التعاقد عليه. وكان يتعين على الضامنين أن يقدموا ممتلكاتهم رهناً للوفاء بالالتزام المتعاقد عليه، بشرط أن تكون هذه الممتلكات خالية من أي التزامات أخرى.

وكان يقوم بجباية الضرائب موظفون حكوميون تحت إشراف مراقبين مختصين وكذلك مندوبو الملتزمين، وقد كان من مصالح هؤلاء جميعاً وجوده ... عليهم قانعون من الموظفين ... حصتهم في أثناء مهامهم، فقد كان عليهم أن يساوموا جميعاً على دافعي الضرائب. وهكذا كان هؤلاء الدافعون تحت رحمة أشخاص كل همهم هو الخلاص من المسئولية الملقاة على عاتقهم، دون نظر إلى صالح دافعي الضرائب الذين ... على مضض ... بسبب ما أرهقوا به.

وكان ما يجمعه المحصلون يودع لحساب الملتزم في الخزائن الملكية إن كان نقداً، وفي المخازن الملكية إن كان عيناً. وإذا تبين بعد الحساب الختامي آخر العام وجود زيادة في إيراد حصيلة الضريبة فإنها كانت تؤول إلى الملتزم، أما إذا وجد عجز فإنه كان يتطلب إلى الملتزم والضامنين تسديده في سداده. وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على أملاك الملتزم والضامنين حتى يتسدد العجز.

ويبدو أن مهنة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل في بداية عهد البطالمة، بدليل التنافس في المزايدة وكثرة عدد الملتزمين. لكن يبدو أن الحال قد تبدلت في الشطر الثاني من عصر البطالمة، وإلا لما لجأ بطلميوس الخامس على عطاء الملتزم مرتباً في حالة وفائه بما التزم به وعدم حصوله على مكسب من عمله.

الفصل السادس

القضاء

القانون المدني — القانون الجنائي — الهيئات القضائية

لما كان المصريون أهالي البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وعوائد ونظم جديدة الرسوخ والوقار ، وكان الاجانب أكثر العناصر الأجنبية عددا وأجلهم شأنا وأوفرهم حظا من الحضارة ، فقد أدخل استقلاله كل ... الاعتبارات في حسابهم عند ... تنظيم القضائي وبسبب ذلك أنهم احتفظوا للمصريين بقدر ما تسمح الظروف ، بنظمهم وتقاليدهم الموروثة ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم القديمة التقليدية التي أطلق الاجانب عليها ... «قوانين البلاد»

أما الفريق الآخر فانهم كانوا ثلاث فئات وهي فئة من رعايا المدن الاغريقية ، وفئة أعضاء الجمعيات القومية وفئة الأجانب الذين لم يكونوا من ... المدن الاغريقية ولا أعضاء في جمعيات قومية ولما كان لكل مدينة وجمعية مجموعة من القوانين الاغريقية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فانه من أجل التنسيق بين هذه القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لا ينتمون الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الانواع

وإذا كان البطالمة قد سمحوا للمصريين والاغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحكام قوانينهم المدنية التي كانت مألوفة لكل منهم ، فانهم أصدروا للفريقين قانونا جنائيا موحدا وفرضوا عليهما اتباع قواعد موحدة للاجراءات القضائية

أولا — القانون المدني

١ — الاحوال الشخصية

لقد كان طبيعيا أن توجد فوارق عديدة بين التشريعين المصري والاغريقي ، ونرى مثلا واضحا لهذه الفوارق في نظرة كل منهما الى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع في كنف القانون المصري بمكانة اجتماعية وقدر من الاستقلال لم تعرفهما بعض الشرائع الاغريقية وآية ذلك أن المرأة المصرية كانت لا تتزوج الا بمحض ارادتها ... وقد كانت عادة تعقد عقد الزواج الى حد أنها كانت تحصل ... من الزوج ... في الواقع ... من ...

العقد ... كان يعد مستطيع الاعتصاب عن وجهه على الشاب ، ومطالبته بالصداق الذي سمى عنه في عقد الزواج ... التصرف في نفسها وفيما تملك دون حق ... علي حين ان ... كانت في نظر القانون الاغريقي قاصر ... ومن ثم في حاجة الى وصي يشرف عليها في كل تصرفاتها ... المساواة بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية ، لا برفع الثانية الى المكانة الأولى ، والهبوط بالأولى الى مستوى الثانية حتى لا تصيل المرأة الاغريقية بحالها ... الاثر الاغريقي أيضا في بعض القوانين الخاصة بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق أحد الزوجين في أن يرث الآخر ، وحق الشخص في قبول ميراث أو رفضه . ومن ناحية أخرى أثر القانون المصري في القانون الاغريقي الخاص بالأحوال الشخصية ، فقد أخذ الاغريق عن المصريين عقود الزواج الكتابية بالنسبة لكل مسائل ... ، والقواعد العامة ... سيطرة الأبوين على أبنائهما ، وبعض أحكام الميراث مثل حق البنت في الارث بالتساوي مع الولد ... شرط عدم وجود وصية ... ذلك

ويعتقد كثير من العلماء ان عقد الزواج المصري كان ... نوعين من ... زواج ... يسماه ... زواج الكامل ، والاخر ... زواج ... التجربة ، ويعتبر النوع الاول بأنه زواج ... بوجود عقد ...

بمقتضى الوثيقة ان يعيش الطرفان معا حياة زوجية ، وكذلك شروطا خاصة بالصداق وغير ذلك من العلاقات المادية بين الطرفين ولا سيما حقوق الأولاد . أما النوع الثاني من الزواج فتصور بانه زواج لفترة محددة قد يتحول بعدها الى زواج كامل وقد ينتهي في آخر تلك الفترة دون أن يترتب عليه التزامات دائمة بين الطرفين . ويعتقد العلماء اليوم عموما أن الزواج بين المصريين كان يقوم على اتفاق شفوي بين الطرفين ، أما العقد الذي يصحبه فانه كان لا يتمم الزواج وانما يثبت وجوده وينظم العلاقات المادية بين الطرفين ويحفظ حقوق الأولاد .

أما عن الزواج بين الاغريق ، فانهم في الاسكندرية وبطوليمايس كانوا يعرفون نوعين أحدهما مدني والآخر ديني ، وكان الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » . وقد كان هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين والباب حقوق الأولاد .

ويلاحظ القانونين المصري والاغريقي كان ... كل من ... حق الطلاق ... بمجرد ... الطرفين ... صحو ... لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر

ويعرف القانونان المصري والاغريقي تفرقة واضحة بين الأخ والعصبة. وكان العصبة ثلاث فئات وهي عصبة ... لأفراد وعصبة ...

وقد كان من حق المصريين والاغريق على السواء عمل وصيات. ولكي تكون الوصية صحيحة كان يجب أن يحررها موثق العقود، لكنه كان في وسع الموصي أن يقوم بذلك ثم يقدمها الى موثق العقود. وفي الحالتين كان يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود. وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يرتب الورثة ترتيبا يأتي في مقدمتهم صفة الاولاد، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذي كانت أخته تساوي معه في مقدار النصيب. وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفي قبل جدهم. وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يعطي الأبناء الأشقاء في وراثة أموالهم، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحصل البنات مشاركة في الارث اذا لم يكن قد اعطين مهورهن.

٣ ـ الاحوال العينية

ويعتبر تحرير العقود وتسجيلها يسر السبل لأصحاب الحقوق المتكسبة في حمايتها مختصرة. وقد كان تحرير العقود في مصر الفرعونية يعتمد على ثقة ... بين المتعاقدين ... في عصر البطالمة كان تحرير العقود ثم ... مقصورا على ... تلك الجهة، فقد عرفت هذه الجهة أفرادا من سماسرة الناس. وقد كانت العقود تحرر اما وفقا لأحكام القانون المصري أو لأحكام القانون الاغريقي. والى جانب العقود المكتوبة كان العرف المصري يعرف الاتفاقات الشفوية، وكان على المدين الذي ينكر أنه مدين ... على الدين أن يقسم على صحة ما يقول.

وتتضمن كتابة العقود عادة كان المصريون والاغريق يضعون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة في القانون الاغريقي، مما يدل على أن قانون المدين الاغريقي قد طبق في مصر على المصريين والاغريق سواء بسواء منذ بداية عصر البطالمة. ولا بد من أنه قد سبق ذلك العصر قانون الملك المصري بوكخوريس الذي كان لا يسمح بحبس المدين أو استعباده.

ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون المصري يعرف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تضمين العقود وبعض فيها بعض شروط جزائية، فانه منذ القدم كان الدائنون يحتاطون بوسائل متعددة ... سواء ... مدينين أو غيرهم ... وتتمثل احدى هذه الوسائل ... رهن ... ومعنى ذلك أنه عند عمل القرض يقدم المدين للدائن ... مقابل ... وجه القريب ... على أن ... الدائن ... عند ... الوسيلة الثانية ...

مشروعة (فاحش لعصاني) وهو في معناه القانوني حق دائن على عين مملوكة لشخص المدين غير منقطعة تعطيه سلطة التتبع في مواجهة الحائز لها كما تعطيه سلطة الأسبقية في التتبع والأولوية في استيفاء الدين للدائن الذي انشئت هذه الحق ويتم استيفاء الدين بطريق استرجاع عقارية لسداد الدين

ووفقاً لأحكام القانون المصري كان التزام المدين قبل الدائن لا يسمى بسداد الدين بل استرداد ما دفعه المدين من الدين بمقتضاه ووفقاً لأحكام القانون الأمريكي فإن التزام المدين كان في الأصل يسمى سداد الدين ولكن لم يحدث أي تعديل بين الأمرين فيما القانون المصري القائل بنشأة الالتزام قائم على العقد ذاته وبعدها كانت تحدد هذه وسائل مواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين على إيصال يثبت فيه أنه تم سداد الدين عنه ، أو رد العقد مصحوباً بعقد جديد يتضمن النص فيه على زوال كل التزامات الدائن لدى المدين

ويمكن تمثيلاً وليها بالقروض الفوائد التي تجبى عنها وتلك الوثائق البردية الحديثة تقضي بأن القرض سعر مسموح به رسمياً للفائدة على القروض كان ٢٠ ٪ شهرياً أي ٢٤ ٪ سنوياً وأن من يدفع هذه السعر فإنه لم يكن كافياً حصيلة من يدين به لدائنه فإنهم يكونه بمعرفة سلطة القانون كافة

يلجئون إلى الحيلة بإدماج الفائدة في مبلغ الدين المثبت في العقد حتى يخفى سعر الفائدة وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يفرض على المدين غرامة معينة منصوص عليها في العقد وكان القانون الإغريقي يسمح بأن تصل هذه الغرامة إلى مثل الدين الأصلي ، أما القانون المصري فكان يكتفي بنصف ذلك ، وهو ما كان يحدث عادة حتى في حالة العقود الإغريقية

وكان القانونان المصري والإغريقي يعترفان بحق الأفراد في مباشرة أعمالهم عن طريق الوكلاء ، وبالالتجاء إلى التحكيم في حالة حدوث خلاف على تفسير أحكام العقود ، وتأليف شركات تجارية أو صناعية لمباشرة أعمال عامة أو خاصة وكانت الأصناف العامة التي تتكون الشركات من أجل مباشرتها تشمل التزام الضرائب وتعهدات الحكومة ، وكان الشركاء مسئولين أمام الدولة عن العجز الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم ومسئولية الأفراد بالشركة مباشرة أعمال عامة أم خاصة كان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته

وكان القانونان المصري والإغريقي يتضمنان أحكاماً شبيهة لحقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أراضي أو مبان أو ضيعة أو ماشية أو عبيد وكان يسمح للمستأجر أي نوع من أنواع الإيجار بأن يؤجر الأرض من الباطن إلا إذا نص في العقد الأصلي على خلاف ذلك

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يحرر عقدان يطلق على أحدهما «عقد المال» وعلى الآخر «عقد التنازل». وكان ينص في الأول على تسلم البائع من ثمن الصفقة وعلى [illegible] دلالة على تمام الاتفاق بين الطرفين في هذا الصدد. وكان ينص في العقد الثاني على تنازل البائع للمشتري عن كل ماله من حقوق على العين المبيعة.

وكما كان للتفاعل كل من التشريعين المصري والاغريقي مع بعضهما بعض نتائج واضحة في قانون الأحوال الشخصية، كذلك كان لهذا التفاعل نتائجه في قوانين الأحوال العينية. ويبدو مظاهر الأثر الاغريقي فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة بالملكية الفردية. أما الاغريق فإنهم أخذوا عن المصريين بعض أحكام القانون المصري الخاصة بالالتزامات و «الرهن الضماني» و «البيع الوفائي» وأهم نصوص عقدي المال والتنازل التي أدمجوها في عقد واحد شاع استخدامه في البيوع.

والثابت من الوثائق أنه في عصر البطالمة كان الحكم الذي تصدره محكمة مصرية لا يعتبر قاطعا ونهائيا إلا إذا صحبه تعهد [illegible] عن الدعوى. ويبدو أن الاغريق قد تأثروا بهذا المبدأ المصري في بعض الحالات.

ثانيا – القانون الجنائي

وكان القانون الجنائي البطلمي يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي:

١ – الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم. وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقوة أو الإيذاء [illegible] أو التهديد بالاعتداء واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين والسرقة وإحداث الضرر بممتلكات الغير والغش والتزوير والتدليس.

ومما يسترعي الانتباه أنه في كل هذه الجرائم كانت إقامة الدعوى من شأن المعتدى عليه إلى حد أنه إذا لم يمثل أمام المحكمة ينطوي ملف الاتهام بتبرئة ساحة المتهم.

٢ – الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية. وكانت هذه الجرائم فئتين رئيسيتين: إحداهما الجرائم التي تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في دخل الخزانة من الضرائب، وكان يمكن أن يرتكبها دافعو الضرائب أو عمال المالية أو الملتزمون أو غيرهم ممن يسهمون في التزام الضرائب.

وكانت الفئة الأخرى تشمل الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية بمساسها بمصالح في الملح والاحتكارات.

ومما يجدر بالملاحظة أنه في حالة تصادم فرد مع الخزانة الملكية حظر على المحامين الدفاع عنه ضد مصالح الخزانة وإلا تعرضوا لعقوبة صارمة.

٣ – جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون المصري لا يفرق بين الدولة والتاج ومن ثم تعتبر الجرائم التي ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الإلهي أنه أصبغ على هذه الجرائم صبغة دينية وكان يعاقب فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تقديم الاحترام الواجب للملك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحنث بالقسم الملكي ،

٤ – إساءة استخدام الحقوق العامة ، كان يعتبر الشخص بدون وجه حق للمنصب المدني والسياسي .

٥ – الجرائم الدينية ، وتتحدث الوثائق البردية العديدة عن انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن إساءة استخدام حق الالتجاء إلى المعابد .

ثالثا – الهيئات القضائية

وكان الملك يعتبر كبير القضاة في البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل في المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد أنه لم توجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدني والقضاء الجنائي ، وإن كنا نعتقد أنه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو العامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو الخاصة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأشخاص أو أموالهم . ونحن نرجح أن سائر المحاكم كانت تنظر في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية ، أما الجرائم الخطيرة فلا يبعد أنها كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما تدعوه مصادر الفترة « محكمة ننت » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عهد البطالمة إلى أربعة أنواع وهي : (١) محاكم المصريين ، (٢) محاكم الإغريق ، (٣) المحاكم المختلطة ، (٤) محاكم القضاء الخاص .

١ – محاكم المصريين

ويتبين من وثائق القرن الثاني قبل الميلاد أن محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فضلا عن عضو آخر لم يكن قاضيا ولكنه كان يقوم بدور هام جدا ، وهو تلخيص القضايا وتحضيرها ، وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما تصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا العضو واسم منصبه على أنه كان إغريقيا . ولعل البطالمة قد استحدثوا مهمته تيسيرا لمراقبة سير العدالة في المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد أن وضعوا قانونا جنائيا موحدا للمصريين والإغريق . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل في قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التي يكون موضوع النزاع فيها عقدا مصريا حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة إغريقيا .

٢ – محاكم الإغريق

وكانت توجد في مصر عدة أنواع من المحاكم الإغريقية ، وأكثر المعلومات التي

بدءاً بمحص في محاكم القضاة الإغريق . وكانت محاكم مستقلة للفصل في قضايا الإغريق وغيرهم من الأجانب الذين عرفوا في مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين في إحدى مدن مصر الإغريقية . ويبدو أن مهمة هؤلاء القضاة الإغريق [illegible] معينة لا نعرف مدتها على وجه التحديد ، وأن كل هيئة من هذه الهيئات القضائية الإغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وتعمل بفحص القضايا ويحضرها وكاتب ومحضر . وكانت كل هيئة تختص بالفصل في قضايا منطقة معينة تشمل عدداً من المديريات . ويرجح أن المحكمة كانت لا تعقد إلا في عواصم المديريات المختلفة والمدن الكبيرة .

ونذكر وثيقة بردية مشهورة نوعين جديدين من المحاكم الإغريقية في الإسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين ومشتغلين بالقضايا ومحضرين ، وكان الآخر يتألف من محكمين يعملون تحت إشراف حارس القوانين . ونعن النوع الأول هو الذي كان يختص في قضايا هيئة المواطنين عندما يفشل النوع الذي في فض الخلاف وديا بين المتخاصمين . وإذا كنا نسلم بوجود محكمة القصر ومحكمة الملك في عهد [illegible] ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت [illegible] محاكمها الخاصة بالفصل في قضايا مواطنيها باعتبارها مدينة إغريقية . وفضلاً عن ذلك فإن محكمة القضاة الإغريق لبطلمية كانت تعقد فيها مثل ما كانت تعقد في الإسكندرية للفصل في قضايا الإغريق وغيرهم من الأجانب الذين [illegible] مدينة الإغريقية الثالثة في مصر ، وهي نقراطيس ، فإننا لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن القضاء فيها .

٣ ـ المحكمة المختلطة

ولقد كان طبيعياً أن يؤدي التعامل بين المصريين والإغريق إلى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين . وتحدثنا وثائق القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة لا نعرف كيفية تكوينها ولا مدى اختصاصاتها ، لكنه يرجح أنها كانت تختص بالفصل في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والإغريق . ولا يبعد أن هذه المحكمة قد فقدت كثيراً من أهميتها عندما فقدت اختصاصاتها تبعاً لأحكام القرار الذي أصدره بطلميوس الثامن ايورجتيس الثاني في عام ١١٨ ق . م بأنه إذا نشب خلاف بين مصري وإغريقي بسبب عقد محرر بينهما فإن لغة هذا العقد هي التي كانت تقرر نوع القانون الذي يطبق وبالتالي نوع المحكمة التي تعرض الخلاف عليها . فإذا كان العقد مصرياً فإن القانون المصري هو الذي كان يطبق والمحكمة الخاصة بالمصريين هي التي كانت مختصة بالفصل في الموضوع . أما إذا

كان محمد عرجب قاب نائب الأعرض هو الذي كان يطس ومحكمة القضاة الأعلى هي التي كانت صاحبة الاختصاص في الفصل في الدعوى إن لم تنتهي خلاف بين طرفين مصريين فإنه كان يعرض عرض الأمر على محكمة القضاة المصريين. ويبدو أن القرار لم يشر إلى القضايا التي تنشأ بين طرفين أجنبيين لأنه لم يكن هناك أي نص في أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاة الأجانب. وإذا كان هذا القرار خاصا بالقضايا المدنية فلا بد من أن القضايا الجنائية بين طرفين منتميان إلى جنسين مختلفين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة.

٤ ـ محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل في نطاق «القضاء الخاص» أولاً الشكاوى الموجهة ضد موظفي الإدارة «عمال المالية ونواب القضاة» التي تمس موضوعها موارد الملك، وثالثا القضايا التي تخص الأشخاص الذين يحصلون من الحكومة على امتياز أو كان موضوع هذه القضايا لا يمس ثقة موارد ... وقد كان يعين في كل هذه المحاكم محلفون وكتبة موظفة أو هيئات قضائية برئاسة هؤلاء موظفون. ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية فقد كان يقوم بدور كبير في القضاء نظامي وزير المالية ومساعدوه.

ويبدو أن بطليموس الثاني أنشأ أيضاً محاكم خاصة برجال الجيش، فقد وصلت إلينا من الفيوم وثائق تحدثت عن نظر القضايا بين رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التي مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء في الإسكندرية

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

الإغريق - المصريون - الثورات القومية المصرية

أولاً — الإغريق

١ — حالهم في عهد البطالمة الأوائل

عرفت أن البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا في حاجة ملحة إلى الإغريق لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم وكذلك لإعادة تنظيم شئون الإدارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالاً منظماً دقيقاً. وإزاء كل ذلك كان يتعين على الملوك ألا يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للأجانب، بل أن يغروهم بالمجيء ويمنحوهم مركزاً ممتازاً في وطنهم الجديد، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام. وينبغي أن نتذكر أنه في ذلك الوقت كان العالم الإغريقي هو كل شيء، وأن الحضارة الإغريقية كانت أسمى الحضارات وأرفعها شأناً، وأن حفنة الناس كانت تعيش محرومة حظهم من تلك الحضارة. وأن البطالمة كانوا لا يستطيعون أن ينسبوا لأنفسهم مجداً مستمداً في نظر العالم الإغريقي باعتبارهم فراعنة مصر مهما أنفقوا في بلاد الإغريق من الأموال، وبذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر إغريقياً وأن تبرز مصر في ذلك العالم باعتبارها دولة إغريقية لا دولة شرقية.

وإزاء الظروف الخارجية التي أحاطت ببطلميوس الأول حين كان يرمي إلى توطيد دولته في مصر، كان يتعين عليه أن يعمل على اجتذاب الإغريق إلى مصر والاستقرار فيها بشتى الوسائل، دون أن يهمل في الوقت نفسه مشاعر المصريين. ولعله لم يجد منفعة خاصة له في بادئ الأمر أن يرضي المصريين فحسب، بل أيضاً وقبل كل شيء، لأنه كان أكثر أمناً من الاعتداءات الخارجية، إذ أنه ما كاد يستشعر مقدرة جيشه وأسطوله على تأمين مركزه في الإسكندرية حتى نقل مقره إلى هذه المدينة الإغريقية. وإذا كان قد استخدم بعض المصريين في المناصب الإدارية الهامة أو سمح لهم بالاستمرار فيها، فإنه يبدو مستحيلاً أنه لم يعتمد [illegible] الإداريين من حال على [illegible] في التدريب والتفكير. وقد ضمن هؤلاء الإغريق [illegible] ما ضمن لاحتوائهم في شتى نواحي الحياة المصرية [illegible] ومركزاً ممتازاً.

ولا جدال في أن السياسة العامة التي انتهجها بطليموس الثاني كانت تستهدف محاباة الاغريق على حساب المصريين ونشر الحضارة الاغريقية في أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل الى أن بطليموس الثالث قد سار على نهج سياسة أبيه . ويبدو ان سلطة الاغريق قد أتاحوا حكمهم في مصر باعتبارهم غزاة فاتحين فلم ينسوا أو يتناسوا مطلقا أصلهم الأجنبي ولم يعتمدوا في تأييد سلطانهم الا على الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم الفخر بأصلهم والاعتزاز بحضارتهم .

وقد كان أول مظاهر عطف البطالمة الأوائل على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لميولهم ، ولذلك عنوا بإنشاء الاسكندرية وجعلها مظاهر الحياة الخليقة بالمدن الاغريقية حتى غدت أعظم هذه المدن في البحر الأبيض المتوسط . وأنشأ بطليموس الأول مدينة بطوليميس ووفر بها كل أسباب الحياة الاغريقية . وفضلا عن ذلك كان لنقراطيس ، تلك المدينة الاغريقية القديمة ، استمرت تنعم بما ألفته من نظم الحياة الاغريقية وأساليبها . وقد كان هدف البطالمة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الاغريق الذين ينزلون في هذه المدن بحضارتهم الاغريقية في قلب مصر وعرضها .

أما الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر الاغريقية ، فانهم تفرقوا في جنبات الوادي واستقروا في المدن والقرى المصرية القديمة أو في القرى الجديدة التي أنشأها لهم البطالمة وخاصة في الفيوم . ولذا كنا نجد بين هؤلاء الاغريق عددا من مواطني مدن الاغريقية ، لأن أكثرهم كانوا أصلا مواطني مدن أخرى في العالم الاغريقي . وعند استقرار هؤلاء الاغريق في وطنهم الجديد ظلت الغالبية منهم لا يحتفظون بلقبهم السياسي القديم عند ذكر أسمائهم في الوثائق الرسمية . وقد كان سكان مصر من غير أهلها الوطنيين ينقسمون حسب منازلهم في المرتبة بينها ألقاب سياسية وجنسية . وكان محظورا الانتقال من احدى فئات السكان الى فئة أخرى دون الحصول على اذن بذلك من الملك .

وقد كان الاغريق يؤلفون جماعات كانت أهمها نشأة تلك الجماعات القومية التي كان أعضاؤها أشد اتصالا وثيقا بالجيش ، ويتألف كل منها ممن ينتمون الى قومية معينة . وقد كان لكل جماعة من هذه الجماعات مجموعة قوانينها الخاصة ويظهر فيها بوضوح أثر المدن الأيونية والدورية والايولية التي وفد منها أعضاؤها في الأصل . واذ كان البطالمة قد اعترفوا بهذه الجماعات فانهم مع ذلك عملوا على التنسيق بينها بما كانوا يصدرونه من تعليمات أو من الأوامر الملكية . وقد كانت هذه الجماعات منظمة على نمط المدن الاغريقية ، وتتمتع بقدر من الحكم الذاتي ، ولكل منها حكامها وكهنتها ومعابدها في محال معينة .

ويدل على هذه الجماعات في الأهمية

أو بعدها كانت تنص لها جمعيات جالية الصحة يوم عيد كان للإغريق ، حيث تجتمع سواء في المدن الإغريقية أم في المدن والقرى المصرية ، يحتفلون بهذه المناسبة الحسنة التي كانت من الحياة الاجتماعية والفكرية في بلاد الإغريق منذ أقدم العصور

وكانت تأتي بعد ذلك في الأهمية جمعيات عرقية كان لها طابع ديني أو اجتماعي ويعزى انتشار هذه الجمعيات بين الإغريق في مصر إلى ميل هؤلاء الإغريق إلى نوع من الحياة الاجتماعية يعوضهم إلى حد ما عن جانب من حياة المدينة الذي كان عزيزاً عليهم قريباً إلى قلوبهم ولكنهم حرموه في مصر ، إذ لم يكن أغلب الإغريق في مصر مواطنين في مدن يشتركون في مجالسها ومحاكمها ، فلا عجب أن شعروا بتلك الجمعيات لتوفر لهم الاجتماع والمناقشة والاتصال

٢ ـ علاقاتهم بالمصريين

ولا جدال في أن أوساط الأجانب ، الذين وفدوا على مصر أفواجاً تلو أفواج في خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون طبقة منفصلة عن سكان البلاد تفصلهم عن أهلها شقة واسعة ، فقد كان مركز هؤلاء الأجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مختلفاً عن مركز المصريين وأكثر منه امتيازاً وحتى إذا الإغريق في الجيش ... نظمه ... في البلاد ... ويحصلون على ... صاحب ... يعتبرون مصر ... ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون في أوساط خاصة بهم ، ويحيون حياتهم التي اعتادوا أن يحيوها في بلادهم. وكان المصريون يؤمنون الصحة نفسها ، ويشعرون بأنهم ... كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ، ومع ذلك فإن المصريين يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويذكرون مجدهم التليد. وإزاء كل ذلك نستطيع أن نوفق بين ... التزاوج بين المصريين والإغريق في الشطر الأول من حكم البطالمة كان أمراً بعيد الاحتمال ، ومع ذلك لا يمكن الجزم بأنه لم يحدث قط أي تزاوج على الإطلاق

٣ ـ حالتهم في عهد البطالمة الأواخر

وهكذا كان قوام سياسة البطالمة الأوائل أن يشركوا الإغريق في حكم البلاد والسيطرة على المصريين ، وأن يوفروا لأولئك المحظوظين أسباب الرزق الفسيح وأساليب الحياة التي تتفق مع حياتهم الرفيعة ، فنال الإغريق كل النعم وتحمل المصريون كل الغرم. أما منذ عهد بطلميوس الرابع فقد أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين تنطوي على إفساح بعض المجال لهم إلى جانب الإغريق أملاً في كسب ودهم وولائهم ، لكن البطالمة لم يذهبوا إلى حد مساواة المصريين بالإغريق ولا أدل على ذلك من أنه لم يكن أعلى رجال الجيش وقواد ... وكبار الحكام من الإغريق ، ومنذ ... الصراع ... للإغريق ، ومن إلى

أكثر الاضطهاد نتيجة للإغريق. ولم يعتبر في عداد الطبقة العليا مصرية من سكان البلاد إلا الإغريق والمصريون المتأغرقون الذين اصطبغوا بصبغة إغريقية.

وإذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا نتيجة لإقبالهم على التعليم الإغريقي حتى أصبحوا يتكلمون الإغريقية ويتزاوجون مع الإغريق ولاتخاذهم ملابس إغريقية وأسماء إغريقية فأكسبتهم هذه الصبغة الإغريقية مكانة ممتازة هي مكانة الإغريق، فإن بعض الإغريق أيضاً قد تأقلموا إذ أنهم تعلموا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية واتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية.

٤ — اختلاطهم بالمصريين

ويبدو أنه في الشطر الثاني من حكم البطالمة عندما انقطع وفود أفواج جديدة من الإغريق، وتأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض الإغريق حدث شيء من التقارب بين العنصرين المصري والإغريقي، ونشأ عن ذلك في اعتقاد كثير من المحدثين أسر مختلطة إغريقية — مصرية. ويستدل على هذه الظاهرة بأن وثائق تتحدث عن كثيرين ممن يحملون أسماء مصرية وإغريقية، وبذلك لم يعد الاسم منذ القرن الثاني قبل الميلاد دلالة على الجنسية. ولكن لا نرى أن الجمع بين الأسماء المصرية والإغريقية يدل حتماً في كل حالة على تزاوج بين المصريين والإغريق، فلم يكن كل من يحمل اسمين ثمرة علاقة واحدة بين طرفين أحدهما مصري والآخر إغريقي. وقد يكون الجمع بين الأسماء المصرية والإغريقية نتيجة لاصطباغ بعض المصريين بالصبغة الإغريقية أو تأقلم بعض الإغريق، مما حدا بالفريق الأول إلى إضافة أسماء إغريقية إلى أسمائهم المصرية، وبالفريق الثاني إلى إضافة أسماء مصرية إلى أسمائهم الإغريقية. ولسنا في حاجة إلى الذهاب بعيداً للتدليل على صحة ما نراه، فلا يزال بين ظهرانينا كثير من المصريين ممن لم يكونوا ثمرة تزاوج مختلط وإنما ثمرة أبوين مصريين كانت ثقافتهما إنجليزية أو فرنسية فأعطيا أبناءهما أسماء إنجليزية أو فرنسية. ومع ذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث في الشطر الثاني من عصر البطالمة تزاوج بين المصريين المتأغرقين والإغريق المتمصرين، لكننا نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد حدث بالكثرة التي يتوهمها البعض، إذ أن تلك الفئة من المصريين والإغريق لم تكن تمثل بالنسبة للعامة سوى قلة من الإغريق والمصريين مجتمعين. وإنه إذا كان الشطر الثاني من عهد البطالمة قد شهد تقارباً بين المصريين والإغريق، فقد شهد أيضاً ثورات المصريين القومية على البطالمة والإغريق، ولابد من أن تلك الثورات قد حدت من أثر ذلك التقارب. ومن المرجح أن التزاوج بين العنصرين المصري والإغريقي قد اتسع في الشطر الثاني من عصر البطالمة، فقد بقي سكان البلاد عنصرين منفصلين مختلفين في ثقافتهما،

جديدة عن وتتألف من الاغريق وأبنائهم والأجيال التي تسمى وتكون من المصريين المصريين.

٥ — فئات الاغريق

وقد كان الاغريق ومن على شاكلتهم من الأجانب المقيمين في مصر يتألفون من الفئات التالية .

أولا — فئة الموظفين ، وكانت تشمل الموظفين المدنيين والعسكريين

ثانيا — فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت تشمل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمحامين والمهندسين والمعماريين والمصورين والمثالين والفنانين ومحترفي الألعاب الرياضية

ثالثا — فئة رجال الأعمال ، وكانت فئة كبيرة من الأثرياء متوسطي الحال الذين يمتلكون أراضي وعقارات ويشتغلون بالتزام جمع الضرائب أو المصارف أو جباية الضرائب .

رابعا — فئة أرباب الحرف اليدوية ، وكانت فئة كبيرة تتألف ممن كانوا يكسبون قوتهم من الأعمال اليدوية في الزراعة والصناعة والتجارة كعمال وصناع وما أشبه ذلك .

٦ — محافظة اغريق مصر

ولما كان الاغريق قد احتفظوا معهم من بلادهم بدياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا يخضعون لقوانين اغريقية ويحاكمون أمام محاكم اغريقية ، ويعيشون عادة في أوساط اغريقية ينشئون فيها مدارسهم ومعابدهم وجمعياتهم . وكانت أفواج الاغريق تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتطعمهم بدماء جديدة . وكان الاغريق فرصة على التزاوج مع المصريين حتى نهاية القرن الثالث ، وكانوا يعتزون بعنصرهم الاغريقية ؛ ولا سيما أنها كانت مصدر ما يتمتعون به من الخير العميم في مصر ، فلا شك في أنه وسط هذه الظروف قد حافظ اغريق مصر على لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم فبقوا اغريقا خالصين حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

ولا جدال في أن اغريق مصر كانوا يعيشون في أوساط اغريقية بوجه عام ، لكن يجب ألا ننسى أن هذه الأوساط ، حتى في المدن الاغريقية ، كانت تقوم في بيئة غريبة عن الحياة الاغريقية في أخص خصائصها ، وبذلك فإن المحافظة على قوة الروح الاغريقي بين اغريق مصر كانت لا تتوقف على استمساكهم بلغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم فحسب ، بل كذلك على تغذية هؤلاء الاغريق على الدوام بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق لكونهم بعيدين عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح الاغريقي . لكن منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد انقطع ورود أفواج جديدة من الاغريق بسبب نقص عددهم في بلادهم ، فكان طبيعيا أن يضعف الروح الاغريقي تدريجا بين اغريق مصر . ومع ذلك فإنه مهما ضعف هذا الروح قد بقي اغريق مدن مصر

الإغريقية اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ، ونتيجة لاستمرار ثقافة وعادات الاغريقية في مدينة نقراطيس ، ولا سيما في الاسكندرية التي كانت لا تزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة في العلوم والفلسفة والآداب .

الى أن السبب الذي أدى الى ضعف الروح الاغريقي في مدن مصر الاغريقية كان به أثر القوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ، ولا سيما أنه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية ، وبذلك أصبحت لأرباب هذه الاقطاعات مصالح دائمة في البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد وألا يشعروهم أنهم غرباء عليهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين ، فانهم منذ عهد بطلميوس الرابع أخذوا يفسحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق وساعد على التقريب بين العنصرين ، حتى لا يبعد أن يكون قد تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية — الاغريقية .

ولقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة في اضعاف الروح الاغريقي بين اغريق الأقاليم ، غير أنه ما كانت الصفة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا فقد كان هناك فهل نستنتج من ذلك أن غالبية الاغريق تمسكوا بخصائصهم الاغريقية ؟ يبدو لنا أنه مهما ضعف روح اغريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن الاغريق الخلص ، وأنه اذا كان بعض الاغريق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصريات واتخذوا أسماء وعادات مصرية ، فإن أغلبهم ظلوا اغريقا خالصين ، وذلك بفضل أثر مدن مصر الاغريقية ، وأثر معاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التي كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة في البلاد .

ثانيا — المصريون :

١ — البطالمة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب في أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسبة الى المصريين الذين كانوا يعدون بالملايين . وكانت تأتي في مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بشقيها المدني والديني . ويبدو أن بطلميوس الأول سمح للأرستقراطية المصرية المدنية بالاحتفاظ بممتلكاتها وبشيء من سلطان في الادارة لكننا لا نسمع شيئا على الاطلاق عن هذه الأرستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يبعث على الاعتقاد بأن البطالمة عمدوا منذ أواخر عهد بطلميوس الأول على حرمان هذه الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها الادارية ولعله لم يبق من هذه الأرستقراطية الا نفر كان قليل العدد محدود الثروة سوى مناصب في القرى المصرية في الصعيد

وسمح الإدارة الإغريقية بأن لا يسمع صوته مصرية لا سبيه ... يسمح في بداية عهد البطالمة بممتلكات و ... وحتى ... البطالمة ما كان يسمح به عهد الأرستقراطية من تقاليد ... ويروج ... على بعض أتباعها وذلالها . ومع ذلك كان للكهنة المصريين ، حتى في العصر الأول من حكم البطالمة ، يكونون فئة ممتازة بين الأهالي ، فقد كانوا عادة يعفون من الأعمال الجبرية ويؤدون مهام عملهم دون تدخل الحكومة في شئونهم . وبعد موقعة رفح واشتعال لهيب الثورات القومية ، شعر البطالمة بأن لا غنى عن سلفهم وجبروتهم واتباع سياسة جديدة في مصادقة رجال الدين رغبة منهم في كسب امتيازاتهم

ولا ريب في أنه إزاء تعرض الأرستقراطية الدنيوية للتخريب ، وإزاء تمتع في الشطر البطلمي الأواخر من جانب الكهنة المصريين ، وإزاء مكانة هؤلاء الكهنة ونفوذهم بين الأهالي في طول البلاد وعرضها أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية

ولكن عصر البطالمة كانت تلي الأرستقراطية بشقيها الديني والدنيوي ، طبقة المحاربين المصريين ... الطبقة مكانتها ... الكثير على عهد البطالمة الأوائل ، بسبب اعتماد أولئك البطالمة في تكوين جيوشهم البرية والبحرية على العناصر الأجنبية ، وعدم استخدام الجنود المصريين حتى موقعة رفح إلا في أعمال الحرس الثانوية ، وقصر منح البطالمة الأوائل على جنودهم المقدونيين والإغريق . فلا عجب أن هؤلاء الجنود المصريين كغيرهم من سائر طبقات المصريين ... للاستغلال الأجنبي وذاقوا مرارة الإهانة والحرمان فأسهموا في الثورات القومية حتى بعد الانتصارات التي أحرزوها في موقعة رفح . ولا شك في أن حال هذه الطبقة قد تحسن في الشطر الثاني من عهد البطالمة لكنه كان تحسنا نسبيا بالقياس إلى ما كانت عليه قبل ذلك ، فقد كان الجنود الأجانب لا يزالون يكونون النصيب الأكبر من القوات البطلمية ، ويتمتعون بأرفع المناصب وأكبر الاقطاعات

وكانت طبقة الموظفين تلي هذه الطبقة في عصر البطالمة . وكانت هذه الطبقة تتألف من كتبة ومتداولي السجلات . ويبدو أن منهم ... ولم يبق في خدمة الحكومة من الموظفين المصريين إلا فئة صغار الكتبة الذين اضطروا إلى تعلم اللغة الإغريقية وتعلم نظم الحكم الجديدة والخضوع لرؤسائهم الجدد . ولم تكن المناصب الحكومية المتواضعة التي يشغلها المصريون تؤديهم في خلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر خير عظيم لشاغليها ، فقد كانت مسئولياتها أكثر من مغانمها . أما في الشطر الثاني من عصر البطالمة فقد سمح للمصريين بتولي بعض المناصب الرئيسية في الإدارة المحلية

وكان من أول مؤسسي الطبقات الاجتماعية ملايين المصريين . وكان ... كلهم من الزراعة ويشتغل بعضهم بالصناعة والتجارة ... وكانوا كالعادة عماد حياة البلاد الاقتصادية ، ولذلك كانوا أكثر تأثراً من غيرهم بتلك الحالة الاقتصادية الكريهة التي وضعت البطانة للبلاد . ولما كان الهدف الرئيسي لهذا النظام جمع الثروة أو بعبارة أخرى سلب الشعب ، فقد كان يعني توجيه كل جهود الأهالي نحو تحقيق هذا الهدف .

ولم يكتف هذا النظام المصري بأن كانت الفرص التي أمام طبقات المجتمع لا تراه فيها عاملة إنما كانت مقيدة بالسلطة الغالبة للمصريين الذين ألقيت عليهم القسط الأكبر ، فقد كان يبقى على هذه الطبقة العديدة موارد الحكومة بطريقة من الطرق ، مما يشابه زرع الملك ، أو عملهم في مصانعه أو في مصانع لنفس الحكومة أو في مصانع تؤدي له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من نتاجها ، أو تجار تجزئة ، أو رعاة ، أو صيادين ، أو يشتغلون بالنقل البري أو المائي ، ويدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم . وإلى جانب كل هذه الأعمال العديدة التي كانت الحكومة تستمد منها دخلا كبيرا ، كان يفرض على الأهالي أداء كثير من الخدمات الإجبارية ... في الأعمال التي تتعلق بها ... الزرع والصنع والعمال المصريين ...

وهذا مما ... في أي وقت مضى ، فإن ... لأن ... لكي ... أكثر من الربح عصر على ... الزرع في أدى حد ممكن ، ويرجع ذلك إلى عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

ونتيجة للتبعات الثقيلة التي كان المصريون يرزحون تحتها ... لم يكن على شيء من اليسر من ملايين المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة إلا نفر قليل ، كان بعضهم زراعا ناجحين ... أراده الله أن ... الحكومة ... باستصلاح بعض الأراضي وزرعها كروما أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا ... الاستغلال الخاص . أما البعض الآخر فإنهم كانوا ... ناجحين يزاولون ... تحتكرها الحكومة احتكارا كليا ، وبذلك لم يغلق دونهم باب الكسب إغلاقا كاملا .

وهكذا نرى أنه لم ... من ... الطبقة ... من المصريين ، وظلت حتى كانت ... يزاولون للآخرين وأشبعهم أسباب الحياة الرغدة الكريمة ، ... طبقة الكهنة والجنود وموظفي الحكومة ونفر قليل من الزرع والصناع في الشطر الثاني من عصر البطالمة الأخير من حيث الغالبية العظمى من المصريين ، فإن هؤلاء القلائل من المصريين ، الذين كانوا أسعد حظا من سائر مواطنيهم ... من حيث ... الإجمالية ...

ثم نستطيع أن نتصور التقارب الهائل بين حياة الأجانب وحياة المصريين بوجه عام

٣ — حضارة المصريين

وتشير جميع القرائن التي بين أيدينا إلى أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، يعبدون آلهتهم، ويخضعون إلى حد كبير لقوانينهم الفرعونية. وكان المصريون يلتقون إما في أندية جمعياتهم، أو في بيوت الأعيان كما هي الحال اليوم في الريف، أو في المعابد ليستمعوا إلى قادتهم الروحيين ويتبركوا بهم في معابدهم.

ولما كانت الأمية فاشية بين المصريين، وكانت أعرق المدارس المصرية وأوسعها انتشاراً وأبعدها أثراً في الناس هي المدارس الملحقة بالمعابد، وكانت هذه المدارس هي المعاقل الحصينة للثقافة المصرية، وكان رجال الدين الحراس الأوفياء على تراث الماضي، فإننا نستطيع أن نؤمن أن غالبية المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظاهر الحضارة الإغريقية، وأن مدارس المعابد قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الإغريقية. ومع ذلك لا شك في أن المصريين الذين طمحوا لمناصب في الحكومة قد اضطروا إلى تعلم اللغة الإغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية. ولا نحتاج بعد إلى أن نذكر أن أولئك الموظفين الذين تعلموا الإغريقية لم يكن حظهم من الحضارة الإغريقية إلا يسيراً. ولعل الطبقة العليا من المصريين رأت في تعلم الإغريقية والاستزادة من موارد الثقافة الجديدة سبيلاً لإكمال مؤهلات أفرادها، فاستخدمت مدرسين خصوصيين أو أدخلت أبناءها في المدارس الإغريقية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد. ومع ذلك كان يبدو شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا منذ عهد البطالمة الأوائل يحصلون على قسط من الثقافة الإغريقية مثلما في الفيوم بمركز يحاذي مركز الإغريق. لكن إذا كانت طبقة النخبة وكذلك فئة الموظفين تمثلان الصفوة، وكان حظ أكثر موظفي الحكومة المصريين من الثقافة الإغريقية تافهاً، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين، فلابد إذن من أن نسلم بأن الثقافة الإغريقية بين المصريين كان محدوداً.

وقد أسلفنا أنه لم يحدث تزاوج بين المصريين والإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد، وأنه في الشطر الثاني من عصر البطالمة تمصر بعض الإغريق وتأغرق بعض المصريين، مما جعل من اليسير حدوث تزاوج بين المصريين المتأغرقين والإغريق المتمصرين، وانتشار الأسماء المختلطة بين هذين الفريقين. ولابد من أنه قد صحب ذلك أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثياباً إغريقية. لكن إذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئاً من اللغة الإغريقية وآدابها، وأنهم بطبيعة الحال لم يتزاوجوا مع الإغريق على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الإغريق،

فلابد أنهم من أصل لم يحددوا أسماءه الفرعية ولا سيما الفرعونية

وجملة القول أن المصريين بوجه عام ، وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارية وديانة ترجع إلى أقدم العصور ، ظلوا مصريين خالصين في مجموعهم ، وعلى حين أن تمصر منهم من استوطن في أقاليمهم وصبغوا عاداتهم بصبغة مصرية تدل على الفراعنة على أنه لم تنسجم قوميتهم ولم تكن أكثر من طلاء خارجي لم يمس جوهرهم

ثالثا ـ الثورات القومية

١ ـ الأسباب

وليس من العسير أن نتصور سخط المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالمة استقلالهم ، وكيف أثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ، وكيف قضوا على الأرستقراطية المصرية القديمة ، وكيف أبعدوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين ، وكيف وفروا للأجانب أسباب الحياة الرغدة في بلادهم ومنحوهم أرفع المناصب وأخصب المزارع وأوسع الإقطاعات . ولم يتحمل منهم من كل ما تعوده من عنف وعسف في سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يحسبون لهم حرمات القدسية ، ويحكمون على الأمة ، ويعتبرون على الحماة ، وإنما في سبيل ملك أجنبي وحكم أجنبي يأمره اصطفاه دولته الملك لتحكم في حكم البلاد ، وإرغام الناس على بذل أقصى الجهد في استغلال موارد البلاد الاقتصادية . فلا عجب إذن أن تنصب قلوب المصريين بكراهية الأجانب ، وأن تنفجر مراجل غضبهم في وجه مغتصبي بلادهم ، فقد تضافرت في إشعال لهيب الثورات المصرية ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر في حياة الناس في كل زمان ومكان ، وهي العامل الديني والعامل القومي والعامل الاقتصادي .

وفي وسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأي سبب ، فقد امتلأت النفوس غضبا وحقدا ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين كانوا يشعرون أشد الضيق بالنظام الاقتصادي الصارم الذي استحدثه أو أحكم شرائعه بطلميوس الثاني . ولم يفتقر الثوار إلى قادة وزعماء ، فإن النبلاء المصريين ، وقد عصف البطالمة بمكانتهم وثرواتهم وامتيازاتهم ، وكذلك رجال الدين ، وقد كسر البطالمة ولا سيما أوائلهم شوكتهم ، كانوا جميعا يحنون إلى سيادة ما كانوا ينعمون به في الماضي من الكرامة والعزة والثراء .

٢ ـ الثورات

ونستخلص من الوثائق أن المصريين قد أظهروا تبرمهم على ذلك النظام الاقتصادي التعسفي منذ عهد بطلميوس الثاني ، إذ تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع إضرابات عديدة فيه من عسف ، كانت تنتهي بأصحابها إلى

العمل وقد دفعهم الى التمادي للاحتفاظ بالآلهة وقد حدث هذا الاضطراب بالذات عقب على مضي الزمن فوضعت في عهد بطليموس الثالث ... ثورة سببها ... سوء ... المصريين شيئا و ... تم ... لا ... سيما هم في موجة ... وقد كان بعض المصريين لحماسهم الذي اصاب بينهم ... بأنفسهم وتزكي روح الوطنية الكامنة في صدورهم فيخلصوا بلادهم من نير الأجنبي مثل ما خلص أجدادهم من الهكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريبا

لقد صبر المصريون على ظلمهم كارهين من أن يبقى لهم من انتصارهم في موقعة رفح ان تفرق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وانهم على الاقل لم يأبهوا السادة الذين اوسعوهم عسفا واستغلالا فلا عجب ان كان الجيش نفسه من رفح حتى تأججت نار الثورة بين المصريين وقد حدثت الثورة في بدايتها في عام ٢١٦ ق . م ولم تنته عام ٢٠٦ حتى كانت قد اشتدت واشتعلت لهيبها في مصر الوسطى ومصر العليا وقد بقيت نار الثورة مستعرة في البلاد حتى عام ١٨٤ - ١٨٣ ق . م عندما وقعت ... في قبضة بطليموس الخامس ... مصريين أعظم ... بعد أن ... حياتهم ... على ...

ولم يكد بطليموس السادس يخرج من ... بطليموس الرابع ... حتى ...

في عام ٦٥ - ١٦٤ ق . م الثورة التي قام بها زعيم مصري متأغرق يدعى ديونسيوس بيتوسرابيس كان ذوي منصب كبير في القصر الملكي ووضع ... كما ... مصريين ، وقام بدور ممتاز في الحرب ضد ... وقد ... ان ديونسيوس كان يريد استغلال النزاع الأسري بين بطليموس السادس وأخيه الصغير للتخلص من الأخ الأكبر باستثارة جمهور الاسكندريين ضده ؛ حتى اذا ما تم له ذلك استقر وسيلة المصريين ضد الأخ الأصغر ، وبذلك ينقذ بلاده من مغتصبيها لكن الوفاق بين الأخوين أحبط مسعى ديونسيوس خطة ومكن بطليموس السادس من هزيمته غير أن ديونسيوس تمكن من الفرار وتمكن من نشر الثورة في البلاد ، فاضطر بطليموس السادس الى القيام بحملة حتى ... لاخماد هذه الثورة

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رحبت ... الخلاف بين بطليموس الثامن وأخته كليوبترة الثانية وانقسمت فريقين ؛ ... كان يؤيد كليوبترة الثانية الاسكندرية أو على الأقل جانب من الاغريق وكذلك اليهود ... من ... ، ... كان يؤيد بطليموس الثامن ... وكثير من المصريين ... من ... برعاية ... وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من نزاع الأسرى والثورة القومية ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلا مزيجا من

النزعة الأسرية والثورة القومية ، ذلك تفسير ما حدث من أنه كان لكليوبترة الثالثة حزب يضم الجانب الأكبر من اغريق مصر والمتأغرقين وتحدوهم كهنة آمون ، وبذلك كان موقف الشعب نحوه المصريين هو مناهضة ذلك الحزب الشعاء لسيين حقدهم على الاغريق ومن عاداهم من المصريين ، فبدو كما لو كانوا يناصرون بطلميوس الثامن ، أو بعبارة أخرى لم يكن تأييد غالبية المصريين لبطلميوس الثامن حبا فيه و إنما كراهية لأنصار خصمه

وقد تجددت الثورة في عهد بطلميوس التاسع وكانت مثل سابقاتها وليدة عوامل دينية وقومية واقتصادية وقد تفاقمت الحال في منطقة طيبة الى حد أن بطلميوس التاسع رأى أن طريقه المثلى لقطع دابر الثورة هي القضاء على طيبة لأنها كانت دائما معهد الثورات وموطن الثائرين ، وبذلك فانه بعد حرب دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة وخربها تخريبا شديدا (عام ٨٥ ق . م)

ويبين أن تخريب طيبة قد قصم ظهر الثورة لكنه لم يقض عليها قضاء مبرما ، اذ تشير الدلائل الى حدوث اضطرابات في عام ٧٩ - ٧٨ وفي عام ٦٤ - ٦٣ وكذلك في عام ٥٨ ق . م

وقد خرج المصريون من كفاحهم الطويل يجرون أذيال الخيبة بسبب افتقارهم الى ما امتازت به عليهم قوات البطالمة من النظام والأسلحة والعتاد والأموال ، وبسبب عدم اتحادهم ، فان فريقا مهما من المصريين بدلا من أن يشتركوا في مناهضة الحكم الأجنبي الجائر اشتركوا في مناهضة مواطنيهم ، أو على الأقل وقفوا منهم موقفا سلبيا ، وذلك اتباعا للأحقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم المادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبي وجزءا من أداة لتنفيذ سياسته الاستعمارية

ولئن كان المصريون قد فشلوا في التخلص من حكامهم الأجانب ، فانهم على الأقل رغموهم على النزول عن صلفهم وجبروتهم والنظر اليهم بعين جديدة في العصر الثاني من حكمهم . وفضلا عن ذلك فان الثورات القومية كانت من أهم الأسباب التي أضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء عليها .

الفصل الثامن

الآداب ـ العلوم ـ الفنون

سنقصر الكلام في هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لأن مصادرنا تغفل اغفالا تاما الآداب والعلوم المصرية في خلال هذا العصر.

أولا ـ الآداب

١ ـ دار العلم والمكتبة

يرجح أن بطلميوس الأول هو الذي خطا حوالي عام ٢٩٠ ق. م. الخطوة الأولى في سبيل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد فطن ذلك العاهل الأديب الى أنه اذا كانت القوة ضرورية للذود عن حياض مملكته ولتوسيع رقعتها ، فان رعاية العلم والفن كانت أنجع وسيلة لكسب ولايته المجد والخلود . ومن ثم أخذ يدعو الى الاسكندرية الكثير من فحول شعراء الاغريق وأدبائهم وعلمائهم وفلاسفتهم وفنانيهم . وقد كان في طليعة ضيوفه ديمتريوس الفاليري الذي أوحى اليه بانشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة.

وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينا الفلسفية ، اذ يبدو أن بطلميوس الأول اقتفى أثر المدارس المشهورة فجعل دار العلم في الاسكندرية مكتفة حول معبد آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت موزيون معبد الآلهات . وقد شيد بطلميوس هذه الدار في الحي الملكي ، وأعد بحيث يكون مركز البحث العلمي وفي الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم على نفقته متكفلا بما كان يجريه عليهم من مرتبات ، لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن الانصراف كلية الى البحث والدرس . ولم يكن الهدف الأول هو التعليم وانما البحث العلمي ، ومع ذلك كان بعضهم يلقون المحاضرات في القاعات العامة وفي شتى أنحاء المدينة . ويبدو من الدور الذي قامت به الاسكندرية في الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمي كانت ممثلة في جامعتها.

ولكي ييسر للعلماء الاضطلاع بمهمتهم أنشئت المكتبة الكبرى . واذا كان بطلميوس الأول هو الذي وضع نواة هذه المكتبة فضلا عن دار العلم فان بطلميوس الثاني هو الذي تعهد المكتبة برعايته حتى غدت أعظم المكتبات في العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة الصغرى التي كانت تكون جزءا من معبد السرابيوم . ونحن نميل الى الأخذ بما تذكره بعض المراجع القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصر

الأسطول المصري في خلال « حرب الإسكندرية » ، وامتد اللهب إلى رصيف الميناء وأحرق المبنى المجاور له ، وهي المكتبة الكبرى فصارت طعمة للنيران ، ويقال إن أنطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة بإهدائها ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبة برجام

ولقد أدى علماء الإسكندرية خدمات جليلة للأدب الإغريقي ، عندما استخدموا فن نقد النصوص القديمة بمقارنة المخطوطات المختلفة ، وجمعوا أصول كثير من المؤلفات القديمة . ومن أهم ما يدين به المحدثون لعلماء الإسكندرية ما بذلوه من الجهد في تحقيق الأشعار الغنائية والمسرحيات . وكان فن النقد الإسكندري يرتكز على قواعد ثابتة لغوية تخالف تماما القواعد في النقد التحليلي الذي ابتدعه الرواقيون فيما بعد في برجام

٢ — الشعر

وتعتبر الإسكندرية بحق عاصمة الأدب الإغريقي في عصر الهلينستي ، حتى إنه يندر أن نسمع أن أحدا من فحول شعراء ذلك العصر لم يزر الإسكندرية أو يعش فيها ليتمتع برعاية ملوكها وينهل من موارد علمها فلا عجب أن كانت أنواع الشعر الإغريقي ، فيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت في خلال هذا العصر بالشعر الإسكندري

وكانت أحب ألوان الشعر إلى قلوب الإسكندريين الشعر القصصي والمراثي والشعر الغنائي والمقطوعات القصيرة . وقد كان هذا الشعر نوعا خاصا . واستمد بعضه من الفنون القديمة ، والبعض الآخر من عواطف المصريين وحالاتهم . ولذلك فإنه بينما يعتبر بعض الشعر الإسكندري مجددا لبعض فنون الشعر القديمة ، يعتبر البعض الآخر مبتكرات جديدة في شكلها وفكرتها

وعلى كل حال فإن جميع ألوان الشعر الإسكندري لا تمت بصلة إلى مصر أو شعبها ، حتى إن ثيوكريتوس عندما كان يعنى بوصف الطبيعة كان لا يصف جمال الطبيعة في مصر وإنما في جزيرة كوس أو مدينة سيراكوزه . وكان الشعراء الإغريق لا يعرفون عن مصر ، حتى بعد ما عاشوا فيها ، إلا ما قرأوه في القصص الإغريقية أو في كتب هيرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم إلى شيء من المميزات المحلية إلا ما لا يستطيعون استخدامه في إطراء الملك الذي يرعاهم

ولعل أهم مميزات الشعر الإسكندري أنه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور الثوري نحو الآلهة القديمة ، في حين أنه كان كلفا بآفاق العلم الشاسعة ، وتصوير المشاعر الإنسانية ، واستخدام البيئة البسيطة التي تحاكي حياة الناس اليومية العادية وتصوير الواقع تصويرا دقيقا

ويعتبر كاليماخوس أبرز شعراء

الاسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. كان لا يزال يعرض الشعر في القسط الأخير من حياته في عهد بطلميوس الثالث. ولم يولد في مصر شاعر مصري من الطراز الأول إلا أبولونيوس الذي أطلق عليه لقب الرودسي، لأنه استقر في رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد عزله من منصب أمين المكتبة الكبرى.

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث ثيوكريتوس السيراكوزي، الذي عاش فترة في الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس الثاني. وإذا كان العصر الذهبي للشعر الاسكندري لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد من حوالي عام ٢٩٠ إلى عام ٢٤٠ ق. م. ، فإن الشعر الذي يصور حياة الريف بقي منتعشاً حتى القرن الأول قبل الميلاد.

٣ ـ النثر

ولم يكن للاسكندرية في النثر نصيب من الأثر مثل ما كان لها في الشعر. ولقد تأثر النثر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فيه. أما العامل الأول فهو أثر المشائين، إذ أن غرامهم بجمع الحقائق كما هي أفضى إلى الخلط بين الحقائق والقصص دون أي تمييز بينها. أما العامل الثاني فهو أثر سقراط وتلاميذه وكانوا يحققون الوقائع لكون أثر الحوادث في النفس عميقاً. أي يحورون الحقائق لكون لها مغزى ظاهر. ويعتبر ساتيروس أشهر مؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا بالمشائين، وكلاينارخوس أبرز من مؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا بمدرسة سقراط.

ومن حسن الحظ أنه في الوقت الذي حصل فيه التشريع لكتب المؤثرات التي أفسدته، وجد أشخاص يميلون إلى الحقيقة وشاركوا عملاً في الأحداث التي كتبوا عنها، مثل بطلميوس الأول الذي استمد معلوماته فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة، فكان كتابه فريداً في بابه موثقاً، لكنه مع الأسف لم يصل إلينا إلا بعض منه عن طريق أريانوس.

وفي عهد بطلميوس الأول كتب هكاتايوس من أبدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر الإغريق. والتاريخ المصري الذي يمكن أن يوثق به من ذلك العصر هو ما كتبه مانثو كبير كهنة هليوبوليس، وضمنه لب عصير الوثائق الهيروغليفية وأهداه لبطلميوس الثاني، وكان كتاباً ضخماً يقع في ثلاثة أجزاء.

وإذا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة في نثر العصر الهيلينستي، فقد كان للجغرافيا مكان هام فيه، إلى حد أن ما كتبه عنها العالم الجغرافي إراتوسثنيس يعتبر أعظم مثل للنثر الاسكندري. وقد كانت سعة اطلاع هذا العالم وتبحره في مختلف العلوم والفنون مضرب الأمثال، فانه كتب في الشعر والفلسفة وفي علم اللغة وفقه اللغة والتاريخ والجغرافيا.

* لكن مؤلفاته في العصين الأخيرين ضاعت سائر كتبه. وأهم مؤلفاته في الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثاً في قياس أبعاد الكرة الأرضية، وقدر فيه محيط الكرة الأرضية بقدر يسير الأخطاء.

ثانياً ـ العلوم

١ ـ الطب والجراحة

ولقد بلغت العلوم الاغريقية شأواً بعيداً في العصر الهيلينستي بعد الخطوات الموفقة التي خطتها قبل ذلك العصر. وقد تقدم الطب بوجه خاص تقدماً كبيراً، وكان يرز عماد الطب في الاسكندرية هروفيلوس العالم في التشريح، وارازستراتوس العالم في وظائف الأعضاء. وقد كانت أبحاث هروفيلوس التشريحية تدور حول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل، ووجه هذا العالم عناية كبيرة في دراسة المخ والأعصاب والقلب وضربات النبض. وتدل الأبحاث على أنه كان يستخدم أداة دقيقة لتقدير سرعة النبض. وقد كان طبيعياً أن يؤدي تقدم التشريح إلى تقدم الجراحة. ومن أسباب مجد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة، واستخدام هذه الآلات بمهارة فائقة.

وكان ارازستراتوس أكثر توسعاً من هروفيلوس في أبحاثه عن القلب والمخ، وذهب إلى مدى أبعد منه في التفرقة بين الأعصاب الحسية والأعصاب المحركة.

وحوالي عام ٢٨٠ ق. م أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة في الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية. وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هروفيلوس، لكن مدرسته عارضت من التشريح والفسيولوجيا، لأنها كانت ترى أن الطب ليس مختصاً إلا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها. ولذلك فإن واجب الطبيب هو أن يعطي العلاج الذي يشفي أعراض الداء التي يراها، مستنداً إلى ذلك بملاحظاته الشخصية والتجارب والحالات المتشابهة. ولا يمنع أن المدرسة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بمناهضة الميول النظرية التي كانت على الدوام أحد مواطن الضعف في الطب الاغريقي.

٢ ـ علما الحيوان والنبات

وقد كان على رأس المشتغلين بدراسة علمي الحيوان والنبات في العصر الهيلينستي عالمان بارزان، كان أحدهما تلميذاً تابعاً لأرسطو يسمى ثيوفراسطوس، وقد علم بطليموس الأول في شبابه، والآخر يسمى استراتون وكان معلم بطليموس الثاني. وأهم ما أصابته دراسة الحيوان في هذا العصر أن العالم الاغريقي أصبح يألف عدداً كبيراً من الحيوانات. ولا شك في أنه قد ساعد على ذلك حديقة الحيوان التي أنشأها بطليموس الثاني، وكانت تضم عدداً كبيراً من مختلف أنواع الحيوان والطيور والزواحف.

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقاً بفضل

أيضاً ثيوفراسطوس الذي رفع دراسة النبات إلى مستوى العلم البحت ، ويحتوى على معلومات تثير الدهشة في كثير من الأحيان لأن مبتكرو مكتشفيه لم تكن معروفة عندئذ ، ولأن علم الكيمياء كان لا يزال في المهد ومهما كان من أمر كشوف هذا العالم فإنه لا يمكن أن نقارن بعظمته في وضع أساس علم النبات وفي تمهيد السبيل من أتى بعده من الباحثين المتأخرين

٣ ـ العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات العصر الهيلينستي ، التي فاقت في تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . لأن الهندسة كانت أساس كل الرياضيات عند الاغريق لعدم درايتهم بالأرقام . ولعل ما حققته الهندسة من الاتقان كان سببا في عدم تفكير الآخرين في اختراع الأرقام ، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم من علم الجبر ولا يمكن المبالغة في تقدير الخدمات التي أسداها اقليدس إلى الرياضيات . ويبدو أن هذا العالم كان يعاصر بطلميوس الأول ، وعلى كل حال فإنه أسس في الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثير من الرياضيين البارزين . ويقترن اسم اقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب في الهندسة يعرف باسم « العناصر » . ولم يصدر كتاب في العالم ، باستثناء الكتب السماوية ، مثل ما صدر من هذا الكتاب ، الذي استمر تلاميذ الهندسة في مختلف أنحاء العالم يستخدمونه منذ العصر الهيلينستي حتى عهد قريب جدا . وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ما حواه من المعلومات التي كالتعريفات والفروض والبديهيات ، ولا سيما النظريات التي تسمى أو تسمى « عناصر » ، لأنها أساسية ويجرى عليها في الأصول وفي التطبيق . وقد وضع اقليدس كتبا أخرى لم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت فروع الرياضيات كما كانت معروفة عندئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ، ويدين اغريق العصر الهيلينستي بالشيء من الفضل غير قليل لعلماء بابل ، الذين جمعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك أريستارخوس من ساموس ، الذي عاش في القرن الثالث وكان أول من نادى بأن الأرض لا تدور حول نفسها فقط وإنما تدور أيضا مثل الكواكب حول الشمس . أما أعظم علماء الفلك في الاسكندرية وفي العالم القديم قاطبة فقد كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد ويسمى هيبارخوس ، وقد كان أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وتقدير متوسط طول الشهر القمرى تقديرا يبعد عن الحقيقة ، لأنه لا يقل إلا ثانية واحدة عن التقدير المعروف اليوم

وكان أرشميدس السيراكوزى أعظم شخصية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق

وقد خرج أرشميدس ثوبة فلسفية والفضول، ويرجح أنه عندما كان يقيم في مصر، لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية، فقد كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه في الأمور العملية. ويجب أن نذكر أنه وضع أساس علم التفاضل والتكامل في الرياضة وعلم دراسة مراكز والمبادئ الأولية في الميكانيكا.

وقد تقدمت كذلك في عهد البطالمة الأوائل دراسة الميكانيكا وكان أبرز علمائها كتسيبوس الأكبر، الذي يحتمل أنه عاش في عصر بطلميوس الثاني أو الثالث. وقد ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائية وأخرى بالقوة المائية. ويأتي بعد هذا العالم بحوالي ربع قرن فيلون البيزنطي الذي وضع كتابا في تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجموعة الميكانيكا.

ثالثا ـ الفنون

وسنقصر الكلام هنا على فني العمارة والنحت، لأننا لا نعرف عن موسيقى العصر الهلينستي أكثر من أنها كانت تلعب دورا هاما في حياة العامة والخاصة، ولأنه لم يبق من التصوير إلا القليل النادر الذي نراه على جدران المقابر.

١ ـ العمارة

سنتناول في إيجاز أقسام هذا الفن وهي المقابر والمعابد، والمساكن عند الإغريق وعند مصريين، ونتبين إن كان الفن المصري والفن الإغريقي قد تأثر أحدهما بالآخر أم بقي كل منهما خالصا.

١ ـ المقابر

وتدل نتائج الحفريات على أن الإغريق في مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع: كان أولها عبارة عن حفر تنحت في الصخر أو تحفر في الأرض، وتوجد أمثال هذه المقابر البسيطة في مختلف أنحاء العالم الإغريقي. وأهم مظاهر النوع الثاني تجويف في صخرة مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت في جوانب دهليز أو غرفة. وإذا كان هذا النوع مصري الأصل، فقد خلع الإغريق عليه طابعا إغريقيا. والنوع الثالث مقدوني الأصل، لكنه إغريقي في تخطيطه وعمارته وزخرفته ويسمى مقابر الأرائك.

وتمتاز مقابر الأرائك التي ترجع إلى القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد بأنها تتألف من سلم وفناء مكشوف وغرفة أمامية وغرفة خلفية تقع جميعها على محور واحد. أما مقابر الفترة التي تمتد من منتصف القرن الثاني حتى نهاية عصر البطالمة فقد كانت أبرز عناصرها هي فناء أوسط تحيط به غرف. وقد تطورت هذه المقابر من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة سوق الورديان حيث كان الدفن ثم في تابوت على شكل الأريكة يوضع في الغرفة الخلفية، إلى مقابر ذات أرائك وتجاويف مثل مقبرة الشاطبي

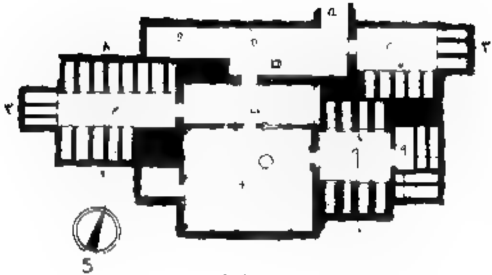

مقبرة الشاطبي

مقبرة حديقة أنطونيادس

حيث استعملت الأريكة والشرفات في الدفن في مقابر طنف وبعض المناطق ولم يكن هناك مصريه سوى مقابر ومصره مصحوبه بطلمسيون حيث استعملت المصطبات فقط في الدفن ولم تكن الأريكه الا زخرفة بارزه ، والحنيات التي تعلو الأبواب والمحاريب حيث احتلت الأريكه تماما وكان الموتى يدفنون في التجويفات وفي توابيت كالصناديق كانت توضع في المحاريب

ومما يجدر بالملاحظة انه اذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقيا ، فانها لم تخل أحيانا قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضا حال الصعب الجنائزية

أما المصريون فانهم ، سواء أكانوا يعيشون في الاسكندرية أم في المدن والقرى المصرية ، فقد احتفظوا بأساليب دفنهم التقليدية فكانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة عادوا استخدامها ، أو في مقابر حديثة كانت على

نوعين واحد هذين النوعين بسيط يتألف من بئر تنتهي في حجرة صغيرة يدفن فيها الميت وكان هذا النوع شائعا من المقابر شائعا جدا في مصر القديمة وكانت مقابر النوع الثاني تتألف من هيكل جنائزي صغير فوق سطح الأرض تحته بئر كان الميت يدفن في قاعها ولما كانت مقابر هذا النوع أغلى من مقابر النوع الأول ، فان هذا يفسر قلة عدد مقابره في مصر بسبب افتقار أهالي البلاد بوجه عام الى دفعها .

والمقبرة الكبيرة بتونا الجبل التي اختلط في زخرفة بعض أجزائها الطراز المصري مع الطراز الاغريقي كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة في عمارتها وزخرفتها والصيغ الجنائزية

ومن ثم يمكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتفظوا بوجه عام بطرازهم الجنائزية

صورتان كاملتان [illegible] من مقابر [illegible] [illegible] الطراز [illegible]
الجنائزي [illegible]
[illegible]

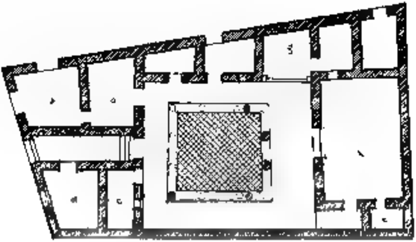

منزل في دبلوس

منزل في بر نسي

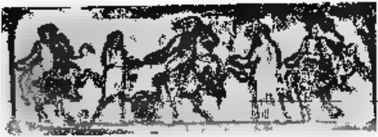

لوحة زخرفية [illegible] المقبرة رقم ١ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية . وتصور الواجهة ثلاثة فرسان يتبعهم حيوانات . ويعتقد أنهم كانوا جميعا أفراد أسرة مقدونية مهمة دفنت في هذه المقبرة

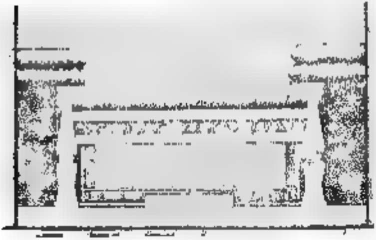

تابوت في شكل أريكة في المقبرة رقم ٢ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية . وهيئة الأريكة الجنائزية . وقد صنعت من الحجر وطليت بالجص والألوان تقليدا صورة رائعة من الطراز الرسمي الذي يعد ... بالأرائك التي كانت تستخدم في الحياة الدنيا . وتصنع من الخشب وترصع بالعاج والمعادن والخشب النفيس وتفرش بالطنافس والوسائد

خالية من التأثيرات الأجنبية ، فيما عدا بعض العناصر الطفيفة التي تسللت في بعض الحالات من أحد الطرازين إلى الآخر ، وبعضها يدل دليلا على المدى المحدود الذي تمت فيه محاولة مزج طرازي العمارة المصري والاغريقي

ب - المنازل

ومع أنه لم يعثر في مصر كلها إلا على عدد قليل من المنازل الاغريقية في الفيوم ، فإنه بفضل معلومات عن المنازل الاغريقية في باقي أنحاء العالم الاغريقي ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الاسكندرية وبخاصة بطلميوس الرابع التي كانت لمصر قصر عائمه ، نستطيع أن نستخلص أن اغريق الاسكندرية قد استخدموا ، مثل معاصريهم في سائر أنحاء العالم الاغريقي ، نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذي كان شائعا في برييني بالأناضول في القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل أن مقابر سوق الورديان والشاطبي والأنفوشي وسيدي جابر تتألف من العناصر الرئيسية التي كانت توجد في ذلك النوع من المنازل أما النوع الثاني فيشبه ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ديلوس في القرن الثاني قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية في مقبرتي حديقة أنطونيادس وامبكس

وتشير القرائن إلى أنه كانت توجد منازل اغريقية في فيلادلفيا وبعض مدن الفيوم ، ومن المحتمل أنها في كرانيس ... عند دخلت فيها الاغريق وكذلك مصريون كانوا يعيشون في منازل مصرية لم تكن إلا استمرارا لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل العمارنة ، فهي مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرفة للنوم ومطبخ ومخازن . ويجب أن نبين أن اتخاذ الاغريق في الريف منازل من الطراز المصري لا يرجع إلى اتجاهات حضارية وإنما إلى الظروف وحدها التي أملت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الاغريق جنودا وبعضهم تجارا ، وكان الجنود ينزلون مساكن في بيوت مصرية . ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يعيشوا من قبل في منازل تختلف كثيرا عما وجدوه من المنازل المصرية . ولذلك يبدو طبيعيا أن اغريق الأقاليم بوجه عام استخدموا المساكن المصرية التي وجدوها فيما لزمهم من المدن والقرى المصرية . ولعله يكفي لزمن لتناسب هذه المنازل مع البيئة أن الاغريق سكنوها

أما عن طابع عمارة المنازل البطلمية وزخرفتها فإن القرائن توحي بأنه قد بقي بوجه عام مصريا خالصا أو قريبا خالصا

ج - المعابد

وتحدثنا المصادر القديمة بأن الاسكندر الأكبر والبطالمة قد شيدوا معابد للآلهة الاغريقية مثلما شيدوا للآلهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكشف الحفائر عن بقايا أي معبد اغريقي كبير ، وإن كانت قد كشفت عن أسس معبد دوري صغير يبدو أن طرازه الاغريقي لا تشوبه أي تأثيرات مصرية ، كما

كشف أيضاً عن عدد كبير من الأعمدة الاغريقية ، ولما كانت هذه القطع تشبه مثيلتها في ... ، وهو طابع الاسكندرية ، فإن أغلبها اغريقي بحت . ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، لكن يستبعد أنها كانت مستخدمة في معابد اغريقية أو مصرية لأن مثل هذه المعابد الدينية تتصف دائماً بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد . وإذا كان الأفراد من سائر الأجناس قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم في الدنيا وفي الآخرة اغريقياً ، فإننا لا نشك في أن معابد الآلهة الاغريقية كانت أكثر استمساكاً بالتقاليد المعمارية الاغريقية .

وقد كشف عن عدد كبير من المعابد التي أقيمت في عهد مصر البطلمية ، وهي مصرية مصممة في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها ، ولا أدل على ذلك من أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخاً صحيحاً قبل حل طلاسم اللغة المصرية القديمة . وتمتاز هذه العمائر بظاهرتين وهما : أولاً ، كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التي يطلق على رؤوسها الرؤوس المركبة ، ومنشؤها أن المصريين ابتكروها في أثناء نهضة العصر الصاوي . وثانياً ، كثرة ما استخدم في صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تبلغ نصف ارتفاع الأعمدة تقريباً . ويبدو أن هذه الجدران القصيرة عريقة في العمارة المصرية ، إذ نجد أمثلة لها في معابد الدولة الحديثة .

وجملة القول إن العمارة الدينية في عصر البطالمة ، سواء أكانت مصرية أم اغريقية ، لم تتطرق إليها أي تأثيرات أجنبية .

٢ ــ النحت

ومن الدلائل أنه كانت للاسكندرية مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة تختلف عن مميزات سائر مدارس النحت الهيلينستية ، والرأي أنه إذا كانت هذه المدرسة ، مثل المدارس الأخرى المعاصرة ، قد استمدت عناصرها من تراث أساتذة الفن الاغريقي في القرن الرابع ، فإنها لم تلبث أن انفردت بطابع معين كان أخص مميزاته عدم إبراز عظام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، وصقل السطح صقلاً شديداً . لكن الاسكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالي فحسب ، لأنها يوم ابتكرت فرعاً جديداً من فن النحت نجمت عنه الابحاث التي صارت تنمى في جامعتها ، وكان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطبقاتهم وحرفهم ، ابتكرت طرازاً واقعياً يلائم هذا الفرع من الفن .

وتدل المخلفات التي كشفت عنها الحفريات على أن الفن الاغريقي لم يحتكر فن النحت في مصر طوال عهد البطالمة ، فقد استمر الفنان المصري يزاول نشاطه لا في حفر النقوش وصنع التماثيل فحسب ، بل في نفس الميادين التي كان أسلافه قد ألفوها منذ غابر الزمن .

وتنكشف دراسة هذا الفن في عصر البطالمة عن أولاً : أن أكثر النقود التي سكها البطالمة وأغلب قطع النحت التي تركتها مدرسة الاسكندرية هي تحف في طرازها وعناصرها وصنعتها ، وأن أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحتة في أسلوبها وعناصرها وجوهرها.

وثانياً : أن الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز ، مثل تصوير رجل الفرس أو فرس الشمس وسط قرص على نقود بعض البطالمة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فإن طراز تلك النقود اغريقي. ومثل قطعة تصور رأس الاسكندر الأكبر بطراز اغريقي ، لكن القطعة مصنوعة من الجرانيت أو البازلت وهما مادتان غريبتان عن الفن الاغريقي. ومثل تمثال يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمة بطراز مصري.

وقد كان المقياس الصحيح في أي فن من الفنون هو الطراز ، لأنه أبرز صورة لأفكار الفنان وأفصح مظهر لطابع حضارته ، فإن اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصري والاغريقي وليس بذلك على امتزاج تينك الحضارتين وتفاعلهما. لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الاغريق والمصريين في بيئة واحدة ، وكذلك لقدرة الفنان على أن يكيف

أمثلة لقطع النحت التي تختلط فيها العناصر دون الطرز

رأس الاسكندر الأكبر مصنوعة من الجرانيت لكن طرازها اغريقي

تمثال بطلميوس الرابع مصنوع من الجرانيت وطرازه مصري

نفسه حسب الظروف التي تعيش في كنفها ، وهي نتيجة تتفاعل الحضارتين المصرية والاغريقية ، لأن هذه العناصر ظواهر سطحية على حين ان الجوهر نفسه وهو المعبد بقي مصريا أو اغريقيا خالصا

وثالث ، انه لدينا عدد قليل من قطع النحت محاولات للتعبير عن مزج الطرازين المصري والاغريقي ، لكن قلة عدد هذه القطع تدل على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفني الرفيع عبث مثل هذه المحاولات لبعد الشقة بين الطرازين . ولدى مقارنة هذه القطع بالقطع الاخرى التي كان طرازها مصريا بحتا او اغريقيا بحتا نجد أن الأخيرة لا تفوق الأولى في عددها فحسب بل كذلك في القيمة الفنية . ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا في عصر البطالمة مزج الطرازين المصري والاغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم مزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية .

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمزج مثل هذين الفنين اللذين كانا يختلفان في طبيعتهما اختلافا بعيد المدى . أما هذه الطريقة فهي أن يفنى أحدهما في الآخر بأن يتغلب أحدهما على الآخر بحيث يقضي عليه قضاء مبرما . لكن ذلك كان عزيزا على الاغريق باعتبارهم سادة البلاد وأصحاب حضارة كانوا يعتبرونها أسمى الحضارات جميعا ، كما كان عزيزا أيضا على المصريين ، فقد كانوا لا يزالون يذكرون مجد حضارتهم التالدة ويعتزون بتقاليدهم ، ولا سيما ان معظمهم كان وثيق الصلة بالديانة ، وهم كانوا شديدي الاستمساك بتقاليدهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن النهضة الفنية لفن النحت الاغريقي حدثت قبل بعد بداية القرن الثاني قبل الميلاد . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف روح الاغريق بين اغريق مصر في الشطر الثاني من عصر البطالمة . لكن كثيرا من الاغريق محتفظين بطابعهم خالصا نقيا برغم ما تطور روحهم من الضعف ، كان منهم فئة بقي كذلك محتفظة بمميزاته برغم ما طرأ عليه من تطور .

ولئن كان طبيعيا أيضا أنه حين تنتعش الروح القومية بين المصريين عقب موقعة رفح أن ينتعش فنهم كذلك ، لكنه لم يكن انتعاشا طويل الأمد بسبب الفشل الذي انتهت اليه ثورات المصريين .

ولما كانت النقود ترينا أنها قد بقيت اغريقية خالصة في طرازها حتى نهاية عصر البطالمة ، وكانت النصب الجنائزية والتوابيت المصرية قد بقيت كذلك مصرية خالصة في طرازها حتى آخر هذا العصر ، فاننا لا نعدو الحقيقة حين نقرر ان كلا من الفنين المصري والأغريقي قد احتفظ بوجه عام بأن ازدهاره وان تطور ، بطابعه خالصا نقيا من أثر الفن الآخر ، فانه بقي هذان الفنان منفصلين في مصر البطلمية ، اذ يبدو أن الفنانين كانوا

مدركون ادراكا صحيحا أنه تخصص في الصور دون أن لا يمكن تخصيصها ، وأن قطع الفن التي يختلط فيها العناصر دون الفن يمكن أثر البيئة لا أثر الحضارة التي تعبر عنها القرار أن تلك المحاولات التي كانت تستهدف مزج نظريين قامت غنية إن جدتها محدودة في ميادين ضيقة في حينها الفنية بحيث يمكن اعتبارها انعكاسات نزوات فردية أو هوى في نقصه التهذيب

* * *

ولا ريب في أن الفن البطلمي يعكس صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية في مصر في عصر البطالمة . لقد شهدنا أن غالبية الفن الإغريقي وغالبية الفن المصري كانت إغريقية خالصة أو مصرية خالصة . وبذلك لابد من أن أغلب الإغريق وأغلب المصريين قد ظلوا خالصين في جوهرهم

وترينا بعض الآثار عناصر مختلطة لم يكن لها أثر في طابعها الجوهري . وهذا يدل على أن الجنسين قد اختلطا واندمجا ، لكن لم يتفق بعضهم مع الآخر إلا بعض مظاهر السطحية فقط

ونرى كذلك محاولات قليلة عمدت إلى مزج الطرازين المصري والإغريقي ، ونستطيع أن نقول إن محاولة مزج الجنسين كانت كذلك محدودة وغير موفقة

وبما أنه يبدو جليا واضحا أن تدهور الفن الإغريقي قد حدث في أعقاب انقطاع ورود الإغريق على مصر ، فإنه يمكن القول إن ضعف الروح الإغريقي في مصر لم يبدأ قبل القرن الثاني قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاختلاط الإغريق بالمصريين

وكما بقي الفن الإغريقي إغريقيا حتى نهاية عصر البطالمة مهما انحط مستواه ، فلابد من أن الروح الإغريقي قد بقي كذلك إغريقيا مهما اعتوره من الضعف

ويبدو لنا من كل ما مر بنا أن نتائج الأدلة المستمدة من الآثار تؤيد النتائج التي استخلصناها من مختلف المصادر الأدبية

امثلة لرؤس ملوك في الشمال الافريقي في عصر البطالمة

امثلة توضح تطور في النحت المصري في عصر النهضة

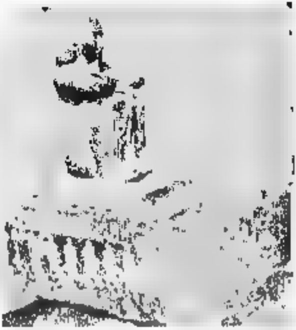

نسخة تعلوه مزج الطرازين المصري والاغريقي

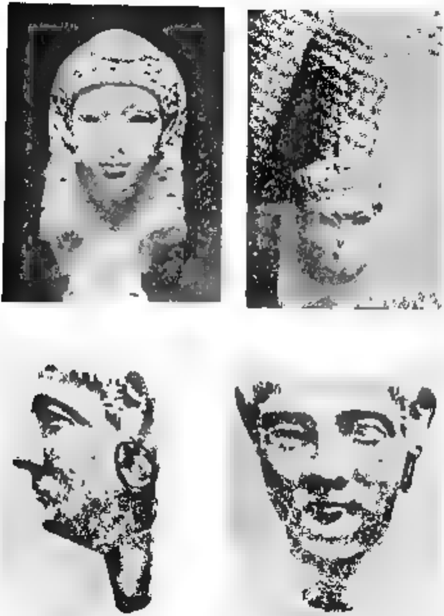

تمثالان صغيران من البرونز لقزمين راقصين
و مرآة [illegible] راقصة [illegible] مع [illegible]
[illegible] في قاع البحر [illegible] بالقرب من
[illegible] في تونس

وقد كان استخدام الأقزام [illegible]
معروفاً في مصر على عهد الفراعنة و الدولة البطالمة
[illegible] لا يبعد أن هذين التمثالين كانا من صنع
الاسكندرية

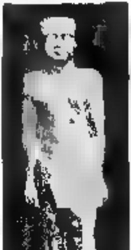

تمثال [illegible] من [illegible] على [illegible]

٢ ١

١ - عقد صغير من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة وهو مصري في الشكل والصناعة والطراز

٢ - سواران من الذهب ينتهي أحدهما بجزء من خرز الشبح وهو مصري في نوعه بكثير من التصنيف مصري. أما السوار الآخر فينتهي بعقدة في شكل عقدة يوجد في تماثيل إيزيس محلي

سواران من الفضة عثر عليهما في البلاموب بمديرية الدقهلية. والسوار الأول في شكل ثعبان ملتوي مسمه حلقة. السوار الثاني يتألف من سلك ملتوي ... مع بعضها ثم ينتهي برأسين ... والأساور التي تحاكي الثعابين في شكلها شائعة في الفن الإغريقي. وقد عثر في مصر وفي بلاد ما بين النهرين على ... تحاكي السوار الثاني في شكله وزخرفته

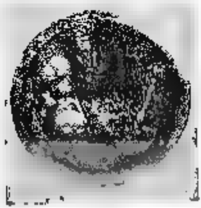

١

٢

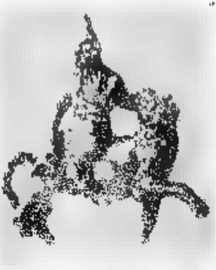

٣

٤

لوحة برونزية عليها صورة نصفية لهرقل على كتفه الأيسر جلد الأسد وفي يده اليسرى مضربه المشهور

٢ - نموذج من الجص للوحة برونزية عليها صورة نصفية لبطليموس الأول

٣ تمثال صغير لصبي [illegible] على ظهر أسد

٤ رأس دبوس شعر في شكل أفروديتي وهي تحزم شعرها

امثله من الاواني في عصر البطالمه

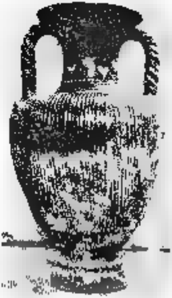

نوعان من الآنية الفخارية الجنائزية التي كانت شائعة في القرن الثالث قبل الميلاد في الاسكندرية .

إناء من الخزف اللامع كان يستخدم في القرن الثالث قبل الميلاد في تقديم القرابين في المعابد والهياكل المخصصة لعبادة البطالمة كآلهة

إناء زجاجي من العصر الهيلينستي المتأخر

كأس من البرونز من العصر الهيلينستي المتأخر

نرى في وسط هذه الصورة كأس من الزجاج ذات [illegible] وحولها قطع [illegible] زجاجية [illegible]
كما تستخدم في الزخرفة

(٢)

(١)

١ - كأس من الفضة من شكل قرن ينتهي بجزء حيوان خرافي مجنح - صناعة اغريقية
٢ - وعاء من الفضة اغريقي في شكله ومن صنعه [illegible] تجارية لكنه مصري في صناعته وطرازه

تضم هذه اللوحة تمثالا صغيرا من الصلصال محروق مصنوعا حسب الشكل والطراز الاغريقي كما تضم كذلك عددا من الآنية الفخارية بعضها ايكي (?) وبعضها مصنوعة حسب وبعضها مستورد من ... وتصور هذه اللوحة انتشار الفن الاغريقي في مصر البطلمية وكذلك قيام علاقات تجارية نشيطة بين مصر واثينا وكذلك بين مصر وجنوب ايطاليا

لوحة من الفسيفساء تصور في جزئها العلوي مناظر وحيوانات سودانية وفي جزئها الأسفل منظراً لأداء نصر ولعب الصبيان

الفصل الاول

مصر في عصر الرومان (٣٠ ق. م — ٢٨٤ م)

للدكتور ابراهيم نصحي

مصر تصبح ولاية رومانية

١ — الفتح الروماني

أخذ نفوذ روما يزداد تدريجيا في مصر منذ أيام بطلميوس الخامس ، بل أصبح مصير مصر معلقا بمصير الصراع الحربي في روما منذ وفاة بطلميوس التاسع في عام ٨٠ ق. م. لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالمة محتفظين على الأقل باستقلالهم الاسمي . وعندما ارتقت كليوبترة السابعة عرش مصر في عام ٥١ ق. م. وبفضل لعب الحروب الأهلية في روما لعبت كليوبترة دورا كادت تنجح في ورائه امبراطورية واسعة على حساب الرومان مما أفضى الى صراع روما مع كليوبترة وهو الصراع الذي تمخض عنه القضاء على دولة البطالمة .

وبيان ذلك أن كليوبترة ضمت يد مساعدة الى بومبي الأكبر في صراعه مع قيصر ، لكن لم يكن نصيب بومبي سوى الهزيمة ففر الى الاسكندرية حيث قتله رجال البلاط ثم تبعه قيصر الذي تعقبه الى هناك ... قد قطعت علاقاتها مع أعدائه و ... بعيدة عن تترك مصر . إلا أن قيصر دخل الاسكندرية وبعد حرب قصيرة عنيفة تعرف بحرب الاسكندرية ، وطد مركز كليوبترة على العرش بيد أن كليوبترة سحرت على قيصر فأصبح طوع أمرها . ويبدو أنهما اتفقا على أن يعلن كليوبترة زوجته في مصر حتى يرجىء قيصر اعلان هذا الزواج في روما حتى يجعل نفسه ملكا هناك ، وعندما أنجبت كليوبترة طفلا من قيصر سمته على اسمه ... أرادت أن أنجبت طفلا من قيصر ... جالعته في ... ذلك بها في نظرها ونظر رعاياها المصريين كانت زوجة لقيصر الشرعية . وسرعان ما ذهبت كليوبترة الى روما وأقامت الى جانب قيصر انتظار اليوم الموعود الذي يقيم فيه نفسه ملكا ويعلن رسميا زواجه منها ويرتقي معه عرش الامبراطورية الرومانية . لكن هذه الآمال العراض لم تلبث أن تهاوت عندما ... مطامع قيصر عصف المتحمسون من الرومان للجمهورية عليه في مارس عام ٤٤ ق. م

وقد هادنت كليوبترة بالهرب الى مملكتها وحدث برغب في فتن الصراع الذي نشب في العالم الروماني بين فتنة قيصر وخصومه دون أن تنحاز الى طرف على آخر، حتى اذا ما انتصر خلفاء قيصر وكان على رأسهم أنطونيوس وأوكتافيوس وليبيدوس في خريف عام ٤٢ ق.م. ذهب أنطونيوس ليتولى أمر الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية وأرسل هذا القائد يدعو الى كليوبترة يستدعيها الى كيليكيا ليحاسبها عن تحيزها ومعاونتها أنصار قيصر. وما كادت كليوبترة تصل الى طرسوس حتى أحرزت نصرا حاسما على قلب أنطونيوس، وصحبها عائدا الى الاسكندرية حيث سارع الى الحفاوة بها وقضى في صحبتها شتاء عام ٤١/٤٠ ق.م. مستمتعا بتلك الحياة الفريدة التي خلد الكتاب والشعراء ذكراها في النصوص وفي الأدب، والتي عمد بلوتارك بتسجيله شتى عن الحوادث ونقل قطعه ونقله الى الاسكندرية. لكن الأحداث الخطيرة التي وقعت في العالم الروماني في ربيع عام ٤٠ ق.م. أرغمته كارها من جانب كليوبترة واضطرته الى العودة الى روما حيث أصلح ما بينه وبين أكتافيوس وتزوج من أخته أوكتافيا وحصل على الاعتراف بسلطانه على الولايات الشرقية. وقد ظل أنطونيوس بعيدا عن كليوبترة حتى عام ٣٧ ق.م. عندما ذهب الى سوريا ليتولى الاشراف على حملته ضد بارثيا. ولما كان شوقه الى كليوبترة قد اشتد فاستدعاها الى جانبه في انطاكية وتزوج منها واعترف بالتوأمين اللذين أنجبهما منه. وبعد نهاية حملته الفاشلة عاد الى مصر في أوائل عام ٣٥.

وفي العام التالي وجه حملته الى أرمينيا وعاد منها مظفرا الى الاسكندرية حيث أقام مهرجانا للنصر، وكان القواد الرومان المنتصرون يقيمون مهرجانات النصر عادة في روما. وقد أثار ذلك غضب الرومان لأنهم رأوا فيه دليلا على أن أنطونيوس كان يريد جعل الاسكندرية عاصمة للامبراطورية. وزاد غضب الرومان عندما علموا بأن حفلا آخر أقيم بعد ذلك بأيام قليلة في الاسكندرية وأشرف فيه أنطونيوس ونودي فيه بكليوبترة ملكة الملوك ووزعت على أبنائها الولايات الرومانية في الشرق. وهكذا رأت كليوبترة مرة الثانية أنها كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم، فقد كانت تسيطر عندئذ على النصف الشرقي من العالم الروماني وكانت على أعظم قائد في هذا العالم ولم يبق الا أن ينتصر أنطونيوس على أكتافيوس في الصراع المقبل المحتوم بينهما لكي تحقق كليوبترة حلمها الذي بدده أول مرة مقتل قيصر. وبذلك بدأت كليوبترة ومعها في تحريض أنطونيوس على الحملة ضد منافسه أكتافيوس. وقد أجاب أكتافيوس على ذلك باثارة الرأي العام الروماني ضد غريمه وأعلن الحرب على ملكة مصر لا على أنطونيوس تفاديا لاتهامه بعد باشعال نار حرب أهلية

وبعد أن خسر أنطونيوس حرباً كبيرة في بلاد اليونان أصبح مركزه بانحلال موقف الدفاع ضعيفاً حول حوائطه ماديا ومعنويا بعد هزيمة النجم الغربي في سبتمبر عام ٣١ ق. م. وبعد كثيرة انتصر أغسطس وهرب كليوبترة وأنطونيوس إلى الإسكندرية. وقد استبد اليأس بأنطونيوس من جراء خيانة رجاله الذين انضم كثيرون منهم إلى جانب أغسطس فلم يقم بأي إجراء للدفاع عن مصر عندما زحف عليها أغسطس. وقد رأت كليوبترة عبث المقاومة فعرضت على أغسطس أن تنزل عن عرشها والتمست منه إقامة أحد أبنائها مكانها فأجابها بعبارات ملتوية لكي لا يكشف النقاب عن حقيقة نواياه ومقصوده. وفي اليوم الأول من شهر أغسطس عام ٣٠ ق. م. قبل أن يدخل أغسطس الإسكندرية قضى أنطونيوس على حياته بعد أن كانت كليوبترة قد اعتصمت في مقبرتها حيث أودعت كنوزها وهددت بأن تشعل النار في المقبرة فتقضي على نفسها وكنوزها وكذلك على آمال أغسطس إذا لم يقم أحد أبنائها على العرش. وقد كان أغسطس يريد أن يعرض كليوبترة في مهرجان انتصاره ويستشعر حاجة ملحة إلى كنوزها لذلك ما كاد يدخل الإسكندرية حتى خطا إلى المقبرة واستولى على الملكة وكنوزها. عندئذ لم تعد تثق كليوبترة في أن أغسطس ينوي أن يعرضها أسيرة في

روما وجدت الموقف بحاجتها المقاومة وتخلصت منه من ذلك العار والهوان بالقضاء على حياتها في ١٠ أغسطس ٣٠ ق. م. وبرحيل ما تخلص أغسطس من أسرة كليوبترة طوى صفحة الماضي وبدأ عصراً جديداً في تاريخ مصر التي أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية رومانية. وقد قرر السناتو الروماني اعتبار أول أغسطس عام ٣٠ ق. م. — وهو يوم سقوط الإسكندرية في قبضة الرومان — عيداً وعطلة في روما وبداية للتقويم الجديد في مصر.

ولا أدل على مقدار كراهية الرومان لكليوبترة وخوفهم منها من روح الشماتة والسخافة التي تنكشف فيما كتبه بعض شعراء عصر أغسطس للإشادة بانتصار هذا الإمبراطور وهزيمة كليوبترة. وقد كانت روما تسيطر عندئذ ولمدة قرون بعد ذلك على كل العالم المتمدين وكان الكتاب والشعراء المعاصرون قد تباروا في كسب ود الإمبراطور المنتصر بتلطيخ سمعة كليوبترة ورميها بكل نقيصة يمكن أن يصورها الخيال المريض دون أن يجرؤ أحد من أنصار كليوبترة على الدفاع عنها. فإن كتابات خصومها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد الذي يستقى منه تاريخها وتبعاً لذلك كان لهذه الكتابات أبلغ الأثر في كل ما كتب عنها منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما أن العصور التي ... فيها ... الشعراء

وكتاب النصف . لكن عندما أخذ بعض الباحثين المحدثين في تمحيص أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم أن هذه الصورة مريبة وأن كليوبترة كانت ملكة طموحة أبية وأنها رأت روما وقيصر وأنها لم تكن أكثر من غيرها من نساء الإسكندرية أو روما بذلا واستهتارا بل لعلها كانت أكثر من غيرها من سيدات الطبقة الراقية وقارا واحتشاما .

٣ ـ سياسة أباطرة الرومان في مصر

سجل فتح أغسطس مصر أثبت في السجلات الرسمية العبارة التالية « ضممت مصر الى سلطان الشعب الروماني » ويرى كثير من الباحثين أن معنى ذلك واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو أن أغسطس ضم مصر الى الامبراطورية الرومانية وأصبحت احدى ولاياتها ، تمد روما بمواردها مثل موارد غيرها من الولايات الرومانية لصالح الشعب الروماني . ولا أدل على وضوح هذا المعنى في ذهن القدماء من أن المؤرخين سويتونيوس وتاكيتوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافي استرابون وصفوا مصر بأنها ولاية رومانية . ومع ذلك فإن بعض الباحثين يعتقدون أن مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وانما كانت ملكا خاصا للامبراطور تربطه بشخصه وذلك لأنها كانت تخضع مباشرة لسلطانه ولأن نظام حكمها كان يختلف اختلافا جوهريا عن نظام الحكم في الولايات الأخرى ، ولأن اسم مصر لم يرد في السجلات الرسمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولاسيما أنه في (أعمال أغسطس) المشهور — الذي اقتطعت منه العبارة التي أوردناها في صدر هذه الفقرة ـ لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع أنه يتحدث في الفقرة التالية لذلك عن احتساب تحويل أرمينيا الكبرى الى ولاية . ويعتقد البعض الآخر من الباحثين أن مصر كانت ولاية يتولى الامبراطور ادارتها باسم الشعب الروماني على هدى تقاليده ومقتضيات ظروفه .

والواقع أن مصر لم تكن ملكا خاصا للامبراطور كما أنها لم تكن ولاية عادية كسائر الولايات الرومانية ، فقد أخضعها أغسطس في تقديره لعدة اعتبارات : أولا ، أن مصر بلاد غنية آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجي من اليسير الدفاع عنه ، وثانيا أن موارد هذه البلاد هائلة وتستطيع أن تسد حاجة الشعب الروماني الى الحبوب وأن تملأ خزائن روما بالأموال بعد أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، أن هذه البلاد في حاجة الى حكومة قوية لنشر الأمن في أرجائها ، والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد تدهورها من جراء ضعف البطالمة الأواخر وما عانته من آثار الثورات القومية والحروب الأهلية والاضطرابات بين أفراد أسرة البطالمة . ورأى أنه يجب اتخاذ الحيطة دون

ولموقع هذه البلاد الحصين يستطيع
الاستقلال بها ويحرمان روما من غلتها بل
يهدد كيانها بما لها من أهمية خاصة في
مثل كليوبتره .

ولهذه الاعتبارات كانت ولاية مصر
الرومانية مركز فريد في الامبراطورية
الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من القوى
الرومانية والقوات المساعدة ما يلزم
سلامتها . وفضلا عن ذلك وضعها أغسطس
تحت إشرافه المباشر . وفي عام ٢٧ ق . م
عندما قسمت الولايات الرومانية إلى ولايات
تابعة للسناتو وولايات خاصة للامبراطور
كانت مصر في عداد الولايات الأخيرة
ولم يعين أغسطس على مصر حاكما عاما من
طبقة السناتو وإنما من طبقة الفرسان ولم
يحمل هذا الحاكم كغيره من حكام
الولايات الرومانية لقب نائب القنصل
أو قائمقام قنصل (proconsul)
أو قائمقام بريتور (propraetor)
وإنما لقب بريفكتوس (praefectus)
أي وال أو حاكم عام ؛ وكان لقبه الرسمي
حاكم عام الاسكندرية ومصر ، فقد
اعتبر الرومان أن الاسكندرية
الاسكندرية وحدة منفصلة عن مصر ومجاورة
لها ad aegyptum

إلى جانب كل ذلك وضع أغسطس
قاعدة تقضي بألا يزور مصر أحد
من رجال السناتو ، ولا أي رجل ذائع الصيت
من طبقة الفرسان إلا بعد حصوله على
الإذن الخاص من الامبراطور . وقد
تمسك خلفاء أغسطس بهذه القاعدة إلى حد
أنه عندما في عهد الامبراطور تيبريوس ١٩ م
شهده جرمانيكوس في الشرق لتنظيم بعض
ولاياته وانتهز هذه الفرصة لزيارة مصر
ومشاهدة آثارها ، آخذه الامبراطور مؤاخذة
شديدة لأنه دخل مصر دون استئذانه مخالفا
بذلك القاعدة التي وضعها أغسطس

وقد ظل الأباطرة يحرصون على مراعاة
القواعد التي وضعها أغسطس إلى أن فقدت
ثروة مصر ولم تعد المصدر الرئيسي لقمح
روما فلم يعد الأباطرة يرون حتى في تعيين
أحد من رجال السناتو في مصر خطر
يهددهم . وكان الامبراطور ماكرينوس
(٢١٧ — ٢١٨) أول من خرج على القواعد
التي وضعها أغسطس رأى عين إلى جانب
حاكم مصر مساعدا له من رجال السناتو
ولا أدل على فقدان أهمية مصر في القرن
الثالث مما فعله الامبراطور سفروس اسكندر
(٢٢٢ — ٢٣٥) إذ أنه عندما ثار عليه بعض
الجنود عين رئيسهم حاكما على مصر لا ترضية
له وإنما لإقصائه في مكان لا يستطيع منه
أن يهدد مركزه .

وقد اعتمد الرومان في توطيد سلطانهم في
مصر على القوة قبل كل شيء فأقاموا حاميات
عسكرية في الأماكن الهامة التي تمكنهم
من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . وبذلك

وضعوا حامية رومانية في نيقوبوليس Nikopolis (على بعد ثلاثة أميال شرقي الاسكندرية (مكان مصطفى كامل وحي رمل الاسكندرية)، لتلقي الرعب في سكان عاصمة التي أثبتت الحوادث أنها كانت أشد معاقل الثائرين خطرا في الدلتا في أيام البطالمة الأواخر. وأقام الرومان حامية أخرى في بابليون باعتبارها مفتاح الوجه البحري، وفي منطقة طيبة التي كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالمة، وفي أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية؛ وعلى الطرق المؤدية الى البحر الأحمر، وكذلك على شواطئ هذا البحر لضمان سلامة التجارة الشرقية التي استرعت انتباه حصيفي الرأي من الأباطرة مما حدا بهم منذ عهد أغسطس الى العمل على بسط النفوذ الروماني على الشواطئ الاسيوية والافريقية للبحر الأحمر لتحويل التجارة في هذا البحر الى موانئ مصرية على نحو ما فعل البطالمة من قبل.

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر بل لجأوا أيضا الى الأساليب السياسية. فقد كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومان المصريون والاغريق واليهود، وكان يقطن في الاسكندرية أكبر مجموعتين من الاغريق واليهود، ورأى الأباطرة أن اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاخضاع مصر، ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبدأهم المعروف، مبدأ «فرق تسد». حتى حسبي بعض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثاني أن عمدوا الى حرمان الاسكندرية من مجلس الشورى الذي عرفته منذ تأسيسها الى أن ألغاه أحد البطالمة الأواخر. ومنحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عصر البطالمة. وقد والى الأباطرة هذه المنح على اليهود على الرغم من أن الاغريق التمسوا من سادتهم حرمانهم إياها. فاستمر اليهود ينتظمون في جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار سجلاتهم وبيع تمارس شعائرهم الدينية. فتملك الغضب قلوب الاغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالمة وخضوعهم لأمة لم ترتفع الى مستوى حضارتهم ومحاباة الرومان لليهود. وقد زاد في نقمة الاغريق على اليهود أن هؤلاء بادروا الى الترحيب بالرومان والالتفاف حولهم، فحقد الاغريق على الرومان واليهود وأصبح عداء الاغريق لليهود كرههم الدفين للرومان. لكن اذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بامتيازاتهم وحقوقهم القديمة فإنهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية التي كان الاغريق يتمتعون بها، فحقد اليهود أيضا على الاغريق ولا سيما أن الأباطرة بوجه عام لم يحجبوا عطفهم على الحضارة الاغريقية فقد شملوا برعايتهم معاهد الاغريق ومنشآتهم وأبقوا اللغة الاغريقية لغة البلاد الرسمية

ولم تستعمل اللغة اللاتينية الا في الجيش والمراسيم المتعلقة بالقانون الروماني . ومن ثم لم تكن هناك مفر من وقوع صدام بين الاغريق واليهود . ويرى ان النزاع بين اليهود والاغريق كان ناجما بسبب المنافسة التي نتلمس وطأتها ونهدأ حينا ثم تعود الى الظهور والنشاط حينا آخر ، وان سياسة « فرق تسد » كانت سياسة حرفاء لم يكتنز بدرها الاغريق واليهود لحساب بل الرومان أيضا

ولم يكد يمضي عام على الفتح الروماني حتى نشبت في طيبة نار ثورة يبدو انها كانت خطيرة مما حدا بأول حاكم عام روماني مصر — كورنيليوس جالوس — الى ان يقود بنفسه القوات الرومانيــه لقمعها ويحدثنا استرابون بأن الحاكم العام أخمد في وقت قصير نيران الثورة التي اندلعت في طيبة بسبب الضرائب . وقد سجل كورنيليوس على النصب الذي أقامه في جزيرة فيلة انه واصل زحفه جنوبا حتى جزيرة فيله حيث استقبل سفراء ملك النوبة وانه عقد الملك قبل الحماية الرومانية وعينه حاكما على الاقليم الممتد من الشلال الأول حتى الشلال الثاني وكان يعرف باسم ترياكونتا سخوينوس

ويبدو أن الثورة لم تنشب في مصر العليا فحسب بل في أنحاء أخرى من مصر اذ نعرف من برديه دونت عندما ثارت هيروونبوليس وكل المنطقة في شرق الدلتا ، هاجمهـا كورنيليوس جالوس واخضعها بعد قليل من الجهود

وعندما رأى أغسطس أن نشوة النصر قد سكرت كورنيليوس جالوس عزله وعين مكانه بترونيوس جالوس وعهد اليه في الاتفاق مع القبائل التي كانت تعيش على الشواطىء البحر الأحمر في بلاد العرب والصومال والحبشة فاذا لم يتمكن من اخضاعها ، وذلك لتأمين سلامة تجارة مصر مع أواسط أفريقيا والهند . ولما لم يوفق بترونيوس في حملته كان نصيبه العزل ولا سيما ان غيبته عن مصر مع جانب كبير من حاميتها شجع النوبيين على نقض اتفاقهم مع كورنيليوس جالوس وعلى الاغارة على أسوان وفيلة والفنتين ونهبها وأسر بعض الأهالي والاستيلاء على تماثيل الامبراطور

وقد سارع الحاكم الجديد بترونيوس الى كبح جماح النوبيين وردهم على أعقابهم والاستيلاء على عاصمتهم نباتا . وعندما استرد الأسرى والتماثيل قفل راجعا صوب الشمال حيث حصن قصر ابريم وترك فيها حامية ثم عاد الى الاسكندرية . لكن بعد ذلك بعامين استرد النوبيون قصر ابريم فانبرى لهم بترونيوس وانتزعها منهم واستقر نحسنا . ولم يلبث النوبيون أن طلبوا الصلح فاستجاب أغسطس الى مطلبهم وكان الصلح ينص على عفاء النوبيين من دفع الجزية وعلى احتلال الرومان منطقة الـ

بين أسوان ، ولمعرفة مدى أهمية الرومان ببعض مراكز عسكرية ودعم السلام فترة طويلة في الجزء الشمالي من النوبة . وينهض كل هذا دليلا على السياسة التي وضع أغسطس أسسها واتبعها خلفاؤه من بعده ، وتتلخص في العناية بطرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الاهتمام بتوسيع نطاق الامبراطورية في تلك الأصقاع

ولم يكد بترونيوس يفرغ من التوبيخ حتى شغل باخماد ثورة في الاسكندرية وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الأعمال الداخلية وخاصة تطهير الترع القديمة وشق ترع جديدة واصلاح الآبار التي تقع على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى انتعاش حالة البلاد الاقتصادية . ويروى أن أغسطس شعر بضرورة اضعاف رجال الدين المصريين الذين ازدادت أموالهم وممتلكاتهم في أواخر عصر البطالمة ، فقد أمر بترونيوس بالاستيلاء على جانب من أراضي المعابد واسناد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لسد حاجة المعابد

وقد ساد السلام في مصر في خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خلفه تيبريوس (١٤ — ٣٧) مما أدى الى تناقص عدد الحامية الرومانية في مصر . وقد ساعد على استتباب الأمن سهر تيبريوس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملتزمي الضرائب اذ أنه شدد الرقابة على الحكام واستعاض في حالات كثيرة عن نظام التزام الضرائب بتعيين موظفين لجباية الضرائب فأخذت ثروة البلاد في الانتعاش

وفي عهد كاليجولا (٣٧ — ٤١) آتت سياسة « فرق تسد » أكلها فقد استعرت من جديد نار العداء بين الاغريق واليهود ، اذ أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودي اجريبا Agrippa عند مروره بالاسكندرية (أوائل أغسطس عام ٣٨) في طريقه الى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود في فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريبا منذ بضع سنين رجلا معدما مفلسا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح ذلك اليهودي فجأة ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك الفاتحين ، وبذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من اجريبا ومن اليهود في شخصه . فنظموا موكبا هزليا تقدمه رجل معتوه عصبوا رأسه باكليل من لحاء البردي ووضعوا في يده صولجانا من ساق البردي وطافوا به في شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سريانية معناها الملك . ولكن ما ان أفاق الاسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من اجريبا الذي كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة

مدينة وقرأوا له من يعدهم من ورطتهم الا ترجمو بين اليهود والإمبراطور . ولما كان الإمبراطور قد أمر بإقامة تمثاله في جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الإمبراطور بإقامة تماثيل البطل في معابدهم كان مدعمها ، لأن الاسكندريين ادعوا بأنهم لم يتظاهروا ضد اليهود إلا لعدم امتثال اليهود لأمر الإمبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا المعابد اليهودية ويقيموا فيها تماثيل الإمبراطور . وعندما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للإمبراطور وبذلك أفلحوا في حمل الحاكم الروماني فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . وانتهز الاسكندريون فرصة وقوف الحاكم الروماني الى جانبهم للتنكيل باليهود ونهب حوانيتهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حراك وانما هبوا للدفاع عن أنفسهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم فاشتبك الفريقان في صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الروماني فلاكوس لوضع الأمور في نصابها اذ أنه لا يعرف انه فعل شيئا سوى مجاوزة حدود الحكمة بالقاء القبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء مجلس شيوخ اليهود والأمر بجلدهم في الحادي والثلاثين من أغسطس بالرغم من انهم كانوا معفين من هذه العقوبة . وعندما تمكن جريب من اقناع الإمبراطور بعزل فلاكوس أرسل كل من الفريقين مندوبين وفدا لعرض قضيته أمام الإمبراطور لكنهما لم يظفرا منه بطائل .

وعقب ارتقاء كلاوديوس (٤١ — ٥٤) العرش أصدر منشورين اعترف في أحدهما ليهود الاسكندرية بالحقوق التي كانوا يتمتعون بها من عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور الآخر الحقوق ذاتها لكل الجاليات اليهودية في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وعلم اليهود بذلك ظنوا أن الفرصة مواتية للثأر من الاغريق ، فاستمر القتال بين الفريقين لكن الإمبراطور أمر حاكم باخمادها بكل وسيلة ممكنة . وما أن هدأت الحال حتى بادر كل من الاغريق واليهود بارسال وفد الى روما . ويستخلص من رسالة كلاوديوس الى الاسكندريين ، أن الوفد الاغريقي قدم فروض الطاعة والولاء للامبراطور وسرد مظاهر الحفاوة التي كان اغريق الاسكندرية يبدون احتفاءهم به وطلب اعادة امتيازاتهم القديمة كما عرض تظلمه ضد اليهود . ويبدو أن الاغريق أرادوا أن يستخدموا مع كلاوديوس الوسيلة نفسها التي استخدموها مع كاليجولا بتقديسه لكنه اقتفى أثر سياسة تيبريوس فرفض أن يؤله ولم يقبل مما عرضوه عليه ما يرفعه فوق مستوى البشر وأيد ما كانوا يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه تهرب من منح الاسكندرية مجلس الشورى . فقد جاء في هذه الرسالة « أما أن مجلسا كان مخصصا مألوفا بين ظهرانيكم على عهد ملوككم القدماء فهذا ما لا علم لي به لكنكم تعلمون جيدا انه

لم يكن يحكم مجلس في عهد الأباطرة الذين سبقوه. ومن الواضح أن هذا المطلب الجديد الذي تقدموا به لأول مرة قد يكون ضد البطالمة والحكومة وكذلك فان كتب الى سبيتوس وكتوس يبحث الموضوع ويوافيني بما اذا كان يجب انشاء هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان ثمة داع لذلك » ومن اليسير أن نتبين من هذا الرد ان الاسكندريين استندوا في طلبهم الى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس في عهد ملوكهم القدماء. ولعل امبراطورا مارحا مثل كلاوديوس لم يجهل نظم الاسكندرية في عهد ملوكها القدماء لكنه تظاهر بالجهل بأنه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القدماء سابقة تلزمه بما يجب اتباعه. ومع ذلك فانه لكي لا يبدو متعسفا وعد بالفصل في مطلب الاسكندرية على ضوء المصلحة العامة وعهد في بحث الأمر الى الحاكم العام. ومن لم يتغير رد كلاوديوس فرفضه منح الاسكندرية مجلسا في عهد البطالمة

وقد أيد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يتمتعون به من حقوق وامتيازات ولكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ونصح الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهم تحذيرا شديدا من العودة الى منازعاتهم السابقة. اذ كانت الحال قد هدأت بعد ذلك بعض الشيء على النزاع لم يلبث أن تجدد ثانية ويحاول أعضاء حزب الاغريق في تلك البلاد التي تعرف الصحف المعروفة بـ « أعمال الاسكندريين » أو « أعمال الشهداء الوثنيين » تمييزا لها عن « أعمال الشهداء المسيحيين » من نشأته مردها الى التحايل الى صياغة الوثائق في قالب محاضر محاكمات يلقى فيها المتهمون خطبا طويلة ويندون بمثالب الحكم الروماني ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصة عنيفة. و « أعمال الاسكندريين » تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان ولذلك صادفت رواجا كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل أنحاء مصر وتعتبر نموذجا للأدب الاغريقي الشعبي الذي كان يرمي الى الاشادة ببطولة زعماء الاسكندرية واثارة البغضاء ضد الحكم الروماني. ولا يبعد أن تكون هذه الوثائق قد نقلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجمت الى الاغريقية وأضيفت اليها بعض العناصر الخيالية التي استمدت من التمثيليات الفكاهية المعاصرة والقصة الاغريقية الطويلة وذلك يجعلها أكثر مواءمة للدعاية السياسية. ولقد يمكن الى أن « رجال الجمنازيوم » — وكانوا أرسخ الاسكندريين ثقافة وأعرقهم أصلا وأرفعهم مكانة وكذلك أشدهم كرها للحكم الروماني — هم الذين كانوا الرأس المفكرة واليد العاملة وراء صدور « أعمال الاسكندريين »

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا في الأسلوب والإنشاء فإنه لا يمكن قبول الرأي القائل بأنها من تأليف كاتب واحد ولا حتى أن بعضها يرجع إلى القرن الأول أو مطلع القرن الثاني وإن كان أكثرها يرجع إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث عندما اشتدت عداوة الاسكندريين للرومان وخاصة الامبراطور كركلا .

ومهما كان من أمر «أعمال الاسكندريين» فإنه ما إن هدأت الحال بين الفريقين حتى حج الرسل من جديد إلى روما ، لكن النصر كان حليف اليهود هذه المرة إذ أن الامبراطور أمر بإعدام رئيسي الاغريق . وقد أثبتت هذه الأحداث أنه بينما كانت الاسكندرية في حاجة إلى حامية عسكرية كبرى لاستتباب الأمن فيها كان يكفي بقية البلاد عدد يسير من الجنود ، ولذلك فإنه منذ ذلك وجهت الفرقة إلى معسكر نيقوبوليس الحامية التي يرجح أنها كانت تنزل عند طيبة أو مينة .

ويبدو أنه في عهد كلاوديوس انتعشت تجارة الاسكندرية مع الهند انتعاشا كبيرا نتيجة للعناية التي أولاها الرومان لتأمين الملاحة في البحر الأحمر بقطع دابر القراصنة ونشر نفوذهم في تلك الأصقاع . ويقال إنه حوالي هذا الوقت استولى الرومان على عدن ، وإن ذلك كان إحدى الخطوات التي اقتضاها تأمين التجارة مع الهند لزم ازدياد قوة مملكة أكسوم منذ منتصف القرن الأول الميلادي لأنها من ناحية أخذت تتوغل في أعالي وادي النيل على حساب مملكة مروى وهددت بذلك الطريق البري بين مصر وأواسط أفريقية . ومن ناحية أخرى كانت تحاول الحصول على قاعدة لها في جنوب بلاد العرب وكان ذلك يمكنها من قطع طريق البحري مع الشرق ، لكن الرومان قضوا على هذه المحاولة ببسط حمايتهم على مملكة الحميريين والاستيلاء على عدن وجزيرة سقطرى . ولدرء الخطر الذي كان يهدد أعالي وادي النيل يقال إن نيرون (٥٤ — ٦٨) أرسل في عام ٦١ بعثة عسكرية لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية تمهيدا لإرسال حملة كبيرة إلى تلك البلاد ، وبينما كان الجنود يحتشدون في الاسكندرية لهذا الغرض شبت نيران الثورة في جوديا مما استدعى استخدام أولئك الجنود في إخمادها وإن حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على الأمن فيها لأن النزاع القديم بين الاغريق واليهود تجدد مرة أخرى إذ ذاك ولم ينته إلا بعد القضاء على عدد كبير من اليهود يزعم المؤرخ اليهودي يوسف أنهم كانوا يعدون خمسين ألفا . وإذا كانت هناك قرائن كثيرة تؤيد ما قيل عن اتساع مملكة أكسوم ونشاط الرومان بوقفه ، فإن ثمة قرائن أخرى تثير الشك حول ذلك ، وفي ضوء معلوماتنا الراهنة يتعذر ترجيح كفة على أخرى

وعندما احتدم الصراع على العرش في روما عقب وفاة نيرون كانت مصر لأول مرة منذ أغسطس ولأمد محدود مسرحا سياسيا هاما في تاريخ الامبراطورية الرومانية، إذ فيها شجع عقب الهزيمة على فيتليوس (Vitellius) جيشه، كما في اقامة فسبسيانوس (Vespasianus) صاحب الحرب وقائد الحملة ضد اليهود، امبراطورا (٦٩ - ٧٩). وقد زار فسباسيانوس الاسكندرية في طريقه الى ارتقاء العرش فكان أول امبراطور شهدته العاصمة القديمة بعد أغسطس منذ قرن تقريبا. وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا ثم لم يلبثوا أن تذمروا عليه عندما فرض عليهم ضرائب جديدة وهي ضرائب كانت له البعث.

وقد عنى تيتوس (٧٩ - ٨١) باظهار ولائه واحترامه للآلهة المصرية إذ أنه زار منف واشترك في حفل لتنصيب عجل أبيس جديد وارتدى التاج التقليدي على نحو ما جرى عليه الفراعنة في مثل هذه المناسبات فكان ذلك بداية سياسة جديدة تتميز بالظهور بالعطف نحو الآلهة المصرية. لكن تيتوس لم يعمر طويلا ليتعهد السياسة التي وضعها بنفسه ونلمس آثارها في الرعاية التي أسبغها دوميتيانوس (٨١ - ٩٦) على عبادة ايزيس في ايطاليا ذاتها، وكذلك في ظهور الآلهة المصرية على نقود الاسكندرية منذ ذلك الوقت.

وقد نعمت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرفا (Nerva) (٩٦ - ٩٨) ولم يقع فيها شيء ذو بال في العصر الأول من حكم تراجان (٩٨ - ١١٧) الا محاكمة حاكمها جايوس فيبيوس ماكسيموس (G. Vibius Maximus) وكان الحاكم العام من ١٠٣ الى ١٠٧ لاتهامه بالرشوة واغتصاب الأموال واستغلال النفوذ وافساد خلق غلام لم يتعد ليوب. وتكشف الوثائق التي تتناول هذه المحاكمة عن مثالب نظام الحكم الروماني في مصر ومدى السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها حاكمها العام وكانت لا تقل عن سلطة الملوك فلا عجب أن أساء استغلالها كثيرون ممن أسندت اليهم. ويبدو أنه كان نصيب هذا الحاكم الفاسد العزل من منصبه والاعدام فقد وجد اسمه مضروبا في بعض النقوش وكان ذلك هو الاجراء الذي يتبع عادة في حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالخيانة العظمى ويحكم عليهم بالاعدام.

ولم تنقض بعد ذلك بضع سنين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاغريق في عام ١١٥ أو ١١٦ واحتكم الفريقان الى تراجان فأخذ الاغريق على محكميهم وهدأت الحال حتى العام التالي عندما ثار اليهود الا أن الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة لكن اليهود كانوا يضمرون حقدا شديدا لأن الرومان كانوا قد هدموا هيكلهم منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ عندما دمروا

معبدهم الأكبر في أورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة تدخل لمعبد جوبيتر كابيتولينوس في روما بدلا من معبد أورشليم وأغلقوا معبد بوليونتوبوليس في مصر وصادروا جميع ممتلكاته ، واعتبروا ينظرون اليهم جماعة مشاغبة يجب أخذها بالحزم . أدى كل ذلك أن أضمر اليهود حقدا دفينا للرومان وأخذوا يتطلعون الى الفرصة التي تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود ان فرصتهم قد سنحت عندما تحرج مركز الامبراطور في أثناء الحملة التي قام بها في الشرق ، ففي عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود في قبرص وفي مصر وفي قوريناية (برقة) ، وفي عام ١١٦ تقلبت الثورة الى حرب ضروس راح ضحيتها أعداد كبيرة من الاغريق والرومان في قبرص وقوريناية . لكننا لا نعرف ما حدث في الاسكندرية في بداية الأمر وان كنا نعرف ان اليهود أعملوا القتل بين الاغريق المقيمين في ريف مصر مما حدا بهم الى الالتجاء الى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين في القضاء على كل من وصلت اليه أيديهم من اليهود . وفي شتاء ١١٦ زحف يهود قوريناية على مصر لكنهم بدلا من أن يحاولوا اقتحام الاسكندرية اتجهوا نحو الاقاليم والصعيد الى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات فسلبوا ونهبوا وخربوا وحرقوا كما سولت لهم نفوسهم . وقد بلغت بهم الحال الى حد أن الحكومة اضطرت الى تجنيد فرق من المزارعين المصريين لكن القتال ظل مستمرا حتى استطاعت اخمادها عام ١١٧ عندما أنهكت حرب عصابات الثائرة قوى اليهود بعد وفاة تراجان وارتقاء هادريان العرش .

وقد سلطت في عهد تراجان عناية كبيرة على نظم مصر الحربية كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطىء النيل عند بابليون عرفت بقلعة الرومان على النيل وحفر قناة القناة التي عرفت بقناة تراجان تربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بابليون وتمر بهليوبوليس وتلتقي بمجرى القناة القديمة التي حفرها بطليموس الثاني عند دخولها وادي الطميلات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان (١١٧ — ١٣٨) عنايته الى اصلاح ما أتلفته الثورة فأعاد عددا من المباني العامة في الاسكندرية وأمر بإعادة النظر في الضرائب مما أدى الى تخفيف عبء كبير منها في حالات عديدة . وفي عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان من آثار تلك الزيارة الرسمية التي أولاها الامبراطور لمدينة الاسكندرية وضواحيها وكذلك تأسيس مدينة أنتينوبوليس (الشيخ عبادة) حيث غرق في النيل خليله أنطينوس Antinoos. ولا شك في أن هادريان قد أراد بتأسيس هذه المدينة أن يخلد ذكرى خليله الوفي ، وكذلك اتخذها مركزا جديدا للحضارة الاغريقية في قسم من البلاد كان يفتقر اليه أو أنه حتى كانت

توجد في مصر السفلى مدينتان اغريقيتان وهما الاسكندرية ونقراطيس ، كما كانت توجد في مصر العليا مدينة اغريقية وهي بطوليمس ، استثناء بالقرب من جرجا . لم توجد مدينة اغريقية واحدة في مصر الوسطى ، ولعله لهذا السبب استحدثت المدينة الجديدة عندما جيء بقليل من مواطنيها من بطوليمس التي كانت معقلا قديما للحضارة الاغريقية في مصر العليا . وقد أنشئت المدينة الجديدة على نمط اغريقي ومنحت مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا

وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى الى قبائل واحياء . لكن بالرغم من الصبغة الاغريقية الصرفة التي اتسمت بها هذه المدينة فانها لم تخل من عناصر مصرية ومؤثرات مصرية اذ أن انطينوس ، الذي نسبت اليه المدينة ، كان يعبد تحت اسم أوزير أنطينوس (Osirantinous) ، ولقبه بالمصرية المصري بس (Bes.) هذا الى انه أبيح لسكان المدينة الجديدة حق التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظورا في المدن الاغريقية الأخرى . ولتشجيع التجارة بأنطينوبوليس أمر الامبراطور بانشاء طريق جديد بين النيل والبحر الأحمر يصل بين الثغر المشهور برنيقي وبين المدينة الجديدة وقد أطلق الطريق الجديد في اجتذاب جانب من التجارة التي كانت تمر بالطريق القديم بين برنيقي وقفط لكنه لم يمض وقت طويل حتى

كانت الأمور قد عادت الى سابق عهدها

وعند أواخر أيام هادريان شهدت مصر آخر ثورات اليهود لكن يبدو أنها لم تكن ذات بال . وقد سادت السكينة في عصر أنطونينوس بيوس (Antoninus Pius) (١٣٨ — ١٦١) اللهم الا اذا استثنينا فتنة وقعت في الاسكندرية وقتل في اثنائها الحاكم عام (١٥٣) مما أثار نقمة الامبراطور على المدينة الا أنه يقال انه زارها بعد ذلك وشيد بها مضمارا لسباق الخيل (Hippodrome) وبوابتي « الشمس » و « القمر » عند طرفي الشارع الرئيسي الذي كان يخترق الاسكندرية من الجنوب الى الشمال .

واذا كان المصريون قد اخلدوا الى السكينة منذ الثورات التي قاموا بها في أوائل حكم الرومان فانه في عهد ماركوس أورليوس (١٦١ — ١٨٠) نشبت بينهم في الدلتا ثورة عنيفة عرفت « بحرب الرعاة » وهزمت في خلالها الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية أن تقع في قبضة الثائرين الا أن النجدة التي قدمت من سوريا بقيادة افيديوس كاسيوس قضت على تلك الثورة (١٧٥) ونادت بافيديوس كاسيوس امبراطورا لكنه لم يلبث أن قضي عليه بعد ذلك بقليل . وبرغم أن الاسكندرية لم تدخر وسعا في تأييد كاسيوس فان الامبراطور عفا عنها ، بل ان الكثيرين قاموا بادوار رئيسية في هذه الحركة مثل أسرة كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جاءوس

كالفيسيوس سابينوس (C. Calvisius Sabinus)
بن يقوم بدوره لا عقاب طبقة بالقصاص من بعضهم بحضوره لكن عندما رقي كومودوس Commodus (١٨٠ - ١٩٢) العرش أعيدت كل أفراد أسرة كاسيوس وكذلك عادم الاسكندريين الذين ساهموا في هذه الحركة

وقد خلف كومودوس على العرش مدة ثلاثة شهور (يناير — مارس ١٩٣) الامبراطور برتيناكس (Pertinax) وبرغالق هذا العهد لمصر أهمية خاصة فهي ترينا كيف أن نبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش كان يستغرق وقتا طويلا للانتقال من روما الى مصر، وذلك أنه نودي بالامبراطور الجديد في روما في اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٩٣ على حين أن حاكم مصر لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة بمدينة [illegible] مصر يوم الا في السادس من شهر مارس. ونعرف أن برتيناكس قتل في روما في الثامن والعشرين من شهر مارس ومع ذلك فان اسم هذا الامبراطور يظهر في تاريخ وثيقة من الفيوم في التاسع عشر من شهر مايو

وعندما قتل برتيناكس نادت مصر بحاكم سوريا بسكنيوس نيجر (Pescennius Niger) امبراطورا لكن ما كاد الأمر يستتب في روما لسفيروس (١٩٣ — ٢١١) حتى قضى على نيجر. وعندما زار سفيروس مصر [illegible] اثر [illegible] اقامة من الأسئلة [illegible] في الاسكندرية وفي [illegible] العمود [illegible] [illegible] زيارة [illegible] مصر. وأهم من ذلك أنه في عام ٢٠٢ منح الاسكندرية وكل عواصم [illegible] مجالس شورى. ومع ذلك كان [illegible] من [illegible] من ناحية دعم [illegible] الرومانية [illegible] في [illegible] [illegible] ومن ناحية أخرى تحسين ادارة جميع الضرائب. وفضلا عن ذلك فانه أدخل تعديلات كثيرة على القوانين التي كان معمولا بها في مصر

وعندما ارتقى كركلا (٢١١ — ٢١٧) العرش ومنح في عام ٢١٢ حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى قانونه المشهور (Constitutio Antoniniana) [illegible] سكان الامبراطورية الرومانية بما في ذلك المصريين لم يؤد ذلك الى تغيير وضعهم بعد عدو أدنى الطبقات الاجتماعية شأنا في مصر. وعندما زار كركلا الاسكندرية في عام ٢١٥ وسخر منه أهلها لظهوره بمظهر أبطال عظام مثل الاسكندر ولقتله أخيه [illegible] علنهم جام غضبه فأعدم زعماءهم وأطلق جنوده على المدينة يحربونها وأعملوا القتل بين سكانها، كما أنه ألغى الحفلات العامة وأقام حاميات في المدينة ذاتها وأوقف الأعمال على العاصمة

وأهم ما يمتاز به عهد ماكرينوس (٢١٧ — ٢١٨) هو ما سلفت الاشارة اليه من أنه كان أول من خرج على القاعدة التي وضعها أغسطس وتقرر بمقتضاها ألا يتقلد أحد من رجال السناتو مناصب ادارية في مصر، اذ أن ماكرينوس عين لحاكم مصر مساعدا من رجال السناتو [illegible] على تعين أحد [illegible] مصر عما كانت عليه في بدء العهد الروماني وأهم من ذلك في الدلالة على تغير أهمية

مصر في القرن الثالث انه حدث وهن في الجيش الامبراطوري على عهد سفيروس اسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) عين الامبراطور عم الثوار حاكما على مصر لا ... به ... لانقسامه في مكان لا يستطيع فيه ... يهدد مركزه

وكانت نتيجة ذلك أن مصر لم تلعب أي دور في سلسلة المنازعات التي وقعت في أواخر النصف الأول من القرن الثالث من أجل ارتقاء عرش الامبراطورية ونتجت عن تعاقب ارتقاء امبراطور بعد آخر وغلب على أحداث مصر سبات عميق استمرت فيه حتى كان عهد دكيوس (Decius) (٢٤٩ — ٢٥١) الذي تشعبت فيه حركة اضطهاد في مصر مما حدا بالحكومة الى توجيه اهتمامها اليها واتجاه المدة مع المشارقة وفي هذا العهد أيضا أغارت قبائل البليميس على الحدود المصرية لأول مرة بعد اغاراتها السابقة في عهد أغسطس. ومن هذه الاغارة نلمس باتساع مملكة أكسوم التي دفعت مركزها في وادي النيل على حساب مملكة مروي وكانت تضغط على القبائل النوبية في الجنوب فتدفعها نحو الحدود المصرية وبعد ذلك استأنفت مصر سباتها عندما دبت المنازعات في الامبراطورية من جديد خلال المدة التي تمتد من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتعاقب فيها الأباطرة بسرعة غريبة

وقد كان أهم ما حدث بعد ذلك هو أن حولت ملكة بالميرا (تدمر) زحفها على مصر واستولت عليها (٢٦٩ — ٢٧٠) وبرغم أنه بعد عدة محاولات أفلحت في دحر الجيوش الرومانية فانها لم تشأ أن تستقل بمصر بل عرفت بسلطان روما، لكن لم تكد تمضي غير ... عامان حتى أفلح أورليانوس (٢٧٠ — ٢٧٥) في القضاء على ثورة بالميرا في مصر واستولى على بالميرا ذاتها، لكن عقب عودة أورليانوس الى روما ثارت بالميرا وبعد ذلك الاسكندرية لارتباط المدينتين بصلات تجارية وثيقة فعاد الامبراطور الى الشرق وقضى على الفتنة في بالميرا ثم في الاسكندرية وبعد ذلك تركت مصر تحت امرة بروبوس وعهد اليه برد قبائل البليميس على أعقابهم وكانت قد انتهزت فرصة تلك الأحداث وزحفت على مصر العليا حتى قفط. وقبل انتهاء بروبوس من طرد البليميس من الوجه القبلي نودي به امبراطورا (٢٧٦ — ٢٨٢) عقب وفاة أورليانوس (٢٧٥) وحكم تاكيتوس القصير (٢٧٥ — ٢٧٦)

ولم يضع انتصار بروبوس على البليميس الا حدا مؤقتا لغزواتهم فقد أخذوا يجددون غاراتهم كل عام مما حمل الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) الى جعل حدود مصر الجنوبية عند أسوان بدلا من هيراسيكامينوس (المحرقة) ودعوة بعض قبائل الصحراء التي كانت تعرف باسم النوباديين للسكنى في وادي النيل لحماية حدود مصر الجنوبية

الفصل الثاني

أداة الحكم

لم يترتب على تحول مصر ضيعة الامبراطورية الرومانية تغييرات هامة في ادارة البلاد لأن سياسة روما نحو ما لها في خلال فتوحاتها في الشرق كانت تقضي بتجنب التدخل ما أمكن في نظم البلاد التي كانت تتمتع بادارة منظمة ، ولذلك اتبع الرومان في حكم البلاد النظام نفسه الذي وضعه البطالمة الا انهم استحدثوا بعض التعديلات التي اقتضتها الظروف الجديدة ، لكن ما قدره الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة الى أخرى انتقالا لم يكن مصحوبا بانقلابات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة منذ عهد الفراعنة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تخلف أسرة أخرى

١ - السلطة المركزية :

ولما كانت روما في حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة في معالجة شؤونها المالية والى امداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، وكان في وقوع مصر في يد منافسة للامبراطور أو في قيام اضطرابات بين الاهالي خطر يهدد كيان الامبراطور ، فقد حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لاشرافهم مباشرة وعلى ألا يجرؤ رجال السناتو أو من في مرتبتهم مناصب ادارية في مصر أو يدخلونها دون استئذان منهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتوقراطيا ، وعلى أن يتولى المناصب الرئيسية في السلطة المركزية رومان ينتخبهم الأباطرة من بينهم ويستبقونهم في مناصبهم أو يعزلونهم كما يتراءى لهم

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praefectus) كان يتمتع بمعظم السلطة التي كانت من نصيب الملك في عهد البطالمة ، فانه كان يشرف على ادارة البلاد العامة وشئونها المالية والقضائية والحربية تحت اشراف الامبراطور مباشرة . وكان يحتم عليه عدم مغادرة مصر في خلال مدة حكمه ، كما كان يجب عليه عند نهايتها انتظار وصول خلفه . وفي حالة خلو منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأي سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده في الشئون القضائية

وكان يدعى بالاغريقية ديكايودوتس (Dikaiodotes) وباللاتينية يوريديكوس (Juridicus) ، وقد كان يساعد الحاكم العام على الاضطلاع بمهام منصبه فئة صغيرة من كبار الموظفين الرومان من الحسابات أو ... أو المستشار القضائي كان أخطرهم شأنا وأرفعهم مقاما. وكان للحاكم العام مساعدان في الشئون المالية وهما الديويكيتيس (dioiketes) والايديولوجوس (idiologos).

ومن أجل تسهيل الادارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الامبراطورية ثلاثة أقسام وهي مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا ، وأسندت ادارة كل قسم الى ابستراتيجوس (epistrategos) روماني ، وكان الامبراطور هو الذي يعين حكام هذه الأقسام الا أنهم كانوا يخضعون للحاكم العام مباشرة ويستمدون منه معظم سلطتهم ، وكان اختصاصهم اداريا بحتا ، غير أن الحاكم العام كان ينيبهم عنه في الفصل في القضايا وكان لهم حق مطلق في دراسة الشكاوى والتحكيم في المنازعات. ولم يكن لهم أي اختصاص في الادارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب الحيف في تقدير الضريبة أو ما شابه ذلك. وكان لهم شأن كبير في تعيين موظفي المديريات ، ويرجع الى قراراتهم ... عند تعيين الصغار من هؤلاء الموظفين لكن يبدو أن موافقة الحاكم العام كانت ضرورية عند تعيين كبارهم.

٢ ـ السلطة المحلية في القرنين الأول والثاني

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة ينقسم الى مديريات ، على رأس كل منها قائد (strategos) كان على حاكم القسم أن يراقبه ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا ما يتصل منها بالشئون المالية اذ كان يرجع في ذلك الى الادارة المالية المركزية في الاسكندرية. ولم يكن للقائد أي اختصاص حربي ، لكن نفوذه كان يمتد الى جميع نواحي الادارة المدنية ، اذ كان رئيس الشرطة وكثيرا ما كان ينوب عن الحاكم العام في الفصل في القضايا. وكان للقائد ذات الحق في القاء القبض على مخالفي القانون وفي النظر في الشكاوى واجراء تحقيق ابتدائي في القضايا ومحاولة فض النزاع وديا فاذا تعذر ذلك فانه كان يحيل المتخاصمين الى المحاكمة. وقد كان القائد مسئولا كذلك عن تقدير وجمع الضرائب في مديريته وعن استغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها.

وكان النومارخ لا يزال معروفا في عهد الرومان الا أنه ازاء سلطة القائد المدنية كان أهم ما تبقى له من اختصاصات هو الاشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة. وقد أدى تقلص أهمية مركزه الى زيادة عدد النومارخين اذ كان يعين لكل مديرية اثنان أو أكثر.

وكان يلي القائد في المرتبة الكاتب

الملكي ، وكان ينوب عن القائد في اختصا
صه ، وهو كلوغ مركزه . وكانت أهم اختصاصاته تتعلق بالشئون المالية في الاقليم ، فضلا عن حمل الجند على الاعتقاد بأنه كان بمثابة مراقب على تصرفات القائد في الشئون المالية . وكان يجيء بعد الكاتب الملكي رؤساء دور السجلات الرسمية . فقد أنشأ الرومان الى جانب دار السجلات المركزية بالاسكندرية دورا مماثلة في عواصم المديريات . وعلى مر الزمن أصبحت كل من هذه الدور تنقسم قسمين ، يختص أحدهما بحفظ جميع المكاتبات الرسمية وكشوف الضرائب وقوائم التعداد وسجلات الأراضي ، ويختص القسم الآخر بتسجيل الأراضي والعقود والعبيد . وكان يشرف عادة على كل من هذين القسمين رئيسان .

ومما يجدر بالملاحظة أن مناصب الادارة المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها اغريق فيما عدا المناصب الدنيا منها فقد كان يتولاها مصريون . واذا كان يبدو من ذلك أن الموظفين كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتها التي كانوا يختارون منها في عصر البطالمة فانه مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة الحكومية ، ففي عهد البطالمة كان موظفو الحكومة بالفعل من موظفي الملك الذين اختاروا خدمة الحكومة مهنة لهم يكسبون منها قوتهم ، أما في عهد الرومان فانه لم يأت القرن الثاني حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء كبارهم ، يتألفون من أعيان لا يتولون مناصبهم الا لفترة قصيرة وقسرا عنهم .

وكان يعاون ادارة كل مديرية في عاصمتها . ولم تتمتع تلك العواصم باستقلال محلي في القرنين الأولين من حكم الرومان اذ كانت مرافقها ورجال شرطتها تحت اشراف القائد لكن يبدو أن العواصم أنشأت في كل منها عددا من المناصب البلدية التي استعيرت أسماؤها واختصاصاتها من نظم المدن الاغريقية . وفي بداية الأمر كان يتولى كل منصب سنويا متطوع ممن كان ينفق من ماله الخاص على كل ما يتطلبه النهوض بأعباء منصبه . وكان تولي هذه المناصب يعتبر شرفا يعتز به الناس ويتطلعون الى الحصول عليه ، فكان الأهالي عندئذ ينتخبون أفضل مرشحين لتولي هذه المناصب . لكن بمضي الزمن لم يعد هناك حاجة الى الانتخاب ، فقد ازدادت على مر الأيام صعوبة الحصول حتى على مرشح واحد لكل منصب بسبب ما كانت هذه المناصب تفرضه على شاغليها من أعباء مالية كانت تتزايد باستمرار في الوقت الذي سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سيء الى أسوأ . فمن أجل التغلب على صعوبة شغل هذه المناصب عمدت الحكومة الى الارغام والبحث عن أشخاص لشغل هذه المناصب كما عمدت الى اشراك أكثر من شخص واحد في تحمل أعباء كل منصب . ومنذ القرن الثاني جرت العادة أن تتولى أعباء

منصب مدير الجيمنازيوم شخصين كانا يتساويان كل شهر مباشرة مهام هذا المنصب ونعرف أنه في أوكسيرنخوس بلغ عدد مراقبي السوق العامة في خلال القرن الأول خمسة ، وكان عدد مراقبي التموين عند نهاية القرن الثاني أربعة . وكان التطور الطبيعي نهاية تحوله نائبا بجانبه لكل منصب عند أواخر القرن الثاني .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الجيمنازيوم (gymnasiarch) ، وكان يتولى رعاية شئون الجيمنازيوم الذي كان مركز الحياة الاجتماعية ومعهدا للتربية البدنية والعقلية ، والمربي (exegetes) ، وكان يشرف على الشبان الشبان بمشقة تدريبهم (ephebois) ، ومربي الأوصياء للسيدات والمربي للقاصرين ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن يصلون الى منصب لتسمى بالامبيرات ، وثالث مراقب التعليم (kosmetes) ، ورابعها الكاهن الأكبر (archiereus) ، وخامس مراقب التموين (eutheniarch) ، وسادس مراقب السوق العامة (agoranomos) ، وكان يتولى كذلك توثيق العقود . وكان يوجد الى جانب هؤلاء نفر من الحكام يرجع الظن بصفة عامة الى أنهم كانوا يعينون فقط عندما كانت الظروف تستدعي ذلك مثل (epimeletes) . وكان تعهد اليهم في الاشراف على الأشغال العامة . وكان يوجد في كل عاصمة من عواصم المديريات هيئة الجمعية العامة للمواطنين .

وكان يمثل السلطة المركزية في ادارة تلك العواصم قائد المديرية وكان يعين عاملا نظاميا ماليا ويشرف على حفظ الأمن فيها ، وكذلك الكاتب الملكي وكان مسئولا عن اعداد السجلات المركزية بكافة المعلومات التي يحتاج اليها لفرض الضرائب ، كما كان مسئولا عن اعداد أسماء الأشخاص اللائقين اختيارهم للوظائف العامة التي كانت وظيفة من بينها . وكان يوجد عادة في كل مدينة نائبان يتناوبان العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد من القرى يدير الشئون المحلية في كل منها جماعة من شيوخها يبدو أن عددهم كان يتفاوت تبعا لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية بمثابة حلقة الاتصال بين الأهالي والحكومة في دفع الضرائب . وكان عليهم أيضا أن يراقبوا فلاحة أراضي القرية وأن يمدوا الحكومة بما تطلبه من عمال أو الجنود بحسب الحاجة . وكانوا كذلك مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن في قراهم ونحن لا نعرف كيف كانوا يختارون لكن يرجح أن خدمتهم كانت فرضا اجباريا على ثراة كل قرية لمدة سنة دون أي مقابل . ونحن نعتقد أن هذا النظام يرجع الى رغبة الحكومة الرومانية في ايجاد وسيلة محلية تؤدي من أعضائها الى الحصول على ضرائب القرى فقد كان أولئك الشيوخ مسئولين شخصيا عن سداد ضرائب قراهم .

وكان يمثل السلطة المركزية في كل قرية رئيس الشرطة (arcbepodon). وكان يعمل على حفظ الأمن فيها. وكانت القرية وكان مسئولا عن موافاة السلطة المركزية بكل ما تلزمها من بيانات لأغراض الضرائب مثل الذي كان يعد قوائم بسكان القرية ومقدار ما يملكه كل منهم ومواردهم. وكان أيضا مسئولا عن اعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينهم. وكان الحاكم يختاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التي قدمها سلفه، وكان يشغل وظيفته مدة ثلاث سنوات، وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن في بعض الحالات كان يعهد في شئون قريتين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد. وكان يختص داخل بعض الضرائب مواجهة ما يتطلبه منصبه من تكاليف.

واذا كان البطالمة قد حرصوا على أن يدرجوا في قوائم أسماء سكان البلاد وجنسية كل منهم والطبقة التي ينتمي اليها، فان الرومان أحكموا نظام التعداد وكان يجري كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم « التسجيل المنزلي »، فقد كان يتعين على مالك كل منزل أو مستأجره أن يتقدم الى الموظفين المختصين اقرار بجميع سكان منزله ويقسم على صحة البيانات التي قدمها. وكان أولئك الموظفون يسمون مفحصي epikpasis هذه البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كان السلطات المختصة تعد سجلات وافية بأسماء جميع سكان البلاد بين طبقة الطبقة التي ينتمي اليها كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جميعها أو بعضها أو الالزام بدفع الضرائب كاملة وفي الفترة الواقعة بين تعدادين كانت سجلات الوفاة والميلاد تستخدم مستويا لتصحيح البيانات الواردة في هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع.

ولما كانت الحكومة ترغب بحرص شديد الانتماء الى الطبقات الممتازة بسبب ما كان يترتب على ذلك من التمتع بامتيازات لها أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب الشباب (ephebeia) والجمنازيوم، فانها كانت لا تسمح بتسجيل أي شخص في طبقة من هذه الطبقات الا بعد فحص (epikrasis) الطلب المدعم بالمستندات الذي كان والد الشخص أو الوصي عليه يتقدم به عادة في الثالثة عشرة من عمره أي قبل تسجيل اسمه في منظمة تدريب الشباب وفي قوائم دافعي الضرائب، ففي سن الرابعة عشرة كان الشبان يسجلون في طبقاتهم ويدفعون ضريبة الرأس وبعض الضرائب الاخرى. وقد كان الانتماء الى طبقة من الطبقات الممتازة يقتضي اثبات انتماء الاب والام الى تلك الطبقة، وكان في استطاعة العبيد الانتماء الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم بالتمتع بوضع سادتهم القانوني بعد فحص حالتهم

٣ ـ المدن الافريقية

بعد كانت الاسكندرية ونقراطيس وبطوليمايس وأنطينوؤبوليس هي المدن الوحيدة التي تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي في حكمها المحلي. وبرغم ان معلومات عن دستور كل منها ضئيلة الا أنها تكفي لتريب انها كانت تتمتع بمزايا خاصة تختلف في كل منها عن الأخرى باختلاف أصلها وتاريخها.

أما الاسكندرية فيجمع الباحثون على أن الأباطرة منذ أغسطس حتى سبتيموس سفيروس لم يسمحوا لها بمجلس للشورى لكي لا يتيحوا لأهلها المغرمين بالثورات معقلا لثوراتهم ولكي يجعلوهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة. واذا كانت بعض القرائن تشير الى أنه منذ أوائل العصر الروماني كان لمواطني الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضوا، والى أن هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما ومواطني الاسكندرية فان الدلائل لا تدع مجالا للشك في أنه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية. ومثل ما كانت عليه الحال في عهد البطالمة كانت نخبة الاغريق الاسكندرية تنقسم الى قبائل وأحياء وتكون هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة، وكان لبعضهم ان التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للحصول على حقوق المواطنة الرومانية وللاعفاء من ضريبة الرأس ومن تولي مناصب عامة خارج الاسكندرية. وفي العصر الروماني أيضا كانت توجد كذلك فئة اضافية مواطنين وكانوا لا يدخلون في الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين. وكان للاسكندرية جماعة من الحكام بالقرب من قبيل حكام عواصم المديريات فضلا عن ممثلي السلطة المركزية. وبسبب معرفة كيفية اختيار حكام الاسكندرية لكن قد كانوا يقومون بدور بارز في شؤون هذه المدينة ضد الحكومة، وكانت «أعمال الشهداء الوثنيين» تصورهم في شكل زعماء المدينة، فان كل ذلك يوحي بأنه لم يكن للحكومة يد في تعيينهم. ولقد كان الامبراطور هو الذي يمنح حقوق المواطنة، وكان الحاكم العام هو الذي يحاكم من يدخل في هيئة المواطنين أشخاصا لم تتوافر فيهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق. ويبدو أنه لم يعد لمحاكم المدينة وجود فقد أصبح الفصل في القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينيبهم عنه على نحو ما سنرى عند الكلام عن النظام القضائي. وبطبيعة الحال كان شأن المدن الاغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة. وكان يحفظ الأمن في المدينة قائدها ورئيس شرطتها. والواقع ان الحكومة الرومانية هي التي كانت تشرف على كافة نواحي الادارة في المدينة، أما النواحي الثقافية والدينية وتدريب الشباب واقامة الحفلات وتنظيم الألعاب فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها.

أما نقراطيس فيظهر أنها ظلت تتمتع بدستورها القديم بدليل ما نجده في المصادر القديمة من أن هادريان أعطى أنطينوبوليس دستوراً على نمط دستور نقراطيس . وكانت تدير شئون هذا الدستور وجود هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلس الشورى.

ويبدو أن بطوليمايس أيضاً احتفظت بدستورها الاغريقي القديم أي أنه كان لها مجلس للشورى وجمعية شعبية وهيئة حكام تنتخبهم هيئة مواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وأحياء . وفي عصر هادريان وثانية في عصر انطونينوس بيوس قامت باهداءات وصفت نفسها فيها بأنها مدينة اغريقية (πόλις) . وبالرغم من أن بطوليمايس كانت عاصمة مديرية طيبة (Thebais) ، أي مقر حكومة تلك المديرية ، الا انه يرجح أن تلك الحكومة لم تتدخل في شئون المدينة.

وقد مر بنا أن أنطينوبوليس أنشئت على نمط اغريقي ومنحت مجلساً للشورى ودستوراً اغريقياً وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى ، الى قبائل وأحياء . وبطبيعة الحال كان يدير شئونها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها . ومما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والمصريين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع في المدن الاغريقية الأخرى.

٤ ـ التعديلات التي أدخلت في القرن الثالث

شهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة مطردة في إرغام الأشخاص القادرين على تولي المناصب الحكومية وتقلدها . ومن حيث المبدأ كان النظام يقضي بألا يرغم شخص على تولي وظيفة من الوظائف قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه وظيفة مماثلة مرة سابقة . وكان يعفى من الارغام على تولي الوظائف المواطنون الرومان والنساء والمحاربون ومواطنو الاسكندرية وأنطينوبوليس المقيمون خارج هاتين المدينتين ، وكذلك الاطباء العموميون وأساتذة دار العلم في الاسكندرية والفائزون في المباريات العامة والمحررون وعدد معين من كهنة كل معبد . لكن عندما قل عدد الأشخاص اللائقين لتولي هذه الوظائف زاد تدريجياً تدخل الحكومة في هذه الاعفاءات.

وعندما زار الامبراطور سبتميوس سفروس مصر في عام ١٩٩/٢٠٠ ورأى أن الاضمحلال قد أخذ يدب الى موارد البلاد وأن الادارة المحلية على وشك التداعي ، أدخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية ، مؤملاً أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر . وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس للشورى . واذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو أمنية قديمة عزيزة عليها فانه ينقص من قدر هذه المنحة منحها على العاصمة المحدثة القديمة وعلى عواصم المديريات سواء بسواء . ولم يترتب على قيام

عواصم المديريات بهذه الصفة تتمتع بالحكم الذاتي بمعنى كامل فقد ظل القائد صاحب السلطة العليا في المديرية فضلا عن أنه كان يسيطر على مجلس الشورى وعاصمة المديرية حيث كان مقره الرسمي. وقد كان النظام الجديد قد بدأ في صورة ميزة جاد بها الامبراطور. ولكنه في الواقع كان عبئا جديدا ألقى على عاتق الموسرين الذين كان أعضاء مجالس الشورى يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة في كل عاصمة مديرية. وقد ألقيت الى كل مجلس من هذه المجالس مسئولية عن الشئون المالية في المديرية بأجمعها وتعيين رؤساء حكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسي في المديرية وجباة الضرائب في كل أنحاء المديرية ومراقبي دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi)، ومما يجدر بالملاحظة أن المسئولية كانت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو في مجلس الشورى مسئولا عن تقصيره الشخصي وتقصير زملائه سواء بسواء. وقد كان مجلس الشورى يتولى الاشراف العام على الادارة في عاصمة المديرية في حين أن حكام العاصمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل في دائرة اختصاص كل منهم. وقد أصبحت القاعدة أنه لا يمكن التحلل من تولي منصب من مناصب الحكم المحلي أو عضوية مجلس الشورى الا بأن يتنازل المرشح عن كل ما يملكه لشخص آخر يحل مكانه.

ويرجح بعض المؤرخين أنه عندما أنشئت مجالس الشورى عين أعضاؤها من أولئك الذين تم تعيينهم لتولي مناصب الحكم المحلي في عواصم المديريات في حين أنه يبين من بردية من منتصف القرن الثالث الميلادي أنه لم يكن هناك أي فارق من حيث المنصب الطبقي بين أصحاب مناصب الحكم المحلي وأعضاء مجلس الشورى العاديين. لكن هذا لا يستتبع حتما أنه عند انشاء مجالس الشورى لم يعين أعضاء لها أولئك الذين لم يرشحوا من قبل لمناصب الحكم المحلي. وعلى كل حال اذا كانت هناك أي فوارق بين الفريقين في بداية الأمر فانه ما وافت نهاية القرن الثالث حتى كانت هذه الفوارق قد زالت تماما الى حد أن كلمة حاكم محلي (archon) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس الشورى (bouleutes).

وقد أدى انشاء مجالس الشورى الى انشاء مناصب ادارية جديدة كان أهمها منصب رئيس المجلس (prytanis)، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته، ومنصب أمين المدينة (hypomnematographos)، ومنصب (syndikos) وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشئون الدستورية، ومنصب (tamias)، وكان يختص بشئون المدينة المالية، ومنصب رئيس الشرطة في المدينة (nuktostrategos).

وقد صحبت التعديلات الادارية الجديدة تقسيم المديرية الى أقاليم، ومع ذلك حدة

وظيفة حاكم الإقليم (toparch) ، وكان يعين لكل إقليم مراقب على دخل الحكومة من كافة أنواع الضرائب (dekaprotoi) ، وعدد من جباة الضرائب (praktores).

وكان أهم التعديلات التي أدخلت على إدارة القرى إلغاء وظيفة حاكم القرية (komarch) ، وانتقلت تدريجيا على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ، فقد أسندت شئون الإدارة إلى حكام القرى وكانوا عادة اثنين في كل قرية ، يعين لهما كانا يتوليان هذا المنصب مدة عام واحد وكان حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج إليهم الإدارة من موظفين ، لكنهم كانوا لا يتولون مهامهم قبل موافقة قائد المديرية وحاكم القسم على اختيارهم .

ولا شك في أن التعديلات التي أدخلها سبتميوس سفيروس على نظام الإدارة اعتراف صريح باختلال النظام القديم ، ولا شك أيضا في أنه لم يبغ من ورائه منح الأهالي قدرا من الاستقلال المحلي إلا لتلافي حالة البلاد الاقتصادية وإيجاد وسيلة تعطي الإمبراطور ضمانا أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لا هذه التعديلات ولا الحقوق الرومانية التي منحها كركلا سكان البلاد أفلحت في تلافي الحالة الاقتصادية ، بل أخذت تسير من سيء إلى أسوأ حتى عصر الإمبراطور دقلديانوس الذي أعاد تنظيم الإدارة من أسفلها إلى أعلاها

ولا مراء في أن السبب الأساسي فيما أصاب البلاد من فقر وتدهور يرجع إلى أن الرومان لم يستهدفوا من وراء كافة النظم التي وضعوها لحكم مصر ، وكافة التعديلات التي أدخلوها على تلك النظم إلا استغلال البلاد إلى أقصى حد وضمان الحصول على ما فرضوه عليها من مختلف الالتزامات دون نظر إلى مصالح الشعب ورفاهيته . وليس مرد ذلك إلى أن الرومان كانوا يريدون التنكيل بمصر ، بل مرده إلى أن تفكيرهم في أن تفيض مصر بالخيرات على روما أعماهم عن مراعاة مصالح مصر . ولو أنهم كانوا بعيدي النظر لقدروا أن افتقار مصر سيؤثر عاجلا أو آجلا فيما تجنيه روما من مصر لكن إلقاء تبعة المسئولية مطلقة على عاتق الحكام وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم إلا في يومه وكأنه اتخذ شعارا له « ومن بعدي الطوفان » .

٥ ـ الشرطة :

اقتفى الرومان أثر البطالمة أول الأمر في حفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد بحراس (phylakitai) مسلحين ومنظمين على أسس حربية . وتشير القرائن إلى أن هذا النظام بقي سائدا حتى القرن الثاني . ويبدو أن الرومان لم يلبثوا أن استبدلوا بهذا النظام نظاما مزدوجا ألقيت بمقتضاه مهمة حفظ الأمن والنظام على شرطة مدنيين كانوا يعينون من أهالي كل منطقة وكذلك على الجيش

الرومانى . وكان رجـــال الشرطة المدنيون يدعون بوجه عام حراساً أو حماة أو حفظة الأمن (phylakes)، لكن كثيراً ما كانت تطلق ألقاب خاصة على الذين يناط اليهم عمل معين مثل حفـــظ الأمن فى ساحات الأســواق أو السجون أو الطرق الصحراوية ، وغيرهم . كانوا جميعا يختارون للخـدمة فى الأقاليم التى يعيشون فيها ويرجح أن مدة خدمتهم كانت عاما واحدا . وكان يتعين عليهم أن يؤدوا يمينا للخدمة بأمانة ونزاهة وأن يقدموا للحكومة ضـامنين لحسن أدائهم مهمتهم . وكانوا ينقسمون وحدات أساسها المدينة أو القرية . وكانوا فى المدينة تحت رئاسة القائد مباشرة ، أما فى القرية فانهم كانوا تحت رئاسة موظف خاص يدعى (archepodos) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص قضـائى برغم أنه كان يتداخل بين المتخاصـــمين لمصالحتهم وأن المتخاصمين كانوا يلجأون اليه بعض منازعاتهم . وكان يكلف بالقاء القبض على المجـــرمين بناء على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة ، كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة .

وقد صحب انشاء مجالس الشورى فى عواصـــم المديريات تنظيم قوة للشرطة فى عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قوة الشرطة فى المديرية ، فقد ظهر فى القرن الثالث على رأس رجال الشرطة فى عاصمة كل مديرية موظف يدعى (nuktostrategos) بينما يخضع رجال الشرطة فى كل قرية لامرة الموظف الذى مر بنا ذكره (archepodos) . وليس هناك دليل على أن رئيس شرطة عاصمـــة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشـــورى أو يخضـــع لتوجيهاته . وأغلب الظن أن الحكومة الرومانية كانت تعين دائما بعض رجال الشرطة فى كافة أنحاء البلاد بما فى ذلك الاسكندرية وغيرها من المدن الاغريقية .

وكان الجيش الرومانى يخصص لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يبدو انها كانت أكبر أثرا من الشرطة المدنيين . وفى أغلب الأحوال كانت كل فئة من هؤلاء الجنود تحت قيادة ضابط (centurion) كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصدر عنه الأوامر بالقاء القبض على المتهمين . وتشير القرائن الى أنه فى بعض الأحيان كان يصدر الى شرطة القرية ما يتراءى له من التعليمات .

٩ ـ الجيش الرومانى

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (legiones)، وتسع كتائب مساعدة من المشاة (cohortes)، وثلاث كتائب من الفرسان (alae) . ورُكزت فى المراكز الاستراتيجية فى البـــلاد لتأمين السكينة والنظام فى أرجائها ولصيانتها من الاعتداءات الخارجية . وبعد ذلك فى عهد تيبريوس خفضت الفرق الرومانية وثلاث كتائب مساعدة لالقاء الرعب

في ظروف الاسكندريين الذين اشتهروا بميلهم الى الشغب والثورة ، ووضعت فرقة رومانية حربية في بابليون [illegible] على الوجه البحري ، وكانت الفرقة الثالثة وضعت في منطقة طيبة التي كانت مهد الثورات الوطنية ضد البطالمة ، ووضعت ثلاث كتائب مساعدة عند أسوان للدفاع عن الحدود الجنوبية ، ووزعت الثلاث الكتائب المساعدة الباقية والثلاث الفصائل في مختلف أنحاء البلاد لحماية الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية وحراسة المناجم . لكن سرعان ما تبين أن هذه القوات كانت تزيد على الحاجة ولا سيما بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود الجنوبية فأمر تيبريوس بسحب احدى الفرق الرومانية الثلاث . ومنذ أن تسببت الأحداث في الاسكندرية كان أحمر عسكر الرومان من منطقة ميه امر كلاوديوس بنقل الحامية الرومانية التي كانت [illegible] فيها فنقلت أو شبه الى معسكر نيكوبوليس .

وفي عهد نيرون حشدت مؤقتاً في الاسكندرية فرق رومانية أخرى للقيام في رأي البحثين بالحملة التي كان ينوي الامبراطور ينظمها وتوجيهها ضد مملكة أكسوم لكن [illegible] خوف العساكر بها [illegible] الثورة في [illegible] الفرق في [illegible] وفي عهد [illegible] دخلت عدة تغييرات على نظام مصر الحربي [illegible] كان أهمها [illegible] قلعة جديدة على شاطئ النيل عند بابليون واضافة فرقة جديدة ، فرقة تراجان الثانية . ويرجح أنها حشدت لخدمة في الشرق [illegible] مؤقت في مصر لكنها لم تغادرها حتى [illegible] الاشتراك في حرب الداقيين .

ولم يأت عهد أنطونينوس بيوس (١٣٦ — ٦١) حتى كان عدد الفرق الرومانية في مصر قد أنقص الى فرقة واحدة لكن يبدو من ناحية أخرى أن عدد الكتائب المساعدة والفصائل قد زيد . ويتبين من الوثائق أنه منذ [illegible] الأيام اتجه الرومان باطراد الى التجنيد محليا لملء الأماكن التي تخصص في صفوف الحامية الرومانية في مصر . ويعني ذلك أنهم اعتمدوا على مصريين في ذلك وفي الأرجح على مواطني المدن الاغريقية وعواصم المديريات .

وكان محرس شاطئ الدلتا أسطول [illegible] (classis Augusta Alexandrina) يرجح أن انشاءه يرجع الى [illegible] وان كان لا يرد له ذكر في مصادرنا قبل عصر نيرون . وكانت المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد وحراسة القمح المنقول من الاسكندرية الى [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible] عصر [illegible] أنه [illegible] كذلك [illegible] [illegible] [illegible] داخل البلاد

الفصل الثالث

السياسة الدينية

لما كان الرومان قد درجوا في الظروف العادية على اتباع سياسة التسامح الديني مع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعارض والاحتفاظ بسيطرتهم عليهم ، فانهم تمشياً مع هذه السياسة لم يتدخلوا في معتقدات الدينية لرعاياهم في مصر سواء أكانوا من المصريين أم الاغريق أم اليهود . فلا عجب اذن ان استمر كل عنصر من هذه العناصر في اقامة شعائر ديانته القديمة . ولا أدل على ان تمسك المصريين بقوة على ولائهم لآلهتهم القديمة من ان الاقباط الأوائل للمسيحية وجهوا حملات لاذعة ضد عبادة الحيوان التي كانت منتشرة . وبعد انتشار المسيحية في مصر واعتراف الدولة بها رسمياً في القرن الرابع للميلاد بذل المسيحيون جهوداً كبيرة للقضاء على الوثنية في مصر وساعدهم على ذلك انه عندما رقى الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨ — ٣٩٥) العرش فرض المسيحية فرضاً في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية . وبعد ذلك بقليل أصدر الامبراطور قوانينه في الاسكندرية ، فتوجه البطريق تيوفيلوس والرهبان في حملة الى معبد سرابيس وأمروا الناس بهدمه ولم يلق رجال الادارة تنفيذ أوامرهم . وإذ كان القرار يقضي باغلاق كل المعابد التي كانت القرابين تقدم فيها ، لكن الرهبان استصدروا من ذلك القرار السلطة بهدم المعابد . أما في الوجه القبلي فان سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى اذا شاء رجال الادارة تنفيذه ، وكان أغلبهم في الواقع مسيحيين غير متحمسين أو اداريين مصريين لم يروا من الحكمة فرض دين معين على الشعب دون رغبته . ومع ذلك فاننا نرى حتى اليوم على جدران المعابد آثار المحاولات التي بذلت لمحو صور الآلهة القديمة . ولا جدال في ان كل ذلك ينهض دليلاً على ان جانباً كبيراً من المصريين استمسكوا أمداً طويلاً في العصر الروماني بعباداتهم القديمة . ويجب ألا يغيب عن البال ان أهل الريف وهم يؤلفون دائماً جانباً كبيراً من السكان في مصر أكثر محافظة من أهل المدن ، وكذلك أكثر منهم تمسكاً بأهداب الدين .

وقد احتفظ كثير من اغريق مصر أيضاً بعباداتهم القديمة . ويجب ألا ننسى ان الى

نجد أن ذلك كان مقصوراً على مدنهم الإغريقية فحسب بل نجد أن ذلك كان سائداً أيضاً حيثما وجدت لهم مراكز حضرية خارج تلك المدن. فالمراكز تشير إلى أنهم كانوا يعبدون آلهتهم القديمة لا في الإسكندرية ونقراطيس وبطلمية فحسب بل أيضاً في الفيوم وهرموبوليس (الأشمونين) وأوكسيرينخوس (البهنسا). لكن لا جدال في أن عدد الإغريق في مصر الذين ظلوا أوفياء لآلهتهم القديمة قد تناقص على مر الزمن. فلقد مر بنا أن الإغريق منذ عهد هيرودوتوس وطوال عصر البطالمة كانوا يشبهون الآلهة المصرية بالآلهة الإغريقية وأنهم كثيراً ما عبدوا الآلهة المصرية إلى جانب آلهتهم الإغريقية باعتبارهم آلهة البلاد التي كانت تتمتع بحماية تلك الآلهة. ونستطيع أن نتصور أنه كلما أصبح الإغريق أكثر ألفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول استقرارهم في البلاد والاختلاط بأهليها أو الزواج منهم كثر تقربهم إلى هذه الآلهة. ومع ذلك تسربت بعض الأفكار الإغريقية إلى بعض المذاهب المصرية التي كان يمارسها الإغريق والمصريون المتأغرقون. وإن كان من الجائز بوجه عام أن نعزو تمسك الإغريق في عواصم المديريات بمعابدهم الخاصة إلى الآلهة المصرية على الصعيد إلى آلهتهم الإغريقية فمما لا شك فيه أن عامة الإغريق المنتشرين في أنحاء البلاد أصبحوا بمضي الوقت أقرب إلى مصريين منهم إلى الإغريق ولم ينقض وقت طويل حتى أن استوعبتهم الأمة المصرية فنسي أحفادهم على مر العصور. ومن ثم نجد عند أتباع الديانة الإغريقية نفسها تعدد الذين تمصروا وبطبيعة الحال أيضاً بين عبدة الدين الذين تمصروا.

ولما كان اليهود يقيمون في الشئون الدينية بمعزل عن كافة سكان مصر سواء أكانوا من المصريين أم من الإغريق أم من الرومان، فإنهم استمروا يمارسون عباداتهم دون أن تتأثر طقوسهم أو معتقداتهم بأي تأثيرات أجنبية. وقد انتشرت بيعهم في أغلب مدن مصر الكبرى واستمر معبدهم الكبير في ليونتوبوليس يباشر نشاطه إلى أن أمر فسبسيانوس في عام ٧٣ بإغلاقه بعد تدمير أورشليم ومعبدها في أعقاب ثورة اليهود على روما، وذلك لكي لا يتخذ اليهود معبد الكبير في ليونتوبوليس بعد زوال معبد أورشليم. وقد شهدت مصر التطور الروحي الذي طرأ على الأفكار اليهودية وكان يتمثل في تكوين طائفة من النساك أنشأت لنفسها بيعة بالقرب من بحيرة مريوط حيث أخذت تمارس حياة من التقشف والزهد منصرفة عن أمور الدنيا إلى تدارس الناموس. وكان يسمح للرجال والنساء على السواء بالاندماج في هذه الطائفة، وكان يخصص لكل عضو من أعضاء الطائفة صومعة صغيرة يرتدي فيها وحده طعامه ...

أمام ولا يخرج منها للالتقاء مع جيرانه في المعبد إلا في يوم السبت من كل أسبوع وكذلك في يوم الحفل الذي كان يقام كل خمسين يوما ولم تكن هذه اللون من حياة النسك غير معروفة في مصر من قبل ، وآية ذلك أوسع السائد الذي تحدثت الوثائق بأنهم كانوا يعيشون منعزلين في سيرابيوم منف في عهد البطالمة ويعتقد بعض الباحثين أن المصريين اليهود هم الذين نقلوا من الهند إلى مصر فكرة النسك لكن البعض الآخر من الباحثين وإن كانوا يسلمون بأن مثل أولئك المصريين كانوا يعدون على مصر في عهد البطالمة وبأن مذهب فيثاغورس كان يتألف من مزيج عجيب من الأفكار ، إلا أنهم يعدون من العسير أن يتصوروا أن يكون اليهود مع شدة تعصبهم لديانتهم قد اقتبسوا أي عادات من ديانة أجنبية ، ويرجحون أن تكون طبيعة مصر هي التي أوحت لليهود بعادة النسك ، فالصحراء في مصر شديدة القرب من أي شخص يريد اعتزال العالم ، وللصحراء جاذبية خاصة الإحساس بها أسهل كثيرا من وصفها ، ومن اليسير أن نتصور الفلسفة التي تستقر بالنفس في أمور الدين ومهما يكن من أمر هذا التصور فإنه قد حدث بعد ذلك بعض من المسيحيين في مصر فانتشرت منهم عادة النسك في الأديرة ، وهي العادة التي انتقلت من مصر إلى كل أنحاء أوربا وغيرها

البعض أنهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية للمسيحية الأوربية

و . . مسالك مصريين بمعتقداتهم الدينية ... أن الأباطرة الرومان لكي ... مركزهم صبغة شرعية في نظر المصريين خلعوا على النظام من قبل فاتخذوا صبغة الفراعنة بل إن حاكم مصر الروماني أيضا كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون في عيد الشمس ... المظاهر ، وكثيرا ما الأباطرة معابد للآلهة المصرية أو أضافوا إلى مباني المعابد القائمة أو أكملوا مبانيها أو زخرفتها وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية في زي الفراعنة وأوضاعهم

وقد كان الرومان في بادىء الأمر ينظرون إلى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقار وازدراء لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون إلى معرفة أسرارها فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير وما حتم العزلة الغامضون أن يخضعوا لسلطان تلك الآلهة وشاركوا رعاياهم المصريين على أمرهم في عبادتها وتقديم القرابين الجسيمة بل أقاموا لتماثيل و... بعضها حتى في روما عاصمة دولتهم ولعل أبلغ ما يدل على النصر العسكري الذي حرز على الرومان من جانب ... هم للآلهة المصرية ... أن أعطى ... والعسكر أن يرى الحفل المقدس ...

لكن نيرون شهد الاحتفال بتكريسه ونجح في اظهار احترامه للآلهة المصريين. فوضع بذلك أساس سياسة جديدة ظهر أثرها في بدء تصوير الآلهة المحلية في عملات على نقود الاسكندرية منذ عصر دوميتيانوس (٨١ – ٩٦) وكذلك في تسمية [illegible] بالآلهة المحلية.

وإذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم مصر لم يتعرضوا لمعتقدات المصريين الدينية فانهم لم يتركوا لهم [illegible] ، كما فعل البطالمة الأوائل ، على ألا يتركوا الحبل على الغارب لرجال الدين المصريين لكي لا يصبحوا أداة لبث روح الثورة في البلاد ، كما حدث في عهد البطالمة الأواخر. وبذلك ألغى أغسطس حرمات المعابد وجانب من أراضيها وأسند إدارة جانب آخر إلى الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضي لتوفير حاجات المعابد. وفضلا عن ذلك وضعت إدارة المعابد تحت الرقابة الحكومية ويرجح أن الحاكم العام الروماني هو الذي كان يتولى هذا الإشراف حتى عصر هادريان عندما أصبح ذلك من اختصاص موظف روماني كبير كان يدعى ايديولوجوس (Idiologos) ويحمل لقب كاهن الاسكندرية ومصر بأجمعها. وترينا الوثائق كيف كان هذا الموظف يبسط إشرافه دقيقا على كل ما يجري في المعابد فقد كان يحصي [illegible] ووظائف الكهنوتية ووظائفها ومباشرة الكهنة مهامهم بل ملابسهم التي يرتدونها. وكان يبعث بمندوبيه إلى المعابد ليحققوا شئون إداراتها ويأمر بالقبض على الذين يخالفون أوامره ويعاقبهم أو يصادر ممتلكاتهم. وكان يتولى الإدارة الفعلية في كل معبد جماعة من الشيوخ يختارون سنويا من بين الكهنة. وعندما أنشئت مجالس الشورى في مستهل القرن الثالث آل الإشراف على شئون المعابد المالية إلى موظفين كانت المجالس تعينهم وتراقب أعمالهم.

ومما يجدر بالملاحظة أن ما عرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لا يعني أنهم انصرفوا عن عبادة آلهتهم الأصلية ، فقد أدخلوا عبادة هذه الآلهة في مصر كما أدخل الإغريق من قبل عبادة آلهتهم الإغريقية. وقد أخذ الرومان أيضا عن الإغريق تأليه الملوك فقرنوا الأباطرة بالآلهة — مثل أغسطس بزيوس إليوثيريوس (Eleutherius) ونيرون بأجاثوديمون (Agathodaemon) — وشيدوا المعابد للأباطرة لكننا نفتقر إلى أدلة قاطعة على عبادة الأباطرة وذلك لعدم [illegible] . وعلى كل حال فإن الرومان لم يفرضوا على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومي فهذا ما كان الرومان يبذلون جهدهم لاتقائه. وقد أخذ الرومان كذلك عن الإغريق عبادة [illegible] الاسكندرية المقدس [illegible]

- وعبادة الآلهة المصرية التي أسبغ عليها أسماء إغريقية

لقد عرف أن الرومان أقاموا سياستهم الدينية على أساس التسامح الديني ، فلم يمنعوا المصريين والإغريق واليهود حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة. فما كان موقفهم من المسيحية عندما أخذت تنتشر في مصر ؟ إن معلوماتنا ضئيلة عن بدء انتشار الدين الجديد في مصر ويكاد الباحثون لا يميلون إلى قبول القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية وإن كانوا يعتقدون أن قرب مصر من فلسطين جعلها في طليعة البلاد التي تسرب بها الدين الجديد في خلال القرن الأول وأخذ ينتشر بعد ذلك ولا سيما في الإسكندرية والوجه البحري ، وأصبح عدد المسيحيين كافيا لتعيين أسقف للإسكندرية. وقد ازداد أعوان المسيحية في القرن الثاني وخاصة عندما نصب ديمتريوس في آخر عهد كومودوس (١٨٠ — ١٩٢) أسقفا للإسكندرية وعني بعد بعث رسامة قسس كثيرين لها لانتشار المسيحية. ومع ذلك فإن المسيحية لم تترك أي أثر عثر عليه حتى الآن من برديات القرن الأول ولا نستمد من برديات القرن الثاني إلا معلومات ضئيلة عن مدى تأثير المسيحية ولم نستنبط منها أن المسيحية توغلت في مصر الوسطى ومصر العليا.

وقد أدى انتشار المسيحية إلى إثارة مخاوف الرومان ومن ثم عملوا على اضطهاد معتنقيها وأنصارها بحسبانهم عنصرا خطرا يهدد سلامة الدولة بعدم اشتراكهم في إقامة شعائر الديانة الرسمية ، فقد كانوا لا يقدسون تماثيل الأباطرة ولا يعبدون « الروح الحارس » للإمبراطور ولا « روما المؤلهة ». وقد كان بدء اضطهاد المسيحيين في مصر اضطهادا منظما في خلال حكم سبتيموس سفروس (١٩٣ — ٢١١) وبلغ أشده في أواخر عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) وتركت هذه الاضطهادات أثرا عميقا في النفوس إلى حد أن الكنيسة المصرية استمرت بتسمية فترة من تاريخها « عصر الشهداء » ابتداء من حكم دقلديانوس. لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تفلح في تعطيل انتشار الدين الجديد حتى سمح له بالتسامح في عصر قسطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧) وعندئذ اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية.

ومما يجدر بالذكر أنه في القرنين الثاني والثالث قامت الإسكندرية بدور كبير في التقريب بين أسمى الأفكار الوثنية والأفكار التي انبثقت من المسيحية. فإلى جانب « الجامعة » القديمة التي استمرت تتابع دراساتها الوثنية نشأت المدرسة المسيحية الكبرى التي أسسها بنتانيوس Pantaenus ، وكان يعلم الأتباع تعاليم دينهم عن طريق السؤال والجواب.

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

١ ـ الزراعة والصناعة والتجارة

لما كان الرومان في حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة وكان مقدار ما يجنونه منها يتوقف على مقدار ثروة مصر وكانت أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت في عهد البطالمة الأواخر من جراء ضعفهم وتخاذلهم وما عانته البلاد من آثار الثورات القومية والاضطرابات الأسرية والغزوات الأجنبية ، فقد وجه الرومان عنايتهم الى اقامة حكومة قوية رهيبة والى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية

عني الزراعة عني أخصب وحصيفو الرأي من حكامه بضبط مياه النيل وحسن تصريفها وما يتطلبه ذلك من كري الترع القديمة و انشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا عجب ان استرابون يحدثنا بأنه قبل الفتح الروماني كان يعني ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذراعا لانتاج محصول وفير في حين ان ارتفاع منسوب المياه ثماني أذرع كان يؤدي الى حدوث مجاعة اما بعد الفتح الروماني فقد أصبح ارتفاع منسوب مياهه الى اثني عشر ذراعا كافيا لانتاج محصول وافر جيد وفضلا عن ذلك فان البلاد كانت لا تشكو من أي ضائقة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ أكثر من ثماني أذرع

وكانت مصر تنتج عددا كبيرا من المحاصيل الزراعية كان القمح أهمها ثم يأتي بعد ذلك الشعير و الكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردي والكروم والبلح والزيتون ويقال ان مصر كانت تزرع أيضا القطن لتستخدم تيلته في صناعة ملابس الكهنة

وعمل بعض الاباطرة المهتمين بالنهوض بالصناعة لسد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية أخرى لتعوض مصر على هذا النحو جانبا من الجزية التي كانت تدفعها لروما سنويا ويبدو ان حكام مصر من الرومان حينما وجدوا الاحتكار الحكومي يأخذ النقصان قليل الارباح تركوا معظمه للأهالي لكن الحكومة احتكرت بعض الصناعات مثل استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتركت صناعات أخرى لنشاط الأفراد

لكن من العسير في ضوء معلومات الحالية اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حركة النشاط الاقتصادي في الصناعة وتشير القرائن الى ان الاسكندرية ظلت مركزا صناعيا كبيرا لكنها لم تنفرد بالنشاط الصناعي فكانت توجد مراكز صناعية في مختلف أنحاء البلاد مثل ارسينوى (الفيوم) وأوكسيرينخوس (البهنسا) وبانوبوليس (اخميم) وطيبة. ومن المرجح ان القرى احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من الأهمية الصناعية القديمة. وتحدثنا البرديات عما كان هناك نشاط صناعي في قرية تبتونيس بالفيوم ويرجح انها لم تنفرد دون غيرها من قرى مصر بمثل هذا النشاط. وتذكر البرديات ان أهالي تبتونيس كانوا يشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها وصنع الزيت والجعة والحلي والأدوات المعدنية.

وكانت صناعة الزجاج من أرقى الصناعات المصرية حتى انه ينسب الى مصر ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالي بداية العصر المسيحي، ويحتمل ان مصر كانت تحتكر صناعة المكعبات الزجاجية الصغيرة اللازمة للفسيفساء. وكانت مصر تحتكر كذلك صناعة الورق ونسج أصناف عديدة القيمة. واستوردت مصر أهم مستورداتها الكتانية الفخمة وصناعة العطور والعقاقير والأدوية والتحف والكؤوس المصنوعة من الفضة أو الذهب.

وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر الخارجية مع الجنوب والشرق ولا سيما بعد تطهير البحر الأبيض المتوسط من القراصنة ونشر جنود الرومان على شواطىء البحر الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر وشق طرق جديدة لهذا الغرض واقامة محطات على جوانب هذه الطرق لاستتباب الأمن في تلك الجهات.

٢ ـ النقود :

لما كان أغسطس وخلفاؤه قد حرصوا على ابقاء مصر وحدة سياسية واقتصادية منعزلة عن باقي الامبراطورية الرومانية فانهم أصدروا لمصر عملة خاصة بها لم يكن لها أية قيمة خارجها ولم يسمحوا بتداول العملة الرومانية البرونزية والفضية فيها وان كانوا فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة الرومانية الذهبية لكن لما كانت الأدلة على التعامل في مصر بهذه العملة ضئيلة فانه يبدو ان التداول هناك كان محدودا جدا، وهكذا انفردت مصر بوضع لم يكن له مثيل في أي ولاية رومانية أخرى. على ان الولايات الغربية عرفت العملة الرومانية بوصفها الوحدة الرسمية للتعامل وفي الولايات الشرقية برغم انه كانت تسك محليا عملة برونزية (وفي مصر وغالاكيه بعض فئات العملة الفضية) فان الناس كانوا دائما يتداولون فئات العملة

الرومانية الفضة والبرونزية. ولما لم تكن العملة التي سكت في مصر قيمة خارجية وكانت لا تحصل على حاجتها من العملة المصرية الفضية فلا بد من أن روما كانت تحصل على فائدة تجارية واقتصادية من أرصدة صادرات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية النوعية والجزية النقدية تلقيان عبئاً كبيراً على موارد مصر

وقد كان الرومان يسكون العملة المصرية في الاسكندرية وتشير الأدلة الى انه لم تصدر عن دار السكة في هذه المدينة أي عملة فضية أو ذهبية في العصر الروماني. على عهد القيصر كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية ومع ذلك كان يطلق على العملة ذات الأربع دراخمات عملة فضية من باب التأدب فقط

وفي عام ١٩ , ٢٠ ميلادية قرر تيبريوس أن تسك الاسكندرية عملة ذات أربع دراخمات من مزيج يتألف من البرونز والفضة بنسبة ٣ : ١ وأن تستمر الاسكندرية في سك الفئات الصغرى من العملة البرونزية. وظل هذا معمولا بالنظام الذي وضعه تيبريوس حتى عام ٢٩٦ مع تعديلات طفيفة في نسبة مزيج القطع ذات الأربع دراخمات، وكذلك في شكل العملة فقد كان على سطح طرة العملة البطلمية حتى عصر أغسطس عندما أحدث سك على سطح العملة الرومانية. ومنذ أواخر القرن الثاني حدثت عملية العملة ذات الأربع دراخمات في الهبوط باستمرار ... وترتب على هذا الهبوط في النصف الثاني من القرن الثالث الى حد أن وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزنها في عهد تيبريوس فضلا عن أنه لم يعد فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا، ينقص كثيرا عما كان عليه في الماضي. وقد صحب هبوط قيمة هذه العملة نقص العملة البرونزية سريعا وسكت عملات من الرصاص باسم المديريات المختلفة حلت محل العملة البرونزية. وتشير الوثائق البردية الى أنه قد صحب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور أيضا لكن الأجور لم ترتفع بالمقدار ذاته مما كان له دون شك أثر في ضيق الناس بحالهم

٣ ـ المصارف المالية :

كان يوجد مصرف رئيسي عام في الاسكندرية ومصرف مركزي عام في عاصمة كل مديرية. وكانت هذه المصارف العامة تؤدي مهمتي استلام أموال الدولة وصرفها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف موظف من أثرياء عاصمة المديرية كانت تفرض عليه مهمة ادارة المصرف مدة معينة وتحدث الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف تطلق على أولها اسم مصارف التسجيل Chrematistike trapeza ، ويبدو انه كان يباشر مهمتي مكاتب التسجيل والمصارف العامة. وتطلق الوثائق على النوع

الثاني اسم مصارف استبدال النقود Kollybistike trapeza ، ويبدو أن مهمتها الأولى كانت استبدال النقود المصرية بأي عملة أجنبية ترد من الخارج . أما النوع الثالث فيسمى بمصارف الحكومة (Basilike trapeza) ، ويبدو أنها كانت تستمد رؤوس أموالها من الأفراد وتؤدي مختلف أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نطاقها على حسابات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضاً عمليات حكومية .

ويعتقد بعض الباحثين أن الحكومة كانت تحتكر كافة الأعمال المصرفية وتؤجر إدارة المصارف الحكومية لمن يتقدم بأكبر عطاء لقاء ذلك . لكن المعلومات التي بين أيدينا حتى الآن لا تسمح بتأييد هذا الرأي أو نفيه وإن كان يبدو معقولاً ومحتملاً .

ومما يجدر بالملاحظة أن المعابد لم تنقطع عما درجت عليه منذ أقدم العصور من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل إقراض النقود واستلام الودائع . وفي مجتمع زراعي مثل مصر البطلمية كان عمال مخازن الحبوب (sitologoi) ، كذلك يؤدون مهمة المصارف بصفة خاصة .

٤ ــ حالة البلاد الاقتصادية

لقد كانت النتيجة الحتمية لحلول حكومة قوية قديرة لا تعرف الراحة مكان حكومة عاجزة فاسدة ازدياد الرخاء على الفور . لكن استناد الحكومة القوية القادرة إلى نظرية فاسدة كان لا بد من أن يحملها على عدم الاهتمام بما يحل على البلاد وأكثر ضرراً من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقد كان الرومان لا يعنيهم من وراء سياستهم الاقتصادية في مصر إلا غرضاً واحداً وهو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . وإذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفاوتت عن آراء البعض الآخر فإن ذلك التفاوت لم يكن إلا تبعاً لتفاوت مقدار ذلك الاستغلال ، إذ بينما كانت الحكمة تملي على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقة بالبلاد أو أهلها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجف معين البلاد نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط وراح يبتز كل ما يملك البلاد . وحسبنا أنه حتى في عهد ... عصر كانت الجزية النوعية أربعة أمثال ما كان يطلبه الأوائل تقريباً . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هناك فارق آخر هام بين البطالمة والرومان وهو أن معظم ما كان البطالمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيها ، أما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، سواء كان أموالاً أم غلالاً ، فإنه كان ينقل إلى روما وتخسره مصر كلية .

ويبدو لأول وهلة أن القرن الأول من حكم الرومان (من أغسطس إلى آخر حكم نيرون ، أي من ٣٠ ق . م — ٦٨ م) حمل إلى مصر رخاء عظيماً ، لكن إذا نحن أنعمنا النظر

وجدنا ان حدث الرجاء كان من نصيب يوم فمن كل شيء ومن نصيب الاسكندرية في عهد ما مصر دائها فقد كانت الحرفة المعلومة التي دربت تلك العجرفات حتى أصبحت تظهر بوادر استغلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة كان موجها في غاية واحدة هي تمكين الدولة من استعباد الفلاح في خدمتها واجتزاز أموال دافعي الضرائب ورأينا القواعد الثابتة التي كان الاديولوجوس يسير على تنفيذها (Gnomon Idiou Logou) والقوانين الخاصة بتأجير الأراضي أو جباية الضرائب شديدة حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى الايجارات دون أن يصيبها في قليل أو كثير ان كان لم يتبق لهم بعد ذلك الا أقل القليل لسد كل جهدهم المضنى الشاق ولا غرو فقد كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة صوالح الخزانة العامة دون أي اعتبار آخر وتبينا من الوثائق بأنه في عصر تيبريوس (١٤ — ٣٧م) كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والسخرة ويحتمون في الأدغال والمستنقعات حتى ان بعض القرى هجرت بأكملها تقريبا وتحدثنا بردية من عهد نيرون (٥٤ — ٦٨م) بأن سكان ست قرى من قرى الفيوم قد نقص عددهم نقصا شديدا وتريد بردية من هذا العهد أيضا بأن بعضا لم يسقط كاهل دافعي الضرائب فقط من حاصلهم بعضا ممن عمدوا بالجباة الى أن يطاردوا الساكنين من سوء الحال والا اضطروا تحت ضغط عجزهم

مالي الى عدم القيام بتحصيل الضرائب ونحاول أصداء هذه الحال فيما كتبه الفيلسوف اليهودي فيلون الذي عاصر الامبراطورين كاليجولا (٣٧ — ٤١) وكلاوديوس (٤١ — ٥٤) فهو يحدثنا عن قرى بأكملها بل بلاد أقفرت من سكانها بسبب شدة وطأة الضرائب ، ومن زج في السجن بالزوجات والأطفال والتنكيل بهم للارشاد عن الأماكن التي آوى اليها الهاربون من تسديد الضرائب ، ويروى كيف ان جباة الضرائب كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب لارغام ذويهم على سداد المتأخرات ، وتحدثنا وثيقة من حوالي عام ٦٩ م عن ارغام الناس على التعهد بالتزام جباية الضرائب وعلى استئجار الأراضي العامة وعن المسيحيين الذين وجدوا مركبا حسب في التبيع عن المتهربين من الوفاء بالتزاماتهم للاديولوجوس وعن مزارعين في مختلف انحاء البلاد أرهقتهم ضرائب جديدة غير مشروعة وقد عانى الأهالي أيضا بسبب امداد الحاميات الرومانية بما كانت تحتاج اليه وامداد رجال الادارة بحاجاتهم في أثناء تنقلاتهم من مكان الى آخر وذلك فضلا عن سلسلة من الضرائب الثقيلة الرهيبة

وفي خلال القرن الثاني من حكم الرومان من جهة في آخر حكم ماركوس أوريليوس أي من ٦٨ — ١٨٠) على الأباطرة

يسيرون بعدم تهاظ كاهل مصر فاستعملت حالها لاقتصادية بعض الوقت لكنها لم تعمل على استئصال شأفة الداء باصلاح نظام الحكم اصلاحا جوهريا فإن الحال لم تلبث أن عادت الى سيرتها الاولى . وبسبب سياسة هذه الفترة بدأت تظهر البوادر التي تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة في التدهور . ولا أدل على ذلك لتحول من التوسع في تطبيق مبدأ الالزام (Leitourgia) وقد كان البطالمة عادة يستعينون في جباية الضرائب الى ملتزمين يتقدمون طواعية للاشتراك في مزادات تعقد لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون يقبلون عن طيب خاطر على استئجار أراضي الملك ، اما في أوقات الأزمات فإن البطالمة لم يحجموا عن رغام الأشخاص اللائقين على تولي الوظائف أو التزام ضرائب أو استئجار أراضي الملك ، غير أن اتجاه البطالمة في سبيل الارغام لم يكن قاعدة السائدة ولم يحدث الا في ظروف استثنائية . واذا كان الرومان قد اقتبسوا أثر نظام البطالمة أول الأمر فإنهم لم يلبثوا أن طرحوه جانبا وأخذوا يعممون بالتدريج في خلال القرن الاول مبدأ الالزام ، وتوسعوا في اتباع هذا المبدأ توسعا كبيرا في خلال القرن الثاني .

وبين الوثائق البردية التي عثر عليها تظهر لنا حال البلاد الاقتصادية ، كان يطلب من التزام الضرائب لا يتقدمون بطلبات برغبتهم كالتي كانوا يتقدمون بها في أيام الرخاء كانت الحكومة تجبرهم على التعاقد معها بالشروط القديمة أو جبي الضرائب مباشرة عن طريق جباة تعينهم في مناصبهم قسرا . ويبدو أن الأمر لم يستدع الالزام في حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفتي القائد والكاتب الملكي لكن الحال كانت مختلفة في كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان يشترط فيمن يتولى كل وظيفة من هذه الوظائف نصاب مالي معين وكلما خلت وظيفة في احدى القرى أو عواصم المديريات كان على كاتب القرية أو كاتب العاصمة أن يرسل الى القائد قائمة بأسماء الأشخاص اللائقين لتولي الوظيفة الشاغرة ، أو بعبارة أخرى أسماء الأشخاص الذين تتوافر فيهم شروط تولي الوظيفة ولا يحق اعفاؤهم من توليها . وبعد أن يبحث القائد قائمة الأسماء كان يرسلها الى حاكم القسم (epistrategos) الذي تقع مديريته في نطاقه ويختار الحاكم بالقرعة الشخص الذي يتولى الوظيفة الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يشغل المنصب الذي اختير له مدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك الموظفين كانوا يتقاضون أجورا الا أنه لم يكن كافيا لمواجهة ما تتطلبه وظائفهم من نفقات ، وفضلا عن ذلك فإنهم كانوا مسئولين بأملاكهم بل بأشخاصهم عن كل

ما يحدث من نقص أو عجز أو خسارة مادية للحكومة. وكانت النتيجة الطبيعية تدنيت النقمة على طبقة الفلاحين الموسرين.

ولكي نبين مدى ما عاناه الموسرون بسبب مناصب حكام عواصم المديريات والتي اعتبروا مصريون من غويهم كلما استحكمت حلقات الأزمة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض هذه الأعباء. ففي حالة مدير الجيمنازيوم مثلاً كان عليه أن يتحمل ثمن ما يحتاج إليه الجيمنازيوم من الزيت لتدليك الذين يمارسون الرياضة هناك وكذلك ثمن الوقود اللازم للاستحمام. ولقد كلف العبء الأخير وحده أحد مديري الجيمنازيوم في خلال العام الذي تولى فيه منصبه ٢٠٠٠ دراخمة. وكان على مراقب التموين أن يتحمل تلفات صوامع الحبوب ويعوض مثلاً عن أي عجز في إمداد العاصمة بحاجتها من الحبوب.

ويحدثنا إحدى البرديات عن أن مراقباً سابقاً للتموين ترك ديناً قدره ٢٠٨٠ دراخمة «ثمناً للقمح» الذي اشتراه عندما كان يتولى منصبه. وفضلاً عن ذلك كان ينتظر من حكام العواصم أو على الأقل كبارهم مواجهة أي نفقات تتطلبها حاجات مدنهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بمهام أعمالهم. إذ نعرف مثلاً أن كبار حكام هرموبوليس كانوا يسهمون شهرياً في دفع نفقات المياه التي تحتاجها مدينتهم. ولا أدل على ثقل أعباء هذه المناصب مما حدثتنا به الوثائق من المحاولات التي بذلها شخص يسمى أخيليوس (Achilleus) لكي لا يتولى في عام ٩٢ منصب مراقب التعليم في هرموبوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعده على مواجهة تكاليفها. ويبدو أن تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جداً لأن أخيليوس طلب إعفاءه من تولي هذا المنصب مع استعداده لتولي منصب [illegible] على ألا ينفق أكثر من ١٢٠٠٠ دراخمة على أعباء هذا المنصب. لكن محاولات أخيليوس ذهبت أدراج الرياح و «لزج» في منصبه. وتدل الوثائق على أن أعباء وظيفة مدير الجيمنازيوم كانت أثقل من أعباء وظيفة مراقب التعليم هذه. كانت تبلغ في هرموبوليس بعد الاقتصاد الشديد في النفقات ٢٤٠٠٠ دراخمة. فلا عجب في أن نصادف بعد فترة صعوبة الحصول على مرشحين لتولي هذه المناصب طواعية مما أفضى بعد ذلك إلى الالتجاء إلى الإرغام لشغل هذه المناصب. وإن كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بمظاهر التطوع للخدمة وعلى إسدال ستار كثيف حول مناوراتها لإرغام ذوي اليسار على شغل هذه المناصب. وإذ كانت أعباء مناصب الإدارة المصرية قد وقعت على طبقة الفلاحين الموسرين فإن أعباء مناصب حكام عواصم المديريات قد وقعت كذلك

على طبقة الموسرين في تلك العواصم . ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يؤثرون الفرار من مواطنهم لأنه وان كان فرارهم سيؤدي الى مصادرة أملاكهم فقد كان سيترتب على بقائهم وتولي مناصبهم تحمل متاعب هذه المناصب فضلا عن تكاليفها التي كانت ستستنفد تلك الأملاك .

ولقد امتد الارغام الى تأجير الأراضي كذلك لأنه بقدر ما ساءت حال الزراعة ولاذ الأهالي بالفرار من الأعباء المفروضة عليهم حتى هجر الكثيرون منهم مزارعهم ، ازدادت كذلك مساحة أراضي الدولة التي لم يتقدم أحد لاستئجارها وزراعتها . ومع ذلك طبقت الحكومة الطرائق والأساليب بالمعنى القديم ذاته واستحدثت تلجأ الى وسيلتين ، واحداهما ارغام سكان القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع ايجارها . أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وأداء ايجارها . وفي هذه الحالة كانت المسئولية أول الأمر مسئولية فردية لكنها أصبحت مع الزمن مسئولية جماعية . وتبين الوثائق أن ايجار أراضي الأفراد هبط هبوطا كبيرا في النصف الثاني من القرن الثاني . ولعل تفسير ذلك أنه عندما توسعت الحكومة في الاتجاه الى الارغام في التأجير وفقسبه أصبح يتعذر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا الى خفض ايجارها تحت ضغط الأعباء على مستأجريها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادي في خلال القرن الثالث من حكم الرومان (من كومودوس الى آخر حكم دقلديانوس أي من ١٨٠ — ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر يسير من سيء الى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والتوسع في تطبيق مبدأ الالزام في مختلف النواحي ، مع اهمال نظام الري فازدادت حال الزراع سوءا وضيق عليهم في مصر حتى ان كثيرين منهم لم يجدوا مناصا من أن يفعلوا ما فعله غيرهم من قبل أي الفرار من مواطنهم مفضلين اما العمل في المدن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت مساحات واسعة من الأراضي دون زرع مما حدا بالامبراطور كركلا الى أن يصدر في عام ٢١٥ قرارا يقضي بطرد الزراع من الاسكندرية ليعودوا الى الأرض التي هجروها . واذا كان هذا القرار قد نجح في تحقيق الهدف الذي أصدره من أجله فلا بد من أن يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور العمال وتكاليف الانتاج في الاسكندرية وعلى كل حال ... أن يكون ... تنجح طويلا في وقف تيار الهجرة الى الاسكندرية .

بعد كان ... بعد على هذه الهجرة عاملان رئيسيان وأحدهما حاجة مراكز الصناعة بوجه عام والإسكندرية بوجه خاص الى اليد العاملة ، والعامل الآخر شظف المعيشة وبؤس الأحوال وسوء الحال في مناطق الزراعة حيث كان يرجح الحال سوءاً على سوء أن الحكومة كانت لا تعفي فيه الضرائب المقررة من مختلف نواحي البلاد حتى بعد فرار الأهالي وكانت نتيجة ذلك أن أخذت نسبة الضرائب تزداد على من بقوا في بلادهم بسبب الذين كانوا يفرون منها وإن أمعنت الحكومة في الاتجاه الى سلاح الإرغام لزراعة الأراضي المهجورة ومن أكبر ... كان يقع على الناحيين الذين كانوا يرغمون على الإشراف على جباية الضرائب في قراهم ، إذ أن الحكومة كانت تستولي على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها ، وليس أبلغ في الدلالة على تصوير سوء الحالة الاقتصادية في خلال القرن الثالث من القرائن المحددة على افتقار الريف من سكانه ، وما تحدثنا به الوثائق عن فرار المكلفين بتولي المناصب الحكومية المحلية أو تهديدهم بالفرار وعن الصعوبة المريعة في شغل المناصب البلدية الى حد أن سلطات في ... عندما عجزت عن ايجاد ... اللازمين من مواطنيها لشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى اجبار غرباء على ذلك برغم القانون الذي كان سبتيموس سفيروس قد أصدره بحظر ذلك ، فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ورفعوا شكواهم الى الحاكم العام فنظر القضية في النصف الأول من عام ٢٥٠ وعندما حاول محامي ... سوى الدفاع عن موكليه بقوله أن القانون الذي تذرع القرويون بحمايته قد صدر عندما كانت البلاد لا تزال تنعم بالرخاء رد عليه الحاكم العام بأن حجة الرخاء ، أو على الأصح التدهور ، قائمة بالنسبة للقرى والمدن سواء بسواء ، مما يدل على أن الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة ولا أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة سريعاً في خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضاً آثار بعيدة المدى في الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واستبدال نظام الاقتصاد الطبيعي تدريجياً بالنقود . وإذا كانت قد بذلت بعض المحاولات في أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢) لإصلاح وسائل الري مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فإن هذا الانتعاش كان محدوداً قصير الأمد ولم يفلح في وقف تيار التدهور بدليل أنه قد جاء في خطاب ... من حوالي عام ٢٨٩ أن منصب « مراقب النيلين » في أوكسيرينخوس ظل شاغراً فترة طويلة ... تدريجياً . فلا عجب اذن أن ... البلاد بسبب السياسة الخرقاء التي اتبعتها روما في

خلال القرون الثلاثة الأولى من حكمهم مما حدا بالإمبراطور دقلديانوس إلى ادخال تعديلات جديدة على نظام الحكم في مصر

ويمكننا تصوره بعد أن حاولنا إعطاء صورة عن حالة مصر الاقتصادية في خلال العصر الروماني يجب أن نذكر شيئا عن العبيد. ونتبين القارئ من أن نشاط العبيد في الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على الضياع الكبيرة وحتى في هذه الضياع لم يستخدم العبيد على نطاق واسع. وكيف يمكن تفسير ذلك في ضوء ما يحدثنا به الوثائق عن فرار الأهالي من الأرض وترك مساحات واسعة غير مزروعة ؟ أو بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة إلى العبيد لاستثمار الأرض التي هجرها مزارعوها الأحرار ؟ ليس غير تفسير لذلك أن الناس كانوا يخشون إضافة تبعات جديدة إلى أعبائهم دون الحصول على ما يعوضهم عن ذلك ، وأن الحكومة كانت تفضل الالتجاء إلى سلاح الإرغام لاستثمار تلك الأراضي فمن ناحية كانت هذه الوسيلة أقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يراودها الأمل في أن يؤدي إرغام الهاربين من ازدياد المتاعب على ذويهم الذين بقوا في قراهم إلى وقف هروب المزارعين

ويبدو أن مساهمة العبيد في النشاط الصناعي كان مقصورا على بعض الأعمال وخاصة بالإسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك أن مساهمته في هذا الميدان لم تقع إلا على أكتاف العبيد وما عملوه من أعمال أنهم مع الأحرار في الصناعة هناك. أما في المراكز الصناعية الأخرى فيبدو بوجه عام أنه لم يوجد للعبيد مجال فيها بسبب وفرة الأيدي العاملة وقلة أجرها ورداءتها للتراوية بصورة نسبية. ونرى أن عددا كبيرا من العبيد كانوا يشتغلون خدما في المنازل وكتبة ومحاسبين في المصانع والمتاجر وراقصين وموسيقيين في الفرق التي كانت تجوب البلاد للترفيه عن الناس في الأعياد والحفلات العامة

وكان العبيد يعاملون معاملة حسنة من حيث الضرائب وأعمال السخرة في تطهير القنوات وصيانة الجسور. ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة العبيد في مصر وإن كانت الوثائق تشير إلى وجود تجارة نشيطة فيهم وإلى أن الحكومة كانت تشرف إشرافا دقيقا على تصديرهم وتفرض غرامات معينة على الذين يخالفون تعليماتها. وكانت أثمان العبيد تتفاوت تفاوتا كبيرا تبعا لعمره وصفاته ومهارته ، وكذلك حسب نوعه ذكر كان أم أنثى

الفصل الخامس

النظـــــام المـــالى

أولا ـ الإدارة المالية

كان الحاكم العام يرأس الإدارة المالية في مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الإدارة الأخرى ولم يكن من اختصاصه تحديد مقدار الجزية التي تدفعها مصر فقد كان من اختصاص الإمبراطور الذي كان يقرر سنويا مقدار الدخل ويصدر أوامر مفصلة عن كيفية جمعه وكانت هذه الأوامر توجه إلى الحاكم العام ليبلغها إلى قواد المديريات وسائر المختصين في المدن والقرى ، ويسهر على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العام مسئولا آخر الأمر عن جمع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت [illegible] طاقة البلد تؤثر في المحصول وتستتبع انقاص الضرائب فانه أوكل إلى الحاكم ربط الضرائب في كل منطقة وتعديلها تبعا لمقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التي كانت ترفع إليه من المختصين . وكان للحاكم العام مساعدان رئيسيان في الشئون المالية وهما الديويكيتيس والإيديولوجوس اللذان [illegible] [illegible] ولقبيهما من عصر البطالمة وإن كان قد طرأ على اختصاصاتهما بعض تغيير الذي [illegible] الظروف على عصر البطالمة كان الديويكيتيس على رأس الإدارة المالية وكان الإيديولوجوس مرءوسيه المختص بجانب معين من الشئون المالية . أما في عهد الرومان فقد انتقلت سلطة الديويكيتيس إلى الحاكم العام وهبط مركزه إلى المرتبة الثانية ويرجح أنه أصبح مساويا للإيديولوجوس في مرتبته وإن كان يصعب تحديد الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو أن الديويكيتيس كان الرئيس الفعلي للإدارة المالية وأن الإيديولوجوس كان يختص بالفصل في قضايا الخزانة العامة ، وبإدارة الأراضي التي آلت إلى الخزانة العامة وكذلك بالإشراف على أراضي المعابد ودخلها ، ولكي يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الأخيرة كان يحمل لقب كبير كهنة مصر . وعلى كل حال ليس من الإسراف في الرأي اعتبار الديويكيتيس والإيديولوجوس مستشاري الحاكم الفنيين في الشئون المالية ولا سيما أنهما كانا يراقبان [illegible] مراعاة لمصالح الإمبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عدد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون في مختلف

أنحاء البلاد يحكمه مكتب على اتصال مباشر بالادارة المالية المركزية في الاسكندرية ، وإذا كان من الممكن تبين مهام بعض هؤلاء المرؤوسين مثل بروكيراتور (procurator) نيبوليس وكان يشرف على نقل القمح من داخل البلاد الى المخزن العام على مقربة من الاسكندرية تمهيدا لشحنه الى روما ؛ ومثل بروكيراتور أو سياكوس (procurator usiacus) ؛ وكان المساعد الأول للايديولوجوس في الاضطلاع بمهام منصبه ، فانه يتعذر معرفة اختصاص بعض الآخر من هؤلاء المرؤوسين .

وقد سبقت الاشارة الى أن قائد كل مديرية كان مسئولا عن تقدير الضرائب وجمعها واستغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها في مديريته والى أنه كان لكل مديرية نومارخيان كانا يشرفان على تقدير وجمع مختلف الضرائب في المديرية . وكانت الادارة المالية المركزية في الاسكندرية هي التي تقدر حصة الضرائب المختلفة التي تجبى من كل مكان وشخص في مصر على ضوء البيانات التي يقدمها كاتب القرية والكاتب الملكي في المديرية ويراجعها النومارخيان والقائد بعد أن يفحصها عدد من عمال المالية المختصين مثل الـ epikrates والـ laographos وكانا مختصان بفحص حالة الأشخاص الذين تفرض عليهم ضريبة الرأس ، والـ geometres والـ horiodeiktes والـ episkeptes وكانوا يختصون بالمسائل المتعلقة بمساحة الأراضي وحدودها وانتقال ملكيتها أو نقل عبئها من أجل تقدير الضرائب على الأراضي وتحديد الوثائق عن اشتراك الموظفين الآخرين في تحديد ذلك . ويبدو أنه كانت تؤلف سنويا من السكان المحليين لجان لبحث حالة الأراضي بعد الفيضان وتقدير الضريبة المستحقة عليها .

وقد ذكرنا آنفا أنه بعد انشاء مجالس الشورى في عواصم المديريات انتقل الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشئون المالية في المديرية بأجمعها .

ثالثا – عيوب النظام المالي :

وتختلف القواعد التي أقام عليها الرومان نظامهم المالي في مصر اختلافا جوهريا عن القواعد التي اتبعها البطالمة وذلك لعدة أسباب أهمها أولا أن البطالمة كانوا يستهدفون بناء دولة قوية مستقلة في مصر تكفي نفسها بنفسها وتستطيع الذود عن حياض استقلالها السياسي والاقتصادي فكانوا يريدون من خزائنهم لتحقيق أهداف سياستهم وسد تكاليف حكومتهم ونفقات قصورهم وتبعا لذلك كانوا ينفقون في مصر أكثر ما يجمعونه منها . أما في عهد الرومان فان مصر غدت جزءا من امبراطورية تحكم من روما وكان الأباطرة يستهدفون تقوية مركزهم وتقوية الامبراطورية ومد حدودها

وما سهل أن تصل بعضها من بعض الحروب الأهلية ، وبدهو حالة مثال الاقتصادية بوجه عام والزراعة بصفة خاصة فعملوا على استغلال مصر في أقصى حد . ونال جانب كبير من ثروتها في روما تحقيق هذه الأهداف . والسبب الثاني أن البطالمة كانوا يستمدون جانب كبير من دخلهم من الحرف والصناعات الكثيرة التي احتكروها وكذلك من المكوس والعوائد الجمركية التي فرضوها على الواردات . أما الرومان فكانوا يمثلون أرضاء الطبقات الاجتماعية الجديدة في إيطاليا من أصحاب رؤوس الأموال الذين كانوا يستغلون ثروتهم في الصناعة والتجارة ويتطلعون الى استغلال السوق المصرية . فلا عجب أن النظام المالي الذي وضعه الرومان لمصر لم يكن الا أداة لاستنزاف ثروة البلاد بطريقة أو أخرى ، وأنه لم يكن من شأن التعديلات التي أدخلت على تطبيق هذا النظام الا جعله أشد فتكا وضراوة كلما ازدادت البلاد فقرا

ثالثا — نظام الأراضي

ولكي نتبين موارد الدولة من الزراعة يجب أن نأتي أولا على نظام الأراضي . ولا شك أن نظام الأراضي في عهد الرومان يختلف عنه في عهد البطالمة . وإن كان قد حفظ ببعض مظاهر النظام القديم فإنه قضى على بعضها الآخر وأدخل عليه مظاهر جديدة . وكل ما يمكن استخلاصه من أكداس الوثائق عن هذا النظام سنلخصه في تقسيم الأراضي على النحو التالي في ضوء معلوماتنا الحالية .

١ — أراضي الدولة ، وكانت تتألف من فئتين من الأراضي ، هما فئة « الأراضي الملكية » التي كانت فيما سبق ملكا للبطالمة وأصبحت منذ الفتح الروماني أرضا أميرية تملكها الدولة . وكانت الفئة الأخرى عبارة عن الأراضي التي انتزع الأباطرة ملكيتها من أصحابها ومن بعض أرباب الإقطاعات العسكرية ومن بعض الرومان أصدقاء بطلميوس . وقد كان يدفع جانب من هذه الفئة من الأرض ويفرض عليه من الضرائب ما كان يفرض على أراضي أرباب الإقطاعات وغيرها من أراضي الأملاك الخاصة لكنه كان يحتفظ بالجانب الأكبر من هذه الفئة من الأرض ويطلق عليها اسم « الأراضي العامة » (ager publicus) . وكان الديويكيتيس يشرف على ادارة « الأراضي الملكية » والإيديوس لوجوس على ادارة « الأراضي العامة » . وكان هذان الموظفان يؤجران هذه الأراضي الى مستأجرين اما يقومون بأنفسهم على استغلالها أو يؤجرونها من الباطن . ودلت كثير من عقود الايجار أنها كانت لمدة خمس سنوات . وكان مزارعو « الأراضي الملكية » يدعون « المزارعين الملكيين » ومزارعو « الأراضي العامة » يدعون « المزارعين العموميين » الا أنه سرعان

ترمي [illegible] الفصل [illegible] بين المرضي وأصبح الفلاح [illegible] يطلق على جميع [illegible] هذه الأراضي كافة. وقد كان يحق لمدونة طرد المستأجر في أي وقت يشاء ولأي سبب يراه وإذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه الأراضي كانت الحكومة تلجأ إلى [illegible] من الناس وإلزامهم [illegible] القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة وتعتبر القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع إيجارها وضرائبها. أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن [illegible] قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وإرغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأدية إيجارها وضرائبها

٢ — أملاك الأباطرة الخاصة ، (ousiake ge) وكانت تتكون من الأراضي التي كان البطالمة قد أغدقوها على أصحاب الحظوة لديهم [illegible] أسرة [illegible] الأول منهم ، ويرجح أنهم احتفظوا ببعضها [illegible] البعض الآخر [illegible] من كبار الرومان. وقد كان بعض من احتفظ بهذه الضياع أفراد من أسرة الإمبراطور مثل دروسوس [illegible] ، وأصدقاء الإمبراطور مثل ميكيناس ، [illegible] من الأسرة المالكة في جوليا ، وكذلك بعض [illegible] الأراضي الموجودة في [illegible] من [illegible] المصرية.

وفي النصف الثاني من القرن الأول الميلادي حدا بالأباطرة [illegible] مركز يهدد سلطان [illegible] بل قد يصل بهم إلى حد التطلع إلى العرش ، كما [illegible] بوجه عام إلى منح الأراضي لأشخاص يقيمون بعيداً عنها يؤدي إلى إهمال الأرض ونقص غلتها [illegible] تيبريوس حتى كان أغلب هذه الأراضي — إن لم يكن كلها — قد عاد إلى حوزة الإمبراطور وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة بمنح طائفة من المزارعين حق استغلال تلك الأراضي لمدد طويلة [illegible] وأحدهما [illegible] المزارعين [illegible] المناسب والآخر [illegible] إلى حق استغلال الأراضي [illegible] من زيادة دخل الحكومة

٣ — أراضي الأملاك العامة (ousiake [illegible]) (ge [illegible]) وكانت تتكون من عدة فئات

١ — الإقطاعات العسكرية التي لم تنتزع ملكيتها ولا يعرف بعد الأساس الذي [illegible] الإقطاعات [illegible] هذه الأراضي [illegible] كان أصحاب تلك الأراضي [illegible] من الإعفاء [illegible] الخدمة في الجيش الروماني ومن ضريبة

رأس ومن الأعلام على استغلال الأراضي الملكية والعامة مجاورة مع ان ... يستخدم ... المستأجرين، وكان عليهم عند انتقال ملكيتها ... يدفعوا ضريبة خاصة [illegible]، وكان ... هذه الأراضي تؤدي الضرائب التي فرضت عليها منذ عهد البطالمة

ب — الإقطاعات التي منحت لقدماء المحاربين الرومان

ج — ضياع التي كان الأباطرة في بعض الأحيان يقتطعونها من أراضي الدولة ويمنحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة بحق أسمى لملكيتها ويصعب تحديد كيفية معاملة هذه الضياع من حيث الضرائب لكن يرجح أنها لم تدفع جميع الضرائب بصفة واحدة وأن هذا التعامل كان يتوقف على شروط المنحة في كل حالة

د — جانب من الأراضي التي ... الدولة ملكيتها وباعتها

ويبدو أن نطاق أراضي الامتلاك تناقص ... ولا سيما في القرنين الثاني والثالث ... توسع الحكومة في إلزام الأهالي ... هذا الاتجاه إذ كان ... على الذين ... يكونون لديهم أملاكاً خاصة ... أرهقتهم ... بالتزامات ...

ه — أراضي ... يرى بعض المؤرخين أن ... ثالث حكام مصر

في عهد ... انتزع ملكية جميع أراضي المعابد وأصبحت جزءاً من الأراضي العامة وإذا كان لا شك في أن ملكية جانب كبير من أراضي المعابد قد انتزع، فالأرجح أن أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضي التي منحها البطالمة للمعابد وكان الكهنة يقومون بإدارتها، أما الأراضي المقدسة القديمة فقد بقيت ملكاً للمعابد إلا أن الحكومة هي التي كانت تتولى إدارتها على نحو ما كانت عليه الحال في الشطر الأول من عصر البطالمة، لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من الأراضي المقدسة لسد حاجات المعابد، وكانت الحكومة تجبي ضرائب محددة من هذا النوع من الأرض في حين أن ذلك الجزء من أراضي المعابد الذي انتزع ملكيته كان يؤجر مثل غيره من أراضي الدولة ولم تحصل الحكومة منه إلا على الإيجار

و — أراضي الدخل prosodou ge ويمكن إرجاع نشأة هذه الفئة من الأراضي إلى منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها ... مثار الجدل بين الباحثين، ومع ذلك يبدو محتملاً أنها كانت أراضي آلت إلى التاج ... إما مؤقتاً أو دائماً بسبب أو لآخر وكانت تؤجر مثل أراضي الدولة و... إيجار مرتفع جداً

ز — أراضي المدن، ويرجح أن هذه الأراضي كانت تتكون من الأراضي التي كان يملكها مواطنو تلك المدن وآلت إلى مدنهم

بسبب انقراض نسل أصحابها أو تركهم إياها هبة لتلك المدن والقرى ، ففي القرن الثاني كانت مدينة الإسكندرية تمتلك أرضاً ورثتها بوصفها في العموم ، وفي القرن الثالث كانت كل من مدينتي [illegible] وهرموبوليس ماجنا يملك أرضاً . وكانت هذه المدن تؤجر أراضيها وتعتبر مسئولة عن الضرائب المستحقة عليها أمام حكومة المديرية التي توجد فيها الأراضي شأنها في ذلك شأن الأفراد الذين يملكون أراضي ويؤجرونها .

وقد كان دخل الدولة من الأراضي يتألف من إيجار أراضيها ومن الضرائب التي كانت تفرضها على أنواع الأراضي الأخرى وبعض الضرائب التي كانت تفرضها على أراضيها . وكانت الضرائب التي تفرضها الدولة على الأراضي تتوقف على نوع المزروعات ومقدار جودة الأرض وحالة فيضان النيل . ولذلك كانت الأراضي تقسم قسمين رئيسيين أحدهما أراضي البساتين والآخر الأراضي الزراعية . وكان القسم الأخير ينقسم أيضاً قسمين أحدهما الأراضي التي تغمرها المياه والآخر الأراضي التي لا تغمرها المياه . ولا جدال في أن الأراضي التي تغمرها المياه كانت عبارة عن الأراضي التي تقع في الحياض وتغطيها مياه الفيضان . أما القسم الآخر فأغلب الظن أنه كان عبارة عن أراضي تقع في الحياض ولكنها مرتفعة فلا تصلها المياه إذا كان منسوب الفيضان واطئاً ، لكن بعض الباحثين يرى أنه من الجائز أن هذه الأراضي أو بعضها كانت تقع خارج الحياض وتروى رياً دائماً .

ومن أجل ذلك كله كان كاتب القرية مكلفاً بإعداد سجل بكافة أنواع الأراضي التي في زمام قريته وبموقع كل نوع منها ومساحته وأربابه ومقدار استحقاق الحكومة من إيجارات أو ضرائب عن كل قطعة أرض في منطقته وكذلك بإعداد تقرير سنوي عن محاصيل تلك الأراضي وعما كان يطرأ على حالتها من تغيير . وكان السجل يراجع سنوياً لجعله مطابقاً للواقع . وتوجد أمثلة كثيرة لالتماسات قدمها أصحاب الأراضي أو مستأجروها يصفون فيها حالة أراضيهم ويطلبون تخفيض الإيجار أو الضرائب بسببها . وفي الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن موعده أو هبوطه دون منسوبه العادي كان الحاكم العام يصدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتماسات وكانت توجه للقائد أو الكاتب الملكي أو كاتب القرية . وكان كاتب القرية أو شيوخها يقومون ببحث أولي يقدم على أثره كاتب القرية تقريراً عن حالة أراضي قريته والضرائب أو الإيجارات المستحقة عن كل جزء منها . وكان هذا التقرير يتخذ أساساً للفحص الذي تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض وتقدم لكاتب القرية تقريراً بنتائج عملها فيقوم بتعديل سجله وفقاً لهذا التقرير ويبلغ النسخة للقائد

والكتاب اللسكي بتصحيح قوائم الضرائب والاتحاد .

وعين من القرائن مختلفة ان كاتب القرية كان يعتمد على جهود المحتسبة بجمع سجلات مطابقة لمواقع من حيث التغييرات في ملكية الأراضي أو مستأجريها أو مستأجرها

وكانت أهم ضرائب الأراضي هي ضريبة الحبوب وكانت تجبى نوعاً من كل ما يزرع حبوباً من أراضي الأملاك الخاصة وأراضي الدولة والأراضي المقدسة التي كان الكهنة يشرفون على استقلالها ؛ وكان دخل هذه الضريبة يكون جانب من جزية القمح التي كانت مصر تدفعها لروما . وكان دخل الدولة من إيجار أراضيها يدفع أيضاً نوعاً ويكون الجزء الباقي من الجزية . وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين ثلاثة أرباع الأردب وأردبين عن كل أرورة تبعاً لمساحة الأرض والنوع الذي تنتمي إليه . وكان على الزراع أن يحملوا كل محصولهم الى جرن القرية حيث يدرس تحت اشراف موظفي الحكومة وشيوخ القرية وبعد حصر الحبوب المستحقة على أصحابها من ضرائب أو إيجارات كان يطلق سراح باقي المحصول لكن المزارعين كانوا مسئولين عن نقل مستحقات الدولة الى المخازن حتى تصبح مهيأة لنقلها الى الاسكندرية ولا ينتهي مسئوليتهم الا بعد [illegible] حصولهم من أمين المخزن Sitologos على إيصال باستلام ما يستحق عليهم

وكان نقل القمح يتطلب جمالاً وحمير لدفعه من المزارع الى أقرب محطة ثم من المحطة الى أقرب مجرى مائي حيث كانت تحمله سفن صغيرة الى النيل حيث تحمله سفن كبيرة الى الاسكندرية . وكانت الدولة تملك بعض مراكب النقل لكن يبدو انها لم تكن تكفي للحاجة في وقت المحصول ولذلك كانت السلطات المحلية تفرض على أصحاب الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع تحت تصرفها ما يكفيها من هذه الوسائل لنقل القمح في النيل حيث كانت تتولى أمر شحنه ونقله نقابات الملاحين تحت اشراف الحكومة التي كانت تلزمهم بذلك ويبدو ان اليهود والاسكندريين كانوا يسهمون في هذه العملية . ولكي نتبين ضخامة هذه العملية حسب أن نذكر أنه في عام ٤٢ نقل من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون أردب من القمح ، وأنه في عهد أغسطس كان مقدار الجزية النوعية التي تدفعها مصر سنوياً يبلغ عشرين مليون (modii) ، أي ستة ملايين أردب . وفي كل ربيع كانت قطائع أرباب السفن في الاسكندرية تتولى نقل هذه الجزية النوعية من الاسكندرية الى روما . وليس من اليسير أن نتبين على وجه الدقة من الذي كان يتحمل نفقات نقل الايجارات والضرائب النوعية من المزارع حتى تصل الى روما لكن يبدو أن مستأجري

أراضي الدولة وأرباب الأراضي كانوا يتحملون نفقات النقل حتى النيل على حين كانت الحكومة تتحمل نفقات النقل من موانئ النيل حتى المخزن الرئيسي عند الإسكندرية ومن هناك إلى روما.

وكان الذين يملكون أرضهم بساتين أو كروما أو نخيلا أو زيتونا يخضعون لطائفة من الضرائب تدفع نقدا. وكانت إحدى هذه الضرائب (geometria) تدفع في الفيوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أرورة من أراضي الكروم و ٢٥ دراخمة عن كل أرورة من باقي أنواع أراضي البساتين لكن هذا المعدل لم يكن واحدا في كل مكان ولا على كل نوع من أنواع الأراضي التي تدفع هذه الضريبة. وكانت أراضي البساتين تدفع ضريبة أخرى (apomoira) لا نعرف شيئا عن معدلها في مصر الآن لكن نعرف أنه كان في الفيوم ٣٠٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة من أراضي الكروم و ١٥٠٠ دراخمة عن كل أرورة من باقي أنواع أراضي البساتين. وعندما كانت هذه الضريبة تجبى بالعملة الفضية كان هذان المبلغان يعادلان على التوالي عشر دراخمات وخمس دراخمات فضية. وكانت تجبى عن كافة أراضي البساتين سنويا. وكانت هناك أيضا ضريبة ثالثة (eparourion) بمعدل واحد قدره ٢٠٠٠ دراخمة برونزية (أي ٦ دراخمة فضية) عن كل أرورة من حدائق الأراضي المستأجرة الأراضي المزروعة بالنخيل والزيتون فإنها كانت تدفع ألف دراخمة عن كل أرورة.

وكانت تفرض على كافة أنواع الأراضي ما عدا الأراضي المخصصة للمعابد ضريبة (naubion) كان مقدارها لا يحدد تبعا لنوع غلة الأرض وإنما تبعا لنوع ملكيتها. وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون هذه الضريبة لقاء إعفائهم من العمل شخصيا في السخرة على الجسور والقنوات. وتدل الوثائق على أنه في مديرية الفيوم كان أرباب الإقطاعات يدفعون ١٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة وبالمثل أرباب أراضي الامتلاك الخاص يدفعون ١٥٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة لكن إحدى وثائق أوكسيرينخوس من عام ١٠٧ - ١٠٨ تدل على أن معدل هذه الضريبة كان ٢٠٠ دراخمة عن كل أرورة. ويستوقف النظر أن مزارعي الأراضي الملكية كانوا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل أرورة مما يوحي بأن هذه الفئة من المزارعين كانت تعفى من السخرة لقاء دفع هذه الضريبة التي لم تكتف بها الحكومة الرومانية من أجل إنشاء وصيانة الجسور والقنوات فقد كانت تفرض لهذا الغرض أيضا ضريبة (chomatika) ... ثابت مقداره ٦ دراخمات و ٤ أوبولات على كل شخص غير معفى من الضرائب.

(١) انظر الصلة الوثيقة بين الزراعة

والحيوان ليس هنا أنسب مكان للكلام عن موارد الحكومة من الحيوان في العصر الروماني. وحسبنا أن نذكر أن الدولة كانت تمتلك دوابا للحمل وسنرى في الوثائق ما يدل على أن الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب للأفراد. وكانت الدولة تمتلك أيضا عددا كبيرا من الأغنام والماعز وتشير الأدلة إلى أن الحكومة كانت تؤجرها لمستأجري أراضيها لقاء أجر معين سنويا. وكذلك في القرن الثالث عندما أحدثت الضياع الكبيرة تنتقص الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أراضي الدولة التي أصبح يتعذر استغلالها استغلالا مثمرا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون أغنامهم وماعزهم لمستأجري أراضيهم. ويتبين من الوثائق أن عامة الأهالي كذلك كانوا يمتلكون الكثير من الحيوانات المستأنسة وأنه كان يتعين عليهم أن يقدموا سنويا للإدارة المالية في المديرية التي يعيشون فيها تقريرا عما يملكونه منها وأن الحكومة كانت تجبي ضرائب على الأغنام والماعز والخنازير والجمال والعجول والحمير والخيول بمعدل معين في كل مديرية عن كل رأس من كل نوع.

رابعا — الحرف والصناعات

لما كان هدف البطالمة هو أن يستمدوا من الصناعات والحرف أكبر قدر ممكن من الدخل فإنه لم يعن سياستهم في تنظيمها الا تحقيق هذا الهدف. ومن أجل ذلك كانوا يتبعون ثلاث وسائل فقد كانوا إما يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كاملا، وإما يسمحون لأحد الأفراد بحق احتكار مزاولة صناعة أو حرفة ما في منطقة معينة، أو يسمحون لمن يشاء بمزاولة صناعة أو حرفة بذاتها ويفرضون عليهم أداء ضريبة عن مزاولة عملهم ودفع نسبة من أرباحهم. وفي الحالة الأخيرة كان لا يحدد عدد المشتغلين في كل صناعة أو حرفة الا عاملان كان أهمهما مقدرة كل منطقة على استيعاب انتاج أرباب الحرف والصناعات هناك. وكان العامل الآخر نقابات أرباب الحرف والصناعات فقد درجت نقابة أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد المشتغلين بهذه الحرفة أو الصناعة.

وما زال تنظيم الحرف والصناعات في مصر أيام الرومان مثار جدل وخلاف بين العلماء بسبب قلة الأدلة وغموضها بحيث يتعذر الوصول إلى نتائج قاطعة في ضوء معلوماتنا الحالية. وإذا كان يمكن القول بوجه عام بأنه في العصر الروماني اتبعت الحكومة في تنظيم واستغلال الحرف والصناعات الوسائل ذاتها التي كانت متبعة من قبل في عصر البطالمة فلا جدال في أنه قد طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل، ولا في أن الحكومة تخلت عن عدد كبير من احتكاراتها الكاملة في عصر البطالمة، فقد أوردها بتسليمها فاكتفى بالاحتكارات الكاملة

في عهدي المصريين ونتبين من حاجتي القائمين بعد هذه الاحتكارات كان سبعة عشر في عصر البطالمة وأحد عشر في العصر الروماني. وعلى كل حال فإن هذه الأدلة عن نظم الاحتكارات في العصر الروماني يوحي بتناقص أهميتها في هذا العصر.

وليس في الأدلة ما يشير للشك في أن الحكومة الرومانية انتهجت أثر البطالمة في احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصودا (nitron) والشب (alum) وبديهي أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطالمة يفرضون ضريبة على المستهلكين لقاء حق شراء الملح. ويبدو أنه حينما كانت تجبى ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها في تلك المنطقة. ويبدو أن صناعة الجعة في عصر البطالمة تحولت بالتدريج شكل نظام يقوم على بيع حق إنتاجها للأفراد أو الهيئات وفرض ضريبة على المستهلكين، وأن هذا النظام ظل قائماً في العصر الروماني وإن كانت الدولة لم تعد تحد صنع الجعة بما كانوا يحتاجون إليه من الشعير على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة.

وتوحي الأدلة بأنه في العصر الروماني لم تعد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكاراً كاملاً على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة، فكل ما لدينا من الأدلة يشير إلى أن معاصر الزيت كانت ملكاً للأفراد أو المعابد وإلى أن الشخص بوجه عام كانوا يحرمون بيعاً بمعرفته. ويرى بعض الباحثين أن سيطرة الحكومة على هذه الصناعة في الفيوم كانت لا تتعدى البيع الذي يريد بيع زيته أن يحصل على ترخيص بذلك من الترسيخ. والواقع أننا نعرف أن صاحب معصرة زيت في قرية مرعلي بالفيوم دفع لقاء حق البيع في عام واحد ٨٠ درخمة فضية و ٨٠ أوبول إلى جانب بعض الرسوم الإضافية. لكن الوثائق ترينا أيضاً أنه كانت تجبى أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت في الفيوم وغيرها من أنحاء البلاد. وإذا كنا نعرف أن إحدى هذه الضرائب كانت تجبى عن الأدوات المستخدمة في استخراج الزيت فإنه يتعذر معرفة ماهية بعض الأخرى. ولا يبعد أن الحكومة كانت تبيح الاشتغال بصناعة الزيت من يشاء على أن يدفع على الأقل ضريبتين كانت إحداهما ضريبة مزاولة هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الإنتاج والقدر على أساس الأدوات المستخدمة في ذلك، هذا إلى جانب ضريبة عن الترخيص ببيع الإنتاج.

ولتفسير الأدلة التي لدينا عن العصر الروماني كانت معظم مستنقعات البردي في حوزة الأفراد وإلى أنه في الفيوم كانت بعض المستنقعات على الأقل ملكاً خاصاً من ضيعة الأمير جرمانيكوس وسبق من الوثائق أن الأمير جرمانيكوس كانت

بيع سحابات هذه المستنقعات عن طريق المزاد فكان المشتري منها حق بيع هذه السحابات وكان هذا ملتزماً بيع حصة للآخرين ، وإن هذه الحصة مثل وسيلة حصيلة كانت حصة الإمبراطورية إلى التاج . ويتبين من الوثائق أيضاً أن الحكومة كانت تجبي ضريبة على الورق في الفيوم وفي الإسكندرية . ولا يبعد أنه مثل ما كانت عليه الحال في العصر الثاني من عصر البطالمة كانت توجد في العصر الروماني مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية للورق وإن هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع من الحكومة حق مزاولتها هذه الصناعة .

وكانت صناعة النسيج وصناعة الأصبغ في مصر لكي أسرار منظمة تكفله عوض شديدة وكما يعرف له في الوجه القبلي كان مشرف على الأنوال (histonarch) يعطي تشريعين رخيصين باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وإن لشخصين يدعى هرون هذه منذ … من … سرب ولشخصة مشرايين الآخرين ، على تأجير احتكار الدباغة يحصرون على حق الإشراف لمدة عام وحده على الأنوال في قرية رخلاليس Archelais بالفيوم لقاء أجر قدره … دراخمة فضية تدفع على أقساط شهرية مساوية إلى جانب بعض الرسوم الإضافية . ونعرف كذلك أن النساجين سواء في الفيوم أم في مصر العليا كانوا يدفعون على أقساط شهرية ضريبة يقبل أعدد المؤرخين إلى عشرها ضريبة حتى من له مهنة لكنهم لا يفتحون على الأساس الذي كانت عليه الضريبة بعد منحتها ولا على مقدار ما تبدو في الوثائق من تفاوت في قيمة هذه الضريبة من مدينة إلى أخرى . وقد كانت أقمشة الفيوم تلعب دوراً هاماً في صادرات من بلاد السرقية على حين أنه لم يرد ذكر أقمشة الوجه القبلي في التجارة الخارجية على أنه من البديهي لا يستبعد أن الإنتاج من أجل التصدير فقط كان يخضع لرقابة المشرف على الأنوال وقد كان نص هذه الرأي لو أن المشرف على الأنوال لم يوجد إلا في الفيوم وحدها لكننا وجدناه في الوجه القبلي كما مر بنا ذكره .

ومن ناحية أخرى تبين من وثائق لم يعثر عليها في الفيوم فحسب بل أيضاً في أوكسيرنخوس وهرموبوليس أن الحكومة كانت تفرض على مشتغلي النسيج في كل منطقة إمدادها بقدر معين مما تحتاج إليه من ملابس لرجال الجيش والشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحي بأن هذه الضريبة لم يحتمها النساجون في مديرية بعينها فقط وإنما في كل أنحاء البلاد . وإذا كان ما لدينا من أدلة لا يدع مجالاً للشك في إشراف الحكومة على صناعة النسيج واستغلالها استغلالاً كبيراً فإن غموض الأدلة لا يدع مجالاً لتبين أساس تنظيمها الذي يقدر ما كان أكثر تعقيداً من صناعة الدباغة التي كانت تتصل بها اتصالاً وثيقاً ويبدو أن الحكومة كانت تبيع الشخص

واحد أو أكثر حق الاستغلال في منطقة معينة. ويوضح أن ذلك كان الحال أيضا في صناعات الآجر والحلي الذهبية والعطور والصابون. فالوثائق تحدثنا عن تعهد شخص بأن يدفع للحكومة سنويا غرامة فضية إلى جانب بعض الرسوم الإضافية نظير حق صنع وبيع الآجر لمدة سنة في كركيوزيريس (Kerkeosiris) بالفيوم مع السماح له بمنح هذا الحق لآخرين، وعن رجلين كانا يدفعان للحكومة ٣٦٤ درخمة فضية سنويا نظير صناعة الجعة الفضية في بوبسطس (Bubastos) بالفيوم لمدة أربع سنوات، وعن رجل يدعى كاستور كان قد اشترى من الحكومة نصف الحصة في حق بيع العطور وصنع المناحين في إقليم ثيمستس بالفيوم فانضم إليه رجل يدعى سارابيون يشتري منه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع في أيام السوق والأعياد.

وكانت الحمامات العامة في الوجه البحري ملكا للأهالي أو المعابد أما في الوجه القبلي فكانت تملكها الحكومة أو تسيطر عليها تماما. وفي الوجه البحري كان أصحاب الحمامات يدفعون للحكومة ضريبة قدرها نسبة من الأرباح أو من الدخل. وفي الوجه القبلي فكان الأهالي يدفعون ضريبة ثابتة من جهة صيانة الحمامات العامة وصيانتها.

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك مقصورة على منطقة الفيوم ويبين منها أن الحكومة كانت تبيع حق مزاولة الصيد في كل منطقة، وكذلك كان الذين يشتغلون بالملاحة في النيل يبتاعون من الحكومة حق مزاولة عملهم في منطقة معينة.

ولا يتسع المقام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف ويبدو أن كل ما يمكن استخلاصه من الأدلة هو أنه إذا كانت الحكومة الرومانية قد نزلت عن كثير من الاحتكارات التي كانت قائمة في عهد البطالمة فإنها قد احتفظت ببعض هذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على ناصية مزاولة الحرف والصناعات المختلفة إلى حد أنه كان لا يتيسر لأحد مزاولة أي حرفة أو صناعة إلا بترخيص من الحكومة إما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت، وفي بعض الحالات لقاء الاثنين معا. وكانت الحكومة إما تعطي الترخيص مباشرة للذين يزاولون بأنفسهم أي حرفة أو صناعة أو تؤجر حق مزاولة صناعة أو حرفة ما أي بعبارة أخرى حق احتكار تلك الصناعة أو الحرفة في مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه من أجر متفق عليه لأفراد مختلفين في ذلك المكان. وكان هؤلاء المستأجرون إما يباشرون بأنفسهم حق مزاولة الحرفة أو الصناعة أو يؤجرون ذلك الحق من باطنهم. وجملة القول أن كل من كان يزاول أي حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا يحترفون الحرف والصناعات كانوا يدفعون هذه الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد وكان كل الذين يزاولون صناعة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يؤدون ضريبة سواء أكانوا رجالا أم نساء وكانت النساء تؤدي الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة أسوة بالرجال

خامسا ـ التجارة

(ا) التجارة الخارجية :

تشير الدلائل الى أن الاسكندرية ظلت في العصر الروماني أهم مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط. ولما كان الرومان قد ألغوا المكوس الجمركية عندهم وكانوا يريدون تشجيع التجارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خفضوا المكوس الجمركية الفادحة التي كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحر الأبيض المتوسط. ويحدثنا استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مثقلة بالبضائع وتعود اليها خاوية الوفاض أو بشحنات قليلة. وإذا كان لا شك في صحة رواية استرابون عن الوقت الذي كتب فيه أي في بداية العصر الروماني فانه لا ملة الأدلة تتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا المنوال بعد ذلك ولم تزد الواردات من الغرب ، لكننا نميل الى الاعتقاد بأن الحال استمرت طوال العصر الروماني على ما كانت عليه أيام استرابون. وذلك لأن مصر يحصل على من نحا الطبقة لم تفتقر الا الى الأخشاب الجيدة والمعادن ونتيجة لذلك اقتصرت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلا عن بعض أدوات الترف. أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط فانها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مقادير مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والعقاقير ، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والنبيذ فضلا عن الحمام والمواشي من أجل تقديم القرابين وكذلك التماسيح وبعض الحيوانات المائية من أجل الاستعراضات. ويحتمل أن مصر كانت تصدر كذلك جانبا من حبوبها علاوة على الجزية السنوية التي كانت روما تقتضيها منها.

ويجب الا يغرنا أن الجزية النوعية والمالية كانت تلقى على موارد البلاد عبئا ثقيلا كان لابد من أن يؤدي سريعا الى تخريب البلاد لو لم يعوض الى حد بعيد وسائل كان في مقدمتها زيادة الصادرات على الواردات والمكوس الجمركية وأرباح تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية وتعاب السياح الذين كانوا يفدون لكثرة مشاهدة معالم البلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك تعاب الطلاب

الذين كانوا يأتون لتسلم المحصول في الإسكندرية ، فضلا عن تعطل جيش الاحتلال والأداة الحكومية وإقامة المنشآت العامة . وبعض قلة تكاليف المعيشة وبالتالي قلة تكاليف الإنتاج استطاعت منتجات مصر الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم البحر الأبيض المتوسط . وهذا يترك الحرية جانب يزعم أن الميزان التجاري كان في صالح مصر .

ويروي استرابون أيضا أن الإسكندرية كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد الصومال . ومن المرجح أن جانبا كبيرا من التجارة بين الإمبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية كان يمر بمصر . ويحدثنا بليني بأن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب كانت تستنزف سنويا من الإمبراطورية الرومانية قدرا غير قليل من ذهبها وفضتها ؛ ومن الجائز أن المبلغ الذي ذكره بليني لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا لهذا الكاتب نفسه كانت مصر تصدر منتجاتها الكتانية ثمنا لوارداتها الشرقية ويتبين من مصادر أخرى أن مقادير الصادرات إلى الشرق كانت كبيرة . ويحدثنا استرابون بأنه كانت تجبى مكوس جمركية على السلع الواردة إلى مصر من الشرق والصادرة إليه وبأن أثمن الشحنات القادمة من الهند والحبشة وأغلى السلع ثمنا كانت تدفع أكثر المكوس الجمركية ارتفاعا مما يوحي بأن مقدار المكوس الجمركية كانت تتفاوت تبعا لقيمة السلع المستوردة . لكن من الجائز أن يكون هذا النظام قد تغير بعد عهد أغسطس الذي كتب فيه استرابون فأحد مصادرنا القديمة الذي يرجع فعلا إلى تاريخ متأخر عن منتصف القرن الأول الميلادي يحدثنا بأن المحاسب الرومانية في ليوكي كومي (Leuke Kome) كانت تجبي على الواردات مكوسا جمركية ثابتة قدرها ٢٥ ٪ من قيمتها . وقد أثير جدل كبير حول هذه المكوس التي كانت تجبى في ليوكي كومي لكنه لم يثر من الاعتراضات الجدية ما يدعو إلى التشكك في جباية هذه المكوس المرتفعة هناك . ومع أنه لا توجد أدلة مباشرة عن المكوس الجمركية التي كانت تجبى في الموانى المصرية الواقعة على شاطئ البحر الأحمر ، إلا أنه في ضوء الرسوم الجمركية التي فرضها الرومان في ليوكي كومي لا يبعد أن يكون الرومان قد استبدلوا بالنظام البطلمي الذي كان يفرض مكوسا جمركية متفاوتة على السلع المختلفة وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون ، نظاما قوامه فرض مكوس جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ على مختلف السلع الشرقية الواردة إلى الموانى المصرية . وعلى كل حال لا جدال في أن الرومان كانوا يجبون في الموانى المصرية مكوسا جمركية على التجارة الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه في عهد الإمبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

المكوس مع مجموعات من المترجمين الروم.
وإذا كان من العسير معرفة نسبة هذه المكوس الجمركية عامة فمن المحتمل أن المكوس الجمركية على الواردات الشرقية كانت عالية جداً على المستوردات من الشرق [illegible] الصادرات لكي تنقص بذلك العجز في الميزان التجاري بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية. ويحدثنا بلينيوس بأن السلع الشرقية كانت لا تصل إلى روما إلا بعد أن يتضاعف ثمنها مائة مرة مما يوحي بارتفاع المكوس الجمركية في مصر — طريقها الرئيسي إلى روما — وضخامة أرباح تجار الإسكندرية الذين كانوا يقومون بدور رئيسي في هذه التجارة.

ومن العسير أن نتبين في ضوء معلوماتنا الحالية النظام الذي كان متبعاً في صادرات مصر ووارداتها في العصر الروماني أو إلى أي مدى كانت الحكومة تشرف على تجارة مصر الخارجية لكن من المرجح أن كل من كان يشتغل في هذه التجارة كان يدفع للحكومة ضريبة أو أجراً لقاء الترخيص له بذلك أسوة بما كان متبعاً في التجارة الداخلية.

(ب) التجارة الداخلية

ويتبين من الوثائق أنه كان يتعين على كل من يبيع أي سلعة أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة ضريبة عنه كل شهر أو كل سنة. ومن العسير أن نعين أساس تحديد هذه الضريبة لأنه كان يتفاوت في المكان الواحد حسب نوع السلعة كما كان يتفاوت كذلك من مكان إلى آخر في السلعة الواحدة. ومثل ذلك أنه كان يتعين على كل من يبيع الزيت في أرسينوي أن يدفع للحكومة ثماني دراخمات شهرياً على حين نرى أنه في أوكسيرينخوس كان المحتكر [illegible] لا يدفع إلا ست دراخمات في العام لقاء حق بيع الزيت. وقد سبقت الإشارة إلى الرجل الذي تعهد بدفع ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبولاً في العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئة في قرية [illegible] بالفيوم. وهكذا نرى أنه إذا كانت الحكومة أحياناً تسمح لمن يشاء الاتجار في الزيت بأن يفعل ذلك ما دام يدفع لها ضريبة الترخيص بذلك كانت أحياناً أخرى تسمح لشخص واحد باحتكار البيع في منطقة معينة. وكانت الحكومة تمنح حق بيع السلع في كل منطقة لمن يتقدم لها بأكبر عطاء لقاء الحصول على هذا الحق.

وكان بائعو الخضروات في معبد قرية سوكنوبايونيسوس (Soknopaiou Nesos) بالفيوم يدفعون ١٢ دراخمة على حين يبدو أن بائعي الخضروات في قرية تبتونيس بالفيوم أيضاً كانوا يدفعون ثماني دراخمات وثلاثة أوبولات. ونلاحظ أن تجار [illegible] في أرسينوي كانوا يدفعون الضريبة أحياناً بمعدل ٣٦ دراخمة شهرياً وأحياناً أخرى بمعدل ٦٠ دراخمة من أنه في الشهر الذي

كانوا مقصورين عليه ٣٦ دراخمة كان شخص آخر يدفع نحاس در حساب فقط على حين كان الشخص في أوكسيرينخوس ٤٠ درخمة وتجد أنه حسب ما كان بالفيوم تحصيله مقصور ٦ دراخمة شهريا كان أحد أولئك البائعين يدفع نحاس در حساب فقط وفي بعض الحالات كان رخص الحكومة باحتكار سلعة ما يلحق أيضا بيعها مثل الآجر والحلى الذهبية على نحو ما رأينا عند الكلام عن الصناعات والحرف

ويتبين من مصادر الوثائق القديمة أنه كان يوجد مركز عند سيحاية لجباية العوائد على التجارة المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البلاد ، ومركز في منف لجباية العوائد على التجارة بين مصر الوسطى والدلتا ، ومركز في هرموبوليس لجباية العوائد على التجارة بين مصر العليا ومصر الوسطى ومعنى ذلك أن الرومان كانوا يجبون عوائد على التجارة المتبادلة بين الثلاثة الأقسام الرئيسية التي كانت البلاد تنقسم اليها وكذلك بين هذه الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة عن هذه الأقسام

ويتبين أيضا من مصادرنا أنه كانت تجبى كذلك عوائد على تبادل السلع بين مديرية وأخرى والى جانب ذلك كانت تحصل رسوم جمارك في بعض جهات البلاد تجبى لأغراض مختلفة ، فمن الرسوم مثلا كانت تجبى رسوم لحراسة الطرق الصحراوية وفي منف وأسوان كانت تجبى رسوم بصفته عيد ما في فقط جانب كانت تحصل رسوم على جوازات السفر من هذه المدينة وهي في البحر الأحمر وكانت هذه رسوم تتفاوت بحسب حالة كل مسافر ، فقد كان قائد السفينة يدفع ١٠ درخمات والبحار العادي ٥ درخمات وبناء السفن ٥ درخمات والصانع ٨ درخمات والعاهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الجندي ٢٠ درخمة الخ فقد كان يتعين الحصول على رخص لمغادرة البلاد وتفرض غرامات على الذين لا يحترمون هذه القاعدة

سادسا — ضرائب شتى

والى جانب ما ذكرناه من الضرائب على الأراضي والحرف والصناعات والتجارة كانت الحكومة تجبى كذلك سلسلة من الضرائب المختلفة اذ يبدو أن الرومان لم يتركوا بابا دون أن يطرقوه لزيادة دخل الحكومة ويمكن أن نوجز بعض هذه الضرائب فيما يلي

١ — ضريبة الرأس (Laographia) وكانت أهم الضرائب التي تجبى نقدا ولعلها لم تكن ضريبة استحدثها أغسطس وانما ترجع الى عصر البطالمة عندما كانت تعرف باسم آخر (Syntaxis) ومن المحتمل أن يكون أغسطس قد زاد معدلها وفرضها على أشخاص كانوا معفيين منها حتى عهده ، فأول وثيقة ورد فيها ذكر لهذه الضريبة في العصر الروماني ترجع الى عام ٢٣ — ٢٦ ق م ولقد كانت هذه الضريبة لا تجبى بمعدل واحد حتى في

المدينة الواحدة ولا في المدينة الواحدة فقد تختلف هذه المعدل من حي الى آخر في مدينة معينة. وفي العموم كان المصريون يدفعون ٤٠ دراخمة أما أفراد الفئات الممتازة من مواطني عواصم المديرية وسلالة أبناء الأنتخاب فكانوا يدفعون ٢٠ دراخمة على حين يبدو أنه في مديرية أوكسيرينخوس كان المصريون يدفعون ١٦ دراخمة والفئات الممتازة ٢ دراخمة، وأنه في مديرتي منف وهرموبوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨ دراخمات. وهكذا يبين أولا، أن هذه الضريبة لم تفرض بمعدل واحد في كل أنحاء البلاد سواء على المصريين أم على الفئات الممتازة. وثانيا، أن هذه الفئات لم تدفع دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه. وثالثا، أنه في بعض المديريات كانت الفئات الممتازة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون. أما المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل معبد ومواطنو الاسكندرية وفيما يبدو أيضا مواطنو المدن الاغريقية الاخرى فانهم كانوا يعفون من تلك الضريبة التي كان لا يدفعها الا الذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين الرابعة عشرة وسن الاعفاء. ويرجح أن هذه السن كانت في ارسينوي الستين لكن يبدو أنها وصلت الى الخامسة والستين ثم السبعين في طيبة. ويبدو أنه كان يعفى أيضا من ضريبة الرأس أساتذة جامعة الاسكندرية والرياضيون والفائزون في مباريات الحفلات الدينية وكذلك بعض موظفي الادارة المحلية مثل الكاتب الملكي وكاتب الاقليم وكاتب القرية.

٢ — ضريبة التاج، وتشير القرائن الى زوال هذه الضريبة بعد مجيء الحكومة الرومانية لكن سكان البلاد في عهد كركلا. ويرجع هذه الضريبة الى عهد البطالمة ونشأتها من تقديم هدية للملك تاجا أو نقدا بمناسبة ارتقائه العرش أو بمناسبة أخرى. ويحتمل أنه في أوائل عهد الرومان كانت هذه الضريبة لا تجبى الا في مناسبات خاصة لكننا نتبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثاني أصبحت هذه الضريبة تجبى سنويا بانتظام حتى النصف الثاني من القرن الثالث عندما أصبحت تجبى كل خمس سنوات. وقد شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنه على مر الزمن أصبحت تجبى من جميع أرباب الأراضي بدلا من جبايتها من فريق معين منهم. وقد وعد الامبراطور سفروس اسكندر بوقف جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لأن الوثائق تبين أنها جبيت على الأقل مرتين في عهده بعد صدور هذا الوعد.

٣ — ضريبة خاصة لاقامة تماثيل للاباطرة: فمن حين لآخر كانت تجبى أيضا ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم في مختلف المدن. ونتبين من سلسلة من الوثائق عثر عليها في أسوان أن هذه الضريبة جبيت

هناك في عامي ١٠٤ و ١١٤ لاقامة تماثيل لتراجان ، وفي عام ١٢٨ لاقامة تمثال لهدريان ، وفي ١٤٠ لاقامة تمثال لانطونيوس بيوس ، وفي عام ١٦٢ لاقامة تمثال لكل من أوريليوس وفيروس وذلك عندما جبيت في الأعوام ١٣٦ و ١٣٩ و ١٤٤ لعمل بعض تماثيل الأباطرة بالذهب . ولقد كان مقدار هذه الضريبة قليلا اذ أن أكثرها ارتفاعا كان أربع دراخمات في عام ١٤٠ وعشر دراخمات في عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا فلا شك في أن تكرار جبايتها كان يلقي عبئا ثقيلا على كاهل الأهالي الذي أبهظته كثرة الضرائب . ولنشير القرائن الى أنه كانت تجبى ضريبة مماثلة من أجل اقامة معابد للأباطرة .

٤ — وكان الرومان يفرضون ضريبة قدرها ٢ ٪ على كل ما يباع في الأسواق وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الثابتة يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثاني كان ١٠ ٪ من ثمن الشراء ثم زيدت في القرن الثالث . وكان الرومان يفرضون على الرهونات ضريبة قدرها ٢ ٪ . أما ضريبة ٥ ٪ التي كانت تجبى عن تحرير الأرقاء والتركات فانه كان لا يدفعها الا المواطنون الرومان ولم تتأثر بها مصر الا عندما منح كركلا حقوق المواطنة الرومانية لكل السكان في مصر مع باقي سكان الامبراطورية .

٥ — مؤنة الجنود الرومان ، ان معلوماتنا ضئيلة عن الوسائل التي اتبعها الرومان في مصر حتى أواخر القرن الثاني من أجل توفير المؤونة اللازمة للحامية الرومانية لكن القرائن توحي بأن الحاكم العام كان يحدد سنويا كمية الحبوب التي يحتاج اليها كل معسكر ويفرض على بعض الزراع في كل مديرية تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يحدده الحاكم العام . ولا بد من أن يكون الأهالي قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد أنه في عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة عينية (annona militaris) على أرباب الأراضي التي تزرع حبوبا . وكان الأهالي يكلفون أيضا بايواء الجنود الذين كانوا ينزلون بهم في أثناء تنقلهم من مكان الى آخر . ويبدو أن الجنود كانوا يسيئون استغلال هذا الحق فقد وصل الينا عدد من الأوامر التي اضطر الحكام الى اصدارها لتحذير الجنود من اغتصاب أموال أو خدمات من الأهالي دون الحصول على اذن خاص بذلك وبيان أن حقهم كان مقصورا على ايوائهم فقط .

وكان يفرض على الأهالي أيضا توفير الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند مرورهم بأنحاء البلاد ، وكذلك للامبراطور وحاشيته عند زيارته مصر وتنقله في أرجائها . وقد كان ذلك عبئا ليس هينا اذ تحدثنا احدى الوثائق أنه بمناسبة زيارة الحاكم العام لهرموبوليس أدرجت أسماء ٥٣ شخصا لاعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن خبزا ولحما وسمكا ودواجن وبقولا ووقودا

فضلا عن علف دواب الحاشية والجند اللازمة للانتقالات المحلية. وإذا كان ذلك النشاط في حالة مرور الحاكم العام فانه يسكت أو يصمت. بل كان الأهالي مكلفون بمجهودات في حماية وحراسة الامبراطور.

٩ — ويمكن اعتبار تسخير الأهالي للعمل في تطهير الترع وصيانة الجسور ضريبة ثقيلة يبدو أنه لم يعف من أدائها الا الرومانيون والاسكندريون والفئات التي كانت تدفع الفدية ضريبة السخرة (naubion). وكان نظام السخرة يختلف من مكان الى آخر اذ بينما كان يفرض على الفلاح في قريته أن يشترك في تطهير أو صيانة مساحة معينة تسمى naubion كان يطلب منه في الفيوم أن يشتغل عددا معينا من الأيام كانت عادة خمسة أيام كل عام في الفترة الواقعة بين بداية يونيه ومنتصف أغسطس.

وكانت هناك ضرائب محلية لحرس أو الشرطة ومواجهة نفقات المنشآت العامة مثل الحمامات والأسواق والمعابد وغير ذلك. هذا الى أنه من حين لآخر كانت تجبى ضرائب اضافية لسد العجز في حصيلة بعض الضرائب التي كانت تجبى بانتظام. وفضلا عن ذلك كانت تفرض ضرائب على فئات معينة من سكان البلاد لا تدفعها فئات أخرى مثل ضريبة اليهود وضريبة أرباب الاقطاعات وضريبة الشرطة.

ومما يجدر بالملاحظة أنه في بداية العصر الروماني كان معدل الضرائب معتدلا لكن على مر الزمن زاد معدل الضرائب وعددها. ولما لم يكن في وسع موارد مصر ولا طاقات ... عن سوء الادارة ونفقات العامة سد كل العجز الناجم عن الجزية السنوية والنقدية التي كانت روما تستولي عليها فقد أصبح ذلك خطيرا على البلاد الاقتصادي.

سابعا ـ نظام جباية الضرائب

يتسم نظام الرومان الضريبي في مصر بظاهرتين واضحتين أولاهما أنه باستثناء بعض الضرائب لم يفرض على كل أنحاء البلاد دفع الضرائب ذاتها ولا بمعيار واحد فكانت أنواع الضرائب وكذلك معاييرها تختلف من مديرية الى أخرى.

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد في جباية الضرائب. فقد اتبع الرومان جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تيبريوس حينما نسمع للمرة الأولى عن جباة موظفين (praktores) الا أن هذا النظام الجديد لم يقض على سابقه بأكمله فقد ظل بعض الضرائب مثل الضرائب والمكوس الجمركية وضريبة ٢٪ على المبيعات تجبى حتى أواخر القرن الثاني وفقا للنظام القديم.

وحتى نهاية القرن الثاني كان كاتب كل قرية يعد كشفا بأسماء أغنى المدنيين لتعيين نصاب معين ويختار القائد من بينهم جباة كانوا يؤدون عملهم مدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق حاكم القسم (epistrategos) على اختيارهم وكان أولئك الجباة يعتبرون مسئولين عن أي عجز في حصيلة الضرائب المفروضة على منطقة

كل منهم ولذلك كانوا يوقعون في جميع
العقود التي عادة بحدوث هذا العجز ويحدث
[illegible]
[illegible] من [illegible]

وكان هؤلاء الجباة لا يتولون أمر جباية الحبوب إذ أنه حتى نهاية القرن الثاني كان أمناء المخازن (sitologoi) هم الذين يجمعون هذه الحبوب ، على حين يبدو أن مهمة جباة الحبوب (praktores sitikon) كانت مقصورة على جمع متأخرات هذه الضريبة أما في القرن الثالث فإن الموظفين الذين كانوا يسمون (dekaprotoi) هم الذين كانوا مسؤولين عن جمع هذه الضريبة ويتضح [illegible] بأسماء [illegible] وجباة الحبوب والتفرقة بين جباة الحبوب والجباة الذين كانوا يجبون الضرائب النقدية أطلق على الفريق الأخير منذ عهد تراجان اسم جباة النقود (praktores argyrikon).

الفصل السادس

النظام القضائي

لقد مر بنا أن البطالمة احتفظوا للمصريين، بقدر ما سمحت الظروف، بقوانينهم التقليدية التي أطلق الاغريق عليها اسم «قوانين البلاد». وتشير القرائن إلى أن الرومان قد أبقوا على هذه القوانين بوجه عام، إذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدل البطالمة أيضا بعضا آخر.

وقد عرفنا كذلك أن اغريق كل مدينة اغريقية وجمعية قومية كانوا يخضعون لمجموعة معينة من القوانين تعرف «بقوانين المواطنين»، وأنه من أجل التنسيق بين هذه المجموعات من القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا إلى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الأنواع. وقد أبقى الرومان على بعض هذه الاوامر الملكية كما أبقوا على قوانين الاسكندرية وبطوليميس وكذلك على قوانين المواطنين التي طبقوها في انتينوبوليس، بعد أن أدخلوا بعض التعديلات على القوانين المعمول بها.

ويمكن القول بأنه مثلما للمصريين في القضايا التي تنشب بين طرفين أحدهما مصري والآخر اغريقي أصدر بطليموس الثامن يورجتيس الثاني في عام ١١٨ ق. م. قرارا يقضي بأن بيئة العقد موضوع الخلاف هي التي يجب أن يتقرر بموجبها نوع القانون الذي يطبق للفصل في هذا الخلاف. ولسنا نعرف إلى أي حد طبقت هذه القاعدة في العصر الروماني وإن كنا نعرف أن قاعدة مماثلة كانت تطبق على الأقل في قضايا الزواج وذلك أنه في حالة عقد زواج مصري بين طرفين أحدهما مصري والآخر اغريقي كانت أحكام القانون المصري هي التي تطبق أما في حالة عقود الزواج الاغريقي فان أحكام القانون الاغريقي هي التي كانت تطبق.

وبطبيعة الحال أدى ظهور عنصر جديد من السكان في العصر الروماني وهو عنصر المواطنين الرومان إلى نقل القانون الروماني إلى مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات القانونية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم في نظر الرومان أجانب (peregrini). وكذلك نشأت الاختصاصات القانونية التي أعطيت لمحاكم العدل والعادة لتنظيم الهيئات

القضائية التي كان من حقها الفصل في النصوص.

ومما يجدر بالملاحظة أن الوثائق المتعلقة قد تأثرت بالقانون الروماني عن طريق نشر منشورات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام المحاكم.

أولاً – القانون المدني

١ – الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الإغريق يعتبرون المرأة قاصرا ومن ثم في حاجة إلى وصي شرعي عليها في كل تصرفاتها فإن المرأة المصرية لم تسترد في العصر الروماني مكانتها القديمة بل بقيت على حالها من المساواة بينها وبين المرأة الإغريقية. ولا سبيل إلى الشك في أن المصريين كانوا يعرفون في العصر الروماني « الزواج الكامل » و « زواج المتعة أو التجربة » وهما نوعا الزواج اللذان سبق الكلام عنهما في سياق الحديث عن الزواج عند المصريين في عصر البطالمة.

وكما كانت عليه الحال في عصر البطالمة كان إغريق الإسكندرية وبطوليميس في العصر الروماني يحررون عقدين أحدهما مدني والآخر ديني، وكان بعض الإغريق يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » وكانا نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج. لكن كثيرا ما كان يكتفى بتحرير « عقد الاتفاق » وحده دون تحرير « عقد المعاشرة » أيضا.

وكان نظام الزوجية عند الرومان معاشرة الزوجة وعقد الزواج الذي كان يسجل في سجلات خاصة تعرف بسجلات الزواج.

ووفقا لأحكام القانون عند المصريين والإغريق والرومان على السواء كان لكل من الطرفين حق الطلاق. وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة بين الطرفين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يحق لكل منهما أن يعقد زواجا جديدا.

وإذا كان مسموحا قبل العصر الروماني اتخاذ أكثر من زوجة واحدة فإنه لم يعد منذئذ مسموحا بذلك لأي عنصر من عناصر السكان في مصر، لكنه كان مسموحا لغير الرومان بتزاوج الأخوة من أخواتهم إلى أن اختفت هذه العادة القديمة بعد القرن الثالث الميلادي.

وتشير القرائن إلى أن الزواج بين الإغريق والمصريين كان غير معترف به في الإسكندرية ونقراطيس وبطوليميس بدليل أن هادريان أصدر قانونا لإباحته في أنطينوي بوليس وأن دستور الإيديولوجوس كانت تعتبر الزواج بين « المواطنين » (astoi) والمصريين زواجا غير شرعي. وتدل كثرة الزيجات المختلطة في الريف على أن القانون لم يحظره هناك.

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت بين طرفين رومانيين وتعتبر مشروعة (iusta matrimonia) ويسمى ذلك كثيرا ما زوج موظفون رومان من أجانب لكن هذه الزيجات كانت تعتبر غير مشروعة (matrimonia iniusta) وكان الأبناء ثمرة هذه الزيجات يعتبرون أجانب ويحملون أسماء أمهاتهم.

ويفرق القانون عند المصريين والإغريق والرومان تفريقا واضحا بين الأحرار والعبيد

وكان الطلاق في العصر الروماني ثلاث صور يجري عند الاسر طبقا وعند الأفراد وعند سيادة الدين المسيحي عند الكنيسة

وقد كان من حق المصريين والاغريق والرومان عمل وصيات وكانت وصايا الرومان تحرر باللاتينية ثم ترجم الى الاغريقية الى أن أصدر اسكندر سفيروس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الاغريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والاغريق وكانت وصايا الجنود الرومان والجنود المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يرتب الورثة طبقات تأتي في مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر ان يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر بدون كانت أخته تتساوى معه في مقدار النصيب وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفى قبل جدهم وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يعطى الأبناء الأسبقية في وراثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات مشاركة في الارث اذا لم يكن قد أخذن مهورهن وفي حالة زواج مواطنة من أجنبي كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا الزواج بأن يرثوا أمهم وفي حالة عدم وجود أبناء وأحفاد كان حق الارث يؤول الى الزوج أو الزوجة ثم يأتي بعد ذلك في المرتبة الوالد والشقيق ، وكذلك أعطى القانون الروماني للابناء الأسبقية وأنصبة متساوية في وراثة آبائهم

٢ ــ الأحوال العينية

وكان المصريون والاغريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة أو اتفاقات شفوية وفي حالة الانكار دين معتمد بمقتضى اتفاق شفوي كانت تتبع القاعدة المعروفة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »

وقد عرف أنه من أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون في عصر البطالمة يعرف وسائل أخرى لتدعيم العهد غير تسجيل العقود والنص فيه على شروط جزائية وقد بقيت هذه الوسائل جميعا معمولا بها في العصر الروماني بل ان ما لم يكن مألوفا منها بين الرومان مثل « البيع الوفائي » وما كانت القوانين تحظر على المواطنين الرومان ألا به مثل كتابة عقود ملكية تبين مرهونة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان أنفسهم

واذا كانت البطالمة حددوا سعر الفائدة ٢/ شهريا أو ٢٤ سنويا فان الرومان حددوا هذا السعر ١ شهريا أو ١٢/ سنويا وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان تفرض على المدين غرامة نص عليها في العقد كانت عادة نصف قيمة الدين الاصلي

وكان القانون عند المصريين والاغريق والرومان يعرف مثالية شركات تجارية أو

صناعته أو عبر ذلك لمباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان يحدد علاقة المزارع بعضهم ببعض عقد كتابي بحدد فيه حقوق كل شريك وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو مال أو مبنى أو ماشية أو سفن أو عمال ، وأباح لمستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطن لا إذا نص في عقد الإيجار الأصلي على خلاف ذلك.

وقد استمر المصريون في العصر الروماني يحررون عقدي المال والتنازل لكل صفقة من صفقات البيع . أما الإغريق فكانوا يكتفون عادة بعقد واحد يتضمن النص على استلام البائع ثمن المبيعة وتنازله عن كل حق له عليها . وكانت الدولة لا تضمن للمصريين حقوق ملكيتهم كاملة إلا إذا حررها الموظفون المختصون وأثبت انتقال الملكية في سجلات الخاصة بذلك وأديت الضريبة المقررة.

ثانيا – القانون الجنائي

وكان القانون الجنائي في العصر الروماني يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهي:

١ – الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقوة أو الفعل أو الاسرقة أو التهديد بالاعتداء ، واستخدام القوة لتحقيق مآرب معينة ، والسرقة ، والحاق الضرر بممتلكات الغير والسب والتدليس . وكانت اقامة الدعوى في كل هذه الجرائم من شأن المعتدى عليه وأسرته . أما في حالات معينة مثل غش موظفي الدولة فكانت الدولة هي التي كانت تقيم الدعوى.

٢ – الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة العامة وكانت تشمل التزوير في الحسابات واختلاس الاموال العامة وسرقة من ممتلكات الدولة أو ضياع الأباعرة . وقد يعد محظورا في العصر الروماني استخدام المحامين في القضايا التي يختصم فيها الأفراد مع الخزانة العامة.

٣ – الجرائم التي ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم الخيانة العظمى وإساءة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التي كانت معروفة في عصر البطالمة ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك وإنشاء الجمعيات السرية التي كانت تهيم على وجهها في أنحاء البلاد.

ثالثا – الهيئات القضائية

ان معلوماتنا عن النظام القضائي في مصر في عهد الروماني ضعيفة جدا حتى أننا كثيرا ما نجابه مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع إبداء رأي فيها ، لكننا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس هذا النظام وصاحب الكلمة العليا في كل أنحاء البلاد في القضايا المدنية والجنائية jurisdictio وكذلك imperium merum فكان

تسمح بحق مصادرة الأموال والحكم بالأشغال الشاقة في المناجم والمحاجر وكذلك الحكم بالإعدام ، ولم يكن هناك سبيل إلى الاستئناف من أحكامه سوى أمام الامبراطور .

وكان للمجلس القضائي للحاكم العام مستشارون متخصصون ومساعدون له يعرف أنهم كانوا يحضرون في الولايات الأخرى من جنسيه للتقاضي لكن ليس في استطاعة أحد أن يجزم بشيء فيما يتعلق بمصر وإن كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام في الشئون القضائية في مصر كان الديكايودوتس Dikaiodotes ولسنا نعرف إن كان هذا موظفاً اختصاصيًا قضائياً مستقلاً أو إذا كان يستمد سلطته القضائية من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط في اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا لهذا في حاجة إلى خبراء فنيين يعاونونهم في أداء مهمتهم القضائية فالمرجح أن الديكايودوتس كان المستشار القانوني للحاكم العام ويقوم بدور Legati iuridici في الولايات الرومانية الأخرى . وتحدثت الوثائق أيضاً عن موظف قضائي آخر كان له شأن كبير في الشئون القضائية في عصر البطالمة وهو الأرخيدكاستس .

وكان الحاكم العام يعقد مجلسه القضائي في الإسكندرية في شهرين من السنة ويقوم بالفصل في قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفي بلوزيوم في شهر مارس للفصل في قضايا مديريات شرق الدلتا ، وفي منف في شهرين

من مايو وابريل للفصل في قضايا باقي المديريات إلا أنه كان أحياناً يرى داعياً لعقد مجلسه القضائي في أماكن أخرى سواء في الدلتا أم في مصر الوسطى أم في مصر العليا .

ولم يستأثر الحاكم العام بالفصل في القضايا إذ يرى بعض الباحثين أن محاكم القضاة الأخصائيين chrematistae التي كانت موجودة في عصر البطالمة ظلت قائمة وأن الحاكم العام كان يعهد إليها في الفصل في قضايا المستعمرات ، وأن الأرخيدكاستس أيضاً كان يقوم بمثل هذه المهمة إما بمفرده أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الأخرى ، وأن الايديولوجوس كان يفصل في قضايا الخزانة الخاصة .

وكان رؤساء الأقسام الإدارية الرئيسية (epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام في الفصل في القضايا فضلاً عن أنهم كانوا يقومون بالتحكيم في المنازعات . وكان حكام المديريات (strategoi) أيضاً يفصلون في القضايا ، وإن كانوا بمضي مر الأيام فقدوا هذا الاختصاص فإنهم استمروا يؤدون ما كانوا يقومون به منذ عصر البطالمة من التحكيم في المنازعات ، وتقديم القضايا والمتهمين للمحكمة بعد الفشل في محاولة فض النزاع ودياً ، وعدم تحقيق مبدئي في القضايا ، وإلقاء القبض على مخالفي القانون .

ولكنه إذا كان الفلاحون يلجأون إلى شيوخهم ورجال الشرطة لفض منازعاتهم بدلاً من اتخاذ الإجراءات القضائية المعتادة

فصل رابع

الحياة الاجتماعية

أولا – عدد السكان وحالهم

في عهد نيرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أي معلومات عن عدد سكان الاسكندرية في العصر الروماني وان كنا نعرف أن الاسكندرية ظلت في هذا العصر أكبر مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعي في مصر والى مدى الامبراطورية الرومانية وبذلك يحتمل أن عدد سكانها لم يقل كثيرا عن عدد سكان روما . ويبدو انه إزاء تقدم الاسكندرية الصناعي والمالي ومباهج الحياة فيها وشظف الحياة وبؤسها في الريف المصري أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها منذ القرن الثاني مما حدا بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار في عام ٢١٥ بابعاد القرويين عن الاسكندرية . لكن لابد من أن هذه المدينة قد عانت كثيرا من المذابح والاعمال التعسفية التي حلت بها من جراء العداء بين الاسكندريين واليهود وبسبب كركلا على المدينة وثورتها ضد أورليانوس وضد [illegible] أ[illegible] نشاط الاسكندرية التجاري كان ينزل فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يعيشون فيها بصفة دائمة تقريبا .

وبينما كان أهل الاسكندرية يعيشون عيشة راضية هانئة لفرط نشاطهم الصناعي والتجاري مع قلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقي البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيء الى أسوأ بسبب تزايد التزاماتهم باطراد فترينا وثائق القرن الثاني ازدياداً مستمراً في عدد الذين كانوا يهربون من قراهم ، وعدداً غير قليل من الأوامر التي كان الحكام يصدرونها لحث المزارعين على العودة الى مواطنهم ؛ وأمثلة كثيرة على الالتجاء الى سلاح الارغام بزراعة الأراضي المهجورة وشغل المناصب العامة والبلدية . وتدل القرائن على أنه في القرن الثالث هجرت قرى بأكملها تقريبا في الفيوم ، وتفاقمت صعوبة شغل المناصب العامة والبلدية ؛ وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويتكسبون عيشهم من أعمال السطو والنهب . ولا أدل على هبوط مستوى المعيشة وفقر الأهالي في العصر [illegible] من أن الشاب الذي قدمه [illegible] التعداد وهو يمتلك عشر منزل [illegible] أنه كان

سكن في هذا الحجر لقصيدة سنة وعشرون سجعت. ولا شك في أن هذا الحجر لم يكن سوى نسخة واحدة مثل غيره من عشرات الحجارة القديمة التي كشفت الحفريات عنها في قرية كرانيس (كوم أوشيم) ، وهي مبنية من الطين وتتألف من عدد من الغرف الصغيرة على الطراز المألوف.

ثانيا — طبقات السكان

درج الرومان حسب سياسة البطالمة على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة في أوضاعها على النحو التالي :

١ — الرومان وكانوا الطبقة العليا في البلاد وقليلي العدد إذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسريحهم ورغبوا في الاستقرار في مصر. وقبل اندماجهم في هذه الطبقة كان يتعين فحص (epikrisis) حالة كل منهم لكي يتمتعوا هم وأولادهم بالحقوق والامتيازات التي كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها ، وكانت هذه الحقوق والامتيازات تشبه ما كان المقدونيون يتمتعون به في عهد البطالمة ، ولم يكونوا خاضعين مطلقا لمحاكم القضاء في المديريات التي كانوا يقطنون فيها ، بل لسلطة حكام الأقاليم (epistrategoi) والحاكم العام لمصر. ومما تجدر ملاحظته أن غالبية المواطنين الرومان لم يكن يحسب الوثائق معظمهم في القرن الثالث كانوا من الاغريق والسوريين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية.

٢ — الاغريق

أ) وضعهم وفئاتهم

كان الاغريق يتألفون من فريقين رئيسيين يعيش أحدهما في المدن الاغريقية ويعيش الآخر في المدن والقرى المصرية. وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين، فالفريق الأول كان يتألف من فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق في هذه المدن. وكان الفريق الثاني يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا منتشرين كبعض الفئة دون الاندماج في جماعات منظمة. أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة وحيثما كان يعيش عدد كاف من أفراد هذه الفئة كانوا في عاصمة كل مديرية يكونون جماعات منظمة تنظيما دقيقا حرصوا على أن يوفروا فيها من أسباب الحياة ما يتمتعون به في الحياة في المدن الاغريقية. وربما كان الجمنازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة المنتدى فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والعقلية ، فإنه حيثما أنشأ الاغريق مدينة أو جالية أنشأوا كذلك جمنازيوم. وكان هذا المركز الاجتماعي والثقافي والرياضي يتصل اتصالا وثيقا بنظم

تدريب الشباب ، وكان التعليم الفني الإغريقي بهذه المنظمة في مرحلة عشرة من عمره شرطا أساسيا لإدراج اسمه في قائمة مواطني المدينة أو عاصمته ويسمح له بدخول الجمنازيوم .

ومما يجدر بالملاحظة أن الجاليات الإغريقية كانت لا تتألف أصلا إلا من الإغريق لكن القرائن تشير إلى أنه في أواخر عصر البطالمة كان من الممكن أن يندمج فيها عدد من الأجانب ممن تتوافر فيهم شروط معينة من الثقافة الإغريقية كانت في مقدمتها ويعتقد أنه للتمييز بين الفريقين كان الإغريق من أعضاء الجالية يدعون «أهل الجمنازيوم» (hoi apo gymnasiou) ويسمى زملاؤهم من أصحاب المتأغرقين يدعون «الشركاء في عضوية الجالية» (synpoliteuomenoi). وإذا كان أعضاء الجاليات الإغريقية قد تمتعوا في عهد الرومان بإعفاءات حيث تمتع بامتيازات معينة وكان التسجيل في أي منها من الطبقات الممتازة يقتضي فحص حالة الراغب في ذلك وإثبات انتماء الأبوين إلى تلك الطبقة فإنه يبين من ذلك أنه لم يعد ميسورا اندماج غرباء متأغرقين في عضوية الجاليات الإغريقية .

ويبدو أنه من أجل المحافظة على العناصر الإغريقية في المدن التي كانت بمثابة نواة من الجاليات الإغريقية ووسائل ما كانوا يستمتعون به في المدن الإغريقية في مصر وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى وسوريا ، وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم المديريات ، عمل الرومان على نشر الجاليات الإغريقية وتركيزها في عواصم المديريات . ولعله بسبب تحقيق ذلك الهدف كان يوجد من الجمنازيا في القرى وأسبغ صفة رسمية على جمنازيا عواصم المديريات وإنشاء في تلك العواصم حمامات عامة وإضاءة شوارعها ليلا . واعتبر الرومان أعضاء الجاليات الإغريقية — سواء أكانوا ينحدرون من الأصل في تلك العواصم أم استقروا للمعيشة فيها — مواطني تلك العواصم ، كما اعتبروا «أهل الجمنازيوم» ، ومع أولئك المواطنين قصروا تقلد المناصب البلدية لا تسند إلا إليهم . ومما يجدر بالملاحظة أولا — أن مواطني عاصمة أي مديرية لم يشملوا كل سكان تلك العاصمة وحتى وإن كانوا من الإغريق وثانيا — أن أولئك المواطنين كانوا يطالبون الرومان بمعاملتهم إعفاء كاملا من دفع ضريبة الرأس على أساس أنهم من سلالة أرباب الإقطاعات . ولتفسير هذا المطلب يجب أن نذكر شيئين : واحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات إن لم يكن كلهم كانوا أصلا من رجال الجيش ولعلهم لذلك كانوا من سلالة أرباب الإقطاعات ، وثانيهما الأمر أنه إذا كان الرومان قد نزعوا ملكية بعض أرباب الإقطاعات فإنهم تركوا ملكية أراضي البعض الآخر ومنحوهم

امتيازات معينة كان من بينها فيما يبدو الاعفاء من ضريبة الرأس بصفة كاملة.

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة الرومانية كانت تضمن معرفة وتمييزه بين الاغريق الذين كانوا يعيشون في مدن مصر الاغريقية، وكذلك الاغريق والمتأغرقين الذين كانوا يعيشون في عواصم المديريات من ناحية، وبين المصريين من ناحية أخرى باعتبارهم dediticii، أي الأهالي الذين خضعوا للرومان بعد الفتح بلا قيد ولا شرط فوضعوهم في أسفل درك وفرضوا عليهم كافة الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت تعتبر رمزا مميزا لخضوعهم واستسلامهم.

وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من المعلومات المستمدة من وثائق بردية عن ضريبة الرأس أساسا للمناداة برأي آخر محدد وفحواه أن الحكومة الرومانية كانت تعتبر جميع سكان مصر «مصريين» أو بعبارة أخرى أجانب (peregrini) باستثناء مواطني الرومان ومواطني الاسكندرية وفيما يرجح مواطني نقراطيس وبطوليميس وانطينوبوليس وسلالة أرباب الاقطاعات في الفيوم وكذلك عددا معينا من كهنة كل معبد، وأن هؤلاء جميعا أعفوا من دفع ضريبة الرأس التي كان باقي سكان البلاد يدفعونها، غير أن أولئك الباقين لم يدفعوا هذه الضريبة بسعر واحد اذ أن مواطني عواصم المديريات كانوا يدفعونها مخفضة أما باقي سكان هذه العواصم وكذلك سكان القرى فكانوا يدفعونها كاملة. ومعنى ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تقسم الاغريق ثلاث فئات، كانت احداها تضم مواطني المدن الاغريقية وفيما يبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاعات في الفيوم، وكانت الحكومة الرومانية تضعهم في مصاف مواطني الرومان وتعفيهم من ضريبة الرأس اعفاء كاملا، أما الفئة الثانية فكانت عبارة عن مواطني عواصم المديريات وكانت الحكومة تعتبرهم أقل مكانة من الفئة السابقة وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة. أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاغريق من سكان القرى وعواصم المديريات والمدن الاغريقية على حد سواء وكانت الحكومة تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة.

ويعطي هذا دليلا على مدى اجلال الرومان للحضارة الاغريقية ورغبتهم في التمييز بين أكثر الاغريق تحضرا من ناحية وبين عامة الاغريق وجموع المصريين من ناحية أخرى. فلا عجب أن استبقى الرومان اللغة الاغريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل اللاتينية الا في الجيش أو في شرائح متعلقة بالقانون الروماني. وفضلا عن ذلك احتفظ الرومان للاغريق بالمناصب الكبرى التي تلي المناصب الرئيسية التي احتفظوا بها لأنفسهم.

وقد كانت لدى الطبقات الممتازة من الاغريق فرص واسعة للثراء، لكن التبعات الثقيلة التي ألقيت عليهم أنهكت كاهلهم

وسرعان ما [illegible] على مر الزمن ، بعد أنفسهم [illegible] كانوا مواطنين مدن الإغريقية بوجه عام والإسكندرية بوجه خاص . ومع ذلك فإن الشواهد تدل على أنهم لم ينظروا بعين الرضى إلى حكم الرومان . وتجدر الإشارة إلى أن عداء الإسكندريين لليهود كان يخفي في طياته عداءهم للرومان ، وذلك لأن معاداة اليهود كانت أسلم عاقبة من معاداة الرومان عداء سافراً . وتجدر الإشارة كذلك إلى أن «أعمال الإسكندريين» التي صادفت رواجاً كبيراً لا في الإسكندرية فحسب بل في كل أنحاء البلاد كانت تعبر عن كراهية الإغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان . وهذا أمر يدل على أن الإغريق بوجه عام كانوا يكرهون الحكم الروماني كرهاً شديداً ويتمنون زواله .

وتحدثنا وثيقة من القرن الثاني للميلاد أن التزاوج بين الإغريق والمصريين كان يعتبر غير مشروع في نقراطيس ، ومن المرجح أن ذلك كان الحال أيضاً في الإسكندرية وبطوليمايس بسبب الرغبة في المحافظة على العنصر الإغريقي . فلماذا إذن أبيح التزاوج في أنتينوى بوليس ؟ يرجح البعض أن يكون السبب في ذلك هو رغبة الإمبراطور هادريان مؤسس هذه المدينة ، في منح المصريين منحة عن طريق مزجهم مع الإغريق في بيئة مشبعة بالتأثيرات الإغريقية . لكن لو صح أن هذا كان هدف الحكومة لكانت محصلته لم تأت في المدن الإغريقية الأخرى التي كانت معاقل قديمة للحضارة الإغريقية وذات تقاليد عريقة وتضم أعداداً أكبر من الإغريق ويسمح فيها بالتزاوج بين الإغريق والمصريين على نطاق واسع . ولعل السبب الحقيقي في إباحة التزاوج في أنتينوى بوليس هو أنه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الإغريق إلى هذه المدينة مما اقتضى الاعتماد في تكوين هيئة مواطنيها على كثير من المصريين الذين لابد من أنهم كانوا من المتأغرقين تيسيراً للتآلف بينهم وبين رفاقهم من الإغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ونموها نص في دستورها على إمكان التزاوج بين العنصرين . ونعتقد أن لهذا النص دلالة ذات مغزى ، فهذا النص ينطوي ضمناً على أن التزاوج كان غير مشروع على الأقل في المدن الإغريقية الأخرى وإلا لما نص على إباحته في أنتينوى بوليس . بقي أن نتساءل عما إذا كان التزاوج محظوراً خارج المدن الإغريقية الثلاث الأخرى (الإسكندرية ونقراطيس وبطوليمايس) ؟

يبدو مما أسلفناه أولاً أنه في العصر الروماني كان يعيش خارج هذه المدن الإغريقية الثلاث فريقان من الإغريق كان أحدهما عبارة عن مواطني عواصم المديريات الذين كانوا يؤلفون صفوة مختارة ، وكان الفريق الآخر عبارة عن الإغريق الذين لم يكونوا صفوة مختارة في حواضر مديرياتهم أو كانوا أعضاء في جاليات ، وأكثر الظن أن السواد الأعظم منهم على

الانتقال الى عواصم المديريات ونستطيع للكلام عن أفراد هذا الفريق أن نطلق عليهم عامة الاغريق . وكان أ . يستحسن في طبقة من الطبقات الممتازة ، كان يقضي بحث حالة الراغبين في ذلك للتأكد من انتماء الاغريق في كل حالة الى تلك الطبقة . واذا جاز أن القانون كان لا يحظر التزاوج بين مواطني عواصم المديريات وبين المصريين فانه كانت تحظره مراعاة لمصالح الآباء أو سائر المواطنين ، أي ضمانا لمصالحهم في الطبقة الممتازة ، والواقع أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجالا للشك في أن التزاوج كان محظورا بين الذين ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة . وبما أن عامة الاغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية ممتازة ، فانه لم يحظر تزاوجهم مع المصريين قانون ولا مراعاة لمصالح . ونتيجة لطول استقرارهم في البلاد وعدم ممارستهم أساليب الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالي البلاد وتعبدهم الى الآلهة المصرية أصبحوا شديدي الشبه بالمصريين وتزاوجوا معهم ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم

(ب) حضارة الاغريق :

ولا جدال في أن المدارس والمعاهد الاغريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية التي كانت تعتبر أساس آفاق التفكير الاغريقي ومدى عقولهم ونفوسهم . . .

ولا جدال أيضا في أن الآداب والفنون كانت أسمى مظاهر هذه الحضارة التي ظلت الاسكندرية أهم مراكزها في العصر الروماني ونصيبها بعد . . . الاغريقية منتشرة في مصر طوال هذا العصر . فشهدت الاسكندرية عددا كبيرا من الفلاسفة والكتاب والجغرافيين مثل فيلون وجالينوس وكلاوديوس وبطلميوس ، وكان للأقاليم أيضا نصيبها في هذه الحركة الأدبية فقد وجد الشاعر اليبرس وبوحوركس في نقراطيس والفيلسوف الوطني في أسيوط (ليكوبوليس) ، والبرديات الوفيرة التي كشف عنها في أوكسيرينخوس (البهنسا) — وكانت عاصمة احدى مديريات مصر الوسطى — خير شاهد على شغف المثقفين في هذه العاصمة الريفية بقراءة مختلف ألوان الأدب الاغريقي الى حد يثير الدهشة . فالبرديات لا تقتصر على عيون الأدب الاغريقي القديم مثل أشعار هوميروس وقصائد هيسيود بل تتضمن كذلك أغاني سافو وروايات ميناندر وقصائد كاليماخوس فضلا عن كثير من المؤلفات التي كان بعض الباحثين المحدثين يظنون أنها لم تكن متداولة حينذاك مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين كألكايوس وغيره من منظومات بندار والشعراء المصريين وكذلك روايات سوفوكليس المفقودة وروايات سوفوكليس ويوريبيدس واسطوفانيس . وما لم تكن لأوكسيرينخوس أي ميزة خاصة على أي

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد من أن الحال كان مماثلا فيها حيث وجد بدر على أمرين وأحدهما وجود جمهور كبير من الشعراء وبما يدل على وجود تجارة الكتب في بكيب ، والأمر الآخر أنه كان في مصادر تشمل في طيبة البلاد وعرضها مجموعة كبيرة من المؤلفات الاغريقية التي لم تصنف من الا بعد طبعها

وبقدر ما كانت الأمية فاشية بين عامة الاغريق كان الرؤساء وأهل الطبقة الوسطى منهم يقبلون على التعليم . وكان التعليم الاغريقي يعنى بتربية الجسم والعقل معا ، وكانت التربية البدنية تشمل الألعاب الرياضية وكذلك التدريبات شبه العسكرية الخاصة بالشباب . أما التربية العقلية فكانت على ثلاث مراحل تسير أولاها لمدارس الأولية ويرجح أنها كانت من الطراز الاغريقي المألوف ونستطيع أن نتبين مما عثر عليه من الأدوات التي كان التلاميذ يستخدمونها بكثرة كسر الفخار والالواح الخشبية المكسوة بالشمع والاوراق الردية ، انهم في المرحلة الاولية كانوا يتعلمون القراءة والكتابة مرتبين بادئين بالحروف الأبجدية فمتكونين مقاطع فالكلمات فالجمل ثم نقل فقرات من — منه والتمرين على الاملاء والانشاء وكان التلاميذ يدرسون الأدب وبعض الحساب . وكانت أشعار هوميروس تستخدم على نطاق واسع في كل مراحل التعليم فقد كان التلاميذ يكلفون بنقل بعض الأبيات للتمرين على كتابتها أو شرحها والتعليق عليها أو بكونها مادة تمرين في الاملاء . وكان يعنى بهذه الناحية عناية كبيرة فقد كان المدرسون يختارون كثيرا من الحكم والامثال لتمرين التلاميذ على كتابتها

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة على أبناء الصفوة المختارة في عاصمة كل مديرية وهي التي كان يطلق عليها « الجمنازيوم » فقد كانت تلك الطبقة تألف من التحصيل في مبانيها منظمة لتدريب الشباب وتمرس في الجمنازيوم اذ كان الالتحاق بهذه المنشأة يضمن حق الالتحاق بالجمنازيوم ويقتضي انتماء الأب الى هذه الطبقة والحدار الابن من أبوين حرين وكان التلاميذ يدرسون في هذه المرحلة النحو والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضيات ويبدو أن الذين كان يعز عليهم دخول الجمنازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم بمتابعة الدراسة كانوا يلجأون الى مدرسين خصوصيين لهذا الغرض . وكان ذلك أيضا حال الذين يريدون تعلم مواد خاصة مثل الموسيقى أو الاختزال . ومعنا وثيقة تدل أن أحد مواطني أوكسيرينخوس أرسل عبده لتعلم الاختزال على يدي معلم مختص حدد مدة الدراسة بعامين على أن يقتضي أجره على ثلاث دفعات ، كانت الاولى في البداية والثانية والثالثة عند بلوغ العبد مرحلتين معينتين من التقدم

أما المرحلة الثالثة أو مرحلة التعليم العالي فمعاهده كانت مركزة في الإسكندرية وإن كانت الوثائق تشير إلى وجود أساتذة جامعة الإسكندرية في أنحاء مختلفة في البلاد. وقد كانت جامعة الإسكندرية أساسا معهدا للبحث أكثر منه للتدريس ويلاحظ أنه كان متروكا لأساتذتها مطلق الحرية في أن ينصرفوا إلى البحث كلية أو في إلقاء محاضرات إلى جانب القيام بأبحاثهم. لكن في القرن الثالث عندما أوقفت الحكومة الإنفاق على الجامعة لم يجد الأساتذة أمامهم مفرا من التدريس أو أداء أي عمل آخر لكسب عيشهم. فنجد مثلا أحد أساتذة الجامعة يشغل منصب نائب مديرية الفيوم ولا جدال في أنه كان يتعذر القيام بمهمة التدريس بانتظام في الإسكندرية في خلال الأعوام الثلاثة التي تولى فيها منصبه الإداري في الفيوم. وعندما أسس بنتانوس (Pantaenus) مدرسة مسيحية الكبرى في الإسكندرية في القرن الثاني لم تعد الجامعة المركز العلمي الوحيد هناك، فقد نافست المدرسة على اكتفاء أساتذة عظام فاقوا أساتذة الجامعة الوثنية وكان لنشاطهم آثار ملموسة ونتائج باقية على الزمن.

ويتبين من الوثائق البردية أن الإغريق بوجه عام كانوا ميالين إلى متعة البهجة في مواسمهم بإقامة مختلف الولائم بمناسبة أو النسب وإقامة الحفلات الخاصة بأعياد ميلاد والمناسبات الاجتماعية الخاصة الأخرى وفضلا عن دعوتهم في الأعياد الدينية وأعياد جلوس الأباطرة على العرش وعيد ميلادهم كانت تقام حفلات عامة يحضرها الأهالي جميعا في مهرجانات. وإلى جانب ذلك كانت تقام من حين لآخر حفلات رياضية يتبارى الناس فيها في مختلف الألعاب الرياضية من جري وملاكمة ومصارعة وما إلى ذلك. وكانت توجد حتى في عواصم المديريات مسارح أو قاعات للموسيقى كانت تمثل فيها عادة الكوميديات الهجائية والتمثيليات الهزلية ومن حين لآخر روايات من التراجيديات الكلاسيكية ومن الكوميديا الجديدة. وكانت تطوف البلاد فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية.

٣ ـ اليهود

لقد مر بنا عند الكلام عن عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن أكثرهم كانوا يعيشون في الإسكندرية وأن البطالمة منحوا الجالية اليهودية في الإسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأي جالية أخرى في أي مدينة مصرية لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين. وفي كنف الرعاية التي أسبغها اليهود عليهم في عهد أكثر ملوك البطالمة دعموا جانبهم وزاد عددهم حتى بلغوا في أوائل عهد الرومان مليونا، منهم كان خمسهم يعيشون في الإسكندرية. وقد عرف أن الرومان

أفراد الاسرات التي اكتسبت الجالية اليهودية في الاسكندرية منذ عهد البطالمة تكشف عن ... على ... هذه الجالية ويهود ... الرابع ...

ويحدثنا ... بأن يهود الاسكندرية كانوا يتكونون من الفئات التالية

١ — أصحاب رءوس الأموال ٢ — المشتغلون في النقل البحري ٣ — كبار التجار ٤ — الصناع وأصحاب الحرف ٥ — المشتغلون بالزراعة في الأراضي المحيطة بالاسكندرية. وتشير الدلائل الى أنه منذ عصر البطالمة كان يهود الاسكندرية يميلون الى اتخاذ أسماء اغريقية ويرتدون ملابس اغريقية ويقبلون على تعلم الاغريقية والتزود من الثقافة الاغريقية. واذا كان بعضهم قد خرجوا عن اليهودية أو صاروا ... فان أغلبهم استمسكوا بديانتهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم. ولا أضف الى ذلك ... الرومان أدركت ... كان يهود في نظر الاغريق عنصرا غريبا عنهم كرهوا اليهم لا يندمجون في مجتمعهم ويرون الخير كل الخير في قطع دابرهم مما أفضى الى تلك المنازعات الدامية التي سبق الكلام عنها

وكان المجتمع اليهودي خارج الاسكندرية يتكون من الفئات التالية

١ — أصحاب الأراضي ٢ — أصحاب ... الحرف من المشتغلين بالتجارة و... في البحر الأحمر والهند

٣ — أرباب المهن الوضيعة والعمال الزراعيين واذا كان أكثر يهود الريف ... أنفسهم بالاغريق فانه لم ... لهم بالاندماج في المجتمع الاغريقي. أما جموع يهود الريف فكانوا يشاركون المصريين بيئتهم ويمارسون المهن والحرف ذاتها بل أن القرائن تدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فشاعت الأسماء المصرية بينهم بل عثر في مصر الوسطى على تابوت خشبي يحمل صورة مصرية ويحتوي على مومياء محنطة كما عثر أيضا في الفيوم على مومياوات ... أسماؤها وأسماء يهودية، ومع ذلك ازاء هذه الأدلة التي ... صاحب العقل بأن كل يهود الريف قد تأثروا بالبيئة المصرية الى حد أنهم كانوا جميعا يحنطون جثث موتاهم. فقد ... بعضهم في الريف أسباب الاحتفاظ بديانتهم وممارسة حياتهم الخاصة اذ أن القرائن تشير الى أنهم في الوجهين البحري والقبلي كانوا ينتظمون في جاليات لكل منها معبدها والى أنهم في بعض المدن مثل ارسينوي وأوكسيرنخوس وادفو كانوا يقيمون في أحياء خاصة بهم. وتشير القرائن أيضا الى أن ثورة ١١٥ — ١١٧ لم تفض الى القضاء على المجتمع اليهودي في الريف المصري، وكل ما في الأمر ... هذا المجتمع قد أصابته ... من الكوارث ... ساطة من جديد

واذا كان الرومان قد ... على

اليهود بالاعتراف بهم بأن لهم القدسة فإن اليهود لم يرضوا عن الرومان لأنهم قضوا على اندماج يهود الاسكندرية في عداد مواطني المدن اليونانية وبين حصولهم على حقوق الاسكندريين لهم وفرضوا على يهود مصر ضريبة الرأس كاملة ، وكالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورة فلسطين في عام ٦٦ حتى أفضى إلى ثورتهم الخطيرة في عهد تراجان التي كانت محاولة يائسة جريئة للتخلص من نير الحكم الروماني . ولا يدل استسلام اليهود بعد ذلك وتسليمهم للرومان على رضائهم عن الحكم الروماني بقدر ما يدل على رضائهم بحكم الظروف التي كانت أقوى منهم .

٤ ـ المصريون

(أ) فئاتهم

كان المصريون في العصر الروماني يتألفون من عدة فئات ، كانت فئة الكهنة أعظمها شأنا وأرفعها مقاما وأوسعها نفوذا عندما جاء الرومان إلى البلاد . إثر البطالمة الأوائل في اضعاف قوة رجال الدين المصريين ، فاستولوا على ملكية جانب من أراضي المعابد وأشرفت الحكومة على إدارة جانب آخر من هذه الأراضي ووضعوا جانبا الدخل لخدمة ... وأصبحوا عند ... التي ستلحق ... اللاحقين فيها . وإذا كانت الحكومة الرومانية قد أعفت أول الأمر عددا معينا من كهنة كل معبد من دفع ضريبة الرأس فإنها فرضت بعد ذلك على تقلص هذا العدد . ولا جدال في أن العامة المصريين من ... رجال الدين المصريين حفظوا معابدهم القديمة الخاصة التي كانوا ... ويحافظون على محافظة عليها ويصممون على بث تعاليمها في نفوس مواطنيهم . ومع ذلك يصعب أن نتصور أن المصريين منهم على الأقل لم يأخذوا بقسط من الثقافة الاغريقية .

وكانت ثانية هذه الفئات في الأهمية فئة أصحاب الأراضي وكانت أفرادها على شيء من اليسر ودأب كثير منهم على التشبه بالاغريق فتعلموا الاغريقية واتخذوا أسماء اغريقية وملابس اغريقية وتزاوجوا مع عامة الاغريق المنتشرين حولهم في أرجاء البلاد . ومع ذلك لم تكن صبغتهم الاغريقية إلا طلاء خارجيا فقد كان من العسير تغيير صلتهم بالماضي وتغيير طابع عقليتهم أو دخائل نفوسهم بسبب استمساكهم بديانتهم التقليدية . وعلى كل حال من الراجح أن صبغتهم الاغريقية لم تكسبهم أي ميزة من ناحية وضعهم القانوني بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوهم بمواطني المدن الاغريقية ولا حتى بمواطني عواصم المديريات ، ولم تعتبرهم إلا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات . بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حظا من غيرهم من المصريين إذ أن الأمر في حالتهم لم يقف عند حد أداء الضرائب المفروضة عليهم

بل كان يتعدى ذلك الى الاسهام في زراعة الأرض بمجهوده وسداد الضرائب المفروضة عليها. وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تجند منهم فصائل من الشرطة تتحلى بالاعتزاز بالاغريقية ولا بد انهم من أجلها كانت تستطيع أن تستولى منهم استحقاقاتها في حالة قصورهم عن النهوض بالتزامات وظائفهم على نحو يحقق بها أغراضها كاملة. وبهذا كان يتكون جانب من هذه الفئة فئة محاربين المصريين التي ارتفع شأنها في العصر الثاني من عصر البطالمة ومنح أفرادها اقطاعات لا بأس بها. وعلى كل حال فانه لم يعد لفئة المحاربين المصريين القديمة كيان مستقل في العصر الروماني فقد منع المصريون من الانخراط في سلك الفرق الرومانية حتى في القرن الثالث عندما اضطر الرومان الى التجنيد بسبب فالرومان لم ينسوا ما حدث في عصر البطالمة عندما أدى الاعتماد على المصريين في موقعة رفح (عام ٢١٧ ق.م) الى انتعاش الروح القومية في البلاد واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالمة. ولذلك كان التجنيد يعني في العصر الروماني — على الأقل حتى منح المصريين حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى دستور كركلا — مقصورا على الاغريق والمتأغرقين المقيمين في مصر. ومع ذلك كان يسمح للمصريين بالخدمة في أسطول مسيرة فقط.

وكان يأتي في مؤخرة الموجهة عامة المصريين، وكانت غالبيتهم العظمى تشتغل بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات. وقد فرض الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأهمها ضريبة الرأس كاملة وحرموا عليهم استعمال اللغة الاغريقية حتى في عقود معاملاتهم الخاصة.

(ب) حضارة المصريين

واذا كانت الأمية متفشية بين عامة الاغريق فلا جدال في أنها كانت متفشية كذلك بين جموع المصريين الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، متمسكين بدياناتهم الى أن اعتنقوا المسيحية طوعا أو كرها.

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعيش بمعزل عن الحضارة الاغريقية فلم يظفر بحظ منها الا قلة قليلة. واذا كانت المعابد الكبرى قد احتفظت بالمدارس الملحقة بها فقد تعطل ذلك المعهد الكبير الذي ظهر فيه بعض هذه المدارس شأو بعيدا، وورثت مدارس المعابد عن تلك المملكة السابقة جامعة الاسكندرية ومكتبتها الكبرى. ومن المؤكد أن من حصلوا على التعليم الاغريقي وعرفوا الأمية من جموع المصريين وخصوصا ... الاغريقية حتى في العقود الخاصة لأنهم لم يكونوا يستطيعون ابدا في الأمة الغريبة ... الى حد ... الى

علاوة على ذلك، ولعل أهم ما يشهد بانتشار المسيحية في مصر في عهد [illegible] انشاء مدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية التي كان لها عظيم الأثر في [illegible] واستمرار الاعجاب بهوميروس في المدارس التي كانت منتشرة في عواصم المديريات وسوف نتكلم عنها في معرض الحديث عن التعليم الاغريقي

(جـ) ثورات المصريين

ورغم تفشي الفقر الذي انتهى اليه كفاح المصريين ضد البطالة، ورغم القسوة الكبيرة التي وضعها الرومان في مصر فانه لم تكد تمضي شهور قليلة على الفتح الروماني حتى هب المصريون ثائرين على الحالة الجديدة وقد رجع ثورة الثورة ضد الرومان [illegible] طيبة التي مر بنا أنها أنهكت [illegible] البطالمة بزعامة الحركات الثورية [illegible] منذ عهد بطلميوس التاسع الى أن [illegible] حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتخريبها تخريبا. ويبدو أن الثورة تجددت [illegible] من الخطورة حد اضطر معه أول حاكم روماني لمصر (كورنيليوس جالوس) الى تجريد حملة قوية لقمعها. ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل [illegible] فيها الدلتا أيضا اذ أن [illegible] يحدثنا بأنه

عندما ثار [illegible] هيروونبوليس (تل المسخوطة في شرق الدلتا) [illegible] عليها كورنيليوس جالوس وأخضعها

ولا تذكر المصادر القديمة شيئا عن ثورة عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة بحرب الرعاة التي وقعت في عام ١٧٢ في منطقة بوكوليا السبخة شرقي الاسكندرية وقد تزعم هذه الثورة كاهن مصري يدعى ايسيدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من مزارعين تشكو من القسوة [illegible] العاملة الرومانية في سلطتهم [illegible] من هزيمة الكتائب الرومانية التي تصدت لهم، حتى خيف من وقوع الاسكندرية في قبضتهم [illegible] اقتضى استدعاء نجدة من سوريا على رأسها افيديوس كاسيوس حاكم تلك الولاية (عام ١٧٥). وقد لجأ افيديوس الى حيلة [illegible] حتى نجح في بث الفرقة في صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين وانتصر عليهم [illegible] الامبراطورية امبراطورا لكنه لم يلبث أن لقي حتفه بعد ذلك بقليل

وليس أبلغ في الدلالة على سوء الحكم الذي أقامه الرومان في مصر من أنه لم [illegible] من أي عنصر ممن كانوا يعيشون في مصر [illegible] سواء أكانوا من الاغريق أم اليهود أم المصريين.

الفصل الثامن

الآداب والعلوم والفنون

نرجح أنه في العصر الروماني كانت الإسكندرية لا تزال مدينة عظيمة وتعتبر ثاني مدينة في الإمبراطورية الرومانية بعد روما مباشرة وأن الرومان كانوا يعطفون على الحضارة الإغريقية ويحترمونها ويكلأون جامعة دار العلم بالإسكندرية برعايتهم. لكن الإسكندرية لم تعد عاصمة دولة خطيرة ومصر بلاد قصور كان منبع نشاط حيث جعلها عاصمة الحضارة الإغريقية وعنى بأن يجذب إليها أبرز رجال الفكر والفن وبأن يوفر لهم من الرعاية ما يحفز هممهم ويشحذ قرائحهم. ومع ذلك فإن الإسكندرية نابضة نشاطها وكان لها نصيب الأسد في حياة مصر العقلية وإن كانت لم تحتكر اجتذاب البارزين من رجال الفكر والفن فقد وجد في الفراعنة ... ثيودوروس ويوسيكوس، وفي بيكوريبس (أسيوط) الفيلسوف أفلوطين. ولا أدل على احتفاظ الإسكندرية بمكانتها العلمية مما يشير إليه معاصرو ... القديمة من ... الباحثين من الغرباء كانوا يفدون عليها حتى القرن الثاني الميلادي ... من ... مثل ... تارخ ... كومر

لعلمهم بوجود ... أو ليعرضوا مواهبهم في مرافقها العلمية مثل ديون وأمثاله ... وقد ... فضلا عن الكثيرين من الطلاب الأجانب الذين ظلوا يقصدون الإسكندرية لتلقي العلم فيها وخاصة الطب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل.

أولا - الآداب

١ - دار العلم (الجامعة) والمكتبة

وقد استمرت الجامعة مدة طويلة مركزا للبحث العلمي ومقرا للعلماء لتستضيفهم فيه الدولة على نفقتها وتجري عليهم المرتبات وإذا كان الأصل في التعيين في الجامعة أن يتوقف على مكانة الشخص العلمية أو الأدبية فإن القيصر الذي يوصي بأن المعاهد لم تلبث أن ... مثلا من هادريان رجلا يدعى بنكراتس كل ما يعرف عنه أنه ... قصيدة لأمير اطور ... في ... وصل إلينا جزء منها. ولعل في ذلك الوقت الذي بدأت ... حال الجامعة عندئذ بعض ... الذين ... والنشاط الرياضي ... الرياضيين ... أصحاب

الامبراطور كلاوديوس الى مبنى الجامعة متحفاً جديداً سمي باسمه وكانت تتلى فيه بوصفه مؤلفات هذا الامبراطور المؤرخ. ولا شك في أنه [illegible] في مجال الفهم [illegible] الأبيض على الجامعة كان لذلك أثر سيء على النشاط العلمي إذ أنه لم يعد في وسع الاساتذة الانصراف الى بحوثهم مع إلقاء بعض المحاضرات من حين لآخر بل أصبح يتعين عليهم التدريس أو أداء أي عمل آخر لقاء أجر يعيشون منه. وقد نزلت بالجامعة نكبة أخرى في عام ٢٦٩-٢٧٠ عندما احتل جنود زنوبيا بروخيون وأوسعوه نهباً وتخريباً ولم تنج مباني الجامعة من هذا التدمير الذي لم يقض على كل حال على القضاء على الحياة العلمية والأدبية في الاسكندرية إذ ظلت متمسكة بها واشتهر بها فيما كتبه المؤرخ أميانوس ماركليانوس حتى نهاية القرن الرابع الميلادي.

وقد عرفت أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصري في خلال حرب الاسكندرية في عام ٤٧ ق.م. وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له، ذهبت المكتبة الكبرى طعمة للنيران ويقال أن انطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد من مكتبة برجاموم. وقد كانت توجد في الاسكندرية مكتبتان أخريان، كانت احداهما ملحقة بمعبد السرابيوم وكانت الأخرى ملحقة بمعبد قيصر. وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من مصادر ومراجع الى أن ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التي قام بها جنود زنوبيا والبعض الآخر ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة.

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية في العصر الروماني ما بدأه أسلافهم في عصر البطالمة من تحقيق النصوص الأدبية ونقدها والتعليق عليها. وقد كان من أبرز هؤلاء النحاة ديونيسيوس الذي ذاعت شهرته في عهد تيبريوس الى حد أنه دعي للتدريس في روما. وقام معاصره پامفيلوس بجمع عدد هائل من التعبيرات النادرة التي استخدمت في الآداب الكلاسيكية. وكلف اريستونيكوس بالدراسات الهومرية فشرح [illegible] [illegible] وتفسيرها وأكملها. وحوالي الوقت ذاته أخرج ليون معجماً للتراجيديا والكوميديا ووضع [illegible] لأعمال شعراء الدراما وبوليبيوس الرودسي. وذاعت أيضاً عندئذ شهرة پيون الذي نال تقدير تيبريوس وان كان الامبراطور [illegible] [illegible] بالادعاء بنفسه. وقد ألف أپيون معجماً للأشعار الهومرية [illegible] [illegible]. وقد كان أبرز فقهاء القرن الثاني يوليوس بولوكس و[illegible] ونيكانور وهليودوروس.

٢ ـ الشعر

يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا بين آدابها في العصر الروماني . فالاسكندرية لم تعرف في هذا العصر شاعرا فذا وحيدا يذكر مقدرته بكاليماخوس أو أبولونيوس أو ثيوكريتوس ، وإن عرفت جمهرة من من الشعراء المغمورين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الاسكندري من حيث تعلقه من العواطف النسيبية والشعور بالتقرب نحو الآلهة القديمة وكذلك من حيث تكلفه بأدق العلم المختلفة وتصوير مشاعر الانسانية والاشادة بالحياة السهلة لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين وإنما يصطنعون الشعر اصطناعا . ويمثل أبرز أوساط الشعراء المتواضعين اثنان كان أحدهما ديونيسيوس الاسكندري الذي عاصر هادريان وألف قصيدة جغرافية وصف فيها ليبيا والجانب الأكبر من آسيا وأوربا معتمدا في ذلك على خريطة العالم العلمي اراتوسثينيس . وقد قدر لهذه القصيدة أن تعمر طويلا فقد ترجمت الى اللاتينية واستخدمت في تدريس الجغرافيا في المدارس . أما الشاعر الآخر فانه كان من أبناء واحة سيوة ويدعى سوتريخوس وألف قصيدة في وصف مسقط رأسه وأخرى في مدح الامبراطور دقلديانوس وعددا آخر القصائد عن ديونيسوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات .

٣ ـ النثر

وقد تأثر نثر الاسكندرية في العصر الروماني باتجاهات مدارسها الفلسفية التي تمتعت بمكانة كبيرة ولا سيما أن الفلاسفة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم كانوا يعتبرون في ذلك العصر أنبياء منقذين . وإذا كانت مختلف المدارس الفلسفية القديمة قد تابعت نشاطها فان الفيثاغورية الجديدة احتلت مكان الصدارة فيها الى أن اندمجت في خلال القرن الثالث في الأفلاطونية الجديدة . وكانت الفيثاغورية الجديدة تتألف من عناصر استمدت من الفيثاغورية القديمة ومن مذاهب الأفلاطونيين والمشائين والرواقيين وتمتزج مزجا على نحو يلائم الاتجاهات الدينية المعاصرة فقد وجهت عناية خاصة الى التأملات الدينية والمذاهب الخلقية . وقد كان للفيثاغورية الجديدة أثر كبير أولا في الأفكار اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندري وثانيا في الأفكار المسيحية عن طريق كليمنس (Clemens) وأوريجينيس (Origenes) وثالثا في الأفلاطونية الجديدة .

ويعتبر فيلون أعظم المفكرين اليهود الذين يمثلون التقاء اليهودية والاغريقية كما تعتبر مؤلفاته نموذجا لانتاج يهود الاسكندرية الأدبي في العصر الروماني ويبين مدى تأثر فيلون بالفلاسفة انه يحدثنا من انه استعار منهم الكثير من أفكاره ومنهجه في وضع فلسفته من كتاب فلسفية العرج

بالفلسفة اليهودية من جهة تصل الى أوج وسع نطاقه تحت سيطرته من كل مظاهر الحضارة المصرية. وعندما قدم الشعوب شرح التوراة والمعنى عندهم ... دلالات باطنية الرمزية على نمط المدرسة الفيثاغورية الجديدة للتعبيرات الشخصيات الدينية في التوراة من مجردة رموز للافكار المجردة واكتسبت بعض الاسطورية مظهر جديد جعلها رموزا للافكار مرهفة نبيلة.

وقد كان كليمنس ومن بعده اوريجنيس أبرز أساتذة مدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية. وبفضل هذين الاستاذين اتجاه جديد للمفكرين المسيحيين بمناسبة الوثنية عداء شديدا يكشف عن ضعفها ويرد الاعتداء عن المسيحية — بحيث الاتجاه الجديد بدعوة الى الالمام بثقافة العصر واستخدام أساليب الفلسفة في نشر العقيدة المسيحية وتفسيرها. وقد جمع كليمنس الى قوة ايمانه بالمسيحية الالمام الواسع بالادب الاغريقي وبلغ حد كبير للتوفيق بين الثقافة الاغريقية والديانة المسيحية. أما اوريجنيس فانه كان اقل من كليمنس المام بالأدب الاغريقي لكنه كان أعمق منه تفكيرا وأدق فهما للمذاهب الفلسفية وأكثر دراية بمناهج البحث العلمي وأوسع قدرة على الابتكار. وقد ... المدرسة المسيحية في ... نص للانجيل ... وقد اختلف الباحثون في تقدير طبيعة ... المسيحية

ومبادئ ... النسك ثم يرى الملائكة الى حيث الكنيسة.

وقد كانت الافلاطونية الجديدة مزيجا من فلسفة افلاطون وارسطو ... والشعائر الدينية الجديدة. وقد أصبحت الافلاطونية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند الوثنيين من حوالى منتصف القرن الثالث حتى قضى جوستنيانوس باغلاق المدارس الوثنية في عام ٥٢٩. وكان ابرز مفكري هذه الفلسفة امونيوس سكاس Ammonius (Saccas) الاسكندري وافلوطين الأسيوطي وتلاميذ افلوطين.

وكان من اوسع كتاب الاسكندرية في اواخر القرن الثاني عشر واكثرها ثقافة اثينايوس Athenaeus المصري الذي اكتسب شهرة كبيرة بكتابه الضخم مأدبة الفلاسفة. وقد حاول أن يصور في كتابه بعض الفلاسفة القدامى في عرض آرائهم في شكل احاديث المآدب لكنه لم يرق الى مستواهم. وقد ذهب في مأدبة الى ... أيام دار فيها الحديث في الفلسفة والأداب والقانون والطب وغير ذلك من الموضوعات التي مثلها عدد من شخصيات أخرى. المؤلف على ... مقتطفات استمدها من عدد كبير من الكتاب.

وقد جمع اخيلس تاتيوس Achilles Tatius مؤلف قصة لوكيبي وكليتوفون Leukippe and Klitophon ... في ... وأحاسيس ... العصر

اليوناني في الشام عليه. وأبرز ما يتصف به هيرون تحمسه الواضح على مثاليه وميله إلى إثارة مشاعر القارىء مما أدى إلى مبالغته في الوصف وأسلوبه الذي يتسم بالحيوية.

وتتسم كتابة التاريخ في هذا العصر بالتأثر في بعض أكثر من جوانبه بحركة الحضارة الهيلينية. ويعتبر تيماجينيس (Chemaux) خير من يمثل هذه الظاهرة التي تتضح في مؤلفه « تاريخ جديد للإسكندرية في لوحات كثيرة ». ويبدو أن هذا التاريخ مجموعة من القصص التي تروق للمؤلف و... ولعل أبيانوس (Appianus) كان أبرز مؤرخي الإسكندرية في هذا العصر لكن مؤلفه الضخم في التاريخ الروماني أكثر تأثراً بالطابع اللاتيني منه بالطابع الاسكندري، إذ أن أبيانوس بعد أن حصل على الجنسية الرومانية رحل إلى روما وعاش هناك حيث يرجح أنه وضع مؤلفه في عصر أنطونينوس بيوس. وقد شارك في كتابة التاريخ أيضاً العالم الفذ كلاوديوس بطلميوس لكن شهرته كجغرافي ورياضي تبز شهرته كمؤرخ. فكتابه في الجغرافيا يتألف من ثمانية أجزاء وأطلس وكان يستهدف على حد قوله استخدام أحدث معلومات في تصحيح خريطة العالم التي وضعها جغرافي عاش قبله وكان يدعى مارينوس الصوري. وبرغم ما يتضمنه كتاب بطلميوس من أخطاء عديدة يعتبر بوجه عام من المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها شمولاً ولذلك ظل مرجعاً لكل دارسي الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة.

ثانياً : العلوم

١ ـ الطب والجراحة

وقد تابع أساتذة الطب والجراحة نشاطهم في الإسكندرية وظلت هذه المدرسة القديمة تحتفظ بشهرتها في هذا الميدان على الأقل حتى أواخر القرن الرابع عندما كتب أميانوس ماركيللينوس يقول إنه كاد يكفي الطبيب للتدليل على مهارته قوله إنه تعلم في الإسكندرية. ويقدم دليلاً على مكانة الإسكندرية في عالم الطب كثرة عدد الذين كانوا يقصدونها من مختلف أنحاء الدنيا لدراسة الطب على أساتذتها الذين تابعوا اهتمامهم بالتشريح وكان كثيرون منهم يعترفون بأنهم من أتباع المدرسة التجريبية التي ترجع إلى عهد بطلمية. وقد درس في الإسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم جميعاً « كلاوديوس جالينوس » الذي ولد في برجامون في عام ١٢٩ وزاول مهنته بعض الوقت في وطنه ثم في روما إلى أن توفي هناك في السبعين من عمره.

ويعطينا كلسوس (Celsus) صورة ناطقة عن الطب والجراحة في الإسكندرية في صدر العصر الروماني. ويسمى كلسوس كتابه عن الطب de re medica; — وهو مقسم إلى ثمانية أجزاء ... تاريخ

طرحت للطب تقسيمات متعارفة بين أتباع مدرسة بعرنه وأتباع مدرسة التجربة وخصص الجزءين الأول والثاني للمقدمة وعلم الأمراض والقواعد العامة للعلاج وناقش في الجزءين الثالث والرابع الأمراض الداخلية وفي الجزءين الخامس والسادس الأمراض الخارجية ويعتبر الجزءان السابع والثامن ، وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب ويتبين من هذين الجزءين أن جراحي الاسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضا جراحة تحسين الوجه وكذلك جراحة الأسنان. وتحدثت الوثائق البردية بأن بعض أطباء الاسكندرية ابتكروا عددا من الأربطة والأجهزة التي عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم في حالة حدوث كسر في العظام أو خلل في الأعضاء الداخلية

لكن في القرن الثالث لم تعد الظروف مواتية للأبحاث والملاحظات العلمية فقد انقضى عهد الكشوف وأصبح هم العلماء مقصورا على تكثار المعلومات بتسجيلها بين ما سبق الوصول اليه وبين حاجات العصر فلا عجب أن أخذ الطب ينحدر رويدا رويدا وأخذ عامة الناس يلجأون الى التعاويذ والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من أمراض بينما أخذ المتعلمون يستجدون شفاء الجسم في سلامة الروح

٢ — العلوم الرياضية

وإن كانت فروع العلم الأخرى قد أصابت في العصر الروماني هذه كل العلوم الرياضية ساءت أكثر وليس هذا مرجعه لأنهم لم يروا أي نفع في ذلك الى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحتقرون العلوم البحتة حيث ما كان يمكن الافادة من تطبيقاتها

وقد عرفت الاسكندرية رياضيين عظاما مثل منلاوس (Menelaus) وسرينوس (Serenus) وبابوس (Pappus) الذين عنوا بدراسة الهندسة ولهم فيها مؤلفات فيها تكمل مؤلفات سرينوس لم ترق الى مستوى مؤلفات العلماء الآخرين التي ترجمها العرب وبفضلهم وصلت الى العالم الحديث. وقد كان من الاسكندرية أيضا العالم ديوفانتوس (Diophantus) الذي ابتدع نظاما خاصا بالحساب خطوة واسعة نحو الجبر. أما هيرون (Heron) فله مؤلفات كثيرة في الهندسة والميكانيكا لم يصل الينا بعضها الا بالعربية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالاغريقية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كتبه في المدارس عدة قرون ولعل جهود هيرون قبل كل شيء استمرار لجهود ارشميدس واقليدس وكتسيبوس ، فقد كانت تحديد الأحجام ومقيسات القسم والمدافع ووسائل مساحة الأرض ورفع الأثقال واستخدام البخار وطلمبة لاطفاء الحريق وجهاز لقياس المسافات

يشمل الفلك بأربعة أجيال ...

وقد كان أشهر الفلكيين الاسكندريين وأعظمهم بلا نزاع كلاوديوس بطليموس القلوذي المصري الذي ... وقد وضع هذا الفلكي عدة مؤلفات ترجم العرب أكثرها، وأهم هذه المؤلفات كتابه « المجسطي » أو « المجموعة الكبرى » الذي يضم ما وصل إليه الفكر الاغريقي في الفلك وفقا لنظريات هيبارخوس مع ما أضافه بطليموس إلى هذا العلم.

ثالثا ـ الفنون

١ ـ في العمارة

سنتناول الكلام هنا في إيجاز شديد عن المقابر والمنازل والمنشآت العامة والمعابد ونبين إلى أي مدى تأثرت العمارات المصرية والاغريقية ببعضها بعضا، وإلى أي مدى كانت العمارة الرومانية وجودها واحتفظت بطابعها في مصر.

(١) المقابر :

عرف أن الاغريق كانوا يستخدمون في عصر البطالمة ثلاثة أنواع من المقابر وهي (١) الحفر، (٢) المحفورات المسماة (loculi) التي كانت تبنى أو تنحت في جوانب دهاليز أو غرف، (٣) مقابر الأرائك التي تحفر في آخر العصر البطلمي في صخور ذات حجرات وممرات، بعضها يحتوي على الأرائك ... وكان الموتى يدفنون في توابيت كالصناديق كانت توضع في الحجرات.

وقد أثبتت الحفائر التي أجريت في الاسكندرية أن معظم مقابر الأثرياء قد عمد استخدامها في العصر الروماني وأنه فضلا عن ذلك كانت تستخدم في هذا العصر ثلاثة أنواع أخرى. وكان النوع الأول مماثلا للنوع الأول الذي كان مستعملا في عصر البطالمة، ولا غرابة في ذلك فقد كان هذا النوع شائعا بين عامة الشعب عند الاغريق وعند الرومان على السواء. أما النوع الثاني فكان في أبسط مظاهره يتألف من سلم وبئر (لا تزال لمومي) وغرفة ذات حجرات وغرفة ذات توابيت. وكان نظام هذه الغرف وحجمها وتوزيعها يختلف اختلافا بينا، ومع ذلك فإن الصلة واضحة بين هذه المقابر ومقابر عصر البطالمة. أما النوع الثالث فيشبه من قرب المقابر الكبرى في روما من حيث وجود غرفة مستديرة تؤدي إلى غرفة الدفن الرئيسية على نحو ما نجده في المقبرة الكبرى في كوم الشقافة حيث استخدم للدفن التوابيت والفجوات على غرار ما كان يتبع في مقابر النوع الثاني.

وإذا كان طراز العمارة في هذه المقابر إما اغريقيا أو رومانيا فإن الزخرفة فيها تسترعي النظر بكثرة ما فيها من عناصر مصرية. وتجد هذه الظاهرة نفسها في النصب الجنائزية أيضا.

وتدل الحفريات على ان الغالبية العظمى من المصريين قد حافظوا تماما على العادات وطرق الدفن التي تعودوها منذ عهد بعيد فقد كانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة عادوا استخدامها او في مقابر حديثة كان بعضها عبارة عن كهوف طبيعية أو كهوف نحتت في جانب التلال أو آبار محفورة في باطن الأرض ، وكان لها بئر ينتهي بحجرة واحدة او غرفتين للدفن

ويتبين من الكشوف الأثرية في تونة الجبل ، بالقرب من الاشمونين ، ان المصريين المتأغرقين كانوا يقيمون مقابر وبيوتا جنائزية تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية اختلاطا واضحا سواء في العمارة او في زخرفتها أم في طرق الدفن

ومما يجدر بالملاحظة أن تحنيط الموتى ظل شائعا بين المصريين وحتى بين المسيحيين منهم قائما حتى أواخر القرن الرابع ثم بمقتضى ديانتهم الجديدة

وهكذا يتبين لنا أنه جنبا الى جنب العمارة الجنائزية الاغريقية والعمارة الجنائزية المصرية قد ظهرت أيضا العمارة الجنائزية الرومانية ويستوقف النظر انه مثلما نجد الأثر المصري واضحا جليا في زخرفة المقابر التي تمت بصلة للاغريقية والرومانية نجد الأثر الاغريقي واضحا جليا كذلك في زخرفة بعض أمثلة العمارة الجنائزية المصرية

(ب) المنازل

ولم يحفظ لنا الزمن الا عددا قليلا من الاغريقية في بعض مدن الفيوم ... يستخدمون نوع المنازل التي ألفوها من قبل في مصر ... ولكنها فيما يبدو أشبه أيضا منازل مصرية شبيهة بالفيلات الرومانية أما فيما عدا ذلك فانه يتبين من المنازل الكثيرة التي كشفت الحفريات عنها في بعض مدن الفيوم وقراه ان الاغريق كانوا كالمصريين يعيشون في منازل مصرية تمثل استمرارا لطراز المنازل التي عرفتها مصر منذ أمد طويل ولكن يبدو ان الاغريق والمصريين المتأغرقين كانوا يستخدمون في تزيين منازلهم زخارف اغريقية

(ج) المنشآت العامة

أنشأ الرومان في جهات متعددة في مصر معالم مدنية متعددة الأنواع كالبوابات والأقواس والمسارح والجيمنازيا والحمامات العامة ويتبين من عدد المنشآت التي كشف عنها ... كانت وفقا للطراز الروماني في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها وان الطراز الروماني في مصر كان كمثاله في روما وباقي أنحاء العالم الروماني يتميز بين ... الأعمدة الكورنثية ... كانت ... مبنى ... من التي كانت المنشآت العامة تبنى من الآجر وكثيرا ما استخدمت ... ولا سيما في الاسكندرية الرخام ... من الخارج

(د) المعابد

ولم يبق من معابد الاسكندرية التي شيدت في العصر الروماني الا صور مرسومة على النقود. واذا تحدثنا هذه الصور يصعب الحكم على طراز هذه المعابد وان كان يمكن القول بأن طراز أغلب هذه المعابد كان اغريقيا أو رومانيا على حين كان طراز بعضها الآخر مصريا بحتا وطراز البعض الثالث يغلب عليه الطابع المصري لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية.

أما معابد الآلهة المصرية التي أكرمها الرومان [illegible] فشيدوها أو أصلحوها في مختلف القرى والمدن المصرية فانها اتبعت بصفة عامة تقاليد الفن المصري القديم ولا تظهر فيها أي تأثيرات أجنبية ويتمثل ذلك بوضوح في معابد مدينة هابو والقلعة بالقرب من طيبة ودندرة واسنا وكوم امبو وفيلة وفاس ودندور وكلابشة والمحرقة. وقد صور الأباطرة على جدران هذه المعابد في شكل الفراعنة يرتدون ملابسهم وهم يقدمون القرابين لمختلف آلهة البلاد.

ويتبين لنا من كل ما أسلفناه انه اذا كان يمكن القول بوجه عام ان كلا من العمارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد حفظت بطابعها الخاص فانه مع ذلك قد ظهرت حتى في العمارة المصرية دلائل على تمازج الأشكال والعناصر.

ثانيا — فن النحت

وقد عرفت مدرسة كانت للاسكندرية في عصر البطالمة مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة وطراز له أخصها [illegible] والاهتمام [illegible] وان الاسكندرية ابتكرت فرعا جديدا من فن النحت كان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم.

ولما ساد العالم الروماني اتجاه قوي نحو صنع تماثيل تحاكي أشكال أصحابها محاكاة دقيقة كأنها من صنع آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فنانو الاسكندرية في هذا الاتجاه مجالا واسعا لاظهار مواهبهم وصنع تماثيلهم بطراز مدرستهم وطابعها الاغريقي البحت. ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرخام أو المرمر أو مختلف أنواع الصخور مجموعة رائعة من الصور كشف عنها في الفيوم وكانت تصنع بالألوان على لوحات مكسوة بالشمع وتعلق على جدران المنازل في أثناء حياة أصحابها ثم تغطى بها وجوههم بعد مماتهم. وقد بدأ انتاج هذه اللوحات في القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث المهارة والابداع في القرن الثاني.

وقد تابع الفنان المصري نشاطه في التماثيل وعلى جدران المعابد ونصب القبور ومختلف النواحي التي كان أسلافه [illegible] منذ القدم.

ويتضح من دراسة فن النحت في العصر الروماني

١ — ان أكثر النقود التي سكها البطالمة وكثير من قطع النحت التي ابتدعها الفنانون الاغريق اغريقية بحتة في طرازها وعناصرها وصنعتها، وان كثيرا من قطع النحت المصرية وكل لوحات المعابد مصرية بحتة في طرازها وعناصرها وصنعتها.

٢ — ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطراز مثل تصوير اله مصري أو بوابة معبد مصري أو تاج مصري على تلك السلسلة من النقود التي تعرف بنقود المديريات، فهذه عناصر مصرية الا أن طراز النقود اغريقي. ومثل صنع تماثيل لآلهة مصرية بطراز اغريقي أو صنع تماثيل لاغريق أو رومان في سيماهم أو الحربيت أو غير ذلك من المواد الغريبة عن الفن الاغريقي. ومثل تصوير الأباطرة الرومان بطراز وملابس مصرية. وقد سلف القول ان المقياس الحقيقي في أي فن من الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تفكير الفنان وطابع حضارته. ولذلك فان اختلاط العناصر لا يدل على شيء فانما يدل على أثر البيئة لا على أثر الحضارة.

٣ — ان القليل من قطع النحت يحاول صانعوه ان كانت غير ناضجة المزج بين الطرازين المصري والاغريقي. وهذه القطع أدنى قدرا في قيمتها الفنية من القطع التي طرازها اغريقي بحت أو مصري بحت؛ ومع ذلك فان عددها زاد على مر الأيام. وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاط بين الاغريق والمصريين وازدياد اندماج الاغريق في المصريين. وكان هذا الفن المزيج مرحلة الانتقال التي مهدت لقيام الفن القبطي.

٤ — ان الفنين الاغريقي والمصري أخذا يتحدران رويدا رويدا ولم يحتفظ ذرى ازدهارهما السريع الا بالتقاليد القديمة ومهارة الصناعين المتوارثة. ولما كان الفن المصري القديم يقوم على الديانة، شأنه في ذلك شأن باقي مظاهر الحضارة المصرية القديمة، فان اعتراف الدولة رسميا بالمسيحية أفضى الى القضاء عليه قضاء مبرما

من ديوقلديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

مقدمة

في العصر الثاني من حكم الرومان ، أي من ديوقلديانوس الى دخول العرب تأثر تاريخ مصر بعاملين رئيسيين وهما المسيحية والسياسة البيزنطية .

وسنقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الأباطرة العامة ، من ديوقلديانوس الى هرقل ، ثم نتبعها بنظام الادارة في مصر والنظام المالي والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنعرض في الفصول الخمسة التي تلي لمجموعة الألوان المختلفة لحياة الشعب المصري من سياسية ولغوية وفكرية ودينية واجتماعية في هذا العصر ، وسيتضح لك من هذا العرض كفاح الشعب المصري للاحتفاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المتعصب .

ولقد كان للاسكندرية الزعامة الدينية في الشرق المسيحي ، وفي مصر نشأت الرهبنة التي أخذها عنها العالم المسيحي ، وفي مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحي . وكانت مصر منذ فجر تاريخها الطويل في تقدم وحضارة ، حصينة بنيلها وطبيعة أهلها الذين تميزوا بالمثابرة على العمل والمسالمة ، ولم يسمع عنها أن عم البؤس البلاد في هذا العصر ، وذلك بسبب فساد ادارة الحكم واستغلال الحكام ، مما دعا الشعب الذي كان يعيش في هذا الجو الفاسد أن يعصى حكامه ويحتقرهم وأن يتطلع الى الاستقلال والحرية وحياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييرا شاملا في السياسة وفي الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق ، بعد أن كانت صلاتها الحضارية مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة الاغريقية .

* * *

من ديوقلديانوس الى هرقل (٢٨٤ — ٦٤١م)

ديوقلديانوس ٢٨٤ — ٣٠٥ .

تولى ديوقلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجموعة من اللوائح والقوانين والنظم — التي تسير عليها سياسة الامبراطورية — لا تتمشى وحاجة عصره . فحاول أن يصالح الموقف بادخال تغييرات أساسية في سياسة الدولة ، وذلك لتفادي الانهيار المتوقع للامبراطورية وليمنع الاضطرابات التي كانت تسود الدولة بعد موت الامبراطور ، وتولى حكمه له

دخل دیوقلدیانوس اصلاحات عديدة على نواحي مختلفة في الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة تؤدى له فروض العبادة وتحيط شخصه هالة من السمو تبعدها عن عامة البشر

كما ركز في الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الادارية وقل سلطة السناتو الذي وظيفته استشارية وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم يعد هناك ولايات خاضعة للسناتو ، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التي كانت من الاصل تخضع للامبراطور ، ثم أدمج الولايات في وحدات ادارية وركز كل ادارات الامبراطورية في يدي موظفين وادارات تابعة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية

وحاول دیوقلدیانوس أن يحل مسألتين اللتين كانت تؤلف مصدر قلق سلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثة العرش

وكان ديوقلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره امبراطور واحد وقد حمله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه في الحكم وذلك في سنة ٢٨٦ وأسند الى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق أما وراثة العرش فلم يكن لها نظام معين وكانت مطامع في تولي العرش من المشاكل التي تواجهها الامبراطورية بعد موت الامبراطور وفي سنة ٢٩٣ قرر ديوقلديانوس أن يتولى الحكم امبراطوران في نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، ويحمل كل منهما لقب «أوغسطس» على أن يعين كل منهما شريكا يكون وريثه في العرش ويحمل لقب « قيصر »

من قسطنطين الى جستنيانوس
(٣٢٣ – ٥١٨)

اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة

وأبقى قسطنطين على اصلاحات ديوقلديانوس بصبغته المطلقة ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والعسكرية في البلاط الامبراطوري ، وكان مركز الدولة ، وأصبح الناس يخدمون الامبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة

وتولى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، ولم يخل عهد أي منهم من أزمات خطيرة كشفت عن مواطن ضعف وصاحبها الكنيسة خصومة عداء شديدة بسبب وقوفها في وجه أولئك الأباطرة

وكانت هذه الفترة مليئة بالقلاقل والاضطرابات لا استقرار فيها فتارة نجد الأمر فيها لامبراطور واحد وتارة تتوزع السلطة بين امبراطورين منتصبين في الشرق والآخر في الغرب ويرجع عدم الاستقرار الى أمور مختلفة أهمها أن القوى الحية للامبراطورية كانت كامنة في الشرق وأن سياسة الحروب في الشرق بطريقة تختلف عنها في الغرب وأن هجمات البربر على الغرب كانت أشد أثراً منها على الشرق

اسرة يوستنيانوس (٥١٨ – ٦١٠)

كان حكم يوستنيانوس تطوراً طبيعياً وضرورياً في تاريخ الامبراطورية فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب في سبيل سلامة الشرق ولكن يوستنيانوس أخذ يتطلع الى الغرب منذ بداية حكمه ، وساقته مطامعه الى محاولة استعادة الماضي واستنفد جهداً كبيراً ليبعث من جديد هذا الجزء الميت من الامبراطورية مما أدى الى انهاك قوى الجزء الحي

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد الامبراطورية الرومانية ، حروبه العديدة فأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانياً ولكن سرعان ما اضطرته حروبه في الشرق الى أن يكف عن الحروب وأن تقوم ثانية سلسلة من التحصينات حطت من الامبراطورية بعد ما عصر[2]

وصمم يوستنيانوس على أنه سيعيد رسم الامبراطورية على أساس سليم ، فعمد الى وضع نظام من شأنه أن يحقق الرخاء لشعوب كانت في وحدة تامة مجتمعة وسنرى في دالته نشاطاً يتلخص في تشريعاته التشريعية وفي اصلاحاته الادارية

اعماله التشريعية

كانت روما في مقدمة البلاد التي عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القانون وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذي بني على سلطة الامبراطور المطلقة

وقد أدرك يوستنيانوس عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الامبراطورية اذا جمع مصادر القانون الروماني الذي كان معمولاً به عندئذ ونشره على نحو يمكن تداوله والرجوع اليه وقد عهد بهذا العمل الى عدد من أبرز فقهاء الرومان ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المجموعة من القوانين المرجع الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في الامبراطورية ، بل أصبحت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث

وقد أطلق على هذه المجموعة ، مجموعة قوانين يوستنيانوس ، وهي تنقسم الى أربعة أجزاء

١ – مدونة يوستنيانوس وقد نشرت أولاً في عام ٥٢٩ ثم روجعت ونشرت ثانية

في عام ٥٣٤ وكان عبارة عن مجموعة لتشريعات الأباطرة، وهو كتاب لا يزال نافذ المفعول

٢ — الموجز أو المختصر وقد نشر في عام ٥٣٣ وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الروماني، ورتبت هذه المقتطفات بحيث تستكمل ما لم يرد في المدونة من أحكام القانون المدني

٣ — القوانين وكانت كتابا موجزا وضع خصيصا ليستخدمه طلبة القانون

٤ — المراسيم الجديدة التي أصدرها يوستنيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعددها ١٦٨ مرسوما

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية وأما الجزء الأخير فكتب باليونانية

إصلاحاته الداخلية

اتجه يوستنيانوس لتحسين الحياة الداخلية في الإمبراطورية، فاتخذ عدة وسائل للإصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الإمبراطور مما أدى إلى قيام ثورة في القسطنطينية نيقا سنة ٥٣٢ فأصدر تشريعات لأجل إصلاح الوظائف الحكومية كان منها إلغاء الوظائف الزائدة عن الحاجة، ورفع مرتبات الموظفين، وعدم الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، وأصدر عقوبات صارمة من شأنها أن تحمل للموظفين بعض الاستقلال في الإدارة مع ربط الإدارات بالسلطة المركزية وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطرا داهما على الطبقة الوسطى، وعاملا في تهديم ثروتها ورفاهيتها

ولكن كل هذه المحاولات الإصلاحية باءت بالفشل، والسبب في ذلك هو الإمبراطور نفسه لأنه كان في حاجة ملحة إلى المال لمواجهة النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشآته المختلفة، فألح على وكلائه في جمع المال على أية صورة وفرضت ضرائب جديدة، ثم غير العملة وجعل الموظفين مسئولين شخصيا عن جمع الضرائب، فاتخذوا من جانبهم إجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب إرضاء للإمبراطور فكان هو العامل الأول في عدم إصلاحاته.

أما سياسته الدينية فقد أصدر يوستنيانوس مراسيم سنتي ٥٢٧ و٥٢٨ ضد الهراطقة وأصحاب البدع ثم أمر بإغلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة وعاش الهراطقة بالرغم من الاضطهادات بل كان رؤساؤهم يسكنون القسطنطينية للعمل وعطلت سياسته الدينية وكان يغلب عليها على الأكثر سياسة الحرب، هذه السياسة التي أنهكت قوى الإمبراطورية فلم يعد يحتمل هجمات العدو

في شرقها ، وهي التي استنفدت مالية الدولة وأضعفت الإصلاح الإداري ، وهي التي أضعفت الفرصة على الدولة في الهيمنة وتوحيد الكنيسة في الشرق وهي في أشد الحاجة إلى ذلك

الحالة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون في صحارى مصر والشام داعية لتشجيع الامبراطور يوستنيانوس والامبراطورة تيودورا للرهبنة عامة ، فأخذت في الانتشار والتطور ، وكان لهذا أثره في الحياة الاجتماعية . كان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج في الحياة السياسية وفي حياة البلاط . وأخذ عددهم يزداد ، وانهالت عليهم الوقفيات والهبات والتبرعات وكانت معفاة من الضرائب في أغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع لها امتيازات ولها أثرها في الحياة الاقتصادية

وهناك ناحية أخرى كان لها أثرها في الحياة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس فقد قام بأعمال إنشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وإنشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد أنابيب المياه وإنشاء الكنائس والأديرة . وكان مظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة في حالة رخاء ، ولكن سرعان ما اضطربت حالة المالية ... بسرعة هذه الأعمال من أموال طائلة ... التي وقعتها بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد .

أما بالنسبة للدولة فقد شجع يوستنيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنح بعض الامتيازات لأفراد من شعبها . وكانت مشكلة الامبراطورية هي مشكلة التحرر من سيطرة الفرس على تجارة الشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين . وكانت التجارة الشرقية تصل إلى الامبراطورية إما عبر الطريق الشمالي الذي كان يمر بوسط آسيا فبحر قزوين فالبحر الأسود ، وإما بحراً عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق البحر الأحمر . ولما كان الفرس يتقاضون جانباً كبيراً من التجارة الشرقية فقد حاول يوستنيانوس أن يحول التجارة الشرقية إما إلى الطريق الشمالي أو إلى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية ليتفادى وساطة الفرس ومطالبهم في فرض الضرائب ، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن يوستنيانوس فشل في ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية

خلفاء يوستنيانوس (٥٦٥ — ٦١٠)

مات يوستنيانوس والدولة في حالة إفلاس وتنفس معها البؤس أفراد الشعب وارتاح الجميع لموته ، ولكن خلفاءه لم يجدوا حلاً لمشكلة المالية التي ترتبط بها الإدارة الداخلية برباط وثيق . وقامت معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور المطلقة كما نشب خلاف شديد بين الامبراطور يوستين

وبين الحروب الفارسية ، كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود الإمبراطورية .

هرقل ٦١٠ – ٦٤١

كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلكة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الإمبراطورية أصبح في مهب الريح .

وطرق الركود باب الحضارة البيزنطية في القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب أو مؤرخون أو قام أحد بحل المسائل ذات بال . وعم الغموض الذي في هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات .

ولم يكن هذا كله بباعث على سقوط الدولة البيزنطية بل أظهر أن الأزمة سياسية وأن على الإمبراطورية أن تتفادى بمحاولة تغيير اتجاهاتها . وكان السبيل الأوحد في هذه الأزمة هو محاولة توسيع ... القاسية في عاصمة الروح الرومانية إلى الإمبراطورية وتوجيه الشرق والغرب .

ولم يبق أمام الدولة إلا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والإدارية ، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا وأصبحت إمبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت إمبراطورية رومانية ، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ما تبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها واستيلاء الصقالبة على شبه جزيرة البلقان ، وكتب للإمبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر

النظام الإدارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية
فى مصر فى العصر البيزنطى

النظام الادارى

عندما اعتلى دقلديانوس العرش كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الادارى فى كل أنحاء الامبراطورية. وبذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هى مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وليبيا. ويحتمل أن هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التى كانت موجودة فى القسم الأول من العصر الرومانى. وفى عهد قسطنطين الثانى تكونت فى عام ٣٤١ مقاطعة رابعة « الأغسطية » من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانية. وفى عهد ثيودوسيوس الاول أضيفت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات خمسا. وحوالى أواخر القرن الخامس عدل اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر وأركاديا.

ولما كان دقلديانوس وخلفاؤه حتى يوستينيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية فى كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يشرف على شئون الادارة والمالية والقضاء وأصبحت قيادة الجند الى قائد مستقل. وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لحكم الحاكم العام مباشرة. اما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم فى مقاطعته ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع « لحاكم أو دوق الشرق ». وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقب دوق وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص.

وقد تبع تقسيم البلاد الى مقاطعات اعادة تنظيم الادارة المحلية فى أوائل القرن الرابع، فلم تعد هناك وجود فعلى للمديريات لأنها قسمت الى أقاليم أصبحت هى الوحدات الفعلية فى الادارة المحلية، وترتب على ذلك بطبيعة الحال الغاء منصب المدير أو القائد وكذلك الغاء منصب الكاتب الملكى. وكان أهم الحكام المحليين مراقب جميع الضرائب (Exactor) واليه انتقلت اختصاصات القائد فى الشئون المالية. اما اختصاصات القائد المدنية فقد انتقلت الى حاكم آخر (Logistes) كان فى الأصل يمثل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكما محليا ذا نفوذ فى الأقاليم، فعمل على السواء والى

اللغة اختصاصات حكام المدينة القديمة فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم Logistes حاكم آخر Defensor.

وقد ظلت مجالس الشورى قائمة وألقيت عليها مسئولية كاملة عن الإدارة المحلية والإدارة المالية ، وغدت عواصم المديريات مدنا على النمط الروماني تتمتع بحكم ذاتي ويدخل في نطاق كل منها منطقة ريفية .

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لعادات وقوانين الولايات الأخرى في الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة في التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى في الولايات التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار أثر فعال في مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والإدارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدر بها . وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر في إطار لاتيني أي أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية ، أما أقوال الطرفين والشهود وأحكام القضاء فظلت تكتب باليونانية .

وكذلك عبرت عن هذا بعض الوثائق القانونية فاستبدلت سنوات حكم الامبراطور بسنوات القنصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاما . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى الفتح العربي . وفي عصر جستنيان أعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور .

ثم جاء جستنيان بإصلاح إداري هام حتى أدخل تعديلين على نظام الإدارة في مصر فقضى تعديله على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة إذ أن هذا الامبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الأولى وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الأخرى وجعلهم جميعا خاضعين لدوق الشرق . أما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وإسنادهما معا إلى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم في مقاطعته رئيس الإدارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الأولى هو الذي كان يجمع في الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا ونقدا ثم يرسلها إلى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأون إلى القسطنطينية لتمدهم بالجند في حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام في أول أمرهم أجانب ، ولكن رأى الأباطرة فيما بعد أن يختاروهم من بين الأعيان المقيمين في مصر وأقر هذا التصرف جستين الثاني سنة ٥٦٩ وكان الامبراطور يقر تعيين الحاكم الذي يرشحه الأساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد

منذ عهد ديوقلديانوس فصل السلطتين المدنية والعسكرية ثم بعد الحين حاصب حاكم مصر تمام بعد أن سحب منه القيادة الى قائد مستقل. وبعد [illegible] الى مصر وبذلك أصبح عدد المقاطعات [illegible] قسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص. [illegible] عدل جوستنيانوس عن فكرة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية ثم يؤد ذلك الى توحيد قيادة الجيش في مصر و [illegible] الى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لامرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذي كان مقره القسطنطينية

وسرعان ما تعاقب الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدته عن حياة الجيش وربما ذلك عن مناسبة لتطور الفنون الحربية. ولم يرد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندي وزعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وفي الداخل ثم في المدن الكبرى

وكان توجيه الجيش محصنة [illegible] في الزوايا الثلاث للدلتا ، في الفرما شرقا والاسكندرية غربا وفي بابليون في مصر القديمة حيث كانت بها حامية كبيرة منذ الفتح الروماني

وفي الوجه القبلي أنشئت على طول الوادي مراكز حربية في المواقع الهامة مثل قفط ، وأسوان

والواقع أن الجيش في مصر في العصر البيزنطي كان جيشا هزيلا ضعيفا [illegible] عن كفاءة ، ويتكون من جنود مرتزقة لا يشعرون بأية صفة عسكرية. وكانت وظيفتهم هي منع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أي أن عملهم كان قاصرا على عمل رجال الشرطة . وقد أصبح للجندي حق الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته في الجيش .

النظام المالي

[illegible] كانت بيزنطة — مثل روما — تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فان الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطي عما كانت عليه من قبل بل ازدادت باطراد [illegible] حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة. ولم يتورع موظفوها عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب. ولذلك أخذ الناس في الالتجاء الى الصحراء هربا من السلطة القاسية التي كان يبطش بها كل من تأخر في دفع الضريبة ، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الاضافية ثم تصادر أملاكه ويزج به في السجن وويل لمن حاول المقاومة

وكانت أكثر الالتزامات تقع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم في العصر الروماني الى أن اضطرهم جور الحكومة الى الهروب من أراضيهم تحت حماية جيرانهم الأثرياء ذوي النفوذ. فأخذت طبقة صغار الملاك تختفي تدريجيا خلال القرن الخامس حتى

ثم تعدتها وعرفت في بدء القرن السادس وتم تحول هؤلاء السادة الا الأديرة التي حدث نصيب من مصر أملاكا جديدة الى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة ممتلكات الأديرة التي أصبحت تتمتع بالاعفاء من الضرائب ، وزادت بذلك بعد القضاء على الوسيطة ، فأصبح معظم أراضي الأملاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي

الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر محاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والبواقي ، وكان الجزء الأكبر من هذه المحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن حاجتها الى خارج البلاد

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والمعدنية والزجاجية وبخاصة المنسوجات

كما عرفت مصر صناعة أوراق البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي ، وعرفت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . وقد تدخل الحكام البيزنطيون الى مجالات الصناعة في مصر ولكنهم احتكروا استخراج المرمر والبازلت والعطور كمصدر .

وكان لأصحاب كل حرفة في مصر نقابة ، يخضع لموظف مسئول عنه مراقبة الانتاج وتحصيل الضرائب . وكانت هناك مدن كبيرة مسورة ، وأسواق أسبوعية في القرى تتم فيها المحصولات والمنتجات

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط الشرق الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتى من الصين والهند محملة بالمنسوجات الحريرية بالأفاوية والأخشاب والعطور والأواني الخزفية ، فتخترق البحر الأحمر ثم ترسو في الموانى البيزنطية التي ورثتها بيزنطة عن البطالمة وكانت أكثر البضائع تفرغ في منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل الى قفط ، ومنها تشحن في مراكب تقطع المسافة بين قفط والاسكندرية في اثنى عشر يوما . وكانت بضائع الافريقية تسير في هذا الطريق قادمة من عدوب ميناء مملكة أكسوم الاثيوبية . وتصل الزمرد من بلاد البليميين ، والعاج من نوبيا ، والأبنوس من أواسط افريقية والذهب من المنطقة التي أطلق عليها الرحالة كوزماس اسم ساسو . ومنذ القرن السادس الميلادي اضطر التجار أن يسلكوا طريقا آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البليميين . فكانت البضائع تحمل في البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تنقل عبر القناة التي كانت تصل السويس ماسفوت وتصب في الآن ترعة الاسماعيلية . وكانت البضائع تحمل من ماسفوت الى موانى البحر الأبيض المتوسط

عن طريق النيل . وفي القرن السابع أو بعده قام بامبوس عن صناعة الملاحة .

وكانت خاصة بلاد ما بين النهرين وفلسطين تجتذبها القوافل في طريق يصل الى غزة فالعريش ؛ وهذا هو الطريق الذي سماه الفراعنة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية تصل الى بلبيس فأون (هليوبوليس) ومنها الى الاسكندرية . وكانت البضائع تنقل اما على مراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من جمال وحمير ، ولم يستخدم الخيل لانها كانت مخصصة للجيش حتى العصر الروماني .

كانت التجارة في العصر الروماني مزدهرة في مصر ، ولكنها أخذت تتعثر في العصر البيزنطي ، فموانئ البحر الأحمر ما فتئت أهميتها تتضاءل ، حتى لم يبق على البحر الا ميناء القلزم ، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التي أفضت الى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية الى الخليج الفارسي . وقد حدا ذلك بالامبراطور جستنيانوس الى العمل على التخلص من وساطة الفرس في التجارة الشرقية واعادة النشاط التجاري في البحر الأحمر الى سابق عهده ، لكنه لم يصب في ذلك نجاحا مذكورا .

وفي عصر جستنيانوس قام كوزماس التاجر الاسكندري برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وزار الحبشة والساحل الشرقي لافريقيا حتى وصل زنجبار ثم عاد وعكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيمة في كتابه المسمى « الطوبوغرافية المسيحية » . وكانت مصر محط أنظار رجال الفكر في العالم فوفدوا اليها لزيارة آثارها ، وجذبتهم الحياة الديرية المصرية ، ولتلقي العلم في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر . نذكر منهم سيروس القرطبي ، وجريجوريوس النزيانزي ، وبسيليوس ، وأوسيبيوس ، والقديس هيرونيموس (جيروم) ، وبرنس الأوروسي ، وبطرس الايبيري ، وبلاديوس ، وروفينوس ، وكاسيانوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما رآها بيرو — بحقولها النضرة في الدلتا تحرسها القنوات وفروع النيل ، كما شاهدوا توجه الصبي وقد جذب الصحراء من سعتها مزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه في العصر الفرعوني — لم تتطرق اليها الحضارة الاغريقية . وكانت مصر تعج بالأديرة التي تضم بين جدرانها مئات من الرهبان .

وقد سحرت الحياة في مصر وحاول الأباطرة عبثا معالجة شتى نواحي الادارية فكان الحكام على جانب كبير من الضعف ولا هم لهم الا جمع الضرائب ، وارضاء الموظفين وهم الولاة الفلاحين فاضطروا عند القرن السادس الى أن يلجأوا الى كبار الملاك يحتمون بهم فصاروا ملاكهم وحماتهم . وكان في ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التي هي كيان

اقتصاد الدولة مظهره وقواه مظاهر الاجتماعية وازداد عدد كبار الملاك ، [illegible] هم من محاولات الأباطرة لتحديد في منع هذا الازدياد والحد من نفوذ سلطانهم ، وتكونت الإقطاعيات حتى كانت له أكبر الأثر في تدهور أحوال البلاد .

* * *

كان اهتمام الشعب بالضرائب مصدراً من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المسيرة في رحلة نيكوبوس تمر بروة خاصة على حسابه . وكانت مصر في نظر الأباطرة حقلاً كبيراً ينتج الحبوب فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهي ، واستعبدوا أهلها كما لو كانوا منجماً من ذهب لا ينضب معينه . ولم يهمهم أمر رخاء وادي النيل كما لم يهمهم أمر الأمن في الأرياف ولا المجاعة والقحط والجوع الذي كان يجتاحهم بين وقت وآخر .

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم .

وكان يوستنيانوس أول من أصدر مرسوماً (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه من الوسائل التي يتخذها الموظفون ومن أعمالهم في ترتيب الشئون العامة . وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الإسكندرية . وكان قد صرف قمح أي سنة منذ أيام دقلديانوس .

ولم يستطع طوال الحكم البيزنطي أن أحد أبناء الشعب الذي فقد ثقته بالبلاد من [illegible] الاستعمار الأجنبي ، أو أي نجدة من ساستهم الهدامين ، بل تطالب باستقلاله في الحكم

وكان [illegible] وقد [illegible] الشعب فيسالة — يتمتع بمركزه الديني وكرامته ووطنيته من الخضوع لإرادة الأباطرة ولكنه كان مصدر شقائهم .

وكان من أهم أسباب انهيار الإمبراطورية مقاومة الشعب المستمرة في تأدية الضرائب المطلوبة ، فكان يهرب من دفعها ، ويترك أراضيه ، وصناعته ، ويفضل أن يجلب على نفسه الخراب على أن يدفع الضرائب . وكانت المعاملة القاسية التي يلاقيها من جامعي الضرائب تضطره إلى دخول الدير أو الالتجاء تحت حماية كبار الملاك .

ولقد هذه حركة الهجرة [illegible] ، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبان الذين كانوا [illegible] فضلاً عن أنهم كانوا لا يدفعون شيئاً يذكر .

وكان [illegible] الشعب [illegible] وعدم استتباب الأمن في الأقاليم ، والاضطرابات في العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين واليهود ، أثرها السيء في الاقتصاد على التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب في حب العمل .

كانت هذه الأحوال كلها باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب ، يحدوهم الأمل في أن ينعموا بحياة فيها رخاء وطمأنينة

الفصل الأول

الحيـــاة السياسية

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول الميلادي ، في وقت كانت فيه أفكار الناس حائرة مضطربة بين مشارب المعبودات التي قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالاضـــافة الى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الاخرى . واستطاعت المسيحية أن تنفذ في روح المصري بقدر ما كان مستعدا لقبولها بما ورثه من معتقدات دينية في ديانته المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية في مصر انتشارا سريعا ، واستمرت في النمو حتى قضت نهائيا على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يبق من اليهـــود ســـوى طائفـــة ضئيلة لا أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وانما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان . أولهما الميدان الفكري وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وعلمـــاء المسيحيين وفلاسفتهم . أما الميـــدان الآخر فكان ساحة الاستشـــهاد ، وقد بدأ فعليـــا بهجـــوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيســـة الاسكندرية وقتلهم القـــديس مرقس الرسول بعد أن جروه بالحبـــال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع في أول صوره نزاعا بين ديني المســيحية والوثنية . ولكن ما أن تمت المسيحية في مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصري كله تقريبا ، وظل الحـــكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان في نفس الوقت صراعا بين شعب وحاكميـــه ، أو بين أبنـــاء وطن ومستعمريه . وهكذا تركز الشعور القومي وتوحد . وأخـــذ أبناء مصر يتمســـكون بقوميتهم كراهية في كل ما هو أجنبي عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التي قادها الأدباء بتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة ، ورفض أدبيـــات اليونان وثقافاتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادي ولم ينته الا بمجيء العرب . وصـــار أباطرة الرومان أعـــداء سياسيين للشعب المصري ، كما كانوا له في نفس الوقت أعـــداء دينيين

طوال العصر الروماني ، فحكم البعض منهم حتى كان الاباطرة مسيحيون فقسم يميلون الى مذهب مخالف لمذهب مسيحيي مصر ، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادا عنيفا ، كذلك اضطهدت على يد بعض من اباطرة الروم المسيحيين. ولا يستثنى من ذلك الا عدد قليل جدا من هؤلاء الاباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهي لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الروماني من جديد.

ولكي تتضح لنا حلقات هذا النزاع يمكن أن نقسمه الى ثلاث فترات مميزة وهي:

ا — فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين الى سنة ٣١٣ م

ب — فترة الصراع مع الاباطرة المناصرين للهرطقة من سنة ٣١٣ الى سنة ٤٥١ م

ج — فترة الصراع مع الاباطرة المناصرين لبابا روما من سنة ٤٥١ م — سنة ٦٤١ م

١ ـ الصراع مع الاباطرة الوثنيين

كان الاباطرة الوثنيون ينظرون الى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم ، فاضطهدوهم أينما وجدوهم . ولكن الاضطهادات التي حلت بمسيحيي مصر كانت أشد قسوة وأكثر عددا لما اتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على ايمانهم . وقد شعر الأباطرة وولاتهم انهم أمام شعب شجاع متمسك بدينه ، لا تثنيه لا عرائض ولا طرق الاستمالة المغرية ، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتشبيك أسنان وضرب بالسيف والقاء الى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من ضروب القسوة.

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل في اضعافهم ، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم الى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى أن الأنبا تطوبيوس راهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى الى الاسكندرية وهو شيخ قد جاوز السبعين من عمره لينال شرف الاستشهاد . وتطور الأمر بالولاة والاباطرة ، فبعد أن كانوا يعمدون الى قتل الافراد أخذوا يبيدون قرى ومدنا بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الآلاف.

وأشهر الاضطهادات التي حلت بالمسيحية في مصر اضطهادات تراجان سنة ٩٨ م ، وسبتيميوس سيفروس سنة ١٩٣ م ، وداكيوس Decius سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٤ م . ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التي أثارها ديوقلديانوس بالمصريين وكأنه قد صمم في نفسه أن يفنيهم أفناء . وبدأت فان الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها هذا الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية ويسمى هذا التقويم تقويم الشهداء

وقد مثل في حركات الاستشهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها ، ومعظم مدرسي المدرسة اللاهوتية في الإسكندرية منذ من الوس . وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة ، وفاضت الطرقات بالدماء . ومع ذلك صمد المصريون صمودا عجيبا ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين ، بل كان عدد المؤمنين يزيد باطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون إلى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم .

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة ، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من « شهوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيتهم ولعن أصنامهم لكي ينالوا أكاليل الشهادة على أيديهم ؛ شعر هؤلاء الأباطرة بذلك ... واضطروا إلى وقف هذه المذابح بسبب عدم جدواها ، ولأنها خلقت عوامل خراب في أجزاء الامبراطورية وأدت إلى تعطيل مصادر الإيراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة .

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول ، كان السابع عشر في عداد البطاركة ، وسمي بذلك لأنه آخر شهيد مسيحي ، بل لأن قتله كان ختاما لحركات المذابح العامة التي استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الإسكندرية . ولما قبض على هذا البطريرك وطرح في السجن التف الشعب المسيحي حول السجن ليمنع الجنود من إخراجه ليقتل . ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فبلغ نبأه سرا للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون فتم ذلك وسلم رأسه للجند مطمئنا ، وكان ذلك سنة ٣٩١ م . ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك إلا بعد انصراف الجند .

في كل ذلك ضرب الشعب المصري وبطاركته أروع المثل في الاستشهاد . وكان البطاركة وأساتذة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثا للناس على الاستشهاد وتثبيتا لهم في دينهم . وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضا في ساحات الاستشهاد ، ويزورون المقبوض عليهم في السجون ، ويحضرون إلى جوارهم أثناء المحاكمات ، ويحملون أجسادهم ليدفنوها ، كل ذلك في غير خوف أو تردد . وكان الشهداء أنفسهم يتقبلون الموت في فرح . وكان الكثيرون منهم يترنمون في بهجة خلال آلامهم في السجون أو أثناء سيرهم في الطريق إلى ساحة الاستشهاد

وأخيراً أوقف الأباطرة هذه المذابح ، وسمحوا أن يعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حرية ممارسة عباداتهم بموجب المرسوم الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين وهو الذي اعتنق المسيحية ، وأصبح بابه أمام [illegible] الأباطرة . وهكذا انتهى على يديه عصر الاضطهاد الوثنية للمسيحية . ولم تبق من الوثنية في مصر سوى بقية ضئيلة ذابت بمرور الزمن .

ب – الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة

هذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة آلام ومجد ، وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحي وقادوا مسيحيي العالم في المعرفة اللاهوتية ، وليس أدل على ذلك من أن قانون الإيمان المسيحي الذي تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الإسكندري .

وفي خلال هذه الفترة وقف بطاركة الإسكندرية حفاظاً على الإيمان القويم ، فقاوموا الهرطقات وهي الانحرافات الخطيرة على الإيمان أو البدع الخارجة على الدين ، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم .

واشتهر اسم الإسكندرية في العالم كله ، وعرفت به المجامع المسكونية بصفتها واحدة من الكنائس الأربع الكبرى وهي كنائس روما والإسكندرية والقسطنطينية وأورشليم . وإذا كانت روما أهميتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية الغربية فإن الإسكندرية كانت أولى كنائس العالم في التعليم المسيحي وفهم الدين وشرح مواعيده ويدل على سمو الإسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة القسطنطينية العظمى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون في الدين وهراطقة . وهؤلاء البطاركة الذين حرموا هم : مقدونيوس الذي حرمه تيموثاوس ، ونسطور الذي حرمه كيرلس ، وفلابيانوس الذي حرمه ديسقورس ، ووافقت المجامع على هذه الحروم ، وصدق عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس في مجمع نيقية . وكان لهم في المجامع المسكونية مركزهم الممتاز فكانوا إما رؤساءها وإما تعطي القول الفصل توجيهاً لها .

وقد اشتهر بطاركة الإسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان ، بينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأخرى حتى ناصرها الأباطرة بعروشهم ، وبينما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب أو ضعف لا عن اقتناع ، نرى أن أساقفة الإسكندرية لم يتهاونوا فيه أيضاً عن الإيمان المستقيم محتملين النفي والعزل وألواناً شتى من الاضطهاد ووقفوا في وجه الأباطرة وقفات بطولية مشرفة . ولولاهم لصار العالم كله أريوسياً [illegible]

وهذه المقاومة التي قاومت بها مصر

الأباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة ، وانما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قياداتهم . كان الشعب المصري حريصا أشد الحرص على ايمانه ، يرفض تدخل الرومان في معتقداته من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحيانا على الاذعان له ، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم في صبر ورجولة . ويبرهن على ذلك أنه في حالة نفي البطريرك أو حربه أو سجنه ، كان الشعب بأسره — بدون بطريرك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت في كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والاذعان لقوة الشعب

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيرا ما يعزلون البطريرك المصري ، ويعينون بطريركا آخر في مكانه (كيدوكيا مثلا) ايمانه مخالف لايمان الشعب المصري ، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الاسكندرية عنوة ، وأن يجلس في الكنائس آمنا من أن يطرده منها الشعب ، ثم يبدأ هذا البطريرك الدخيل في اضطهاد مصريين وقتل الكثيرين منهم ليبوأ منصب البطريرك الشرعي . كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين الى الشعور بعزوفهم لمصره وبأن الرومان عنصر أجنبي مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه وأن البطاركة الدخلاء لا يختلفون في شيء عن الجنود الرومان المحتلين لبلادهم . لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطاركة ، وقد أصبح مثلا في بعض النواب على قتل أحدهم وهو جورجيوس الكبادوكي

هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس في عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء ، أي في زمن دقلديانوس الوثني المضطهد . وقد حرم أريوس من الأب بطرس ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه ولكن هذه الهرطقة لم تكن قوية ولا انتشرت في أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة . فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثني التفتت الى هذه الهرطقة وعمدت على حسمها فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطاركة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته . وانضم اليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى الى عقد مجمع نيقية المسكوني في سنة ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس ووضع قواعد الايمان .

وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحي ، كان من أبرزهم الأب الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسه أثناسيوس الذي لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره

أثناسيوس وجهاده

ولد أثناسيوس في الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى والثقافة المسيحية بحكم تربيته في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وصقلته البرية ثقافة نسكية روحية ، إذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات في البرية على القديس الأب أنطونيوس وقد اختاره الأب الكسندروس البطريرك تلميذا له ورسمه شماسا واصطحبه في سنة ٣٢٥ م الى مجمع نيقية

وفي مجمع نيقية بدأت شهرة أثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلما للايمان وسط ٣١٨ أسقفا يمثلون جميع كنائس العالم . وتمكن من تفنيد آراء أريوس في براعة واقتدار وتولى بنفسه صياغة قانون الايمان محققا في اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس ، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم . وفحص المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانونا كنسيا .

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس في العالم المسيحي ، وأهلته لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصبح بطريركا للاسكندرية سنة ٣٢٨ م ، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، حيث جعلت حياة الأب أثناسيوس سلسلة من الجهاد والآلام في سبيل الدفاع عن الايمان المسيحي . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم اليه بعضا من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة وأقنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأب أثناسيوس أن يقبل أريوس ، ولكنه رفض طلب الامبراطور وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين .

وقد احتمل أثناسيوس في سبيل ذلك النفي عن كرسيه خمس مرات في عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس . ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن أثناسيوس زعيما شعبيا في مصر يحبه ويطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له بل كان فوق ذلك ممثلا للايمان السليم في العالم المسيحي كله ، تنظر اليه كل الكنائس كحصنها الأول .

وفي هذا الصراع الذي اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصري كله يؤيده . وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملا فرديا من جانب البطريرك ، بل كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها . فحين رفض البطريرك قبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك الى

قيام ثورة شعبية في مصر ضد فيلوميوس واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس في حكم الشرق ، وكان أريوسيا فعين بطريركا أريوسيا على الكرسي الاسكندري بدلا من اثناسيوس واسمه جريجوري . ولما لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ، زوده الامبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه لحمايته خوفا عليه من حركات الشعب . ودخل كنيسة الاسكندرية محميا ضد من الأساقفة المصريين ، لتدخل سيريانوس قائد الحامية . وكان أريوس ... وحصل على ... الجمع متوعدا بتدمير المدينة كلها . حينئذ انسحب اثناسيوس وهرب الى روما ، وارتجت المدينة بهذا البطل المصري ذي المظهر المهيب الفقير . وانعقد مجمع في روما أقر براءة اثناسيوس ووجوب رجوعه الى كرسيه . كما انعقد مجمع آخر في سرديكا سنة ٣٤٣ م من مائتي أسقف حكم بشرعية رئاسة اثناسيوس لكرسي الاسكندرية . وكتب قسطنس امبراطور الغرب الى أخيه قسطنطيوس ، امبراطور الشرق ، ليطلب منه ارجاع اثناسيوس . وقد كان هدف اثناسيوس هو توحيد العالم المسيحي ضد الأريوسية بعد أن عاصرها الامبراطور ، واستطاع بعونه وتأثيره أن يسود لاهوت العالم المسيحي . أما في مصر فكان الشعب في اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين عينوا لسحب الأريوسي وخطر كنيسة الاسكندرية التي كان الأريوسيون قد استولوا عليها . وخاف الامبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب الى اثناسيوس سنة ٣٤٩ ثلاث رسائل متتابعة يطلب اليه في احترام ولباقة أن يرجع الى كرسيه . فرجع الأنبا اثناسيوس الى مصر واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ مثله الأباطرة

ولما كان الامبراطور لم يرجع اثناسيوس الا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد الى اضطهاد اثناسيوس وأمر بطرده من مصر . وعطل اثناسيوس هذا الامر عاما كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الامبراطور واقتحم الكنيسة التي كان يصلي فيها اثناسيوس . وعندئذ التف الشعب المصري حول راعيه ... الحسد ... في الشعب . أما الأنبا اثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة ، وفتح الشعب أبواب بيوته لاخفائه . وأرسل الامبراطور رسله الى مصر يحملون الأوامر بضرورة احضار اثناسيوس حيا أو ميتا ، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه

وعقد الامبراطور مجمعا في ميلان سنة ٣٥٥ م ضد الأنبا اثناسيوس ، وكانت غالبية

أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين ، وبعد عنه الامبراطور . قرر المجمع عزل أثناسيوس ، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب .

وهنا نجد نصب جورجيوس الكبادوكي بطريركا على الاسكندرية بوساطة الاريوسيين ذوي الحظوة لدى الامبراطور ، ثم اتخذ اجراءات تعسفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس . فقد استخدم جورجيوس القوة العسكرية لارغام الشعب على قبول المذهب الاريوسي ، فلما رفض أعمل فيه القتل ، وطرد الكثيرين من الأساقفة المصريين وزج باثني عشر منهم في السجون ، واقترح على الامبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل في الاسكندرية .

وفي عهد الامبراطور يوليانوس (٣٦١ — ٣٦٣) الذي ارتد من المسيحية الى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى قتل جورجيوس البطريرك الدخيل ، وعاد أثناسيوس الى كرسيه . ولكن هذا الامبراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفيا وأنه عاد بدون اذن ، وكتب الى والي الاسكندرية مهددا اياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه اذا ظهر أثناسيوس في أرض مصر كلها . ولكن أثناسيوس اختبأ في قبر أبيه ستة أشهر وهو طاهر بقدسية .

ولما تولى الامبراطور فالنس (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان أريوسيا ، أمر بنفي أثناسيوس مرة أخرى . فرفض الشعب القبطي تنفيذ الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا وقامت ثورة عنيفة في مصر واضطر الامبراطور الى الاذعان لرغبات الشعب .

وقضى أثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته في سلام حتى توفي سنة ٣٧٣ م بعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للاريوسية ، دون أن يخضع أو يلين في سبيل المحافظة على الايمان المسيحي في العالم كله وصونه من الانحراف . وفي خلال هذه الاضطهادات التي نزلت به اختبأ في مغارات الرهبان في الجبال وفي أديرتهم في الصحراء وفي بيوت المؤمنين في الاسكندرية ومرة في قبر أبيه ومرة أخرى في بئر جافة وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار فقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للرد على الهراطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية ، كما كتب رسائل للتشجيع للمؤمنين وللرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة .

واستمر الامبراطور فالنس في اضطهاده للمصريين بعد وفاة البابا أثناسيوس ، فنفى خليفته البابا بطرس الثاني (٣٧٣ — ٣٨٠) وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسي وأيده بقوات الامبراطورية . واصدر فالنس قانونا جديدا يعمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضي بالغاء امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية الذي كان مسموحا فيما مضى للرهبان وكذلك

سكان مصر المدن والقطاعات التابعة للأديرة من الضرائب وارغام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة . وقد تفشى كثير من هؤلاء المصريين أن يفقدوا حياتهم وهم يحاربون الامبراطور على أن يحاربوا في خدمة جيوش الامبراطور

فترة هدوء

وبعد الاضطهادات العنيفة التي أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون في شجاعة وصبر أيام عهدي البطريركين الأنبا أثناسيوس والأنبا بطرس الثاني ، آن لمصر أن تنعم بفترة هدوء عندما مات الامبراطور فالنس الأريوسي وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ — ٣٩٥ م) وهو الذي اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة . وساعد هذا القرار على اضعاف الوثنية ، فأمكن تحويل الكثير من معابدها الى كنائس . وقد أرجع هذا الامبراطور الأنبا بطرس الثاني من منفاه ، ولما توفى هذا البطريرك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريركا . وفي عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية في هرطقة ضد الروح القدس ، فاجتمع سنة ٣٨١ م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفا وحرم مقدونيوس وحرم هرطقته وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع ، وقام فيه بدور رئيسي .

ثم خلفه في البطريركية الأنبا ثاوفيلوس سنة ٣٨٥ — سنة ٤١٢ م ، وكان عهده عهد سلام وعمران ، سواء في عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خليفته أركاديوس (سنة ٣٩٥ — سنة ٤٠٨ م) .

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور

ثم خلف هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثاني) ، وكان طفلا عندما تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ — سنة ٤٥٠ . وكان محبا للكنيسة ورهبان الأقباط ، يرسل اليهم يتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من أموره الخاصة . وقد تمتع في عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة في التصرف ، حتى قيل ان بطاركة الاسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في تاريخ مصر ، بل أطلق البعض على هذا البطريرك « فرعون مصر » .

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس أثناسيوس في محاربة الهرطقة وسيادة الفكر المسيحي . اعتلى كرسي البطريركية سنة ٤١٢ م في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استقلال في مصر ، ودافع عن الايمان المسيحي . فبدأ بكتابة خطاب الى الامبراطور يمنحه فيه البركة ، وشرح له الايمان السليم ورد على الكتب التي كان قد وضعها قبلا الامبراطور يوليانوس ضد المسيحية .

ثم التفت الأنبا كيرلس الى نسطور

بطريرك القسطنطينية عند وصل في هرطقته لاهوتية أسلمته الى تعاليم مخصصة. لكن نسطور تمسك برأيه ورفض الاعتراف بتعاليم كيرلس، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف انطاكية، واعتمد على مساندة من عطف الامبراطور الصغير لم يحقق كيرلس ملاينة واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم في مصر بدور فرعون

ولم يجد القديس كيرلس مناصا من أن يستخدم سلطته كبطريرك أول في الكنيسة، فكتب الى أساقفة الصعيد يشرح هرطقة نسطور، كما كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس وأمه وأخواته، وبعث برسالة الى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الايمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكوني في افسس حضره مائتان من أساقفة العالم وكان مندوب الامبراطور في المجمع نسطوريا وهو كانديديانوس، ولذلك عمل نسطور على تهديد الآباء المجتمعين في افسس بأن دخل المدينة محاطا بفرقة مدججة بالسلاح ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة. وإزاء ذلك اضطر المجمع الى الاجتماع بدونه. وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع بخلع نسطور من كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية. وقد وافق الامبراطور على خلع نسطور وتجريده ونفيه الى البـــه

وعندما أقام الآباء أسقفا جديدا على القسطنطينية أرسل اليه القديس كيرلس خطابا هو رسالة ... في اعلان الحق ... يا خادم الله » وكذلك أرسل أسقف روما الى القديس كيرلس يهنئه بقوله « حسب الله، فأنت الرجل المصري أحسنت ... يكن خطر »

ويقول المؤرخ ستانلي في كتابه « محاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية » ما نصه « لقد أصبح البطريرك السكندري بعد مجمع افسس قاضي العالم، تطاع أحكامه في جميع أنحاء العالم المسيحي »

وقد خلف كيرلس أيضا كتبا كثيرة قيمة في اللاهوت وفي تفسير الكتاب المقدس

جـ ـ الصراع مع الأباطرة الناصرين لبابا روما

وعندما رقي مرقيانوس (سنة ٤٥٠ — سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل في أحلك وأقسى صورها، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان محنة اضطهاد مرا عنيفا لم يتخلله سوى هدنة قصيرة في عهد الملكين زينون وانسطاسيوس (٤٧٤ — ٥١٨)

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيستي روما والاسكندرية أدى الى انقسام مستمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا. وتعرف أتباع كنيسة روما باسم « الكاثوليك » بينما عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن ــ

على تسميتهم باسم « الأرثوذكس » ويسمهم أيضاً السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « اليعاقبة »

وقد نفى الأنبا ديسقوروس بطريرك الإسكندرية لمواظبته على مسائل بدعيه أوردها لاون أسقف روما حول طبيعة المسيح ، استخدم لاون نفوذ الامبراطور في نفي ديسقوروس عن كرسيه وفي محاولة إرغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجل الثبات على إيمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التي خاضوها في عهد أباطرة الرومان الوثنيين ، بل إن عدد الذين استشهدوا منهم على أيدي المسيحيين من أتباع مذهب الخلقيدونيين المخالف لمذهبهم قد يزيد بكثير عن عدد الذين استشهدوا على أيدي الوثنيين

وكان الملك كلما اختار الشعب المصري بطريركا قبطيا ، أمر بعزله عن منصبه ، ونفيه من مصر أو يهرب مختبئا في أرجائها ، ويعين بدلا منه بطريرك ملكي من أتباع مذهب الخلقيدونيين ، وينصب هذا البطريرك الدخيل بالقوة أملا في إرغام الأقباط على قبول مذهب غير مذهبهم ، فإذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الامبراطور فيهم القتل والسحل وكافة أنواع الاضطهاد

ولكي يزداد الاضطهاد ضراوة عمد الأباطرة منذ عهد جوستنيان إلى جعل البطريرك الملكي يجمع بين منصبه الكهنوتي ومنصب الوالي المدني ليجمع في يده السلطتين معاً ، وبعد أن كانت جميع كنائس الإسكندرية في أيدي هؤلاء الدخلاء فإنهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطاركة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الإسكندرية ، ولما كانت في أيديهم القوة العسكرية أيضاً فإنهم استخدموها في اضطهاد الأقباط كما يشاءون وقد استمرت هذه الحال حتى فتح العرب مصر فكان البطريرك القبطي الأنبا بنيامين هاربا من الرومان مختبئا في البلاد والأديرة المصرية بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتي الوالي الروماني والبطريرك الملكي ويضطهد المصريين

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التي اختلط فيها الاستعمار السياسي بالاستعمار الديني وقف الشعب المصري صامداً لا يلين ، يرفض كل بطريرك محتملا في سبيل ذلك صنوف العذاب ، ويرفض كل معتقد يخالف إيمان كنيسته القبطية ، ورؤية بطريركه القبطي وطنيه وهو هارب من كرسيه متشرد في أرجاء القطر أو متنكر في مكان ما ، وكذلك أظهر البطاركة شجاعة عجيبة وصبرا واحتمالا ، كلما اضطهدوا تنقلوا من مكان إلى مكان بين الأقباط في بيوتهم

وتشجيعهم على الصمود أمام عسف المستعمر .

حتى الأقباط هذا نفسها حارب هوى عاطفة التعصب المسيحي واضطرب الى الخضوع لسيطرة الأباطرة الرومان وبابوات رومه ، ولم تقلب الى جموح الاسكندرية غير أسقفية أنطاكية التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحدى أساقفتها الغرب والنفي ، وتحملوا شتى الغضب والاضطهاد في سبيل الايمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الاسكندري

(هـ) الانقسام الكنسي :

ثم قامت هرطقة أوطاخي ، فعقد بسببها في افسس سنة ٤٤٩ م مجمع سمي مجمع افسس الثاني وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية . ولما مثل أوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن ايمانه ، أنكر هرطقته انكارا باتا ، وقدم ايمانه مكتوبا يوافق ما أقره الآباء ، ولما نوقش شفاهة أجاب بنفس الكلام أيضا ، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخي على آباء المجمع ، فقرروا براءته مما نسب اليه ، وقبوله في الكنيسة هو ورهبان ديره الذين نال أحدهم منهم في البداءة معه بسببه . كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية لأنه كان قد حرمه .

ثم حدث أن دعا لاون أسقف روما سنة ٤٥٠ م الى عقد مجمع مسكوني يدعا اليه ديسقورس . وكان ديسقورس يرى ألا داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الايمان . ولكن الغرض أن لاون أسقف رومه ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الاسكندرية ودفعه ذلك الى أن يبحث بأنفسهم لأنهم لهم سوى عقد المجامع والتراضي عليها ، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيدة للتخلص من ديسقورس

ولما وصل ديسقورس الى القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعا أن ينعقد دهش من وجود بعض من أساقفة النسطرة محرومين محسوبين مع الآباء فأمر بطردهم ، ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا رومه طلب سماعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه في هرطقة النسطرية بينما أقرت أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة . ووقف بعض الأساقفة يشرح هذه المسألة في قوة واقناع حتى صاح الجميع « نحن على ايمان ديسقورس » . ولما رأى الامبراطور مركيانوس ذلك ـ وكان حاضرا الاجتماع ـ أوعز الى أتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع الى اجتماع آخر

وفي خلال ذلك دعي ديسقورس الى اجتماع خاص في قصر الامبراطور ، ولما أصر على تمسكه ، ونفى حرمه للأسقف لاون مادي مذهب الطبيعتين ، عذبوه عذابا ونفي ، وعقد مجمع في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وحضر بتهديد القوة

بدأ يضغط على الأســـاقفة حتى عزروا عقيدة الطبيعتين ، وعزل ديسقورس ، واتهامه بالأوطاخية بسرقته وطاخي ، الذي كان قد رجع مرة أخرى الى هرطقته ، والسبب أن توبته الأولى امام ديسقورس في مجمـــع افسس الثاني توبة زائفة ، كما حكم المجمع أيضا ببراءة لاون أسقف روما ، ولما فرضت قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء مجمـــع خلقدونية كلهم ، بسبب انحرافهم الايمان لدى واتفق عليه نفي ديسقورس الى جزيرة غغرا وأرسل المجمع الخلقدوني الى ســاقفة الكرسي السكندري يدعوهم للايمان بمذهب الطبيعتين فرفضــوا وقرروا عــدم الاعتراف بمجمع خلقدونية ، وبــدأ الامبراطور باستخدام القــوة لارغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية ، فلما رفض الأقباط قامت مذابح في الاسكندرية وفي الأديرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت المسيحية الى مذهبين وسعى ديسقورس وقف وحدة رجال الاساقفة في الانضمام اليه بعدما رأى ما فعلته القوة به وبشعبه ، الا ان ثورات شعبيـــة أخرى قامت في مصر وبلاد أنطاكية احتجاجا على قرارات مجمع خلقدونية فاستخدمت القوة ضدهم واستشهد منهم عدد كبير

وظل ديسقورس في منفاه حتى توفي سنة ٤٥٧ م ، وثاب أصحاب مذهب الطبيعتين فقد عيـــن مكانه بطريركا من مذهبهم اســـمه بروتيريوس ، فرفضه الشعب المصري وطرده من بطريركيته ، حتى اضطر الى الاستعانة بالقوة المسلحة ليتمكن من دخول الكنيسة واذ رفض الشعب منه وبدأ يترك الكنيسة له ومن يناصره من جنـــود الرومان ، أمر الجنود فأعملت فيهم السيف حتى في ذلك اليوم عيد الفصح ، كما قتل كثير من الرهبان ، واتخذ بعد ذلك بطريرك الدخيـــل ، واتخـــذت بعض اجراءات مدنية كايقاف الالعاب الرياضية ومنع الحمامات العـــامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح

ولكن الشعب المصري ظــل متمســكا ببطريركه المنفي الى أن توفي في منفاه سنة ٤٥٧ م ولم تدم بطريركيـــة بروتيريوس المكروهه أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندري انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية الى صعيد مصر في عهد الامبراطور ليون الأول (سنة ٤٥٧ — سنة ٤٧٤) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتيريوس واختاروا راهبا تقيا أقاموه بطريركا باسم تيموثاوس الثاني ولكن الامبراطور تحدى الأقباط وعزل الأب تيموثاوس الذي اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقورس ، الى جزيرة غغرا ، وعين مكـــانه بطريركا من مذهب الطبيعتين اســـمه سالوفاكيولس وكان السبب في ذلك هو أن الأنبـــا تيموثاوس الثاني جمع عددا من أساقفته في الكرسي

الاسكندري سنة ٤٥٨، وأصدر قرار بحرم مجمع خلقدونية فاضطر لاون الأول أن يعيد وينشر طومس تيموثاوس في منفاه بل أن ما أصدره الامبراطور بإرجاع بطريرك الاسكندرية الى كرسيه

فترة هدوء

لم تشهد الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (سنة ٤٧٤ — سنة ٤٩١) واستطاع البطريرك القبطي الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعا في القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدوني ورسالة لاون أسقف روما كما وزع منشور بذلك ورفض عقيدة أوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة وتحدث عنه المؤرخ الكاثوليكي فلاديمير يقول في كتابه عن التاريخ الكنسي أن تيموثاوس الذي وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا »

ولما توفي الأنبا تيموثاوس الذي خلفه الأنبا بطرس الثالث (سنة ٤٨٠ — سنة ٤٨٨)، نعمت الكنيسة بسلام في عهده أيضا، وبدأت محاولات للتقريب بين كنيستي الاسكندرية والقسطنطينية، وعقد من أجل ذلك مجمع في القسطنطينية سنة ٤٨١ م تقرر فيه الا ... القوية التي تمسكت بها الكنيسة المصرية، وأصدر المجمع ... كتاب « الاتحاد » ... عليه تلك الشروط. ولكن الاسكندرية شرطت على أساقفة القسطنطينية نقض قرارات مجمع خلقدونية صراحة. وبرغم تساهل أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الاسكندري رفض فيلكس أكاكيوس مجمع خلقدونية وسماه « مجمع المخالفين » ، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور فلقبه بطرس الثالث ، فلم يرق هذا بعض أساقفة الكرسي الاسكندري واحتجوا على بطريركهم قائلين له « كيف تقبل أكاكيوس الذي حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ » فرد عليهم بقوله « قد قبلته لرجوعه عن ذلك الرأي » . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان تمهيدا وقتيا الى مذهب الطبيعة الواحدة في عهد ملك ارثوذكسي مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية الى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية . وفي الواقع ان كنيسة الاسكندرية كانت صامدة في موقفها ثابتة على الايمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات ، ولم تثبت معها في ذلك سوى كنيسة أنطاكية

وقد استمرت فترات الهدوء أيضا خلال حكم انسطاسيوس (سنة ٤٩٦ — سنة ٥١٨) وفي هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستي الاسكندرية وأنطاكية لاتحادهما في الايمان الواحد

ولما تولى الحكم الامبراطور جوستنيانوس الأول (سنة ٥٢٧ — سنة ٥٦٥ م) وكان على كرسي الاسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث (سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥ م) ، حاول هذا الامبراطور ارغام كنيستي الاسكندرية وانطاكية على قبول مجمع خلقدونية فلما رفض ساويرس بطريرك انطاكية نفاه من كرسيه فجاء الى مصر ، وظل فيها هاربا يتنقل من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير محاطا بمحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم في الكنيسة وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم في الايمان . كما أخذ هذا الامبراطور يضطهد الأب تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وأمر بنفيه وجرت بسبب ذلك مذبحة هائلة قتل فيها نحو مائتي ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه ونفيه ، وبقي في منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها الى مركزه واستمر مناضلا عن الايمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك انطاكية حتى توفي سنة ٥٣٥ م في عهد الامبراطور جوستنيانوس الأول .

وخلفه على كرسي الاسكندرية الأب ثيودوسيوس الأول (سنة ٥٣٥ — سنة ٥٦٧ م) وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على تثبيته في منصبه على أن تكون له الرئاسة والبطريركية والولاية ، وتكون جميع أساقفة الكرسي تحت طاعته . فرفض ذلك وقال لرسول الامبراطور لا تقبل للملك سلطان الا على جسدي فقط ، أما نفسي فلاهي وأنا لا أتبع سوى ايمان آبائي » ، وترك كرسيه حسب أوامر الامبراطور في حالة الرفض وذهب الى منفيه ، فحاول الامبراطور ملاطفته وارغامه على ان يترك البطريرك منفاه وأرسل بدلا منه بولس التنيسي ليكون بطريركا على الاسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك الدخيل الى الاسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه « يهوذا الخائن » ، ولم يقبل أحد أن يصلي معه . فأرسل الى الامبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصري مكانا للصلاة فبنوا كنيستين في المكان المعروف باسم السواري غربي الاسكندرية . ولم تبق للبطريرك القبطي المنفي سوى هاتين الكنيستين لأن الامبراطور أمر بألا يعطى كنائس الاسكندرية الا أتباع البطريرك الدخيل وأقام الأب ثيودوسيوس باقي حياته في المنفى .

وقد خطا جوستنيانوس خطوة أوسع في اضطهاد المصريين وارغامهم على قبول المجمع الخلقدوني ، فعند وفاة ثيودوسيوس عين من قبله أبوليناريوس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها في نفس الوقت . وقصد من ذلك

أن يتخصص في يد الرئيس الديني العسكرية التي سحبه من سلطته وأمره . وقد بدأ هذا البطريرك الدخيل عهده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب الذين رفضوا سماع قداسه ، وحاولوا رجمه في الكنيسة حتى وقف يخاطبهم . وبهذه المذبحة تمكن من التخلص من أشد المعارضة لممارسته . وهكذا لم يحصل من هذا البطريرك الدخيل سوى حاكم مدني ، لأنه لم يتمكن من ممارسة شيء من السلطة الدينية التي ظلت في يد البطريرك الشرعي الذي اختاره الشعب . ولكن أساقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا في الاسكندرية .

وبذلك فعندما رسم بطريرك القبط الأب بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه ثيودوسيوس ، أقام في كنيسة بعيدة عن الاسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى في دير الزجاج بالقرب من الاسكندرية متنكراً في درجة أسقف لا بطريرك ، ودبر أمور الشعب من هناك . وقد سمع بذلك أهالي انطاكية فقلدوا كنيسة الاسكندرية ، فرسموا لهم بطريركا بعد وفاة القديس ساويرس أسموه ثيودوسيوس أقام مختبئاً في دير [illegible] لأن أصحاب الطبيعتين هناك [illegible] الأساقفة [illegible] أنطاكية نفس السياسة التي قامت في الاسكندرية .

ثم قام البطريرك الأنبا دميانوس الاسكندري وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩م وقد قضى مدة رئاسته التي بلغت ستا وثلاثين سنة مختفياً في دير الزجاج أيضاً في درجة أسقف .

ثم تولى البطريركية أنسطاسيوس سنة ٦٠٥ م وزاد اضطهاد الروم للأقباط حتى ان الروم حرموا الأقباط الكنائس التي بوسط مدينة الاسكندرية .

ثم تولى البطريركية الأنبا أندرونيكوس سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقيم في الاسكندرية معتمداً على قوة أسرته التي كانت غنية جداً وتمتعها ببعض المناصب الادارية الكبيرة في المدينة ، ولم تستطع قوة الروم أن تخرجه منها . وربما يرجع السبب في ذلك أيضاً الى أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك في حالة يرثى لها ، إذ اجتاحت جيوش الفرس كثيراً من نواحيها . ولما زاد تقدم الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للامبراطورية هاجر كثير من أهالي سوريا وفلسطين لاجئين الى مصر ، وهاجر يوحنا البطريرك الملكاني من انطاكية ومعاونيهم هرباً من هجمة وزحف جيوش الفرس . وقد قتل الفرس آلافا من الرهبان الأقباط وخربوا كثيراً من الأديرة .

وفي سنة ٦٢٢ م تولى بطريركية الاسكندرية الأنبا بنيامين الذي عاصر الفتح العربي لمصر . وبعد سبع سنوات من بطريركيته عين هرقل سنة ٦٣١ م بطريركا ملكانيا

(ملكي) اسمه كيرس Cyrus وهو الذي اشتهر باسم المقوقس ، وجمع بين البطريرك بين وظيفتـــه الكهنوتية ، بين وظيفة الوالي فيكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم الى مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل لم يكن موفقا في اختيار هذا الرجل الذي كان ضيق الصدر ، فانه لما عسرت عليه استمالة المصريين الى مذهبـه تضاعف اضطهـادهم اضطهادا رهيبا مما نفرهم منه في وقت كانت الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج الى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفهـا في حربها مع الفرس

أما البطريرك القبطي الأنبـــا بنيـامين فاختفى هو وسائر أساقفة مصر جميعا وظل ينتقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع في أيدي الرومان

واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة من الملكانيين في بلاد مصر كلهـــا من الاسكندرية الى أسوان ، فنكلوا بالأقباط تنكيلا شديدا

ولكن هـــذه الحالة لم تستمر طويلا اذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العربيـــة الى مصر ، وفتحها سنة ٦٤١ م وحين استتبت له الأمور أعطى أمانا للأنبا بنيـامين فرجع الى كرسيه في الاسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة وبدأ يعيد الى الكنيسـة أولئـــك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل في قبول قرارات مجمع خلقدونية وصرح عمرو له بفتح الكنائس واقامة العبادة فيها

الفصل الثاني

الحيـــــاة اللغوية

اللغة هي الأداة التي يعبر بها الانســـان عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتقي شعب ، وتتنوع الأعمال فيه ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحي حياته . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت الى درجة كبرى من الرقي ، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظهـــا المتنوعة وقواعــدها التي تضبط التركيب ، وتعبيراتها ومصطلحاتها في شتى العلوم . كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والشعبي ، وغير ذلك من الميـــادين دافعا الى نشاط اللغة وحيويتها ، واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور .

مراحل تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل

ا ـ اللغة المصرية القديمة : وهي لغة الأسر من الأولى الى الثامنة منذ حوالى سنة ٣٤٠٠ ق م الى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر ، ومنها نصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .

وبهذه اللغـــة خصائص مميزة في بعض تعبيراتها واملائها .

ب ـ اللغة المصرية المتوسطة : هي لغة الآداب من الأسرة التاسعة الى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالى ســنة ٢٤٠٠ ق . م الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأدب نحو الشيء عند الطلبة .

جـ ـ اللغة المصرية الحديثة : وهي لغة الأدب من الأسرة الثامنة عشرة الى الرابعة والعشرين أي منذ حوالى سنة ١٥٨٠ الى سنة ٧١٠ قبل الميلاد . ووجدنا مدونا بها وثائق خاصة بالمعاملات ورسائل ، وبعض الحكايات والقصص الأدبية ، ووردت بهـــا نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ، على أنه لم تظهر بها الا على قليل . ولقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة .

د ـ الديموطيقية : وهي مســـتخدمة في الكتب والوثائق التي كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين الى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ الى سنة ٤٧ قبل الميلاد .

هـ ـ القبطية : هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

كتبت اللغة المصرية القديمة في مراحلها المختلفة بثلاثة خطوط هي الكتابة والنصاحب في مصر حين

عدم دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية . وبمضي الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها في وثائقهم ومعاملاتهم حتى ولو كانوا يجهلونها . ولا جدال في أن اللغة المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية والتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا يفوتنا أن نذكر أن غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أي لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية .

وقد صحب ازدياد استخدام اللغة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية . وتم وضع الأبجدية القبطية لتنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة ورفعها الى مصاف اللغات الأدبية ، وأدى ذلك الى أن ظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادي .

اسمها : سميت بالقبطية لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يسمون أقيبطا ، ويعني معناه مصري .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمي مصر قديما باسم « مصر » فكانت تسمى في الأشورية وسميت في الآرامية « مصرين » وفي العبرية « مصرايم » وعرفها العرب باسم « مصر » . والمصر في اللغات السامية بمعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السامية من آشوريين وآراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . ومما يستحق الملاحظة أن كلمة مصر معناها في اللاتينية يسمى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضا .

وسمى القبط مصر باسم كيمي « السوداء » أي الأرض السوداء . وأسماها الآشوريون في نقوشهم الاسفينية « هيكوبتاه » وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » وكان اطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل اطلاق العاصمة على القطر كما نفعل ذلك في الحديث الآن .

وسمع اليونان هذا الاسم فأخذوه منهم منذ عصور قديمة وأسموها « ايجبتوس » وورد اسمها هذا عندما عرفت في شعر هوميروس . فإذا حذفت علامة الرفع (و س) ثم الحركة الأولى التي تشبه الحرف استهلال فحصل لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التي اجتازتها كتابة هذه اللغة فهي :

١ ـ الخط الهيروغليفي : الذي اكتسب صفته المقدسة ، وقد أعطى هذا الاسم « هيروغليفي » المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما « هيروس » = مقدس ، و« غليفين » = نقش .

ب ـ **الخط الهيراطيقي** وهو اسم من الهيروغليفي بمعنى الشيء ويستعمله الكهنة في كتاباتهم ، والتسمية مأخوذة نصا من اللغة اليونانية ، ومعناه « خاص بالكهنة »

جـ ـ **الخط الديموطيقي** : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالشعب » ، فالخط الديموطيقي هو الصورة المبسطة التي أخذ الشعب المصري يستخدمها في كتاباته في العصور المتأخرة

د ـ **الخط القبطي** كانت محاولات فردية من مصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية وكان ذلك في العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثني نصها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية ، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفي باريس ولندن

وكانت هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة بسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أي شأن بالمسيحية واتهى الامر بأن استطاع شخص او جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطي وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا الى الأبجدية اليونانية سبعة حروف أخذوها من الخط الديموطيقي ، لتعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف السبعة شاى (ش) وفاى (ف) وخاى (خ) وهورى (هـ) وجنجا (ج) تشيما (تش) وتي (تي)

اللهجات القبطية معروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى ، وهذا أمر واضح بين سكان مصر الآن وهذا طبيعي في اللغات اذ تنتشر في منطقة واسعة وتتوارث عبر العصور ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسا لما وجد منها في اللهجات القبطية المتعددة

قسم العلماء اللهجات القبطية الى قسمين

ا ـ **لهجات مصر السفلى**

وتعرف منها الآن البحيرية نسبة الى بحر أي بعة الاراضي المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمديرية البحيرة وهي اللهجة الأولى التي وصلت الى درجة اللغة الأدبية وكان ذلك في مدينة الاسكندرية

ب ـ **لهجات مصر العليا** :

١ ـ الصعيدية نسبة الى صعيد مصر وهي لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلي ، وكانت تسمى بالطيبية

٢ ـ الفيومية : انتشرت في الفيوم

٣ ـ الأخميمية : تكلم بها أهل مدينة أخميم من القسم الشمال للصعيد

هذه اللهجات الأربع هي اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات

١ ـ المنفية : سادت في منطقة منف جنوب مدن البحيرة

٣ — الأخميمية الفرعية أو الأسيوطية انتشرت فيما بين المنيا وأسيوط وهي قد اشتقت من الأخميمية

٦ — البشمورية : اشتقت من البحيرية وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تتكلم بحسب اليونان في شرقي الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية

٤ — والمشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نص منها في الجبانات بالواحات الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالواحات

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات تمتزج بعضها في بعض كما نلاحظ هذا أيضا في البحيرية ودليلنا على ذلك وجود صيغ مختلفة للكلمة الواحدة

ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتي

١ — أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية

٢ — دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية وبخاصة في العصر المسيحي

٣ — أبدلت بعض الحروف في الكلمات وبخاصة الحروف الساكنة ... كأن يقال « س » بدلا من « ش » أي ستة ، كما حذفت على بعض الكلمات مثل « انبي » بدلا من « نب » أي سيد

٤ — كتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم إلا الحروف الصامتة

٥ — حفظت لنا القبطية كلمات لم نعثر عليها في المصرية القديمة

٦ — وأعطت القبطية كلمات مصرية قديمة

اختفاء اللغة القبطية

أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع الميلادي ونعني أن حلول العربية محل القبطية في الكتابة سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ، ثم صارت لغة التعليم ، ولما جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون في اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة وكان يفهمها أغلب سكان مصر ، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحري وظلت القبطية لغة التخاطب في الوجه القبلي حتى القرن السابع عشر

ويقول المقريزي في القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشة « والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطي الصعيدي وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية » ويقول ماسبيرو « ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر »

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها حينئذ بقيت الكنيسة تستخدم في الصلوات وقراءات الكتب المقدسة ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط : في الأديرة أو المساجد ، عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها فقد طبعها بعض العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراستها

اثر اللغة القبطية خارج مصر

بالرغم من أن اللغة القبطية بعد قومها ، الا انك ترى لها آثار عالية ، تشهد بعض ألفاظ قبطية انتشرت في اللغات الأوروبية مثل الواحة (وازيس) ، وكومى أى الصمغ (في الايطالية جوم ، وفي الفرنسية جوم وفي الانجليزية جم) ، والسوس ، والأبيس وشبهات ، وهي منطقة وادى النطرون (اسقيط) ، (ومنه اسم السمك في اللغات الأوربية) ، والابنوس ، ومثل كلمة طوبة أي (الآجر) مثل من الألفاظ التي نعرف تاريخ انتشارها في الخارج ، فقد أخذها العرب عند فتحهم مصر عن القبطية وحملوها معهم الى الاندلس فدخلت الاسبانية ثم صحح الاسبان جنوب أمريكا فصارت هناك لفظة (أدوبى) ثم أخذها الأمريكيون الشماليون فأمريكا تحتوية

فقد الكلمة في اللغة لانجليزية شكلها الاسبانى

ومن آثار القبطية أيضا أن القديسين كيرلس ميثوديوس وأخاه مكرودوس عندما وضعا الأبجدية الروسية في القرن التاسع الميلادى أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة من الديموطيقية في الأبجدية الروسية

اللغة القبطية وأثرها في العربية :

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية الا أن ذلك لم يحصل دون أن تضفي شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية في مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه في الأقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن في مصر فمن الكلمات القبطية التي دخلت العربية أسماء نباتات مثل برسيم ، أرديب ، بيه ، أم قويق ، حلق ، لبيس ، طرطور ، كحك ، فلة ، كحة ، قمة ، بشه ، ماجور ، سمسح ، بيوت ، ترمس ، بوبو ، تاف ، بصارة ، رقاق ، سنه ، صعاب ، طوبة ، تحية ، تنحلا ، سنط ، شرلة ، شرب ، شوطة ، شوربة ، حلوم ، ودان ، شرشة ، شبورة ، بلح ومن أنواع السمك البورى ، والبنى ، واللبيس ، والرى ، والساس ، والشبه ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، هلوس ، هوش ، كلك ، نكت ، نط ، نتف ، وخمس (دحس) ،

شمس « شس » تسمى . وكذلك تعبيرات مثل « الوزوز » للفحل الصغير ، والقلاوى ووحة « ابعة أو الوعى » والكاس تسمى الأبم » وبوت للحاوى تسمى حشمع » وبلى بمعنى الفرح » ونحن ما زلنا نرددها فى « بيلى يا عيس » » ريح تسمى التمى » وكانى مالى . . ومنه استعمال أداة الاستفهام فى آخر الجملة ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلحظه فى أسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة

مدة تسعة قرون وهى مدة سيادة اللغة اليونانية ورغما من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل « أبولونوبوليس » لقوص ، وأكسيرنخوس للبهنسا ، وليتوبوليس لأوسيم ، وبانوبوليس لاخميم ، وهرموبوليس للأشمونين ، وهيراكليوبوليس لأهناسيا فإن الأسماء المصرية بقيت متداولة ثم لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك محافظة العامة القبطية على هذه الأسماء القديمة

الفصل الثالث

الحياة الفكرية

١ - الإنتاج الفنى والفلسفة

الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية

كانت الاسكندرية قد وصلت الى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهلينى النابض. وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد اليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان فحسب ولكن من كل جهات العالم ، يحملون معهم علوم بلادهم وثقافتها. وازدحمت المدينة بأناس من شتى الأجناس والأديان والنزعات ، حتى لكأنها كانت معهد ثقافى

كان فيها المصريون الوطنيون بديانتهم المعروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية ، والى جانبهم عاش اليونان بعقليتهم العلمية وفلسفاتهم وآلهتهم الاغريقية والمتمصرة ، والرومان بلغتهم ودينهم وتشريعاتهم وعاداتهم ؛ وكان هناك اليهود يشغلون عنصرا هاما فى المدينة ولهم فيها حى خاص ومعهم ديانتهم الإلهية وكتابهم الموحى به وتقاليدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية فى المدينة لها أيضا عاداتها وثقافتها

ولقد التقى كل أولئك فى شوارع المدينة وأسواقها. وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية كانت تؤدى الحماسة لها أحيانا الى معارك ومنازعات. كما تقابل علماء كثيرون فى المكتبة وتناقشوا فى خصومة حينا وفى تفاهم حينا آخر ، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية ، وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية المشهورة وأخذت الاسكندرية مكان أثينا كمركز أدبى للعالم اليونانى

ومن ذلك كله حدث لون من الامتزاج الفكرى تولدت عنه أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة ، بل حدثت محاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة فى حركة عرفت باسم « التوفيق » Syncretism .

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتفظة بتقاليدها بينما اختلط الباقون بغيرهم من الشعوب ، وعملوا على التقريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة ومزجوا بين الاثنين حتى أنه فى القرن الثانى قبل المسيح كتب أرسطوبولس تفسيرا للتوراة حاول فيه التوفيق بين تعاليمها

والفلسفات المعاصرة ، بل قال ان فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبي واعتمدوا عليها في كتاباتهم وكذلك الفيلسوف اليهودي الاسكندري الذي عاش في القرن الأول الميلادي حاول هو أيضا التوفيق بين العقل والوحي ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب أضافت الى الأفكار المتضاربة أفكارا جديدة ولم تستطع أن تصل بالناس الى الحق الواحد ، بل ظل العقل البشري حائرا يتساءل أين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والايمان.

الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية في الاسكندرية حوالي سنة ٥٥ م واشتهرت في فترة وجيزة في مصر كلها . وكان عليها لكي تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام ، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية

وهكذا حدثت مبارزة عجيبة في الاسكندرية ، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر لمحاربة بعضهما ، فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين . وهكذا نرى « كلسوس » و « بورفيريوس » وغيرهم يهاجمون المسيحية في تعاليمها التي يرسمونها في الأناجيل محاولين أن يحطوها تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن « الثالوث » يستشهد فيه بكثير من آراء الفلاسفة والحكماء والشعراء الوثنيين.

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة في تعاليمهم وعباداتهم وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية نذكر من بينهم أثيناغورس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتبا على نسق الأناجيل لها أبطال سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يحطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التي ألفها بورفيريوس وهي لا تختلف كثيرا عن حياة أبولونيوس التي كتبها فيلوستراتوس . ورد المسيحيون على كل ذلك معتمدين على التاريخ والعلوم والفلسفة واللاهوت في ردودهم

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أعني بين العقل والايمان الذي يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل ، كان من نتائجه ظهور فلسفة الصوفية ، وفلسفة الأفلاطونية الحديثة

الغنوصية وتاريخها ومدارسها — الغنوصية مذهب في المعرفة ، واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية « جنوسيس » ومعناها المعرفة ، وقد سمى الغنوصيون أنفسهم بهذا الاسم تمييزاً لهم عن المؤمنين ، وقادوا في رفع قيمة المعرفة والحط من قيمة الايمان ، ثم وضعوا العقل فوق الايمان ، والفلسفة فوق الدين ، وجعلوا الفكر الخاص رقيباً على الوحي ، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات وينكر المعجزات والآيات الخارقة للطبيعة

واعتقدوا أن الانسان يتكون من ثلاثة عناصر روح ونفس وجسد وقسموا الناس حسب العنصر الغالب فيهم الى ثلاث طبقات.

أ — الروحيين وهم الغنوصيون الذين رفعتهم المعرفة الى مستوى عال فوق المادة والحس ويسودهم العنصر الالهي

ب — الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس

ج — النفسانيين وهم متوسطون بين الاثنين ، يمكن أن ترفعهم المعرفة الى درجة الغنوصيين الروحيين ، ويمكن أن تنحدر بهم المادة الى درجة الجسدانيين

وهكذا نرى أنهم جعلوا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله ، وجعلوا من قضية المادة ضداً وعتبروها شراً فجعلهم حركة عقلية تحاول السمو عن المادة والحس ، كما تحدر بعضهم الى الدعارة وتعفي الانتصار على الحس بالانهماك فيه وكان الغنوصيون في مصر من النوع الأول الناسك

ومعنى هذا أن الغنوصيين كانوا جميعهم وثنيين ، والبعض كان منهم مسيحيين أيضاً ولكن هؤلاء نظروا الى نزعتهم التي اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصاً روحيين في حين اعتبروا باقي المسيحيين نفسانيين فقط غير قادرين على النهوض من الايمان الأعمى الى المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقي الناس ماديين أو جسدانيين ورأوا أن نظرية الفداء في المسيحية هدفها تخليص الانسان من المادة والجسد ، وقالوا ان هذا كان هو عمل المسيح الفدائي ولكن لأن الغنوصية قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الايمان المسيحي فقد حاربتها الكنيسة من مصرها ، وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت الغنوصية بذلك بوضع هرطقة وحاربتها

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوصية الى أيام تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن سيمون الساحر الذي حرمه بطرس الرسول كان أحد مؤسسيها الأول على ان الغنوصية لم تظهر في قوتها الا منذ القرن الثاني حين تسربت في مصر

وقد تكونت مدارس كثيرة غنوصية في سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي روما أيضاً وفي بلاد الغال وقرطاجنة ، وتشترك هذه المدارس على الأخص في البلاد التي

ناهيك عنها المسيحية على العصيان قريب بالمهودية والوثنية . وتفرعت عنها فروع صبغ كل منها بطابع خاص مثل السولاوريين والماركوسيين والناسيين . ولكن أقرب وصف للعرب فيه الغنوصية كان على يد ييسوعها الكبير فالنتينوس الاسكندري الذي يجوس عنه « شافه » انه « أسس أكبر مدرسة للغنوصية ، وكانت له سلطة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع تتشرب فيه الغنوصية » .

فالنتينوس ، هو مؤسس أحمل وأصح الانظمة الغنوصية وأكثرها تأثيرا ورواجا كان مصري الجنسية واسكندري الثقافة درس الغنوصية ونشرها في طابع جديد ظاهري له جمال فني . وبعد أن قضي فترة في الاسكندرية ذهب الى رومة حيث لوبل بترحاب كبير . وأسس هناك مدرسة غنوصية واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه ، وكان من أوائل الغنوصيين الذين علموا في رومة وقضى بها حوالي سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك ، حسب رأى بعض المؤرخين . ثم تركها وذهب الى قبرص حيث أسس مدرسة أخرى للغنوصية لاقت رواجا كبيرا حتى قال عنه القديس ابيفانوس انه « كاد يقضي على الايمان هناك » واستقر هناك حتى مات حوالي سنة ١٦٠ م . وكان له تلاميذ كثيرون سواء في ايطاليا أو في بلاد الشرق ، ومن أشهرهم بردجسان وبطليموس وهرا كليون والمودوكس ، وقد نشروا تعاليمه في صور متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار رجال المسيحية في العالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس في افريقيا وايريناوس في بلاد غال ، وابيفانوس في قبرص وغيرهم .

الوثائق القبطية ، عثر مؤخرا على وثيقة قبطية هامة من الفلسفة الغنوصية تدعى « حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت ازدهار مدرسة فالنتينوس في أواخر القرن الثاني الميلادي أو أوائل الثالث . وتسجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس وموضوعها مقابلة حوارية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شعري مؤثر .

كما عثر سنة ١٩٤٦ في نجع حمادي على حوالي ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردي بها ٤٧ رسالة في الغنوصية . وهي محفوظة الآن في المتحف القبطي بمصر القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا بها لأنهم يتوقعون أن تلقي ضوءا على هذه الفلسفة .

الغنوصيون الارثوذكس . اذا كان قد انضم الى الغنوصية كثير من الوثنيين واليهود أو من المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة ، فانه قد انضم اليها أيضا جماعة من المسيحيين من كبار معلمي الكنيسة . ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوصية التي حاربتها الكنيسة ، وانما كان

فهم . أي فهم الخاص في الغنوصية بمعناها الصحيح الذي لا يتعارض مع الدين . ومن أشهر هؤلاء القديس اكليمنضس الاسكندري أحد مشاهير من تولوا ادارة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتابا مقسما الى ثمانية كتب وسماه « المتنوعات » وعارض فيه الغنوصية الوثنية . وقال ان الغنوصية الحقيقية يجب أن تبنى على أسس من الايمان والمعرفة الصحيحة التي هي الحكمة الالهية . ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها كثيرون من المسيحيين الذين اعتبروها خطيرة على المسيحية ، بل انه أعلن ان « الفلسفة خادمة للاهوت » ، وأن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعدهم للايمان المسيحي كما كانت الشريعة بالنسبة لليهود . وهكذا اعتبر الفلاسفة « أنبياء الوثنية » . ودعا المسيحيين الى دراسة الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق . ورأى أن الغنوصي الحقيقي يجب أن يتزود بكافة أنواع المعرفة لتساعده على الايمان وتثبته فيه . واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء المتعمقين في فهم الحق هم الغنوصيون الحقيقيون أو الغنوصيون الأرثوذكس .

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار عليه مشاهير مديريها من أمثال أوريجانوس وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشروه بين الجموع التي لا تحصى من تلاميذهم .

ولكن جميع هؤلاء — على عكس فلاسفة الغنوصية الأخرى — قد وضعوا اللاهوت فوق الفلسفة والوحي فوق العقل ، وبذلك مهدوا لبعض الاتجاه .

الأفلاطونية الحديثة

وهي فلسفة جديدة وجدت في الاسكندرية على يد « أمونيوس سكاس » . وقد قدمت للبشرية فكرة امكان الاتصال المباشر باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى وصلت الى جميع العقول من عقل الامبراطور الى عقل العبد . وانتشرت بسرعة وسط العامة الذين استطاعوا أن يفهموها ، وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحية .

أمونيوس سكاس : ولد من أبوين مسيحيين في الاسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل أنشأ مدرسة فلسفية في الاسكندرية نشر فيها تعاليمه التي أخذها من دراسته لفلسفة أفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التي اشتملت عليها فلسفة سكاس ولكننا نقول ان الفلسفة أخذت على عاتقها اتجاهات مختلفة كلية عن اتجاهات سابقيه . لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وانما كانت أيضا نظاما دينيا ، أو كما يقول البعض انها « صوفية

المسيحية إلى لاهوتية . وقد توفي أمونيوس سقاص حوالي سنة ٢٤٣ م دون أن يخلف لنا كتابة . وما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينوس (أفلوطين) وبورفيريوس خليفة أفلوطين .

وولد أفلوطين في أسيوط سنة ٢٠٤ م ودرس الفلسفة في الإسكندرية مدة إحدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاص ، ثم ذهب إلى بلاد الفرس ليدرس دياناتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م في روما حيث أنشأ مدرسة للأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة الغنوصية التي أسسها هناك فالنتينوس الإسكندري ، واستمر يدرس في روما حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

وخلفه تلميذه بورفيريوس الذي وضع ٥٤ مؤلفا شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيريوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرا من تعاليمها .

ولا شك أن انتصار قادة الفكر المسيحي على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ما وصل إليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق في الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هي ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الفعال ممثلا في الأفلاطونية الحديثة التي أصبحت صنيعة العصر وانتشرت في مدارس الإمبراطورية الرومانية .

فأنشأ تلاميذ بورفيريوس مدرسة في سوريا ، وذهب إلى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة يحملونها إلى مدارس آسيا الصغرى واليونان وإلى الإسكندرية ذاتها . واستمر ذلك إلى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب أفلوطين تتداول في أيدي المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضا عن مؤلفات بورفيريوس .

٢ — مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي

الحاجة إلى إنشاء هذه المدرسة

انتشرت المسيحية انتشارا سريعا وازداد عدد المنتمين إليها ، وكان من الضروري أن يوضع التعليم المسيحي على أسس منهجية منظمة ، لإعداد هؤلاء المنضمين إلى المسيحية وتأهيلهم للمعمودية والانضمام إلى الكنيسة ، وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم بمبادئ دينهم وتعاليمه وتزويد الراغبين منهم بما يريدونه من الدراسات العميقة والتعمق في فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الإسكندرية للتعليم المسيحي .

ولم تكن هذه الأسباب الإيجابية فقط

هي الداعية لاكتساحها ، فقد كان هنالك سبب آخر لا يقل عنه خطورة ، ذلك أن العالم الوثني كان يقف للمسيحية بالمرصاد محاولاً بكل قواه وبكافة الطرق العقلية والعملية والاتهامية أن يقضي على هذه الديانة الجديدة ، وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها . وكان لا بد أن توجد مدرسة علمية تزود الكنيسة بضمانة للفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التي تمكنهم من الرد على خصومهم سواء كان ذلك في مجادلات فردية أو جماعية . وكان غرض المسيحية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم ، وحماية المؤمنين مما يثيرونه فيهم من شكوك ، وليبشر أولئك جميعاً بالمسيحية ولعرفهم طريق الحق .

وهكذا تركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية في المدرسة اللاهوتية . وبتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل في مناهجها وتضيف اليها مواداً جديدة لتفي بحاجة العصر . وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة طبيعية الاحتياجات التي واجهتها ، والتي تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدينية والكنسية .

تاريخ المدرسة وتطورها

ويرجع تاريخ هذه المدرسة بحسب يوسابيوس القيصري والقديس جيروم الى زمن القديس مرقس الرسول وعلى ذلك فهو الذي أسسها في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي ، وعهد بادارتها الى يسطس الذي صار فيما بعد أسقفاً للاسكندرية . على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث على أيدي مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس وأكليمنضس وأوريجانوس وديونيسيوس . ثم توقف نشاطها قليلاً أو تعطل بعض الشيء في أواخر القرن الثالث ، اذ شتت الاضطهاد أساتذتها وتلاميذها ، الا أنها ما لبثت أن رجعت في القرن الرابع الى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير . واستمرت الى أوائل القرن الخامس ، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة في الأديرة .

في الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هي المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم المسيحي ، فقد كانت هناك مدارس مسيحية في بلاد أخرى . ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول الى مستوى سيطرة مدرسة الاسكندرية وتفوقها ، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها في المسيحية ، بأن انجذب اليها من شتى الأقطار للدراسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة . وكان مدير المدرسة يصير الثاني بعد البطريرك في الاسكندرية

وكثير ما اختير بطاركة الإسكندرية من بين مديري هذه المدرسة اللاهوتية. وقد أعطى هذا بطاركة الإسكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية في العالم المسيحي كله، إذ كان كثير من أساقفة العالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدي تلاميذهم في مدرسة الإسكندرية، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة، على صلة بأساتذتهم الإسكندريين يستشيرونهم في مشاكلهم. وبذلك لقب بطريرك الإسكندرية بلقب «قاضي المسيحية في العالم». وكانوا يعتبرون في المجامع المسكونية حجة ومصدرا للتعليم الصحيح.

مشاهير أساتذتها

قدم بين القرن الثاني للميلاد ثلاثة مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة وثنيين، تعمقوا في الفلسفة اليونانية ثم درسوا المسيحية لينقضوها أو ينقدوها، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بها ودافعوا عنها، وتطوروا حتى صاروا مديرين لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وهم أثيناغوراس (سنة ١٧٦ م)، وبنتينوس (سنة ١٨١ م)، وأكليمنضس (سنة ١٩٠ م). وقد ظل أثيناغوراس يرتدي زي الفلاسفة وهو مدير للمدرسة المسيحية.

وخلفه تلميذه بنتينوس الذي نجح نجاحا كبيرا في إدارة المدرسة فجذب إليها الطلاب في العلم والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم. وكان ممن استمعوا إليه تجار من الهند فأعجبوا به جدا واقتنعوا بالمسيحية بحماسة عظيمة ولم يكتفوا بذلك بل حركتهم غيرتهم الدينية على خلاص مواطنيهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم إلى بلادهم — وفدا إلى البابا الإسكندري ديمتريوس يلتمسون منه أن يسمح بإرسال القديس بنتينوس إلى بلادهم ليبشرها بالمسيحية، فأوفده إلى هناك سنة ١٩٠ م فترك المدرسة في يدي تلميذه أكليمنضس وذهب في رحلته موفدا إلى هناك. وفي رجوعه من الهند عرج في زيارة تبشيرية على الحبشة وبلاد العرب.

ويرجع إليه الفضل في تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه أكليمنضس الذي عاونه في إدارة المدرسة وخلفه فيها.

أكليمنضس الإسكندري: وهو واضع سياسة التعليمية الجريئة التي سارت عليها مدرسة الإسكندرية المسيحية في كافة عصورها. وكان قبل تحوله إلى المسيحية فيلسوفا وثنيا، درس فلسفة اليونان ثم جاب في طلب العلم في بلاد اليونان وإيطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى، غير أنه لم يجد بغيته خيرا من أستاذه بنتينوس. وهو مثل معلمه ضليع في كافة العلوم الدينية والكنسية. وتظهر معارفه الواسعة في مؤلفاته وفي الطابع الجديد الذي اتخذته على يديه مدرسة الإسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين، كما

منح الناس امام تلاميذه الحسم نوع المعرفة وقد وضع كتبا كثيرة بها أحسنها بحثه بالحكمة. ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب «مستوعات» ألفه بحارس به العروبية متعرضة، ووضع فيه الأسس التي ينبغي أن يبني عليها المؤمن المصلح أو الفيلسوف المسيحي. ولما ثار اضطهاد الامبراطور سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة ٢٠٢ م تاركا المدرسة في يدي تلميذه العظيم العلامة أوريجانوس الذي فاقه شهرة وصيت نابغ مثل أوريجانوس. فهو أشهر علميــة

أوريجانوس لم تعرف المسيحية نبوغــا مسيحيه في مصر وفي العالم المسيحي كله طوال عصوره المتتالية. وقد سار في قيادة مدرسة الاسكندرية على سياسة أستاذه اكليمنضس.

ولد حوالي سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء خارق للعادة وقدرة عجيبة على الاستذكار وصبر على الدرس والاطلاع. واستطاع في سن مبكرة أن يستوعب قدرا ضخما من المعلومات تأثر بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية، تتلمذ على القديس كليمنضس الاسكندري كما درس على أمونيوس السكاس مؤسس الأفلاطونية الحديثة. وفي سنة ٢٠٢ وهو في السادسة عشرة من عمره سبق والده الى الاستشهاد في أيام الاضطهاد الذي أثاره سبتيموس ساويرس. فلما جزعت والدته أرسل هو الى والده يشجعه ويقول له «لا تتراجع ولا تضعف بسببنا».

وبعد هروب الاضطهاد اضطر القديس اكليمنضس الى ترك الاسكندرية فعهد البطريرك ديمتريوس بادارة المدرسة اللاهوتية الى أوريجانوس وهو بعد في الثامنة عشرة. وكان هذا اعترافا بما وصل اليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة. ولقد نجح نجاحا كبيرا جدا في عمله في التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية.

وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب كما درس عليه فلاسفة وثنيون وعرافته واستطاع أن يجذب كثيرين منهم الى الايمان. وكان قدوة في الفضيلة والنسك حتى انه لم يذق الخمر ولا اللحم في حياته، ولم يكن له غير ثوب واحد. وقال عنه يوسابيوس «انه كان مثالا في الأعمال للتهذيب العقلي. كما يتكلم، هكذا أعماله؛ وكما هي أعماله، هكذا يتكلم».

ولم ينثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعبا فحسب بل كان يجعله خطرا أيضا. ولم يكن للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يلتفون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقي العلم. وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس لدرجة أنه لم يوجد في المدينة كلها أي مكان

له ولم يتعش من شرب الخمر وكان يجرد
من كل ما كان يعيب عليه مسحة للأغنياء والوجهاء
حتى كان ينام على بدنه

وكان في أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه في السجن ويصحبهم الى حيث محاكمتهم ويتبعهم الى مكان الاستشهاد ، لا يبالي أن يكون معهم تحت سمع وبصر جلاديهم ، يشجعهم ويشجعهم الى أن يسلموا الروح ، بل انه وضع كتابا في الحض على الاستشهاد

أما عن نتاجه العلمي فهو أضخم نتاج لمؤلف حتى حين انه كتب ستة آلاف مؤلف، ولكن هذا يحصي مؤلفاته حوالي الألف وكان يملي على عدد كبير من النساخ ، وقد قال عنه جيروم انه كان يكتب أو يملي حتى وهو يأكل . ومن أشهر الأعمال التي قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ومقابلتها ونقدها وتصحيح ما يحتاج الى تصحيح وقد استمر في هذا المجهود الجبار ٢٨ عاما ، فوضع لنا الهكسابلا ، أي ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها في أعمدة متقابلة كما وضع كتاب « المبادىء » وكتاب « الرد على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وضعه المؤرخون سالف الذكر بأنه لا أسقف الا بطريرك أو أسقف مصري العلم » ويرده الى منه الكهنة ... مرو ... فلسطين في حدود ...

هذا وقد بنى هذا العالم البطريرك ديمتريوس وحصل معه خيرة ... و ... الاسكندرية وبين مدرسة في قيصرية فلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدحم عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس لا يزال حتى يومنا هذا مثار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه ، على أن البطريركين اللذين خلفا ديمتريوس في كرسي الاسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس ويقال انهما أعفياه من ذلك الحرم

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد الى التبشير ، فسافر الى روما والى بلاد العرب للتبشير على بعض البدع فيها كما سافر مرتين الى أثينا كما ذكر هارناك .

ولما تولى ديسيوس عرش الامبراطورية الرومانية أثار اضطهادا شديدا على المسيحيين ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠ م وسجن وعذب عذابا أليما . ويقول يوسابيوس لا يصعب على الكاتب أن يصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله في صبر وارتياح من تعذيبات مرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد . ولكنه لم يلبث ... بعد أن تحطم صحته وكاد يشرف على الموت ولم يعش بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ... لا ...

ولد ديديموس حوالي سنة ... في
الإسكندرية في سنة ٣١٣ م في أسرة مسيحية وقد
فقد بصره في طفولته المبكرة . وفي حوالي
الرابعة من عمره فقد بصره بمرض أصابه في
عينيه . فبدأ يدرب ذاكرته تدريباً دقيقاً حتى
أصبحت قادرة على حفظ كل ما يسمعه .
ولما كبر بدأ يتعلم القراءة بتحسس الحروف
على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه كما شهد
المؤرخ سوزومين بذلك . وهكذا استطاع
ديديموس الضرير أن يسبق طريقة برايل
بخمسة عشر قرناً . وتمكن من إتقان علوم
كثيرة ، فألم بالشعر والبلاغة والمنطق
والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على
تنوعها . كما برع في العلوم اللاهوتية
ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن
يعينه القديس أثناسيوس مديراً للمدرسة
اللاهوتية بالإسكندرية .

وفي ذلك الوقت كانت الحركة
الأريوسية على أشدها ، وكان التعليم
محصوراً بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدنيين
بآرائهم ضد الإيمان السليم ضد عزل الأساقفة
وتعريضهم للنفي والاضطهاد . ولكن ديديموس
لم تثنه اضطهادات الأباطرة الرومان لشريكه
أثناسيوس الذي نفي من كرسيه خمس مرات
بل وقف يجاهد بقصد يكون مؤيداً في تعليمه
الإيمان ضد الأريوسية في بلاط
الأباطرة ، كما جاهد ضد الهرطقة في
الأفلاطونية الحديثة وضد المانيين .

وقد كان مجاهداً في حياته ضد الأريوسيين
والوثنيين ... كان كل جهده مركزاً في أن
يفهمهم ويحولهم إلى الإيمان الحق . فهو مهم
وقد تحاشى السباب ، وجاءت كل كتاباته
موسومة بروح الاعتدال . ومن أجل ذلك
... من تلاميذه يتصرف العلم على
يديه — كما حدث لأوريجانوس — وهدى
على يديه كثيراً من أمثال أوريجانوس إلى
الإيمان .

وقد ذاع صيت ديديموس وامتدحه
القديس أنطونيوس بقوله « لا يحزنك فقد
بصرك إذ لزمت بصيرة أعين جسدية كالتي
يشترك فيها الحشرات والذباب . وأحرى بك أن
تبتهج لأن لك أعيناً كالملائكة ترى بها
اللاهوت وتدرك نوره » كما امتدحه كثير من
قديسي الغرب وكتابه . وكان القديس جيروم
يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه اتخذه
قدوة له في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم
له أحد كتبه . وممن تتلمذ على يديه روفينوس
أيضاً . تتلمذ عليه لمدة سنوات .

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد
لمدرسة الإسكندرية مجدها الذي كان لها أيام
أكليمنضس وأوريجانوس . واستمر في عمله
كمعلم حتى نهاية حياته سنة ٣٩٨ . وخلف
حوالي ٤٠ مؤلفاً في اللاهوت والتفسير
وكان سنداً لأثناسيوس ومعضداً فكرياً
للكنيسة ضد الأريوسية . وقد ظل
محتفظاً بقواه العقلية .

باقي الأساتذة

ثم كان ديديموس الضرير في منصب القرن الرابع بعنوان ... أن ... إلى ... أنه أدار هذه المدرسة ... في علومهم ، ويعبرون على الأمور اللاهوتية » .

ويكفي أن الاثنين اللذين خلفا أوريجانوس صارا بطريركين للإسكندرية ، أحدهما القديس ديونيسيوس صاحب النصيب الوافر في معرفة اللاهوتية ، والثاني بيريوس الذي كان ناصعا في الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس جيروم إنه « درس تلاميذه كل أنواع المعرفة بمهارة وكتب مقالات في شتى المعرفة حتى لقب بأوريجانوس الصغير » .

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية

كانت المدرسة الوثنية قد بعثت دروسها في العلوم والفلسفة في القرون الأولى المسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة في العالم القديم تعدلها كمركز للدراسات الطبيعية والعلمية في الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى في النقد الأدبي . وإذا كانت أثينا قد تميزت بمدرسة للفلسفة وجامعة فيها للسفسطائيين كبيرة منفصلة الواحدة عن الأخرى فإن مدرسة الإسكندرية الوثنية درست فيها كل فلسفات الفلاسفة معا ، وكان بها علماء ... كل فلسفة ... في ... والمراجعة بل إن الإسكندرية أنجبت الأفلاطونية الحديثة ، ويرجع ... الغنوصية ، ويضرب هائج الفلسفي في أنحاء العالم ... ولهذا كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية منافسا خطيرا للمدرسة المسيحية الناشئة التي كانت تشمل أتباع مجهودات المسيحيين في دعم الفكري مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبا إلى جنب ، كل منهما كان لها طابعها الجامعي ، وكانتا كمرآة تعكس الحياة الثقافية في الإسكندرية وتبادل ... وقد أثر كل منهما في الأخرى ، فمثال ذلك أن أمونيوس سكاس كان في المكتبة يحصل التعليم الذي تلقاه ... كان مسيحيا ، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية . ومن ناحية أخرى ، أثر أوريجانوس بمحاضرات أمونيوس في ... ، و... كلاليناموراس يعتبر من الفلاسفة حتى ... أن ... أستاذا في المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم في المدرستين كان مختلفا ، فتاريخ التدريس في المدارس الوثنية يدل على أن الطلبة كانوا يعملون ويتمرنون ليتولوا مناصب الدولة ، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية وإن كان خريجوها يعملون ... بذلك ... غير مباشر . وبينما كان الهدف في المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافي وكان المستوى الأخلاقي للأساتذة منحطا ، كانت الحياة الفاضلة

والأخلاق كانت من أبرز جوانب المدرسة المسيحية سواء في هذا الجانب أو في نطاقه. ومن أهم اختلافات المدرستين هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس في المدرسة الوثنية لمجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسة المسيحية لغرض ديني.

وفارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافي واجتماعي معين وكانوا ذكوراً، بينما كان التعليم عاماً في المدرسة المسيحية يشمل السيد والعبد، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة. وهكذا جذبت المدرسة المسيحية كل العناصر الاجتماعية، وفتحت بابها أيضاً للفلاسفة الوثنيين والهراطقة، وازداد عدد طلبتها ازدياداً كبيراً.

على أن المنافسة الحادة بين المدرستين كان لها أثرها الفعال القوي في نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت في تلك القرون الأولى المسيحية، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل في برامجها كل المواد التي تدرس في منافستها الوثنية، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين.

هكذا أدخلت الفلسفة الوثنية ضمن برامجها في منهج المدرسة المسيحية على يد القديس كليمنضس الاسكندري الذي نادى بأن الفلسفة خادمة للاهوت، وأن اللاهوتي الحقيقي من المسيحيين يجب أن يكون ضليعاً في أنواع معارف البشرية، آخذاً من كل نوع من أنواع المعرفة ما فيه من الحق. وازدهرت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى أن كثيراً من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون إلى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدينية واللاهوت.

وأدخل اكليمنضس دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية، وأدخل إلى جانبها دراسة الأدب والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا. كل ذلك وجد له موضعاً في منهج اكليمنضس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت. وسار خلفاء اكليمنضس على نفس هذا النهج. وهكذا كان أوريجانوس وأمثاله من الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفلك كمداخل للفلسفة، ونحن بنفس الأسلوب نتكلم عن الفلسفة كمدخل للمسيحية.

ولم تكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب، وإنما ساعدوا طلبتهم أيضاً على القراءة بحسب شاملهم — في الكتابات كافة لمؤلفين دون أن يمنعوهم عن شيء. فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعرفة ويتحصنون بها، ثم يجلس الأساتذة في محاضراتهم مناقشة في موضوع ما قرأوه.

واشتهر في كل ذلك مدرسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريباً عملياً . وكان المدرسون يعدون طلبتهم في الحياة الفاضلة متابعة ... وبعثوهم على فضيلة الا كانوا هم مدرسوها هم أنفسهم قدوة ولقدوتها

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين مدرستين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا نظير لها في أي بلد آخر من بلاد العالم المثقف . وأصبحت الاسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وصارت مقصد كل راغب في الدراسات العليا في شتى العلوم الدنيوية والدينية

ولما كانت معرفة لا تحد عند كاتب هذه المدرسة في مدرسة الاسكندرية عن محدودة فالفيلسوف أوريجانوس من صانع المعجزات بعد أن أتم دراسته في الفلسفة واللغة والبلاغة في أثينا ... تتلمذ على أوريجانوس وكان يتمنى لو أتيح له أن يقضي بقية حياته في المدرسة

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وقد كان أساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والأساتذة يذهبون الى مكتبة الاسكندرية العامة للقراءة والاطلاع

٣ — الإنتاج العلمي والأدبي والنهضة الشعبية

الانتاج العلمي :

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة براعة في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة ، والهندسة والفلك . واستمروا على نبوغهم في هذه العلوم طوال العصرين اليوناني والروماني ، حتى أصبحت مدرسة الاسكندرية الوثنية القديمة هي أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات . ثم تأسست المدرسة اللاهوتية المسيحية وانحصر في مدرسي هذه ... ونبغ من كل ... نهضة علمية لا مثيل لها . وكان من الأقباط أساتذة تخرج عليهم عدد كبير من علماء العالم القديم

وظهر منهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وإيرازستراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديسقوريدس صاحب شهرة بعيدة . كما ظهر الصيدلي الماهر كريبيوس كلسوس الذي وضع مذكرة ... الشهيرة لعلاج ... الأسنان ، وبطليموس الاسكندري الذي تعمق في دراسة ... قديمة للمصريين ... الكروية العلمية ... وهو الذي قدمها للعصور ... وظلت مستعملة في القرن الثامن عشر

ووضع العهد في الإسكندرية عالمية مصطلحات الطب ، ومنها مثلاً كلمة Medicina عقار و medicamentum دواء أو سم و apotheca مخزن الدواء ، وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة .

وهذه الشهرة التي نالتها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت إليها العديد من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها . ومن أمثلة ذلك جالينوس العالم المشهور الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد والذي تنسب إليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المنسوبة في هذه العصور الحديثة ، هذا العالم تتلمذ في الإسكندرية وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته .

وقد نشط العالم بدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية وما فيها من فائدة . وقد ظهر بحث للأستاذ « تل » في العقاقير الطبية القبطية يبين منه مدى تقدم الأقباط في الصيدلة والكيمياء والطب . كما وضع الأستاذ « دوس » سنة ١٩٣٤ م كتاباً عن تاريخ الطب عند الأقباط في القرون الأولى المسيحية وشرح بالإضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وجد من مخطوطات القبطية الطبية بردية « شاسيناه » التي تشمل علاج أمراض العيون وعلاجات الجراحات وعلاج بعض أمراض النساء والأطفال . وقد وصف فيها من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق منها قطرة قاطعة جميع الأمراض . ولا تقل هذه البردية أهمية عن هذه البردية أيضاً . وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل إليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول في صناعة الدواء وتحضير العقاقير كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأعمال التي تتم على النار .

ويعترف « ميتولنسكي » في كتابه الطب الشعبي المقارن ، أن كثيراً من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصري القديم ، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا تزال مستعملة في مصر وفي كثير من بلدان الشرق .

ولم يقتصر نبوغ الأقباط العلمي على الطب والصيدلة والكيمياء ، وإنما نبغوا في الحساب والرياضة أيضاً . ويدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسابية والمالية والإدارية طوال العصر الإسلامي بل ظلوا إلى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة في هذا المجال .

ولم يقل نبوغهم في الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم في الطب والحساب . ويشهد على ذلك الكنائس الفخمة التي شيدوها والأديرة ذات الأسوار والحصون الضخمة

و...ب على ذلك من آثار « أحاسيه » تم بوجود ... والتدوين الأبيض والأحمر في صفحة سوهاج وغيرها من الآثار المعمارية الكنسية التي ... على أن هيئة الشرع ... فلسفة ذكر « الأزرقي » في كتاب أخبار مكة أن الكعبة طبق عليها قبيل ظهور الإسلام سيل عظيم صدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها مستعينة في ذلك بنجار قبطي كان يسكن مكة وأثبتت الأوراق البردية التي عثر عليها في مصر أن الوليد استعان بالقبط في بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ، وقصر أمير المؤمنين هناك . ويذكر « البلاذري » في فتوح البلدان أن الوليد استعان بالقبط في إعادة بناء مسجد المدينة

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوي في المدينة عهد بذلك إلى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف في الإسلام ، وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى في شرق الأردن الذي يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثامن الميلادي قد تأثر في زخارفه بزخارف القبطية وفي تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج . وتتجلى البراعة الفائقة في بناء مهندس قبطي هو سعيد ابن كاتب الفرغاني لجامع ابن طولون مستخدما في ذلك عمودين فقط بعد أن قال مهندسون لابن طولون أن ذلك المسجد يحتاج إلى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمود . وبني

كروي « الأثر القبطي على الفن الإسلامي » ... في ... نشره في مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٦

ومن آثارهم في الفلك حساب الأبقطي الذي وضعه في القرن الثالث للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الإسكندرية . وسار الأقباط هم الذين عهد إليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحي كله . ومثال ذلك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فوض بطريرك الإسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية في ذلك

صناعة الورق

وجدنا من مخلفات العصر القبطي الكثير من الكتابات التي تثبت أنهم أجادوا صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل المصري هذا الورق أحسن استغلال في تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته

فالمصري في كل عصوره ... إذا ما تناول الفن أو العلم — أظهر ثباتا على مصريته ومحافظة على تراثه . وذكر الأستاذ « جورجي » في معرض كلامه عن مدرسة الإسكندرية في مقال له عن عصر الانتقال ... في مصر من الوثنية إلى المسيحية ما ترجمته « لقد سعى الإسكندر الأكبر إلى ... الروح المصرية بالصبغة الهيلينية ، واقتفى البطالسة أثره في ذلك وحاولوا جهدهم أن يصبغوا المصريين بالصبغة ... على الفكر المصري صبغة يونانية

بعضه . وقد ثاروا في عهد [illegible] سنين عدة سنة
حروب [illegible] الوطنيون [illegible] أرضهم
وحتى البعض أنهم يحبون في [illegible] و
[illegible] رأى المصرى وقد شغف بمختلف
نوع الثقافات يأخذ منها أينما وجدها ،
ويستسيغ الفن حيثما يلقاه . ولكن المصرى له
قدرة عجيبة على تكييف الغريب وفق مزاجه
ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه ، وهو — بعد
هذا كله — مصرى أصيل جذوره في هذه
التربة التى ازدهرت فوقها حضارته العريقة
فالمصرى — مع كل ما يقتبسه من علوم وفنون
غريبة — [illegible] ، شغوف ببلاده
مهد الفجر وهذا الشعب متأصلا فيه [illegible]
حد بعيد الغور ، فهو ثابت في مصريته بحيث
لا يمكن اقتلاعه منه أو انحرافه عنها مهما
تعرض للأزمات .

[illegible] في كل عهد [illegible] أصبحت مصر
وبطاركتها [illegible] التشريع الكنسي طوال
القرون الأولى للمسيحية وكانوا يشتركون
معه في تنظيم قانون الكنيسة [illegible]
المسيحي

التاريخ الكنسي

١ — تاريخ بطاركة الإسكندرية

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم
في النواحي [illegible] فلها حضارة ذات عهود
العريقة [illegible] وكانت معبودات مصرية في
بلادها [illegible]
معبودات الشعوب الأخرى [illegible] في [illegible]
البلاد الأخرى أصبحت معبودات مصرية
[illegible]

[illegible]
عهد الكنيسة المصرية تحتل مركز [illegible]
الرفيع بين كنائس العالم وسيادة على ذلك
ما عرف عن علماء مصر من تعمق في معارفهم
وعلومهم . وقد أخذ [illegible] الذى يشتد
ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادي ،
فعقدت المجامع العالمية (المسكونية) بدعوة
من أباطرة الدولة البيزنطية ، وكانت رئاسة
تلك المجامع [illegible] التي حضرها أساقفة
مندوبون عن كنائس العالم المسيحي كله —
تسند في أغلب الأحيان إلى بطاركة الكنيسة
المصرية .

فهكذا كان بطاركة الكنيسة المصرية
مركز [illegible] في العالم أجمع ، وكان الأباطرة
المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم
ويخشون [illegible] لأنهم كانوا زعماء يمثلون
قوة شعبية جبارة [illegible] أقوى من جيوش
الأباطرة .

ومن ثم كان تاريخ هؤلاء البطاركة —
الزعماء الشعبيين — أمر هام [illegible]
اشتركوا في الحوادث السياسية التى دارت
والتى كان لها طابع ديني على الأغلب ، فقد
[illegible] الإمبراطور [illegible]
[illegible]
[illegible] على
[illegible] بين

سمو الأسرة تطورت معها عادات [illegible] ،
[illegible] الشعب والحياة العامة
والحروب والثورات . وكان البطاركة يحيون
حياة [illegible] في بعض الأوقات العصيبة ،
نادي الشعب وهم يعانون [illegible] والفقر
والقهر أو [illegible] الأباطرة [illegible]
لهم اجلالا واحتراما . فتاريخ الشعب لهم
ومصيرهم حتى نستطيع أن نلم بالكثير من
التقاليد والعادات المصرية بل وبنواحي الحياة
المختلفة من مجموع هذه التراجم التي تظهر
لنا روح العصر الذي عاش فيه هؤلاء
البطاركة

المصادر التاريخية لسير البطاركة

كتب مؤرخون كثيرون سير بطاركة
الكنيسة المصرية ونذكر من أشهرهم :

أ ـ يوحنا النقيوسي

في النصف الثاني من القرن السابع
الميلادي ، كتب تاريخا يبدأ بخلق العالم إلى
ما بعد الفتح العربي لمصر [illegible]
ويحوي تاريخه أخبارا مقتضبة عن الآباء
البطاركة من مرقس الرسولي الذي بشر
بالمسيحية في مصر في القرن الأول إلى أنبا
بنيامين البطريرك الذي عاصر الفتح العربي

ب ـ ساويرس بن المقفع

أسقف الأشمونين بمركز ملوي [illegible]
في النصف الأخير من القرن العاشر وأدرك
الحاكم [illegible] الفاطمي ثم
[illegible]

البطاركة [illegible]
[illegible]
[illegible] الأسقف [illegible]
[illegible] القبطية واليونانية والعربية من [illegible]
[illegible]
[illegible] مصادر
قديمة [illegible] في الأديرة [illegible] مصادر [illegible]
[illegible] وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقس
الرسولي الى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠
– ٨٤٩ م) . وقد ذكر ساويرس أنه ترجم
هذه السير الى العربية من مخطوطات قبطية
ويونانية ترجع الى عصر المؤرخ [illegible] وهذه
[illegible] ذكره أن معظم هذه الأصول
قد خرج من مصر ، وهي موجودة الآن في
المكتبات الكبرى في [illegible]
[illegible]

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة
تاريخية [illegible] الذي عاش فيه
البطاركة [illegible] الترجمات [illegible]
المقريزي [illegible] كتاب [illegible]
[illegible] في كتابه [illegible]
أيضا القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى »
وقد ترجمه [illegible] ونشره [illegible]
مع ترجمة الى الانجليزية في مجموعة الآباء
الشرقيين

جـ ـ الأب ميخائيل أسقف تنيس

عاصر الأب [illegible]
[illegible]

مخطوطة في حاشية الفاتيكان ٨٨ ٩٠٢ م

في مخطوطة باريس ٣٣٢ ٩٠٦

د – الأنبا يوساب اسقف فوه

في جيل القرن الثالث عشر الميلادي وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه

وقد أكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها ولسير تواريخ البطاركة حلقة هامة في تاريخ مصر العام

٢ – السنكسار :

وهو الكتاب الذي يضم سير الآباء القديسين ويحوي قصصاً دينية يصور لنا النواحي الاجتماعية في العصر الذي عاش فيه الآباء أصحاب التراجم وهو بذلك يكمل التاريخ ويساعد على فهمه وقد نشره باسيه » بالعربية مع ترجمة الى الفرنسية ثم نشره « أوبري » مرتباً بحسب الحروف الهجائية

وله كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره وأشهر من دونوا سير الآباء « بلاديوس » الذي كتب سير الرهبان المصريين ، واثناسيوس الرسولي بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع ، الذي كتب سيرة « القديس انطونيوس » والقديس « مكاريوس » وجيروم وغيرهم ممن دونوا سير القديسين والشهداء المصريين وقد نشرها في مجلدين العلامة « ديلهاي » كما وضع القديس يوحنا كسيان (في ...) عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين منها « بوستان الرهبان » ونقلها إلى الفرنسية ، كما نشرت ترجمته الى الانجليزية في المجلد الحادي عشر من موسوعة « آباء نيقية وما بعد نيقية »

٣ – تاريخ المجامع

أرخ الأقباط – بطابعهم القبطي الخاص – للمجامع المحلية والمسكونية ، مما كان له أكبر الأثر في المحافظة على هذا التاريخ

(أ) المجامع المحلية

وكانت تعقد في مدينة الاسكندرية برئاسة البطريرك للنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وفي المسائل المختلفة التي كانت تعرض

(ب) المجامع العالمية (المسكونية)

وكانت تعقد في القسطنطينية أو في مدينة تتوسط الإمبراطورية . وكان الامبراطور البيزنطي هو الذي يدعو الأساقفة للنظر في البدع الدينية التي تظهر في اقليم من أقاليم الدولة . وكان أعضاؤها محدودين يمثلون جميع الكنائس في العالم المسيحي وعلى المجمع أن يتخذ القرارات التي تدحض تلك البدع من جهة وتقوي الايمان من جهة أخرى وقد سبقت الخلافات المذهبية حركة الفتح في الدولة ... أنهكت قوتها ومزقت وصالها

ولذلك يؤلف ثلاث مجاميع فصولا أساسية في تاريخ الدولة البيزنطية

وفي التاريخ العام كان للأسقف أوسابيوس الكبير مخطوط فيه وصفوه من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة إلى التاريخ الكنسي فحسب ، بل في التاريخ المدني أيضا

ومن أشهر الكتب التي ألفت في هذا المضمار الكتاب الذي أرخ فيه يوحنا النقيوسي للعالم من بدء الخليقة الى الفتح الاسلامي ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر

يوحنا النقيوسي

كان معاصرا لفتح العرب مصر . كان في بدء حياته راهبا عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة ، فرسم أسقفا على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادى بمديرية المنوفية) ، ثم رقى رئيسا لأساقفة الوجه البحري ، ثم عين في شيخوخته سنة ٦٩٤ م مديرا لأديرة وادي النطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة فقد حكم الاساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتي بسبب قسوته الشديدة في تأديب راهب على خطيئة ارتكبها

وقد خلف لنا كتابا هاما أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بقليل وكتابه مقسم إلى ١٢٢ بابا . الاثنا عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربي حيث نعلم عنه التفاصيل والأسباب . ويعتبر الكتاب هو المرجع الأول والأساسي في هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه بنفسه

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العربية وبعضه ترجم الى اليونانية أيضا . ولكن لم يصل إلينا غير الترجمة الحبشية

ويدل الكتاب على ما وصل إليه يوحنا النقيوسي من علم غزير وتعمق في البحث والاعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه الحرية التي توخاها الكاتب في سرد التاريخ

وليس صحيحا ما ذكره زوتنبرج الذي نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبيته باليونانية على حين وضعت الأجزاء الخاصة بالقبطية

١ - لأنه من المستبعد على كاتب قبطي متمسك بعقيدته أن يكتب مواضيعه تاريخ تعالج ظلم مضطهديهم الروم

٢ - كانت اللغة اليونانية قد أخذت في الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأنبا شنوده

٣ - صيغة أسماء الاعلام في النص الحبشي تدل على أنها أخذت من أصل قبطي

وقد ظل الأقباط محتفظين بولاء للقسطنطينية حتى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين . وظهر منهم كيرلس وكوموس وبقطر . ويعرف في القرن السادس يوحنا فيلوبونوس النحوي

لدى القبط في الأدب والفلسفة والرياضة ومن المعروف أنه عند الفتح الإسلامي كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في المدرسة اللاهوتية الإسكندرية ، ونذكر من بينهم [illegible] وهاروت الفلس

وقد [illegible] الدولة الإسلامية [illegible] كثير من [illegible] التراث العلمي في حركة الترجمة التي قامت بها فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل إلى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صنعة الكيمياء [illegible] ومعه في هذا [illegible] من خلفائه وولاته [illegible] وكان [illegible] الخلافة في بغداد [illegible] العلوم فيها باعثا على انتقال العلماء من مصر إلى [illegible] ويذكر المسعودي [illegible] مذهب ابن [illegible] من الاسكندرية في أيام عمر بن عبد العزيز إلى انطاكية ثم نقله المتوكل إلى حران

الإنتاج الأدبي والثقافة القبطية

المخلفات الأدبية القبطية بالنثر وتشمل فروعا كثيرة أهمها

١ ـ ترجمة الكتاب المقدس :

وهي في الدرجة الأولى من آداب اللغة القبطية وقد أحدثت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثاني ، ويعتبر من أهم الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملمين تماما باللغتين [illegible] كانت محاسنه الدينية [illegible] حتى [illegible] القرن الرابع أو الخامس إلا وكان الكتاب كله مترجما إلى اللهجتين الصعيدية والبحيرية وبعض أجزائه إلى اللهجتين الأخميمية والفيومية

٢ ـ أقوال الآباء :

وهذه [illegible] على فروع كثيرة منها الأقوال النسكية التي كتبها [illegible] [illegible] وكلها تحض على [illegible] والتجرد من [illegible] وعلى التقشف وعلى العفة وتنقية النفس ، ومن أمثلتها الرسائل المعروفة التي [illegible] القديس أنطونيوس إلى تلاميذه ، والأنظمة التي وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، ومن [illegible] القديس [illegible] من [illegible] (مواعظ) [illegible] في الحياة الروحية وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التي كانت تلقى في أيام الآحاد أو الأعياد أو بعض المناسبات الأخرى ، ومن أشهرها خطب الأنبا شنودة في [illegible] الوثنية [illegible] لتعاليم المسيحية ، ومع أن الآباء كانوا [illegible] الهدف [illegible] [illegible]

٣ ـ سير القديسين

وهي كثيرة [illegible] بوصف حياة وجهاد [illegible] الرهبان والمتوحدين [illegible]

وبعض الآباء البطاركة والأساقفة ، ولم يكن هدف هذه المخطوطات التاريخ خاصة ، وإنما كان موضوعه في سطور ... عن قصص الإيمان حتى كان من ينتجها يشارك في الرغبة على السير في المسيرة القصصية ، وهي في الواقع تحتاج فحص مسائل كثيرة منها هؤلاء القديسين الذين كتب سيرهم ... الآباء في الكتابة

٤ ـ القصص

وقصة دينية فيها عناصر وتصوير شعبي ، قصة ملكة سبأ ومقابلتها سليمان الحكيم أو قصة الملك يوحنا وربيس الدير ، وبعض وطني نحس به الأقباط من شعورهم القومي الذي ظل مكبوتا مدة طويلة تحت نير المستعمر ، ومن أمثلتها رواية الإسكندر الأكبر ، وقد وجدت ترجمتها الصعيدية في الدير الأبيض ، وورد به الكثير ... ولكنها لا صلة لها بالدين ولا بالعقائد الأخرى ، وكذلك قصة ثيودوسيوس وديونسيوس

٥ ـ الإصلاح الاجتماعي

تظهر روح الإصلاح في حث الأساقفة شعوبهم على محاربة البدع الموجودة في عصره كالدجل والتطير والسحر والتوسل بالموائد ... كل على ... السيدة ... وما إلى ذلك

٦ ـ أغراض أخرى :

مثل الأدب الحكمي ونصوص العبادة ونصوص أخرى ... والسحر

لم نقصد بما تقدم أن الأقباط قد نظموا في الأغراض السابقة مختلفة ، فقد كان النظم السائد في تلك العصور الأدبي المسيحية يدور حول ذلك ، فهم ينظمون في المدح أي مدح الملائكة والعذراء مريم والأنبياء والقديسين والشهداء ، في نظم يعرف باسم الذكصولوجيات وهي كلمة معناها (تمجيد) ، وقد جمع الكثير منها أوليري سنة ١٩٢٤ في كتابه المسمى Coptic Hymns ، أما مديح العذراء مريم فالكثير منه تقرب من نمط يسمى الثيوطوكيات ، وقد نشر « أوليري » سنة ١٩٢٣ كتابه المسمى The Coptic Theotokia جمع فيه كثيرا من المقطوعات الشعرية القبطية التي وجدت في دير القديس مقاريوس والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطاني ، وقد ثبت أن هذا النوع من النظم كان مستحبا لدى الشعراء الأقباط يستعملون فيه مواهبهم ، كما ذكر « أوليري » أن هذه الثيوطوكيات لها مكانة عظمى في الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التي طرقها الشعراء الأقباط أيضا ، ومن أشهر القصص الشعرية قصة « أرشيليدس » الراهب الذي رفض مقابلة أمه وقد نذر حياته على نفسه ألا يرى امرأة ، وهي قصيدة طويلة جدا على شكل حوار تظهر فيه براعة التمثيل وقوة التأثير ، والقصيدة ليس فيها ... عن تعاليم الأساقفة

ثم هناك الأشعار الكنسية وهي صلوات أو تأملات مأخوذة من المزامير والأناجيل وتسمى ثيئوطوكيات وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية ثيئوتوكوس بمعنى مريم والبعض الآخر يسمى الهوسات وهي مأخوذة من الكلمة العبرية هوش بمعنى سبح . وقد اختص كل نوع بصيغة خاصة منظومة وملحنة بلحن خاص ، ويوجد غالبية هذه القطع الشعرية في كتابي الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية

الشعب

عرف الشعب المصري منذ أقدم عصوره بحب الأدب ، وقد وصلنا من العصر القبطي الكثير من الأدب الذي نظم شعراً أحياناً على الرغم من كثير من قواعده للتعبير

ويظهر ذلك من مادة الأدب من قصيدة رشيديس وأخرى سنكليتيكي التي تدعو فيه السيدة للأدب « أيتها السيدة » ، كانت من أحسن الأدب ، والقصص ، والتي تمتعت . وقد نشر « ماريا كرامر » كتاباً عن الكثير من منظومات الأدب القبطية

وكانت موضوعات الشعر تحتوى على كثير من معاني الأدب والحكم التي تتجه الى التأثير معاً على الإنسان بصورة قديمة وفي مثال سليمان الحكيم وباقي . . . الحكمة في العهد القديم . . . أن القبطي كان يفضل هذا اللون من الأدب منذ العصور الفرعونية وأن تعاليم الحكمة في

عصر كان أصيلاً وليس بغريب لاقتباس مسيحية

نشأة الأدب

ينقسم الأدب القبطي الى قسمين

(أ) أدب قبطي منقول من أصول يونانية

وقد ظهر آثاره في الإسكندرية التي تشرب منها الثقافة الهلينية ، حتى اضطر كثير من الآباء الى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة في العالم وقتذاك ، وترجمت كتاباتهم في عصر الى القبطية ليتمتع بها الأقباط لقراءتهم

(ب) أدب قبطي صميم كالذي ظهر في كتابات الأب أنطونيوس والأب باخوميوس اللذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواعظ الأب شنوده الذي لم يشأ أن يكتب بغير القبطية ، كما كان رجلاً شعبياً يكلم الأقباط المصريين على بساطتهم بلغتهم القبطية لا باللغة اليونانية لغة الحكام

وعندما الأدب القبطي الصميم كان له مركزان هما وادي النطرون للجهة البحرية ، ودير الأنبا والأديرة الجنوبية بالصعيد للجهة القبلية . ويمكننا أن نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل للأدب القبطي الصميم بلهجاته . وفي بعض المخطوطات القبطية التي تنقل اللغة القبطية من الجبال . . . المقصود بذلك القبطية لا العامة وأديرة الرهبان موجودة في الجبل . . . وقد نرى الآن سيرة ثابتة بدير الأنبا سنة ١٣٨٣م

الذي أضحى مركزاً للأدب القبطي ، وجه سحب اللهجة الصعيدية هي اللغة الأدبية للكنيسة القبطية في أزهى عصورها

ومنذ ... اللهجة الأ ... بين ترجمت الآباء ... الأدب اليونانية تظهر وكرازتهم يمتد ... النمو المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبعدد الرهبان ... الى استخدام اللغة القبطية كلغة دينية ... الأقباط ... ونفوسهم وعندما ... مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة ولكن ... ترجمة الآداب المسيحية التي انتشرت في القرون الستة الأولى للمسيحية

٤ - أقوال الآباء آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية في عصرها كتبة ... رجال ... اللاهوت والنسكيات ... كل تلك المؤلفات شهرة عالمية بعد كتابتها

كتابات الآباء اللاهوتية

كان أساتذة الاسكندرية وبطاركتها هم عمد اللاهوت في العالم المسيحي كله ولذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة

كان موقف الزعامة الفكرية الذي وقفه القديس أثناسيوس في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م دافعاً ... كتاباته في اللاهوت وتوضيحاته للإيمان المسيحي وأصبحت كتاباته مصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحي ، حتى اعتبر أثناسيوس أبا لعلم اللاهوت في ... ومؤلفاته التي ... عن « تجسد الكلمة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » ... هي ... باقي مشاهير اللاهوتيين المفكرين حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين في تلك العصور هو « اذا وجدت عبارة من أقوال أثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها فاكتبها على قميصك » ... ونعرف أن القديس هيلاريوس ... يونانية ... قبورهم أثناسيوس ...

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضاً الى القديس كيرلس الاسكندري حتى لقب بعامود الدين ، وكان كافياً أن تقوم ... على ... أثناسيوس وكيرلس لكي يصبح هذا ... بالايمان السليم

وقد كانت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية في عهد أثناسيوس شهرة واسعة ... الأسقف ... من القديس ... الذي ... الكنيسة ... في الكنيسة كلها ... له مؤلفاً عن الروح

الصدر ... وجد هنا ... وصل ... صيته هو
... من الآباء ... كنيسة ...
النهر في هذا الموضوع.

هذه السيرة التي كتبها آباء مصر
في القرن ... وكذلك ... سيرة
... في القرن ... وكذلك ...
مدرسة اللاهوتية بالإسكندرية. ونحن أكبر
مثال لها هو كتابات اوريجانوس التي نقلت
... الشرق ... الغرب ... من قوة
... ومن أجل ذلك نجد ... الكثير
من الآباء ... روفينوس وبلاديوس ...
... والقديس جيروم ... في غالبية
... الكنيسة اللاتينية ... اللاهوتيين
فيها ... على أن ينقلوا عن اوريجانوس
كما يظهر ذلك من شرح أمبروسيوس أسقف
ميلان ... أوغسطينوس ...
وسابيوس أسقف ... في ...
... من مؤلفات هذا العالم القبطي
وكان القديس باسيليوس الكبير
وغريغوريوس ... بالإعجاب ...
... وقد جمع مقتطفات من مؤلفاته
في كتاب أسماه فيلوكاليا.

أقوال الآباء في النسك

تلك السيرة التي خطى بها آباء الأقباط
في ... لا ...
... الرهبنة ...
القديس باخوميوس ... من ...
... القديس ...

... على كرسيه ... القديس
... باخوميوس ... إلى
اللاتينية ...
... العالم ... الغرب
... القديس ... كاسيان
الذي ... في ... الدير
... في ... وضع ...
أوغسطينوس نظام الرهبنة ...
... باخوميوس، وكذلك فعل القديس
باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية،
والقديس ... مؤسس كنيسة ... في
القرن الخامس بعد أن تتلمذ في ... في
دير على نظام الباخومي. وربما يكون من
... آثار الأنظمة الباخومية ... تركته
من أثر في الأديرة ... فإن ... في
القرن السادس ... باخوميوس
حتى أنه في بعض المواضع يكاد ... بالحرف
... كاسيان ... يطابق
لا يكاد يختلف عن ... دير باخوميوس في ...
وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء
العالم كله، وعلى أساسها قامت الحركات
الديرية في العالم المسيحي وقد ...
قوانين ... حتى الآن باليونانية واللاتينية

... الرهبنة الذين ...
... القصص ...
... تلاميذهم ... هؤلاء ...
... عنهم
المؤلفات ... كتب.

كتاب المسيحية في العالم ... أخبارهم وتحفظ كلماتهم العاقلة لتكون نوراً للناس. وهكذا في سنة ٣٨٨ م جاء الى مصر بلاديوس ... هلينوبوليس وصحب ستة من رهبان ... ثم رجع اليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالي سبع سنوات مع رهبان وادي النطرون وكتب كتابه الذي اصطلح على تسميته فيما بعد « بستان الرهبان ». وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان يزور وادي النطرون ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م ووضع كتابيه « المعاهد » و « المقابلات » أخبار كثيرة عن رهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم. كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس « جيروم » ومعه تلميذته « باولا »، ووضع كتاباً عن القديس المصري الانبا « بولا » المتوحد، وآخر عن الرهبان المصريين حسب أقوالهم وأخبارهم، ورجع فأسس — على صورة ما سمعه ورآه — ديرين في بيت لحم يسكن أحدهما للرهبان والآخر للراهبات.

ومن أشهر كتاب كان له أثر بالغ في هذا المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذي وضعه الانبا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية بناء على الحاح أهل رومه. وقد أشعل هذا الكتاب روح الرهبنة ونشرها في بلاد الغرب، ويكفي أن قراءته كانت عظيمة التأثير في حياة القديس اوغسطينوس الذي تأثر به جداً — كما يذكر في اعترافاته — حتى ترك حياته الماضية، وتم ... مسيحياً فحسب بل عند مشاهدتهم حال مسيحية.

ولم تنحصر سيرة وأقوال الآباء على عصورهم، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها في الأدب المسيحي حتى يومنا هذا. وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها الى لغاتهم ونشرها، وهي تشمل جانب هاماً من مجموعتي مني Migne اللتين جمع فيهما في أواخر القرن الماضي أقوال الآباء باليونانية Patrologia Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما تشمل جانب هاماً أيضاً في مجموعة أقوال الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis التي تصدر تباعاً في باريس. وقد صدرت عن أقوال الآباء بحوث ومؤلفات حديثة، وترجمت كتبهم الى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمات وافية لحياة مؤلفيها وأسلوبهم وشهرتهم. أما آباء الصحراء فقد انتشرت أقوالهم في ترجمة كتابات بلاديوس وكاسيان وجيروم. وفي سنة ١٩٢٣ أصدر ... « بوسيه » كتابه الخاص بأقوال الآباء Apophthegmata Patrum

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلت، وإنما كتب جزء وافر منها باليونانية. ولهذا كان للأقباط نصيب على الأدب اليوناني اذ ضموا اليه ذخيرة جديدة ... كان ... غير أن الأقباط ... وبحاجة ...

عادوا فرجعوا الى القبطية كتب آبائهم التي كتبت بالعربية وبهذا أصبحت هذه الدراسة العلمية والأدبية من التراث القبطي موجودة مدونة وناقصة جدا

واهتم العالم اهتماما كبيرا بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطية أو المترجمة اليها وظهر هذا جليا بعد حركة النهضة الأوروبية فأخذ الرحالة والمبشرون الغربيون يجمعون المخطوطات القبطية من الأديرة والكنائس القديمة وهكذا ذكر الرحالة « بيرمنا » عند عودته الى باريس بعد زيارته مصر سنة ١٦٣٣ م أنه وجد كتبا كثيرة في كثير من الأديرة منها مجموعة من نحو ٨٠٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر الاسلامي وجدها في أحد أديرة وادي النطرون وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان بعثتين حصلتا على مجموعة ثمينة من المخطوطات القبطية من دير أبي مقار وفي سنة ١٨٣٩ حصل كورزون على مجموعة نفيسة التي كانت من نصيب مكتبة رايلندز بمانشستر وتوالت الزيارات على مصر بهذا الغرض فعثر على مخطوطات بالدير الأبيض استولت على غالبيتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطاني بعضا منها ثم اكتشفت مجموعة مورجان سنة ١٩١٠ في دير الملاك بالفيوم وسافرت الى أمريكا ... مورجان ... الأمريكي

ونجد في مكتبات أوروبا وأمريكا عددا كبيرا من المخطوطات المكتوبة بالقبطية تشتمل على رسائل ونصوص ومكتوبات وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الصفحات القبطية ... في ... حوالي عشرة آلاف صفحة

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشتمل على تعاليم ماني وهي محفوظة الآن في متحف برلين

كما عثر في سنة ١٩٤٦ على برديات نجع حمادي تبلغ ألف صفحة تشتمل على رسائل غنوصية وقد استولى عليها المتحف القبطي في القاهرة

وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبات العامة في أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات وما بقي منها محفوظ في مكتبة الدار البطريركية والمتحف القبطي بالقاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطية ونشر بعض المخطوطات وترجمة بعض منها مع دراستها والتعليق عليها وقام علماء كثيرون في جهات متفرقة من العالم بدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم ، وزاميلير ، ووايلدن ، وهيوايت ، واستيندورف ، ووريل ، وتل ، ولوفور ، ومالون ، وينتس ، وكاله ، وبريستد ، وكراوسه وغيرهم وأصبحت للدراسات القبطية في جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يشرع لها أساتذة وعلماء

الفصل الرابع

الحيـــاة الفنيــــة

العصور القبطية

تعتبر العصور القبطية بحق فترات من العصور أو الضعف ، فقد واتتها ظروف جديـــدة للانتعاش فقدت خاصية معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها . ولقد حدث في العصر المسيحي في مصر حتى أصبحت الحياة المصرية مجالاً للتعبير ... تحت القيــــود وترعرعت خاصية في ظلها مختلف الصـــفات الموروثة من عصور سابقة . وفي هذا تقول د . الوشي « إننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم في خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تختفي وتختلي ، لتعود إلى الظهور بقوة ووضوح

وظاهرة العـــودة إلى تطور جديد نجدها ملموسة في الفن القبطي

الصفات العامة للفن القبطي

أولا ــ فن شعبي

لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم وكان هؤلاء السادة يحصون عن الفنانين ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية البيزنطيون . وهكذا نجد الفن المصري القديم ينتعش أيام عهد الملوك الذين أوسعوه رعايتهم ، ويضعف في عصر الضعفاء منهم أو الذين أهملوه

أما الفن القبطي فهو الأول في الشرق القديم الذي كانت له صبغة الشعبية . فإن الأباطرة لم يستعبدوا شعوب مصر كما كان الحال أيام الفراعنة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر في عهدهم ولاية رومانية تابعة لروما أو بيزنطة ، وصار الأباطرة لا يرون إقامة أعمال فنية تخلدهم يسمونها في عواصمهم لا في مصر . ومن هنا نجد الفن القبطي يتوجه السياسي واتجه نحو الشعبية البحتة ، فحتى إذا نظرنا إلى الكنيســـة الكبيرة في الدير الأبيض قرب سوهاج وهي من بناء القديس شنوده ، أو إذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس سمعان في الهضبة الغربيـــة بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو إذا شاهدنا الآثار المعروضة في المتحف القبطي أو مختلف المتاحف لتعلم مجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصري ووضع فيها الفنان المصري عصارة روحه ومهارته

ثانيا — فن ديني وشعبي

حتى نستطيع أن نعتبر الفن القبطي فنا دينيا نقصد بالكنيسة والعبادة فحسب ، وهو لم يبتعد عن هذا ، بل هو فن شعبي ، فهو فن الشعب المصري بأكمله ، يظهر في الأشياء الدنيوية كما يظهر في النواحي المدنية بوضوح . وإن كنا نجد أن أغلب الآثار الباقية من ذلك العصر آثار دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك إلى اهتمام الشعب عادة بحفظ عباداته ومحافظته عليها .

ولا شك أن أهم الآثار التي وصلت من مصر القديمة أو من مصر الإسلامية هي أيضا آثار تتصل بالنواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أمتعة وزخارف من بيوت أفراد الشعب إلى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلت أقمشة كان يلبسها الكهنة في الخدمة الدينية وصلت أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس في حياتهم أو يكفنون بها موتاهم . وبجانب الأواني التي كانت تستخدم في الكنائس وأدوات استخدمت في المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

ثالثا — فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها

نرى في صور الوجوه القبطية ملامح المصري بهيئته وبملامحه ، ونرى فيها عيونه وشعره ، كما نرى صور الحيوانات الأليفة التي تملأ البيوت والحقول مثل القطط والكلاب والبقر والجمل والحصان .

ويرى الزخارف مصورة على أوراق النبات المختلفة وأنواعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والأكانتس . كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل ، وكلها مألوفة لدينا ، وبعد الأخذ بالمدرسة المتداولة بين المصريين سواء منها القديم أو بعد أن أخذت معاني جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التي اعتنقها المصريون .

رابعا — ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فيه

إننا نجد في الفن القبطي أثر الفن المصري القديم والفن الإغريقي والفن الروماني ، وإن كنا في الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلها تتجلى في بلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطي بالفن السوري وفنون البلاد المجاورة ، إذ أن المسيحية قد نشأت في بلاد فلسطين ، وانتشرت في الشام وبلاد البحر المتوسط ، وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال ، وصار المصريون يتأثرون بفنونها وبخاصة في الشام .

خامسا — فن جمال لا عظمة

لم يتبع الفن القبطي حد الروعة كما تبع الفن المصري القديم ، كما أنه فقد إنتاج الأشياء الضخمة ، التي تميز بها الفن المصري القديم ، ففي مصر القديمة رأينا الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك ، والتماثيل الضخمة كتماثيل ممنون ، والأعمدة الضخمة والمسلات . ولكن الفن القبطي كان من جانبه فنا بارزا جماليا في دقته .

سادسا – فن التزيين

وصنف كثير من أفاريز مباني [illegible] الاعمدة وكثير مما تزين به [illegible] الى الأسقف والأعمدة وما ترى به النوافذ ومشغولات معروفة بالمشربيات كما اشتهر الفن القبطي بما زين به النسيج من حلى وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينة الى كتابات الاقباط لتزيين الكتب وزخرفة صفحاتها بزخارف بالغة حد الروعة

سابعا – فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية :

نجد في هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة ، يستخدمه في كل شيء ، ولا ننسى أن يتوالى [illegible] الخاصة ، وخاصة [illegible] كتاب كثيرة [illegible] صور [illegible] فقد [illegible] الخاصة بالفن القبطي بعيدا عن الواقع وتصوير [illegible] الاسلام الأمر الذي قد يجر الى مظاهر جديدة لا يوافق عليها [illegible] ومع دخول العرب والاسلام مصر وجدت تربة خصيبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التي تناسب العرب والدين الاسلامي ، مما نراه واضحا في الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعاني الرمزية التي تبعد عن تصوير الأشخاص وهكذا نجد سمات مصرية أصيلة راسخة في الفن المصري المسيحي الذي سلمته بدوره الى الفن المصري الاسلامي

صور من الفنون المصرية

العمارة

العمارة كأي نوع من ألوان الفنون نجد انعكاس للبيئة بكل ما تحتويه من معان روحية ومادية والعمارة المصرية القديمة تمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح [illegible] في جميع مراحلها [illegible] وأصبحت من الشواهد المختلفة التي تؤرخ للمجتمع المصري في مختلف العصور. [illegible] لا يكون [illegible] [illegible] والذين [illegible] بها العمارة المصرية القديمة كان لها صدى واضح بالغ الأثر في تكييف الفن المعماري في جميع انحاء العالم ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى بدولة الحديثة أن مبانيها كانت تتميز [illegible] خطوطها الشاهقات [illegible] اليونان والرومان معرفة [illegible] الى التكوين [illegible] حملوا فيهم العمارة [illegible] وأصبح

والعمارة [illegible] هي العمارة الفرعونية ، وهي العمارة اليونانية الرومانية

في مصر وهي الصبغة الإسلامية في مصر وأما الموارد التي تتصل بها كل منها فهي تكون في القسمة من المسحات الزمنية في عهده ، ثم تعرض عصور بعد زمنية ، ويمكنها في الحقيقة تتمثل في الأصول والأسس التي قامت عليها الحضارة الفرعونية ومهما يكن فإن ما تحمل عليها في كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف بيئة ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية

والحضارة القبطية تأثرت بروح الفن الفرعوني ومعاصره ، وكل ما طرأ عليها من تحوير عامة لم يمس إلا مظهرها الشكلي فقد هي حلقة أخيرة أكسبت حلقات الفن المتصلة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بمصر

ولما كان الفن المصري يرتبط بطقوس الدين وبلازمها ، فقد احتفظ في العهد المسيحي بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلاً بالرهبنات والتقاليد في معيشة يومية والجنائزية والأعياد وغيرها أما مركز المسيحية في الغرب وهي روما التي تعرف عن الحضارة الأوروبية الغربية ، ثم القسطنطينية وهي مركز الحضارة الشرقية ، فقد حاولت كل منهما إيجاد مراكز جديدة لحضارة فنية مع الدين الجديد إلا أنها كانت دائماً مصطبغة بالحضارات القديمة التي سبقت عهد المسيحية ، ووجدنا تصميمها مصطبغين بعض كثير من معالم هذه المدن الحديثة عن مصر التي سبقتها في الفرعونية والعصر ومعنت منها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نجد كثيراً من فنون مصر واتخذنا منها بعض الوحدات الزخرفية التي قرب فيها المصري بين ديانته القديمة وبين ديانته الجديدة ، وبذلك نرى أن مراكز المسيحية تنسب من هذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تصوره بطريقة تتفق مع دينها الجديد

وإذا بحثنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطي ، لوجدناها تشبه في تخطيطها المدن المصرية القديمة ففي الصعيد حيث يندر الحجر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربي الأقصر ، وفي الوجه البحري كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيري كما عرفناها من مدينة أبا مينا (القديس مينا) بالصحراء الغربية غرب الإسكندرية

(صورة رقم ١٥)

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه في الريف المصري الآن وبها مزلاج من الخشب معروف إلى اليوم ؛ وكانت للبيوت أسقف مرتفعة ، ولها واجهات مبنية بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة وكانت بها كنائس كالتي عثر على بقاياها في مدينة أبا مينا ومصر القديمة وبويط والبهنسا وأسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج وتوجد بها [illegible] وتتكون من قاعات فسيحة بها صفوف من أعمدة حاملة مستديرة أو مضلعة

ذات رءوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان الثابتة الزاهية . وتكون هياكلها معزولا عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المعشق أو مطعم بالعاج على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة للصليب . وبعض رقائقه من العاج ، كما نجد ذلك في كنيسة أبي سرجة في مصر القديمة وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أي تجويف في الحائط .

والكنيسة تكون أحيانا مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازيليكي ويذهب البعض إلى أن تصميمه دخيل على الأقباط ، والواقع الأمر أنه مصري صميم نجده أول الأمر في قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التي شيدها تحتمس الثالث حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م . وتكون الكنائس أحيانا أخرى ذات قباب يحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجص مرسوم عليها صور للسيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من جص أو الحجر في بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور القديسين .

وإذا كانت مدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة ... بعد الأديرة الصخرية قوية حصينة لها الأسوار والصوامع أو مزودة بماء الأمطار في مجار ... كثير هذه الأديرة ... نجدها في الصحراء الآن والتي يسميها البعض آثار ... وواقع

والواقع الأمر أن القبط عنوا منذ عهد مبكر بفن الرسوم بالألوان المائية ... وكانت أبواب الهياكل وأبواب الحجرات مكسوة بها التي ... بعدها إلا بعد التجاريب الذين يصنعون السقوف الخشبية . ونجد صوامع للعلاج ومصابيح للهداية التذكارية شبيهة إلى حد كبير بالمصابيح التي نجدها الآن في حال الجامعي ... في أسيوط .

التصوير :

كان التصوير السائد في العصر القبطي يسير على الطريقة التي توارثت منذ أقدم العصور في مصر وهي طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاة بطبقة من الجص . وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الروماني واتخذت هذه الطريقة في الرسم شكلا مسيحيا في العصر القبطي ، وعمت سائر بلاد المسيحيين الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة .

أما في مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم أخذ القبط إلى جانب هذه اللون بطرق أخرى في التصوير . ولم يأخذ التصوير القبطي أشكاله من الطبيعة المنظورة، ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس وكان ... ذلك ... العالم التي تظهر فيها صور . الأشخاص على درجة من الاستقرار والوقار حتى تبدو ...

فسيح طبقا لتوجيه كبير، لا سيما [illegible] واستطاعوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه وزعوا مساحة الضوء وهدوء الألوان

(صورة رقم ١ و ٢ و ٣)

النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن في المتحف القبطي في مصر القديمة وفي متاحف العالم المختلفة تيجانا لأعمدة من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفني، فمنها المجدول على شكل السلال تجديلا ألفى الصانع صنعه، حتى [illegible] شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التي لا زالت متداولة بيننا، ومنها تيجان محفورة بشكل زخرفي لأوراق النبات أو الفروع النباتية، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكانتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس، ومنها تيجان غريبة تجاويفها بزخارف محفورة [illegible] الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعي للنبات، وهناك بعض زخارف نشر عليها تعبير عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار، جاء التعبير عنها تعبيرا حيا يكاد يسمعنا حفيفها

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان، أو بالحفر، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيرا صادقا، فنجد في المتحف القبطي على [illegible] المثال [illegible] من [illegible] وهي [illegible] محفورة [illegible] مركز [illegible] من الحجر الجيري على شكل نصف دائرة وقد حلى برسوم هندسية وزخارف لثمار الرمان [illegible] على رباط المصري [illegible] وجدناها في مختلف العصور بخواص [illegible] مصرية بين الأقاليم المصرية [illegible] الى [illegible]

كذلك زخرف القبط بحوائط [illegible] بصور من الطيور والحيوان، فنرى ضمن زخارف الفن القبطي صورا لصيادي الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان. وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع الى مصر الفرعونية، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة. كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة لحداد قبطي تحيط به أدوات بشكلها المعروف في مصر اليوم.

ولنتم فكرة روح الدعابة لنقص الفن القبطي، فاننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش، لوحات بعض وفد الفيران يتقدم الى القط مبديا الطاعة [illegible]، وقد رفع الفيران [illegible] هو الذي [illegible] حتى اليوم علم الهدنة والأمان. كما نجد [illegible] محفورا في الخشب [illegible]

(صورة رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٤)

المنسوجات

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات

[illegible] حنية ، من كنيسة باويط ، بالقرب من ديروط ، وهي من [illegible]
[illegible] مرسومة بالألوان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] من طريقة الرسم في [illegible]
[illegible] القرن السادس الميلادي

[illegible]

من القرن الثاني عشر (سنة [illegible]

١ - لوحة خشبية محفورة من كنيسة المعلقة بمصر القديمة وهي الآن معروضة في المتحف القبطي تمثل دخول المسيح اورشليم يوم احد الشعف وعليها كتابة باللغة القبطية من القرن الخامس الميلادي

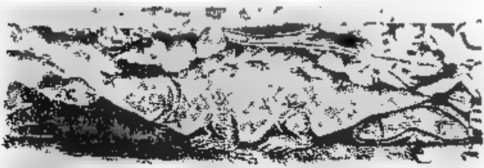

٥ - جزء من افريز طويل من الخشب المحفور يمثل نهر النيل عليه سباح من القرن الرابع الميلادي

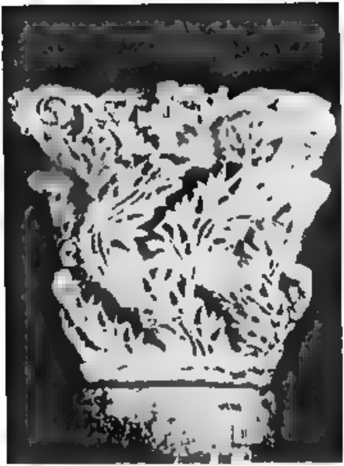

٦ — تاج أسود من الحجر من عمارة دير الأنبا أرميا بسقارة . وهو يمثل حركة تمايل
أوراق الأكانتس تحت الريح . وهي أسلوب خاصة بالقبط
من القرن السادس الميلادي

[illegible] الأدب العربي ببغداد ، وهو القسم [illegible]

[illegible]

من القرن السادس الهجري

٨ - شاهد قبر [illegible] عليه علامة الصليب [illegible] رمز المسيح الأ[illegible] لا [illegible]
و الألف والياء ، أي [illegible] [illegible] [illegible] رمز [illegible]
من الفن المصري القديم [illegible] [illegible] [illegible]
علامة الصليب

من القرن السادس الميلادي

نسجها في جميع بلدان العالم وظلت عظمتها تحت الحكم الروماني والبيزنطي في النسيج وظل محتفظا بطابعه المصري في صورته القبطية

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم الى روما وبيزنطة وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل في بقائها الى جفاف التربة المصرية والى عادة الأقباط في تكفين موتاهم بأجمل ملابسهم ودفنهم في مقابر رملية في الصحراء بعيدة عن وادي نهر النيل خوفا من مياه الفيضان

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما تصنع من القطن ، واشتهر المدن في هذه الصناعة كانت تانيس والاسكندرية وشطا ودمياط وديبق والفرما في الدلتا ، وفي الوجه القبلي اخميم وأخميم والبهنسا وسيوى (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم وكان الصانع القبطي يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه

(صورة رقم ٩)

الفنون الصغرى

منها الفنون الخاصة بالحفر على العاج والعظم وصناعة المعادن ثم الخط والتجليد

أما عن الحفر على العاج فقد كانت المرأة تستعمل الكحل لرموشها والدوب الأزرق حول عينيها والأحمر للوجه وكانت تضع المراود التي نرى انواعا في أدبها أو أطرافها على شكل عمود الخيط ، ولزين مقبضها الصغير بشبكة تنتهي برأس حية من كل ناحية وبعضها كان مبروما ينتهي برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان يحفر عليها المعبية مرصعة بالجواهر الكريمة وكانت تضع الحلقة أشبه بالمروحة الآن في مصر وكانت تلبس الخلخال الذي يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد تلبسه المرأة الثرية من الذهب

(صورة رقم ١٠)

وقد وصلت من العصر القبطي مكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشط رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطي نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط الى القرن الرابع الميلادي ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية وعرفوا أيضا مشطا يسمى الآن بالفلاية وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية

والرسوم المختلفة التي وصلتنا من هذا العصر تبين صورا حية من الحياة المصرية التي عاشها والتي كان المصري القديم يمارسها والتي حفظتها آثار العصر المصري المسيحي ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة في متحف برلين لامرأة قبطية جالسة مع ابنها وأمها

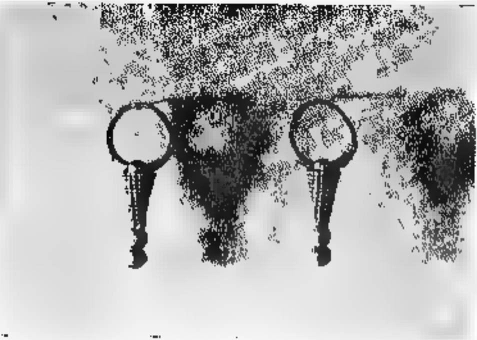

١ ـ قرطان من الذهب على شكل عنقود العنب عثر عليهما في حفائر مصلحة الآثار بالواحات البحرية في مقابر الأقباط القديمة .

من القرن الرابع الميلادي

ونجدانه مستمدون حقبه التاريخ ، وتتحف
الآنية نماذج من الجماعات المصرية تعرفه
النسيج من منسوجات ... عنه عصور من
الأساطير القديمة ، ومنها صور النساء الثلاث
التي وجدت في الفيوم وقد نقش على سطح
منها إيزيس وبيكيونا وعلى الثالثة السيدة
البريطانية ، نجد إيزيس لابسة ثلاثة قمصان
وحلبات تدل بعضها كما ... في ذلك شيء
من بعض الصور في الريف ، ونجد القسي
وفي وسط الجلباب منطقة بها أكمام طويلة ،
والجلباب مطلي بحاشية حمراء في أسفله ، وله
حلقات رأسية في الأمام من الحرير الأصفر ،
كما نجد بيكيونا مرتدية جلبابا من الكتان
الأبيض محلى أيضا عند أسفله وعند الأكمام
وبياقة تحيط أزرق غامق ، ويلاحظ أنها قد
لفت شعرها بشال جميع الى أعلى في شبه
تاج . والنسوة الثلاث تعطي صورة حية
لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة
لتصفيف الشعر مما يجعلنا نعرف ما كان عليه
الشعر عامة في العصر القبطي من أناقة وذوق
سليم في ملبسهن وزينتهن .

أما عن الصناعات المعدنية ، فإننا نجد
المصوغات المختلفة التي استخدمتها المرأة
لزينتها ، ونجد مصابيح في أشكال مختلفة
برقى عنه المصنوع ... مزينة ...
الأشكال .

(صورة رقم ٦٣)

الخط والتجليد

كان المصريون ... هذه العصور هم
... من البردي ... الى

كافة أنحاء العالم . ومن بين تحف الأقباط
تكون على ... وعلى ... ثم ينعدم
نهم الفني في صور صحائف الكتب ، ورسوم
ذات الألوان الرائعة الثمينة ، وهي الصحائف
التي بلغت دقة كتابتها بدقة الحروف المطبوعة
... ، والتي يبهر جمال زخرفتها كل من
يراها .

(صورة رقم ١١ و ١٢)

خاتمـــة

كانت هذه الفنون في أيدي صناع مهرة ،
وكانت رهبان في الأديرة أيضا يتقنونها ،
فاشتهر رسم الرسوم ، ونسخوا الكتب
وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة ،
وحفر المحارة والنسيج ومختلف الصناعات .

ولما دخل الإسلام مصر ، أعجب العالم
الإسلامي بصناعات الأقباط فجعله الخلفاء
يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية الى
الكعبة من صنع الفنانين المصريين صناعة
النسيج ، ويفخرون من انتاج هؤلاء الصناع
بما يحصلون على أنواعهم من الأردية ويسمونها
«القباطي» نسبة الى صانعيها الأقباط ،
واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط في
تشييد المساجد والعمائر ، وعن الفن القبطي
أخذ الفن الإسلامي المحراب والمئذنة
والصحن .

وكان عصر الفاطميين بمصر فاتحة لاظهار
... الإسلامي في منتجات الصناعة الإسلامية
... وعندئذ أخذ الفن القبطي يختفي

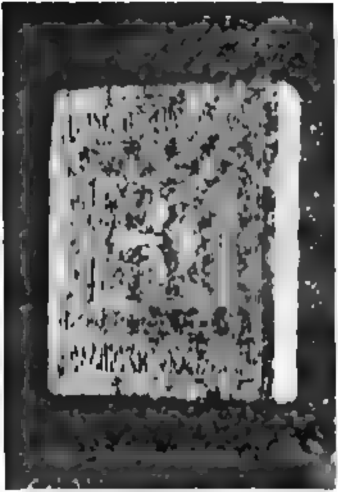

[illegible]

من القرن الرابع عشر الميلادي

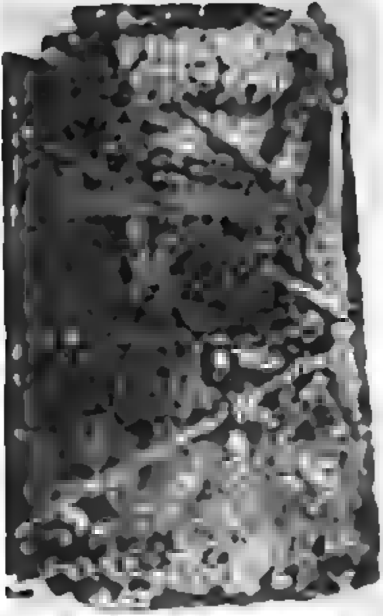

١٤ ـ رسم على الجص [illegible] الأول
[illegible]
من القرن الخامس الميلادي

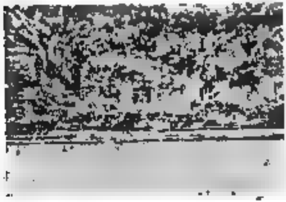

١٥ ـ أثر الكنيسة الكبرى (أبو مينا) مريوط
من القرن الخامس الميلادي

بين الأقباط بعضهم وبعض مرتبطا بالموسيقى القديمة والطقسية حتى عصرنا هذا.

وعند ما كانت كتابة المخطوطات والمراجع ذهبية في الأديرة القبطية وما إليها كانت البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل مجلدين المصحفين اللذين تركهما الأب مكاريوس البطريرك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمهما وهو راهب في أديرة وادي النطرون وهما شهادتان بدقة هذا النوع من الفنون المصرية . ويحتوي كل من هذين المجلدين حوالي ٧٠٠ رسم ، كل منها يخالف الآخر ، نقل بعضها عن مخطوطات القديمة وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان . وكتب على بعضها الأصل الذي نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التي كان الرهبان يتبعونها

الرواسب الفنيـــة

يعيش المصريون في دورات زراعيـــة يشترك فيها النيل والفلاح والحيـــوان والطير ، كل يقوم بدوره حتى وبينها تكاد تكون وحدة منذ بدء موسم الزرع في هذا الوادي الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعي وما ينبغي فيه من تعاون بين بذر وسقي وحصاد ، تكوّن لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت في مظهرها وتشابكت في أصولها ، كما تعاقب عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت في بيئتها واتحدت أغراضها ، فترسب منها فوق هذا الأساس المتين رواسب نفسية سليمة عملت على تكوين حس المصري الروحي والفني

هذه الرواسب التي يحسها المصري رواسب قديمة عميقة في القدم تميزه عن غيره من الناس في هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أماط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهره المستقبل يوما ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص

أما التراث غير المنظور فلا يمكن لغير المصري الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تمثالية لا يدركها كافة ، ولا تتحكم فيها الأوضـــاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهي سلسلة متصلة من الرواسب غير مصطنعة أو ملفقة أو منقطعة الاتصال ، وهي وحدة متماسكة الحلقات . والمصري وحده هو القادر على التفاعل مع هـــذه الرواسب يتناولها عن طريق الرضى والرغبة ، وعدم التكلف لم عن طريق الحب والمثابرة وهي السبيل للوصـــول إلى أعماق نفسه يستخرج منها ألوانا كامنة متأصلة في نفسه .

فهو الأستاذ حبيب جورجي قد مهد الأسباب بدأت تجاربي للكشف عن كنه

الرواسب في الأطفال الذين لم يسبق لهم السجود لكي تعرض الفن ولم يتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه فبعث لهم من الحياة الراحة والطمأنينة في الصنعة والكلمة فاستحث نفوسهم تراث مصرى صميم ، أدهش العالم رجال الفنون لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين »

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الانتاج الفنى لهؤلاء الأطفال .

« من الواضح أن الفن الذى كان الاعجاب به شديداً فى مصر القديمة هو وليد التربة أو هو نتيجة حساسية رهيفة ينفعل بلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية ، حيث الجسم المتناهى يتحدى ضخم الفضاء الرحيب وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهى الى ادراك الأبدية ولقد استوحى الفن المصرى كل أشكاله من هذه الروح وهذا ما يضفى عليه فى مجموعه وفى الاخص فى تناسقه الداخلى تلك الصفة التى تكاد تعلو على الانسانية حتى لكأنها تشترك فى اللانهائية والتى لا يمكن أن نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر فى العالم وكان للأستاذ حبيب جورجى يرغب فى أن يتبين صلة الفن فى مصر بالتقاليد الفرعونية التى عاصرتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فعاد يبحث بعد أن يحصل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة التعسة التى هى من بعض الطبقات مصرية تعيش معيشة ... فيه ، ولكنها أبعدت قصداً عن تعلم الرسم وعن الطرق المدرسية ثم تركها تحلق فى حرية كاملة أعمالا حسب ... كل نفسيته وعلى فطرته

وتطلب هذا العمل صبراً ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجى ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين اختيروا فى عناية فائقة نحو ادراك الابعاد وهم يشكلون الطين ، وأن يرشدهم فى اختيار مصادر وحيهم وفى توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر ، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول

وقد ظهرت النتائج ، وفى وسع كل انسان أن يحكم عليها حتى ان القالب الذى صيغت فيه هو قالب مصر الفاطرة ، وهذا هو الطبيعى فى الأمر ، لأن الغرض الذى يهدف اليه ليس أن يحيى الرسم بل غرضه أن يوقظ روح ويبعث التقاليد فى التعبير

والشيء الذى أدهشنى شخصياً فى هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تستمد من روح مصر القديمة فى تناسقها وفى توزيع أجزائها ولو أن مثالا من مصور فرعونية أوفد الى مثل الصناع فى مصر الحديثة لما غرب عن هذه الصورة ونستطيع أن نتساءل الى أى مدى والى أية حدود فى التعبير يستطيع هؤلاء

تدل عليه من تنبع ، كما تستطيع مستمعين عديدة من مختلف الشعوب في الحركة الموسيقية مع النص

ونستطيع الآن أن نؤكد أن الموسيقى ... وأن هذه الأصالة [illegible] لأنها هي ... أصالة مصر الفرعونية »

الموسيقى والألحان

تدل الصور المنقوشة على جدران المعابد والآلات الموسيقية التي عثر عليها في مصر على أن الشعب المصري منذ عرفناه في التاريخ يعني بالغناء والموسيقى ويستخدمهما في المناسبات المختلفة في حياته الاجتماعية وفي الاحتفالات الدينية في حياته الدينية

ولما انتشرت المسيحية في البلاد المتباينة وتكونت كنائسها ، نشأ معها في كل قطر فن موسيقى كنسي يتمشى مع الروح الموسيقية القومية لكل شعب ، وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمدا ذلك من تقاليده

وقد ذكر الفيلسوف الاسكندري فيلو الذي عاش في القرن الاول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحانا لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف نشأت موسيقى الكنيسة المصرية من الفن الموسيقي المصري ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة إلى الآن في الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد ، فاللحن السنجاري نسبة إلى بلدة سنجار ، التي تقع شمالي مديرية الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثاني وكانت [illegible] الأديرة في العصر القبطي وكذلك الاتريبي نسبة إلى أتريب القديمة بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم — إن لم تكن أغناها — في تراثها الموسيقي والموسيقى جزء لا يتجزأ من طقوس عباداتها لتنوعها وطقوسها الكثيرة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلت كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، ولا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو عربية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية

والموسيقى الكنسية — كما وصلت — صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية في أدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية على النوتة الموسيقية العصرية وتقع في عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع الألحان على أشرطة صوتية في موضع [illegible] [illegible] أن ندل على بعضها وبعض الأعياد

الشعبية القديمة المستخدمة الآن في مصر ... ونجد
نسبة ... مجهولة

والألحان تتفاوت طولاً وقصراً ، ونجد
بعضها خمس عشرة دقيقة ، وبعضها ... على
على كلمة واحدة أو بضع كلمات . وعلى
رغم من ذلك فالموسيقى القبطية بسيطة
ممتدة وتتكون من صوت واحد أي لا يصحبها
بعضها في وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة
تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأدوار ، وهي
ألحان مصرية ... النص المصري ونحن
الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع
الألحان الحزينة : إن أنغامها عريقة في القدم
فهي تبعث على الإيمان ... [illegible]
الخاشعة . أما ألحان الفرح فتسود فيها
الأسلوب ... وتسمو بها إلى عالم
أسمى »

هذا الفن القديم ... الكنيسة القبطية
وحافظت عليه ، ... دراسة العلمية
... يعود به إلى أصوله المصرية القديمة . فإن
موسيقى الكنيسة القبطية أقدم مدرسة
موسيقية معروفة في العالم

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية (ب) الأسرة

(جـ) العادات (د) التشريع

(هـ) الرهبنة نشأتها في مصر ، أطوارها ، آثارها الحربية والاجتماعية وانتشارها في العالم المسيحي

(أ) مركز المرأة في الحياة المصرية

كانت المرأة في مصر منذ أقدم العصور — مصدر الوحي وبعث الجهاد الروحي حتى لقد جعلوا الآلهة معات رمز العدالة والبر والحق وقد سجل لنا التاريخ أسماء الآلهات والملكات والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التي امتازت بها المرأة في مصر لا ترتكز على هؤلاء وحدهن — إذ هن يؤلفن أقلية — بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم، كما كانت مسئولة عن رعايتهم في شيخوختهم. فهي لم تكن مصدر الوحي فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضا

وأعطت المسيحية ... فظلت المرأة مصدر الوحي وظلت حاملة الشعلة ، فعملت ... ركزت همها على السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجا للوثنيين وقدوة شجعت هؤلاء الوثنيين إلى دين المسيح بطريقة عملية ، لأنها كرست حياتها لخدمة في خشوع ، واضعة نصب عينيها كلمة بولس الرسول « أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم ». ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فاكتسبت احترام جميع الناس. وكانت التعاليم التي تسمعها التلاميذ من المسيح عن كرامة الشخصية الإنسانية تتردد على مسامع الشعب كل يوم لذا كان كليمنس الإسكندري يمتدح عظمة الزواج المسيحي في محاضراته بمدرسة الإسكندرية وكان يرى سامية كرامة هذا الزواج الذي جعلت منه الكنيسة سرا مقدسا ورباطا روحيا معدية الكنيسة تقتضي ما نالته من سلطان

مسحه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس في قانا الجليل . وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويسخرون ممن هم فيه من عباد . ومن عجب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يحضرون الى محاضرات اكليمنضس وغيره من معلمي الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته وعن قدسية الزواج — كانوا يشعرون بالتبه نام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم الى ذروة الحكمة التي يطلبها . فاذا ما قارن المستمعون الى محاضرات اكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التي يحياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للايمان بقدسية الزوج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكرامة الانسانية التي ترتفع عن مرذول الى حياة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف تحولوا تحويلا نحو هذا الدين الذي ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتي نعمن بحياة روحية سامية الا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتي عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها . ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة رويت للأنبا مكاري الكبير نفسه ، فانه على رغم من حياة النسك والرهبنة التي كان يمارسها — كان يؤمن بأن كل من يعمل إرادة الله ينال خلاصه . فقد سأله ذات يوم أن يعرفه درجة القداسة التي وصل اليها فرأى في رؤى الليل ملاكا يقول له بأنه لم يصل بعد مرتبة سيدتين في بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصدا البلدة التي أشار بها الملاك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والاجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب في ما نالتا من تقدير فأعلمتاه بأنهما يسكنان معا لأنهما متزوجتان من أخوين . وأنهما تعاهدتا منذ اليوم الاول على أن لا تتفوه احداهما بكلمة تجرح الأخرى واذا أحست واحدة منهما بأنها أساءت بكلمة الى الاخرى اعتذرت لها في الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت اليها ونفضت الغضب من ضميرها . وحين سمع الأنبا مكاري هذا الكلام منهما قال : « حقا انه لا فرق بين الراهب والمتزوج وبين الناسك والرجل الذي يعيش في العالم . لقد وهب الله تعالى نعمة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصدق نواياهم » .

ولقد ادركت المرأة المصرية المسيحية الأمومة كما أدركت قدسية الزوجية تماما فلم يعد للأم المسيحية شاغل الا عنايتها بأولادها والسهر عليهم وتربيتهم تربية تتفق والكتاب المسيحي . وقد دفعها هذا الادراك الى التفاني والمحبة . ولم تكن أمومتها مقصورة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

[illegible] بعض الأولاد المحتاجين إلى العناية [illegible] فتعهد [illegible] أوريجانوس في الاضطهادات التي أثارها [illegible] الثاني المسيحية. وكان أوريجانوس لا يزال [illegible] مع كونه أكبر إخوته [illegible]، ولم يكتف الامبراطور الروماني الظالم بأن أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وإنما جردهم من مصادر أموالهم أيضاً. فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها، وصرفت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى، وبذلك هيأت الفرصة لأوريجانوس ليكون من أبرز معلمي الدين المسيحي الكبار [illegible] ومن أعلام الفكر المصري الناصع.

ولقد كان من أثر تمسك امرأة بكرامتها وعقلها وطهرها وإدراكها الصحيح لمسئولياتها أن ولى بها [illegible] لكتابه ومعتبرين [illegible] أن أوريجانوس ناظر مدرسة الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم ست [illegible] يجمعها العهد كي يكتب [illegible] هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل. ولما بدأت الاضطهادات المروعة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال إذ كانت تقف إلى جانبهم وهم يعانون أنواع العذاب تشجعهم على احتمال ما يلاقون من [illegible]، وبعد ذلك تلقى هي ما تلقاه من [illegible] من صنوف التنكيل في [illegible] وثبات.

وكان [illegible] أحياناً أن يعين الرجل ويكون له أكثر سنداً في أن يستمد شجاعته [illegible] ومن ذلك سيدة [illegible] التي كانت [illegible] مرقس والي [illegible]، وكانت [illegible] أن [illegible] بمنأى عن العالم لتعتزل فيه إلى ربها وتقضي عمرها في الزهد والتقشف، وفي الصوم والصلاة، وفي التأمل والعبادة. فأجابها أبوها إلى رغبتها وبنى لها قصراً في المنطقة المعروفة الآن بالبرارى بالقرب من بلقاس، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين عذراء يعشن العفة والطاعة مثلها، وعشن جميعاً في هدوء وطمأنينة، إلا أن ديوقلديانوس الامبراطور الروماني المشئوم أثارها حرباً شعواء على المسيحيين [illegible] للتعذيب والتنكيل. وحين أمر هذا الامبراطور الطاغية [illegible] طلب من ولاته وحكامه أن يحضروا معه إلى الهيكل ويرغموا [illegible] القرابين للآلهة. [illegible] مرقس أبو [illegible] له [illegible] على مركزه وجاهه، وذهب [illegible] الامبراطور كما طلب.

فلما سمعت [illegible] ما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع. فلم يسع مرقس أمام كلمات ابنته إلا أن يعود إلى الامبراطور [illegible] من [illegible] ويعلن له أنه مسيحي. فأمر الامبراطور بقطع رأسه بالسيف. ثم أرسل

جنده إلى حيث تصلي دميانة ومعها الأربعون عذراء ، فنكلوا بهن تنكيلاً وعذبوا دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بقصد تحويلهن . وكان أهل القرية قد خرجوا جميعاً يساعدونها ما استطاعوا بعد العذاري فعذبوا أو تأخر ومساعدين أعلنوا مسيحيتهم فأمر القائد الروماني بقتلهم جميعاً كما أمر بقتل سيدة دميانة والعذارى الأربعين . وهكذا كانت بسالة السيدة دميانة سبباً في الإذكاء من الحمية والإيمان الثابت في قلوب هؤلاء جميعاً

ثم سمت الاضطهادات وحل الأمن والطمأنينة فعادت المرأة إلى مزاولة أعمالها العادية فالزوجة انصرفت إلى بيتها ، والأم عادت إلى تربية أولادها . وإلى جانب الزوجة والأم كانت ترغب من وهبت حياتها لخدمة الله والنفس واختارت أن تكون راهبة أو شماسة أو كليهما في آن واحد .
ولم تكن حياة الشماسة مقصورة على العبادة والتأمل فقط بل شملت العمل الديني والعقلي والخدمة الاجتماعية أيضاً

أما درجة الشماسية فكانت تمنح لمن ينالها أن تتعهد المرضى والمسجونين والفقراء والمعوزين ، كما كان عليها أن تزور العائلات وتقدم تقريراً عن أعمالها للكاهن أولاً بأول فكانت الشماسة بمثابة عين الكاهن المؤتمن بها [illegible] رعاية سكانه وتبذل جهدها في تخفيف آلامهم وعلى اجتياز الصعوبات التي تواجههم وتحرص على [illegible] إلى الكنيسة كي ينالوا حظهم من الرعاية الروحية

من لقد كان للشماس (أو الشماسة) موصوف بأنه قد جمع الأسقف وأدناه في الأهمية منه

وعظم مثل هؤلاء الشماسات تلك الشماسة التي لم يذكر التاريخ اسمها والتي خبأت عندها اثناسيوس الرسولي (البابا الاسكندري المشهور) وذلك أن الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التي كان يصلي فيها . ووقف الشعب تلك الليلة في وجه الأريوسيين ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة ، فلما وجد القديس من طلبه أخذ يمشي في شوارع المدينة وهو يفكر . وكان ظلام الليل ستاراً يخفيه عن أعين مطارديه . وبينما هو يفكر ويصلي ألهمه روح الله أن يلجأ إلى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها . ولما قرع الباب فتحته بنفسها فرحبت به [illegible] حين رأته ، ومكث القديس العظيم في بيتها حوالي ست سنوات خدمته خلالها بأمانة لا تعرف الكلل . فكانت تأتي له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل إلى الشعب رسائله النصيحة وكتاباته التي كان يكتبها في مختلف المناسبات مما أثار دهشة أصحابه وأعدائه معاً

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل بغبطة ونهم وهم يتساءلون في شيء من العجب أين البابا العظيم ؟ أما خصومه فقد تملكهم غيظ لعجزهم عن معرفة مقره [illegible] وضاعفت جهود الأسقف [illegible] والأعداء في البحث عنه [illegible] الأمر الطويل

فتعلمين كتابي الأنطونى . وكان المؤسس مجتمعه ساعيه في الكنيسة بصلاة . الله الذي نعيم الروحي واهب سهم الحياة فلافوه بفرح لا يوصف لي مساكنه ابن كان مختبئا فاحابهم لا بل أحببته عند حدكم فلا يسألكم تحكام من مكانى فتكدرون حرب عن حياتى ، بل لقد اختبأت عند تلك التى هى دون الشبهات مع كونها سببه جديسة لكنيسة بذلك حياتى وحياتكم .

هذا المثل برنامج يعطينا صورة عن خدمات الشمامسة ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية ، والى جانبهن وقف الرهبان حوالى كرسي حياتهم بخدمة والعبادة فى تفان عجيب . ومن الأمثلة الحديثة حسنة الراهبات روحية والاجتماعية مع ذلك المثل الذي قدمته الصحراء ، ينامون ، حتى فصب نزاع بين أهل قريتين بسبب سيئة النيل - اذ كان اهالى كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

ومنه خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت تراد لزوجها . هذه الخدمة هى التعليم فقد كانت بعض النسوة تعرفن ما لعصر الأصناف من فوائد صحية وتركيب بعض العقاقير وصنعها بمرضى . وكانت هذه الخدمة ترحب مجالا فى معظم الأحيان . ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد سيدات يلدنها . وهؤلاء سيدات لم يذهبن الى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة ، ومن معروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم — أي أن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها رغبة و مقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة . ولما كانت هالة النسوة يعشن فى بيئة صالحة ، يندر فيها من عرفت القراءة والكتابة كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن يكتب سيرة المرأة العاملة فإنه لا توجد أدلة مسطرة و لكن الأدلة قائمة على قيد الحياة لدينا وعلى التقليد الذي سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .

(ب) الأسرة

اعتنت المسيحية بحياة الأسرة كأساس بناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية الى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها الى الأسرة لتحميها وتصونها . فتساعد على تمتعها بنوع من الاستقرار والأمن .

فرابطة الزواج المسيحي سر وركن هاما من أركان الكنيسة بل واحد أسرارها السبعة (التى هى المعماد — التثبيت — التناول — الاعتراف — الزيجة — مسحة المرضى — الكهنوت) (والسر الكنسي هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج الى نعمة الله لربط الزوجين برباط روحي متين يستمر

مدى الحياة ولا تفصمه الا الموت أو الخيانة الزوجية (الزنا) ... لذلك فمن المهم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعي ، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يفصم عقده أو يحله الا الكاهن في حدود السلطة الكنسية المذكورة فقط.

وبما أن الزواج في المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحدا ، لذلك فلا يمكن أن يدخل نفس هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة.

وعلى الكاهن بصفته أبا روحيا أن يستوثق من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه وأن يتأكد من الرضا الشخصي لكل من الخطيبين ، فيسأل كلا منهما رأيه على انفراد بعيدا عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الأقباط حفل اتمام طقس الزواج بالاكليل — لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة بأكليلين ، دلالة على النعمة المقدسة التي توجت حياتهما بربطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أوجه تقديم الشكر لله محاولة اشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة في مشاعر الفرح وذلك بتوزيع الكعك وما شابه من مأكل وحلوى عليهم (١) .

وتستمر احتفالاتها عادة تمام الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة الحناء » وتقوم وتبيت فيها في بيت العروس لتودعها ، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التي تتركها عجينة الحناء على الجلد . ثم ليلة العرس في بيت العريس — والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء وما يسمى بالنقوط (أي الهدية النقدية) ونشأت فكرتها أصلا كمشاركة عملية في مصاريف العرس وأحيانا تستمر هذه الحفلات الى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كانت الأطعمة التي تقدم في ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة فقد منعت الكنيسة اقامة « الاكليل » في أيام الأصوام ، حيث يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يمتنع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة .

وحينما يرزق للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلي به في اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة . وتسمى « صلاة الطشت » نظرا لاستخدام الطشت في غسل الطفل في ذلك اليوم . وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار اسم مسيحي للوليد — يختارونه غالبا من أسماء القديسين والشهداء المصريين [illegible] الصف . ولهم في ذلك طرق مختلفة ، فالبعض

(١) العــــلات الشرية مصدر الذبائح

اختيار اسم المعمد الذي ولد الطفل في يوم عيده أو ذكرى استشهاده. والبعض يختار أسماء القديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات، والشمعة التي تستمر مضيئة الى آخر الحفل تطلق الاسم الذي تحمله على الوليد. وأحيانا يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد باسم القديس الذي استشفع به في وقت شدته.

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لاطلاق أسمائهم على أبنائهم سواء كان اسم القديس من أصل مصري أو يوناني أو سرياني. الأمر الذي حمل على البعض يتشككون في مصرية حاملي هذه الأسماء. فكانوا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين الى اليونان لمجرد أن الاسم اسم يوناني.

وكان في كل بيت قبطي « مقصورة » (ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة) بها أيقونة (أي صورة) لقديس أو أكثر وتوضع في ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة. وأحيانا يضيئون أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض الشموع تكريما للقديس الذي كانت حياته الفضيلة والنصيحة التي عاشها تبرز وجهها للمسيح. وأمام هذه المقصورة تعتاد العائلة المسيحية أن تجتمع لتصلي الصلاة العائلية في الصباح وعند الغروب. وتحتفل العائلة بالعيد السنوي لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة تضم أحباءه ومعارفه.

وحينما يكتمل للوليد أربعون يوما تحمله أمه الى الكنيسة لينال سر المعمودية وتختار له الكنيسة عرابا أي (اشبينا) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة في رعاية الطفل روحيا الى أن يصل الى سن الدراسة فيلتحق بمدرسة الكنيسة.

وهذا الارتباط القوي بين البيت القبطي والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك في حياة أولاد العائلة طبعات دينية عميقة. فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو نقلت مسكنها الى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن في آخرها برش الماء المقدس في أرجاء البيت مبتهلا للخير وطردا للشر. ومن الواجبات المرغوبة على الكاهن أن يزور بيوت رعيته من حين لآخر واعظا ومرشدا، كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلي سر مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس.

ومن عادات العائلة القديمة في الصعيد الأسماء التي يسمونها « نذر » وتفسير هذه التسمية. فاذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو نجاح شخص في تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محدق حيث العائلة بدعوة الجيران والأقارب

والشعراء ومرتلو الألحان الكنسية الى سهرة يحتفلون فيها في حلقة يتوسطها من حضر سيرة (مبمر) أحد القديسين. وكلما وصلوا الى فصل جديد في السيرة أو مقطع معين، يتوقفون عن القراءة ويأخذون في ترتيل المدائح الشعبية في تهليل وبهجة. ويتبارى مرتلو الألحان في ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها « الأرباع » (أي أربعة أبيات) وتدور معاني هذه القصائد حول المناسبة التي يحتفلون بها. وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تلقى قديما باللغة القبطية. ويدخل فيها أيضا تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة. وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء (النقوط) على المرتل (وهو غالبا ضرير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل في ذكر الله ورجاله الأتقياء. وهذه الاجتماعات تعتبر في نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبي الروحي.

المأتم

وترتبط عادات الحزن والمأتم في العائلات بمظاهر دينية أيضا، اذ تشيع الجثة الى الكنيسة حيث تقام صلوات جنائزية استمطارا لرحمة الله على ما قد يكون المتوفى قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة وفيها أيضا تلقى التعزية السماوية لأهل الميت. وتقام صلاة خاصة في بيت الميت في اليوم الثالث للوفاة. ولهذه الصلاة أثر كبير في تخفيف وطأة الحزن على أقاربه ويسميها العامة « رفع الحصير » أي نهاية فترة الحزن الشديد التي فيها يجلس أهل الميت والمعزون على الحصير أرضا بدلا من الجلوس على الأرائك أو المقاعد.

وبعد ذلك تقام القداسات في الكنيسة استمطارا لرحمة الله في أيام السابع والخامس عشر والاربعين. وتعتبر هذه فرص مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن، اذ انها اقترنت بالتأثير الديني الذي يبعث دائما على حفظ اتزان المشاعر، فلا يكون فيها افراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين. كما لا يكون فيها كبت، كما يحدث لدى الذين يعتقدون أن التدين يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن. لقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقي أن كبت مظاهر الحزن للظهور بمظهر التدين، قد أدى في كثير من الحالات الى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن.

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط خصوصا عند النساء في الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم الخدود، وشق الملابس، وحل الشعر، وصبغ الوجه بالنيلة، والقرع على الصدر بعنف، وقطع رباط النفس حتى تتحول الشكوى أحيانا باهتزازات موقعة تتمشى مع أنغام التعديد الذي كثيرا ما تصحبه دقات الدف أو الطبول. وتختلف أقاليم الصعيد في طريقة « التعديد »

وهي في العادة تعدد مآثر الفقيد ، ومقدار الحزن الذي خلفه فقده . إلا أن بعضها يتجه إلى عبارات الكفر والتذمر . وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية ، ويحاربها رجال الدين في مواعظهم .

ومنذ أن يحل بعائلة ما حادث الموت تسرع العائلات المجاورة إلى مشاركتها في التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشترك أيضا في أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، إذ ترسل كل عائلة (صينية) مأكولات إلى بيت المأتم لكي يكون مشغولا فلا يتمكن من إعداد الطعام للمعزين .

وعادة زيارة المقابر في المواسم أي الخروج إلى المقابر التي تكون عادة خارج القرية أو في مكان مرتفع خارج ... هي عادة قديمة . وهي من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت في أيام الأعياد التي يخرج فيها أفراد العائلة أجمع بعد من صلاتهم المقابر وتصطحب هذه الزيارة عادات أخرى منها البخور ومنها الفطائر وتوزيع الصدقات والمأكولات على الفقراء وترفع الصلوات بطلب رحمة الله . إلا أنهم كانوا يبالغون في ذلك فيبيتون في المقابر ويقيمون عدة أيام ويساهمون في مظاهر الحزن المفرط .

(ج) العبادات

ارتبط المصري بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بالطقوس الدينية تأثرا كبيرا ظهرت آثاره في أفراحه وأتراحه ، واحتفالاته وأعياده ، ولا غرابة في ذلك فإن للكنيسة معنى اجتماعيا يمس حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة معناها جماعة ، أي « جماعة المؤمنين » . ويطلق الاسم اصطلاحا أيضا على المكان الذي يجتمع فيه المؤمنون مهما كان نوع هذا المكان . ففي عصر المسيحية الأول قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التي يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة .

ومن هذا الاسم تبرز للكنيسة وظيفة اجتماعية وروحية ، إذ أن مهمة السمو بروح الإنسان تحتاج إلى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تنعقد أو تنقسم على ذاتها ، فتصير عضوا ناميا في جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة إلى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الروحية سد احتياجات الشعب ، رعاة الكنيسة وخدامها بدرجاتهم المختلفة : الشمامسة والقسوس والأساقفة . وهي درجات الكهنوت الأساسية في الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع ديني ديمقراطي ، تتكافأ فيه الفرص . وجميعه

والاجتماعية أمام الشعب والعمل على تكافلهم وتضامنهم في الصحة والمرض، وأوقات الشدة والرخاء. فيصبح فيه مجتمع يعرض المشاكل حتى كأنه صفحة كل هؤلاء خاضعين مستمعين إليها جميعا، ويحسون كيفية تحمل المسائل في حياتهم اليومية، حتى لا يصبح الدين مظهرا منفصلا عن الحياة أو المجتمع، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العطاء للفقير والمحتاج، والتعاون لخير المجتمع.

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور، فقد نشأت الكنيسة بين أسوارها مؤسسات تقوم بالخدمات المختلفة للشعب من روحية وثقافية واجتماعية. ففي كثير من الكنائس في قرى الصعيد والوجه البحري، ما زال يحيط بالكنيسة مبنى يسمى «الحوش» أو «الإيوان» وهي مصطبة أو قاعة الاجتماعات التي يجتمع فيها الشعب صباح كل أحد بعد صلوات القداس يوم الأحد يتشاورون في شؤون مجتمعهم ثم يتناولون معا ما اعتاد المسيحيون بتسميته «الأغابي» وهي كلمة قبطية معناها محبة، ويستخدم اصطلاحا بمعنى «وليمة المحبة» إذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن في تناول الأسرار المقدسة في نهاية القداس يخرجون إلى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون طعامهم معا على مائدة واحدة. وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الطعام فتحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه الطعام، فيتساوى ويقوم كل أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء والأغنياء على السواء.

ويظهر في هذه الولائم روح المحبة الأخوية والتقريب بين الطبقات، ونفي من الفوارق الاجتماعية، بجانب ما تقدمه من ضيافة بإطعام أفراد الشعب الذين يفدون إليهم من مكان الكنيسة.

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لإقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم، فهي تخدم احتياجات الشعب عامة. ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لاستضافة الغرباء والفقراء.

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها، وكانت في القرون الأولى المسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لإعداد الراغبين في العماد وتلقينهم أصول الإيمان المسيحي، ثم أخذت فيما بعد شكل «الكتاتيب»، وكانت تلقن الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية.

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء في سيرة القديس باخوميوس «أب الرهبنة» أنه أنشأ مستشفى في أديرته.

وأحسن مظاهر الرعاية الكنسية التي

تمدهم بكل ... لاحتياجات الشعب ، فتحتفي في وظيفة ... الاعترافات ... وجود كتب ... مخطوطات القديمة ... وعلم النفس الحديث وعلم النفس ... أو « طب نفسي » سواء الوقائي منه أو العلاجي ، فمعروف أن الفرد محتاج الى ارشاد وتوجيه وبخاصة خلال الازمات النفسية ، أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الشعور بالالم . فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو الطريق كواس النفس على يد من يستطيع أن ينعش النفس ويهدىء من روعها ، ويرسم له طريقا لتجديد الرجاء أو بعثه

وتحتاج النفس البشرية أيضا الى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك تفتح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معا في رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات في أيام الاصوام أيضا وبخاصة الأربعاء والجمعة من كل أسبوع وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا

وتشمل صلوات القداس القبطي على طلبات من أجل الظروف المختلفة التي تمر على الفرد في حياته من أجل المرضى والمسافرين ، والراقدين (أي الأموات) وكذلك من أجل سلامة العالم . ومن أجل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة تنفيذا لوصية الكتاب المقدس القائلة « فاطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس ، لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار » (١ تي ٢ : ١ — ٢) .

وقد كانت مصر بلدا زراعيا فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس ومياه ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع الفصول الزراعية

(أ) ففي فصل البذار (من ١٠ بابة الى ١٠ طوبة — أي من ٢٠ أكتوبر الى ١٨ يناير) تصلي قائلة (تفضل يا رب الزروع ونبات الحقل في هذه السنة باركها)

(ب) وفي شهور الاهوية والحصاد (من ١١ طوبة الى ١١ بؤونة — أي من ١٩ يناير الى ١٨ يونيه) تصلي قائلة (تفضل يا رب أهوية السماء وثمرات الأرض في هذه السنة باركها)

(جـ) وفي شهور فيضان النيل (من ١٢ بؤونه الى ٩ بابة — أي من ١٩ يونيه الى ١٩ أكتوبر) تصلي قائلة (تفضل يا رب مياه النهر في هذه السنة باركها — أصعدها كمقدارها ، فرح وجه الأرض ليرو حرثها ، ولتكثر أثمارها أعدها للزرع والحصاد ، ودبر حياتنا كما يليق . بارك اكليل هذه السنة بصلاحك من أجل فقراء شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والغريب

والصنعة ، ومن أجمل نص الدين و حوله وطلب سمت القدوس لأن أمين لكل مجمع البيت ، لأنك أب الذى معطيهم صاحبهم فى وقته اصنع معه بحسب صلاحك ، ، وعطف عليهم بكل خير املا قلوبنا فرحا وبهجة لكى يكون لنا الكفاف فى كل شىء ، ونزداد فى كل عمل صالح)

الأصوام

القبط شعب يميل إلى التصوف والزهد ، فقد اشتهر بكثرة أصوامه اذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الإرادة وضبط النفس لكبح الشهوات ، والتقليل من قيمة رغبات المادية حتى لا تطغى على احتياجات الروحية للنفس فالصوم يسمو بالنفس بها إلى مستوى روحى رفيع

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل إلى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة كل شخص ويتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم غير حيوانية

وتطغى روح العبادة على القبط فى فترات الصوم ، فيكثرون من الصدقات وتتأثر حياة العائلة كلها ، اذ تتغير أساليب حياتهم اليومية ، فتجرى عاداته استعدادات خاصة لاستقبال الصوم وحتى الأطفال يشعرون أن هناك جوا جديدا عليه بواسطة حاجات المائدة وعندما كانت مصر كلها مسيحية ، كانت آثار الصوم تنعكس على الحياة التجارية والاقتصادية أيضا فتغلق محلات ذبح اللحوم وبيعها وتتجه النشاط التجارى نحو البقول والزيت وما شاكلها من سمسم وما يصنع الأفراح والولائم ، ويسود المجتمع جو من الخشوع والعبادة

وأهم وأقدم أصوام القبط هما يوم الأربعاء (بذكرى التشاور للقبض على المسيح ، والجمعة (بذكرى صلبه) من كل أسبوع والصوم الأربعينى لذكرى الأربعين يوما وهى التى صامها المسيح ، ويسمى أيضا « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته فى الوقت الحاضر ٥٥ يوما والأسبوع الأخير منه يسمى « أسبوع الآلام » وبهذا الأسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التى يحملها فكانت تتعطل فيه الأعمال ويذهب الجميع للصلاة فى الكنيسة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس وبصلوات لحن حزين ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع اسما يناسب ذكرى خاصة منها « أربعاء أيوب » الذى اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى « رعرع أيوب » تذكرى لشفاء أيوب النبى به وخميس العهد تذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع ، وفيه يعد بدء معهم عهد جديد

وبالتبعية رهبنة وكثرة الزهد احتذى الشعب بالرهبان فى حفظ أصوام أخرى كصوم الميلاد استعدادا للاحتفال بعيد الميلاد و بزوغ العهد الجديد ويبدأ يوم ٢٥

هاتور (٢٥ نوفمبر) وينتهي بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير) ويبلغ مدته الآن ٤٣ يوماً. وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب بسبحة كيهك فيجتمعون في الكنيسة ويرتلون المدائح والتسابيح ابتهاجاً بذكرى الميلاد. وفي ليالي الآحاد من شهر كيهك يسهرون حتى الصباح في ترديد هذه التسابيح. وفي هذه الليالي كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة ممن لم يتسع لهم المكان في الحجرات الملحقة بالكنيسة.

وأيضاً صوم الرسل، ويبدأ الاثنين التالي لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩ يوماً إذ ينتهي بعيد الرسل في ١٢ يوليو. وكذلك صوم العذراء، ويبدأ في ٧ أغسطس ومدته ١٥ يوماً، وصار له شهرة شعبية عامة. وفي أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط يصومون صوم نينوى ومدته ثلاثة أيام تذكاراً لنجاة أهل نينوى (مدينة قديمة بالقرب من موصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم.

الأعياد

ينتهي كل صوم من الأصوام القبطية بعيد يحتفل به الأقباط بإقامة القداس في صباح يوم العيد ثم يفطرون بتناول المأكولات الدسمة واللحوم والحلوى، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء. وبعد ذلك يتبادلون التهاني معاً في القاعة الملحقة بالكنيسة أو بالتزاور في البيوت. أما في الثلاثة الأعياد الكبرى (الميلاد والغطاس والقيامة) فيكون الاحتفال بالقداس مصحوباً بتمجيد خاص ينتهي بعد منتصف الليل فيكون له بهجة، وبالأخص في ليلة عيد القيامة حيث اعتاد الشعب قديماً أن يخرج من الكنيسة ممسكاً بالشموع المضاءة إلى أن يصلوا إلى بيوتهم.

وترتبط بعض الأعياد القبطية بمواسم زراعية خاصة تتدخل في تحديد الاحتفال بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم، فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء. ومن العادات التي كانت متبعة في عيد الغطاس (ذكرى عماد المسيح) — ويقع في ١٩ يناير — الاستحمام في النهر أو الترع. وكان يوجد في جنوبي الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المغطس في الجانب الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجوداً حتى الآن في كنائس أبو سيفين وأبو سرجه في مصر القديمة)، كان يملأ بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الغطاس.

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبي البهيج «عيد أحد الشعانين» أو «أحد السعف» وهو الأحد السابق لأحد القيامة. وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح إلى أورشليم راكباً على جحش، وذلك الاستقبال الاحتفالي الذي رفع الشعب فيه سعف النخل وأغصان الزيتون. ويحيي الأقباط هذه الذكرى بحمل سعف النخل وأغصان

الرسول الى الكنائس لحضور قداس العيد وعادة تحية القادمين بالسعف كانت معروفة في مصر الفرعونية أيضا

ومن اليوم التالي لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع الذي يسمى الآن « شم النسيم » وفيه يخرج الشعب الى الحقول والحدائق للفرح بجمال الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة . ويسمى كنسيا « أحد الفصح » . وكانت تستمر أجازة عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخماسين

وأما عيد العنصرة — وهو عيد حلول الروح القدس في نهاية الخماسين — اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء ، وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديما عيد الحصاد فيكون لتقديم الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى ، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير . وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول بؤونة من كل عام . وبالأخص في الكنائس التي بنيت على الأماكن الأثرية التي زارها مثل مسطرد حيث البئر ، وشجرة العذراء بالمطرية ، وكنيسة أبي سرجة بمصر القديمة ، ومسقام حيث يوجد الدير المحرق ، وبه تقام الزيارة بهذه المناسبة

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بحسب نوع خاص من الفطير يوزعونه على الحضور والجيران . وجرت فكرة الفطير الى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامة للشكر . وقد كان من عادة القبط ألا يحصدوا المحاصيل الجديدة ولا يأكل ثمارها بيوتهم قبل أن يوزعوا منها على الفقراء

الموالد

وكلما اشتهر قديس أو شهيد في منطقة أو مدينة ، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه . وعندما يصل القادمون الى بضعة آلاف يضطرون الى اقامة الخيام حول الكنيسة يبيتوا فيها ، ويقضوا أيام العيد التي تصل أحيانا الى سبعة أيام

وقد عرفت أعياد القديسين بمرور هذه في العصر العربي قياسا باسم موالد . وهو اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفالات كانت تكون بذكرى استشهاد أو موت القديس ، وهو اليوم الذي أتم فيه البطل جهاده ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فانه يوم لا يعتبر شيئا من البطولة أو الاعجاز

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات واقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل لتنشئة الشعب على قدوته الصالحة . ثم يستطيب الشعب في الموسم ويقدم وأدوات للوقد للكنيسة في جانب نحر الذبائح لاطعام الفقراء والمحتاجين ويكون لكثرة العدد ومن مصاحبة هذه الألوف

من أماكن للعب ، ومن مأكولات ومحمصات لذيذة ، ومع احتشاد الزوار وسعة جلاله صح في هذه الاحتفالات عن صبغة دينية تحولت إلى مظاهر عادية مجاراة كانت سببا في تسرب كثير من الشرور الاجتماعية إلى تلك « الموالد » مما لم تقره الكنيسة ، بدرجة أن الأمر تطور في القرن الخامس) التي عقدت دورة لدى حيث بتلك الشرور قائلا لا يجب أبدا أن يذهب الانسان إلى مقر الشهيد يصلي ويصوم ويطلب المراحم ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة في هيكل المسيح ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو ، أو بالحرى يزني ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط في الشراب والعبث والفساد والإثم ، فهذا هو الكافر بعينه

وبينما البعض في الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الأسرار المقدسة إذ بآخرين في الخارج يطلبون المكان بآلات الطبل والزمر — بيتي بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص ... لقد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحمص وما أشبه ... لقد جعلتم المولد فرصة لتدريب بهائمكم وسباق حميركم وخيلكم ، جعلتموه أماكن فرجة ما يعرض فيها للبيع ، فبائع العسل بالكاد محمص على قليل من الزبالي لتفت حتى ،

أو يستحضر لنفسه شيئا من المائدة يظن نفاقه حتى الأشياء التي لا يمكن أن يحجب ساعة في الأسواق تعامه تحسب لهم في موالد الشهداء

يا للعار ... إن كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتلهوا وتهدروا كل ما يروق لكم ، فأية فائدة لبيوتكم التي في مدنكم أو قراكم إذا لهوتكم المطلقة ... وإن كانت بناتكم وأمهاتكم يحضرن راقصين ويكشفن عيونهن ويسلبن بخداع نفوس الذين ينظرون إليهن ، وإن كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يمضون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء فلماذا جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجور بدلا من أن يحفظوا له قداستها وطهارتها من كل رجس سواء كانوا رجالا أو نساء ... دعوني أقول لكم بصراحة تامة إن كثيرين منكم يحضرون لا لشيء إلا قائلين ليست لي زوجة أو ليس لي زوج ، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتنجيس أجسادكم في المقابر التي يحبونها أو المباني القريبة منها أو في كل مكان .

(د) التقويم القبطي

وضع التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم. أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوي على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما تكون إلى السنة الشمسية. وتكونت السنة المصرية من اثني عشر شهرا ينقسم كل منها إلى ثلاثين يوما، ثم زادوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولد فيها المعبودات الخمسة التي تتكون منها مجموعة أوزيريس وهي: أوزيريس، وإيزيس، وست، ونفتيس، وحوريس. وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة.

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور. وسموا الفصل الأول فصل «الفيضان» والثاني «بذر الحبوب» والثالث «جني المحصول».

ويعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذي تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يونيه إلى أكتوبر. أما أشهر فصل «بذر الحبوب» فهي من نوفمبر إلى فبراير وهي أشهر الشتاء، وأشهر فصل «جني المحصول» من مارس إلى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا.

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يهب أرضهم الخصوبة ويجددها كل عام، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التي تأتيهم كل عام أي حدوث الفيضان.

ثم تحدد السنة المصرية في حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصري على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام، أي بسنة نيلية، تعتمد على طبيعة الفيضان وقيمته لدى الشعب الذي تتصل حياته به اتصالا وثيقا. ولم يكن من المهم لديهم أن يأتي الفيضان في نفس اليوم من كل عام. بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم في نفس الوقت تقريب.

وليس في الإمكان أن نحدد متى استطاع المصري أن يقيم «حساب السنة المدنية» على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ في فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك في أثناء عصر حضارة نقادة الثانية، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد.

ومع مضي على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان سنة، كما لاحظوا أن أشهر «بذر الحبوب» التي كانت تقع في الشتاء أخذت تقع في فصل الصيف. وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية ربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحيح من

نفسه بعد مضي ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم ، يعني هذا ... الفرق ربع يوم في كل سنة فيصبح ٣٦٥ يوما أي سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة ، ويعد هذا التوافق من الأسس العلمية والنسبية التقسيمية

ولاحظ المصريون أن بداية السنة التي تبدأ من اليوم الذي يأخذ فيه النيل في الارتفاع وتنتهي بنفس اليوم من العام التالي ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مرة كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون في الفجر مبكرا قبيل شروق الشمس ، ويكون أنور وألمع نجم في السماء ، وفي دوران الأرض حول الشمس تأتي لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم في خط مستقيم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسما مؤنثا هو « سبدت »

وورد ذكرها في الكتب الدينية القديمة على أنها « جالبة للنيل » أي التي تجلب فيضانه ، ويصورون هذا النجم على أنه صورة من صور إيزيس ، وهذا النجم هو الذي نسميه الآن « الشعرى اليمانية »

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة « الشعرى اليمانية » تعادل تقريبا دورة الشمس في عام

هذا ولم تكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين في أول الأمر ، وكانت تنسب للفصول التي تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثاني من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا

وبعد الأسرة السادسة والعشرين أي منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبا أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التي اعتادوا إقامتها

والأسماء كما وصلتنا هي

فصل الفيضان	١ — تحوت	Thot
	٢ — باؤفي	Paophi
	٣ — أتير أو هاتحور	Hathor or Athyr
	٤ — كحوياك	Khoiak
فصل بذر الحبوب	١ — طيبي	Tybi
	٢ — مخير	Mekhir
	٣ — فمنوث	Phamenoth
	٤ — فرموثي	Pharmuthi
فصل جني المحصول	١ — بخونس	Pakhons
	٢ — بيني	Payni
	٣ — إبيفي	Epiphi
	٤ — مسوري	Mesori

السنة ، وكانت تسمى بالأيام الخمسة الزائدة على السنة أو الشهر الصغير وهي خمسة أيام وكل من الأشهر ثلاثون يوما

ان المصرى القديم هو أول من وضع تقويما يؤرخ الحوادث بمقتضاه وهو أول من ألف عاما شمسيا من اثنى عشر شهرا كل شهر منها ثلاثون يوما وأضاف الشهر الصغير (النسىء) وهو خمسة أيام لكل عام ، كما قسم العام الى فصول

ويحتفل المصريون بيوم « طلوع الشعرى اليمانية » ويجعلونه عيد أول السنة في جانب احتفالهم العادى بعيد العام الشمسى (٣٦٥ يوما) ، وأطلقوا على هذا العيد اسم « طلوع سبدت » ولاحظ المصريون أن عيد « طلوع سبدت » يتأخر عن عيد غرة العام الشمسى بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٠ سنة وهى دورة « الشعرى اليمانية »

وذكر الكاتب الرومانى كنسورينوس Censorinus أن الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية حدث في أول يوم من سنة ١٣٩ بعد الميلاد وبناء على هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية في سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ ق. م وسنة ٤٢٤١ ق. م وهكذا عرف المصريون في عصر دولته القديمة تقسيم العام الى ٣٦٥ يوما وبحسب النصوص ([illegible] ترى ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية في عهد ظهور الأسرة الثانية عشرة ، كما تحقق بردية أخرى (اللاهون) هذه الظاهرة في عصر الدولة الوسطى ويؤكد « ادوارد ماير » أن أول دورة التى بدأ عام ٢٧٨١ ق. م كان التقويم الشمسى معروفا ومستعملا فيها ، فلابد اذن أن يقع بدء استعماله في أول الفترة السابقة أى سنة ٤٢٤١ ق. م

* * *

قيمة التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم بعد عصور ممتدة في القدم دليلا نافعا ودقيقا للطقس وللعمليات الزراعية ومواسم النيل في فيضانه وتحاريقه ، ولا يزال المزارعون يراعونه في كل ما يختص بالبذر والحصاد كما كان يفعل المصرى القديم منذ آلاف السنين ولا زالت تجرى على الألسنة الأمثال التى تدل على حالة الطقس بالنسبة لهذه الفصول والشهور ، كما أصبحت مصطلحات شعبية : طوبة أبو البرد والرطوبة ، أمشير أبو الهوج والزعابيب ، برمهات ، اطلع الغيط وهات الخ

والتقويم الزراعى في مصر لا يزال يتبع التقويم المصرى القديم ، وإليك مثال ذلك

شهر توت

يزرع فيه البرسيم والشبت والكرنب مثلا والشعير الشتوى والفول ويظهر البلح الشامى ، وينضج القطن النيلى ، والموالح الليمون ، وينضج الزيتون ويخزن السفرجل والتفاح

شهر بابه

تتم الزراعة الشتوية فيزرع فيه الفول والكتان والبصل والثوم بالوجه القبلي والقمح والحلبة والبرسيم والشعير والحمص ، ويجني القطن ، وينضج البلح والتفاح البلدي والقرع والقنبيط ، ويحصد الفول السوداني ، كما تكثر فيه الأسماك الصغيرة والبسارية .

شهر هاتور :

ينتهي فيه جني القطن ، وينضج الأرز النيلي ، وتقطع الذرة الشامي ، ويظهر فيه البرتقال واليوسفي ، ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم

شهر كيهك

يزرع فيه المشمش والبرقوق والخوخ شتلا ، والمقاثي الصيفي والخيار والخضراوات الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع قصب السكر للعصير ، ويكثر القلقاس

شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصغيرة ، وتقلم كروم العنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجزر ونوى الخوخ

شهر أمشير :

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلي) والذرة الرفيعة وقصب السكر ، وتغرس الأشجار ، ويلقح النخل ، ويحصد الكمون ، وتزهر أشجار النبق والتفاح والبرقوق والمشمش ، ويظهر الخيار

شهر برمهات

يورق فيه شجر التوت ، ويحصد الفول ، وينضج البسلة البلدي ، وتنضج فيه القمح الهندي ، ويقلع فيه الكتان ، وتظهر الملوخية ، ويزرع الكمون والعصفر .

شهر برموده

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح في بعض جهات بالوجه القبلي ويزرع فيه الفول السوداني ، ويقطف أوائل البصل ، ويجني الورد لاستخراج مائه ، ويظهر البطيخ الصيفي والتوت ، ويقلع البطاطس الشتوي ، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا

شهر بشنس :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ، ويحصد القمح بالوجه البحري ، ويزرع فيه السمسم والقلقاس

شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامي ، ويقطف عسل النحل ، وتظهر الفاصوليا والقرع والكوسة ، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى .

شهر أبيب

يزرع فيه الجرجير والكرفس والسلق والبقدونس والباذنجان الأسود والجوافة والتين والخرشوف والسمسم والملوخية ، ويظهر الرمان

ينضج فيه النبق ، ويزرع فيه محصول الترمس والثوم والحمص والطماطم والقمح الصيفى ، ويكثر فيه العنب والتين ويجمع الزيتون الأخضر .

* * *

الدولة الرومانية والتقويم المصرى

ألغى يوليوس قيصر استخدام التقويم بالسنة القمرية الذى كان سائداً فى الدولة الرومانية وأنشأ تقويماً شمسياً استعان فيه بالفلكى المصرى سوسيجينس Sosigenes الذى قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوماً وربعاً واستخدم طريقة السنة الكبيسة مرة كل أربعة أعوام وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم وسمى فى سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهى سنة ٤٦ ق. م وسمى هذا التقويم باليوليانى نسبة الى يوليوس قيصر واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون فى عهد البابا جريجوريوس الثالث عشر خطأ فى الحساب الشمسى وأن الفرق بين السنة المعمول بها والحساب الحقيقى ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق اليسير يعادل يوماً فى كل ١٢٨ عاما

وصحح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصبح يوم ٥ أكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجورى السائد الآن

* * *

بدأ المصريون يحسبون بدء تاريخهم يوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذى استشهد فيه الكثير منهم ، وبذلك بقى التقويم الذى استخدم فى مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصرى بالتقويم القبطى ويطلق عليه تقويم الشهداء وهو يتبع الحساب اليوليانى ، ونجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليوليانى والحساب الجريجورى قد بلغ ١٣ يوما فى التقويم القبطى

* * *

مزايا التقويم القبطى

للتقويم القبطى ميزتان الأولى يتبع الحساب الشمسى ، وهدفه احصاء الأيام والشهور والأعوام الشمسية الكاملة وتحديدها جميعا بالنسبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس والميزة الأخرى يتبع الحساب القمرى ، وهدفه احصاء الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد

وقد ربط اهتمام المصرى بالحساب القمرى بعد دخول المسيحية مصر لأن عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التى تتصل بعيد القيامة تتحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية

* * *

حتى خطرت فكرة تسجيل الحوادث للإنسان الأول عند بزوغ ظهور القمر وأوجهه . وقد قاست النجوم أمد بحث في الاختلاف بين مدة دورة قمرية وبين أخرى، وكذلك في متوسط مدة الدورة القمرية ، ومدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد الذي يسمى شهرا قمريا وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل الفرق الى ٩ ساعات تقريبا ولكن هناك دورة كاملة لحركة القمر في الفضاء بالنسبة اليه تبلغ مدتها ١٨,٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسطا عاما لطول الشهر القمري في الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا المتوسط دقيقا ، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر مدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هنا نشأت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين ، ويسمى ذلك بحساب الأبقطي (ومعناه الحرف البابلي) لأن هذا الحساب يشمل على حساب الباقي بعد عمليات حسابية معقدة

وقد بني حساب التقويم القبطي القمري على قاعدة وضعها الفلكي ميتون في القرن الخامس قبل الميلاد وهي أن كل ٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهرا قمريا كاملا بغير كسور.

وقد استخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادي ، وقد وضع من عدها معمولا بها الى الآن البطريرك الاسكندري الأنبا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك الثاني عشر وساعده في وضعه الفلكي المصري بطليموس وبها يحدد عيد القيامة (الذي يليه شم النسيم) ، بأنه الأحد التالي للبدر الكامل الذي يلي الاعتدال الربيعي مباشرة

وقد أخذ الغربيون حساب الأبقطي وطبقوه على التقويم الروماني اليولياني ، فكانت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطي حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغربيون تقويمهم بالتعديل الجريجوري .

الشهور القبطية

والشهور القبطية كما تعرف الآن هي

توت (سبتمبر — أكتوبر)

بابة (أكتوبر — نوفمبر)

هاتور (نوفمبر — ديسمبر)

كيهك (ديسمبر — يناير)

طوبة (يناير — فبراير)

أمشير (فبراير — مارس)

برمهات (مارس — أبريل)

برموده (أبريل — مايو

بشنس مايو — يونيه

بؤونة ٨ يونيه — ٧ يوليه

أبيب ٨ يوليه — ٦ أغسطس

مسرى ٧ أغسطس — ٥ سبتمبر

النسيء ٦ سبتمبر

التقويم الاثيوبي

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم الاثيوبي هو نفس التقويم القبطي فقد أخذ الاثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، ويسمون شهورهم بنفس التسمية القبطية ، وتتوافق شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمي الاثيوبيون حساب سنيهم بعد الرحمة ، وهو التاريخ الذي كان سائدا في مصر في القرن الحادي عشر ويسمى بالسنة الميلادية الشرقية أو بسنة ملائكة الرحمة ، وهي تنقص ثماني سنوات تقريبا عن التقويم الميلادي الغربي .

(٥) الرهبنـــة

١ ـ نشأتها في مصر

المصري بطبيعته يميل الى التدين ، والتعبير بشعوره الديني يدفعهم الى حياة روحية أسمى ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله ، حياة تتوق الى الكمال والبر . ومن يصل به تدينه الروحي منهم الى درجة الهيام بالله ، يسعى الى التخلص من المشاغل الدنيوية والاهتمامات المادية ليتفرغ للعبادة والتأمل .

استمال سحر صحراء مصر محبي الفضيلة والكمال اليها ، فهدوء الصحراء حيث السكون تخلو به من [illegible] مترامية ، وهدوء التأمل يعين على [illegible] طبيعة ، وسكونها الشامل يساعد الانسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه في الله بأن يحيا في حضرته أمامه .

وهكذا اندفع مصريون مسيحيون في البرية هاربين من الشر والمحاولة والمال ، وكانوا يتطلبون من ذلك الى أن تسمو أرواحهم وترتفع نفوسهم ليستطيعوا التحكم في نفسه وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم التي قد تستهوي الانسان بعيدا عن خالقه وتحس النفس الالهي الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات عفريين اليهود والاسينيين اليهود ، الا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بتلك الحركات النسكية التي يختلف بعضها اختلافا كاملا في الهدف والسيرة والأسلوب . كما أن الرهبان الأول الذين ساروا هذا الطريق لم تكن لديهم الثقافة والتعليم مما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها بل هم لجأوا الى الصحراء بدافع من الروحانية والزهد بما يوحي به تعاليم المسيحية ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس .

وجميع مشاهير المسيحية في مصر كانت مظاهر التعبد [illegible] وبدأ [illegible] القصة سمع عن [illegible] ٢٨ — ٩١ م) ورحل إلى برية نيتريا (وادي النطرون) وفي صحبته سبعون [illegible] يعيشون حياة الرهبنة والزهد.

وأصبح على أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة. فأصبحت الرهبنة في مصر [illegible] وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس. ولم تكن في بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة [illegible] أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العامية الواضحة ابتداء من الأنبا أنطونيوس.

أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة

١ ـ التوحد

إذ كانت الرهبنة الأنطونية في عهدها الأول تحتوي على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد. وبتأثير القديس أنطونيوس [illegible] نظام العزلة يتطور تطورا بطيئا إلى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية.

والقديس أنطونيوس (٢٥ — ٣٥٦ م)

هو القديس العظيم الذي [illegible] ولد من أسرة غنية في الصعيد. ولما توفي والداه [illegible] كان [illegible] الإنجيل [illegible] كاملا [illegible] مع كل ما له وأعطاه للفقراء [illegible] خرج من بلدته [illegible] في الصحراء وسكن أولا في مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر وعاش حوالي عشرين سنة لا يرى وجه إنسان وهو في نسك وصوم وصلاة وتأمل. ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم إلى معيشة مثله، خرج إليهم وأرشدهم إلى حياة الوحدة. وكان تلاميذه لا يعيشون في أديرة بل في مغارات منفردة في الجبل. وقد تتلمذ عليه القديس هلارى مؤسس الرهبنة في فلسطين، والقديسان آمون ومكاريوس مؤسسا الرهبنة في وادي النطرون، والقديس [illegible] أديرة الفيوم. كما تتلمذ عليه البطريرك أثناسيوس وكثير من مؤسسي الرهبنة.

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى [illegible] فأتوا إليه يحاورونه [illegible] فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان في عرف الكبرياء الرومانية أميا لم يتلق دراسته [illegible] والفلسفة.

ولما حل بالكنيسة اضطهاد [illegible] أنطونيوس إلى الإسكندرية ليخدم المضطهدين ويشجعهم [illegible] أن يستشهد [illegible] بعد [illegible] وكان ظهور هذه النسخ

الســيد موجه أنظاره الكبير في تأسيسه النظام لـ أنطونيوس

وقد أسس ... الامبراطور قسطنطين وأولاده ... سائل يطلبون منه بركته فلم يرد عليهم الا بعد الحاح رهبانه الذين قالوا لهم ولا تعجبوا ان كتب الينا امبراطور فهو انسان ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب الشريعة للانسان »

٢ ــ الرهبنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحـــدون في تركيز تجمعهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين يتتلمذون على أب روحي اشتهر بالقداسة والعلم مع احتفاظ كل منهم بحياة التـــوحد في مغارته أو قلايته المنعزلة عن جاره ، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعضها من بعضها ويقوم حول قلاية الأب الروحي ولذلك يسمى هذا النظام أيضا بنظام القلالي وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونيـــة والرهبنة الباخومية وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شيهيت أي وادي النطرون بالصحراء الغربية

والقديس مقاريوس ... مؤســس الرهبنة في وادي النطرون في صحراء مصر الغربية ولد سنة ٣٠٠ م من أبوين مصريين في احدى قرى مديرية المنوفية وكان أبوه كاهنا وقد رسم هو أيضا ... وتكلم ... حياة الوحدة بعد وفاة والديه ووزع أمواله على

الفقراء وذهب الى وادي النطرون سنة ٣٣٠ م حيث ... ثم زار الأنبا انطونيوس في الجبل الشرقي فألبسه الزي الرهباني وزوده بنصائحه ورجع الى وادي النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل ولم يكن هناك غيره في كل تلك البرية وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة في الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون بنى لهم كنيستين في الموضع المعروف الآن بدير البرموس وأنشأ مقاريوس بوادي النطرون ومن أشـــهر تلاميـــذه ايسيذوروس والأميران مكسيموس ودوماديوس

والمدرسة الرهبانية التي تزعمها مقاريوس هي نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التي تظهر في رهبنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة التي تمثلها رهبنة باخوميوس فكان الرهبان يعيشون في قلالي منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة في كل سبت ليشـــتركوا معا في الصلاة وتناول الأسرار المقدسة ولم تكن لهم أسوار ولا حصون ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومي أما من لم يستطع من أتباع هذا النظام على حب الوحدة فانهم يعيشون منفردين في مغارات محفورة في الجبال وفي سنة ٣٩٠ توفي الأب مقاريوس بعد أن عمر وادي النطرون بالآلاف الرهبان وتنقسم هذه البرية الى أقســـام ... هي ... والأسقيط والقـــلالي ، وأصـــبحت البرية كلها معمورة ...

٣ ـ الرهبنة الديرية (حياة الشركة)

ووضع القديس باخوميوس ٢٩٠ - ٣٠٨ م مجموعة قوانين تعني بتنظيم الحياة في دير واحد هو عبارة عن كنيسة وقلالي الدير محاطة بها قلالي الرهبان داخل سور واحد.

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الاختياري — العفة والبتولية — الطاعة للمرشد الروحي . وهي مقومات لنكران الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية.

وكان يشترط على من يريد الانضمام إلى الدير أن يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار وكان الطعام يقدم للرهبان في قاعة المائدة مرتين في كل يوم (في الظهر وفي المساء) وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد الاخوة يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية في المؤسسات الباخومية إجبارية لفوائدها الروحية التي تشغل الراهب عن الشرود في أفكار لا توافقه . كما أنها وسيلة لكسب القوت الضروري لكي لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل في المهنة التي يتقنها بجانب من تخصص في كتابة الكتب ونسخ المخطوطات.

وكان النظام الباخومي يهتم بالتعليم وبهذا تعلم باخوميوس للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والتاسعة والسادسة من النهار للمبتدئين . وقد وضع الحبري عامة بعضها أسسه الأكاديمية في الأبحاث والحكمة في تفسير الكتب المقدسة وكان حضورها إجباريا.

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى في النظام والحياة الراضية والسلام في وسط عالم مضطرب ملأه الفزع والفوضى ، وطبيعة الفرط والتمرد . لذلك كان من الطبيعي أن يهرع إليها الناس بالمئات والآلاف في عصر نهضته الروحية الديرية.

والأنبا باخوميوس ، ولد حوالي سنة ٢٩٠ م في إحدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين والتحق في شبابه بجيش قسطنطين في حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته في ضواحي إسنا فخرج أهالي البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب فدهش باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس إلى إبداء هذا العطف فقيل له إنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم فقال في نفسه إن كانت هذه هي المسيحية فأنا — إن عشت سالما — سأصير مسيحيا .

ولما انتصر قسطنطين وسرّح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتنقها ثم تتلمذ على راهب شيخ تلقى بالاموني وزوّده في النسك والمعرفة على مستوى عال

---

(١) حسب التوقيت الشرقي (أي الساعات السادسة والتاسعة صباحا والثالثة عصرا طبقا لتوقيتنا الحالي)

كثيرين وأسس ديره الأول في طبانسين واستخدم في تدبيره ما استفاده من نظام العسكرية ومن طاعة وضبط في الرهبنة. وكثر عدد تلاميذه انه حتى لم يسعهم الدير ، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها الى تسعة ، كما أنشأ ديرا للراهبات تحت رئاسة أخته. وقد ذكر « بلاديوس » أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف في حياته وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠ م سبعة آلاف ، وقدرهم « كاسيان » بخمسة آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهبانا من اليونان والرومان والأحباش والسريان. وكان كل هذا العدد يضمهم تحت ادارة حكيمة حازمة. ووضع لهم باخوميوس قوانين في العبادة والعمل اليدوي والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم في معيشتهم الديرية. واشترط في طالب الرهبنة اذا لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع للرهبان نظاما في الدراسة. وهكذا لم تساعد أديرته على محو الأمية فحسب ، بل كانت معاهد للتثقيف. وقد انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم. ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية في الرهبنة المسيحية كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها.

٤ - نظام الأنبا شنوده [٣٣٣ – ٤٥١ م] بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم. أدخل الأنبا شنودة تعديلات على نظام الشركة الباخومي تتفق مع بيئته والنظام.

نشأ الأنبا شنودة في الصعيد من أسرة تقية. وكان في صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضي اليوم كله صائما ، كما كان ينفرد أثناء رجوعه من الرعاة ويقف للصلاة. ولما شب ونما الى ذلك دفع به الى خاله «بيجول» الذي كان رئيسا لدير الأبيض في سنة ٣٥٠ م فرسمه راهبا. وظل شنودة الصبي يرتفع في درجات العبادة ، ويكثر من الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعا وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيسا للدير سنة ٣٨٣ م ودامت رئاسته للدير ٦٦ عاما حتى توفي سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين من العمر.

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالي خمسة آلاف ، وكان منهم ألفان وثمانمائة راهبة. وقد كتب لهؤلاء الرهبان عددا وفيرا من الرسائل تنبئ عن تفكيره السليم وتعمقه في الروحيات. وظل يتعهد رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة. ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس.

وبينما كان في عامة القوانين مختلف عن باخوميوس في [illegible] باخوميوس حسب كثرة القصر هو في

أديرته على الأقباط . وعندئذ صمت أديرته معاقل مقدسة [illegible] كان كالثائر [illegible] من جانبه بالرهبان فقط [illegible] هو كنيسة الدير الأبيض يجتمع بأبنائه في الآحاد والأعياد ليعظهم ويرشدهم . وكان الأب شنوده محبا لشعبه يقاسمهم آلامهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام وملاك الأرض للرقيق والفقراء .

وقد كان نشاطه محصورا في محاربته الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والشعوذة والدجل الشعبي وبدع [illegible] . كما سافر مع القديس كيرلس الى افسس واشترك معه في محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأب شنوده أعظم كتاب الأدب القبطي . لقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه . وكانت كتاباته قبطية صريحة للأسلوب المباشر . وكان كثير الانتاج [illegible] . وقد خلف لنا في جهاده الديني والقومي الطويل تراثا أدبيا ضخما باللهجة الصعيدية التي لم يكن يكتب أو يخطب الا بها .

وما أن وصلت الرهبنة الى هذه الأطوار والانتشار [illegible] حتى كانت الصحارى المصرية [illegible] من الوجه القبلي حتى [illegible] الأديرة وقلالي [illegible] بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل ان المسافر من الاسكندرية الى أسوان في القرن الخامس والسادس لم يكن في حاجة الى أن يحمل زادا للطريق [illegible] لوجود [illegible] الرهبان من الأديرة والقلالي المنتشرة بكثرة على أطراف وادي النيل وصحراواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المناطق التي تركزت فيها جماعات الرهبان :

١ — منطقة بسبير في الصعيد الأوسط

٢ — منطقة جبل نتريا أو وادي النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم الى ثلاثة مراكز رهبانية

(أ) نتريا

(ب) الاسقيط

جـ القلالي

٣ — منطقة مريوط على الساحل الشمالي غرب الاسكندرية .

٤ — منطقة [illegible] وهي بالقرب من بني سويف الحالية وكانت تعرف في العصر الروماني باسم أوكسيرنخوس

٥ — منطقة [illegible] بالقرب من ملوي

٦ — منطقة [illegible] بالقرب من أسيوط

٧ — منطقة سوهاج وأخميم (بانوبوليس) حيث أديرة الأب شنوده

٨ — منطقة طيبة وهي منطقة واسعة في مديرية قنا [illegible]

ولم يبق من هذا العدد الضخم من الأديرة ، في وقتنا الحاضر سوى بضعة أديرة

فمصر مأهولة بالرهبان ، وانتشرت منها أسلاك حركة نؤمها الرهبان في الأديرة ، لاقامة الرهبنات ، فمنها أديرة في وادي النطرون وهي أديرة الانبا بيشوي والسريان والأنبا مكاري والبرموس ، وفي جنوب صحراء الفيوم دير الأب صموئيل القلموني ، وفي جنوبه بالقرب من قرية الدير المحرق ، أما في الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبا انطونيوس ودير الأنبا بولا وسيرتاب الأرثوذكس دير سانت كاترين بالقرب من الطور في شبه جزيرة سيناء

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة للراهبات في مصر القديمة ، وحارة زويلة ، وحارة الروم

آثار الرهبنة :

١ ــ التربوية

عندما أدى الاضطهادات والاضطرابات الموالية الى ضعف مدرسة الاسكندرية اللاهوتية في نهاية القرن السادس انتقلت القيادة التربوية في القطر المصري من الاسكندرية الى الصحراء ، فصارت الأديرة مركزاً تربوياً لطلبة علوم الكنيسة

ولقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية ، وهي التي قادت الحركة التربوية في مصر خلال القرون الوسطى ، فمدارس الرهبنات والدراسات التي تركزت داخل الأديرة ، قد عهد أمرها الى عدد من الرهبان في ... مدارس أو ... كتاتيب في قرى وادي النيل حتى أبناء الأقباط .

ان الجو الشعري الذي يحيط بالأديرة وهدوء المحيط الذي يعيش فيه الرهبان هيأ لهم فرص التأليف والكتابة ويحاسبهم في علوم اللاهوت ، وتفسير الكتب المقدسة الى جانب الخبرات النسكية والروحية التي تعتبر من أعمق الدراسات النفسية

وكان لكل دير مدرسة نسخ مخطوطات بجانب جماعات النسخ التي عملت على نشر التراث الثقافي والديني في وقت لم تكن الطباعة قد عرفت فيه

ويجمع المؤرخون أن آثار الرهبنة العلمية في عدة نواحي فالأدب والفن والشعر والعلوم قد وجدت في الرهبنة ، مبادىء حضارية تعتبر فصلاً من تاريخ الرهبنة .

٢ ــ الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الجذور في النفوس التي تأثر بها المجتمع القبطي ، فبادله موجة من الزهد والتقشف وأخذ يقتدي بالرهبان وينفق معهم كثير من أوقاتهم وأموالهم . ولما اشتهرت فضائل الرهبان وذاع صيتهم ، اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان ، وكانوا في العصور الأولى يحتفظون بقدر الى الحد الأدنى بمناصب الكهنوت الكنسية ، وفي ذلك يحيي كثير من الطقوس الرهبانية في حياة المجتمع القبطي الى المبادئ الحية للفضيلة والتصوف

وبذلك الدأب التي تألقت في حياة أوائل الرهبان المصريين كان من أعظم الدلائل على أن الفضيلة ، وهي بناء الدين [illegible] والفضيلة تحيا بوضوح أشبه [illegible] بالحس مجرد مثل عالي ومبادئ مطلوبة تحتاج الى دين الإنسان لدى مصر قوى الخير في تحصيل على قوى الشر ، فلا يبيح اليأس الكثيرين في مواجهة الانحلال والمادية والالحاد [illegible] تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد في سبيل الفضيلة تشبهاً بهؤلاء العباد ومن هنا [illegible] حفظ للمجتمع المصري طابعه الديني على مر العصور

[illegible] ظاهرة اجتماعية أخرى [illegible] والزاهدون بعد آلام الحياة وأتعابها [illegible] التجربة والمشاركة والعطاء [illegible] الناس عرفت قلوبهم بالايمان [illegible] السلام الوسيم [illegible] لذلك كان الشعب [illegible] الى الرهبان [illegible] الآلام بمشورتهم [illegible] وتعزياتهم وإرشاداتهم [illegible] [illegible] الأثر في تجديد [illegible] [illegible] كانت الأديرة أشبه بيوت السلام في أوقات الأزمة والحروب والمحن [illegible] اللاجئون اليها الأمن والهدوء [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الألماني

[illegible] الرهبان المصريين كانوا [illegible] في جميع العصور [illegible] في نظر [illegible] [illegible] ونماذج الحياة [illegible] »

٣ ـ انتشارها في أنحاء العالم المسيحي

[illegible] الرهبنة في مصر [illegible] الآباء المصريين في أرجاء العالم ، حتى [illegible] [illegible] [illegible] مصر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الى هذا الوادي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

فوفدت الى الصحاري المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش واليونان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال افريقيا وغيرهم وكان لكل أسرة منهم من جنسها [illegible] على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم وهذا النظام هو الذي ورثته الجامعات في العصور الوسطى حيث [illegible] وحياتها نظام الأمم [illegible] نظام الأروقة في الجامعة الأزهرية

وتعتبر [illegible] الآباء المصريين من أكبر المآثر التي جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين

ا ـ في الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس [illegible] هيلاري [illegible] الكبير (هيلاريون) [illegible] الفلسفة في مدرسة الاسكندرية ثم [illegible] للقديس أنطونيوس [illegible] الى فلسطين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المصريين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الى [illegible] [illegible] الأردن

وفى أواخر القرن الرابع جاء بلاديوس الى مصر عمره الأولى من سنة ٣٨٨ الى سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبانها وقام بدراسة نظام النسك ثم عاد الى ... ثم الى أورشليم ورسم أسقفا لهيلينوبوليس سنة ٤٠٠ م

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر كتب حوالى سنة ٤٢٠ م تاريخا عما رآه وسمعه من رهبان الأساقفة المشهور باسم فردوس الرهبان ، وكان هذا الكتاب سببا لانتشار الرهبنة فى جهات كثيرة من العالم

ومن الذين أسسوا أديرة بالموصل وطور عابدين ونصيبين رهبان مصريون يبلغ عددهم حوالى السبعين نفر من مصر مع راهب سريانى يسمى مار أوجين (القديس أوجين) كان قد عاش فى الأديرة القبطية بالصعيد

وانتشرت المسيحية فى بلاد كثيرة من الشرق على أيدى المبشرين المصريين . فعلماء مصر المسيحيين من مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ثم رجال الكنيسة المصرية التابعة لها على أيدى الرهبان المصريين ، فكانوا هم الذين كونوا تنظيم الكنائس والأديرة وتوسعوا فى نشر المسيحية

فقد انتشرت المسيحية فى بنتس والهند (الجزيرة العربية ستانوتيس) ويذكر يوسابيوس المؤرخ أن بنتينوس أحد أساتذتها فى أيام ديونيسيوس الاسكندرى وسمع ... هرناك ... من ذلك ومن وجود عدد من الارساليات حيث أن الكنيسة هناك كانت فى حالة منظمة فى منتصف القرن الثالث

ويذكر أوسابيوس القيصرى بنتينوس فى الهند ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلا اذ يذكر كتب تاريخ البطاركة مجيء كاهن هندى الى مصر فى أيام البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند

أما عن بلاد العرب فان هرناك يستند الى أوسابيوس فى تأكيد زيارة أوريجانوس للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى بصرى

أما عن الحبشة فقد دخلت اليها المسيحية على يد فرومنتيوس فى منتصف القرن الرابع الميلادى وهو مصرى كان يتجر فى صور ويجوب البحار شمالا وجنوبا والاسم فرومنتيوس لفظ قبطى معناه رجل الله (افرومى — اب — نوتى)

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة وتبعه فى ذلك رجال البلاط ثم أخذت المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفا لما عهدناه فى البلاد الأخرى حيث كانت يجيء عرضها الى الشعب أولا ثم يعتنقها رجال البلاط فالملك

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر طلب من البابا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية أن

يرسل بعض ... بالتبشير في أثيوبيا ، وبعد أن تساوى ... مع مجمع الأساقفة الأقباط ... وتوجه إلى أكسوم عاصمة الحبشة في ذلك الوقت

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ التي رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر في هجرة كثير من الرهبان إلى مصر حيث وجدوا في أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم من اتجه في الانتقال إلى النوبة ومنها إلى الحبشة ، فدفعتهم غيرتهم على نشر الدين المسيحي بحسب مذهبهم ، بين أقوام لم تعرف الدين المسيحي إليهم ، وقد حدا بعض خروجهم من مذهب النسطوري الذي لم يكن له أتباع في مصر أو الحبشة ، إلى ترجمة بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل كتاب كيرلس ... للعوازيه

وكان بين الرهبان الذين وفدوا إلى الحبشة واستقروا في أماكن متعددة من مقاطعة التيجرى تسعة عرفوا « بالقديسين التسعة » هم رسل نشر المسيحية في الحبشة الذين أسسوا الأديرة ونشروا العقيدة

وقد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في القرنين السادس والسابع ، وأخذ رهبانها يتطلعون إلى دراسة الرهبنة وتعاليمها معتمدين في ذلك على ما ترجموه من الكتب القبطية أو اليونانية السائدة عند رهبان الأقباط في مصر

وحتى القرن الرابع والكنيسة المصرية ترسل مطرانا مصريا كرئيس للكنيسة الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة

في السودان

ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسي أنه في القرن السادس كان البطريرك القبطي ثيودوسيوس منفيا في القسطنطينية وفي هذه الأثناء أرسل يوليانوس إلى النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الامبراطورة ثيودورة التي كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية على عكس زوجها الامبراطور يوستنيانوس الذي كان شديد الاضطهاد لهذا المذهب . فوصل يوليانوس إلى النوبة حوالي ٥٤٣ م ونشرها بالمسيحية فرحب به الملك والعظماء فعمدهم وعلمهم الكثير من مسيحيته وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الامبراطور ... ولما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها في النوبة ، فعادت فاشلة

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشيرية القادمة من الكنيسة القبطية . وكان أشهر المبشرين الأقباط لونجينوس الذي خاطر بحياته ، وسار في رحلة طويلة مع الجبال المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل إلى مملكة علوه (ما بين ملتقى نهري العطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية) فبشرها بالمسيحية ... مذهب الكنيسة القبطية . وقد ...

الامبراطور أن يحرقهم الى منفاه بالقسوة على سعوده

وقد ظلت الكنيسة المصرية ترسل اساقفة وكهنة الى النوبة وعلوة وكذلك الى ممالك اخرى لم نستطع أسماءها ذكرها تحدث في القرن السابع مع النوبة وسارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة

واستمرت المسيحية في النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك

ب — في الغرب

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذي وضعه اثناسيوس الرسولي بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع عن سيرة الأب أنطونيوس وكتاب سمعه من هيلده السيرة سبب في تحديد حياة القديس اوغسطينوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هيبو بشمال افريقيا وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية ومن ناحية أخرى حمل اثناسيوس النظام الباخومي الى أوروبا الغربية في رحلتين

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) — وهو يوناني — الى مصر وعاش فيها سنين في أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها وعبر بشدة تأثيرها في الأديرة التي أسسها بعض آبائي في بلاد اليونان

في سنة ٤٠٤ م قام القديس جيروم بترجمة قوانين باخوميوس الى اللاتينية مترجمة عن اليونانية

باخوميوس الى اللاتينية فعادت الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم

وبعد ذلك بسنوات كتب كاسيانوس (الراهب الفرنسي) بحكم الآباء المصريين وسيرهم والقوانين التي وضعوها وجاء بعده أي بعد هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما في جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) ثم ان نظام الديرية البندكتية (نسبة الى القديس بندكت المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية في أوروبا الغربية وانتشارا واسعا

كما أثرت تعاليم باخوميوس في حركة الاصلاح الكلوني ، تلك الحركة الكبرى التي كان لها أثرها الدائم في توجيه المدنية في العصور الوسطى كما نلمحها في جماعات الرهبانية Templars – Templiers في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وبعدهما في عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة للقديس فرنسيس الأسيسي) والدومينيكان فليس من العبث القول بأن تلك النهضة من أوائل أخرها يمكن اقتفاء أثرها ومنابعها في وحي باخوميوس المصري وبالتالي فان النهضة الأدبية الفكرية الأولى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التي عرفت باسم النهضة الاسلامية ونشأة الجامعات في العصور الوسطى مباشرة أثر من آثار تلك المبادئ الرهبانية التي نجد تكوينها في الأصل في عبقرية باخوميوس

وعند وصل الرهبان و جنود الأقباط الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى منطقة جنيف تسمى « فرنا » حيث عمد الأسقف [illegible] وهو في منفاه في [illegible] على نهر [illegible] مسيحية وتأسيس كنيسة باسمه هناك. وفى سويسرا في مدينة زيوريخ الشهير شهداء اقباط ضمن الجنود بقيادة كما اشتهر في سويسرا القديس موريس (موريس) وأخته فرينا ، وهى التي وجهت اهتمام السويسريات الى الصحة والنظافة ، وما زالت تصور هناك حاملة مشطا .

وفى ألمانيا استشهد سنة ٢٩٨ م حوالي ثلاثة آلاف من أبناء مصر الصعيد من فرقة طيبة ، ولا تزال قبورهم معروفة في مدينة « تريير Trier »

وفي جزيرة قبرص أسس [illegible] الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية [illegible] ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس وكان للأقباط هناك [illegible] [illegible] على قبرص ورودس ، كما ذكر « برمستر » في بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية

وذكر جلر في مقدمة كتابه « عن الكنائس القبطية القديمة » ان مبشرين الأقباط وصلوا الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا هذا بلدة [illegible] بايرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم في صلاة كنيسة تلك الجهة

فهـــرس

أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية

من عصر ديوقلديانوس إلى دخول العرب

الأباطرة	الحكام	بطاركة الإسكندرية
الأباطرة الرومان :		
ديوقلديانوس (دقلديانوس) ٢٨٤ – ٣٠٥	[illegible] سنة ٢٨٤ [illegible] سنة ٢٨٦ [illegible] أكتوبر سنة ٢٨٧ [illegible] سبتمبر سنة ٢٨٩ [illegible] ([illegible]) في سنة ٢٩٨ [illegible] سبتمبر سنة ٣٠٠ [illegible] ١٨ [illegible] سنة ٣٠٢ و ٢٩ مايو سنة ٣٠٦	ثيوناس ([illegible]) ٢٨٢ – ٣٠٠ بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠ – ٣١١
جاليريوس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ليكينيوس ([illegible]) ٣١٣ – ٣٢٣	[illegible] أغسطس سنة [illegible]	أخيلاس ([illegible]) [illegible] الكسندروس الأول ٣١٢ – ٣٢٨
أباطرة العصر البيزنطي :		
<u>أسرة قسطنطين</u>		
قسطنطين الأول ٣١٢ – ٣٣٧	[illegible] ٨ [illegible] سنة ٣٢٨ [illegible] ٦ أبريل سنة ٣٢٩ [illegible] سنة ٣٣٠ [illegible] سنة ٣٣١ [illegible] أبريل سنة ٣٣٢ [illegible] ٩ أبريل سنة ٣٣٣ [illegible] ٧ أبريل سنة ٣٣٤ و [illegible] سنة ٣٣٧ [illegible] سنة ٣٣٢ [illegible] سنة ٣٣٥ [illegible] سنة ٣٣٨ [illegible] [illegible] أبريل سنة ٣٤ [illegible] سنة ٣٤٣ [illegible] أبريل [illegible] ٣٤٤	اثناسيوس الأول (الرسولي) ٣٢٨ – ٣٧٣
قسطنطيوس الثاني ٣٣٧ – [illegible]		

الأباطرة	الحكام	[illegible]
	[illegible]	
	[illegible]	
	[illegible]	
	[illegible]	
بروبوس ([illegible]) ٢٧٦ = ٢٨٢	[illegible]	
[illegible] ([illegible]) ٢٨٢ = ٢٨٣		
[illegible] ٢٧٨ = ٢٩	[illegible]	
أسرة [illegible]	[illegible]	[illegible] ٣٧٢ = ٣٨
[illegible] ٣٩٤ = ٣٧٩	[illegible]	[illegible] ٣٨٤ = ٣٨
	[illegible]	[illegible] = ٣٨٤

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	
[illegible]	[illegible]	[illegible]	
	[illegible]		
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
	[illegible]		
[illegible]			
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]			
[illegible]	[illegible]		
		[illegible]	
		[illegible]	[illegible]
			[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	
[illegible]			
[illegible]		[illegible]	
		[illegible]	
[illegible]		[illegible]	[illegible]

الأباطرة	[illegible]	بطاركة الإسكندرية — الأقباط	بطاركة الإسكندرية — الملكانيون
	[illegible] سنة ٥٣٥ [illegible] سنة ٥٣٨ — [illegible]	[illegible] الأول [illegible] ٥٧٢ — [illegible]	[illegible] ٥٣٩ — [illegible]
	[illegible] سنة [illegible] [illegible]		[illegible] [illegible]
[illegible] الثاني ٥٦٥ — ٥٧٨	[illegible] سنة [illegible]	[illegible] الرابع ٥٦٧ — ٥٧٦	[illegible] الثالث [illegible] — ٥٧٠
[illegible] ٥٧٨ — ٥٨٢		[illegible] [illegible] — ٥٧٨	
[illegible] [illegible] — ٥٨٢	[illegible] [illegible] [illegible] (الكبير) [illegible] [illegible]		[illegible] [illegible] — ٥٨٠
[illegible] [illegible] — ٦١٠	[illegible] سنة [illegible]	[illegible] [illegible]	
	[illegible] سنة [illegible]		[illegible] [illegible]
[illegible]			
[illegible] [illegible]	[illegible] سنة [illegible]	[illegible] [illegible] [illegible]	[illegible] [illegible]
	[illegible] سنة [illegible]	[illegible] [illegible]	[illegible] [illegible]
	[illegible] سنة [illegible]		[illegible] سنة [illegible]
[illegible] الثاني [illegible] [illegible] [illegible]			

النقش في

العصر الإسلامي

تاريخ مصـــــر

من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح العسكري لمصر

تدور قصة الفتح العربي لمصر كما يعرفها عند مؤرخي الإسلام — من ابن عبد الحكم إلى ابن إياس — وكأنها نزهة عسكرية لم يصادف الجيش العربي خلالها من الصعوبات إلا شيئاً قليلاً جداً لا يقاس بما تعرض له جيوش الإسلام في فتح الشام وفلسطين، فضلاً عن العراق والمغرب. لأن الرواة الذين استمد عنهم المؤرخون جميعاً سلسلوا الأخبار وأوجزوها على نحو أصبح من العسير معه تتبع الخطوات التي تم بها هذا الفتح العظيم الذي يعتبر من أهم الانتصارات العسكرية والسياسية التي ظفر بها العرب إبان عصر الفتوح الإسلامية.

وقد عمدنا أن نرد ما نعرفه من أخبار هذا الفتح إلى أصحاب المدونات التي وصلت إلينا، وهي كتب جليلة القدر كتبها شيوخ من أهل الثقة منهم الواقدي وعبد الرحمن ابن عبد الحكم والبلاذري والكندي والطبري، فتبين أن الأخبار التي أوردوها تنسب إليهم، وما هم رواتها، وقد حرصنا، بصيغة تحدث الأنباء على ذكر إسناده، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال. ولو درسنا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين في هذه الكتب، لتبين أن الأخبار كلها، أو الجانب الأكبر منها، قد صدرت عن مدرسة من القصاص أو المهتمين بالتاريخ نشأت في مصر وعنيت بجمع الفن، وإليها تنسب قصة الفتح التي نجدها بين أيدينا متفرقة في ثنايا المعتمد من كتب تاريخ مصر الذي يبدأ بابن عبد الحكم ويستمر حتى ابن إياس.

وقد آن الأوان لأن نضع هذه المدرسة كلها موضع البحث، حتى نتبين القيمة الحقيقية لما بين أيدينا من الأخبار. ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة، وإنما يكفي أن نذكر أن ما بين أيدينا من الأخبار لا يخرج في مصادره عن عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد (٩٤ – ١٧٥ = ٧١٣ – ٧٩١)، والظاهر من سيرهم جميعاً من تتبع القصص أنهم يصدرون عن أكثر

خاصى هنا بما لدينا من معلومات عن فتح مصر وأصحابها حتى منتصف القرن الهجرى الثالث على الأقل ، وهم عبد الله بن عبد الحكم (والد عبد الرحمن) (١٥٥ — ٢١٤ ، ٧٧١ — ٨٢٩) وعبد الله بن وهب (توفى ١٩٧ — ٨١٢) وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح (١٤٤ — ٢١٩ ، ٧٦١ — ٨٣٤) ويحيى بن بكير (١٥٤ — ٢٣١ ، ٧٧٠ — ٨٤٥ ، وسعيد بن عفير (١٤٦ — ٢٢٦ ، ٧٦٣ — ٨٤٠)

وأهمهم جميعا عثمان بن صالح ، فان كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » يدور على روايته تقريبا ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم يروى عنه فقرة بعد فقرة ، فاذ استطرد وروى عن غيره عاد اليه يقول « ثم رجع الى حديث عثمان بن صالح وغيره » والنسخ التى وصلتنا من « فتوح مصر والمغرب والأندلس » كلها برواية على بن قديد للعيد ابن عبد الحكم ، وابن قديد هذا هو أستاذ أبى عمر محمد بن يوسف الكندى ، وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أى أن عبد الحكم والكندى يلتقيان عند هذا الرجل ، فهو تلميذ الاول وراويته وأستاذ الثانى ومعلمه ، وهذا يفسر لنا التشابه الشديد بين مادتى كتابيهما فلا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وينتهى بنا الى القول بأننا فى الواقع أمام رواية واحدة تمثل أصولها عند الأولى ، ثم تختلف لتفاصيل بعض الشيء هنا وهناك .

ولا بأس والحالة هذه من الاجتهاد فى تقريبه ومضاهاة الروايات بعضها على بعض ، مال بمعلومات المرحلة ، وهى التى تهمنا هنا ، وحلقة عبد الأخرى ، بل ان جل أخبار الفتح الى ما عند البلاذرى منسوبة الى محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وهذا أخذها عن أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدرسة المصرية التى ذكرناها ، وأخبار فتوحه الشبه بأخبارها . وكذلك أخبار الطبرى ترجع أحيانا الى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى (توفى ٢٦٤ / ٨٧٧) وهو من شيوخ المدرسة المصرية ، وهو جد أبى سعيد بن يونس المؤرخ المصرى المعروف .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر فى شتى المراجع يعود فى الأصل الى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل يجتمع فى مكان واحد هو الفسطاط ، وفى فترة محددة هى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك فى أخباره كعبد الله بن لهيعة (توفى ١٧٤ / ٧٩٠) الذى سخر منه معاصروه وسموه أبا خريطة ، ولا يطمئن لأخباره لأنه ينسب بعضها الى أبى الأسود النضر بن عبد الجبار (توفى ٢١٩ / ٨٣٤) . وفيهم الصحيح الثبت كالليث بن سعد ، وكلهم من المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين

منهم كالواقدي أتو الى مصر بأحــــدو الأخبار عن شيوخها (١) .

هذا ، كان عدد من أصول هذه ندعنا من أخبار الفتح ، فانا لا نستطيع أن نكون على ما نريد من هذه الأخبار حتى نعين على كشف حقيقته أو حل معضلة ؛ فكلهم يروون شيئا واحدا تقريبا ، ويروون الأخبار على نسق واحد ويتفقون فيما يوردون من أسماء الأعلام ، ومعظمها مبهم لم يجد الباحثون له تفسيرا ، كالمقوقس و « المقوقس » و « الأعيرج » و « أبا ميامين » و « أبا مريم بجاثليق » و « أبا مريام الأسقف » و « الأرطبون » ومن إليهم .

مشكلات تتصل بالأعلام المقوقس (٢)

وقد أنفق المؤرخون جهودا عظيمة في البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن يهتدوا الى نتيجة تطمئن اليها النفس ، ولم يستطيعوا ضوءا فيما كتبه مؤرخو الأقباط مثل ساويرس ابن المقفع الأسقف المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعروف بأوتيخا وأبي صالح الأرمني وجرجس المكين ، فان معظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية نفسها . لم يستفيدوا المعرفة من مؤرخي بيزنطيين أنفسهم مثل سبيوس مؤرخ هرقل وثيوفانيس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ Chronographia فلم يجدوا لديهم الا اشارات لا تغني ، فعادوا الى الخطوط الرئيسية الأولى التي وضعها أصحاب الروايات الإسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك . ولابد من تحقيق شخصية المقوقس مثلا قبل المضي في هذا البحث ، فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب مصر ، اذا عرفنا من هو وما هو دوره يمكن أن نضع قصة الفتح تحت ضوء جديد .

ولقد حاول ألفريد بتلر في كتابه المعروف عن الفتح العربي لمصر أن يحل بعض هذه

(١) بالاضافة الى مراجع العربية المذكورة في المتن . نظر عن هذه المدرسة المصرية

مقدمة جرجس KHUYON GUEST لطبعته لكتابي القضاة وكتاب الولاة للكندي ليدن ١٩١٢ صفحات ٢٢ — ٢١ .

ومقدمة تشارلز توري TORREY لطبعته لفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، نيوهيفن ١٩٢٢

R. Dozy, Recherches, 3e ed. I, p. 6 sqq.

وعن الواقدي في دائرة المعارف الإسلامية بقلم هوروفتز ، وعن ابن عبد الحكم بقلم بروكلمان ، والكندي بقلم بروكلمان في نفس الدائرة ، ومقال الدكتور محمود علي مكي

Egipto y los origenes de la historiografia arabigo-española

في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ٥ سنة ١٩٥٨ .

وانظر أيضا :

الدكتور محمد كامل حسين أدب مصر الإسلامية ، عصر الولاة ١٩٦٥ ، ص ٦٨ وما يليها

Albert Gateau, Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne par Ibn Abd al-Hakam, 2e Ed. Alger, 1948, p. 3 sqq.

(٢) انظر : ألفريد بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ص ٤٥١ وما يليها ومناقشة الأستاذ محمود عكوش في كتابه « مصر في عهد الإسلام » القاهرة ٩٤٥ ، ومادة المقوقس بقلم أدولف جروهمان في دائرة المعارف الإسلامية

فبكلا ... فلم يخرج الا منهزما وحده
فيقول ساويرس ... ولكنهم الآن موضع ...
... ومعنى ذلك غريب ان المقوقس هو
« قيرس » ، ولم يرد في ذلك القول الا الى
عدا ان يختص أكثر من نفسه وحده ...
ساويرس بن المقفع ... الأسقموني وفي
نص « حياة ... شنودة » الذي نشره
أميلينو وقصة « أنبا صموئيل القلموني » ،
وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة
صموئيل القلموني — تذكر قيرس دون أن
تشير الى المقوقس أو تذكر اسمه ، كأن لفظ
المقوقس هذا خاص بمؤرخي العرب وحدهم
لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . وحيث أننا
لا نجد له مقابلا من الاسماء عند هؤلاء ، فانه
يصعب علينا أن نقول أنه لقب أطلقه العرب على
شخص معين ، وليس فيه تعريب ، فقد
أطلقوا على رأس حامية حصن بابليون لقب
« الأعيرج » ، وسموا القائد الرومي في
افريقية « جرجير » مع أن اسمه الحقيقي
« جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا
كان هو قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع
العربية ، أو وجدنا منها على الأقل

فاذا نحن مضينا في البحث وجدنا ... الا
أن المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ، ...
أنه كان عامل مصر من قبل ... [illegible]
لما وصفه بذلك ... ولكن لا أحد ... كان ...
في مصر أمره ... الاحوال معرفة في
... يذكر ... جميع العربية منهم ...

بسنة للمقريزي « ... » والواقدي
... كان من أحوال
المقوقس وكان على ... وقاتل المسلمين
... من أولاده ... و... هو
... آخر ...
... خرج الى الروم والنوبة
... أهل ... حتى
وقدم بهم ... للمسلمين ، وسار بهم ...
... وقاتل حتى قتل ، وقبره باق الى الآن
في ... ، وهو معدود في أوليائها وصالحيها
وذكر المؤرخون كذلك أن للمقوقس بنتا تسمى
أرمانوسة وبنتا تسمى ... عشر ...
... ، وأنه يسمى أحدهما
أرسطوليس ، بل ذكروا ... وقالوا أنه كان
له شأن في سواحل الاسكندرية ، هذا
بالاضافة الى بنته أرمانوسة ذات الخبر
المشهور .

وقد يكون في ذلك كله زيادات أضافها
القصاص ، ولكنا لا نرى في القول ما يذهب
الى ما ذهب اليه أن المقوقس كان قبطيا من
أهل مصر ، وأنه كان مشهورا منتظر
الأمر . فكيف يقال مع ذلك أنه هو
« قيرس » أسقف فازس الذي بعثه
الامبراطور هرقل سنة ٦٣١ الى مصر لكي
يعمل على القضاء على معارضة أصحاب
مذهب الرسمي للدولة ...
... [illegible]
... لاسم الذي نجده في المراجع

العربية ، وأقرب الآراء إلى القبول ما ذهب إليه مسلمو من أن العرب حرفوه من لفظ « كوخيوس » القبطي ومعناه الكافر ، ولعل أقباط البيزنطيين أطلقوا عليه هذا الوصف نظرا لمخالفته سياسة الدولة ومذهبها وميله إلى التفاهم مع العرب ، وعنهم أخذه هؤلاء وحرفوه إلى الصورة التي وصلت إلينا

أما اسمه الحقيقي كما يرد في النصوص العربية فهو « جريج » ، وهو تصحيف جيورجيوس أو جرجس ، وهو ابن مينا ، ومتى أو ابن قرقب أو مرقب وما إلى ذلك من الصور التي ترد في النصوص العربية أما عن وظيفته فيقول البلاذري إنه « صاحب مصر » ويقول المقريزي في « الخطط » إنه كان « أمير على مصر » ، ويردد هذا القول ابن دقماق في « الانتصار » ، ويذهب ابن عبد الحكم وجرجس المكين إلى أنه كان « عاملا على مصر » ، ويقول ابن حجر إنه كان « أمير القبط بمصر » ؛ وأوتيخا إنه « عامل على الخراج بمصر » . وليس في هذه الإشارات كلها ما يدل على أنه كان بطريق مصر أو رئيس كنيستها ، أو الأسقف المعين من القسطنطينية

ثم إن مراجع العربية تذهب إلى أن المقوقس هذا هو نفس المقوقس الذي أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبي بلتعة في السنة السادسة للهجرة أو قبل سير العرب إلى مصر بأكثر من عامين . وقد نفى كثير من المؤرخين أن يكون الرجلان شخصا واحدا ، لأن مصر كانت في سنة ٦ هـ = ٦٢٧ خاضعة للفرس ، ومن بعد خضوعهم إلى بيزنطة ثانية . غير أن إشارة عابرة لمؤرخ متأخر هو المنوفي صاحب « كتاب لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » (القاهرة ١٣٠٠ هـ) ربما تفسر لنا هذه الناحية ، فهي تقول إن صاحب الأمر في مصر أيام رسول الله (صلعم) وأبي بكر وعمر حتى فتح مصر كان المقوقس . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن المقوقس هذا كان كبير أقباط مصر . وربما كان يتولى بعض شؤون حكومته بعد دخول الفرس واختفاء رجال الحكومة البيزنطية وبقي هو الأمر تحت إشراف الفرس ، ولما أتاهم أتى مصر رسول النبي (صلعم) فلم يجد من يتحدث إليه إلا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد ردا لطيفا وبعث بهديته المعروفة إلى النبي

بعد استرداد هرقل مصر ورجوع إليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضا على أزمة الأمور المالية والإدارية فتركوه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يهمهم من مصر إلا المال وكان الرجل بها خبيرا ، واكتفوا بإرسال قواد عسكريين للنوبة والإسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيرس لمعالجة المشكلات المذهبية بين الأقباط والبيزنطيين . فأساء قيرس إلى المصريين وع

معه للعرب ، وهي أسهم المقوقس ، وأصبح هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أي قوة تمكن من تخليص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين منذ أقبل العرب وتحادثوا التي طلبوا تقوية جهودهم وتوالت عليهم الهزائم نهض المقوقس لإيجاد المخرج ، والتكلم مع العرب باسم الأقباط دون البيزنطيين ، وكانت هناك فرق قبطية في الجيش البيزنطي المدافع عن مصر ، فائتمرت بأمره وانضم إليه الرهبان ومن إليهم من أهل البلاد ، وعرف الرجل كيف يحصل من العرب على عهد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر في طاعة العرب

وقد وقف طويلا أمام مشكلة المقوقس لأن حلها يفسر قصة الفتح كلها ويعصمنا من الكلام الكثير في مشاكل الفتح التي اقتضت من ألفرد بتلر جهدا عظيما ، ليحلها ، ولم يفلح مع ذلك ، لأن نقطة البداية ، وهي القول بأن المقوقس هو قيرس لم تكن سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة فيما بعد أما نحن فنعرف أن المقوقس كان زعيم القبط ، وأنه كان يمثل وجهة أخرى غير وجهة الروم فتصبح قصة الفتح مفهومة ، ويصير السبب فيما قلناه من أنها كانت أشبه بنزهة عسكرية

وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كان في مصر قبيل الفتح قوتان متعارضتان القبط في ناحية والروم في ناحية أخرى ، ويمثل القبط المقوقس وفرق من جنود القبط كانت مشتركة في الجيش البيزنطي وعدد كبير من الرهبان ورجال الكنيسة ثم عامة أهل البلاد ، وكلهم على المذهب المونوفيزي القريب من توجيه الإسلام ، ومن ناحية أخرى نجد البيزنطيين تمثلهم حامياتهم من الجند في المعاقل والحصون والمسالح وخاصة في الإسكندرية ، وعلى رأس كل حامية قائد معلى ، ويمثل السلطان البيزنطي كله قيرس الذي أقامه هرقل بطركا على مصر وأطلق يده في شئونها

وهذا المذهب الذي نذهب إليه يحسم إشكالا آخر أوقع المؤرخين المحدثين فيه قولهم إن قيرس هو المقوقس ، لأنهم يقولون إن قيرس هذا أتى إلى مصر ، وهو غريب عنها ولا عروة له فيها ، ينفذ سياسة هرقل ، فبدأ يستميل الأقباط بالحسنى ، فلما فشل انقلب عليهم وأخذ يضطهدهم ، ثم يحمل على عصبيته البيزنطية ، فلا يكاد العرب يطرقون أبواب مصر حتى نجده ينقلب على البيزنطيين ويسعى في إخراج مصر من أيديهم ، ويتزعم الأقباط الذين كان يضطهدهم إلى ذلك الحين وهذه كلها تقلبات لا يستقيم بعضها مع بعض ورواية الأحداث على هذا النحو تجعل قصة الفتح غير مفهومة ولا معقولة متناقضة ، وهذا هو الذي نخرج به الآن من كتاب ألفرد بتلر على طوله وعرضه

سير الفتح(١)

وقد بدأنا من هذه النقطة ومعنا تقصي قصة الفتح فعرضنا من أول الأمر مشاكل من النوع الذي يعوقنا أن يعطينا تاريخاً العربية ، وهي مشاكل لا تمس صلب الموضوع ، ولكن لا مفر من التعرض لها ، أهمها ما يتصل بالمعاهدة ـ نص عهد عمر بن الخطاب الأدب لعمرو بن العاص في السير

(١) عن فتح العرب لمصر ، انظر

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس ، طبعة توري ، نيوهيفن ١٩٢٦ وطبعة هنري ماسيه : في فتح مصر نقلا (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩١٤ ، وطبعة ألبير جاتو ALBERT GATEAU بعنوان فتوح افريقية والاندلس ، الطبعة الثانية ، الجزائر ١٩٤٣

الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة طبعة روفن جست ، مطبعة جيسوعية الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨

البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٩

الطبري : تاريخ الامم والملوك ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، جـ ٣

حنا النقيوسي : مدونة حنا أسقف نقيوس

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte éthiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques, tome 4, Paris, 1883).

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩١٣ ، جـ ٢ و ٣

ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة جـ ١ ، ١ ، ١ من مجموعة Patrologia Orientalis باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥

ابن سعد ، كاتب الواقدي ، الطبقات الكبرى ، طبع سخاو ٨ كراسات ، ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩٢١ ، وطبعة بيروت (كاملة) سنة ١٩٥٧

سعيد بن بطريق ، المعروف بأوتيخا ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزآن ، بيروت ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩

المقريزي : المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ في مجلدين

البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٩٥٦

ـ البيان الأمة بكشف الغمة ، طبعة زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٤٠

ـ اتعاظ الحنفا ، الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨

اليعقوبي : تاريخ ، طبعة هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ جزءان

أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب جـ ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠

جرجس بن العميد (المعروف بالمكين) تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥

Alfred J. Butler The Arab conquest of Egypt. Oxford, 1902

وقد رجعنا الى ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان « فتح العرب لمصر » ، القاهرة ١٩٣٣

— The treaty of Misr. Oxford, 1913

Leone Caetani Annali dell'Islam. T. IV. V. Milano, 1911-1912.

E. Amélineau : Études sur le christianisme en Égypte. Paris, 1887

Lane-Poole A history of Egypt in the Middle Ages. London, 1925

Gaston Wiet L'Égypte arabe. Vol. IV de l'Histoire de la Nation Egyptienne. Paris, 1937

— L'Égypte Musulmane Vol. I du Précis de l'histoire d'Égypte. Le Caire

سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧

محمود عكوش : مصر في عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤٩

الى مصر ... بموافقته على كره منه وتحفظه الأمر لعمر بن الخطاب ... فلا يلبث حتى يبلغ حدود مصر ارتد عنها ، ولا يسار في مرحلته ، وهي قصة لا تتفق مع سياسة عمــــر بن الخطاب أو مسلكه في سياسة أمور الدولة . ولو أن عمر استراب في فتح مصر وهو بالمدينة لكان من الممكن أن يستدل هذا الأخذ والرد الذي تطول فيه الرجع في هذه المناسبة ، فقد حدث مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على أيام عثمان ، ولكن عمر بن الخطاب موقع في فتح مصر وهو مجتمع مع قواده ورجاله في الجابية جنــــوبي دمشق سنة ١٧ هـ ٦٣٨ وتلاقى عمر بمسلمي رجــاله في ذلك المؤتمر — الأول من نوعه في تاريخ الاســـلام — تنظيم ما فتح من البلاد والخطط التي يجرى عليها المسلمون فيما يلي ذلك من خطــوات التوسع . وقد أخذ عمر اذ ذاك بالموقف كله ، ووضع الخطوط الرئيسية لسياسة فتح فلسطين من الفتوح ، فالقول بأن عمر خاف عثمر في الامر فيما بينه وبينه وأخذه ... به لفتـــح مصر ويهون عليه أمرها ، أو أن عثمر حاصر قيسارية ثم خلف ابنه عليها وسار الى مصر من تلقاء نفسه ، فغضب عمر لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع الى موضعه اذا وافاه كتابه دون مصر ، أو أن عثمراً آثر رجــاله بالمسير ... فلا يرد الفتح

[1] باب أقرب الى القصص ... مستطرد مخرج من مجموعها رأى وسط مستريح

الى المؤرخ ، وهو أن عمر بن الخطاب كان ... قد استقر على فتح مصر وحدد من يكون قد اختار لها الى عمرو بن العاص وقد له على الفتح جهداً يمثل العظيم . ولكن يجب ... يسمى ... أن نذكر أن عمرو بن العاص لم يكن اذ ذاك قد فرض مكانته كقائد من أعظم قواد الاسلام ، ولم يكن تماما ... في رأى عمر — يكافئ قواد الدولة الذين تولوا فتوح الشام والعراق ، وكان عمــــر بن الخطاب لا يستريح اليه ، فترداد عمر لم يكن اذن في الفتح في ذاته ، وانما في شخصية الفاتح ، ويبدو من مجموع الروايات أن عمر وافق فصمت راضياً ، وربما كان يفكر في اختيار قائد آخر وقد أخذ ... هو موضوع الكتاب الذي قال عمــرو انه سيرسله اليه أو الذي أرسله اليه فعلا

على أى الأحوال أسرع عمرو نحو مصر ، وينبغي أن نذكر هنا شيئاً لا يلتفت اليه المؤرخون مع عظيم أهميته ، وهو أن مناطق الضفة الشرقية من جنوبي فلسطين الى أطراف الدلتا كانت تعمرها قبائل عربية كثيرة معظمها من بطون لخم وجذام ـــه الصحابة منهم ... وفي نواحي العريش كانت منازل ... اسماء قبائل عربية من لخم وجذام ، وكانت في شبه جزيرة سيناء ... لدلتا وصحراء مصر الغربية مواطن لقبائل عربية كثيرة . وينبغي أن نذكر ... أن هذه النواحي لم تكن اذ ذاك داخلة على الصورة

التي هي عليها اليوم ؛ وإنما كانت مناطق
خضراء تغطيها الغابات ، وكانت عيون الماء
فيها كثيرة ، تحيط كل عين منها بواحة
خضراء [illegible] ، وتدل على ذلك
ما تذكره أخبار العصر البيزنطي من أن
صحراوي مصر الغربية والشرقية كانت
عامرة بالأديرة والرهبان ، وكان الكثير من
أولئك الرهبان نساكا منفردين وحدهم في
الخلاء يقضون عمرهم كله في سياحة دائمة
ولا يتأتى هذا لو كانت هذه الصحاري مقفرة
كما هي اليوم ، وهذا يفسر لنا مقام القبائل
العربية الكثيرة في سيناء وصحراوي مصر
الشرقية والغربية ، ويفسر لنا أيضا كيف
استطاع الجيش العربي ، دون أن يتزود بشيء
كبير أن يعبر سيناء دون جهد ، وأن يعبر
بعد ذلك الصحراء من الاسكندرية إلى
برقة ؛ ومن برقة إلى ما يعرف الآن بتونس ،
ولو رجعنا إلى كتب جغرافي كأبي عبيد
البكري عن المنطقة الواقعة بين مصر والفرما
(بورسعيد اليوم) لوجدناه يصفها حافلة بالآبار
والعيون والواحات

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على هذه
النواحي الصحراوية كلها ، أي أن الجيش العربي
سار من رفح حتى بلبيس على الأقل وسط
بلاد يسكنها ويسيطر عليها العرب ؛ ولم يكن
للبيزنطيين فيها إلا حاميات قليلة منها في
العريش [illegible] وهو تعريب لاسمها القديم
[illegible] Laris ، وكان [illegible]
نسميها [illegible] رينوكورورا Rhinocorura أو
Rhinokolura فاستولى عليها
[illegible] دون جهد [illegible] في الحجة ١٨ هـ
(٢ ديسمبر ٦٣٩ م) ثم تقدم عمرو بن العاص
حتى وصل إلى موضع أقصى حصون مصر
الشرقية ، وكانت تسمى الفرما (Pelusium)
وهناك وقع أول التحام بين المسلمين والروم
مصر ؛ واستمر القتال نحو شهر أو شهرين
حتى اقتحمه المسلمون (حوالي ١٣ محرم
١٩ هـ / ١٣ يناير ٦٤٠ م) وأصبح الطريق
أمامهم إلى قلب البلاد مفتوحا ، فلم يضيع
عمرو وقته واتجه من هناك نحو بلبيس

ولم يكن الجيش الذي مع عمرو بالكبير ؛
فقد كان عدده ، حسب أقوال الرواة ، يتراوح
بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن
أعدادا كبيرة من عرب جنوبي فلسطين وسيناء
وشرقي الدلتا انضمت إلى ذلك الجيش ، لأننا
نلاحظ أن جيش عمرو بعد الفرما واتجاهه الغرب
نحو الدلتا كان له رد فعل عنيف في البلاد ،
ومن المستبعد أن يكون ذلك نتيجة دخول
آلاف قليلة من العرب أرض مصر ، فلقد
كانت غارات القبائل العربية على أطراف مصر
الشرقية أمرا عاديا ، ولو كان جيش عمرو
بهذه القلة لما كان لدخوله هذا الصدى
البعيد ، ونلاحظ أن العرب بعد أن حاصروا
[illegible] قبل [illegible] وأقاموا [illegible]
[illegible] كانت تحميهم قوة عظيمة لا تتناسب
مع [illegible] ثلاثة آلاف أو أربعة ، فلابد أن

آلافا أخرى من العرب بعد الجيش الفاتح وذهب الى صفوفه. وأشهر بين هؤلاء تلك سيدة القبائل التي اختطت لأنفسها خططا في الفسطاط عند تخطيطها سنة ٢١ هجرية. كان عدد هذه القبائل يزيد على اثنتي وثلاثين قبيلة، عدا أصحاب الرايات الذين سبق ذكرهم، وكان عددهم كبيرا. فإذا فرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٤٠٠٠، ثم انضم إليهم المدد الذي جاء مع عبد الله بن الزبير لكان المجموع تسعة آلاف، أي بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة، وهذا العدد لا تكون به خطة أو قسم من مدينة، فلابد أن العدد كان أكثر من ذلك. وقد اقتصرنا في هذا الحساب على من نزل الفسطاط، ومن المعروف أن عربا آخرين كثيرين نزلوا الإسكندرية والجيزة ونواحي شتى من الدلتا

على هذه الأخبار نستطيع أن نفهم سبب قلة أعداد هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى في البلاد. وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية في موقف الأقباط، إذ أدرك رؤساؤهم أن الأمر أكثر من غارة بدوية، وأن الزحف العربي الذي قضى على أمر الروم في الشام وصل إلى مصر، فخرج الأنبا بنيامين بطرك الأقباط الأول — الذي عزله هرقل واضطهده سنوات حتى اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح العربي — وكتب إلى القبط يقول « إنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمر القبط بتلقي عمرو. فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو أعوانا ». وسواء أكتب بنيامين إلى رعيته القبط أم لم يكتب، فقد حدد الأقباط موقفهم بعد سقوط الفرما، وعلموا أن الصراع الحاسم على مصير بلدهم قد بدأ، فصاروا مع العرب على الروم، وكان هذا هو العامل الحاسم في تيسير أمر فتح مصر على العرب. ولم ينضم الأقباط إلى العرب علانية بعد سقوط الفرما، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم كما يقول يوحنا النقيوسي. أما موقفهم قبل ذلك فكان موقف المحايد الذي يتمنى نصر العرب وزوال أمر الروم

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة في الفرما لتحفظها، وكان موقعها هاما من الناحية العسكرية، فهي مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر، وخاف أن يعود الروم فيتحصنوا فيها، فهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفعوا بها. ثم اتجه جنوبا بشرق فاستولى على بلدة تسمى البواصر، ومكانها الآن قرية الجعافرة بمركز فاقوس بمديرية الشرقية. ثم وصل إلى بلبيس « ولا يدافع إلا بالأمر الخفيف » كما يقول ابن عبد الحكم. وفي بلبيس التحم المسلمون مع حامية رومية فقاتلته نحو الشهر، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد. ويذهب القصاص الى أن عمرا وجد أرمانوسة بنت

المقوقس في نفسه . وأصل القصة في « فتوح مصر » منسوب الى الواقدي ، وهي في خطوطها الرئيسية ممكنة الوقوع . وعند العرب في شيء منه للمقوقس ، فأكرمها عمرو وبعث بها الى أبيها معززة ، ولكن عمرو بن العاص حاف اليها طارقا والى ... ي انها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، فبعث بها أبوها وجهزها بأموالها وجواريها وغلمانها لتسير اليه ، حتى يبنى بها بمدينة قيسارية ، .. الى آخر القصة التي نسج حولها ... مؤلف لم جرجي زيدان قصتين من قصصه . وقد نفاها الفريد بطلر بحجة أن المقوقس كان أسقفا فلا يمكن أن تكون له بنت ، وهي حجة واهية ، فلم يكن للمقوقس كما رأينا أسقفا ، وهو فرض وكان علم يكن في دين النصرانية اذ ذاك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من البدع التي ابتدعها البابوات . ومثل ذلك يقال عن نفي بعض المستشرقين لاهداء المقوقس جاريتين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، فضلا عن رجال الدين ، لا يجوز لهم أن يهدوا الجواري أو يبيعوهن بأكثر من واحدة . وهذه كلها دعاوى لا تقوم على أساس ، فان المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجواري ، وانما جاء ذلك في وقت متأخر . وقد حرمه البابوات بعد . وربما كان في قصة أرمانوسة في حدودها المسيحية تأكيد لما ذهب اليه من أن القبط مالوا الى العرب بعد استيلائهم على الفرما ، فأحب عمرو أن يجامل رعيتهم باكرام ابنته

بابليون ومصر

واتجه عمرو بعد ذلك نحو مركز القوة الحربية البيزنطية في البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موقع منف الحالية الى الحصن المعروف باسم قصر الشمع ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والأديرة والكنائس عرفت كلها باسم « مصر » . ولفظ مصر آرامي قديم ومعناه الحد أو الحدود ، أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك الحين فكان « كيمي » أو « شيمي » أو « خيمي » ومعناه التربة الحمراء ، والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . نقول ان هذا الموضع كان يضم قرى وكنائس وحصونا وبساتين . وهذه القرى بقايا مدن أو عواصم قديمة أقيمت على طول تاريخ مصر القديم في هذا الموضع ، وتضم كلها الآن مدينة القاهرة الحالية ، ففيه كانت مواقع منفيس القديمة ، وهو تابع الآن لمدير الجيزة ، ونشأ من توالي انشاء مدن والعواصم في هذا الموضع على اختلاف العصور أنه أصبح المنطقة التي تتحكم في مصر والاشراف على التوجيه الفني والتجاري

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأسرة

البابلية عندما نشأ الفرعونيون ونحتوها عاصمة لهم، ولم يمض الوقت حتى اتخذ الفراعنة موضعاً آخر على الضفة الشرقية وهو بابليون التي عرفها العرب إلى عهد قريب ولا زالت باقية إلى اليوم. والى جنوب عين شمس، في مواجهة جزيرة الروضة، قام حصن بابليون، ويرجح أنه من بناء المصريين القدماء، وأن اسمه الأصلي بي — حابي — ن — أون Pi—Hapi—n—on ويذهب شامبليون إلى أن هذا الاسم كان يطلق أولاً على جزيرة الروضة، وأن صورته الصحيحة بر — حابي — ن — اون Per—Hapi—n—on ومعناه جزيرة أون النيلية. وسواء أكانت هذه هي الصورة الصحيحة للاسم، أم الصورة الأولى، فإنه يحرف إلى بابليون. وقد أنكر ذلك كله بتلر، وذهب إلى أن الحصن من بناء البابليين عندما دخلوا مصر، وهو منسوب إليهم. أما تفسير العرب لهذا الاسم بأنه باب — ليون فغير مقبول. وقد خلط المؤرخون والرحالة الأوربيون في العصور الوسطى بين بابليون وبابل Babylonia، فأطلقوا اسم بابليون على القاهرة، بل على مصر كلها، فكانوا يدعون سلطان مصر سلطان بابليون، ويروي بتلر أن المصريين كانوا يطلقون على الحصن تسمية قريبة من قولهم قصر الشمع Kasira Chema والأرجح أنه تحريف للفظ قصر مصر. وقد علله بعض المؤرخين

العرب بقلاع منسية، فدعمه المؤرخ المقريزي برأيه إلى أن هذا القصر كان توقد عليه الشمع في رأس كل شهر فيعلم بسائر أن الشمس انتقلت من برج لدى حلول الشهر إلى برج غيره.

ووصل عمرو إلى أول قرية من قرى منطقة مصر، وهي قرية أم دنين، وقد ورد ذكرها عند يوحنا النقيوسي باسم تندونياس Tendunyas، ومكانها اليوم المنطقة التي يقوم بها جامع المقس — ويعرف اليوم بمسجد أولاد عنان — وتصل حدودها إلى قنطرة الدكة والدرب الإبراهيمي، وكانت بها حامية صغيرة، تغلب العرب عليها دون صعوبة ومشقة، وكان النيل يصل إذ ذاك إلى حدود القرية، وبهذا أصبح في أيديهم موقع حصين على النيل، تحصنه أسوار وخنادق، واتجه نحو حصن بابليون، وكان مركزاً حربياً مرتضى لجيش يصعب عليه الاستيلاء عليه من الحصن، وبدأ عمرو بمهاجمته، ثم تبين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بمن معه من الجند القليل، فبعث يطلب مدداً من عمر بن الخطاب، واكتفى بالتحصن في أم دنين وبالالتحام مع البيزنطيين في مناوشات يسيرة.

ويبدو أن عمراً ومن معه لم يشعروا بعد ذلك، فإن الأمراء في حكمهم، وبعد ذلك بعث بنفر من جنده في القوارب عبر النيل إلى الضفة الغربية حيث ... الذي يحكم ... نحو

موضع حصن ... ولم يكن لعمرو من عدة من وراء ذلك الا الحصول على مدد من الأنواب.

وقد حيط أمر هذه المدة على بعض المؤرخين مثل حنا النقيوسي ، الذي ... عمرو ... أرسل في ذلك الوقت حملة لتستطلع الفيوم ، وأنه في ذلك بطلب المدد الى عمر ، حاول فتح الفيوم ... ، وهو قول مستبعد ، لأنه لم يكن قد استولى على حصن بابليون ولم يقض على قوة الروم بعد ، والحقيقة ما قلناه ويؤيده قول السيوطي ان عمراً بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل الى القرى التي حولها ، وبعث الفيوم سنة ... لا يعلم المسلمون شيئاً عنها ، وسيرى مصداق ذلك فيما يلي من الكلام .

ورأى عمرو ألا يظل مكانه في أم دنين حتى يصل المدد ، فتقدم بمن معه نحو حصن بابليون وبدأ في حصاره ، وكان الروم قد حفروا خندقاً حول الحصن واستعدوا استعداداً طيباً ، وأسرع المقوقس الى بابليون ليكون على مقربة من الحوادث ، وبدأ الحصار في جمادى الأولى ١٩ هـ ... مايو ٦٤٠ م ، ولقي المسلمون عناء شديداً ، فقد ... الروم قلة عددهم حتى قال البلاذري ان عمراً ... أصحابه ... أنهم أكثر مما هم ، فلما ... الى الخندق ... من أصحابك كذا وكذا ... واحد » وأخذ عمرو ... على ... ... ذوي ... ما ... حتى ... درعهم وصاح فيه رجل من أهل اليمن « اثا ... من حجارة أو حديد » فقال عمرو « ... فانما ... كلب » ، ... الرجل « فأنت أمير الكلاب » ، ... عمرو ... موقفه ... ، فلم ... الا ... حانه الرجل ، ونادى نفر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع ... بهم على استنهاض همم المحاربين .

وعجل عمر بن الخطاب بارسال المدد الى عمرو بن العاص ، ويبدو أنه كان لا يزال يشك في قدرة عمرو على اتمام الفتح فأناط الزبير بن العوام في قرينه أمر الفتح ، وقد روى الخبر البلاذري ، وقال ان عمر قال للزبير « يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية مصر ؟ » فقال « لا حاجة لي فيها ، ولكن أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً ، فان وجدت عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصدت الى بعض السواحل فرابطت به ، وان وجدته في جهاد كنت معه ... على ذلك » .

مواقعة حصن شمس (بابليون) والاستيلاء على الحصن

وبين المؤرخين خلاف على عدد جند المدد الذين أرسله عمر ، فذهب بعضهم الى أنه كان معه آلاف ، وقال آخرون بل ... عشر ألفاً ... ومهم ... أنه كان مدداً مؤلفاً عدة أربعة آلاف آمره ... هم الزبير بن العوام و المقداد بن

عمرو « الأسود » وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدوي وقد وصل هذا المدد في ٩ جمادى الآخرة (٦ يونيو ٦٤٠ م) ، وبعد وصوله مباشرة نشبت معركة حصن بابليون في دورها الحاسم .

ودخل عمرو في مفاوضة خاصة بالصلح بين الروم والأقباط فصلا تاما ، فالتقى برجلين من زعماء الأقباط هما أبو مريم جاثليق مصر أي رئيس رجال الدين من الأقباط — وكان معاديا للمقوقس — والأسقف أبو مريام ، ويبدو أنه كان معدودا بين رجال الدين ، لأنه حضر في « أهل البيعات » أي القسس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقباط ، وعرض عليهما الإسلام وقال « فمن أجابنا إليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة » وكان لكلامه أثر بعيد في نفسيهما ، فردا عليه ردا جميلا ، وعادا إلى المقوقس ليستنهضاه وعندئذ علم رجال الحامية البيزنطية بذلك فكرهوه وأصروا على القتال ، وتزعم ذلك الأرطبون ، وهو قائد بيزنطي اسمه الأصلي أرطبون Aretion كان معسكرا في حرب العرب في الشام ، فلما انهزم الروم اتجه إلى مصر واشترك في دفاع الروم عنها .

وكان عمرو قد خطط خططا لفتح مدينة حصينة أيام حصاره عليه ، فلما هو سيطر عليها فاجأه الروم بالهجوم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى ردهم إلى الحصن . ورأى عمرو أنه ما دام الروم وراء الأسوار فإن أمر الحصن سيطول ، وأنه لابد من جرهم من حصنهم ومقاتلتهم في معركة في الفضاء ، فعول على ذلك . ولما كان الروم يخرجون من الحصن ويحملون فيجولون ويصولون في المزارع والبساتين الواقعة بين الحصن ومعسكر الرئيسي العربي في أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يخرجون منهم هجوما مدبرا ، فرتب بعضا آخرين منهم إلى الخروج ، فأرسل تحت جنح الليل كتيبتين إحداهما إلى طريق أم دنين والثانية نحو الشرق حيث اختبأت في كهف من ثنايا جبل المقطم . وخرج الروم على عادتهم في الصباح الباكر ، وتقدموا نحو الفسطاط في اتجاه ما يعرف الآن بالعباسية ، فلما توسطوا الطريق وساروا بين البساتين والأديرة تقدم إليهم عمرو بكتلة من جيشه والتحم معهم ، فتجمعوا لقتاله ، فلما حمي الوطيس خرجت كتيبة الجبل من مكمنها وهاجمت مؤخرتهم ، فحصرهم عمرو بين جيشين ، وأسرعوا هاربين في اتجاه أم دنين ، فخرج إليهم الكمين الثاني ، ووقعوا بين جند المسلمين من كل ناحية ، واستحر القتال ووقع فيهم القتل ، وانهزموا ، وأسرعت فلولهم نحو الحصن يحتمون به ، وانتهى بذلك نصر حاسم للمسلمين تقرر به مصير مصر كلها .

وتعرف الموقعة بموقعة عين شمس ، وقد ترجمها بتلر خطأ باسم موقعة هليوبوليس .

وهي في الواقع لم تكن في المطرية (عين شمس) ، بل في موضع هليوبوليس الحالية وتمتد على مقربة من حصن بابليون . فهي أولى بأن تسمى معركة بابليون . وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، ويمكن الأخذ بأنها كانت في ١٠ رجب ١٩ هـ = ١٥ يوليو ٦٤٠ م . وقد اشتهر موضع انهزام الروم في الروايات العربية المتأخرة بمسجد يسمى بمسجد الفتح بناه بادس الرومي الوزير الفاطمي بالقرافة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعمائة من المسلمين دفنوا بمقبرة وحدهم عرفت بمقبرة الشهداء بموضع يعرف بمجرى الحصن قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بتلر إلى أنه لم ينج من جيش الروم الذين حاربوا بمعركة إلا ثلاثمائة ، لاذوا بالحصن وأغلقوا الأبواب . وقد استولى الذعر على من في الحصن ، فخرج جماعة منهم فارين بالمتاع وركبوا النهر إلى قرية نقيوس ، وعلق عليها بقوله « على أنه بقيت من الروم فئة لا بأس بها ، اجتمع إليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جميعا حامية قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة ، فقد أصبحت مدينة مصر في قبضة يدهم بغير قتال (كذا) وكان من قبل يحميها الجيش الذي في الحصن ، وأصبحوا يملكون ناصية ساحل النهر من ناحية الحصن من أعلاه ومن أسفله ، وانتقلوا بعسكرهم صعدة من هليوبوليس (الأصح أم دنين) فصاروا في شمال الحصن وشرقه بين الحصن والكنائس ، وذلك المكان هو الذي صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار حصن العرب بعد ذلك النصر كأنه محصور بالجنود لا سبيل عليه من التسليم إلا بعد أن قضى على جيش الروم ، فلم يبق منه إلا الفلول التي لاذت بالحصن أو هامت على وجوهها في بلاد مصر السفلى » .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة في الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كتائب تواجه الحصن من نواحيه كلها ، ونصب عليه منجنيقات يبدو أنها لم تكن محكمة الصنع والوضع ، لأنها لم تقم بشيء ذي بال . وكان في الحصن حامية قوية من الروم ذكر منهم حنا النقيوسي قائدين هما تيودور وأنسطاسيوس ، وذكر العرب قائدا ثالثا يسمونه الأعرج أو الأعيرج ويسمونه « المندفور » وهو تعريب للفظ mandaur وهي رتبة من المراتب العسكرية في الجيش البيزنطي ، ويغلب أنه كان حاكم الحصن وإن كان بتلر — متابعا مذهبه المعروف في حل هذه المشاكل — يذهب إلى أن المراد به جورج حاكم إقليم مصر ، وقد ذكره حنا النقيوسي . وكان في الحصن أيضا جماعة من جند الأقباط وكبرائهم ، وقد عني بذلك بتلر ، وهو حريص أشد الحرص على نفي كل اشتراك للمصريين في الأعمال العسكرية

لعاصمة جميع مصر ، وهو عرض لا معنى له ، اذ انه مر التاريخ ، عرفنا كثيرة من الحصن بين بطون في مصر كانت من الأقباط منهم ، او الى الجنادل بعد سقوط الفرما والتجأوا الى المسلمين علانية مصممة سقوط حصن بابليون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا موجودين في الحصن في ذلك الحين . وكانت في الحصن ذخيرة طيبة من الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه جمع عظيم من عير الجند من أهل منطقة مصر والأديرة المجاورة للاحتماء بأسواره ويقال ان المقوقس كان بداخله ام ذاك ، وهو قول لا نستطيع نفيه أو تأكيده . وعلى أى الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصن وقتالهم لمن فيه ، تسلل المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب الحصن الجنوبي وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا الجسر الذي يصلها بالحصن حتى لا يصل اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأعيرج وخرج ممن معه ، فعبروا الى جزيرة الروضة لاحقين بالمقوقس ومن معه .

بهذا هان أمر الحصن ، وأصبح الاستيلاء عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الظرف لا يحتمل طول الانتظار عند الأعسر ، فأرسل الى عمرو يطلب المفاوضة ، فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وهو الذي تولى الكلام . وقد أوردت الرواية نص الحديث الذي جرى بين عبادة والمقوقس ، وهو حديث طويل عمد فيه الى تصوير روح العرب المجاهدين أحسن تصوير . والذي يعنينا هو أن عبادة عرض شروطهم المعروفة : الاسلام أو الجزية أو القتال . وقد مال المقوقس الى الجزية ، ورفض هذا الحل كثير ممن معه من الروم وقالوا : « القتال أهون علينا » . وكانت هذه المفاوضة في آخر شعبان ١٩ هـ / أغسطس ٦٤٠ م .

معاهدة بابليون

وفي أثناء المفاوضات تمكن العرب من الاستيلاء على الحصن ، وقد تولى كبر ذلك الزبير بن العوام في خبر طويل . ويبدو أن المسلمين لم يقتحموه اقتحاما كما تذهب اليه الروايات ، لأن المحصورين فيه لم ينزلوا الا على شروط ، وقد أسرفت الرواة في الحديث عن تلك الشروط حتى جعلوا حديثها أقرب الى العجائب ، ولكنا نأخذ بالمعقول المقبول ، ولنقل انهم سلموا الحصن مقابل عشرين ألف دينار ومقادير من الأزواد والملابس . وقد زخرف الخبر بعد ذلك على أيدي الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله ابن عمرو بن العاص وجعلوه في صيغة ملتهبة ليس فيه شيء على الاطلاق ، وعلى الرؤوس ، وكل هذه يبدأب حاسة فيه بعد ، ... سبكها الفقهاء لكي يتخذها الحكام أساسا في تقدير جباية مصر ونصيب من الحصة

الى معنة في شيء . ويسمى القرب الخمس وخرج من منه ، وأصبح من ذلك الحين حصنا سلاما

وقد وجد المقوقس في سقوط الحصن ما يقوي وجهة نظره ، فأخذ يحقق من معه على ضرورة التسليم والاذعان للجزية ، حتى جمع رأيه ونصائح الفريقان . ولم يكن المقوقس ممثلا للامبراطور بيزنطي ، ولهذا فقد نص في معاهدة الصلح على أن الأمر خاص بأهل مصر او الأقباط ، وقد أورد ابن عبد الحكم وغيره نص المعاهدة ، وسنورده فيما يلي لأهميته مقسما الى فقرات بحسب موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع اليها فيما يلي من بحث

١ — « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم

٢ — لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص

٣ — ولا يساكنهم النوب (أي أهل النوبة)

٤ — وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (خمسين مليون درهم) والأغلب أن المراد درهم ، وسيرد مناقشة ذلك)

٥ — وعليهم ما جنى لصوتهم (أي لصوصهم)

٦ — فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم (أي حصص) وذمتنا ممن أبى بريئة

٧ — ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم

٨ — ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا

٩ — عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم

١٠ — على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين

١١ — وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على الا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة

١٢ — شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر »

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج الى مزيد من البيان . وهي في ذاتها تؤيد ما قلناه من أن المقوقس كان من أقباط مصر ، وأنه كان يتكلم باسم مواطنيه ، ولو أنه كان جيش عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل مصر دون مواطنيه من الروم . الا من قبل من هؤلاء الأجانب الصلح ، في ذلك يتضح وينبغي أيضا ملاحظة أنه صالح عن نفسه من

أهل مصر ، لأن نواحي أخرى كانت لم تخضع بعد ، فهو عقد مكاتبة لأداء الضريبة عنها ، وقد ثار ... حنقه على العرب فغصب أموالها حتى تقدم الضريبة بمقدار ما يخص هذه الناحية (فقرة ٦) ، لأن أهل مصر غير مكلفين بإخضاع نواحيهم للعرب ، وعلى عكس ذلك كانوا مسئولين عن الأمن في نواحيهم ، وبعد تعليمهم ما جنى لصوصهم (فقرة ٥) وواضح من الفقرة الحادية عشرة أن نفرا من أهل النوبة استجابوا لهذا الصلح ، فرضت عليهم ضريبة من الماشية والعبيد

وقد ذهب بتلر الى أن هذا الصلح خاص بأهل منطقة مصر وحدها ولم يكن صلحا عاما عن أهل مصر ، واعتمد في ذلك على حجج أهمها قلة قدر الجزية التي تقررت (٥٠ مليون درهم ، وهي ٢ر٥ مليون دينار) والخلط بين معاهدة الصلح هذه وشروط تسليم حصن بابليون . وغاب عنه أن مبلغ الجزية الذي تقرر في الصلح كان تقديرا مبدئيا ، وسيعاد التقدير بعد تمام فتح مصر كلها على ما سنراه

استكمال فتح الوجه البحري والصعيد والفيوم :

وبقي بروم بعد ذلك معقل آخر هو الاسكندرية ، وكان لابد من فتحها حتى يتم جلاء البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن يستكمل افتتاح ما يستطيع الوصول اليه من نواحي مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ، فبعث بسرايا الى نواحي الوجه البحري والصعيد ، فبعث خارجة بن حذافة الى عين شمس وتنيس ودمياط وتونة (تعرف اليوم وتمكانها جزيرة بحيرة المنزلة تسمى كوم بن سلام ، شرقي مطرية المنزلة) ودميرة (حاليا قرية بمركز طلخا ، مديرية الغربية) وشطا (من ضواحي دمياط على ٥ كيلو مترات منها) ودقهلة وبنا (اليوم بنا أبو صير مركز سمنود مديرية الغربية) وبوصير (اليوم أبو صير بنا ، مركز سمنود ، غربية) والبشرودات (اقليم كان يقع الى الشمال بحوار بحيرة البرلس) ثم الى الفيوم والأشمونين وأخميم وغيرها من بلاد الصعيد مصر « فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج » كما ذكر البلاذري . وكان أهل هذه النواحي يدخلون على شروط الصلح الذي عقده المقوقس ، فالاخذ مصادر العربية ، فلما حصن عمر يقرر النظر في أمرها جميعا بعد فتح الاسكندرية

ويبدو أن فتح الفيوم كان أشبه بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يصلوا أول الأمر الا الى قرية مطلة على الفيوم من قراها تسمى اللهيب (مكانها اليوم ويقع مكانها على حوض اللهيب أو اللهبي بناحية قلمشاه ، الفيوم) ، ثم الاستيلاء على ناحية الفيوم فلم يتم الا بعد ذلك بنحو عام ، وتذهب الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للعرب حتى دلهم رجل عليها وعلى الطريق اليها وقد

كتب في فتحها كتاب مصطفى خاص يسمى « فتوح البهنسا » وذهب بوجه خصوصي الى أن العرب عندما دخلوا البهنسا قتلوا كل من وجدوه فيها من رجال ونسوة وأطفال، وكذلك فعلوا عند دخولهم شبرا ، وكلا الأمرين مستبعد إذ لماذا يخص العرب هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد القطر ؟ ولا يخرج الأمر هنا عن كونه إحدى القرابات الكثيرة التي ملأ بها هذا المؤلف كتابه

فتح الإسكندرية

ولم يضع عمرو وقتا ، بل اتجه نحو الإسكندرية رأسا وللمرة الأولى نرى القبط الى جانب العرب صراحة ، وذلك نتيجة سياسة المساعدة التسامح ، فيروي ابن عبد الحكم عن عثمان بن صالح « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت ، وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » ، ولم يلق المسلمون في طريقهم أحدا من الروم الا عند ترنوط (حاليا الطرانة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة) ، وكانت بها فرقة صغيرة التي عندها في الذهاب الى الإسكندرية ، وقد لقي المسلمون بهذه الحامية رومية صغيرة فهزموا أمامهم

ثم نزل عمرو بنقيوس ، وكانت بها حامية رومية بقيادة قائد يسمى دومانتيوس بعد أن صمد كثيرا في النيل ، فلما رأى العرب نزلا سفنه ومعداته وفر هاربا مع من معه الى الإسكندرية ، فأرسل عمرو في أثره سرية بقيادة شريك بن سمي المرادي ، فأدركهم عند كوم شريك (مركز كوم حمادة ، بحيرة) وكانوا أكثر من مسلمين عددا فأحاطوا بهم ، فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، فالتجدة ، وتراجع الروم حتى سلطيس (اليوم سنطيس على مسافة كيلو مترات جنوبي دمنهور) فالتقوا عندها وهزم الروم ، وتقهقروا حتى وقفوا عند الكريون (قرب معمل القزاز ، مركز كفر الدوار بحيرة) وكانت مفتاح الطريق الى الإسكندرية وكان فيها حصن منيع شمالي الترعة الذاهبة الى الإسكندرية ، وكان القائد تيودور قد تحصن بها وبعث يطلب النجدات ، فأتته من مواضع مثل سخا (مكانها الآن قرية أم حكيم ، مركز شبراخيت ، بحيرة) ودسها (مركز كفر الشيخ ، رياحية) واستمر القتال بضعة عشر يوما ، ثم انهزم الروم وتعقبهم المسلمون حتى بلغوا خط الحصون الذي يحمي الإسكندرية فوقفوا عنده

ورأى المسلمون لا ما بين حلوه الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط ، يمدونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين » وقد

الروم في الإسكندرية استعداد عظيم وهيأ هرقل الأمر حتى قيل إنه استعد بنفسه للدفاع عنها بنفسه لولا أن عاجله الموت دونه وذلك. وقد طال وقوف عمرو أمام الإسكندرية ، وكان يقيم رجلاً وافر النشاط لا يطمئن الى السكون ، فشغل بعض جنده في سريا افتتحت بعض نواحي من شمال غرب الدلتا وإقليم البحيرة ، ثم عاد فشدد الهجوم على الإسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من عنى أن يكون العرب قد سبوهم من أهلها. ولم يستطع عمرو اجابتهم الى ما طلبوه الا بإذن من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذي يشترون عليه بعد هذا القتال العنيف هو حكم العنوة ، في حين أن المدافعين عن الإسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو الى عمر بالأمر ، فوافق على اجابة الطلب ، ودخل العرب الإسكندرية بعد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار.

وقد روى ابن عبد الحكم خبر الفتح عن رجل ممن حضروه هو زياد بن جزء الزبيدي. ولم يكن أحد يتصور أن مدينة كالإسكندرية تسقط بمثل هذه السرعة في ذلك الوقت القصير ، ولكن هكذا تم ضعف الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو شأنهم. وقد أسرع عمرو بعد دخول الإسكندرية فأمن حرية كل من جمعه ممن خلوا من حراسها من الروم ، وأحصى الذين كانوا الحصار مدنيين ، فعادوا الى الإسكندرية وبعثوها فأقضى العهد فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً حتى استولوا على البلد مرة ثانية. ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح عنوة لا بعد عقد ولا عهد ، فبعث الى عمر يستأذنه في أن يعتبرها وأهلها غنيمة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجري عليهم الشرط الأول. وأسرع قيرس الى القسطنطينية ليحصل على تفويض شروط الصلح ، وعاد بالموافقة والشرط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل في الشؤون الدينية للأهالي والسماح لليهود بالاقامة في الإسكندرية ، وأن يبقى العرب أحد عشر شهراً خارج المدينة حتى يتم جلاء الروم عنها. وقد تبع عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذي القعدة ٢٠ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤١ م ، وأبحر الروم من الإسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ ، وكان قيرس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهراً ، في ٢١ مارس ٦٤٢.

وبذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وأربعة أشهر ، فقد وصل عمرو بن العاص العريش في ١٠ ذي الحجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ ، وبارح الإسكندرية آخر جندي بيزنطي في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢. وضم العرب الى امبراطوريتهم الناشئة هذا القطر المصري الذي كان أغنى وأهم ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قدماً ثابتة في

افريقية مكنت لهم فيما بعد من السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ومن الاستيلاء مع الفتح حتى استولوا على البحر كله بالأندلس ، وسيطروا حتى على الحوض الغربي لذلك البحر وكادت السفن تحوله الى بحيرة عربية . وامتدت حدود المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسي والى جبال البرت المعروفة بالبرانس ، وانفتحت أمام المسلمين طرق الى قلب القارة الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام أعظم أهمية ولا أبعد أثرا في تاريخه من فتح مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج البعيدة المدى بعد الفتح ، فمن الخير من أن نبين ولو في ايجاز ، وسنرى بعض النتائج فيما يلي من دراسات .

مصر جزء من الدولة الاسلامية(١)

تسرد المؤرخون أن يعتبروا أن مصر أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

---

(١) اصول : ال جانب فتوح مصر والمغرب والأندلس ، لابن عبد الحكم ، و كتاب الولاة والقضاة ، للكندي ، و ، خطط ، المقريزي طبعة القاهرة ١٣٢٤ جـ ١ و ٢ والطبري و ابن الأثير وبقية المراجع التي ذكرناها في الفقرة السابقة الفتح .

المقريزي : اتعاظ الحنفا طبعة الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٤٨ .

أسطول مصر في العصور الوسطى ، دكتور محمد مصطفى زيادة الجزء الأول .

— تاريخ أسطول الفاطميين في حوض البحر سنة ٥ ١٨

ابن تغري بردي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ ٢ القاهرة ١٩٢٩ ١٩٣

ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ٨ جز القاهرة ٣٢٣ - ٣٢٥ تراجم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن أبي سفيان ومعاوية بن حديج .

ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ١ و ٢ بولاق ١٣

قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة جـ ٦ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٩ .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ في ١٤ جزءا

يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج ليدن ١٨٦٥ - ١٨٦٦ .

أبو يوسف القاضي : كتاب الخراج بولاق ١٣٠٢ .

يحيى الانطاكي : كتاب التاريخ ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن ٨ ٩

ابن سعيد المغرب : الجزء الخاص بمصر ، طبعة الدكاترة زكي حسن وشوقي ضيف وسيدة اسماعيل الكاشف القاهرة ١٩٥٣

ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جزء واحد نشر في دار الكتب سنة ١٩٢٤ .

ابن الجيعان : التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية القاهرة ٨٩٨

الاسحاقي : لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول القاهرة ٣٢٨

السيوطي : حسن المحاضرة القاهرة ٣٢

مجموعات أوراق البردي ... نشرها Grohmann في مطبوعات المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٠٩ مجلد ٣٥

Max van Berchem: *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, tome I, le Caire 1894-1903.

وقد نشر المجلد الثاني جاستون فييت في سلسلة

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. LII, le Caire, 1929-1930.

Adolf Grohmann: *Corpus papyrorum Raineri*, Series arabica, Wien, 1923-1924.

Ibidem, *Arabic papyri in the Egyptian Library*, 4 volumes, le Caire, 1934-1939.

وقد ترجم الجزء الأول من كتابي الدكتور حسن إبراهيم حسن: القاهرة ١٩٣٥ ص ٩٤ ونشرت أيضاً أربع محاضرات للأستاذ جروهمان مترجمة إلى العربية بقلم توفيق اسكاروس القاهرة ١٩٣

Carl Heinrich Becker: *Historische Studien über das Londoner Aphroditowerk* (Der Islam, Band II, 1911).

Karabacek: *Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung*.

H.I. Bell: Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum (Der Islam, Bände II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1928).

W.E. Crum: *Coptic Ostraca*, London 1902.

Gaston Wiet et autres: *Répertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe*, 1931-1939.

أبحاث ودراسات

الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧، وهو أهم بحث في الموضوع.

أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة ١٩٢٨، وضحى الإسلام، ج ١، القاهرة ١٩٣٦.

الدكتور محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ.

محمود عكوش: مصر في عهد الإسلام، القاهرة ١٩٤٩.

الدكتور عبد الرحمن فهمي: صنج السكة، القاهرة ١٩٥٨.

Carl Heinrich Becker: *Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter dem Islam*, Heft 1, Strassburg, 1902.

— *Arabie Égypte et le Caire*, Encyclopédie de l'Islam.

— *Islamstudien*, 2 Bände, Leipzig, 1924.

Max van Berchem: *La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes*, Genève, 1886.

Une page nouvelle de l'histoire de l'Égypte, Journal Asiatique, 9e série, tome IX, Paris, Janvier-Février 1897.

Butcher, Mrs. E.L.: *The Story of the Church of Egypt*, London, 1897.

Franz Pascha: *Kairo*, Leipzig, 1903.

Reitemeyer: *Beschreibung Ägyptens im Mittelalter aus den geographischen Werken der Araber*, Leipzig, 1903.

Becker: *Papyri Schott Reinhardt*, Heidelberg, 1906.

Casanova: *Essai de reconstitution topographique de la ville d'Al-Foustat ou Misr* dans Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale, vol. XXXV, Le Caire, 1913-1919.

Wüstenfeld: *Die Statthalter von Ägypten zur Zeit der Chalifen*, Göttingen, 1875-1876.

الدولة الإسلامية . وهذا القول يخالف الواقع بعض الشيء ، وأقل ما نفهم منه أنه كانت هناك دولة شبه مركزية كالدولة الرومانية مثلا ، تعتمد على شعب معين حاكم كالشعب الروماني . والحقيقة فيما يتصل بدولة الإسلام خلاف ذلك ، فلم تكن هناك - من الجهة النظرية الإسلامية - دولة رئيسية تقوم على شعب مختار حاكم ، تخضع له ولايات ليس فيها شعوب مقهورة مغلوبة على أمرها ، وإنما الحقيقة فيما يتصل بالدولة الإسلامية أنها كانت دولة عامة يكون بشرها المسلمون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات جنس أو مكان ، فكل مواطن مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها .

ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولى المسلمون من غير العرب وظائف عامة ، وابتداء من عصر الراشدين اشتركوا في التشريع والتفقه ، وخلال العصر الأموي قادوا الجيوش وتولوا الولايات ، وخلال العصر العباسي تلاشت مسألة الأصول تلاشيا تاما ، وأصبحت الدولة بالفعل دولة عامة للمسلمين عامة . كذلك انتقل مركز الدولة من جزيرة العرب الى الشام ثم الى العراق والى مصر بعد ذلك ، ومع ذلك لم يكن أحد ذلك الانتقال ، ومصير [illegible] الى شيء عادي لا يتعارض مع طبيعة دولة الإسلام . أي أن دولة الإسلام ليست دولة جنس ولا قطر بعينهما . فدخول مصر أو غيرها من النواحي في طاعة الإسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب أو بلد له السيادة كما كان الحال مع الامبراطوريات المعروفة في التاريخ ، وإنما كان معناه أنها أصبحت جزءا من هذه الدولة العامة ، بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة لدولة الإسلام .

ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح المغرب بدوره جزءا من الدولة العامة ، وقام أهله بقسط كبير جديد الى الدولة العامة التي أصبحوا مواطنين فيها ولهم جميعه أصحابها ، فافتتحوا الأندلس ، أو قاموا بأعظم جانب من هذا الفتح . ومثل هذا حدث في المشرق فتح العرب العراق ، ثم اشترك أهل العراق مع العرب في ادخال إيران في دولة الإسلام ، ثم اشترك العرب والعراقيون والإيرانيون في فتح ما وراء النهر وأخذوا يدخلون الأتراك وبلادهم في دولة الإسلام ، ثم قام الأتراك بتوسيع نطاق الدولة فيما يليهم شرقا حتى وصلوا بها الى الهند . وتوالت هذه الأجناس كلها على قيادة أمور الدولة الإسلامية العامة كلها ، وهي جنس من أجناسها يسلم الأمر من بعده لجنس آخر ، حتى صارت أمورها العامة آخر الأمر الى الأتراك العثمانيين . والى هذه الصفة الخاصة لدولة الإسلام ترجع الحيوية الخاصة التي امتازت بها على غيرها من دول العالم

القديم والوسيط ، وربما شابهتها في بعض الوجوه الدولة البريطانية ، التي يرجع بعض عمرها إلى أنها كانت في الواقع دولة عالمية تولى أمورها ذاكرا ، الإنجليز من أهلها ، وتتألف جيوشها من الهنود بين وهي آسية المصري والأرمني وأهل المستعمرات من الأقوام على سواء .

غير أنه في دولة مترامية مترسعة الأطراف كالدولة الإسلامية تسوجد أراضيها شعوب شتى لم يخل الأمر من شعب قوي وشعب ضعيف ، أو شعب يكون قويا حينا وضعيفا حينا ، ومن ثم فقد عبثت في داخلها شعوب على شعوب وخضعت بلاد لبلاد ، دون أن يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد أصبح رعية محكومة مستغلة ، كما كان أمر مصر مع الرومان مثلا ، فقد كان من المفروض والمقرر de jure et de facto أنها ولاية تابعة لروما أو القسطنطينية . فإن كان المصريون مثلا قد غلبوا على أمرهم في بعض عصور التاريخ الإسلامي وصيرت بلادهم ولاية خاضعة لغيرهم ، فمعنى ذلك أنهم لم يستطيعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما استعادوا أمرهم بعد ذلك عبروا غيرهم واستقلوا ببلادهم بل ضموا إليهم غيرهم والحجاز الذي كان المفروض أن تظل سيادة الدولة كان أهل بلادها حظا في الرياسة والقيادة على طول تاريخ الإسلام وعرضه ، حالت لم يخل الأمر في هذه الدولة الإسلامية الواسعة من سيطرة ... أو غلبة أو عصبية سلالية ، وما إلى ذلك من المساوئ التي لا تخلو منها دولة من الدول ، ووجود ذلك داخل في طبيعة الحكم في ذاته وفي تعقد مشاكله وسرعته ، وإلى عجز الحكام عن إيجاد الحلول الصالحة وذلك أمر لا علاقة له بدولة الإسلام في ذاتها ، بل هو مشكلة انسانية عالمية قاسى منها بعض شعوب الإسلام كما قاسى منها غيرها .

هذه مقدمة لابد منها قبل النظر في شئون مصر بعد دخولها دولة الإسلام ، فهي لم تصبح ولاية عربية أو ولاية إسلامية ، بل جزءا من دولة الإسلام يجري عليه وعلى أهله ما يجري على الوطن الإسلامي الكبير وأهله جميعا ، ويكفي أن نقرر أن بلاد العرب وهم الجنس الذي تنسب إليه الدولة كلها ، كانت أسوأ حالا من مصر أو غيرها من أجزاء الدولة الإسلامية خلال العصر الأموي وما تلاه ؛ لا لأن شعبها كان شعبا مغلوبا أو مستضعفا ، بل لأن طبيعة الإقليم الصحراوي لم تساعد أهله على الصمود في رحلة الصراع الطويل الذي لم يهدأ تياره قط على طول تاريخ الإسلام . ولم يشعر شعب مصر بعد دخوله في دولة الإسلام بأنه شعب مغلوب ، لم نعثر على نصه من العرب مؤلف مغلوب من عند ... العصر من الأول بين ... العصر الإسلامي مثلا نحو حاسم .

الغالب { les vainqueurs et les vaincus } ، بل بالعكس اذا نظرنا الى الأمر من منطقهم هم لوجدنا أنهم كانوا يوجهون لومهم الى جانب العرب أثناء الفتح ... في حملته الخالية ... ومهما يكن ... بالتعب ... ولم يكونوا ينتظرون الروم ... وشرهم وسخطهم وعصبيتهم العنصرية علينا ، ووجدنا أنفسنا بذلك في راحة ، وليس هذا كلام رجل يشعر أن قومه قد غلبوا على أمرهم

على أي الأحوال أصبح المصريون — سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم — جزءا من أهل الوطن الاسلامي الكبير ، يجري عليهم ما يجري على غيرهم من أحكامه وظروفه وتقلب الأحوال به ، فرضيت حياتهم واطمأنوا مدة خلافة عمر بن الخطاب والنصف الأول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم في ذلك شأن بقية أهل دولة الاسلام ، حتى اذا نشبت أزمة عثمان وتحركت الفتن اشترك أهل مصر فيها وقاموا بدور معروف ، وشاركوا أيضا في النزاع بين علي ومعاوية ، وكان لهم شأن في النزاع بين الأمويين والزبيريين ، ثم انتهت الفتنة بين الأمويين والعباسيين ... وتتبع مصر خلال هذه الفترة ... من تاريخ دولة الاسلام كلها ... وبعد ذلك مصر لم تكن بلدا مستقلا من الفتح الى نهاية الدولة الأموية على الأقل

ونحن نلاحظ هنا أمرا كان له أبعد الأثر في تحديد الدور الذي قامت به مصر في تاريخ العصر الذي نتحدث عنه هنا وما تلاه من عصور ، وهو أن مصر تضعها طبيعتها في موضع عجيب على مفترق الطرق ، وأن طبيعتها تجعل شعبها شعبا مستقرا بالمعنى ... يزرع فيها من موارد الخير الأخرى ، وهو الى جانب ذلك شعب مسالم يميل الى الحياة المستقرة الرتيبة ، وقد نظم هذا الشعب أموره على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن ثم لم تكن هناك في العصور الوسطى مشاكل مستعصية أو طارئة كالتي تتعرض لها البلاد ذات الطبيعة المتقلبة الوعرة ، أو التي يعتمد أهلها على مصدر غير منتظم أو على تجارات رابحة عادية في البر والبحر ، وما الى ذلك من وجوه المعاش المرتبط بالظروف الطبيعية أو العامة ، وكل ما تحتاج اليه مصر من حاكمها في سياسة أمورها الداخلية هو أن يكون قادرا على أن يقر الأمن في ربوع البلاد عادلا في أحكامه وفيما يجبي من أموالها ، ولهذا كان الناس يعبرون عن تحكم في العصر التركي « بالعدل والربط » أي ضبط الأمن وربط الأموال ، أما عدا ذلك من الأمور كالتنظيم وتسيير الشؤون فمن شؤون سكان مصر أنفسهم ... على مر العصور ، وكل ما تعرضت له مصر خلال تاريخها من الأزمات ... كان سببه عجز الحكام أو جشعهم أو تدخلهم في شؤون الناس بدرجة مفسدة

لهذا لم يستطع عرب مصر من العرب أن يضعوا لها نظاما جديدا . من الاكفاء يرعاه النظام التقليدي . ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من بعدهم قد أفلحوا في حكم مصر ، لأنهم جعلوها موردا للغلال والضرائب ومطالب وموظفين مكتفين بجمع المال ، ثم أضافوا الى ذلك التدخل في شئون العقيدة . وقد أفاد العرب من ذلك كله من أول الأمر ، فأقروا على البلاد بالاتفاق مع أهلها قدرا معينا من الجزية واختصروا الجهاز الادارى الى أبعد حد ممكن ، وتركوا الناس أحرارا في عقائدهم ، وكان من الطبيعي أن يسود الرخاء والاستقرار

الفترتان الأموية والعباسية

ويمكن أن نفرق عند دراستنا لأحوال مصر — منذ الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م — بين فترتين تختلف احداهما عن الأخرى اختلافا بينا في الروح والاتجاه . الأولى تمتد من الفتح الى نهاية العصر الأموي (من شوال ٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٢ هـ / أغسطس ٧٤٩) ، والثانية من بدء العصر العباسي الى استبداد أحمد بن طولون بشئون مصر في الشهور الأخيرة من سنة ٢٥٤/٨٦٨ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام وهدوء ، يعرف فيها معظم العمال ويحاسب معظمهم ، على من يعاونهم بالعدل والكفاية ، وتحسن السمعة ، ولا يشكو المصريون بصفة عامة من تعسف خراج أو مساوئ الحكام . والفترة الثانية فترة فوضى سياسية وفوضى ادارية كثر فيها عدد الحكام وتعاقبوا فيها على البلاد واحدا في اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمال الهيبة وثقة الناس ، ويسلكون مسالك الحيايب ويشكو المصريون الظلم وتكثر ثوراتهم وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد . ويرجع الاختلاف بين الفترتين الى حد ما الى التطور العام الذي شمل الدولة الاسلامية كلها خلال هذين العصرين

الادارة :

ونبدأ بالفترة الأولى . العنصر الجوهري في الجهاز الادارى الذى أنشأه العرب بمصر هو الوالي يعتبر حاكما عاما وممثلا للخليفة ويدخل في اختصاصه كل شيء بصورة مبدئية . فهو الحاكم الادارى الأعلى وأمير الصلاة والقائد العسكري والمسئول عن شئون المال وما الى ذلك الا القضاء ، فقد اعتبرته الدولة الاسلامية من أول الأمر وظيفة رفيعة القدر يقتضي صلاحها أن يكون سلطان صاحبها مستمدا من الرئيس الأعلى للدولة مباشرة . وكان الوالي يسمى أيضا العامل أو الأمير أو أمير الصلاة أو أمير الجند ، وتسميه الوثائق البردية اليونانية سيمبولوس وعندما يصدر الخليفة بعض اختصاصات الوالي الى موظف خاص يعينه من عنده ، ونظير هذا ... خاصة في الناحية

فانه ، فكثيراً ما كان الخلفاء يعينون بأنفسهم عاملاً خاصاً مسؤولاً أمامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

وقد كانت شؤون المال أهم جانب من أعمال الوالي ومن ذلك التصرف كان يلقى معارضة شديدة من الولاة ؛ بل ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٢٥/٦٤٥ عندما قرر عثمان أن يولي عبد الله بن سعد على الخراج من جانبه ؛ وفي خلافة معاوية شكا أخوه عتبة بن أبي سفيان عامل مصر من تولية وردان عاملاً على الخراج من جانبه ؛ فضم اليه الخراج . وكان الولاة على حق في هذا الاعتراض ؛ لأن الخراج كان عصب الولاية في واقع الأمر ، واذا تولاه رجل قادر استطاع أن يتحكم في الوالي ؛ كما حدث عندما ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عاملاً على الخراج ؛ فقد استبد بأعماله حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته الطويلة على خراج مصر (١٠٥ - ٧٢٣ ، ١١٦ - ٧٣٤) ومع ذلك فلم يمنع الخلفاء من افراد الخراج بوال خاص حتى أقام خلفاء بني أمية سبعة منهم في فترات مختلفة . وعندما ولى هشام بن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعة لم يدخر الوليد وسعاً في التخلص من عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، ولكن من أقدع ... أبعده من خراج مصر فاستعمله على ...

وكان العامل هو أمير الجند فكانت قيادة الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، ونحن نعرف أن عمال مصر حتى نهاية العصر الأموي كانوا على الجملة من العرب ، ونعرف فيما نعرفه مقدار اهتمامهم بشؤون الجند والحرب وتمرسهم في ذلك .

وكان العامل مسؤولاً عن الأمن داخل البلاد ، وجرت العادة بأن يعين الوالي من قبله موظفاً مسؤولاً عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، يكون في العادة الأقرب عنه اذا غاب ويأتي بعده في الأهمية في السلم الاداري ؛ وفي أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالي في منصبه اذا عزل أو مات أو تنحى عن عمله وربما أقام الخليفة صاحب الشرطة من قبله . ووظيفة الشرطة بصفة عامة من وظائف الادارة التي لا نعرف من أمورها شيئاً مفصلاً . وفيما يتصل بمصر لدينا اشارات كثيرة عن الشرطة ، ونستطيع أن نستنتج منها اختصاصاته ، ولكننا لا نعرف المدى الذي كان يمتد اليه سلطان صاحبها : هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو الفسطاط فقط . وقد ذهب بعضهم الى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون في النواحي ؛ ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤيد ذلك ، وكل ما لدينا المصطلحات التي ما يسمى شرطة فوق أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد بهما قسمان اداريان ينقسم اليهما الفسطاط .

ذلك بحيثية نفسه ، فقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بتصحيح الأميال [illegible] أي تسهيل الطرق ، وإقامة البريد على أهم محال [illegible] حبيس البريد الراحة أو للإمساك [illegible] أخرى . ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بإيصال المكاتبات من مركز الخلافة إلى عواصم الولايات .

هذه هي الوظائف الرئيسية التي احتفظ بها العرب لأنفسهم أول الأمر ، أما بقية شؤون التنظيم الداخلي فقد تركت لأهل البلاد . وقد قسمت مصر بصفة عامة إلى قسمين كبيرين : الصعيد وأسفل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلي والوجه البحري ، وفي حالات قليلة كان الأمير يولي على كل منهما عاملا تابعا له . ويغلب على الظن أنه كان يتولى شؤون كل من القسمين رجل من أهل البلاد — ومعظمها شؤون مالية — وكانت البلاد مقسمة في عهد البيزنطيين إلى باجركيات فاحتفظ العرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الباجركية لفظ كورة وهو معرب من اليوناني .

ولقد اجتهد ياقوت في مقدمة « معجم البلدان » في تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا يزال في حاجة إلى بيان ؛ فهو لا يماثل « المديرية » في تقسيمنا الحالي ، بل ربما كان [illegible] الكورة تقابل [illegible] مركزا [illegible] جمع كلا منها من [illegible] . قال ابن دقماق [illegible] كور مصر [illegible] [illegible]

على أي حال فإن ذلك لا يصدق على شرطة مصر فقط ، بل على شرطة غيرها من بلاد الإسلام . ففي العصر [illegible] كانت الشرطة [illegible] [illegible] كانت [illegible] الشرطة خاصة بالبصرة ، ولكنها تابعة لوالي البصرة . وفي قرطبة كانت هناك شرطة عليا وشرطة سفلى في [illegible] المدينة ، وكانت هناك شرطات في كبار المدن ، ولكنها كانت تابعة للوالي . أي أن نظام الشرطة في العالم الإسلامي كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جهازا إداريا عاما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليوم ، بل هو لم يكن — حتى في حدوده المحدودة — نظام أمن في أول الأمر ، بل كان يطلق في العصور الأولى على فرقة مختارة من الجند تقوم بحراسة الخليفة أو الوالي ، ثم امتد سلطان صاحبها إلى الأمن في العاصمة ، واللفظ معرب عن اللاتينية [illegible] أما الأمن في الكور فكان من شأن عمال الكور .

وكذلك يقال عن البريد . وقد نشأ [illegible] وظيفة من أيام معاوية بن أبي سفيان في [illegible] الأغلب ، وقد أنشأه ليعرف أخبار النواحي ؛ أي أنه كان نظاما مهمته تيسير المكاتبات بين مركز الدولة والنواحي ، وأهم أدواته الدواب التي تحمل عليها البريد والخيل التي تحملها [illegible] ومعنى ذلك [illegible] أن صاحب البريد في مصر مثلا كان يقوم على تنظيم طرق [illegible] إلى دمشق أو بغداد [illegible] الذي يهمهم

من القضاعي أن كور الصعيد كانت ٢٨ فقد ذهب بعضهم الى انها الا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور أسفل الأرض ٢٥ أو ٣٣ أو ٣٨ ، والمجموع على أي حال لا يصل الى ٨٠ . ويفهم لديه أن الكورة كانت تسمى اداريا ماليبيا … « صاحب كورة » من أهل مصر

وكانت الكور مقسمة الى قرى ذهب بعضهم الى أن عددها ٢٠٠٠ ، وقال آخرون ان الوليد بن رفاعة أحصاها احصاء دقيقا فبلغت ١٠,٠٠٠ قرية ، « فلم يحص في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل » وهذه كلها تقديرات جزافية لا نستطيع التعويل عليها ، وأبسط ما يلاحظ أن احصاء الوليد بن رفاعة هذا — الذي يصفه المقريزي بأنه اتفق في عمله من جهة … قدر سكان مصر الذين تجب عليهم الجزية بخمسة ملايين ، فكان معنى أن تكون حصيلة الجزية وحدها ١٠ ملايين من الدنانير مع أن جباية مصر كلها في العصر الأموي لم تزد على أربعة ملايين . وكل ما نستطيع قوله هو أن البلاد قسمت الى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول عن شئون كورته أمام العامل مباشرة ، ويساعد صاحب الكورة موظف مختص بشئون المال يسمى … ، وهو معرب من اليونانية ومعناه الكاتب أو المحاسب أو المدير … جمعها … ناروب أي شيخ القرية ورئيسها ، وهو معرب من اليونانية أصلا وله معنى الكاتب أو … جراموس » القديم

ويبدو أن عدد الكور وحدودها لم تتغير خلال القرن الهجري الأول عما كانت عليه خلال القرن السادس الميلادي ، فقد بقيت قائمة باجركيات مصر عندها هيروكليس خلال الثلث الأول من ذلك القرن ، وهي تضم اثنين وستين من عواصم الباجركيات ، نجد منها ٤٧ في قوائم الكور التي كانت موجودة في مصر خلال العصر الأموي . غير أن هذا التقسيم لم يظل على حاله ، والأرجح أن الأمر ليس … في تقليل عدد الكور بضم بعضها الى بعض ، نتيجة للاضطراب والفساد الذي دبا في شئون البلاد عامة خلال العصر العباسي

وهذا التقسيم الاداري يختلف عن التقسيم الجغرافي للبلاد ، وقد خلط بعض الكتاب بعض الأقسام الجغرافية أقساما ادارية ، مثال ذلك أن تقسيم مصر جغرافيا الى أسفل الأرض والصعيد لم يكن له وجود في التقسيم الاداري ، وكذلك تسمية أسفل الأرض بالريف ، وتقسيمه الى بطن الريف وهو الجزء الداخل المحصور بين فرعي دمياط ورشيد ، والحوف الغربي وهو ما يلي فرع رشيد ، والحوف الشرقي وهو ما يلي

فرع دساتير مرقا ، وبما كان بهذه الأقسام الجغرافية أثر في التقسيمات الادارية التي عرفتها مصر خلال العصر الفاطمي وما تلاه ، أما العصر الذي ندرسه فلم يكن له فيه صدى ، ولم تكن الفسطاط أو الاسكندرية معدودتين في الكور ، بل كانتا مدينتين ، تعتبر كل منهما وحدة ادارية قائمة بذاتها .

شئون المال :

فاذا انتقلنا الى الناحية المالية وجدنا أنفسنا أمام مشكلة جديرة بأن نطيل الوقوف عندها ، لأن تفاصيلها تلقى ضوءا هاما على النظم المالية التي سار عليها المسلمون في ادارة شئونهم خلال عصرهم الأول . ولقد تعود الباحثون عندنا أن يقنعوا بما تورده المراجع العربية من بيانات عامة عن هذه الناحية ويجتهدوا في استخلاص احكام منها ، فاذا ذهبت تدرس هذه البيانات لاحظت بين بعضها وبعض من الاختلاف والتناقض ما يجعل الاستناد اليه مدعاة للزلل وسوء التقدير .

ذلك أن هذه البيانات كلها لم تعتمد على نظر في الواقع أو على نقل من وثائق رسمية أو سجلات ، وانما هي محاولات من مؤرخين كلهم متأخر عن العصر الذي ندرسه تأخرا يحول بينهم وبين معرفة ما جرى عليه الأمر في الواقع . صحيح أن أقدم المؤرخين الذين هم من أصحاب هذه الأصول ، وهم ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري يسوقون مجموعة من معلومات تنتهي روايتها الى بعضهم في مراتب معاصرين ، ولكن هؤلاء الرواة جميعا فقهاء ومحدثون أو من نحوا نحوهم ، وأولئك جميعا كانوا يرون أن مهمتهم « تفسير الواقع » ، أي صياغته في صورة قانونية فقهية ، والتوفيق بينه وبين القواعد الشرعية الاسلامية . فلم يتحدثوا عن جباية اجتهدوا في تقسيمها الى جزية وخراج وزكاة ، واعتبروا ما سوى ذلك من الضرائب محرما ومكروها ، ثم فرقوا من أجل ذلك بين البلاد وتعرضوا للتفرقة بين ما فتح منه صلحا وما فتح عنوة وهكذا . وقد أشرنا فيما سبق الى أنهم لم يوفقوا في ذلك بعضهم هذا ، فجاءت بياناتهم متناقضة متضاربة ، ولما عثر الباحثون على مجموعات من وثائق البردي الخاصة بشئون مصر الادارية والمالية خلال القرنين الهجريين الأولين ، فاتضح منها أن الواقع يختلف تماما ، في جملته وتفصيله ، عما ذهب اليه أولئك المؤرخون .

وقد رأيت في عهد الصلح الذي أورده لنا رواية الطبري (صفحة ٤) أن الاتفاق قد تم على أن يؤدي أهل مصر جزية سنوية قدرها ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠ دون تحديد ما اذا كان المراد دراهم أو دنانير . وقد غلب على ظني أن المراد دراهم ، ولكن ابن طلب بعض الفقهاء أعاد عمرو النظر فيه بعد تمام فتح البلاد . ثم ذكر ابن عبد الحكم واسهب مفصلا في الروح

وتحصيلها في المقاييس ، وأما الأولى فمعظم
التي ... المقوقس قد حافظ على نفسه ومن معه
سأل عمرو بن العاص أن يفرض الجزية
دينارين على كل واحد منهم . ويجب من هذه
الرواية أن نفي الا مجاوزة ... موقفه تنص
الفقرة الرابعة من عهد الصلح . وأما الثانية
فتقول : إن الصلح تم على أن يفرض على
جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط
خاصة ديناران عن كل نفس ، شريفهم
ووضيعهم ، من بلغ منهم الحلم . ليس على
الشيخ الفاني ، ولا على الصغير الذي لم يبلغ
الحلم ، ولا على النساء شيء . وعلى أن
للمسلمين النزول بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن
نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر
من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة
عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض
لهم في شيء منها ، فحصي عدد القبط يومئذ
خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليه
الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان
المؤكدة ، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر
أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا
وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ،
فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف
دينار في السنة » . وهذه الرواية ظاهرة
الضعف فهي تذكر أن إحصاء دقيقا لأهل
مصر قد تم ، وأن نتيجة الرواية ... وهذا ...

٢ المقريزي ... الأرض ... ثم ...
... مصريين ... الله

ونصاعته وهو فرض قليل ... للجزية
... في الإسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء
فيما بعد وضعوا ... هذه النظم ... منهم
في التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية
وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يتصوروا
... أن الأمر جرى منذ بداية على
القواعد التي استخرجوها هم أنفسهم من
الأصول بعد الفتوح بزمن طويل .

وقد بدأ يتضح ضعف هذه الآراء من
أواخر القرن الماضي ، عندما اكتشفت
مجموعات الوثائق البردية الخاصة بمصر
البيزنطي والقرنين الهجريين الأولين . وقد
درس ماكس فون برشم ما استطاع دراسته
من هذه الوثائق واستطاع — معتمدا
عليها — أن يعرف أنه قد فرضت على الناس
ضريبتان رئيسيتان : الأولى ضريبة مالية
تجبى تسمى الجزية (باليونانية ديموزيا)
تؤدى نقدا بالدينار ، وضريبة نوعية أخف من
الأولى تسمى الضريبة (باليونانية ...)
تؤدى بأرادب القمح ... مصدران
من مصادر الإيراد في ميزانية الدولة يقابلان
وجهين متميزين من وجوه الإنفاق ، فالجزية
تغطي عطاء الجند ، والضريبة تغطي ما كان
تؤدى إلى الجند من رزق . وكلتا الجزية
والضريبة كانت مفروضة على الجماعة كلها
ثم جاء ... كانت ضريبتين ...
... أمام الأمم ... ثم جاء بعد

ذلك ... سمعه لما أصاب حصيلته الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس في الإسلام واتساع الممتلكات العقارية بين حائزها المسلمين – أن ظهر « الخراج » وتحدد في صورة ضريبة واقعة على الأرض أيا كان مالكها »

ثم توفر كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع معتمدا على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق راينر Sammlung des Papyrus Erzherzog Rainer ودليل هذه المجموعة الذي وضعه كاراباتشيك Fuehrer durch die Ausstellung ، وعرض نتيجة دراسته في أبحاث مختلفة أهمها الكراسة الأولى من كراستيه المعروفتين في تاريخ مصر Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam وفي مقاله عن مصر في دائرة المعارف الإسلامية ، وخلاصة رأيه أن الحكومة كانت تطالب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب : الديموزيا و ضريبة الاستثنائية . وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الفرعية للكورة يتم في الإدارة المركزية بناء على قوائم تعد في الناحية نفسها وترسل إليها مقدما ، ويبعث إلى هذه الأقسام ببلاغ رسمي يسمى « الانتاجيون » عن طريق صاحب الكورة ، وكانت الديموزيا الجزية وهي الضريبة العادية تشمل

١ – الجزية نفسها وتسمى « خروسيما ديموزيا » وهي ضريبة مدنية صرفة

٢ – ضريبة الطعام : سيتيا ديموزيا وهي ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا

وكانت الإدارة المركزية تحدد مبلغ هاتين الضريبتين . وكانت تقرران جملة ، وتقوم الإدارة المحلية بتقسيم مجموعهما ... على الأفراد كل بحسب طاقته

أما الجزية نفسها (خروسيما ديموزيا) فكانت تتألف من مجموعة من الجبايات هي

أ) الضريبة العقارية (ديموزيا جيس)

(ب) ضريبة الرءوس (اندريسموس دياجرافون)

(جـ) الضريبة الإدارية المحلية (داباني)

ولم تكن الضريبة مقصورة عامة على ملاك الأراضي فقط بل كان يشمل أيضا أصحاب الحرف الذين لا يملكون عقارات . ولم تكن ضريبة الرءوس في أول الأمر ضريبة عامة ، ولا نعرف على وجه التحديد على أي أساس كانت تجبى . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام ... لفضة ، ليجمع الاصناف جميعها « الثمن (اندريسموس ، بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأموال يعني بحسب نفقات الإدارة المحلية ، وهذا الجزء يقابل الضريبة الإدارية

المحلية وكذلك يرسل الباقي إلى الإدارة الحكومية في الفسطاط أو الإسكندرية.

وكانت الضريبة الإستاتيكية تشتمل أو تقسم إلى ضريبة عينية نقدية، ولكن نوعيتها كان تختلف بحسب الإقليم والظروف كما يحتاج إلى الكورة مثلا من نفقة العلف ومن الغلة [illegible] السمن وكذلك الأدوات والعمال والتجارة ودفع أجورهم، وربما اضطر رجال الكورة إلى شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة وحساب ثمنها من جملة الأموال المقررة. وكانت هذه الضريبة الإستاتيكية ترسل مباشرة إلى المعسكرات ومراكز تجمع الجند. وكانت الدولة لا تقبل من الكورة مقابل هذه الأصناف نقدا إلا فيما ينقص بجمعه تقبل، ولكن كان من الممكن للأفراد أن يدفعوا [illegible] عنهم لقد لم يقوم رجال الكورة بتدبير المطلوب.

وهذا التفصيل الذي أوردناه مستخرجا من واقع الوثائق البردية يدل على أن ما ورده ابن عبد الحكم ومن تابعه لم يكن إلا تصويرا نظريا فقهيا لما كان يجري في الواقع. ومع ذلك فإن [illegible] المقريزي نفس [illegible]

عليهم، فإن قل أهلها وخربت نقصوا، فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها، فيتناظرون في العمارة والخراب، حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكورة ثم يجتمعوا هم ورؤساء القرى، فيوزعون ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع. ثم يجمع [illegible] كل قرية بقسمهم، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان، فإذا فرغوا نظروا لما في كل قرية من الصناع والأجراء، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليهم بقدر احتمالها، وقلما كانت تكون إلا للرجل الشاب أو المتزوج. ثم ينظرون ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم. فإن عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوي الاحتمال، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطي ما عجز عنه أهل الضعف، فإن تشاحوا قسموا ذلك على عددهم. وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك».

وقال المقريزي [illegible] هشام بن أبي [illegible] اللخمي [illegible]

عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فقال له : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها ، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة : لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ، ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثّر علينا كثّرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم » ، مما يفهم منه بوضوح أن مقادير الجباية لم تكن محددة ولا ثابتة ، وأن تقسيم الأمر المطلوب منه عامة كافة على الكور ، وعلى رجال الكورة أن يديروه على النحو الآنف الذكر .

كذلك روى المقريزي عن يحيى بن سعيد « الجزية جزيتان : جزية على رؤوس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤوس الرجال ، فإنا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع إلى قريته في جملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ولم يدع وارثاً فإن أرضه للمسلمين » . وهذا ينطبق تماماً على ما ذهب إليه زوارل انردى ، فالجزية التي على الرؤوس هي الضريبة النقدية العامة (وحروفيها ديموزيا) والجزية التي تكون جملة على أهل القرية هي ضريبة الطعام (وحروفيها ديموزيا) وكانت المحصلة الاجمالية لكل من الضريبتين تحدد مقدماً بمعرفة الادارة المركزية .

وقد تعرضنا للمشكلة التي واجهت الحكام منذ أن بدأ عهد الاسلام بالبلاد مشكلة الجزية المستحقة على من أسلم ، فإن الديموزيا العامة كانت ضريبتين – كما أن ... الضريبة العقارية وجزية الرؤوس والضريبة الادارية معاً ، أي أن ضريبة الرؤوس كانت داخلة في جملة الديموزيا ، ولم تكن تعني نفس الأساس الذي نجده مفصلاً في كتب النظم الاسلامية ، وإنما كانت تقدر جملة على أساس ما كان يجبيه البيزنطيون منها ، ثم يقسمها أهل القرية على أنفسهم بحسب الطاقة . فلما بدأ الناس يسلمون طالبوا بالغاء هذه الضريبة من الديموزيا ، إذ لا جزية رؤوس على مسلمين ، ورفض العمال ، لأنهم لم يعتبروها كجزية رؤوس بل كجزء من ضريبة عامة تلتزم القرى بأدائها جملة أيضاً . وقد طال الأخذ والرد بين الحكام والعلماء بسبب هذه المشكلة الشرعية ، وانتهى الأمر برفع هذا الجزء من الديموزيا عمن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يرويه المقريزي من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم . وقد فسر المقريزي ذلك بأن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت صلحاً ، وليس الأمر كذلك ، وإنما الحقيقة هي أن هذه الضريبة كانت مقررة جملة على أهل القرية ، وعليهم أداؤها جملة كذلك بصرف النظر عما يصيب الأفراد من موت

ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك « وان تجريه ضرب على القرى ، فمن هرب من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، ومن توفى من هرب منهم لا تسقط عنهم من الجزية شيء »

تلك هي الخطوط العريضة للنظام الذي سار عليه العرب في معالجة شئون مصر المالية ، وهو كما رأينا نفس النظام الذي كان جاريا أيام البيزنطيين والرومان مع فرق جوهري هو أن دافع الضرائب في تلك العصور السابقة على الإسلام كان يدفع في الواقع أكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضعف ؛ إذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستخلصوا لأنفسهم مبالغ جسيمة ، وكان عبء ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الإسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم قانونا فحسب . وسيعرض النظام الذي وضعه المسلمون لأن ديدن الفساد بمرور الزمن . وقد وُجد السبيل إلى الفساد من أول الأمر ، لأن الدولة لم تكن تحصل بدفع الضرائب رأسا ، بل كان اعتمادها على طائفة من كبار المزارعين أو متقبلي الخراج في كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون أموال أهل نواحيهم إلى عمال الكور . وكادت تضطرب الأحوال في العصر البيزنطي من قبل في ضوء هذه الصفة وحدها نشأة ما يسمى Patroni الحمــــاة والحماية ، وكان الحماة يتحكمون في الأهالي Patrocinium

وقد كادت مصر قد غمرت مفتوحة صلحا فقد ظلت رقاب الأرض ملكا للسكان ، فهؤلاء الأولاد يتصرفون حاجة ، نظير التزامهم للدولة بالمال ، فقد كانت عمادها على هؤلاء المتقبلين فهم الذين يقبلون الجبايـة ويضمنون المال ، وشيئا فشيئا أصبحوا أشبه بالملتزمين .

ولقد وصف لنا المقريزي طريقة تقبيل الأرض فقال « إن متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأرض ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتّاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي إليه مبلغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد تتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن يسدده لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج في إبانه على أقساط ، ويحتسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات القبالات والمتقبلين بقايا لا تأخر من بقايا الخراج

سوامي ، وكانت الولاة تستند في طلب ذلك مرة وتستسمح به مرة . ومهما كان هذا هو النظام المتبع في أيام العباسيين ولكنه مقصور فقط على نظام مالي شبيه به . وربما استطعت أن نقول إنه في هذه العصور الأولى كان وثائق الأولية الكبار يستمدون لعامل الكورة مجمع المال

أما جملة المتحصل من هذه الضرائب بشتى صنوفها فمن العسير تحديدها ، فإن التقديرات التي يوردها المؤرخون تتراوح ، فيما يتصل بالسنوات الأولى ، بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونا من الدنانير (والدينار نصف جنيه تقريبا) ويدخل في ذلك ما يدفع نقدا ولا ما يؤدى عينا . ولم يكن هذا المال كله يرسل الى مركز الخلافة ، بل كان معظمه ينفق في البلاد . يستنزل عمال الكور ثم المتقبلون فيما بعد جزءا منه في مقابل ما يقومون به من أعمال التعمير والاصلاح والصيانة ، ويرسلون الباقي الى الأمير ، فيؤدي عددا منه أعطيات الجند وأرزاقهم ورواتب الموظفين والعمال ، والباقي هو الذي يرسل الى مركز الدولة . ولكي نقدر النسبة بين هذا وذاك نذكر أن جباية مصر بلغت في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعة ملايين دينار أرسل اليه منها ... ٦٠ ... دينار وهو ذلك مبلغا ضئيلا . أما متوسط ما كان يرسل الى مركز الدولة بعد ذلك من القرن الهجري الثاني فكان نحو ... ١٠٠ دينار ، وقد ... الى ... ألف أو ... ألف بحسب اتفاقات خاصة مع الأمراء .

وقد كان العرب يحسبونها تحلو مصر بصورة أعم تحببهم منها من الأعراب ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمعون ، بحسب ما يقول المقريزي ، أن فرعون كان يستفضل من مال مصر ، بعد استنزاله شتى أنواع النفقات ، ستة وعشرين مليونا من الدنانير ، ولهذا فقد توجس عمر بن الخطاب بلغه ما بعث به عمرو بن العاص من الجباية وشك في أمره ، وجرت بينهما مكاتبات ذات مغزى عظيم ، لأن خطابات عمر تدل من ناحية على الصورة عن مصر ، وردود عمرو تدل على الواقع الذي كان يواجهه هذا الأمير الذكي القادر . وحين جبى عبد الله بن أبي سرح مليونين زيادة على ما جباه عمرو فرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدث عمرا في الأمر ، فرد عمرو بما يدل على خبرة وبعد نظر ، وكان محقا في ذلك ، لأن المسألة ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وانما المهم هو المحافظة على مورد المال سليما حتى لا ينضب .

والظاهر من هذا النظام المالي الذي جرى عليه العرب في مصر أنهم تركوا الأرض بيد أصحابها من المصريين ولم يعتبروها ملكا لدولة . وقد ناقش الفقهاء في هذا الموضوع وذهب بعضهم الى أن مصر فتحت صلحا وقال بعضهم الآخر إنها فتحت عنوة ، ولكنها

مناقشات فقهية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذي نصبو إليه حسبنا هو أن أرض مصر أجريت مجرى الصلح ، وأن الملكية العقارية ثبتت بيد الأهالي ، وقد نص على ذلك صراحة في معاهدة بابليون ، وأكده فيما بعد كثير من المعاهدات وما جرت عليه المعاملات . وبهذا يختلف الوضع القانوني لأرض مصر عن أرض العراق مثلا ، فقد كانت الأخيرة ملكا للدولة وليس للأهالي عليها إلا حق الارتفاق ، أما في مصر فقد ملك الناس الأرض ملكا كاملا ، إذ وقد دلت الأوراق البردية التي ترجع الى عهد الولاة على أنه كان يحق لأصحابها في مصر التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والرهن والتوريث والهبة » . وقد ترتبت على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما يختص بحقوق الدولة الإسلامية على أرض مصر ، فبينما جرى الخلفاء على منح الاقطاعات والضياع في العراق من أول الأمر ، لا نجد هذه المنح في مصر إلا في حدود ضيقة ، وتنحصر أمرها في تلك الأراضي التي كانت متروكة للدولة البيزنطية ورجالها ، فآلت إلى الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأراضي الأخيرة منحت الدولة منحا من زمن عمر بن الخطاب . تقوم لمنح ولا تقوم لمنع ، لأن المراجع تخلطه وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين اللفظين من خلاف في المعنى القانوني والسياسي . أما الإقطاعات التي ظهرت بمصر بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام في أحوال الدولة الإسلامية نفسها ، ومن الخطأ القول بأنها مستمدة أو متفرعة من هذه المنح .

وقد حصل كثيرون من العرب الذين نزلوا مصر على أراض بهذه الطريقة ، أي أنها كانت منحا من أراض صارت الى الدولة بعد الفتح ، وحصلوا عليها أيضا من أراضي أخرى — التي كانت تسمى أرض الموات — يستصلحونها ، وكانوا يعفون من ضريبتها لمدة ما بحسب ما تقضي به الشريعة في أحكام الأرض الموات ، ثم يؤدون عنها العشر بعد ذلك . وكان المالك العربي أيا كان وضعه يؤدي ضريبة العشر عما بيده ، وكان العرب يسمونها زكاة ترفعا عن دفع الخراج ، ولكنها كانت في الواقع ضريبة عقارية تجرى مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الإسلام أن يعاملوا بالمثل فتسقط عنهم الجزية (بالرؤوس) وضريبة الخراج ، وتكتفي الدولة منهم بضريبة عقارية هي العشر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك حرمان الدولة معظم إيراداتها ، فرفضت الدولة ، بل ألزمت العرب أنفسهم بدفع الخراج كاملا عما يشترونه من أرض الخراج ، فلا تتحول أرض من خراجية الى أرض عشرية . ومع هذا فقد ظل إيراد الدولة في مصر يتناقص حتى أن إيرادها من أرض العرب هبط هبوطا شديدا لأن الدولة وهي مالكة رقبة الأرض ، كانت

ضمع بدى الصبح الاقطاعات للجنود الأخرى من خراجه في عشرته ، ومع بعض القرى .. الآتي ، ويلاحظ ... في الحرو ، كانوا يتناصفون من الريع بخراج ومؤنة ... والمكسوس ، ... النسبة كانت أهم مصر كلها تنحو ... علينا في خراجية

وبوثائق البردية تؤيد كل ما ذكرناه خاصة بمصر ، فلدينا خطابات صادرة من عبد الله بن شريك أحدها مؤرخ سنة ٩١/٧٠٩ يطلب فيه الى أهل شبر شبيرو من كوره أشقوه أن يؤدوا المتأخر عليهم من الجزية نقدا ومن ضريبة الطعام قمحا . وفي خطاب آخر من نفس الوالي الى صاحب أشقوه أيضا يعرب فيه له انه تعذر على الناس دفع ضريبة الطعام قمحا فلا بأس بأدائها نقدا ، ولكنه يطلب اليه أن يجتهد في ارسالها قمحا . بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى أن ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قمحا أو شعيرا ، بل كان من الممكن استبدالهما حسب حاجة الدولة بأشياء أخرى من محصولات الناحية كالعسل والخل والزيت والنسيج والجعة

ويفهم من رواية البلاذري عن يزيد بن حبيب أن قيمة ضريبة الطعام كانت تساوى الجزية ، قال : إن أهل الحصيرة بمصر صولحوا في خلافة عمر بن الخطاب على الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل ...

نص على ذلك يزيد بن حبيب قال : كان على كل حالم منهم ديناران ، فرض عمر بعد ذلك وأضعفه ... ومن الواضح أن الدنانير الأربعة المذكورة منها اثنان ضريبة الرأس والاثنان ضريبة الطعام ، غير أن هذا القدر الذي يحدده يزيد بن حبيب لم يكن ثابتا كما يفهم من النصوص العربية ، لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يفهمونها على أنها كانت ضريبة الرءوس ، مع أنها كانت في الواقع الديموزيا التي أشرنا اليها ، وكانت ضريبة عامة تقابل الضريبة العقارية (ديموزيا جيس) وضريبة الرءوس (ديموزيا دياجرافوس) ، والضريبة الاضافية المعروفة (م ناي) ، وكانت حصيلتها الكلية تقدر على المدينة ، ثم تقسم على الأفراد منها لكل فرد بنسبة القرية بحسب ثروات الأفراد ، فهناك من يدفع دينارا أو دينارا ونصفا أو دينار وثلثا أو ثلثي دينار وهكذا . وقد ذهب المقريزي الى أن الدولة لم تحصل الزكاة الا في عهد صلاح الدين ، ولكن أوراق البردي أثبتت أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا وصال مؤرخ سنة ٦٤٨ ... ٧٩٥ عن زكاة بعض الأشخاص وهذا هو المعقول

ولا شك في أن نظام الجباية كان متناقضا مع الاسلام بسبب دخول الناس في الاسلام واضطرار الدولة الى مضاعفة الضرائب ... ويسر تطرق الفساد الى نظم الجباية من ناحية أخرى ... على أن

الإخشيدي ، فلاحظ فرقا واسعا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين وموقفها منها أيام العباسيين ، ففي العصر الأول كانت مصر ولاية كغيرها من الولايات الأخرى التي يحددها العرب ويسيطرون عليها . كان هناك اهتمام بالأمصار والتمييز بينها الأساطيل وما إلى ذلك . أما في العصر العباسي فقد كان الاهتمام موجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق على مصر وحدها بل على بقية نواحي الدولة الإسلامية الأخرى .

ويلاحظ بصفة عامة أن السنوات الماضية سارت سيرا طيبا حتى نهاية العصر الأموي ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن معظم الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأصالة والكفاية الإدارية ومعرفة بما لا بد منه لصلاح الدولة وبلادها . ثم إن خلفاء بني أمية كانوا على معرفة قوية بهم بحسن تدبير شؤون المال وتدبير ما يحسن اليهم منه ، وكانوا أميل إلى الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت إدارتهم بسيطة لا تعرف كثرة الموظفين وثقل رواتبهم كما سيصير إليه الحال أيام العباسيين . ولا يسمح المقام هنا بالكلام عن ولاة الأمويين في مصر ، فإن الكثيرين منهم يستحقون من المؤرخ وقفات طويلة . ويكفي أن نذكر أن عددهم نحو ٢٨ واليا حكموا نحو ١١٣ سنة ، أي بمتوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد طالت مدة بعضهم حتى زادت على عشرين سنة ، ولم تقصر مدة ولاية الآخر إلا أن نذكر هشام بن عبد الملك ، فإنه كان عظيم الاهتمام بشؤون مصر . وهذا عهد فضيلة الحكم على عامله الحجاج وخاصة عبد الله بن الحبحاب ، فقد عرف هذا الأخير في الأمور حتى عرف منهم أربعة رأيه ، ولم تطل مدة العباسي وهو الوليد بن رفاعة إلا بعد أن تطوى تحت جناح بن الحبحاب .

وكان الكثيرون من هؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموي ، وأهمهم عبد العزيز بن مروان الذي تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ إلى ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ ، وكان من خيرة الولاة وأحسنهم . إن أعظم أولئك الولاة جميعا فهو عمرو بن العاص دون شك ، فقد فتحها وولاها أول مرة من ٢٠ إلى ٢٤ هـ / ٦٤١ — ٦٤٤ ، ثم عاد إليها وولاها مرة أخرى من ٣٨ إلى ٤٣ هـ / ٦٥٨ — ٦٦٣ ، وهو من مؤسسي مصر الإسلامية ومن وضعوا قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا واسع الحيلة فاهما لشؤون الإدارة والمال ، وكان له فهم عميق بطبائع الناس وقدرة على كسبهم إلى جانبه . وقد توثقت العلاقات بينه وبين المصريين وطالت ممارسته شؤونهم حتى أصبح وكأنه مصري يناضل عن حقوق المصريين ، ومواقفه من عمر بن الخطاب في ذلك معروفة ، وهو من غير شك من رجال مصر الإسلامية وأبعدهم أثرا في تاريخها . وكانت مصر أبعد أثر عنده في حياته

فتح مصر هو الذي سيؤدي به الى نصف الأمر من خلال الدولة الإسلامية بحسب صحيح بعد قليل من رجالها معدودين وقد تعلق فيه بمصر فلم يجد بدا من تعيينه عن ... فيه لا الحوزة إليها ... الشيء في معاوية فقام بدوره ... وهنا في الفتنة التي أعقبت مقتل عثمان ولو تركه عثمان بن عفان واليا على مصر ، أو من ولاه بعده علي بن أبي طالب ، لاتجهت الحوادث في دولة الإسلام وجهة أخرى . وقد عرف مؤرخو مصر بعد عمرو للأحاديث بما له من التقدير والإعجاب والتحمس للدفاع عنه ، وإليهم يرجع الفضل فيما يحتله عمرو من المكانة في كتب التاريخ والصحابة .

ومهم لدينا أنه وضع من بعده تقليد العناية بشئون البلاد ومرافقها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو سار من جاء بعده من ولاة الأمويين . فلما جاء العباسيون تغير الأمر جملة ، وتمهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد من بعده .

وقد انحسرت بوادر هذا التغير من أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٣ — ٧٧٥ م) فقد بدأ يظهر بوضوح تركز اهتمام الخلافة في شئون المال ، ولو مكن هذا التغير ، فاقتصر على مصر بل شمل الدولة الإسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية احتاجت منذ قيامها الى أضعاف ما كانت تحتاج منه الدولة الأموية والسبب الأول في ذلك هو التغير الأساسي العسكري الذي كانت الدولة تقوم عليه ، فبينما كان عماد الدولة الأموية قائما على جند الشام من العرب من قيسية وكلبية ، أصبح العماد لدولة العباسية على الخراسانيين . وكان الجندي المصري أيام الأمويين يكتفي بما تفرضه عليه أجناد الشام (أي كبار القادة العسكريين) ، فقد كان خراجها القطائع عسكريا لهم ، ومع فضل من ذلك من إيراد الولايات كان يعطي لنفقات الخلافة وتجهيز الفاتحة ، ويبقى بعد ذلك منه جملة صالحة ينفق شيء منها في منشآت وبنايات ويدخر الباقي . وكانت جيوش الدولة في الولايات تنال أرزاقها وأعطياتها من الإيراد المحلي ، ولم يكن للدولة الأموية في الحقيقة جيش دائم ، فقد أمن بنو أمية جندهم في الشام وسرحوا معظم القوى العسكرية تتسع في كل وجه .

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يحميهم ، فاستنفدت نفقات هذا الجيش معظم إيرادهم ، لأنه كان جيشا مرتزقا طامعا يحتاج الى المال الكثير ، ثم إن الإدارة العباسية اتجهت منذ أيام المهدي الى الإسراف والأبهة وتعقدت الإدارة وتضخم ديوانها ... فيها كل مستويات الإدارة ... بها لتعقيده . هذا العجز المالي يظهر من أيام المهدي ، ويحس به الرشيد حينما

واضحا وسعى لعلاجه ثم خرج الأمر عن المضيف جملة من نظام تعصيم وأصبحت الدولة العباسية في الواقع دولة ضعيفة تدب فيها الخلفاء وتزور في مدى ثم إهلاكها بوسائل غير طبيعية ، وبعد من أيام بواكي هذه المشكلة المالية مرضا عضالا لا سبيل إلى علاجه ، وهي سخرة المعز المالي معصب خلافة بني العباس شيئا فشيئا قبل أن تنحطم إدارة وسياسة

وقد يصل بمصر بدأ هذا التحول الخطير من أيام أبي جعفر المنصور ، فقد فكر في أن يضمن خراج مصر ، أي يبحث عن رجل يضمن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على واليها محمد بن الأشعث أن يضمن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث خشية العجز ، فألزم الخليفة على الخراج رجلا خاصا هو نوفل بن الفرات ، وأصبحت مطالبة الخلافة بالأموال تشتد ، وكثر عمال الخراج إلى جانب الولاة ، ولعبت ثمة الخلافة في هؤلاء فأخذوا يعزلون ويرسلون ، فتولى مصر للمنصور ثمانية ، وللمهدي تسعة ، وللرشيد ثلاثة وعشرون ، وللمأمون سبعة عشر وهكذا . وبدأ الناس يشكون من ثقل الجبايات بل يثورون بسببها ، واحتاج الولاة إلى القيام بحملات عنيفة على الثائرين لجمع ضرائبها . وفي القرن الثالث الهجري نجد الإدارة تستخدم القوة والضرب في استخراج الأموال ، وأصبح الولاة في الحقيقة مشتاقا للخراج ، وكان الخلافة تطلق أيديهم فيعملون ما يريدون حتى يحصلوا ما تحتاجه منها ، وتستدعي الولاة من آن لآخر لكي تكرههم إلى أن يمكنهم ... بالعقوبة والرهبة ، وتمهيد الطريق للاستبداد رجل كأحمد بن طولون يضمن مصر على أساس ضمان مبلغ معين للخلافة

الإسلام والتعريب

على ذلك تركت هذه الناحية المالية جانبا ، وهي حجر الزاوية في البناء الإداري لمصر في عهد الولاة ، وجدنا أمور المصريين تجري في مجراها العادي بعد الفتح مباشرة ، وكأنما لم تتغير الأحوال ولم يذهب رجال ويحل رجال ، وتمر البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح في هدوء يستوقف النظر ، وربما كان ذلك نتيجة لما عاناه المصريون من متاعب وقلاقل خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فقد نغص أكثر من عشاء البيزنطيين مالوا إلى الدعة والسكون كأنهم يستجمون . ثم إن العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا في شغل بفتوحهم وغزواتهم ، فقد كانت الدنيا قد فتحت أمامهم من كل وجه ، فمضت جيوشهم لتفتح شرقا وغربا ، وأقبلت خلف الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر في البلاد المفتوحة

ففي خلال الخمسين السنة الأولى من تاريخ الإسلام نشر عشرات الألوف من العرب المهاجرين في العراق وفارس ومصر

والمغرب والأندلس ، كانت الأخرى وصلته وفي حاجة شديدة لأن تمد العرب المهاجرين وكان جانب كبير من أراضي هذه النواحي مهملة الأهمال ، وكانت في حاجة الى نظام إداري مستقر يطمئن اليه الناس والى أمد كاف يسوده . فأما الاستقرار فقد أتى به الفتح الاسلامي وأما الأيدي العاملة فجماعات العرب المهاجرة التي أشرنا اليها . وهنا نجد عرب اليمن يقومون بالجانب الأكبر من ذلك العمل ، واذا كان عرب الشمال — وفي مقدمتهم قريش — قد حملوا عبء الفتوح واشتغلوا بالسياسة والادارة ، فان عرب اليمن عرفوا كيف يعمرون الثمرات ، فقد كانوا شعبا ميالا الى الاستقرار له عهد بعيد بالزراعة وما يتصل بها من أعمال الحضارة .

فعقب فتح مصر مباشرة نجد طوائف من الأزد تحملها فرقا وتستقر في نواحيه ، وتسرع اليه جماعات أزد اليمن ، فيكثر عددها حتى غلب على أرض السواد ، ثم رحلت فروع منها عبر صحراء فارس الى ايران ثم استقرت الى خراسان ، وشيئا فشيئا أصبحت هذه النواحي وكأنها مستعمرة يمنية تعدت زعامتها جموع أزد اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا في الشمال جميعهم فكادوا يغالبونهم في القبيلة . وبدأ التنافس بين اليمانيين ، ثم نشب بين صراع دموي انتهى بانتصار جانب العرب في فارس وخراسان . فقد ساد ثم بعد هذا نجاح شرقي من دولة الاسلام في منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى بدأت اللغة العربية تحل محل الآرامية تحت هذه الأخيرة تعود الى مكانها في نهاية العصر الأموي ، ثم انتهت سيادة العرب والغلبة العربية بمجيء العباسيين وانتصار الخراسانيين على العرب . وبدأت الفارسية تغلب على اللغة العربي الباقي هناك حتى نسي الكثير منهم لغته وأخذ يتكلم الفارسية .

وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في مصر لولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك ، ولم تبلغ القبيلة في مصر شيئا يمكنها من منافسة الكتبة ، فخلا الميدان للعرب لهذه الأخيرة ، فسارت في طريقها محتفظة بعروبتها وهيبة العروبة والعرب أمام السكان ، وتمكنت من نشر العربية والاسلام ، كما حدث في المغرب والأندلس .

كان معظم رجال الفتح العربي الفاتح من عرب اليمن . ونستنتج ذلك من أسماء القبائل التي نزلت الفسطاط والمدن بعد حينا ، أي أحياء . فاذا استثنينا نفرا من قريش ، وكان عددهم قليلا . وجدنا أنفسنا أمام أغلبية يمنية تستوقف النظر : مهرة ، تجيب ، لخم ، جذام ، بنو بحر ، غافق ، حضرموت ، يحصب ، معافر ، سبأ ، بنو وائل ، مذحج ، حطيب ، سكاسك ، خولان ، الصدف ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أنه كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنوبي المستقرين في سيناء وشرقي الدلتا وصحراء مصر

الشرقية عمر أنسب مهجر الى قبيلة من هذه
منه عشيرتها ، الا تدرج تحت جماعة
عامة كانت تجمع أفراده من القبائل ، فسميت
أهل الراية . وكانت هنالك بعض جماعات
قيسية قليلة ، وكثير من العرب الذين كانوا
يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون
الحمراء ، وعدد قليل من بقايا فرس اليمن
الذين استعربوا وكانوا يسمون الفارسيين

وعلى طول العصر الأموي كان تيار
الهجرة العربية نحو مصر مستمرا ، ويبدو أن
غالبية المهاجرين كانوا كذلك من يمن . وقد
بلغ من أمر اليمنية أن من ولي مصر من
القيسيين كانوا يحرصون على أن يتقووا
باستقدام قبائل قيسية الى مصر ، حدث ذلك
في أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن
رفاعة وولاية عبيد الله بن الحبحاب على
الخراج ، فكثرت جماعات القيسية بمصر ،
ولكنها لم تسكن الفسطاط ، وانما شرقي
الدلتا حوالي بلبيس أولا ثم انتشرت شمالا
وجنوبا حتى عمرت ما عرف بالحوف الشرقي ،
وتركت كذلك في غربي الدلتا ، فيما يعرف
الآن باسم البحيرة وعرف بالحوف الغربي
أي أن كتلة كل جذم من جذمي العرب
الكبيرين نزلت في ناحية غير ما نزلته الأخرى ،
وربما كان هذا هو السبب في أنه لم يقع
بمصر مثيل النزاع الدموي بين قحطان
وعدنان الذي قضى على سلطان العرب
في فارس ثم خراسان وكاد يقضي عليه في
الأندلس

وقد حرص عمر بن الخطاب على حفظ
العرب بعيدين عن الاستيطان بالأرض المفتوحة
والانصراف الى حرفة أخرى من حرف
الحياة ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب
عامة ، لأن التحريم يقتضي الحجة الشرعية
وينبغي ، أن على عامة العرب غير محصور
أو ممكن . وينبغي أن نذكر أن العرب
لم يكونوا جميعا جندا مقاتلين ، فكيف يحرم
عمر العمل على عربي غازي مهاجر بنفسه
وأهله الى بلد كمصر يريد أن يعيش ؟
من الطبيعي أن تكون قد وجدت في مصر
وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هي التي
اشتغلت بالزرع والضرع وشئون المعاش دون
أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر ، وهذه
الجماعات يصعب احصاؤها ، وهي التي
نشأت من أول الأمر بين الأهلين في كل ناحية
واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر
في تعريب ألسنة الناس وتحويلهم الى
الاسلام ، لأن الجندي العربي ظل منعزلا
بنفسه في معسكراته ، وأسيرها الفسطاط ،
وبذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس ،
ومن هنا كان دوره في التعريب وادخال الناس
في الاسلام قليل .

وسواء بحثت في العراق أو في مصر
أو الأندلس ، فان عدد القلة المعنية من
هؤلاء الذين نشؤوا بين ناس كانوا من عرب
البيوت أول الأمر ثم ما تغلب الأخلاط على
من هم في معسكرات الحامية العربية ، والزرع

يهاجرون الأمر منهم ... إلى الأنحاء ... ميدان السياسة، و ينصرفون إلى مطالب العيش والكسب، يعملون في صنعة الحياة ... وكلما أسرع فريق من العرب في ذلك الانصراف انصرف قرانه إلى طلب العيش في الأمصار و إلى الإقامة في الأرياف. وبهذا كانت السياسة تلقي في ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد فريق، وهذه الجماعات المنهزمة هي التي حققت للإسلام والعربية نصرهما الحقيقي في بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس، ومن أفرادها تكونت معظم الجماعات التي اشتغلت بالعلم و تدريس في مراكز الدولة والأمصار.

وبهذا نرى خطأ أن يقال إن العرب بدأوا يتعدون عن سياسة تقريب من الاختلاط بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلا، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدأت منذ البداية. وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم أو اعتزازهم بها، بل حافظوا الناس محتفظين بشعورهم العربي، و تزاوجوا منهم وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية، فأولاد المصريين عرب، ومن ثم فإن آحاد العرب في النواحي ذابت في البلاد، و ... فيهم ... مصرية وسادته تحكم الدين والأصل واللغة. وهذه الاعتبارات كانت مما يجب إلى الناس الانتساب إليهم، ودخول الإسلام واتخاذ صفة عربية، بل اصطناع أنساب عربية.

ومن هنا كان من الصعب تتبع حركة الإسلام والتعريب لا في مصر وحدها بل في نواحي الدولة الإسلامية الأخرى، فهي عملية بطيئة بدأت منذ البداية ... ثم مضت ... ، وتم بعضها هنا وهناك ... أسباب ... أو عطلتها أسباب ... ولكنها مضت في طريقها. ففي فارس مثلا نجد الإسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية، وفي الأندلس يسير الاستعراب بأسرع مما سار الإسلام، وفي مصر سار الأمران جنبا إلى جنب لأسباب تتصل بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس يتكلمون بها في مصر عندما دخلها العرب.

فأما فيما يتصل بالمسيحية، فلقد كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغا عرض أصول العقيدة النصرانية للإبهام والغموض في نظر الناس، ولم تكن العقيدة المسيحية إذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد، وكانت المجامع الدينية تسعى نحو التحديد وتعمل على التقرير، ولكن شئون المجامع شابتها أهواء الأشخاص وعصبيات النواحي، وأفسد أمرها تدخل الأباطرة لأغراض سياسية حينا ومذهبية حينا. وكانت مصر من بين البلاد ... ، فقد ... في ... مصطلحات العقيدة ... واحد ... المباركة ... على الاستقلال ... وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح،

وقد كسب رأي المصريين نصراً كبيراً في الشئون الدينية المصرية في القسطنطينية نفسها، واستطاع بطاركة عظام من أمثال ديوسقورس وكيرلس الإسكندري أن يكسبوا انتصارات كبرى في المجامع الدينية، واستغلت القومية المصرية أثناء هذا الصراع حتى أصبحت المونوفيزية — وهي تعرف باليعقوبية أيضاً — مظهراً من مظاهر القومية المصرية.

وقد لجأت الدولة البيزنطية إلى سياسة العنف، وبذلت أقصى جهدها حتى تفرض على رأي المصريين في مجمع خلقيدونية، الذي سمي في كتب التاريخ القبطي بمجمع اللصوص. ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصالاً روحياً تاماً عن كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما أيضاً، واتخذت الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين كل وسائل الاضطهاد لتصرفهم عن عقيدتهم دون جدوى. فلما غزا الفرس مصر نفر المصريون منهم أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة، ولكنهم أحسوا لأول مرة بفضل الاحتلال بكيانهم في ظل الدولة البيزنطية التي لم يعرفوا في أيامها إلا المتاعب والاضطهاد. فلما خرج الفرس وعاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب، ومضت الدولة بذلك الأسقف المتعصب قيرس يقضي على مقاومة المصريين ويهدم كنائسهم.

وقد كان نتيجة هذا الصراع الطويل ما نجده من تلك الأفكار حسب المذاهب الكثيرة التي تفرضها الدولة عليهم في الفترة بين عهد وآخر، واضطهاد حال الدولة في فرض هذه الآراء، وكان نتيجة ذلك كله أن ضعف أمر المسيحية في مصر ضعفاً شديداً، وتذبذب أفكار الناس، بحيث لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل، حتى ذهب بعض مؤرخي المسيحية إلى أن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية، وقال بتلر: «إن المسيحية لم تغير شيئاً من روح الجنس المصري، ولم تصل إلى التأثير في الحياة الخاصة للأفراد، ولم تحول الأرواح تحولاً صادقاً إلى المسيحية». وقال جاستون فييت: «إن الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الديني. إن نصرة الأقباط للعرب على منازعات عقيدية مع البيزنطيين، وبسبب تسلطهم منذ زمن مبكر معارضة للقوم على كبريائهم، بل ربما استطعت أن تقول إنا نلمح عندهم شعوراً قومياً سلبياً. وقد ظهر هذا الروح القومي المصري بأجلى مظاهره بعد مجمع خلقيدونية. وكان هذا من الوضوح بحيث يمكن لنا أن نتساءل عما إذا كان مذهب الاتحاد المونوفيزيتي في حقيقته نزعة للاستقلال الذي يعبر عن أنه نحو انفصال سياسي».

هذه الأمور كلها لا تعود على عهد المسيحية المصرية القديمة ، ومجامع مختصة حال مصر به خلال القرن السادس أو أوائل السابع الميلاديين ، فالواقع أن المعتقدات المسيحية نفسها كانت الى ذلك تعانى في دور التكوين ، وكان الأساقفة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها ؛ أما الرجل العادي فكان في حيرة من أمره ، لم يستقر بعد على شيء واضح فيما يتصل بأصول دينه ؛ وكانت آثار الوثنية باقية ما تزال تختلط بصورة مسيحية عند معظم القوم . وقد أثبت في دراستي لفتح العرب للأندلس أن نواحي كثيرة من شبه الجزيرة الإيبيرية كانت لا تزال على وثنية ، ويصدق هذا على مصر ، فمن المغالاة أن نقول ان أهل القطر جميعه كانوا في أوائل القرن السابع مسيحيين ؛ أو أن المسيحيين منهم كانوا عارفين بأصول العقيدة وشرائعها ، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة في مصر ؛ مثل الاسكندرية وبابليون وطيبة ، في خلاف بعضها مع بعض .

وكان الرأي السائد عند زعماء الأقباط قريب جدا من الإسلام ورأيه في السيد المسيح عليه السلام ؛ ولم يكن من الصعب لهذا أن يتحول الكثيرون منهم الى الإسلام دون جهد كبير ؛ خاصة وأن الإسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، اقتنع الناس انه لا يحتاج الى شرح وتفصيل طويلين ... هو بالنسبة للمسيحي مصر والشام ، ومن المهم في ذلك الحين كان مزيجا من شتى المذاهب المختلفة ، ومن كل الفرق الموحدة والمشبهين ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا في الإسلام اذ ذاك الا مذهبا جديدا من مذاهب المسيحية والانتقال مما كانوا عليه الى الإسلام لم يكن في نظر الكثيرين منهم خروجا من دين الى دين ؛ فاذا أضفنا الى ذلك ما أصاب كنائس الأقباط من هدم ورجال دينهم من اضطهاد وتشريد على أيدي البيزنطيين ، بحيث باتت الكثير من النواحي بلا كنائس ولا قساوسة ، تصورنا سهولة تقبلهم لهذا الدين الجديد .

ثم ان الدخول في الإسلام ينقل المصري أو المغربي أو الأسباني الى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة ، ويعفيهم بنجوة من المهانة الخاصة التي كان بعض العمال يخصون بها الذميين . وقد أشار المقريزي اشارة غير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب في الأرياف وانتشار الإسلام فيها ؛ قال : « ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول قيسا بالحوف الشرقي ؛ فلما كانت المائة الثانية من سني الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

ونحن نرى بعد هذا أن نقول ان مراكز تجمع العنصر العربي في الفسطاط والاسكندرية والحوف مثلا ، لم تكن بذات أثر كبير في

انتشار الإسلام في البلاد . ونحن نعتقد هو الواقع ، لأن هذه المراكز كانت مراكز عربية صرفة لم يخالطها غير من المصريين ، ولكنهم لا يستطيعون بحكم الاتصال الذي يؤدي إلى التفاهم وتبادل الآراء والمعتقدات فقد كان الفسطاط مثلا معسكرا لا يدخله أهل البلاد ، ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منها خاص بقبيل من العرب ، وهذه الأحياء هي التي تسمى الخطط ، وفي الإسكندرية عاش الجند العربي في مساكن خاصة به عرفت باسم الأخائذ ، وكذلك عاش العرب في « الجيزة » الذي اتخذوه إلى حصن ، وسموه حفظا نسبة خطط الفسطاط ، وقد ظلت هذه المعسكرات مقفلة على من فيها زمنا طويلا ، فلم تكن بذات أثر في انتشار الإسلام ، إنما كانت ذات أثر في انتشار العربية وثقافتها ، فقد كانت مراكز عربية صرفة ، ونشأت في الفسطاط بصفة خاصة مدارس علمية ودينية كان لها أبعد الأثر في تعريب ألسن الناس ، وفي جعل مصر مركزا من مراكز الثقافة العربية الرئيسية

وانتشرت العربية جنبا إلى جنب مع انتشار الإسلام ، وقد ساعد على الانتشار أن المصريين في ذلك العهد لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها في كل مكان ، فقد كانت اللغة القبطية ذات لهجات في صور مختلفة كانت كلمات أوربية مثلا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ... لهجات لاصقة بمحلة بمرتبة ملابسة العصور ... Latin bas ... لا نحو لها ولا صرف ، أعارت عليها لغات الجرمان في كل ناحية ، واختلفت جميعها بذلك ونشأت منها لهجات في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى تكاد اللغة المحلية ، سواء أكانت فرنسية أو اسبانية أو جرمانية ولم تكن لهذه اللغة المحلية صورة ثابتة بمعنى الشيء إلا في بعض الكنائس وربما كتب بعض قساوستها لهم ، حتى في هذه الدوائر القليلة ، تأثرت تأثرا عظيما باللغة الإغريقية ، بل فضل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالإغريقية

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالإغريقية أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة ولا في الكلام

ثم جاءت اللغة العربية لغة كاملة غنية قادرة على التعبير عن كل شيء ، ولها كتابة ثابتة معروفة ، ثم هي لغة الإسلام والقرآن والحكام ، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون مشقة وأصبحت لغة على ألسنة أهل الوادي وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على المغرب والأندلس أيضا . وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في مصر دفعة واحدة ، وإنما نحن نبسط الأسباب التي مهدت للمصريين لأخذها ، أما انتشارها بصفة عملية بطيئة ... على مر السنين . وإذا نحن قرأنا كتاب « ... القضاة والولاة » للكندي استطعنا أن نسمع بعض خطوات

عهد الاخشيد ، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يوردها [illegible] في أخبار القضاة . ونجد بعضهم من كلام [illegible] أن اللغة العربية لم [illegible] لغة أهل مصر جميعا حتى القرن السادس الهجري ، فنحن [illegible] مثلا [illegible] من أن [illegible] في مصر لا يفهمون [illegible] معرب [illegible] المعجم – من ابن [illegible] صاحب « هز القحوف » يعرف ان الفلاحين في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أيامه بلهجات خاصة بهم .

وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما عظيم الأثر في انتشار الاسلام واللغة العربية في مصر . الأول قرار عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م بتعريب الدواوين ، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط ممن كانوا يشغلون الوظائف الى الدخول في الاسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم . نعم ان قرار عبد الملك لم يطبق بحذافيره ، وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف عامة ، ولكن معرفة العربية كانت شرطا لازما لاحتفاظهم بهذه الوظائف . والأمر الثاني هو قرار المعتصم باسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطياتهم [illegible] ولاية [illegible] بن عبد الله [illegible] سنتي ٢١٨ – ٢١٩ هـ / ٨٣٣ – ٨٣٤ م ، فقد [illegible] العرب [illegible] أعطياتهم [illegible] الأقباط [illegible] وراء الخبز [illegible] ، و [illegible] على [illegible] وأملاكها .

ويبدو أن اندماج العرب في الجماعة المصرية كان [illegible] ، [illegible] لم [illegible] عرب مصر [illegible] أنسابهم ، لا [illegible] لا [illegible] من [illegible] لم يرد عددهم على خمسمائة ؛ فضلا عن [illegible] و [illegible] كل شيء . وقد [illegible] من شواهد القبور أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان ، فكانوا يحرصون على أن يكتبوا على شاهد القبر – الى جانب اسم [illegible] – القبيلة التي ينتسب اليها ، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجري ، وأصبح الناس ينسبون الى أقاليمهم .

وعلى أي الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها تماما خلال القرن الرابع الهجري ، حتى نجد كتاب الأقباط – مثل سعيد بن البطريق وساويرس الأشمونيني – يكتبون بالعربية ، وكانت كتاباتهم موجهة الى الأقباط ؛ فلو كانت القبطية أجرى على ألسنتهم لكتبوا بها ، [illegible] كتبوا بالعربية ، فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت [illegible] [illegible] [illegible] أكثر [illegible] على [illegible] ، ولا [illegible] الكثيرين من أهل [illegible] ظلوا يحافظون [illegible] ، ولكنها كانت في طريقها الى الزوال ، حتى لم يبق منها

في مطالع العصر الحديث إلا طابعا بسيطا في دوائر ضيقة .

ويلاحظ إلى جانب ذلك أن هذه العملية تمت في مصر دون عنف أو ضغط ، بل لم تكن نتيجة سياسة خاصة للدولة الإسلامية ، فإن الدولة لم تكن لها سياسة معينة في نشر الإسلام أو اللغة . وكان ذلك من حسن الحظ ، فاختار الإسلام من اختاره طائعا من الأقباط ، وتعلم العربية من تعلمها من تلقاء نفسه بدافع من مصلحته . بل إن المتتبع لأخبار مصر ، خلال القرن الأول الذي تلا الفتح ، يلاحظ أن كانت سياسة الحكام داعية إلى إحياء المسيحية المصرية ، فقد قطع العرب صلة مصر بالدولة البيزنطية فتنفس المونوفيزيون الصعداء ، وأقبلوا يرتبون ما وهي من أمور عبادتهم وكنائسهم ، وتركهم العرب يمارسون شعائرهم الدينية كيف شاءوا ينتخبون البطرك الذي يريدون ويعيدون بناء الكنائس المتهدمة ، بل يبنون كنائس جديدة ، ويزيدون الأساقفة الأفريقية عن تراجم وتراجيهم بيعملو معلهم أسماء لبعة

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية إلى الآن إنما بنيت أيام الأمويين ، مثل كنيسة أبي سيفين وكنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ومارجرجس ، والكنيسة المعلقة ... وقد يأتي ... إليها ، بل كان كبار الفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة يرحبون على ذلك ويقولون إنه لا بد من عمارة البلاد . ولم تطبق على أقباط مصر القيود الخاصة بالملبس والركوب والبناء في الكنائس التي ينسبها فريق من الفقهاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إلا في مناسبات قليلة ، ولا نكاد نجد واليا متشددا في هذه الناحية الإسلامية وإلى منتصف عصر العصر يعيد أمر الأقباط إلى ما كانوا عليه فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه في مصر في سلام حتى نهاية العصر الفاطمي بل بعده ، وإن كان قد ضايقهم بعد ذلك حيث فقد أصحاب المسيحيين مثله ، وكان الرعايا جميعا مسح حكامهم إلى نهاية القرن السادس الهجري ، مسلمين وغير مسلمين .

ومع هذا لا ينبغي أن نعطي مدلولا خاصا لما يصفه بعض المستشرقين من ثورات الأقباط على حكام المسلمين . ولو أن أحصينا ثورات المسيحيين أنفسهم على حكامهم لوجدناها أكثر وأبعد مدى ، خاصة وأن هذه الثورات لم تلفت والأخيرة منها جديرة بملاحظتها إلا في عصر بني العباس . وأسباب هذه الثورات كلها مالية ، وهي صورة من المتاعب المالية التي ارتبكت الدولة العباسية بها . ويكفي أن نذكر أن أكبر هذه الثورات كانت في سنة ٢١٦/٨٣١ أيام المأمون . وهي الثورة التي أقلقت المأمون وجاءت به إلى مصر لإخماد أمرها ... هذه الثورة التي عمت الوجه البحري كله ثورة اشترك بل سارع فيها العرب أنفسهم ، بل أن الحبيب

الذي دفع منه كان عاما على الجميع ، وهي سخطة مدمرة شاملة تعصف عسفه ولاة أخوة تحيفه لأموال أهل القسم العربي من دونه بني العباس . وقد رفض معتصم فائقه الوضعي فأخمد ثورة العرب المشتركين في الفتنة ، ولم يتخلص منه إلا أهل البشرود ، وهي ناحية شمال الدلتا جنوبي بحيرة البرلس ، وكان أهلها ذوي عنف وشدة ، يعتصمون بمستنقعات مواضعهم فلا يصل إليهم أحد . وكانوا في حالة ثورة دائمة ضد الحكم العربي ، وقد حاول المأمون الاستعانة فيهم بالنفر من بطاركتهم دون جدوى ، فوجه كل قوته نحوهم حتى أخضعهم في أواخر سنة ٢١٦ (أواخر سنة ٨٣١) ، وكانت هذه آخر ثوراتهم ولثورات الأقباط أيضا . وفي أثناء زيارة المأمون هذه لمصر حدثت قصة الشريفة مارية القبطية بقرية طاء النمل ، التي استضافت المأمون وأصحابه وقدمت له هدية عشرة أكياس من الذهب ، وتلك رواية المقريزي في خططه ومهما استبعدنا من مبالغاتها ، فهي تدل على رخاء هذه الناحية من نواحي شرق الدلتا في تلك الأيام . وبين هذه الثورة وقيام دولة أحمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثمان وثلاثين .

الأحوال العامة — الزراعة والصناعة والتجارة

هكذا عرفت الأحوال في مصر بعد الفتح الإسلامي عامة ... ذهبت شئونها وأمر أهلها وحسب أحوالها خلال العصر الأموي ، ثم بدأ نصيبها مما أصاب غيرها من نواحي الدولة الإسلامية من الاضطراب والضيق ولمس شدته في العصر العباسي . ولكن الأحوال على العموم سارت سيرا حسنا معقولا أقبل المصريون على عملهم الأبدي في الأرض معتمدين على عدالة الحكم الإسلامي ، ولا حاجة بنا إلى تعداد محاصيلها ، فهي هي التي عرفها في كل أعصرها القديمة والوسطى ونكتفي بالإشارة إلى الكتان ، فقد كان — بعد القمح — أهم محاصيل مصر الاقتصادية ، وكان المصريون ينسجونه في نواح شتى اشتهرت بالنسيج . وكانت المنسوجات الكتانية المصرية مشهورة في العالم الإسلامي كله ، ولما كان القطن والحرير قليلين فقد كان نسيج الكتان هو الغالب ، وكان المصريون ينسجون منه نوعا عاديا رخيصا لعامة الناس وأنواعا أخرى رقيقة غالية يباع الدرهم من بعضها بدرهم فضة ، وقد اشتهرت بهذه الأنواع الرقيقة الاسكندرية وتنيس ، وكان نساجوها يخرجون ثيابا غاية في الرقة يسمى الواحد منها البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمة هذه الثوب ألف دينار . وكان أهل دمياط ينسجون نوعا يسمى القصب ، يقال إنه كان نوعا من الدمقس . واشتهرت بالنسيج أيضا شطا ودميرة وتونة ، وكلها

ودبيق وتنيس ودمياط . وكان الصوف والقطن يستعملان بالبهنسا والفيوم والأشمونين وجميع والهناس وبوصير قوريدس من بلاد مصر السفلى ، واشتهرت جميعها خاصة بالحرير

ويبدو أن الحكومة كانت تحتكر أنواعا من النسيج ، وقد ورثت الإدارة الاسلامية في مصر ذلك من الإدارة البيزنطية التي كانت تحتكر الحرير . وكان النساجون المصريون يخرجون ما يصنعونه ملونا وساذجا (وهذا أصل لفظ « ساذة ») وقد يسجلونه بخيوط الذهب والفضة ، وقد يزينونه بالكتابات . وكان النسيج الذي يخرج من المناسج التي تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها القصبة الخاصة بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع النسيج ، فكان يقال « طراز العامة » أي مصنع عام ، و « طراز الخاصة » أي مصنع مملوك للدولة . وعلى الجملة فقد كانت مصر أعظم مركز للنسيج في العالم الاسلامي ، ومن مناسج مصر يلبس الخلفاء والأمراء ، ومن مصر كان التجار يحملون النسيج في كل وجه . وكانت كسوة الكعبة تصنع في مصر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك إلى الآن عاما بعد عام .

ويلي النسيج في الأهمية من صناعات مصر صناعة السفن ، فقد دلت الأبحاث على أن مصر كانت دار أعظم مركز لها في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والأساطيل بعد فراغهم من أمر تحصين سواحل البحر الأبيض التي تحت سلطانهم ، وإقامة المحارس على سواحل ومسالكها بالقافلة ، وإقامة « المناظر » وهي أبراج لقيام مراقبة الشواطئ ، وتنظيم « المواقيد » وهي مواضع توقد فيها النار للإشارة ، ففي مصر مثلا كانت الإشارات بالمواقيد تنتقل من موقد لموقد حتى تصل الأخبار من الساحل إلى الفسطاط في زمن قليل . ثم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص في مصر ، فحفر العرب خليج أمير المؤمنين ، وهو قناة تخرج من النيل شمالي الفسطاط وتصل إلى خليج السويس عند القلزم ، والغرض منها نقل السفن التي تحمل القمح وما إليه من الفسطاط إلى القلزم ومنها إلى الحجاز ، وأنشأوا بذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، وبها سميت بجزيرة الصناعة ، وقد أظهر المصريون براعة فائقة في بناء السفن ، حتى أصبحت مصر . ثم خطت بعد ذلك خطوة أخرى فأنشأوا سفنا كبارا تخوض المعارك البحرية

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن جزءا من اهتمامهم العام بحريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل في ذلك بحركة معاوية بن أبي سفيان فقد اهتم اهتماما بالغا على التقدم بإنشاء السفن في موانئ الشام اهتمامه أخذت الدولة تبسط نفوذها على

امر الخليفة هشام أن تقضي على تلك القوة البحرية الإسلامية في مهدها ، فتصدى له المسلمون ، وهزموا الأسطول البيزنطي هزيمة منكرة في موقعة ذات الصواري ٣٤ هـ ٦٥٥ التي حسمت سيادة الحوض الشرقي للبحر الأبيض الى أيدي المسلمين . وكانت نواة الأسطول الإسلامي الذي كسب هذا النصر شامية ، ولكن الفرقة الحاسمة كانت من مصر فبينما سار معاوية بسفن الشام الى ليكية بآسية الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان يقودها بحارة من المصريين ، بل كان من بينها سفن ليس فيها الا القبط وكانت هذه الموقعة حافزا للمسلمين على الاهتمام بشئون الأساطيل ، ويبدو أن دار الصناعة في جزيرة الروضة قد أنشئت في عهد معاوية على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذري « انه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم سواحل الشام ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبي سفيان بإنشاء دار للصناعة في عكا » . وظلت مصر طوال العصر الذي نتحدث عنه في هذا الفصل مركزا من أهم مراكز بناء السفن ، وظل عمالها مشهودا لهم بالتفوق في انشاء السفن البحرية حتى كان يستعان بهم في كل ناحية من نواحي المملكة الإسلامية .

وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم أشقاو ، والتي ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك ، ان صناعة السفن كانت مزدهرة في مصر ، في جزيرة الروضة وفي القلزم والإسكندرية ، فتقدم تلك الأوراق أدلة على أن الوالي قرة بن شريك كان كثيرا ما يطلب من صاحب كورة اشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل في دور الصناعة ومساهمة في اعداد الأسطول المصري العربي . كما تدل تلك الأوراق على أن الوالي كان ينص مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الأسطول المصري ، كما كان يفرض على الكورة قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيمها . كذلك كان يفرض مرتبات بعض الملاحين الذين يعملون في الأسطول ، كما كان والي مصر يرسل بعض الملاحين للعمل في أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة في مشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسي وعصري الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف مصر عن الاهتمام بشئون البحر الا في أيام المماليك كما يقول المقريزي . ولدينا ورقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ هـ ٨٥٥ ... فكرة عن عظم اهتمام ... لأن مصر بعد ... البيزنطيين على سواحل مصر ... وقد كان ... مصرية ... في الأسطول ... حماية سواحل الإسلام وكانت مصر ... الخشب اللازم ...

الصمغ من الشام ، ورصاص من آسيا الصغرى وبعض بلاد أوربا .

وكان البردي خلال عصر الولاة من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، حيث كانت أوراق البردي تستعمل للكتابة في مستلزمات الدولة والحكومة ، وشهرة المصريين بصنع الورق منه معروفة . قالت الدكتورة سيدة الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه في أواخر القرن الثالث الهجري أن لأهل مصر القراطيس التي لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر المقريزي أن القراطيس كانت تصنع في بورة ، وهي على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفي مدينة أخميم وهي على ساحل البحر قرب فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة . وطالما كان الناس يستعملون البردي للكتابة كانوا يعتمدون على مصر . أما في القرن الرابع الهجري فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين . ويذكر كرباتشيك أن صناعة ورق البردي للكتابة تنتهي في مصر بالإجمال حوالي القرن الرابع الهجري ، والواقع أن ورق البردي المؤرخ الذي وصل إلينا ينتهي في عام ٣٢٣/٩٣٤ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها بعام ٣٠٠ هـ/٩١٢ . وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عصر الولاة حريصة كل الحرص على صناعة الورق . وكان صانع الورق ، كمعظم من الصناع في مصر ، من مصريين ، وكان أغلبهم ، أو كلهم ، في القرون الأولى بعد عهد الفتح من الأقباط . وإلى أواخر القرن الهجري الأول أوائل الثامن الميلادي كانت صيغة الطابع الذي يطبع على الورق « الآب والابن والروح القدس » ، ومع أن هذه الصيغة أصبحت فيما بعد لا تتفق والدين الإسلامي ، إلا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة » .

وإلى جانب هذه الصناعات الرئيسية اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى كالنجارة والحفر على الخشب والخزف والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه صناعات متوارثة من العصور القديمة . هذا ، أضف إليها ما كانت مصر تصدره من الحبوب وتستورده من الغابات ليبين لنا أن تجارة مصر في ذلك العصر كانت نافقة ، وأن القلزم ودمياط والإسكندرية ورشيد كانت وافرة النشاط . فلم يضمحل أمر الإسكندرية وتتحول إلى قرية لا أهمية لها بعد الفتح الإسلامي كما يعرف بعض المستشرقين ، فقد زارها بعد الفتح الإسلامي بنحو ثلاثين سنة ، أي سنة ٥٠ — ٤٦ هـ / ٦٧٠ م آركولف أحد حجاج بيت المقدس ووصفها بأنها ملتقى التجارة العالمية . ويذكر آدم متز أن الإسكندرية وبغداد كانتا تعدان في القرن الرابع الهجري الأسواق العالمية ، ولا سيما في مصانع الحبالة

وكانت العملة المتعامل بها في مصر هي الدنانير الذهبية، والكسور من الدراهم الفضية، وربما استعملت كسور أصغر منها هي الفلوس النحاسية. ولكن الأساس هو الدينار الذهبي والعملة البيزنطية. وقد ظل وزن الدينار البيزنطي كان معترفا به حتى أيام الأسرة المقدونية، وكان ثبات وزنه أساس الثقة فيه وضمان سلامة الميزان الاقتصادي للدولة البيزنطية، حتى أن اختلال وزنه اعتبر من العلامات الخاصة الدالة على انهيار أمر هذه الدولة. وعن البيزنطيين أخذ المسلمون الدينار بوزنه ورسمه أول الأمر، ثم بدأوا يسكون دينارا إسلاميا من عهد عبد الملك بن مروان. ولكن الدولة الإسلامية لم تحافظ على وزن دينارها، فاضطربت قيمته وقلت الثقة فيه، وأصبحت الدنانير سلعة تختلف قيمتها بوزن ما فيها من الذهب، وظل الناس يفضلون الدينار البيزنطي الثابت الوزن، وظلت العملتان مستعملتين جنبا إلى جنب مع اختلاف في قيمتهما.

وقد احتفظت مصر بالدينار كأساس لمعاملاتها، في حين أن العراق مثلا أصبح يتعامل بالدراهم الفضية لقلة الذهب ولوفرة الفضة. وكان وزن الدينار المصري ثابتا على الغالب، وذلك لأن الأمراء وحكام مصر [illegible] العملة جرت على نسب أوزان العملة على أساس صنج زجاجية مطبوعة بأسمائهم.

وبعد هذه الشواهد الأقاليم التي أشرنا إليها، لا نذكر أحداث تاريخ مصر الإسلامية من الحوادث التي وقعت فيها إلا ما يتصل بمن نزلها من عربها، سواء أكان ذلك خاصا بمن أقاموا في مراكز العرب كالفسطاط والجيزة والإسكندرية أو من القرى منهم في نواح من مصر السفلى كالحوفين الشرقي والغربي، بحيث يمكن القول بأن تاريخ مصر الذي نقرؤه عند ابن عبد الحكم والكندي مثلا إنما هو تاريخ الجاليات العربية في مصر. فقد عاش العرب في الفسطاط خاصة منفصلين عن بيئة الأهلين، إلا فيما يتصل بما تقضي به ضرورات الحياة، وتتفرد الفسطاط من بين ما أنشأ المسلمون من مدن في ذلك العصر الأول بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كأنما لم يغادر عربها جزيرتهم. فبينما نجد الكوفة والبصرة تغصان بأهل العراق الأصلاء، والقيروان مدينة غالبية سكانها ممن أسلم من البربر، وقرطبة مدينة إسبانية حفت بها الجالية الإسلامية، نجد الفسطاط تبدو من أول الأمر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير العرب ويسودها جو عربي خالص.

وهي على خلاف البصرة والكوفة ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط بسبب السوق، في حين [illegible] هاتين تنشآن أول الأمر بالقصب، ثم [illegible] القصب مباني اللبن فيما بعد، ولا تصبح مدنا إلا على مر الزمن أن

الفسطاط التي نشأت على أساس موضع كان مسكونا قبلا ، أقام العرب خططهم ونظموه يساعدونه أهل البلاد . فلم يكن العرب يبنون ، وليس بعيدا ما ذهب إليه على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم دون معونة ، ونرجح من أن اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لا يمكن رفضه تماما ، وإن كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليوناني بمعنى المعسكر أو الخندق . وقد سبق أن أشرنا إلى أن المنطقة الواقعة بين قصر الشمع (حصن بابليون) إلى ما يعرف الآن بعين شمس كانت عامرة بالقرى والمزارع والأديرة ، فاختار العرب أن تكون مدينتهم بينها

ولقد كانت عادة المسلمين في ذلك العهد إذا أرادوا أن ينشئوا مدينة ، أن يبدأوا ببناء مسجد جامع تقوم من حوله المباني بعد ذلك هكذا حدث مع الكوفة والقيروان مثلا ، أما في حالة الفسطاط فقد بدأ العرب بتخطيط المدينة ، أي بتحديد المكان الذي ستقوم فيه وتقسيمه خططا ، بل أقام عمرو بن العاص رجلا من أصحابه مشرفا على هذه العملية وهو معاوية بن حديج الكندي ، الذي سيكون له دور عظيم في نصرة معاوية بن أبي سفيان ثم في فتح المغرب بعد ذلك . ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب غريبا في الإنشاء من عند عمرو نفسه ، بل نعتقد أنه استرشد فيه برأي من كان حوله من كبار القبط ، وكان الود بينه وبينهم متبادلا ، فكان يستعين بهم في الكثير من شؤون البلاد والمال . ونعتقد أن عنده أمتعة مالية كانت من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، لم يستبعد منها شيئا في الفسطاط ، ونرجح أن الخطط لم تكن متساوية ، وأن كلا منها لم يكن حيزا واسعا ، بل قسمت الأرض بحسب الظروف والحاجة ، فالرواة يذكرون لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو الخارجي المشهور الذي اغتال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا يشتركون في الإنشاء ، أن عمرو بن العاص بنى حماما فاستصغره القبط وقالوا : يصلح للفأر ، أي أن البناء لم يعجبهم . أما حمامات مصر فكانت ديماسات كبار (جمع ديماس وهو البناء الكبير ، من Domus اللاتيني ، ثم أطلق على ما يعرف اليوم بالسرداب ؛ ومنه يقال حمام ديماس ، أي منخفض في الأرض أو كالديماس) ، ثم كانت حمامات الفسطاط بعد ذلك كبيرا نتيجة لملاحظة الصناع المصريين . ثم اختط عمرو مسجده ، وهو أقدم مساجد مصر ، وإن كان قد هدم وبني من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال قائما إلى اليوم ويعرف اليوم بالمسجد العتيق ثم اختط عمرو داره شرقي المسجد جنوبي

أصحابه الذين هم عشيرته ، وكانت تدور دون الأسر من صلة واحدة ، ولا تزيد عن البيت عن ثلاثة أو أربعة . ولكن الأستاذ صاحب كتاب « الانتصار » وأسماه كتاب « الأمصار » مبالغات فيه حرص المقريزي عليه من نسبته إلى الأبنية . ولم يكن بحاجة إلى تكلف ذلك كله ، فإن الأمر بطبيعته لم يكن ليخرج عن هذه البساطة

وقد استطاع رولي جست أن يضع رسما للفسطاط الأولى اعتمادا على أطلالها وبقية أسس بيوتها التي تم كشفها ، وأتم عمله الأثري المصري علي بهجت . وقد ذهب إلى أن الجند كان يسكن في القرية الواقعة جنوبي القاهرة والتي كانت تعرف بدار النحاس ثم عرف اسمها في دار السلاح وتتصل حتى بركة الحبش وقد جفت الآن ، وكانت تقع قرب المرتفع الذي كان يعرف قديما بجبل يشكر ويعرف موضعه الآن باسم أرض طولون ، وعليه يقع جامع أحمد بن طولون . وكان لكل خطة منسوبة إلى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين في الجند الرسمي من أهلها ، وفي دار الإمارة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو عبارة عن إحصائية مفصلة لقوم المسلمين العرب المشتركين في الجيش وأسمائهم حسب نسبهم القبلي للاستفادة في تحديد العطاء والرزق . وكان لأهل الراية ديوان خاص في خطتهم ، وكانت هناك خطة تعرف بالذين لا ينتسبون إلى قبيلة بعينها ، وكانت تسمى خطة اللفيف . وكان الوافدون من العرب ينزلون في خطط قبائلهم ، فإذا ضاقت الخطط أنشئت خطة جديدة غرب الخطة أو عن الظاهر

وكانت هيئة الخطة في الأمر بسيطة تضم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك ما يدور فيه فضاء . ولقد ضاق هذا الفضاء شيئا فشيئا بإقامة مبان جديدة لا تلبث أن تتحول إلى جوار من شأنها تحديد الدروب والأزقة . ولهذا لم تكن في الفسطاط القديمة شوارع رئيسية أو مسجات تأخذ من عرض طرقها . قال ابن زولاق : « وفرق عمرو بين الروم والفرس ، وجعلهم في طرف البلد ، فأسكن الروم الحمراوات ، وأسكن الفرس مما والى ورالعده وبساتين بني وائل ، وبهم إلى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأسكن القبط القصر ، وأسكن العرب الخطط » ، أي أنه جعل من انضم إلى جيشه من غير المسلمين الذين كانوا يعرفون بالحمراء في طرف البلد الجنوبي على شاطئ النيل في الغرب ، لأن الموضع الذي نزلوه عرف بالحمراء الدنيا فيما بين حصن بابليون والنيل . ثم نشأ الناس صفوفا من المنازل على شاطئ النيل حتى تبلغ الشمال ، وقد نشأ عن ذلك ما عرف بالحمراء الوسطى ثم الحمراء القصوى . أما القصر الذي أسكنه الأقباط ، فالمراد به ما يلي قصر الشمع إلى الجنوب ، أي أنه أنزلهم خارج نطاق

ويسميها قسيسًا احيانا اسم بابليون ويعني اسم الفسطاط . وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضا ، واطلق عليه بعد ذلك على القاهرة . ومن المحتمل انه بناء على هذا اطلق على البلد اسم فسطاط ، وهذا هو الذي جعل المستشرق دوزي الى القول بأن لفظ الفسطاط مشتق من فساطون اليوناني . ويقوي هذا الرأي أن بعض النصوص العربية تقول فسطاط ، ويضيف أن اللفظ لم يعد أول الأمر بمعنى الخيمة بل بمعنى بيوت أو ربية ، ومعنى السور يتخذ من خشب ذي شوك .

ولابد أن نضيف أن العرب لم يعرفوا اسم مصر لهذا الموضع وإن كانت تستعمله قبل دخولهم القبائل العربية الضاربة في شمالي الحجاز لتسمي الحدود أو الحد ، وربما استعمل أيضا بمعنى المعسكر الذي يقوم على الحدود . ويرجح أن أصله سامي ، ثم أطلقه العرب على مراكزهم العسكرية فسموها أمصارًا ، فقالوا مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضا على موضع حصن بابليون ، ثم قالوا مصر الفسطاط ، ثم أطلق الاسم على بلاد مصر كلها . أما الاغريق فكانوا يقولون Aegyptos وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية . أما اسم مصر القديم فهو كمي أو كيمي

(١) كمي هنا تعني تراب

(٢) ... الفسطاط عاصمة مصر ...

ما كانت مركزًا للعرب ، على أن نشأة العصر الأموي بعد عبد العزيز بن مروان نقل دار الامارة الى حلوان . ولم تعد العاصمة خلال العصر العباسي في الفسطاط وانما في موضع بالحمراء القصوى عرفت بدار الامارة . وقد نشأت حول دار الامارة مدينة صغيرة عرفت باسم مدينة العسكر ، أقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر أو جامع ساحل الغلة . وقد أفادت الفسطاط من ذلك لأن مباني المدينتين اتصلت ، فصارت الفسطاط أحيانا كضاحية ، وأنشئت بها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت بالناس شيئا فشيئا ، ولكنها لم تسور . وفي سنة ٦٤/ ٦٨٢ حفر عامل ابن الزبير على مصر خندقا حول الفسطاط يحميها من جنود الخليفة مروان بن الحكم . وقد أنشئت فيها المنشآت الحكومية الواحدة بعد الأخرى ، فعمر الجامع نفسه ، وأنشئت مساجد صغيرة في الجبانة عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت أهراء كبيرة للقمح ذكرت في النصوص الأدبية ، ثم انشىء بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أي أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسي داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يحمى من المفسدين ... وقد أصبحت الفسطاط مكونة من ... كبيرة خلال العصر الذي ندرسه ، أقامها ... بن مروان بن محمد ايامها سنة ١٣٢ - ٧٥٠

السنة دورة أمام العباسيين ، ويحكي ذلك ساويرس بن المقفع . وقد ... مدينة العسكر مقر الأمراء حتى قدم أحمد بن طولون مصر وأقام دولته معتمدا على مدينة الأتراك ، وأنشأ القطائع . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

ولقد ذكرنا أن نفرا من العرب نزلوا موضع الجيزة واختطوا مدينة بجيزة وجعلوها خططا ، وكان معظم من نزلها من العرب من قبيلتي همدان ويافع . وقد بنى عمرو بن العاص في المدينة حصنا فيما بين سنتي ٢١ و ٢٢ /٦٤١ — ٦٤٢ ، ثم بنى فيها مسجد جامع عرف باسم مسجد همدان وينسب الى مراحل بن عامر بن بكيل ، وقد عرف أيضا بالمسجد الأعظم لاتساعه وكان ملاصقا للحصن . ولقد تلاشى الحصن والجامع فلا نجد لهما ذكرا عند ابن دقماق .

أما الاسكندرية فلم يتبوأ العرب الأولون فيها شيئا ، وانما نزلوا في مساكن كانت لبعض الروم وقد خرجوا منها ، فكانت تسمى الأخائذ . وكان المسلمون يسكنون هذه البيوت في رباطهم ، فاذا انقلبوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ، ثم استقروا بها بصورة نهائية .

أهم احداث مصر من الفتح العربي الى قيام دولة احمد بن طولون

هذه هي الفترة التي يحكم فيها العرب من أول الأمر ، وقد عاصروا فيها كما قلت حياتهم العربية الخالصة محتفظين بصلات دائمة ومباشرة بأبناء عمومتهم في الجزيرة العربية وبهذا فقد كان تأثرهم عظيما بكل ما يجري في شبه الجزيرة من الأحداث . مثلهم في ذلك مثل عرب الكوفة والبصرة ومدن الشام . وبهذا فان تاريخ هذه الجماعات يعتبر جزءا من تاريخ الخلافة عامة لا من تاريخ مصر فحسب . وبينما ظل أهل مصر بعيدين عن الفتن الكبرى التي هزت كيان الدولة الاسلامية خلال القرنين الهجريين الأول والثاني اشترك عرب مصر في هذه المشاكل كلها وقاموا بدور حاسم في الكثير منها . فقد ألقى عرب مصر بأنفسهم في معمعان الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، ولكن يهمنا أن نلاحظ أن عبد الله بن سبأ الذي يقال ان أصله من يهود اليمن وجد أولا صحابه من اليمنيين في مصر ، فكان الذي دفع عرب مصر الى الاندفاع في هذه الفتنة هو استنكار جماعة اليمنية كما أبلغهم اياه بعض الدعاة من أن فريقا من قريش مستبد بالأمر مضيع لشئون المسلمين . أما من انضم الى حركة من القرشيين فكانوا ينكرون استبداد بني أمية بالأمر دون غيرهم من القرشيين ومنهم الخليفة عثمان ، وقد رأى لفريقهم تولية عثمان أخوه من الرضاع عبد الله بن سعد ... عبد الرحمن ... عظمت ... الخليفة ، ... كبرى على

المغرب ، وانتصر على الروم في سبيطلة سنة ٢٧/٦٤٧ انتصاراً هائلاً على عمرو على ... ثم عقد بالمغرب ، ثم غزا النوبة وحمل أهلها على معاهدة سنة ٣١/٦٥٢ ، ثم كسب انتصار ذات الصواري سنة ٣٤/٦٥٤ ؛ ولكن ذلك كله لم يشفع له ، وأصر عرب مصر على المكره وكراهيتهم له

وربما كان من أسباب هذه الكراهية اجتهاده في جمع المال والارتفاع بالخراج حتى جمع منه فوق ما جمع عمرو بن العاص

وبينما كان عبد الله بن سعد مشتغلا بهذه الفتوح كان ابن سبأ ومن انضم اليه يكيدون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م تبين حقيقة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ومضى الى المدينة يلتقي الخليفة ، فلم يكد يخرج من مصر حتى ثار عربها على عقبة وطردوه وتزعمهم محمد بن أبي حذيفة ، وربما كان غرضهم الأول التخلص من والي عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصراراً على واليه ، فازدادوا سخطاً وتلجلج عندئذ عند غيرهم من عرب الأمصار الأخرى يشاركونهم الرأي في ولاة عثمان ، فبعثوا الى المدينة جماعة منهم يقال ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفي المدينة التقى هؤلاء بغيرهم من الثوار وتطور الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٣٥ / مايو ٦٥٥

وقد انقسم المعاصرون لعثمان على أنفسهم أثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعثمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة ، وعرفوا كيف يحافظون على وحدتهم ومراكزهم أثناء ذلك الوقت العصيب ، واتخذوا خربتا مقراً من عرب مصر ، ولم تنقطع خصومتهم رغم ما بذله محمد بن أبي حذيفة والي علي على مصر من الجهود ، ثم أقبل اليهم معاوية بن أبي سفيان بنفسه والتقى بهم في سلمنت من كورة عين شمس سنة ٣٦ / ٦٥٦ واحتال على محمد بن أبي حذيفة حتى تخلص منه ، وولى علي على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، فدخلها سنة ٣٧ / ٦٥٧ ولكن معاوية وعمرو عرفا كيف يوقعان بينه وبين علي حتى عزله ، وولى مصر الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي فدبر معاوية اغتياله ، وولى علي محمد بن أبي بكر فلم يستطع الثبات لأنه كان رجلا طائش قليل التدبير ، ولم يلبث عمرو بن العاص أن انتصر عليه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٣٨/٦٥٨ ، أي قبل مقتل علي بسنتين

ويبدو أن هذا الانكار لاستئثار بني أمية بالأمر دون غيرهم هو الذي دفع بغالبية عرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦١/٦٨٠ ، ولم يكن مقتصر ذلك على عرب مصر بل شمل عرب الحجاز واليمن والعراق وكثير من عرب الشام ، ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلموا

نحو بني امية في الخلافة ، وان كانوا قد خضعوا للدولة وتحولوا عنه مضطرين ، وأصبحت غير عرب الكوفة والبصرة كانوا بعيدين عن مركز الخلافة محجوبين بحاجب كثيف من الجزيرة ، ويبدو ذلك بصورة واضحة في حالة عرب مصر ، فقد كان لهم وضع خاص يختلف عن وضع عرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء الأخيرون يعيشون في أرض تملكها الدولة وليس لهم الا ثمرها . أما عرب مصر فكانت رقاب أرضهم بأيديهم أو بأيدي المصريين ، ولم يكونوا يخشون أن تنزعهم الدولة من الأرض أو تحاربهم بالأسلحة التي حارب الحجاج عرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عرب مصر مستعدين لتأييد أي منافس لبني أمية في الخلافة ، سواء أكان المنافس ابن الزبير أو غيره ، وخاصة عندما اقتنص الخلافة مروان بن الحكم سنة ٦٤/٦٨٤ فقد بدا بوضوح أن المسألة مسألة مهارة وخداع وغصب بالقوة ، وأن قد تم غصب الخلافة جهارا بصرف النظر عن حق أو رأي الأمة . وقد بدأ مروان بن الحكم أمره بمأساة مرج راهط حيث أنزل القيسيون بالكلبيين هزيمة فاجعة تردد صداها في نواحي الدولة كلها ، ولم ينس اليمنيون مصيبة مرج راهط أبدا ، وظلت تغلي في صدورهم ، ولم يغادروا فرصة لزعزعة هذه دولة أمرها بيد الا ... ، حيث تمكن ... بأن ... بني مروان وخروج الأمر من أيديهم بدأ يوم مرج راهط .

وقد اهتم مروان بأمر مصر اهتماما عظيما ، وأسرع بنفسه ليستخلصها من والي عبد الله بن الزبير عليها وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري . وقد أبلى ابن جحدم بلاء عظيما في دفاع مروان بن الحكم وجيشه ، ولقي عرب الفسطاط نحوه ، وكانت غالبيتهم يمنية ، ولكنهم هزموا بنفس السبب الذي هزم اليمنية في صراعها مع القيسية في كل ناحية من نواحي الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر استمساكا بما كانوا منصرفين إليه في الولايات من زرع وضرع وشئون معاش ، في حين أن القيسية كانوا قليلي الاهتمام بهذه الناحية ، بل همهم الحقيقي في السياسة وطلب السلطان ، فكانوا أصبر من اليمنيين على الكفاح السياسي والعسكري ، وربما كسب اليمنيون انتصارات أولى ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون في الصراع الطويل ، ولهذا عقدت الانتصارات النهائية دائمـا بلواء القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم الفسطاط سنة ٦٥ / ٦٨٤ ودانت له عرب مصر الا نفر قليل تخلص منهم مروان بوسائل شتى وقد انصرف يمنية مصر بعد ذلك عن السياسة وانصرفوا الى شئون المعاش ، فهدأت أحوالها في هذا العصر الأموي .

على أن اليمنيين سرعان ما تأججت نار الثورة في آخر عهد بني مروان الى ... ، فقد

ضعف أمر القيسية بعد ذلك العهد الطويل الذي عاشوه في تأييد بني مروان منذ أيام مروان بن الحكم . ولما كان اليمنيون قد عجزوا عن مواجهة الخلافة الأموية حينئذ وجهة ، فإن جماعاتهم في كل ناحية من نواحي الدولة أخذت تناوئ من معها من القيسيين ، وتظهر تلك الصورة واضحة جداً عندما ولي الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتماداً كاملاً أحرج صدور اليمنيين في كل ناحية . وربما يتضح بمصر بعد واليها حفص بن الوليد الحضرمي ، وكان يمنياً ، يستعفي من ولاية مصر عقب سماعه نبأ تنصيب مروان بن محمد خليفة ، فولى مروان عليها حسان بن عتاهية وعلى خراجها عيسى بن أبي عطاء وهما مضريان قيسيان ، فاضطرب اليمنيون يقاومونهما حتى اضطروهما إلى الخروج من مصر ، ونصبوا على أنفسهم حفص بن الوليد مرة ثانية .

وكانت دعوة العباسيين قد قوي أمرها ووردت أخبار تجمع قواهم في شرق الدولة الإسلامية . وربما وصل إلى مصر نفر من دعاتهم ، فتشجع اليمنيون وصارحوا مروان بن محمد بالعداء . وقد اجتهد في اصطناعهم فولى مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، وكان يمنياً من مخلصي بني مروان ، وكان قد خاض معارك طويلة في المغرب لم يوفق في بعضها ، فرفض المصريون الاعتراف به وأخرجوه من الفسطاط . وظل حفص بن الوليد والياً على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨ (٧٤٥ م) ، [illegible] مروان [illegible] أن تخرج مصر عن سلطانه ، فاعتمد لإخضاعها رجلاً من جنده جاءه هو حوثرة بن سهيل الباهلي ومعه سبعة آلاف من جنده [illegible] ، فخافه عرب مصر ، وتنحى حفص بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمان ، فأمنهم ، ثم غدر بهم وقتل زعماءهم بما فيهم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ (٧٤٥ م) .

ولم تمض سنوات حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات العباسيين على نهر الزاب (جمادى الآخرة ١٣٢ = يناير ٧٥٠) ، وشعر بنو مروان ومواليهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا نجد فكرة التحصن بمصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وحدثه بعض أصحابه بالعبارة التي لا تزال تتردد في أحاديث مؤرخي مصر الإسلامية « هي أكثر بلاد الأرض مالاً وخيلاً ورجالاً » ، وهي « كليشيه » لا يزال يتردد على ألسنة رجال الدولة ، دون أن يحاول أحد فهم الاستفادة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر في مهرب يلجأ إليه كان واليه على مصر عبد الملك بن مروان يستعد لمحاربة جنده من العباسيين ، وقد ارتكب في ذلك السبيل حماقات ما كان أغناه عنها . صادر أموال الناس ، واستولى على ما قدر عليه من نحاس وحديد ليستخدم

ذلك كله في شمول الدمار فصيب المقوس عليه ، وهو من بني مروان عن هروب ، حتى إذا بدأ مروان بن محمد يسير إلى مصر هارباً من بني العباس هجم قوم من الحبة لنجدة بني أمية ، ثم أخذ مروان يجوب خوفاً ، فوجد عسكر مصر جميعه من الإسكندرية إلى أسوان ، مع العباسيين عليه ثم انضم إليهم أهل البشمور (ويسمون أيضاً أهل بشرود) واعتصموا بمستنقعاتهم ، ولقي مروان في مصر نحو القبطي يحاول أن يجمع أمره دون جدوى .

فلما علم بأن قائدي العباسيين صالح بن علي وأبا عون في الطريق إلى مصر أمر بإحراق الفسطاط ، ثم أحرق جميع المراكب الراسية في دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنده يخربون ما استطاعوا تخريبه من أراضي الوجه البحري ، كأنما على أن سياسة « الأرض المحترقة La terre brulée » قد تنقذه من مصيره المحتوم . ولم تكن لذلك نتيجة إلا تنفير أهل البلاد جميعاً — عرباً ومصريين وأقباطاً — منه فقد بدا له رأيه تدبير أن يقبض على البطرك الأنبا ميخائيل لأنه لم يؤد إليه مالاً مطلوباً ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله في بوصير . فقد قتل في الجيزة في ٧ ذي الحجة ١٣٢/٧ يونيو ٧٥٠ . وبهذا نهى آخر خلفاء بني مروان مصرعه على ثرى مصر ، وأتيح لساويرس بن المقفع مؤرخ الأقباط أن يحكي هذه المأساة في تاريخه

ويذكر مكافأة العباسيين للأقباط على ما قاموا به من حرب مروان ، فقد خفضوا عنهم الخراج وأطلقوا سراح الأساقفة المحبوسين ، وسلطوا خدامهم على الكنيسة المصرية وأملاكها ، وأعفوا أهل البشمور من الخراج ، ومنحوهم مالاً على سبيل المكافأة .

هكذا دخلت مصر في طاعة العباسيين ، وتولى أمرها صالح بن علي عم أبي عبد الله السفاح أول خلفاء بني العباس . ولم يغير حرب مصر الذين استبسلوا في المقاومة حتى القضاء على بني مروان أن هلاك آخر مروان بن محمد هو إيذان بنهاية أمنيارهم في مصر ، فقد كانت للعباسيين وجهة أخرى في الحكم غير وجهة الأمويين . قامت دولتهم على غير العرب واختاروا عاصمتها على حدود أرض الفرس في بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وابتعدوا بذلك عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية ابتعاداً كاملاً . وبدأت ولايات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الإسلامية الواحدة بعد الأخرى . بدأ الأمر في الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت إفريقية عندما استقل بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وظلت مصر بين طاعة وعصيان وحرب وفوضى حتى انتهت بأمورها إلى أحمد بن طولون .

ولقد كثر الخارجون على العباسيين في مصر كثرة تسترعي النظر ، ففي خلافة المهدي والتاء ولاية إبراهيم بن صالح بن علي (١٦٥

١٦٧ — ٧٨١ — ٧٨٣ كاد يستقل بحكم
مصر داعية أموي هو دحية بن مصعب بن
الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وكانت
كفة نصره قد شالت ، آثر الأعراب مساندته لو
لم ما أصابهم من اضطهاد أيام عمر بني أمية ،
ووقفهم العجب وجمعا يوجه يتغلب في نواحي
مصر حتى عمت الفوضى ، وزاد الأمر سوءا
أن ولاة بني العباس لم يكونوا على قدرة
أو كفاية ولم يكن أحد منهم بشيء من الخبرة
أو حسن الإدارة . وكانت الدولة لا تكاد
تولي واحدا منهم حتى تعزله ؛ لا بسبب عجز
في ذاته ؛ بل لأن سياسة العباسيين العامة
نفسها قامت على تغيير الولاة خوفا من
استبدادهم بالأمر .

ثم إن الولايات بالنسبة لبني العباس
كانت قد أصبحت مجرد مصدر للإيراد ، فمن
عرض على الخليفة أن يأتيه بخراج أكثر ولاه
الأمر ، وهي سياسة ساسانية قديمة أدخلها
وزراء بني العباس ، ولكن كانت هذه السياسة
من أسباب زوال بني ساسان فقد كانت من
أسباب اضمحلال ملك العباسيين ، ومن غريب
الأمر أن خلفاء بني العباس كانوا موجهين
بالنظر في تاريخ الفرس على أن الإنسان المثير
بالتاريخ لا يعتبر به العباسيون ، ولكن التاريخ
الذي هذه سيرة أو أعمى دربه ، وكل من يولي
أمرا يحسب أنه أبو ... ربع ... ...

... حتى ...

وتتأمل في حوادث تاريخ مصر خلال

العصر العباسي ... وكان قد تحول البلاد
إلى ميدان فسيح للكر والفر بين ...
... وخصومهم حينا وبين بعض القبائل
... وبعض حينا آخر . وقد بدأ الأمر بفتنة
دحية بن مصعب بن الأصبغ المرواني الذي
ذكرناه ، وقد طال أمره (من ١٦٥ — ١٦٩
٧٨١ — ٧٨٥) ولم يتمكن ولاة بني العباس
من الخلاص منه إلا بعد عناء شديد . وكانت
ثورات عرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ،
وأول فتنة علوية سمع بها كانت في خلافة
المنصور ، فادعى أحد العلويين في مصر وهو
علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن
الحسن بن علي بن أبي طالب . فقد دعا لأبيه
محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره
بانتهاء أمر أبيه في وقعة باخمرى بين الكوفة
وواسط في أول ذي الحجة ١٤٥ / ٧٦٢
ويبدو أن مصر بدت لدعاة العلويين وكأنها
تربة خصبة لدعوتهم فكثروا فيها وأصدروا
يسببون الشغب للولاة ؛ حتى ضاق
العباسيون بأمرهم ، فأمر الخليفة
المنتصر واليه على مصر بألا يقبل
علوي ضيعة ولا يركب فرسا ولا يخرج من
الفسطاط ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر
من العلويين إلى بغداد في رمضان ٢٤٨ / ٨٦٢
أيام خلافة المستعين

ولا ينبغي أن نعرض لتاريخ هؤلاء
العلويين ثم الخصومة بين مختلف شيعتهم ،
وهي كراهة عرب مصر ... محمد الكرك
الذين ... عليهم العباسيون ، فقد كانوا

علاوة على الناس سيجدون الوطأة عليهم ثقيلة ، ومن ثم فلم يكن الناس يسمعون بدعوة علوي إلا سارعوا الى تأييدها ، وفي بعض الأحيان لم يكونوا بحاجة الى انتظار علوي يقودهم في الثورة ، كما نرى في ثورة جابر بن الوليد المدلجي بالاسكندرية في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام المعتز ، فقد اشتد أمره حتى بسط سلطانه على الكثير من بلاد الوجه البحري وجبى خراجها ، وقد اضطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر ليقضي على جابر هذا ، فأتى الجيش بقيادة مزاحم بن خاقان وقضى على الثائر وتولى مزاحم أمر مصر في ربيع الأول ٢٥٣/٨٦٧

وعندما ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون أحس أهل النواحي أن هيبة الدولة قد زالت ، فقد اتهم كل منهما الآخر بكل رذيلة ، ولم يكن النزاع بينهما في أول مرة الا بين الفرس والعرب كما ذهب كثير من المؤرخين ، لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وفرسا ، ولكن الأمين عندما بدا له ضياع أمره فكر في الاستمالة بعرب الشام ، وأخذ دعاته يصورون دعوة الأمين على أنها دعوة العرب ودعوة المأمون على أنها قضية فرس على العرب . وقد تردد في كتب التاريخ صدى هذا الدور الأخير الذي أخذه ذلك النزاع لحرب بين ... في مصر ، فتزعم جانب من عرب مصر في دعوته للأمين السري بن الحكم بن يوسف وظل متعصبا للأمين حتى بعد هزيمته . ولكن والي المأمون على مصر عباد بن محمد بن حيان استطاع أن يقضي على حركته وانتهى به الأمر الى الفسطاط للأمين في جمادى الآخرة ١٩٦ / مارس ٨١٢

وقد وقعت في البلاد فتنة عنيفة بعد ذلك ، اذ غضب السري بن الحكم وأنصاره على أنفسهم ، واستطاعوا أن يكسبوا عرب الحوف الى جانبهم ، وبعث الأمين الى ربيعة ابن قيس زعيم القيسيين بالحوف يوليه أمر مصر ، فنهض ربيعة بن قيس بهم وأخذوا يحاصرون الفسطاط . ورأى عباد بن محمد بن حيان عامل المأمون أن يكسب الى جانبه نفرا من عرب مصر يلتقي بهم ولاء أنصار الأمين ، فاختار للأمر عربيا ينسب الى السنان هو عبد العزيز بن الوزير الجروي ، فانهزم الجروي في ذي القعدة ١٩٧ / سبتمبر ٨١٣ ومضى بعدها قرابة من معه وجنده الى فاقوس ، وهناك ألقى أنصاره في نفسه فكرة الدعوة لنفسه . ولم يلبث أن يصبح الأمر فوضى لا ضابط لها ولا رابط ، فها هو عبد العزيز بن الوزير يدعو لنفسه واليا على مصر ويبعث عماله لجباية الخراج من الوجه البحري ، وتصدى له السري بن الحكم ومن معه ، واتسع النزاع في الخليفة بين فريقين من عرب مصر ، على أحدهما السري بن الحكم وعلى الثاني عبد العزيز الجروي . وقد طال النزاع بين الجانبين حتى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ حين أصبح ...

الفسطاط على السرى ، ولكن الجروى عصم جرى الدماء من سطوته فى الفرما وحمى خراجها ، بل استهل بالاسكندرية وما حولها بعض زعماء العرب ، وتعرضت البلاد أيدى سبأ وعمت بوجهها الفوضى

ويهمنا أن نعرض على ذلك من استيلاء الربضيين الأندلسيين على الاسكندرية واستبدادهم بأمرها فى ذلك الحين . وأخبار أولئك الأندلسيين أقرب الى الأسطورة ، فقد كانوا فى جملة من ثار على الحكم الربضى الأندلسى وكانوا ينتسبون اليه . فلما أخمد فتنتهم واستقر له الأمر أخرج أهل الربض قرطبة بجوار سنة ١٩٨ هـ (٨١٣—٨١٤) من الأندلس عقابا لهم على قيامهم ضده لقتله ، فذهب بعضهم الى العدوة الافريقية واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيا خاصا يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الآخرون فقد ساروا بحرا ونزلوا على مقربة من الاسكندرية عام ١٩٩ هـ (٨١٤—٨١٥) يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب بن البلوطى الأندلسى . ولم يؤذن لهم بدخول البلد لأن الولاة كانوا لا يستطيعون مكافحة الأندلسيين بمعونة ، وكان عدد هؤلاء الأندلسيين الربضيين نحو ١٥٠٠٠ رجل عدا نسائهم وأطفالهم ، وقد ظلوا خارج المدينة حتى وقع خلاف بين عامة عمر بن هلال وبعض أتباع الجروى صاحب السلطان على الدلتا ... إلى

عمر بن هلال فاستنجد بالأندلسيين وأدخلهم المدينة ، ولكن الأهلين أنكروا ذلك وثاروا بالأندلسيين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم وطردوا عمر بن هلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود الى ولاية الاسكندرية الرغمى ... بين السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى ، فلما استقر بها طلب اليه الأندلسيون أن يدخلهم مرة أخرى ، فخاف أن يقع له ما وقع فى المرة الأولى ، فما كان منهم الا أن اتصلوا ببلد بدولة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا يقومون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويعارضون الولاة ، وعاونهم كذلك نفر من بنى لخم كانوا فى الاسكندرية ، ودارت بينهم وبين عمر بن هلال حرب قتل فيها سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥) واستقر الأمر للأندلسيين واللخميين فى الاسكندرية ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، ووقعت حرب فانتصر الأندلسيون واستعمروا ساحة البلد ، وولوا عليهم عبد الرحمن الصوفى رئيس جماعة الصوفيين الذين ذكرناهم ، ثم عزلوه وولوا رجلا منهم يعرف بالكنانى ، وهكذا انفصلت الاسكندرية عن بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون وأراد الجروى أن يستخلص البلد ، فسار اليها فى جيش عدته خمسون ألفا ، ولكنه لم يتمكن من ادراك غايته ، لأن منافسه السرى ... القرصنة ... على ... فى ... الجروى مصرعا

وقد سيطر الربيع بن السري والجروي من بين ... بعد ذلك ... حتى قدم الى مصر عبد الله بن طاهر قائد المأمون فاستسلم اليه علي بن الجروي ومن معه، ثم نزل عبد الله بن السري في طاعته سنة ٢١١ / ٨٢٦ على أمان وعهد. وبعد ذلك سار عبد الله بن طاهر في صفر ٢١٢ / ٨٢٧ الى الاسكندرية وصالح الأندلسيين على أن يسيروا من الاسكندرية الى أي موضع يريدون، فخرجوا في البحر الى جزيرة كريت فانتزعوها من أيدي البيزنطيين بقيادة زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي.

وعلى هذا النحو من الاضطراب والفوضى توالى ولاة بني العباس على مصر، لا يكاد أحدهم يستقر حتى يعزل. وكانت مدة الولاية كذلك. فقد كان الخلفاء ... بعد الدولة، حرصوا على أن يبعدوا العرب عن الولاية، ويعهدوا بها الى رجل يضمن في مقابل الضمان نصيب من خراج مصر بالغ مبلغ ما يستطاع. وقد اشتهر من أولئك رجل يسمى أحمد بن المدبر، وكان صاحب ديوان تلك الأيام، أن ... خراج مصر وأثقل الناس بالضريبات حتى لم يبق شيئا دون ضريبة، وكان يهدف ... ثقة الخلفاء ورجالهم. وفي أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر في الفسطاط في ٢٣ رمضان ٢٥٤ / ١٥ سبتمبر ٨٦٨ وكيلا لصهره عامل مصر للخليفة المعتز.

دولة بني طولون(1)

أحمد بن طولون:

ولد أحمد بن طولون في ٢٣ رمضان ٢٢٠ / ٢٠ سبتمبر ٨٣٥ في بغداد أو في سر من رأى، وكان أبوه طولون تركيا من موالي نوح بن أسد الساماني عامل بخارى وخراسان، أهداه الى المأمون في جملة مماليكه، فرقاه المأمون حتى صار في عداد أمراء حشمه. ونشأ أحمد ... أبيه بل تبناه لما توسمه فيه من

---

(1) أصول:

الى جانب المراجع العامة التي أوردنا ذكرها خلال هذا البحث انظر:

أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية: سيرة أحمد بن طولون، نشره Vollers في برلين ١٨٩٥.

— كتاب المكافأة، القاهرة ١٣٣٢ / ١٩١٤.

البلوي: عبد الله بن محمد بن عمر بن محفوظ المدني: سيرة أحمد بن طولون، نشرها محمد كرد علي، دمشق ١٣٥٨.

كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوي: الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، القاهرة ١٣٣٢.

المحسن بن القاسم التنوخي: الفرج بعد الشدة، القاهرة ١٣٥٧.

— جامع التواريخ ... بالكتاب ... ٩٢ ... طبع دمشق ٩٣

الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب

معادن النجابة ، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون قال أبو المحاسن « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة وتبع وترعرع أحمد تزوج بابنة عمه خاتون ، فولدت له العباس سنة ٢٤٢ ، ولما مات أبوه طولون فوض إليه المتوكل ما كان لأبيه ثم تنقلت به الأحوال حتى آل وولى إمرة الثغور وإمرة دمشق ثم ديار مصر »

وقد قال كارل هاينريش بيكر ان أحمد بن طولون يعتبر نموذجا مميزا من الأتراك ، وهي ملاحظة لم يحالفه فيها التوفيق ؛ لأن ابن طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك في كل شيء فقد كان سمحا أريبا واسع الصدر حسن التدبير بعيدا عن التهور عارفا بشؤون الناس وكان الى ذلك مثقفا ذا اطلاع واسع ، وهذه كلها خلال لا نعرفها الا في القليل جدا من معاصريه الأتراك بل كان هو نسيج وحده

حلقة الأسانيد السنية والإجازات رشيدي القاهرة ١٩٣٨

إبراهيم بن محمد المصري المعروف بابن دقماق الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، نشر الجزءين ٤ و ٥ المستشرق Vollers القاهرة ١٣٠٩

أمين الدين أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي الإشارة إلى من نال الوزارة طبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٢٤

محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ١٩٢٧

جمال الدين علي بن ظافر الأزدي المصري كتاب الدول المنقطعة صورة شمسية بدار الكتب المصرية بمصر من مخطوط بالمتحف البريطاني ، وهناك مخطوطة أخرى في جوتا نشر منها المستشرق كتابه الذي سبقت الإشارة اليه في حكام مصر ...

بدر الدين محمود العيني عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان مخطوط بدار الكتب المصرية جـ ١٦ .

ابن كثير البداية والنهاية ١٤ جزءا القاهرة ١٩٣٣ الجزء الخامس .

أبو المحاسن النجوم الزاهرة طبعة دار الكتب جـ ٣

المقريزي السلوك الأجزاء الثلاثة منها

ابن إياس بدائع الزهور جـ ١

ابن خلدون طبعة بولاق جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها

أبحاث ودراسات :

حسن كتاب في موضوع الطولونيين Les Tulunides للدكتور زكي محمد حسن بالفرنسية باريس ١٩٣٣ .

مادة « الطولونيون » بقلم كارل هاينريش بيكر ومادة أحمد بن طولون بقلمه أيضا في دائرة المعارف الإسلامية

آدم ميتز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة القاهرة ١٩٤

A. Muller Der Islam in Morgen und Abendland, ii. 537 sqq.

Lane Poole A History of Egypt in the Middle Ages. pp 59 sqq.

Corbet The life and works of Ahmad ibn Tulun (J.R.A.S 1891) pp 527 sqq.

Carl Heinrich Becker : Beiträge zur Gesch. Aegyptens unter dem Islam, p. 148-149

الأتراك ... أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان خصيصاً عند ابن طولون ، فقال يوماً : يا أخي ، إلى متى نقيم على هذا الإثم ؟ هؤلاء موالي ... يعني الأتراك ، لا نطأ موطناً إلا كتب علينا خطأ وإثم ، والصواب أن نسأل الوزير أن يكتب أوراقنا إلى الثغر فكتب له ، وخرجنا إلى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سر بذلك » .

وكان لخروج أحمد بن طولون إلى طرسوس وإقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، لقد كانت إذ ذاك ثغراً عامراً بالمجاهدين والفرسان والزهاد ، يقضون أيامهم في مدارسة ... من الروم والتعبد والقراءة ، فأتقن الفروسية وحصل جانباً كبيراً من الثقافة . وقد تمتع هناك بخير أيامه ، وكانت ذكرى أيام شبيبته في ذلك الثغر عزيزة عليه ، وسنراه فيما بعد يبذل جهداً ومالاً عظيمين في سبيل الحصول عليه .

وأهم ما أفاده ابن طولون من إقامته بالثغر ابتعاده عن مجتمع الأتراك في بغداد وسر من رأى ، فقد كان العصر الذي يعيشون فيه قاتماً حافلاً بالمآسي والاضطراب ، تختلط فيه شؤون الدولة ورؤساء ... التقدم والحوادث اختلاطاً جعل الحياة فيه أشبه بمقامرة ، إذا ... من الحضيض ثم ... خلعه ... وقد كان أحمد بن طولون نفسه أن يعد حياته ... من ... أبيه ، وكان

أو نسيت أن الأتراك قد هجموا بحرمة الدولة والخلافة إلى درجة أن اضطروا معه جيران الخليفة وغلامي يحيى الشغلان ... فحظي ابن طولون ... الذكر بعيداً عن ذلك الوسط كله ، وعاد من طرسوس فارساً مكتمل الأدوات ودخل في خدمة الخليفة المستعين فأعجب به وقربه وأهداه جارية تسمى مياس أنجب منها ابنه خمارويه سنة ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م .

وعندما غدر الأتراك بالمستعين ، طلب هؤلاء أن يكون الموكل بشأنه أحمد بن طولون ، ثم طلب الأتراك من ابن طولون أن يقتل المستعين فأبى حفظاً لجميله ، فبعثوا تركياً آخر فقتله ، وقام أحمد بن طولون بدفنه بما ينبغي له من حرمة . ثم عاد إلى سر من رأى وعلا نجمه إلى أن عين صهره بايكباك — وكان من كبار أجناد الأتراك — على ولاية مصر فبعث أحمد بن طولون إلى مصر وكيلاً له . وكانت الولاية إذ ذاك لا تخرج عن ضمان الخراج ؛ أي أن بايكباك ضمن خراج مصر للخلافة بمبلغ معين ، وأرسل صهره وكيلاً عنه يدير شئونه ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ؛ وأقام هو في بغداد ليكون على مقربة من ... الوزارات والاضطراب مخافة أن يدبر أحد عزله عن الولاية أو قتله .

دخل أحمد بن طولون الفسطاط في ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ ... ولم يلبث صهره أن توفى فصارت إليه الولاية ، ... منذ أول الأمر إلى ... الحكم لا يستقيم له ...

الخراج حتى خاف على يده ، وكانت الدولة تحرص على أن يظل الخراج في يد عامل خاص . وكان عامل الخراج أحمد بن المدبر ، وقد انتهى الصراع بين أحمد بن المدبر حتى عزله وصار إليه الخراج . ثم عهد إليه الخليفة في أن يخرج لمحاربة أماجور في الشام ، واستأذن في أن يجمع جيشاً لهذه المهمة فأذن له ، فأسرع بتكوين فرقة قوية من العبيد كانت نواة جيشه الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأتراك ، غير أنه لم يلبث بعد استقراره في مصر أن ضم إليه فرقاً من السودان ، ووصل عدد جيشه إلى ما يقارب المائة ألف جندي ، وبهذا اكتسب له أسباب السلطان وسار في طريقه قدماً .

وبهذه القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على كل منافسيه في مصر ، وقد لجأ في ذلك إلى كل سبيل مشروع أو غير مشروع ، ووضع على الناس الجواسيس وأخذ بالشدة حتى اشتهر أمره بالقسوة والظلم والبطش . وقد حكى ابن الداية فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيراً من مساوئه ، وحاول البلوي إنصافه والدفاع عنه ، ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاسياً مسرفاً في القسوة ، ويبدو ذلك واضحاً في كلام من دافعوا عنه ، ويبدو أيضاً أن القسوة كانت في أول أمره ، ثم صحبت سيرته بعد أن استقر به الأمر ومال إلى الحلم والعدل تكفيراً عما سلف من أعماله .

وقد حرص ابن طولون على أن يحتفظ بسلطانه بعد استقراره في مصر بضع سنوات ، فلما كان الأمير الموفق قد غلب على أخيه المعتمد وحصل منه على تفويض بحكم الولايات الغربية من أملاك الخلافة ، على أن تكون الغربية — ومنها مصر — تحت حكم الأمير المفوض بن المعتمد . ولكن الموفق شغل بما تحتاجه حرب ثورة الزنج من مال وطلب أن تضم إليه مصر ، فضعف في ماله ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك . وكتب الموفق إلى أحمد بن طولون يطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر للموفق قوته ، فانتهز فرصة موت عامل الشام سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ — ٨٧٨) وسار بجيشه واحتل الشام ، ودخلت الرملة ودمشق وحمص وحماه وحلب في طاعته ، ثم استولى على أنطاكية بعد حصار قصير . وفيما كان ابن طولون في الشام خرج عليه ابنه العباس في مصر ، وكان معه من القواد قد أغروه به ، فعاد أحمد بن طولون إلى مصر مسرعاً ، وأخمد الفتنة وقتل المشتركين فيها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد إلى الشام سنة ٢٦٦ (٨٧٩ — ٨٨٠) ، ومن ذلك نجد ابن طولون حاكماً على دولة واسعة تمتد من مصر إلى النوبة ، ومنها غرباً إلى برقة ، وتشمل الشام أيضاً .

هكذا انتظمت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وبذلك كان هذا التركي الذي ... عن مصر قد سار في آثار الفراعنة الأقدمين في ضم

الشام ومصر تحت ادارة واحدة ، ولم تكن ذلك وحدة متكاملة ، وانما هي ظاهرة تاريخية لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين اذ قامت في مصر حكومة محلية قوية لم تلبث أن ضمت الشام اليها ، أو لم يطلب الشام أن ينضم اليها ، حدث هذا في تاريخ مصر القديم ابتداء من أيام الأسرة الثامنة عشرة ، ثم ظهر عندما قام في مصر ملك البطالمة (وان لم يوفقوا الى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضعف دولتهم) ثم ظهر في أيام بني طولون هذا والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ثم ظهر في أيام محمد علي ونجدها على أيامنا هذه ، كأن وحدة هذين البلدين ضرورة منطقية تستلزمها سلامتهما وسلامة الشرق العربي كله

وفي خلال العصور الاسلامية نلاحظ أن تضامنهما لم يأخذ صورة سيطرة أحد منهما على الآخر ، بل أخذ صورة القوة الموحدة ، فسواء نظرنا في تاريخ العصر الطولوني أو الاخشيدي أو الأيوبي أو المملوكي ، نجد أن أمراء مصر وسلاطينها يقيمون بالشام قدر ما يقيمون في مصر ، ويولونه من العناية قدر ما يولون مصر ، بل أكثر من ذلك ، فقد حارب أولئك جميعا في سبيل الشام أكثر مما حاربوا في سبيل مصر ، وكان رجال دولتهم شاميين ومصريين على حد سواء ، وهذه الوحدة رهينة سلامة الجناح الشرقي من عالم الاسلام باتحاد مصر والشام ، فاذا تحقق ردت عنه المطامع ، واذا

فصلا تعرف بهما وحيدتهما السياسيون والمؤرخون ، وقد عرف الطامعون في الشرق العربي هذه الحقيقة في العصر الحديث ، فعندما أرادت انجلترا أن تمهد لنفسها طريق الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الشرق العربي بدأت بالقضاء على قوة محمد علي في الشام فسهل عليها الأمر بعد ذلك ، وما يجري تحت أنظارنا من أحداث أيامنا خير مصداق لذلك ، والكلام هنا ينصب على الشام بمعناه التاريخي الكامل ، لأن التقسيم الحالي لبلاد الشام شيء جديد فرضته مصالح الطامعين في الشرق العربي خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهو احدى النتائج للحكم العثماني في البلاد العربية .

وخاف الموفق أحمد بن طولون بعد أن اتسع سلطانه الى ذلك الحد ، وبدأ يدبر عليه وكان ابن طولون واعيا لأمره متنبها لكل ما يصدر من خصمه ، وكان الى جانب ذلك حريصا على الا يعلن العصيان على الخلافة ، بل ظل يتظاهر على مناصرة الخليفة المعتمد ، ولم يقطع ارسال الأموال الى بغداد ، بل ظل يرسل الى الخلافة ما بها من مال ، حتى ذكر أبو المحاسن أنه حمل الى الخليفة المعتمد في ٤ سنين مبلغ ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار أي بمعدل ٥٥٠٫٠٠٠ دينار في العام أي نحو ثلث خراج مصر كله ، وكان الخراج على أيامه ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار ، ومع أن المعتمد بن

طولون بعد أن ضم الشام الى سلطانه حين عبأ الحرب مع الروم ، و سد عن الدولة هذا الباب النحس باستكانته . الا أن ذلك كله لم يغن عنه شيئا في نظر الموفق ، و تعصب عليه يكيد له حتى استصدر قرارا فأعلن أحمد بن طولون على المنابر ، فانقلب على سيده و لعن الموفق

ولم يخرج أمر ابن طولون واضطر الى مناوأة الموفق علانية ، فأعلن لنفسه حاميا للخليفة المعتمد المغلوب على أمره وسجين أخيه ، واستخرج من الفقهاء فتوى بابطال دعوى الموفق في السلطان ، وقد شذ عن ذلك القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء العصر وصاحبا لابن طولون ، فلم يرع ابن طولون حرمته وصحبته ، وكان ذلك من أخطاء ابن طولون التي أحدث عنه ، وندم عليه هو نفسه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح القاضي وهو على شفا القبر ، فرفض القاضي وقال قالته المشهورة « شيخ فان وعليل مدنف والملتقى قريب والقاضي الله عز وجل » وكان لهذه المحنة وقع شديد على ابن طولون ، حتى يقال انه قضى عليه بعد سجنه ، ثم أمر بنقله من السجن الى دار اكتراها له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو آخر القضاة الذين ترجم لهم الكندي في كتابه عن قضاة مصر

وكان الخليفة المعتمد ضجر من أخيه الموفق ومن سلطته عليه من سلطان ، وكان نفسه جلا عنها (قليل الملكات ولو أراد وجدته نفسه على صاحب الزنج أو القواد الأتراك ، ولكنه كان دائم الانحدار لاستبداد أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن طولون يعرف هذا ، وكان له في دار الخلافة عيون وأرصاد ينقلون له كل شيء ، فأوعز الى المعتمد أن يغادر بلاد أخيه ويلجأ الى مصر ومع غرابة الفكرة - لأن حال المعتمد مع ابن طولون لم تكن لتكون أحسن من حاله مع الموفق -- فقد راقت له الفكرة ، لأن ضجره بأخيه بلغ به الى حد جعله مستعدا لقبول أي مخرج . فانتهز فرصة غياب أخيه وقواده وخرج في نفر من أصحابه متجها نحو الموصل ، ليمضي من هناك الى حلب وهي من أعمال ابن طولون ، ويبدو أن الخبر نمى الى اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل ، فقبض على المعتمد وأصحابه ، ووبخ الخليفة على ما فعل ، ثم رده الى سر من رأى . ونعرف من تفاصيل هذا الخبر قول اسحق بن كنداجيق لأصحاب المعتمد : « لكم قاربتم عمل ابن طولون ، والأمر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده ، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه كواحد منكم ؟ » مما يدل على أن حدود سلطة أحمد ابن طولون كانت واضحة يتخطى قواد الخلافة النظر اليها ، وعلى أن سلطانه كان بالفعل حقيقيا في مملكته برغم تخلي عنه الدولة الناقصة ، ويدل نص على أن حال الموفق كانت تنظر الى ابن طولون على أنه متمرد ، لا بد من القضاء عليه في حين

واصبح العداء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق سافرا ، فطلب الموفق الى اخيه المعتمد أن يصدر أمر بعزل ابن طولون عن مصر ، ولكن هذا الأمر ظل غير منفذ ، وقطع ابن طولون الأموال التي كان يرسلها الى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٢٦٧ / ٨٨٠ أن يسيطر على مكة ، فبعث جندا وستمائة نفر من الفرسان والرجالة فرق فيهم مالا ، ووقف بن طولون أول الامر ، وهرب هارون بن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفا على نفسه ، لم تلبث أمداد منكجور بن القصر على معاولة بن طولون ، وقد رد الموفق على ذلك بتوليه اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل اعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على عبور حدود بن طولون ، ورد ابن طولون باسقاط اسم الموفق من الخطبة والطراز ، ولكنه ظل يخطب للمعتمد .

وقد ظل هذا العداء بين الرجلين حتى سنة ٢٧٠ / ٨٨٤ عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدي الى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما قاربت على التمام ادركت الموت بن طولون بعد عودته من طرسوس في ذي القعدة ٢٧٠ / مايو ٨٨٤ عقب اسهال شديد ، وكان بن طولون عمره كله نهما الى الأكل مسرفا فيه ، حتى في علته الأخيرة كان يأكل من غير ان يعمل بمقالة اطبائه ، فلما زاد الأمر عليه عنفهم واشتط في ايذائهم .

وكان آخر جهود بن طولون محاولته لاستعادة ثغر طرسوس ، وكان هذا الثغر من أهم بلاد مملكته به ، لا سيما وقد علم بعد تمرد معاودة بذكريات السابق واتجاه بمادير الاتراك نحو ثغر في آخر عامه ، فقد ولى به أحد جماعة من المصريين وقبض على عامل بن طولون ، فأسرع بن طولون الى هذا الثغر الهام الذي يقع جنوبي آسيه الصغرى ، ونزل اذنه ، وكتب الى خاصته بسبيله دون جدوى ، بل لجأ الخصم الى كسر حصون نهر كان يمر بالمدينة فاندفع الماء فأغرق عسكر بن طولون ، ولازم بن طولون هذا الثغر ولج في حلته ، واقبل الشتاء واشتد البرد وتساقط الثلج وعظمت ثقة بن طولون وتضحياته في سبيل هذا الثغر العزيز عليه ، وضج العسكر ، فاضطر الى الرحيل عنه محنقا ، وكتب في ذلك نوائب بالمدد يقوى ، ثم رحل الا خوفا أن تحرق حرمته هذا الثغر فيضيع فيه عسوه ، وعاد الى انطاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء في ابن طولون فبعض الرواة يصورونه رجلا قاسيا غليظا لا يتورع عن شيء في سبيل ادراك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلا تقيا كريما لا يكاد يقدم على شيء فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يغالي بعضهم فيصفه بأنه كالولي ... لا يتصل ... الا برضى الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم في مرسه بهدايته الى الطريق السليم . والخلاصة في

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين والعمال للدولة ومؤسسي الممالك في تاريخ الإسلام يستحلون كل شيء في سبيل الوصول إلى السلطان والمحافظة عليه، ولا تعرف قلوبهم الرحمة إذا اتصل الأمر بسلطانهم، فلا يحجمون عن شيء يتصورون أنه يثبت ملكهم. أما فيما عدا أمور سلطانهم فهم كرماء ذوو حلم وسعة صدر وعفو وعطف على الفقراء والمساكين، ومنهم من يبلغ حظاً من الإحسان والعفو يزيد عندهم ما دام الأمر بعيداً عن تهديد السلطان أو منافسته في الحكم وما إلى ذلك.

وهم يبررون مسلكهم بأن كل شيء جائز في سبيل القضاء على الفتنة، ويكفرون عن قسوتهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والإحسان. هكذا كان شأن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأبي عبد الله السفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والإخشيد والمنصور بن أبي عامر وسلاطين المماليك ومن إليهم. ومن لم يقف لحقائق يتحكم عليهم، ومن نظر إلى حسناتهم ومآثرهم ومنشآتهم ومحبيهم وبرهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير هذه الناحية منفرقة من خلقهم، ومن نظر إلى كفاحهم السياسي رأى الناحية الثانية. ولا بد من اعتبار الوجهين معاً في عصرنا، وإذا ذهب هذا عنا مع مسلكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم، فقد عاشوا في زمن كانت الوسيلة الوحيدة فيه للسلامة من أذى خصومهم هي قتلهم، وكانت قاعدتهم للخصومة التي لم يعلنوها هي قول ... أن يسبق أحد منا إلى خصمه قبل أن يرسله.

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون على خوف دائم منه، خشية أن يبطش بهم ويشتد في عقابهم، فيكون سيفه أسرع إلى رقابهم من دفاعهم عن أنفسهم إلى أذنيه. وقد عبر عن ذلك طبيبه سعيد بن نوفيل النصراني، فقد عجز عن علاجه عندما اشتد عليه الإسهال بدل فضي منه، فقيل له: لست تجافي؟ فقال: والله ما خدمني به إلا خدمة الفار للسنور، وإن قتلي لأهون علي من صحبته! وقد بلغ به الضعف أثناء مرضه الأخير إلى درجة أن تعذر عليه الانتقال إلى مصر براً فحمل في البحر، فلم يكد يصل حتى هدد أطباءه بالقتل إذا لم يعالجوه، فعاجله الموت قبل أن ينفذ وعيده.

ولا شك أن نجاح ابن طولون يرجع أولاً وقبل كل شيء إلى سياسته الإدارية والمالية، فقد أدرك الرجل من أول الأمر أن مصر بلد غني كثير الخير، وأنه إذا أحسنت إدارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه غيره من النواحي، وإذا أحسن تدبير الحاصل أمكن الوصول به إلى الكثير. ولهذا فقد وجه همه من أول الأمر إلى تنظيم تدبير شؤونها. وكان ابن مدبر ومن سبقه من ولاة العباسيين قد عملوا الأرض إلى مجرد أداة

جمع المال ، فرضوا من الضرائب والمغارم والمكوس ما أثقل كاهل الأهلين ، وأفضوا إلى جانب ذلك بالمصادرة مع أهل البلاد وعيون الثروة . فهبطت الأحوال الاقتصادية هبوطاً شديداً ، وهبط الخراج عند ٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، رغم الجبايات الاستثنائية والمغارم .

فلما جاء أحمد بن طولون عمل على إصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة إلى ذلك إلا بتوطيد الإدارة وإحكام الرقابة على الموظفين ، وخفض المبالغ التي كانت ترسل جزافاً ورشى إلى مراكز الخلافة . وقد سبق أحمد بن طولون إلى ما لم يتنبه إليه أحد ممن ولي بلاد مصر قبله من الأمراء ، وهو أن أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من الأجانب ، فاستكثر من الموظفين المصريين حتى أصبحت الإدارة المالية كلها في أيديهم . وقد ذكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن مساوئ هؤلاء الموظفين كثيراً من الأخبار البعيدة عن التصديق ، كهذا الخبر الذي يرويه أبو المحاسن عن ابن دشومة ر بوسومة ؟) سرق المال ونصحه لأحمد بن طولون بالاستمرار في الجبايات الظالمة (المسماة مظالم) وكيف أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عوضه الله عما تنازل عنه بكنز عظيم عثر عليه في خرائب سنتحدث عنه بتسميته الكنز الأعظم ، ولكن ذلك كله لن يعدو الا رد فعل لما عمله ابن طولون من وضع الأمور المالية في أيدي المصريين وما أدى إليه ذلك من الحد ، فقد

ارتفع الإيراد من ٨٠٠٫٠٠٠ إلى ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ ، ووجد ابن طولون متسعه في سعة .

أما الكنز الذي عثر عليه ابن طولون ، وهي من قصة جامعة فلم يكن من غريب ، فقد كان الناس في عصور تاريخ مصر الإسلامية يحلمون بالعثور على شيء من كنوز الفراعنة كما يحلم الناس اليوم بالعثور على البترول ، وكانت هذه الكنوز تسمى المطالب ، وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون عقد لها في مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن طولون من حنكة أحمد بن محمد الواسطي متولي شؤون المال ، فقد كان رجلا قديراً ، صادقاً حاول بعض المؤرخين أن يجعله من واسط ، ولكنا نرجح أنه مصري من الواسطية . واستعان ابن طولون أيضاً بأبي بكر المادرائي ، وكان نابه التدبير ، وأصله من مادرايا ، ولكن المقريزي يحكي عنه حكايات تدل على سوء استغلاله للسلطان واستمالته فئات من أصحابه في مقامات تخصص فيها (وكذلك كان بقية المادرائيين ، وسنتحدث عنهم فيما بعد) .

ونلاحظ أن تصرفات ابن طولون فيها شيئاً من الشبه بتصرفات محمد علي ، فقد احتكر بعض المصنوعات كالتيل ، وتاجر في محاصيل (وإن كان المؤرخون يقولون إنه عدل عن ذلك لأنه وجده مخلا بشأنه ، ولكن الثابت أنه عاد إلى متاجرة في محاصيل في أواخر أيامه) وكانت نتيجة هذه الإدارة

بالبلاد الحجازية أن كثر الناس في يدي بني طولون ، فأقبلوا على شراء العبيد ، وبلغ عددهم حتى قيل إن عددهم بلغ ١٠٠ر٠٠٠ جندي ، والراجح أن معظم الجيش كان من السودان ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠ر٠٠٠ من جنده كانوا من السودان و ٢٤ر٠٠٠ من الأتراك ، أما الباقي فمن أصناف شتى من المرتزقة ، بينهم نفر من الروم والنصارى .

ومن منشآت الكثيرة لأحمد بن طولون مبانيه الكثيرة ، وأهمها جامعه الذي بقي إلى اليوم ، وهو من معالم تاريخ العمارة الإسلامية ، فقد بني على صورة جامع سامرا وخاصة مئذنته ذات السلم الخارجي الحلزوني . وقد شرح ابن طولون لمهندسيه كيفية بنائها في خبر طريف ساقه أبو المحاسن . وقد عمر ما حول الجامع عمارة عظيمة حتى أصبح منطقة من مناطق التجارة تعرض بضائعهم بالقرب منها إلى اليوم ، مع أن مساحته لم تزد على ثلاثة فراسخ . وأنشأ ابن طولون أيضا بيمارستانا ، وأنفق في بنائه ٦٠ر٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، ويعد البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام في تاريخ مصر الإسلامية ، وكان مقسما أقساما بحسب الأمراض ، وبه الأطباء والكحالون والممرضون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف للمرضى . وأنشأ قصره الكبير على طراز قصور خلفاء بغداد ، وبنى أمامه ميدانا فسيحا لعرض العسكر ، ونصب فيه وأقام فيه مظلات ، وكلفه ذلك ٥٠ر٠٠٠ دينار .

وكانت نفقاته في أبواب الخير كثيرة ، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس وفق نظام معين وضعه . ووقع أن حرق جزء في دمشق ، فأعطى في موضع حريق الناس ٧٠ر٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيحدثنا بعض الرواة أن الله تعالى لم يغفر له كل ذنوبه ، فقد روى محمد بن علي الماذرائي أن قارئ القرآن على ضريح ابن طولون انقطع عن القراءة مدة ، فلما سأله عن السبب قال « رأيته في النوم وهو يقول : أحب ألا تقرأ عندي ، فما تمر آية إلا قرعت بها وقيل لي : أما سمعت هذه ! » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته « العسكر » على عادة أمراء مصر من قبله ، فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفسطاط سميت « القطائع » ، وكان موضعها من قبة الهواء (موضع قلعة القاهرة الحالية) إلى جامع ابن طولون ، وعرضها من الرميلة إلى حي زين العابدين . ولم تكن مدينة ، وإنما هي ضاحية . قال أبو المحاسن : « وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل » . وقبة الهواء كانت في السطح الذي عليه قلعة الجبل ، وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون ، وموضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت قلعة الجبل بالرميلة . وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستانا ، ويجاورها ميدان الذي يعرف اليوم بالقبيبات ، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي أنشأه أحمد بن طولون محيطا به ، وحوله

الجامع و دار الإمارة في جهته القبلية ، وبها باب من حديد بالجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جانب المحراب ، هناك دار الحرم . والقطائع عدة قطع يسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه . وقد قسمت القطائع إلى أقسام تشبه خطط الفسطاط ، قال القضاعي : « وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم ، وبنى القواد مواضع متفرقة . وصارت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع » .

وقد خلف ابن طولون في خزائنه من الذهب النقد ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، ومن المماليك ٧,٠٠٠ مملوك ، ومن الغلمان ٢٤,٠٠٠ غلام ، ومن الخيل الميدانية ٧,٠٠٠ رأس ، ومن البغال والحمير ٦,٠٠٠ رأس ، وذكروا أنه كان يتصدق في كل عام ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، على أن ذلك العهد المجيد ، لقد أراد هذا الأمير أن يستقل كل عام بعد نعماته مطوب ... حتى إذا كشف عمره ملأ بين صدعها قطعة واحدة وخطوب ... مصره حتى تعلم أمره ... على منهج ... دولة ... ابن طولون من بعده ... وكر أعقبهم العباس

وهو أكبر أبنائه ، وهو الذي ثار به فقبض عليه وحبسه ، وخمارويه الذي خلفه على الولاية وعدنان ... وربيعة وأبو العساكر

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين إلى أن استبداد أحمد بن طولون بمصر يعد حركة قومية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال بمصر في ظلال الإسلام . وذلك إسراف في تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فإن ابن طولون أولا لم ينفصل عن الخلافة بل ظل تابعا لها ، وهو لم يقطع الخطبة لبني العباس بعد ، واستمر يرسل المال إلى بغداد معظم أيامه فلم تقع القطيعة إلا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين الموفق . ومن ناحية أخرى كان المصريون بعيدين عنه وعن حركته ، بعيد أنه اعتمد عليهم في إدارته أكثر ، ولكنه لم يتمصر ولا شعر أنه يعمل لحساب مصر أو يمثل قومية مصرية . وكل ما هنالك أنه كان رجلا ذكيا قادرا أحسن الاستفادة من الظروف واستخدم ثروة مصر في إدراك ما يصبو إليه نفسه من الانفراد بالسلطان في ناحية ما . وكان من الممكن أن تنتصر دعوته لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ، فإن مصر كانت غنية بمن يعينهم فيها ، وقد بدأ جيل أول خطوة من خطوات مصر ... نفسها عن ... وقد ... كان ... وقد عرف مؤرخو مصر ... فاستأصلوه بالتعمير والإصلاح ، ويتحدثون عن سيرته الأساسية

خمارويه وأبو العساكر جيش وهارون بن خمارويه

وخلفه ابنه خمارويه، وهو ثاني أولاده، وقد كان ابن طولون أوصى له بالأمر، وتولى بعد مضي وفاة أبيه في ذي القعدة ٢٧٠ مايو ٨٨٤، وقد حنق العباس على ذلك وهو في محبسه فعجلوا بقتله. وكانت مفاوضات الصلح بين ابن طولون والموفق دائرة عندما مات الأول، وكان الجانبان قد اتفقا على أن تظل مصر والشام له، فلم يكد قواد الموفق يسمعون الخبر حتى جاهروه على الموقف، وكان أحدهم قد ولي على الشام قبل ذلك — وهو ابن كنداجيق كما ذكرنا — فانضم إليه أبو الساج عامل شمال العراق وزحف إلى الشام ومصر، وتمرد بعض حلفاء ابن طولون، وانضم إليهما عامل دمشق لابن طولون ووزير لابن كنداجيق من أنطاكية وحلب وحمص. وبعث خمارويه بجنده لملاقاة خصومه، فعسكروا عند شيزر، ودخل الشتاء فتوادع الجانبان.

وفي أثناء الشتاء انتهز ابن كنداجيق وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة معسكر المصريين على غرة، وقد فوجئ المصريون بذلك الهجوم، فانهزموا حتى الرملة. ثم وقع القتال بين أحمد بن الموفق وقواته، وخرجوا في نحو ٤٠٠٠ من جنده. وفي هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه ٧٠,٠٠٠ من جند مصر الطولونيين، وعسكر الهجوم على معسكر العدو. وفي منتصف شوال ٢٧١ أبريل ٨٨٥ وقع القتال بين الجانبين عند نهر أبي فطرس المعروف بالطواحين شمالي يافا. ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك قتالا فارتاع عند القتال وهرب مسرعا إلى مصر ومعه معظم جيشه، وانقض جند أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ينهبون ويأسرون. وفي هذه اللحظة تقدمت فرقة من الجند المصري يقودها قائد يسمى سعد الأيسر فانقضت على جند أحمد بن الموفق، فحسب هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند، ففر هاربا وحمل بقايا جيشه، واشتد عليهم المصريون وهزموهم هزيمة كبرى عند ... ، ثم أسرع المصريون فاحتلوا دمشق.

وقد استخف سعد الأيسر بخمارويه وبدأ يفكر في الانفراد بالشام، ولكن خمارويه تغلب عليه وقتله. واستمر القتال بين خمارويه والموفق طائفة من الزمن، ثم عقد الجانبان صلحا ترك به مصر والشام لخمارويه لقاء مبلغ سنوي معين. وتحسنت الأحوال بين الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه أحمد بن الموفق باسم المعتضد في رجب ٢٧٩ / أكتوبر ٨٧٢. فتأكد الصلح بين مصر والخلافة، وعرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد، ولكن هذا الأخير فضل أن يتزوجها هو، وقد حملت إليه في موكب فخم، ودخل بها عام ٢٨١ - ٨٧٥. وقد بالغ خمارويه في تجهيز ابنته حتى قيل إن المعتضد أراد

ويروى أن ... في جهازها ... وزاد توحيد بين الخليفة وخمارويه بعد عقد الزواج ؟ وولاه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة ، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع الأعمال ، على أن يحمل خمارويه إلى المعتضد في العام ٢٠٠٬٠٠٠ دينار عما مضى و ٣٠٠٬٠٠٠ دينار عن المستقبل ؛ واستقرت الأحوال لخمارويه بعد ذلك .

ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الفرصة التي أتيحت له ، فمضى ينفق المال على نحو جعله مثلا في أفواه معاصريه ، وبلغت نفقته على جنده قرابة مليون دينار ، وبالغ في منشآته حتى جاوز بعضها المعقول ، فأنشأ حديقة لم يسمع بمثلها ، أدخل فيها حديقة نباتات وطيور وحيوان في آن واحد ، ويقال إنه أنشأ لنفسه بركة من الزئبق يوضع له على سطحها فراش ينام وهو يهتز ، إذ كان النوم كثيرا ما يمتنع عليه . وقد أنفق خمارويه في هذه الشهوات ما كان أبوه قد ادخره وما كان يأتيه من خراج ، واستكثر من الجواري والعبيد حتى ضاع أمره ، وكثرت نفقاته على طعامه حتى كان الباقي في مطبخه من أصناف المأكول يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه ، ... واشتهر بيع الطعام لذلك ، فكان الناس يأتونهم لذلك من البعد ، ويشترون منهم ما يتمكنون منه من الأنواع الغريبة من المآكل ، وكان هذا سوقا في كل وقت ، حتى أن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى دار الحرم ، فيجد ما يشتريه فيحصل به نصفه مما لا يقدر على ثمن مثله . وكانت نفقة المطبخ في الشهر ٢٣٬٠٠٠ دينار . وقد مات قتيلا على أيدي خدمه وجواريه في دمشق في ٢٦ ذي الحجة ٢٨٢ (يناير ٨٩٦) .

وخلفه ابنه أبو العساكر جيش ، وكان شابا صغيرا لا يحسن من الأمر شيئا ، التف حوله طائفة من أمثاله الصبيان والملهين فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبي العشائر بن طولون فقتله ، فثار الجند به وعزلوه عن خلعه . وكان الجيش الذي كونه جده قد أصبح القوة العظمى في البلاد ، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الحدث أعين قواده ، فتخلى عنه رجال مثل خاقان المفلحي ومحمد بن إسحاق بن كنداجيق ووصيف بن سوارتكين وبندقة بن لمجور (أو لمجور) وأخيه محمد بن لمجور وأبي ... وأمثالهم ، وما أتيت بهذه الأسماء لأبين للقارئ كيف كان قواد الجيش وبالتالي جنودهم — من غير المصريين . والله لمن الغريب أن نلاحظ كيف حرص أولئك الحكام على الاعتماد على جند أجنبي ، وأمامهم أهل البلاد يمكن تجنيدهم منهم ، لا في مصر وحدها بل في بقية بلاد الدولة الإسلامية . صحيح أن المصريين ... كثير على جند مصريين ، واستعانوا بذلك ، ولكن هذه هي القاعدة التي جرى عليها حكام المسلمين جميعا في العصور الوسطى ، اعتبار أهل البلاد رعية مستأمنة

تتحكم بواسطة جند أحسن مرتبة وأكثر عددا من الكد، سائب وإلا عدد الدولة تضعف . وكان كبار الدولة يعتمدون في هؤلاء الجند . أبو جعفر بن أبي ينفذ خطة أبي الجيش في تعلية القواد في أمره ، ولاسيما القواد في الدولة وسياسته ، وانتهى الأمر بقتله ووضع دارة في موضع في أيدي بعضه من نهبها ما يسيلا قلوبهم وعيونهم ، حتى أن بعضهم من كثرة ما حصل بيده ترك العسكرية وسكن الريف ، وصار من من زراعة وتجارة .

ثم خلفه أخوه هارون بن خمارويه ولم يكن بأحسن حالا منه ، فلم يكن يرجى لدولة صلاح على يديه ، فهذه الدول لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ، وإنما يقيمها صرح رجل بشره ومشكلاته ، فإذا انقضى أمره ردت الدولة تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣ سبتمبر ٨٩٦ وكان جند الدولة قد فسد أمره وتفرق وحدته ، إذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من الترك وأخرى من السود وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقة أهمهم الروم ، وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد عملا بعض ثلاثة من قوادهم هم بدر وفائق وصافي ، وكانوا من خيرة القواد عقلا وقدرة ، فحقد عليهم الباقون ، وخاصة السود . وكان ربيعة بن أحمد بن طولون ، وهو عم هارون ، قد تنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الأمر لنفسه ، وعندما عن عند هارون كان على

السود ، فحصب قواد الروم ، وجمعهم أن يهم في أن يحول بينه وبين طائفة من الجند يسيئون على عطائهم ويزيد عليهم كالعجب عليه ، وقد خشي هارون تفصل جماعة السود من العصابة على بيعة وخلافه ، فزادهم خيرا من نفسه وزودهم وحصل منه .

وتولى أمر هارون أبو جعفر بن أبي وصفي يحاول إصلاح أمر أصبح من العسير إصلاحه ، وفي هذه مناسبة أظهر قواد الروم سماحة وبر يسوقنا النثر ، فدهشوا للحج واحدا بعد واحد وأنشأوا بعض منشآت البر التي نعم مصاة محيحها أبي طولون وسبلا لشرب الناس وأكثر من غيرهم مال والطعام على المساكين ، وعمل فائق وصافي مثل ذلك ، وظهر من الإخلاص قلب المصريين ما لم يظهره غيرهم ، رغم منافسة هارون في الأمراء بعيدهم . وقد اشتد أبو جعفر بن أبي مع الروم وفرق قوادهم في البلاد . وفي ذلك الحين بدأت حركة القرامطة تجتاح الشام ، فتصدى لها جند الطولونيين ولم يكونوا من الشباب في وجهها ، فاستعاد ذلك جانب كبير مما كان قد بقى لهم من قوة .

وكان أمر هارون قد فسد ونفر منه جنده إثر مقتله ، وتسامع رجال الخلافة بذلك فأسرع المعتضد في مسعاه ببسط سلطانهم على مصر ، وأرسل الخليفة المكتفي وزيره القاسم بن عبيد الله الكاتب القائد محمد بن سليمان الحنفي للقضاء عليهم ، وكان محمد بن

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، إذ استخدمه لؤلؤ الطولوني كاتباً له . فلما انحرف لؤلؤ عن بني طولون وانضم إلى جانب الخلافة انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح في جملة القواد ، ثم ندبه المكتفي للقضاء على آخر الطولونيين .

وبينما كان جند العباسيين يستولون على أملاك الطولونيين في الشام ، وثب شيبان بن أحمد بن طولون على ابن أخيه هارون وذبحه بيده في ١١ صفر ٢٩٢ (نوفمبر ٩٠٤) وتولى الأمر مكانه . وكان شيبان هذا أهوج خفيفاً جداً شديد البذخ في عنفوان شبابه ، فصار يسرع في أموره ، وذلك بعد أن تم أمره ، وكان جند الطولونية قد أيسوا من الأمر ، فانضموا جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفي . ووصل محمد بن سليمان إلى العباسة (بمديرية الشرقية) وقد تخلى الناس عن الطولونيين وأسرع عبد الله قائد الأسطول المصري فأجرى جسر مصر الشرقي ونصب الغربي حتى تعزل الفسطاط عن الصعيد وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقفه دون الفسطاط ، ومضى شيبان بمن بقي معه من الجند السود وحاول الدفاع . ثم كتب إليه محمد بن سليمان يؤمنه وهؤلاء جميعاً ، فاستأمن وسار إليه بأخيه ... كما حدده واقعي في الفسطاط وهم لا يعلمون بتخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وهان عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة جماعة بين يدي القائد العباسي . ثم حرقت القطائع ونهب الفسطاط نهباً ذريعاً وأصاب الناس أذى شديد ، وانتهت دولة بني طولون . ولم يحكم شيبان غير ستة أيام . وقد جهد محمد بن سليمان في إزالة آثار الطولونيين جملة حتى لم يبق منها شيء ، واستصفى أموالهم ونهبها وحمل إلى بغداد جزءاً ونهب الباقي ، وقد حاسبه الخليفة على ذلك أعسر الحساب . ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، إذ استبدله الخليفة المكتفي بعيسى النوشري ، وعادت مصر ولاية عباسية كما كانت .

نظرة عامة على دولة بني طولون

حكم بنو طولون مصر ثمانية وثلاثين عاماً ، وإن من يتتبع سيرتهم في تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة ، وهم كما رأيناهم لم يحضروا إلى مصر جديداً ولم يتقدموا بأمرها خطوة ، بل كانوا كسحابة صيف ، أما صيتهم البعيد هذا فيرجع الفضل فيه إلى المصريين ومؤرخيهم . ولكن يبدو أن ما يقوله أبو المحاسن من أن الدولة الطولونية كانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام ، لم يكن مبالغة ، فقد أمنت البلاد في أيامهم ورخصت أسعارها ، وما خافت في أيام أحمد بن طولون وخمارويه . أما ما أنفقت طرفاً منه من الشرع من الجند فكان أمره مقصوراً على المحاربين . يتحاربون ويقتتلون في واد

والناس في واد آخر ، الا اذا دار القتال في العاصمة فلا يصيب الناس أذى .

وقد نلمس بعض الصعداء مع آل طولون ، ويكشف عنهم حب ولاء المصريين ، وبدأ يسود في البلد وعي بالشخصية المصرية ، ولكنه كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج الى سنوات طوال لينمو ويأخذ صورة واضحة . ولو تنبه آل طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ، ولكنهم ساروا في أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبي ، فحيل بينهم وبين القطائع ثمر ما غرسوه ، وظلوا أجانب مرتزقين تعصف بهم رياح السياسة والعسكرية ، وتلاشى أمرهم مع أمس الدابر . ومع ذلك فقد أسف المصريون عليهم وقالوا في رثائهم شعرا كثيرا ، بل ازدحم الشعراء على أحمد بن طولون حتى قال القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في كتاب « حسن السيرة في اتخاذ الحصن في الجزيرة » : « رأيت كتابا مصر اثنتي عشرة كراسة مكتوبة فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ، فاذا كان اسم الشعراء في اثنتي عشرة كراسة ، فكم يكون شعرهم ؟ » .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا عن مصر ، ولكنه يعد بدون شك من رجال التاريخ المصري . فقد كانت تلك أيام لا تعرف غير القومية الاسلامية ، فأحمد بن طولون مصري في مصر وشامي في الشام وعراقي في العراق ، وهو انما كان موهبة وأصبح منسوبا الى البلد الذي كرس معظم جهوده للنهوض بأمره ، وتكوين دولة مصرية اسلامية ، في الاطار العام للتاريخ الاسلامي . ويعد ابن طولون من أفذاذ هذا التاريخ ومن أبطال التاريخ المصري تبعا لذلك . واذا قارناه بغيره ممن استولوا على نواحي الدولة الاسلامية في ذلك العصر رأيناه يمتاز عنهم بفكرة واضحة عن الدولة وما ينبغي لها . وقد كان منشئا لبيب ومنظما لبيب مختار . وكان ذلك من حسن حظ مصر ، بل ربما كان ذلك أثر مصر فيه . واذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الاسلامية ، فان ابن طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول تجربة لانشاء كيان مصري خاص داخل الكيان الاسلامي العام ، وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج الذي جرى على منواله محمد بن طغج الاخشيد ثم الفاطميون ثم الأيوبيون . فاذا كانت التجربة قد انتهت الى الفشل فان ميراثها ظل باقيا وأصبح محور تاريخ مصر الاسلامية . ومن ذلك الحين سيجتهد كل من واتته الفرصة في اقامة دولة في مصر والاستبداد عليها ، مما جعل لتاريخ مصر الاسلامية خطا متصلا مستقلا عن سيار العام لتاريخ الشرق الاسلامي . وقد هيأت الأسرة المصرية فحيى أحمد بن طولون للاتجاه في الوجهة التي سلكها تاريخ مصر العام . فقد استبد بها ثم ضم اليها رقعة واسعة بعد ذلك

الى الشام وتخلص من دولة بنيه وجدد حضارته وستعيد دولة كل شيء بعده والتجربة الطولونية من هذه الناحية عظيمة الشأن في تاريخ مصر بعد ذلك حتى عصر قاعدة القوة الاسلامية ، فاذ تمثل بها الشام أصبحت تعود الفرى لدولة الاسلام ، وحينئذ سيصبح ذلك حقيقة واقعة ، وتصبح مصر عين الاسلام و خلافة والثقافة العربية

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصري العام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على أن مصر لا زالت تحتفظ بعناصر القوة في كيانها على الرغم من الكوارث التي توالت عليها منذ غزاها الفرس أولها سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وقضائهم على مظاهر حضارتها الفرعونية ، وما تلا ذلك من محاولات تلقى على الجذور البعيدة للحضارة المصرية من بعث الفرس في مصر وتخريبهم لها ، وغلبة الاغريق وثقافتهم خلال العصر البطلمي ، ثم ما نزل بمصر من مصائب الرومان وتعصب البيزنطيين واضطهادهم ، ثم الفتح العربي وكل ما أتى به من مقومات حضارية وقيم معنوية روحية جديدة ، وما صاحب ذلك كله من الانتقال من الوثنية الفرعونية الى المسيحية فالاسلام ، ومن تغير اللغة من لهجات مصر القديمة الى هذه اللغة القبطية وصراعها مع اليونانية ، وذهاب هذه وتلك وجريان ألسنة أهل مصر باللغة العربية على أن ذلك كله [illegible] الجدود [illegible] وما هو

الا [illegible] مصر بالهدوء [illegible] من السنين حتى عادت اليها عافيتها و بدأت [illegible] ثم لم يمر [illegible] حتى [illegible] طولونيين ورجاله وخلفاؤه [illegible] مرهم ولكن سرعان ما شعر [illegible] شعور [illegible] يرضى بالانتماء [illegible] في كيانه دون أن يصدق أنه في طريق العافية

بقي سؤال فيه أن تترك هذه التجربة الطولونية ما الذي حسبه رجال الدولة العباسية يعتبرون هذه الفترة على [illegible] الطولونيين

[illegible] تلك نظرة [illegible] الى دولة العباسية في مجموعها [illegible] تلك للاحظنا أن بني طولون ، رغم كل شيء ، كانوا أبر الناس بها و [illegible] بها ، فهم لم يخرجوا على الطاعة ولم يمنعوا مالا ، حتى السنوات التي قطع فيها بنو طولون مال مصر عن الخلافة فرضت [illegible] خمارويه [illegible] يدفع ٢٠٠٫٠٠٠ من السنوات الماضية و ٣٠٠٫٠٠٠ في كل عام جديد . وفي [illegible] سنوات [illegible] التي [illegible] الريح بمصائر دولة العباسيين وهب عليها ريح الفرقة [illegible] يكن لخلافة من [illegible] الا ما يرد من مصر من دنانير الذهب ثم ان طولونيين [illegible] الخلفاء ووسعوا عليهم [illegible] الحرب مع [illegible] بن [illegible] الكلا [illegible] طولون ما [illegible] الى [illegible]

مصممين في الحقيقة أنهم أسر و حرب ، ثم
عادوا إلى بلاد مصر ، حرقوا ونهبوا كأنهم
يتعمدون هذه مجادلا ؟

الحق ان ثلث بعض على مخطط المقريزي
الخطط العام بعد الدولة العباسية ، فقد
كانوا ... من بغداد وبعماء ... بهم
بغداد ودمشق كما ... الفسطاط ،
وأمر الخلفاء ... قاسى بنو طولون
كانت بلاد الخلافة العباسية كلها فريسة أو نهبت
بعد ذلك ، وإذا تأملنا الأسباب التي أدت إلى
حدوث هذه لم نكن نعثر من هؤلاء الرجال
مجال ، وانه لم يكن بعدها بين أهل ... حين
عن العرب على هذه الدولة ورجالها وسجل
... وفضل ما لحق مما للقضاء على الأبدان
لم يكن رجال الدولة ... وكانت
... على كل ... أو
... و النظام

من الطولونيين إلى الاخشيديين

عادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدولة
العباسية ... ولم يكن من
المأمول أن تستقر حالها أو تهدأ أمورها
والدولة ورجالها على ما وصفنا ... هو أن
استقر محمد بن سليمان الكاتب بمصر حتى
... عنها الخلافة ... عيسى بن محمد
النوشري وكان من ... محمد بن
سليمان ... عليها في جمادى الآخرة
٢٩٢ ... ٩٠٥ ...
الحسين بن حمدان إلى مصر ... أبي

... علي الخرج ... أصحابه ...
... كسره ...
الاسكندرية ... والاحتراف
... كانت هذه
من أهم ... نلاحظ أن ...
كانت ... في مصر في تلك الحقبة
... النوشري ... رجال الدولة الطولونية
وأخرجهم من البلاد ...
الطولونية ... مع محمد بن سليمان
حتى ... دمشق ... أمرهم ، منهم من
ذهب إلى العراق ومنهم من عاد إلى مصر

وكان من بين هؤلاء العائدين شاب من
العامة يسمى محمد بن علي الخليجي
ويلقب أيضا بالخلنجي أو الخليج وكان قبل
ذلك في قيادة صالح ... وصل إلى
مصر ... بني طولون ...
العباسيين ... نفسه وقرر القيام على
الدولة واجتمع إليه نفر من الجند وبايعوه،
فأسرع ... نحو الرملة في شعبان ٢٩٢
يونيو ٩٠٥ وقضى على الحامية العباسية بها
وملك البلد وخطب فيه ... ولابراهيم بن
خمارويه بن طولون ... ثم كر إلى
مصر ، وحاول عيسى النوشري أن يتصدى له
فانهزم أمامه ، ... إلى الجيزة وأحرق
الجسرين المؤديين من الفسطاط إلى الجيزة
دخل الخليجي الفسطاط ... النوشري
... الخليجي ...
...
... هذه الأحد

وقد اضطرب أمر الخليجي بعد تلك الهزيمة فأخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدي لجنده أرزاقهم. وقد جمع للدفاتر وجباية الدولة ابن الحسين بن أحمد الماذرائي أحد الدواوين — أي دفاتر الأموال — وهرب بها حتى لا يوقفه على معرفة أصول الأموال، فلجأ الخليجي إلى إكراه الناس على أداء ما يطلب، وأجرى أعماله على الظلم والجور وصادر أعيان البلد فلقي الناس منه شدائد، إلا أنه كان إذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه، ووعده أن يرد له ما أخذ منه أيام الفراغ. ولم يستقم الأمر لهذا الرجل، فقد اضطربت الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة وتوالت ثوراتها، فقبض عليه وزير بن دوت بعد أن حكم مصر سبعة أشهر وأياما.

وهذا الحادث يكشف عن ضعف بناء الدولة وقلة عدد القائمين بأمرها من الرجال، فقد استطاع هذا الشاب المغامر أن يتحدى الدولة ورجالها، ويسيطر على مصر ويهزم جيوشها، وأن يزعج عامل العباسيين حتى أصبح يفر أمامه من الفسطاط إلى الصعيد إلى الإسكندرية. ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفئا للمطلب الذي أراده لما استطاعت الدولة أن تتغلب عليه. ويكفي أن نذكر أن سنة ٢٩٢/٩٠٤—٩٠٥ شهدت أربعة ولاة لمصر، هم شيبان بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى النوشري ومحمد الخليجي.

الإخشيديون[1]

وقد كشفت التجربة الطولونية أعين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدمه مصر للمتولي أمورها من امكانيات. وقد كانت الدولة العباسية إذ ذاك في حالة تفكك وتصدع كاملين، وكل من قدر على ناحية استبد بها عامل في شرق الدولة، أي فيما يلي العراق شرقا، فقد أصبحت البلاد نهبا موزعا بين الاقطاعيين الكبار والمحاربين. فأما الطائفة الأولى فكانت نفر من الأغنياء حازوا مالا مكن لهم من اصطناع جند مرتزق، وبهذا الجند المرتزق حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين ولا تمنعهم الدولة عنه بمال معلوم. وأما المحاربون فكانوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والخراسانية ومن اليهم ذوي مكانات وقدرات تصلح للحرب والقتال، وظهر منهم أفراد يمكن أن نشبههم بالكوندوتييري Condottieri الايطاليين في القرن الخامس

[1] جميع المراجع التي أشرنا إليها في الحديث عن الطولونيين تحدثت عن الإخشيديين وبالإضافة إلى ذلك نذكر أهم دراسة في تاريخهم للسيدة الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة ١٩٥٠ والمراجع المستوفاة المذكورة في ذلك الكتاب. وكذلك مادة إخشيديين بدائرة المعارف الإسلامية بقلم كرى فاندنبرج بيكر وغيره

C.J. Tornberg : *Mémoires sur les monnaies des Ikhchidites* (dans Nova Acta Regiae Societatis Scientiarum Upsaliensis) 3e série, vol. II

عشر ، وهم مستعدون جميعاً ، يقدمون سيوفهم إلى من يريد لقاء أجور معينة ، وقد يقودون هم هؤلاء الجنود ويؤسسون لأنفسهم ومن معهم ما يريدون .

ولقد نبع من الطائفتين — ملاك الأراضي والمحاربين — أفراد تمكنوا من أن ينشئوا دولاً ، بل منهم من دخلوا في خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيها ، كالبويهيين والسلاجقة من بعدهم . غير أن هضاب إيران وتركستان وما يليها حتى حدود الصين كانت بلاداً فقيرة قليلة الخير ، لا تعين دولة على الصمود زمناً طويلاً ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرضوا أنفسهم على دولة الخلافة . وفي بلاد المشرق المضطرب الحافل بالانقلابات والدسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكأنها في تتابعها كانت موجات بحر يلي بعضها بعضاً ويلاشي بعضها بعضاً .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعاً أن الجانب الغربي من الدولة العباسية يقدم للطامع فيه فرصاً أحسن ، فهناك مصر القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، ومن تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل ، وبهذا المال الوفير يستطيع أن يجمع مطامع أهل الدولة ويقيم لنفسه ملكاً يدوم بدوامه ، ويرثه أولاده وأعقابه . وهذه هي عبرة التجربة الطولونية في نظر رجال الدولة العباسية ، فمنذ بدأ أمر بني طولون يضعف بدأت أنظار رجال الدولة إلى مصر ، وأصبح الأذكياء منهم حريصين على أن يثبتوا أقدامهم فيها محاولين إعادة التجربة الطولونية لحساب أنفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائد تكين الخزري ، ثم محمد بن طغج الإخشيد . فأما تكين فقد ولي مصر فيما بين سنتي ٢٩٨/ ٩١٠—٩١١ و ٣٢٣/ ٩٣٤—٩٣٥ أربع مرات حكمها في مجموعها قرابة ستة عشر عاماً . فإذا ذكرنا أن عمر دولة بني طولون كلها لم يزد عن ٣٨ سنة والإخشيدية عن ٣١ ، تصورنا طول المدة التي سيطر فيها تكين هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضاً .

غير أن جميع من نشئوا في مصر من أولئك القواد لم يرزقوا شيئاً مما رزقه أحمد بن طولون من المواهب والكفايات ، حتى محمد بن طغج الإخشيد نفسه ، لم يكن يمتاز عن تكين بشيء ، فلم يكن على ثقافة أو اتساع ذهن أو طموح بعيد ، بل كان ميالاً أميل إلى الجبن وسوء التصرف . ولولا أن أمور مصر المالية كانت في أيامه إلى أسرة المادرائيين لما استطاع أن يقيم لنفسه في مصر كياناً ، ولولا قيام كافور الإخشيدي بشؤون بنيه من بعده لتلاشى أمر بني الإخشيد عقب وفاته . وإذا قارنا بين محمد بن طغج وكافور رجحت كفة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد صمود الدولة ومحور سياسة مصر خلال العشرين السنة التي انقضت بين موت محمد بن طغج وزوال أمر بني الإخشيد على أيدي الفاطميين .

ومن هنا فانه يبدو لنا أنه من مصلحة
بحث دولة الاخشيديين في مصر بعد الطولونيين
دون الحيز والاهمية في تاريخ مصر لعله
لانهم ... وصفوا ...
أو سلكوا سياسة بحفظهم في صفحات دون
تاريخ المصري ، ومن الانصاف ألا ... دولة
الاخشيدية ... دولة الاخشيدية ... ،
وكافور .

وقد ظهر أمر محمد بن طغج أثناء خلافة
الراضي بالله ، حتى يقال انه هو الذي منحه
لقب الاخشيد عام ٣٢٧/٩٣٩ على أصح
الآراء . والذين يروون هذا الخبر يقولون ان
محمد بن طغج هو الذي طلب من الراضي أن
يخصه بهذا اللقب ، ويقال ان الاخشيد كان
لقب ملوك فرغانة ، كما أن أصبهبذ لقب
ملوك طبرستان ، والاخشيد لقب ملوك
اشروسنة ، وما الى ذلك . ويقال أيضا ان
معناه ملك الملوك ، وهذا تفسير لا يمكن
القطع بصحته ، مثله في ذلك مثل قولهم
معنى « طغج » عبد الرحمن . ومهما يكن من
الاحوال فقد انتهى نسب محمد بن طغج بن
جف بالعباسيين من أيام المعتصم ، فقد كان
جف من رجاله المقربين اليه ، وقد أقطعه
المعتصم اقطاعا ... وظل مقيما في البلاد حتى
توفي في الليلة التي قتل فيها المتوكل من سنة
٢٤٧/٨٦١ .

وخلفه ابنه طغج بن جف وكان من كبار
الجند وأصحاب الولايات ، وقد دخل
في خدمة الطولونيين وتولى لهم الشام وخلص
في خدمتهم ... الذي قضى على خمارويه
حتى ... في الشام ، مع أن خمارويه كان قد
... ثم ... مصرعه ... الى
وقتل ... على ... ثم
العسكر ... وقام هارون بن خمارويه
بعده ... على الشام مستبدا بالأمر فيه ، ثم
سكن ... الدولة الطولونية من ...
... فدخل في طاعتهم واقروه على
الشام . وعندما قتل شيبان هارون ثم اعترف
طغج ... وانضم الى محمد بن سليمان
الكاتب ، وشارك معه في القضاء على دولة
الطولونيين . لم تنتهِ ... الى بلاط العباسيين
... كان ... الدولة ... ذلك من
الاذى ، فحبسه ... مع ابنيه
محمد وعبيد الله ... الوزير العباس بن
الحسن . وقد مات طغج في سجنه سنة
٢٩٤/٩٠٦-٩٠٧ وهرب محمد وعبيد الله
وكان محمد أكبر أبناء طغج ويكنى بأبي بكر
أما اخوته الآخرون فهم أبو الحسين محمد
وأبو مظفر ... وأبو ... نصر
وأبو القاسم علي ، وسيكون لمعظمهم دور في
أمور مصر أيام دولة أخيهم وأبنائه .

وتنقلت الاحوال بمحمد بن طغج حتى
... سنة ... ٣٠٤ ... وكان في خدمة تكين
... مصر ... في ... ثم ... فاطمة
على مصر ... تكين حتى ... ٣٠٦
... عن تكين عن مصر ...
محمد بن طغج ... دمشق ...

منه في حياته وحتى الممات . فلما عاد تكين
لولاية مصر ولاه الاسكندرية وهناك ابتعد
به الموت ... الفاطميين عن مصر مرة أخرى
وفي أثناء ذلك ولي محمد بن طغج علاقته بأبي
بكر محمد بن علي الماذرائي والحسين بن
أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور . وعرف
عنهما حب كثير من ملوك مصر ... اتسع
به فيما بعد . ثم ولاه تكين أمر الحوفين
الشرقي والغربي ، وفي أثناء ولايته على
الاسكندرية ثم الحوفين بدأ يظهر شرهه إلى
المال ، فأقبل على مصادرة السياسيين والاستيلاء
على التركات . وقد أنكر ذلك منه تكين
وبدأت العلاقات تسوء بينهما

وأحس محمد بن طغج بذلك ، فسعى
حتى دبر له بعض معارفه ولاية الرملة بالشام
ثم هرب من تكين إلى الرملة . ثم حصل على
ولاية دمشق سنة ٣١٩ / ٩٣١ ومكن لنفسه
فيها . وقد أخذ يكون لنفسه قوة عسكرية
يعتمد عليها في صراع السلطان الذي كان
دائرا إذ ذاك ، ثم استخدم أخويه عبيد الله
والحسن والحسين ، وأخذ يستعد لانتهاز
أول فرصة تسنح . ولا شك أن عينيه كانتا
تتجهان إلى مصر ، فأخذ يجمع الأموال
بالمصادرات وغصب التركات ، وكلما اجتمع
له مال اصطنع به جندا يقربهم من عاصمته

واستطاع ... في الشام أن ... مصر من
... القاهر أمر ... إلى ولايته في
الشام ، ولكن أحمد بن كيغلغ استطاع أن

نفوذ محمد بن طغج فحل محله ، ودخل مصر
والي مصر الثانية في شوال سنة ٣٢١ / ٩٣٣ ،
أي أن محمد بن طغج تولى مصر للمرة الأولى
نحو ٣٢ يوما دون أن ... ثم
تأتي ... حتى حصل على
ولايتها مرة ثانية من الخليفة الراضي ، ودخلها
واليا في رمضان سنة ٣٢٣ / سبتمبر ٩٣٥
وظل يحكمها من ذلك الحين إلى وفاته سنة
٣٣٤ / ٩٤٦

ولم تكن الظروف التي تولى فيها محمد
بن طغج الاخشيد مصر مواتية فقد كان ...
رجال الدولة فيها عظيما ... من جهة الغرب
... الفاطميين ، ولم يمض بضعة أعوام
دون أن يوجهوا إلى مصر حملة . وقد عانى
الاخشيد وخلفاؤه من خطر الفاطميين طوال
مدة حكمهم مصر ، وانتهى أمرهم عندما
تغلب الفاطميون على البلاد ، وفصل مصر
عن الخلافة العباسية جملة

ولم يكد محمد بن طغج الاخشيد يتولى
أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق ، وكان
... من فحول الرجال ودهاة ذلك الزمان ، ولم
يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضي إلى
تقليده جميع أمور الدولة ، وبطل حينئذ أمر
الوزارة والدواوين وبقي اسم الوزارة ... كما
يقول أبو المحاسن ... ولكنه كان
... فلما ...
... الاخشيد من ... محمد بن رائق
إلى ... والتقى ...

الإخشيد على ما يريد من طبرية في فلسطين وقد تعثر الإخشيد ولكنه أحس عجزه عن أنه لن يستطيع تصعود لابن رائق ، فصالحه على أن يحمل اليه كل عام ١٤٠,٠٠٠ دينار على أن يكون له الرملة ويترك باقي الشام لابن رائق ، وكان ذلك في محرم ٣٢٨/ أكتوبر ٩٤٠ . ثم توفى الخليفة الراضي في ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المتقي ، وقتل ابن رائق في العام التالي ، فسار الإخشيد ودخل دمشق وضم الشام الى ولايته ، وأقره المتقي على ذلك وقد عرف محمد بن طغج كيف يكتسب ثقة المتقي ، حتى دعاه الى ترك بغداد والمجيء الى مصر ، مقتديا في ذلك ما فعله ابن طولون مع المعتمد ، ولكن المتقي لم يقبل هذا الرأي

وفي ذلك الحين كان أمر بني حمدان في حلب قد اشتد ، وبدأ الصراع بينهم وبين الإخشيد ، وهو صراع كتب النصر فيه للإخشيد ، فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقي ثم المستكفي ثم المطيع وفي خلافة هذا الأخير توفى الإخشيد في دمشق في ذي الحجة ٣٣٤/ أغسطس ٩٤٥ وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور أو أنوجور ، أي أن الإخشيد ظل واليا على مصر ١١ سنة و ٣ أشهر وهي كان في معظمها واليا على الشام أيضا ، وكانت سنه عندما توفى ٦٦ سنة وهو بالقدس

وقد استطاع محمد بن طغج الإخشيد أن يحتفظ بملكه خلال هذه السنوات بفضل القوة العسكرية التي استطاع أن يكونها ، ثم انه كان الى ذلك كله سياسيا محاورا يستطيع أن يراوغ ويداور ويتحين الفرص ، ومن كان أكثرهم أن ذلك ، ولعل رأيه موقفه من ابن رائق وكان الزمان عصيبا لا يستطيع الصمود فيه الا من كان له مثل هذه الخلال ، فقد كانت غارات القرامطة لا تتكف على الشام والحجاز وليس هنا موضع تفصيل أفاعيلهم ؛ ويكفيهم أن نشير الى الله رحم المسلمين بموت أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي في سنة ٣٣٢/٩٤٣ بعد أن عبث بالشام والحجاز والحجاج الآمنين ؛ وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة عشرين سنة ، ولم يردوه الا بعد عناء شديد والأتراك مستبدون بدولة بني العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى ؛ وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم الا الخلفاء المساكين يصبون عليهم ويسملون أعينهم ويطردونهم ولم يكن أولئك الخلفاء على شيء من المهابة واحترام النفس ، وقد سمع من أحدهم وهو القاهر ، وكان قد خلع وسملت عيناه — أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركي على المتقي وسمله عينيه قال « صرنا اثنين ، ونحتاج الى ثالث » يعرض بالمستكفي الذي بويع بعده ولم يكن الوزراء خيرا من الخلفاء ، ويكفي أن نذكر ... الوزير ... بن ... ... حتى كان قد أمر بعثا فاتكا ، وخلع عليه ، وشرط عليه

أن يصله كل شهر بخمسة عشر ألف دينار ، وكان يكبس بيوت الناس بالمشاعل والشمع ويأخذ الأموال ».

وكان محمد بن طغج يحاول التشبه بأحمد بن طولون ، ولكن شتان بين الرجلين من كل ناحية . وقد ألممنا بصفة بن طولون ، وألممنا بشيء من خصال محمد بن طغج ، وبقي أن نضيف أن جشعه إلى المال واستهتاره بما في أيدي الناس وقلة نصفه جعلته موضع الرواية والإنكار والتندر . بل كان يطمع في القليل ، حتى لقد طمع في فرو كان يلبسه أحد رجاله ، فجعل يعرض له به لعل الرجل يهديه إياه ولكنه لم يفعل ، فلما أيس منه خرجي بعض غلمانه فسلبوا الرجل الفرو وهو خارج من عند الإخشيد لم أنكروه . ثم أراد الإخشيد أن يستريه فيبعث الفرو ، فلما دخل عليه الرجل مرة أخرى ورآه عليه ضحك الإخشيد وقال « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ! ولكنك ابن أبيك . وكم عرضت لك وأنت لا تستحي فلم تفعل ، حتى أخذناه فلا شكر ولا منة ! ».

وربما خفف من ذلك أن الرجل كان شديد التقى ، ولكن تقاه لم يكن يظهر إلا بعد قيامه بالأذى . ولم يكن حال الإخشيد من هذه الناحية مختلفا عن حال غيره من رجال الدولة والسياسة في ذلك الزمان ، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلون بعد فوات الوقت ، وكانت ضراعتهم إلى الله خوفا من العذاب لا عاطفة دينية كريمة . وكان الإخشيد من هذه الناحية حريصا على ألا تفوته فرصة تطلب الغفران ، حتى لقد تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن في جامع عمرو ، وكان حريصا على ذلك أثناء شهر رمضان ، فنبهته جاريته إلى القعود عن أن تعتق عنه عشر رقاب فقال : « وأعشر رقاب ؟ ويحك ! لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله مرتبة فيقول في دعائه اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم » ، ثم ركب إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم . وقد حاول أن يتشبه بأحمد بن طولون في مظاهره ، فلم يوفق . وظل الناس لا يوقرونه توقير الملوك حتى أصبح يعتب ذلك ويصر عليه ؛ وقد قرب نفر من بقايا الطولونيين فأصبحوا من ندمائه ، وربما جلس للعلماء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال إلى خلفاء الإخشيد أن نقف وقفة عند الماذرائيين ، فهم كما قلنا يقاسمونه فضل ما أدركه من توفيق . وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا في مصر أيام الطولونيين . وهم في الغالب أسرة فارسية الأصل أتى أولهم إلى مصر أيام أحمد بن طولون وأصبح من حواشيه ، ثم تكاثر بعد ذلك حتى كثروا في البلاد . وأهم رجالهم ثلاثة : أحمد بن إبراهيم أبو محمد بن أحمد بن إبراهيم الماذرائي الأطروش ، والحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور ، وعلي بن أحمد الماذرائي ثم ابنا هذا الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب علي

فأما أحمد بن إبراهيم فقد ولي خراج مصر سنة ٢٦٦ ، ٨٧٩ شركة مع ابن سعد المدائني ، ويطلب به المهدي ووضعه في ... كان أحمد بن طولون ... أحمد بن إبراهيم الماذرائي خراج مصر . وبعد قليل عهد ابن طولون إلى الحسين بن أحمد المعروف بأبي زنبور في عمل من أعمال الخراج في الشام . ثم ظهر من بين أفراد البيت علي بن أحمد الماذرائي وعلا أمره أيام خمارويه حتى قال المقريزي إنه « كان إليه النظر في جميع أمور مصر لأبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزارته » . وفي سنة ٢٧٢ ٨٨٥ استخدم علي هذا ابنه أبا بكر محمد بن علي وأبا الطيب أحمد بن علي ، واستخلف أبا بكر على الخراج وأبا الطيب على الرسائل ، وهكذا أصبحت الأمور المالية والإدارية كلها في مصر بأيدي أفراد هذا البيت

وقد قتل علي بن أحمد الماذرائي مع أبي العساكر جيش ، فنهض ابنه أبو بكر مكانه وتولى أمور هارون بن خمارويه . ولما قدم علي محمد بن سليمان مصر انضم إليه أبو بكر محمد الماذرائي ، ورافقه إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر وتولى خراجها إلى سنة ٣٠١ ٩٦٦ أيام تكين ، وأصبح صاحب السلطان المطلق في البلاد وجمع ثروة واسعة . ثم أبعد هو وعمه أبو ... عن مصر وطولبا في بغداد بأموال جليلة . وظلا بعيدين عن خراج مصر ١٤ سنة . ثم عاد أبو بكر إلى خراج مصر سنة ٣٢١ ٩٣٣ وأصبح صاحب السلطة الفعلية في البلاد . ولم يقدر أحد أن ينهض على قوة عسكره وحصنه أو يحميه من خصومه ، ورد عنه أيدي الطامعين في ثروته . وينسب لأبي بكر الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور بأقل كفاية ولا مهارة من ابن أخيه أبي بكر ، فقد صار إليه الأمر بعد ذلك . وعندما توفي سنة ٣١٧ ٩٢٩ كانت شؤون مصر والشام المالية والإدارية في أيدي أهل بيته . وكانوا جميعا ينهبون أموال الدولة ويزورون في الأوراق ، وكان رجال الدولة يعلمون ذلك ويستحلون مصادرتهم ، وكانت المصادرة جزءا من النعمة العادية عندهم ، يعرفون أنها ثمن لما يريد بهم منها ويبقى لهم بعد ذلك الثروة الطائلة مخبأة في سراديب وأماكن لا يعلم بأمرها أحد

وكان العمل الرئيسي للماذرائيين أنهم كانوا يضمنون الخراج بمحلاته أو بصاحب الأمر في مصر ، فيدفعون مبلغا معينا ثم يستخرجون من الناس ما يشاءون . وقد اشتهر أمرهم بذلك ، حتى أن أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لا يستغنون عنهم ، نظرا لمعرفتهم بوجوه الإيراد والإنفاق ، ولم يكن هناك من يعرف شيئا عن حساب الخراج إلا أمثالهم الذين كانوا يعملون لهم

وفي سنة ٣٢٧ ٩٣٨ — ٩٣٩ ... التي عهد الإخشيد إلى أبي بكر الماذرائي

وعوض عنه أبو ... ، وحبس علي بسببه
الحسين ... إلى مصر ، وأصبح أبو بكر اسمه
... للإخشيد ... لا ... أنه
الإخشيد ... بمصر ... و... منه
ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ، وكان
الإخشيد لا يصدر إلا عن رأيه ولا يخفيه عن
حضور مجلسه ويخرج للناس إذا تصرف ... كم
قبلت يده ووقف بين يديه ... — والدراعة
هي شارة الوزراء ، فكان أبو بكر المادرائي
قد أصبح بالفعل وزيراً وإن لم يسم بذلك
وقد غضب عليه الإخشيد سنة ٣٣١ / ٩٤٢ -
٩٤٣ وعزله وحبسه في بيته مكرماً وأجرى
عليه رزقاً يبعث به في محبسه

ولقيت ... أبي بكر ، حتى إذا توفي
الإخشيد وولي أبو القاسم أونوجور أظهر
أبو بكر همة عظيمة في ... فأعاده إلى
ما كان عليه . ومن غريب ما حدث بعد ذلك
أن ثائراً يسمى غلبون خرج بالصعيد وغلب
جيش أونوجور وتولى الأمر فقدمه أبو بكر
وضمن له الخراج ، فلما عاد الأمر إلى
أونوجور حبسه وصادره ونفاه ، فلما صار
الأمر إلى كافور أخرجه من سجنه وأعاده إلى
ما كان عليه ... أن هذا الرجل استطاع أن
يظفر ... رغم كل شيء ، وقد ذهبت
دول وقامت دول والمادرائيون على حالهم من
السلطان والغنى والجاه . وقد توفي أبو بكر
... في الثامنة والثمانين من عمره أيام
كافور سنة ٣٤٥ / ٩٥٦ وكان قد ... في
الأعمال في أواخر أيامه

ونعود إلى خلفاء الإخشيد . فبعد وفاة
محمد بن طغج خلفه ابنه أبو القاسم
أونوجور ، وكانت سنه أربع عشرة سنة عندما
تولى الأمر ، واستأثر كافور الإخشيدي
بالوصاية ووضع يده على الأمور كلها . ومن
ذلك الحين ... دخول الفاطميين مصر ...
كافور هذا على مصائر مصر وجزء من الشام
في بعض الأحيان . وهو عبد أسود يصفه
المؤرخون بقبح الشكل وكبر البطن والقدمين
وثقل البدن ، وقالوا إنه كان مثقوب الشفة
السفلى ... من المؤرخين
... أن يجعلوا كافور مثلاً لقدرة الله
على إعطاء الملك من يشاء . ويرجح أنه ولد
بين عامي ٢٩٢ و٣٠٨ / ٩٠٥ و٩٢٠ بالنوبة أو
بالحبشة ، ويسمى في بعض الأحيان باللابي
نسبة إلى ناحية اللاب من بلاد النوبة . ويقال
إن الإخشيد اشتراه بثمانية عشر ديناراً
ومهما يكن من أمر فقد أخلص كافور
للإخشيد إخلاصاً عظيماً لفت نظره ورفع
قدره ، وعهد إليه في تربية ابنيه أونوجور
وعلي

وكان الرجل ذكياً ، فألم بالكثير من شؤون
الدولة ، ورأى خلفاء الإخشيد صغاراً لا يرجى
منهم خير ، ورجال الدولة لا يسايرون ...
ولا خلاص ... الأمر ... بنفسه
... الأصدقاء والأعوان ...
... الأمور إلى أونوجور ... هو
صاحب الرأي الأعلى ، ودام له ذلك على أيام
أخيه علي . وقد حاول كلاهما ... التخلص

منه دون حدود ، وظل كافور صاحب
الأمر المطلق في البلاد منذ مقتل أبي بكر
المادرائي وتقدمه في شؤون الدولة . ويذهب
بعض المؤرخين إلى أن كافور تخلص من
بني الإخشيد (أونوجور) ثم من أخيه علي
بالسم ، وذلك غير صحيح وإن كنا لا نستطيع
القطع به . وبعد أن توفي علي لم يبق هناك
إلا ابنه أحمد ، وكان صبيا في التاسعة من
عمره ، فأرجأه كافور جملة ووضع نفسه على
المنابر وأصبح أمير مصر ولكنه اكتفى بلقب
الأستاذ ، فكان يقال له الأستاذ أبو المسك
كافور . وقد عمل كافور في المحافظة على
كيان الدولة ورد عنها الفاطميين أكثر من مرة
وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية ؛
ويؤكد ذلك تصدع أمر بني الإخشيد عقب وفاة
محمد بن طغج مباشرة . أي أنه ظل يحكم
مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ إلى سنة ٣٥٧
٩٦٧ ، ولذلك سقطت مصر في أيدي الفاطميين
بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يخشون بأس كافور ،
أما جمهور الناس فكانوا يحبونه . وقد جمع
من الصفات ما أهله لذلك ، فأما مع رجال
الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم
يمنعه ذلك من القدرة على المراوغة والمداورة
وأما مع الجمهور فكان يظهر التقى والتواضع
ويحب آل البيت . قال الذهبي : « وكان
كافور يدني الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ
له في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية
والعباسية وله ندماء ، وكان عظيم الحرمة ،
وله حجاب تمنع من الأمراء ... وله جوار
مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود
ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه
الإخشيد ، وكان كريما كثير الخلع والهبات
خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية ،
كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله
إليه ، وكان يذعن بالطاعة لبني العباس
ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له
الأمر . وكان لا ينقطع عن إرسال الأموال
والهبات إلى الحجاز . وكان يتظاهر أمام
الناس بكل ما يحببه إلى قلوبهم . ذكروا أن
خطيبا عرض به في إحدى مواعظه وذكره في
معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله،
فسمع كافور بذلك فأرسل إليه خلعة ومائة
دينار ، فصار الواعظ يقول بعد ذلك
ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة لقمان وبلال
المؤذن وكافور » .

ويكفي للتدليل على ما بلغه كافور من
المكانة ما وقع له مع المتنبي ، وقصد هذا
الشاعر الكبير إياه ومدحه والتقرب إليه ، حتى
لقد كان المتنبي على احتقاره لكافور يقف له
ويركب في موكبه . ولم ينل المتنبي من كافور
شيئا ، فاتجه إلى رجل من حاشيته هو أبو
شجاع فاتك الرومي المعروف بالمجنون ،
فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا
أخرى . ثم خاف كافورا فهرب من مصر ،
وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه

وبعد أن توفي كافور جمع جمال الدولة وزيره أحمد بن علي بن محمد بن طغج الاخشيد في جمادى الأولى سنة ٣٥٧/٩٦٧ وجعلوا الحسين بن عبيد الله بن طغج وابن عم أبيه خليفته ، وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات . وكان أحمد في الحادية عشرة من عمره لا يستطيع أمرا ، وقد أساء جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفي جملتهم يعقوب بن كلس وكان من سروات الناس ، ففر الى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر ، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزا عظيما أيام الفاطميين

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد ، وقد أشرنا في كلامنا عن الاخشيد الى بعض محاولاتهم لفتحها . والواقع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم في القيروان لم يعرفوا راحة ولا استقرارا ، فقد ناصبهم أهل البلاد العداء وكرهوهم وحاربوهم ، حتى ضاق درعهم . وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على ادراك ما كانوا يؤملون من ملك عظيم ، ثم انهم عجزوا عن السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى ، وبدا لهم بوضوح أن أمرهم الى زوال اذا هم ظلوا في هذا الركن الذي شاءت المقادير أن تقوم دولتهم فيه ، فاتجهت أنظارهم الى ضم بلاد أخرى الى امبراطوريتهم ، وبعثوا العيون والجواسيس في كل ناحية يخبرونهم بأحوال بلاد مثل الأندلس ومصر ، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه اهتمامهم نحو مصر وطمعوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب ، وقوي طمعهم عندما صار الأمر الى كافور ، ولكنه عرف كيف يرد أطماعهم عن بلاده . وكان الفاطميون قد دعوا الاخشيد الى الدخول في طاعتهم ، فجعل يراوغهم ، حتى وثق علاقته مع العباسيين واطمأن من ناحية رجالهم ، فوقف من الفاطميين موقفا حاسما . فلما مات الاخشيد عادوا يتفاوضون مع كافور ، فأخذ يراوغهم هو الآخر . لم يرفض طلبهم ولم يجبه ، وظل يجتهد في المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى

وقد بدا للمعز الفاطمي بوضوح أن فرصته لدخول مصر قادمة يوم يموت كافور ، وبدأ بالفعل يستعد للأمر ، فبدأ في حفر الآبار على الطريق من افريقية الى مصر من سنة ٣٥٥/٩٦٥ ، وعندما وصلت الأخبار بموت كافور سنة ٣٥٧/٩٦٧ عجل باعداد الحملة وزاده همة في ذلك ما تسامع به من سوء سياسة الوزير جعفر بن الفرات . ويبدو أن دعاة الفاطميين في مصر كانوا كثيرين ، لأننا نقرأ في أخبار هذه الشهور الحاسمة ما يدل على أن المجتمع في مصر كان مهيأ لاستقبال الفاتحين الجدد . وعندما اقتربت عساكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة ، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التسليم ، ثم خرجوا نحوه وحصلوا منه على أمان لأنفسهم وأهل

البلد. وقد أورد المقريزي نص عهد الأمان في [illegible] هذا الحدث، وهو لا يخرج عن تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم، ولكنه حافل بما ينبئ عن الفاطميين من محبة للإصلاح [illegible] على غيرهم وإقبال على سياسة بطانتهم. وفي شعبان ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م دخل جوهر الصقلي مصر بجيوش الفاطميين بعد مفاوضات يسيرة، وبدأ في تاريخ مصر عهد جديد.

ولم تكن للإخشيديين أثناء حكمهم في مصر عناية حقيقية إلا بشؤون المال، وقد [illegible] في ذلك [illegible]، وظلوا يجبون مال مصر كل سنة [illegible] ملايين من الدنانير على قول و ٣٢٧٠٠٠٠ على قول آخر. والراجح أن الرقم الأخير أقرب إلى الصحة. وقد تشدد الإخشيديون في ذلك حتى رهقوا الناس بالمصادرة والعقوبات، حتى كان تجاره يستخرجون من الناس ضرائب على [illegible]. وقد ذكر المقدسي أن الضرائب والمكوس كانت ثقيلة، وبخاصة في تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل. وقد ذكرنا أن الإخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال، وأن كافور قد كف يده عن ذلك، ثم عادت المصادرات بعد وفاته، وأسرف جعفر بن الفرات في ذلك. ويبدو أن رجال الدولة قد [illegible] فقد [illegible] على البلاد [illegible]، وفي السنة التي دخل فيها الفاطميون مصر كانت الحالة قد بلغت [illegible] على حافة [illegible] تداركه [illegible] لأجل دخوله.

تلك هي تجربة الإخشيدية [illegible] صاحبها من [illegible] تجربة بني طولون [illegible] والثلاثون وكانت [illegible] دون أن [illegible] وإن كان ولابد [illegible] دور في تاريخ مصر الطويل فلأنها أتاحت للشعب المصري عددا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف التي هزت بقية أجزاء الدولة العباسية في ذلك العصر. فلقد شغلت الجزيرة العربية والشام والعراق بغارات القرامطة، وتهددت الدولة البيزنطية حدود مملكة الإسلام من الشمال وجاحتها في مواضع، وبقيت مصر هادئة تجري الحياة فيها على مألوف عهدها في تلك العصور من النشاط [illegible]. ولا شك أن محمد بن طغج كان حريصا على الدفاع عن مصر والابتعاد بها عن [illegible] الدائرة، وضحى في سبيل ذلك بمعظم الشام، فلم يحتفظ منه إلا بالرملة، وهي مفتاح مصر من ناحية الشام.

وربما استطعنا أن نقول إنه لولا الإخشيد وكافور لتقدم استيلاء الفاطميين على مصر بضع سنوات. فقد وطدت الدولة الفاطمية في إفريقية بعد زوال دولة آل طولون بأربع سنوات، وقبل أن [illegible] عبيد الله المهدي في سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م [illegible] على مصر، [illegible] الفاطميين [illegible] حدودها [illegible] ما أمكنهم مدافعة [illegible] الإخشيدية [illegible]

بالخداع وأخذ يدعو لهم ويشكو من كل محاولات الفاطميين ، وأضاف الى ذلك سياسة مرنة جعلته يتصل بالفاطميين حتى ويتهادى معهم أيضا ، حتى سعى في يخضع سرا الى الدخول في طاعة الفاطميين والخروج من دولة بني العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم تبلغ آنذاك المبلغ الذي يمكنها أن تدعوه الى طاعتهم ، ففضل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضعف من الفاطميين ، وهم مشغولون عنه بما حولهم من المتاعب ، فكانوا يقنعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون يرضون منه بأضعاف ذلك

ثم جاء كافور فمضى على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويداهنهم ، حتى اذا انتهت الامامة على عرش الفاطميين الى أبي محمد أعظم رجال دولتهم ، وفي خدمته قائد مظفر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يغزو ويحارب ، حتى تجمعت له تجربة عسكرية جعلته من أكبر قواد زمانه ، وقد يئس المعز وقائده من مصير دولتهم في المغرب وتعلقت آمالهم بدخول مصر ، ووجها نحوها كل مواهب ، فضرب اليها دون كبير جهد

ولابد أن نضيف الى الاخشيد جانبا من الفضل في مدافعة البيزنطيين عن بلاد الاسلام ، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت اذ ذاك نهضة كبيرة على يد نقفور فوقاس ثم يوحنا الشمشقيق من بعده وأغار على بلاد الاسلام وغربا شمال الشام فسقطت أنطاكية ودخلت حلب الجزيرة وكادت تصل دمشق ، وتصدى لمدافعتهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب والاخشيديون ومتطوعة المسلمين الذين تكاثروا في الثغور الاسلامية بحكم الحمية الدينية ، وخاصة ثغر طرسوس ، وعلى الرغم من أن دولتي الاخشيديين والحمدانيين لم تستطيعا رد عادية البيزنطيين عن بلاد الاسلام بصورة حاسمة ، الا أنهما تمكنتا من افتداء من أمكن افتداؤه ، وأرسل الاخشيديون لقوادهم بصحبة الثغور وأخرجوا الأموال لافتداء أسرى المسلمين ، وقد هابهم البيزنطيون وكانوا يرون فيهم رجال الدولة العباسية ، وكانت سياسة الاخشيد وكافور مع البيزنطيين سياسة ملاينة وموادعة في الغالب ، ولم يكونا ليستطيعا أكثر من ذلك على أي حال

أولهما أنه لا تعرف على وجه التحديد متى بدأت تنمو الاسماعيلية ومتى بدأ نهم ، فقد بدأت سرية . وقد كتب المؤرخون السنيون عن أصولها ومبادئها فيه تناقض كثير واضطراب ، وتعمد في أكثره غمض الحقائق وتعريضها

وثانيهما أن الاسماعيلية قسمهم جاوز في أول الأمر الى التقية فقد كان العهد عهد سر ، وخضعت الدعوة لعوامل الاضطهاد مجتمعة من سحق وقتل وتشريد ، فلهذا لم تؤرخ الاسماعيلية حركتهم بأنفسهم ، لأن السر أصل من أصول مذهبهم ، ومن صفات الدعاة عندهم كتمان ما يعلمون ، وكانت نتيجة أن كل ما نعرفه عن عصر الستر وهو العهد الذي بدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهي بقيام الدولة الفاطمية يسوده التناقض والاضطراب ، ولا يمكن الركون اليه أو الوثوق به

الحزب الشيعي — نشأته وتطوره

المشهور المتواتر أن محمدا عليه السلام توفى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، وعن طريق هذه الشورى اختير الخلفاء الأربعة الراشدون ، وإن اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم

وكان علي بن أبي طالب يطمع في أن يلي هذا المنصب منذ المرحلة الأولى التي تلت موت الرسول عليه السلام ، ولكن المنصب فاته في الحالات الثلاث الأولى ، وما أدركه في الحالة الرابعة أدركه في ظروف عسيرة عصيبة ، فقد تولى علي الخلافة في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان

وحدث الانقسام الأول الذي شق الوحدة الاسلامية وجر الويلات الكثيرة على المسلمين والعالم الاسلامي منذ ذلك اللحظة الى اليوم ، ولى معاوية زعامة معارضة ، وكانت حجته الكبرى أنه إنما قام مطالبة بثأر عثمان ، وللانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة ، غير أننا نرى أن هذه حجة عاطفية ، جعلها معاوية شعارا يثير شعور المسلمين على علي ، أما الصراع الحقيقي فهو صراع سياسي تمتد جذوره الى الماضي البعيد ، في عصر ما قبل الاسلام ، عندما كان التنافس على أشده بين بني أمية وبني هاشم في سبيل السيادة ، فلما ظهر محمد برسالته كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له ، وكان أبو سفيان — زعيم بني أمية — حاملا لواء معارضته ومقاومته

ونصر الله عبده محمدا ، وانتقلت السيادة الى بني هاشم ، فسلموا حتى اذا ... ، وقد استتب الأمر لمحمد برسالته ، وخضعوا لها بعد أن كونت دولته الجديدة التي

وحدث المؤمنين ، مستعين من الله ... فحبطها سكوتو أمة واحدة من دون الناس

ألم تبن أمية أن تنال بنو هاشم هذا الشرف كله ، وتكبهم خصومهم على مضض ، وخاصة بعد دخولهم في الإسلام ، فتبين أن جذور هذا النزاع لم تنس بل ظلت كامنة في النفوس إلى أن ولي عثمان — وهو من كبار بني أمية — الخلافة فاستيقظت نوازع الخلاف من جديد ، والتف رجال هذه الأسرة حوله يلونون سياسته باللون الذي يريدون ، فلما ثارت الفتنة وقتل عثمان ، وولي علي الخلافة خشوا أن تستقر السيادة ثانية في بيت بني هاشم ، فحمل لواء المعارضة معاوية — كبير بني أمية في ذلك الوقت — وقاد معركة الغضب في صفين واصر ... مستحلا كل ما أوتي من مكر ودهاء

فلم يكن الصراع بين علي ومعاوية الا صراعا للأخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته ، وانما كان حلقة جديدة في سلسلة النزاع القديم في سبيل السيادة بين بيتين كبيرين من قريش هما بنو أمية وبنو هاشم ، ولقد كان تقي الدين أحمد بن علي المقريزي — زعيم مؤرخي مصر الإسلامية — أول من فطن إلى هذه الحقيقة ، وأول من عالجها معالجة علمية في كتابه الصغير القيم « النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم ».

من هذا الصراع ظهر الحزب الشيعي وهو الحزب الذي يضم من يتعصبون لعلي أو يتعصبون له ، وقد انضم إلى هذا الحزب كل الناقمين والمتذمرين من العرب وغيرهم ومن الموالي بوجه خاص ، ووجد رجال هذا الحزب لأنفسهم سندا جامعا ، وجعلوا هذا السند عقيدة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التي كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحصر الوراثة في هذا ... عقيدتهم في الإمامة ، وبنوا هذه العقيدة على حديث نبوي ، فقالوا ان الرسول عليه السلام مر عند أوبته من حجة الوداع بغدير خم — وهو مكان بين مكة والمدينة — وعند هذا الغدير آخى بينه وبين ابن عمه علي وقال « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ».

وقالوا استنتاجا من هذا ان هذا الحديث يتضمن سابقة نصية من محمد لعلي ، وان عليا وصي الرسول ، أوصى له بالإمامة من بعده بشروط خاصة ينفرد بها ، وبعلوم لدنية تلقاها عنه ، وان الإمامة يجب أن تنتقل من علي إلى أولاده الواحد بعد الآخر لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل في نسل علي بطريق الوراثة من الابن إلى الابن.

وبهذا وقف أتباع هذا الحزب فيما بعد إلى جانب أولاد علي يعرضونهم على المسلمين لحقهم في الخلافة ، فرشحوا أولا الحسن بن علي ليلي أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن الحسن كان رجلا يحب السلم ... الشام ومصر ... والبس ...

وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغرب أي في سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) بدأ جهوده الحربية فخضعت له مدن كثيرة ، وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغلبية صاحبة الحكم في تونس حينذاك من ضعف وانحلال .

وعند ذلك أرسل أبو عبد الله الى عبيد الله المهدي — الامام الاسماعيلي صاحب الدعوة — وكان يعيش في مدينة سلمية بالشام ، يستدعيه ليحضر الى بلاد المغرب ، فأسرع بتلبية الدعوة ، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة ، ويقال ان الخليفة العباسي علم بخروجه فأرسل الى عماله في مصر وافريقية يوصيهم بالقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع بالتستر تارة ، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاة ، وانتهت به الرحلة الى مدينة سجلماسة في المغرب الأقصى حيث قبض عليه واليها وسجنه بها .

وفي سنة ٢٩٦ هـ تم لأبي عبد الله النصر النهائي على الدويلات القائمة في شمال افريقية : دولة بني مدرار في سجلماسة ، ودولة بني رستم في تاهرت ، ودولة الأغالبة في افريقية (تونس) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فقاد الجيش بنفسه ، وسار حتى دخل مدينة رقادة في سنة ٢٩٧ هـ ، ونزل بقصر من قصورها ، وفي يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان بعد أن قضى نهائياً على ملك الأغالبة ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدي .

وهكذا نجحت الشيعة الاسماعيلية في الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير ، كان بعضه في السر الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبعضه في السر ويمتد من محمد بن اسماعيل الى نجاح الدعوة وظهور عبيد الله ، ويعرف هذا العهد الثاني بعهد الكتمان ، فقد كتمت فيه أسماء الأئمة تقية وخوفاً وكان يقوم بالدعوة العملية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هنا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمي فقد أصبح كتمان أسماء الأئمة المستترين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدي جزءاً من المذهب ، ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسمحون باعلان هذه الأسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليهم الخلافة ، ومن هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس للطعن في نسب الأئمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا الدعائم التي قامت عليها الدولة .

والى هذه النقطة — بداية تاريخ حكم عبيد الله المهدي بعد النقطة الأولى — يرجع بعض المؤرخين سبب في النزاع الذي قام بين عبيد الله وقائده أبي عبد الله والذي انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام

الخلفـــاء الفاطميون

١ — فى المغرب

١ — ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ (٩٠٩)	المهدى أبو محمد عبيد الله	ت ٤ ربيع الأول	٣٢٢
٢ — ٤ ربيع الأول ٣٢٢ (٩٣٤)	القائم بأمر الله أبو القاسم محمد	ت ١٣ شوال	٣٣٤
٣ — ١٣ شوال ٣٣٤ (٩٤٥)	المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل	ت ٢٩ شوال	٣٤١
٤ — أول ذى القعدة ٣٤١ (٩٥٣)	المعز لدين الله أبو تميم معد	ت ٣ ربيع الآخر	٣٦٥

٢ — فى مصر

(أول شعبان ٣٥٨ فتحت مصر ، أول رمضان ٣٦٢ دخل المعز القاهرة)

٥ — ٥ ربيع الآخر ٣٦٥ (٩٧٥)	العزيز بالله أبو منصور نزار	ت ٢٨ رمضان	٣٨٦
٦ — ٢٩ رمضان ٣٨٦ (٩٩٦)	الحاكم بأمر الله أبو على منصور	اختفى فى ٢٧ شوال	٤١١
٧ — ١٠ ذو الحجة ٤١١ (١٠٢٠)	الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على	ت ١٥ شعبان	٤٢٧
٨ — ١٥ شعبان ٤٢٧ (١٠٣٥)	المستنصر بالله أبو تميم معد	ت ١٨ ذو الحجة	٤٨٧
٩ — ذو الحجة ٤٨٧ (١٠٩٤)	المستعلى بالله أبو القاسم أحمد	ت ١٤ صفر	٤٩٥
١٠ — ١٤ صفر ٤٩٥ (١١٠١)	الآمر بأحكام الله أبو على منصور	قتل ٢ ذو القعدة	٥٢٤
١١ — ١٥ المحرم ٥٢٥ (١١٣٠)	الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد	ت ٥ جمادى الآخرة	٥٤٤
١٢ — ٦ جمادى الآخرة ٥٤٤ (١١٤٩)	الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل	قتل ٣٠ المحرم	٥٤٩
١٣ — أول صفر ٥٤٩ (١١٥٤)	الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى	ت ١٧ رجب	٥٥٥
١٤ — رجب ٥٥٥ (١١٦٠)	العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	خلع ٣ المحرم، ومات ١٠ المحرم	٥٦٧

الأيوبيون

كان الغرض الأساسي الذي يسعى الفاطميون وراءه تحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضي على الخلافة العباسية السنية وترثها في ملك العالم الإسلامي، ولقد رأينا كيف نجح الفاطميون في تحقيق الشطر الأول من غرضهم فأقاموا دولتهم في المغرب، ولكنهم لم يستطيعوا بعد تحقيق الشطر الثاني والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية، ومصر هي أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق.

لهذا كانت مصر حلم الفاطميين منذ الخليفة الأول، ولهذا لم تكد الأمور تستقر نوعا ما للمهدي — الخليفة الأول — حتى أعد العدة للاتجاه شرقا وغزو مصر، فأرسل في سنة ٣٠١ جيشا لتحقيق هذا الغرض ثم أرسل في سنة ٣٠٧ حملة أخرى، ولكنهما منيتا بالفشل، وقد جدد المحاولة ابنه القائم فأرسل في سنة ٣٢٦ حملة ثالثة — ولكنها لم تكن أسعد حظا من سابقتيها، ولم يكتب النجاح إلا للغزوة الرابعة التي تمت في عهد المعز لدين الله.

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة أمور كثيرة أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها.

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل إليها كما رأينا في العصر العباسي الثاني، فقد استبد الأتراك بشئون الحكم وتحكموا حتى غدا الخلفاء كالدمى في أيديهم يحركونها كيفما شاءوا، وفي ذلك يقول الشاعر:

خليفة في قفص
بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له
كما تقول الببغا

وأدى هذا الضعف إلى تجرؤ كل طموح أو محب للشغب أو راغب في السلطة على الثورة، فقامت ثورة الزنج في إقليم البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس، وظلت مشتعلة خمس عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ)، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين تقدموا حتى ملكوا بادية الشام وجنوبه وهددوا حدود مصر الشرقية، وعاثوا في الجزيرة العربية فسادا، واستولوا على الحجر الأسود حيث بقي معهم مدة اثنين وعشرين عاما، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسي مبلغا كبيرا من المال، وصاحب هذه الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها.

ففي الشرق قامت الدول الصفارية والسامانية والطاهرية، وفي الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية.

وفي قلب الدولة نفسها في العراق قامت دول تملكت زمام الحكم في أيديها،

ففي الشمال قامت الدولة الحمدانية في نواحي الموصل وحلب ، وطالما حاولوا التحرك نحو بغداد لضمها إلى ممتلكاتهم بعد قيام الدولة البويهية في سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمور الخلافة جميعا ، وأصبحت الصراع بينهم الكثيرة الأذى والعنف في فوضى مختلفة وحروبهم وقتالهم ، وعلى ذلك قوية ... فيهم « إن الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس إلى آل بويه والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملكي دنيوي »[١] .

وفي مصر انتهت الأمور بعد موت محمد بن طغج الإخشيد في سنة ٣٣٤ إلى الضعف إذ لم يخلفه أحد من بعده له مقدرته وشجاعته ، حقيقة لقد استبد كافور بالحكم دون ولدي الإخشيد ، فاستطاع أن يخمد الثورات التي تنشب وأن ينتصر على الحمدانيين ، ولكن هذه الولاية كانت أشبه شيء بصحوة الموت ، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية منذ سنة ٣٥٢ هـ لتقصير النيل في فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت نحو تسع سنوات ، قاسى المصريون في خلالها الشدائد ، فحدث في سنة ٣٥٣ هـ مثلا أن « عظم الغلاء ، وتعطلت الأعمال لكثرة الفتن ، ونهبت الضياع والغلات ، ومنع الناس في مصر بسبب ذلك فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط في يوم جمعة ، وازدحموا عند المحراب ، فمات رجل وامرأة في الزحام ، ولم تصل الجمعة يومئذ » .

« وفي سنة ست وخمسين ... سوق التي ... ، ولم يمنع من ذهب في فتنة الإسلامية ، وكان ... أمر مصر ... الأستاذ كافور الإخشيدي ، فعظم الأمر من شدة الغلاء » .

وفي سنة ٣٥٧ هـ مات كافور ، فاضطرب ... لمقاومة ، وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسكر فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج — وهو يومئذ بالرملة — وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله »[٢] .

هذه صورة رائعة للحالة في مصر قبيل الفتح الفاطمي ، ... ... من أعظم مؤرخي مصر الإسلامية ، ونستطيع أن نقول إن ... ... ناطقة ...

(١) البيروني : الآثار الباقية ص ٣٣

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشر ... الشيال ص ٢ ـ ٣

بالبستان الكافوري ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام وبئر تعرف بعين العنبر[1] وقد بقي مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور الفاطميين الكبيرة وسمي قصر الشوك[1]

وقيل في سبب تسمية مدينة القاهرة أن جوهر لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فجعلوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراسا ، وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فألقوا ما بأيديكم من طين وحجارة ، وبينا العمال منتظرون إذ وقف غراب على أحد تلك الحبال ، فتحركت الأجراس جميعا وبدأ العمال في البناء ، فصاح المنجمون لا ، لا ، القاهرة في الطالع ، فسميت مدينة بالقاهرة — والقاهر هو المريخ

ولكننا لا نميل الى تصديق هذا الرأى ، فهو أقرب الى القصص الخيالية ، ويؤيدنا في شكنا المقريزي نفسه راوي هذه القصة ، فانه يقول في موضع آخر ان جوهر « لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ بعساكره ، وأناخ في مناخه الذي رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ، واستقر به اختط القصر وأصبح المصريون جاءوا ليهنئوه فوجدوه قد حفر الأساس في الليل ، فأدار السور اللبن ، وسماها المنصورية ، الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ، ونزل بها فسماها القاهرة »[1]

وهكذا نرى السبب الصحيح لتسمية القاهرة . فإن جوهر عندما وضع الأساس للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ، ولعله كان يريد أن ينسب الى عاصمة المعز الجديدة ذكرى والد الخليفة المنصور ، فسمى العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا خارج العاصمة القديمة الفسطاط بعيدة عن الجند ، كما كانت المنصورية خارج القيروان ، وسمى بابين من أبواب المدينة الجديدة باسمي زويلة والفتوح ، وهما اسما بابين بمدينة المنصورية في المغرب . فلما أتى المعز الى مصر سماها « القاهرة » تفاؤلا ، يريد بذلك أنه ستقهر الدولة القديمة التي قام الفاطميون بمناهضتها والقضاء عليها ، وهي الخلافة العباسية ، فالمعز نفسه هو صاحب هذه التسمية ، وقد اختارها ، وهو بعد في المغرب ، فقد روي أنه قال عند وداعه لجوهر أمام جمع من شيوخ كتامة « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة ، تقهر الدنيا »[2]

وهذا ما يجعل قصة الغراب والحبال بعيـــ

(١) المقريزي : الخطط ج٢ ص ٢٠٤

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا نشر الشيال ص ٦٢

ثانيا أن المسعودي (١) يروي قصة شديدة الشبه جدا بهذه القصة وينسبها الى الاسكندر عند بنائه الاسكندرية ، فلعل المقريزي نقلها عن مرجع متأخر شك صبها الأمر عنده لكلام عن قاهرة مصر ، فالتبست بما قيل عن اسكندرية الاسكندر

وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكنا للخليفة واتباعه ، ومقرا للدواوين لحكم ، ووضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزوله بالمناخ

وفي يوم السبت ست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها ، وسميت خططها بالحارات ، ومنها حارة زويلة ، ونزلت بها قبيلة زويلة ، وحارة كتامة ، ونزلت بها قبيلة كتامة ، وحارة البرقية ، ونزل بها قوم من برقة ، وهكذا

ويقال في سبب اختيار جوهر لهذا المكان كي يبني مدينته عليه انه رغب في أن تصبح حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره ، واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة الى القاهرة وما وراءها من المدينة » (١)

وكانت القاهرة عند انشائها صغيرة المساحة ، ويعتمد علي باشا في كتابه تحديد ان كل جانب من جوانبها كان يبلغ حوالي ألف ومائتي متر ، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فدانا (الفدان ٤٢٠٠ متر) ، وكان القصر يشغل خمس هذه المساحة ، أي نحو سبعين فدانا ، وكان بستان كافور يشغل عشر المساحة أي ٣٠ فدانا ، وكان ميدان خاصة لعرض الجند يشغل ٣٥ فدانا أخرى ، أما الباقي وقدره مائتا فدان فقد خصص لنزول فرق الجند المختلفة

وكان السور الأول الذي بناه جوهر من اللبن ، وقد أدرك المقريزي قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) ، وأعجب ببنائه ، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر ذراع في ثلثي ذراع ، كما ذكر أن عرض جدار السور عدة أذرع ، وأنه يسع أن يمر به فارسان

وكان للسور عدة أبواب في جهاته المختلفة ، فكان في جهته القبلية بابان متلاصقان يقال لهما « بابا زويلة » ، وفي جهته البحرية بابان متباعدان ، هما باب الفتوح ، وباب النصر ، وفي جهته الشرقية بابان ، هما باب البرقية ، والباب الجديد

(١) المسعودي مروج الذهب ج ص ٢٥

(١) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨

وفي جهته الغربية بابان هما باب القنطرة وباب سعادة ، ثم أضيفت أبواب أخرى بعد نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذي بني حول القاهرة ، وإنما بني بعده سوران آخران أحدهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٠هـ ١٠٨٧ م ، ليحيط بزيادات أضيفت إلى القاهرة في الجهتين البحرية والقبلية ، وكان هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ، ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهما باب النصر وباب الفتوح موجودين حتى اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشئهما (بدر الجمالي) وتاريخ إنشائهما .

وبنى السور الثاني صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو وزير للخليفة الفاطمي العاضد ، وفي سنة ٥٦٩ هـ عهد إلى بهاء الدين قراقوش بالإشراف على العمارة ، وقد بنى هذا السور كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتي القاهرة ومصر — أي الفسطاط — ولا تزال أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أطلال الفسطاط ، وكان محيط هذا السور ٢٩٣٠٢ ذراع ، وكان يبدأ في القسم الذي يقع الآن في ميدان باب الحديد الحالي حيث كان يجري النيل وقتذاك ، ويمتد شمال القاهرة على النيل ، ويدور حول القاهرة والفسطاط جميعاً ، وينتهي جنوباً عند ساحل مصر (الفسطاط) .

وكان خارج السور خندق لحمايته وحماية المدينة ، وبذلك كان حد المدينة الشمالي والجنوبي يتمثلان عند السور . أما الحد الغربي فكان خليج أمير المؤمنين ، كما كان جبل المقطم هو الحد الشرقي .

وكانت القاهرة في العصر الفاطمي ضاحية ملوكية ، يسكنها الخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وكانت — كما وصفها المقريزي — « حصن قتال يتحصن به ويلتجأ إليه » ، فلما قدم إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالي أثناء الشدة العظمى التي كانت في عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية غير عامرة « فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها ، وعمروا به منازل في القاهرة وسكنوها » .

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولي حكم مصر السلطان صلاح الدين « نقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكنى العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور الخلافة ، وأسكن في بعضها ، وتهدم بعض ، وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده ، فصارت خططاً وحارات وشوارع ومسالك وأزقة ، ونزل السلطان (صلاح الدين) منها في دار الوزارة الكبرى ... الخ » .

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٤

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمي بعام ، وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) بدأ جوهر بناء الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد عامين ، وافتتح للصلاة أول مرة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)

وظل جوهر يحكم مصر ، ويمهد الفتوح في الأقاليم المجاورة مدة أربع سنوات ، ولما تم له إخضاع مصر والشام والحجاز ، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه إلى مصر ، وخرج المعز من المنصورية يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة ٣٦١ هـ ؛ وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين.

جامع الأزهر

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة العواصم المصرية في العصر الإسلامي ، وكانت سياسة الدولة الإسلامية تقضي بأن تنشأ في كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع هذه السياسة إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كتب إلى ولاته على الأقاليم المفتوحة — ومنهم عمرو بن العاص — أن يتخذ كل منهم في عاصمته مسجدا لجماعته ، وتنفيذا لهذه السياسة بنى عمرو مسجده في الفسطاط ، فلما أنشئ العسكر في أول العصر العباسي بني فيها مسجد جامع ، وعندما أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك.

فهذه المساجد الجامعة كانت رمزا لظفر المسلمين ، وكانت مركزا للدعوة الدينية وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يؤم الناس في الصلاة منذ العصر الأول ولاة مصر ، فقد كان الغرض الأساسي من الفتوح الإسلامية نشر الدين الجديد ، وبذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الوالي على مصر يجمع بين الولاية على صلاتها وخراجها ، أو يكتفي بولايته على صلاتها ويعين إلى جانبه وال آخر على خراجها.

وكانت المساجد أيضا مقرا لدواوين الحكم ، ومجلسا للقضاء ، ومعهدا لنشر العلم ، ومنبرا لإذاعة الأوامر الحكومية.

بني جامع الأزهر إذن وفي مصر مسجدان جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد ابن طولون ؛ لأن جامع العسكر كان قد هدم وزالت معالمه ، وقصد الفاطميون ببناء هذا الجامع أن يكون مصلى للخليفة وجنوده ، وأن يكون مسجدا جامعا للعاصمة الجديدة ، وأن يكون مركزا لنشر الدعوة الشيعية ، وأن يكون رمزا لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية.

بدىء في إنشاء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) وتم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر ، وافتتح للصلاة أول مرة في يوم الجمعة سابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م).

وسمي الجامع عند إنشائه جامع القاهرة — أي باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت هذه التسمية غالبة عليه طوال العصر الفاطمي ؛ ولم يتسم بالجامع الأزهر إلا في تاريخ متأخر ، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخي العصر الفاطمي — وفي مقدمتهم المسبحي وابن الطوير — يذكرون هذا المسجد دائما باسم جامع القاهرة ، وقلما يشيرون اليه باسم الجامع الأزهر .

ويرى البعض أن هذا المسجد سمي بالجامع الأزهر بعد إنشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة ، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر ، ولكن يرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء ، لقب السيدة فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، واليها تنتسب الدولة الفاطمية ، وباسمها تسمى

وظل الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم فكان كل خليفة منهم متولي الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتوسعته حتى سقطت الدولة ، وبدأت في مصر دولة صلاح الدين ، وهي دولة سنية قامت للقضاء على المذهب الشيعي ، فأهمل الجامع الأزهر ، لأنه كان المركز الرئيسي لنشر الدعوة الشيعية ، وأبطل الخطبة في الجامع الأزهر قاضي القضاة في عهد صلاح الدين ؛ واسمه صدر الدين عبد الملك ابن درباس ، فقد كان شافعي المذهب ؛ والمذهب الشافعي يمنع اقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد .

أبطل هذا القاضي الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمي ؛ وظل الأزهر معطلا من اقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى ولي عرش مصر الظاهر بيبرس ، فأعيدت الخطبة الى الجامع ، وعادت اليه أهميته ، وعني به كثيرا في عصر المماليك والعصور اللاحقة الى وقت الحاضر

كان للأزهر عند نشأته صفته الدينية الرسمية — شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى ، ولكن لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هي الصفة العلمية التعليمية ، وذلك منذ فكر الفاطميون في نشر مذهبهم الجديد بوساطة دروس تلقى في حلقاته ؛ وقد كانت المساجد الجامعة التي بنيت قبله — وخاصة جامع عمرو — مراكز لنشر العلم ، وفي حلقاتها كانت تلقى الدروس في الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة ، غير أن مسجدي عمرو وابن طولون كانا قد اتخذا منذ في العصر الاسلامي الأول حلقات علمية خاصة ،

فكان من الأوفق اذن أن يكون المسجد الجامع الجديد هو مركز الدعوة للمذهب الجديد.

فقد روى المقريزي « وفي صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس علي بن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت . وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » ، فكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس في الجامع الأزهر ، ثم تتابعت حلقات بني النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعي.

وفي رمضان سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلس — وزير الخليفة العزيز بالله — وقرأ على الناس كتابا ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية ، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته في الأزهر ، ويحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة.

ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر في جعل الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المستقرة ، ففي سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أي الطلاب المدرسين والقراء) في أوقات منتظمة محددة على أن تعقد حلقاتهم في الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر . وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ، ورتب لهم العزيز تنفيذا لاقتراح ابن كلس أرزاقا وجرايات شهرية ، وبنى لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلع عليهم يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات » « وكان لهم رزق من مال الوزير يصله في كل سنة » (١).

ومنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الخاصة ، فعين له طلبة متفرغون للدراسة ، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعي وراء الرزق ، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات ، وبنت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة في كل عيد ، ويسرت لهم سبل الركوب والانتقال.

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة للجامع الأزهر طوال العصر الفاطمي فزاد عدد طلابه وأساتذته ، وكثرت أروقته وحلقات التعليم فيه ونشطت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب اليه الطلاب والعلماء من خارج مصر ، وتعطلت هذه الصفة التعليمية وقتا ما في العصر الأيوبي ، ولكنها لم تلبث أن عادت اليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وبرزت هذه الصفة بروزا واضحا في عصر سلاطين المماليك وما تلاه من عصور ، وساعد على ذلك أن غزوات المغول في المشرق قضت على

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ٤٦
والقلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧

معظم مدارس مصر ، وأن معاهد العاصمة ومساجدها الإسلامية المزدهرة تجمع من أنحاء أمم أبعد حوالي هذا العصر الى الضعف والاضمحلال ، وبعد انضمامه من الشرق ومن الغرب الى مصر يجدون فيها ملجأ وملاذا فأصبحت القاهرة في العصر المملوكي مركز العالم الاسلامي وأصبح الأزهر قبلة طلاب العلم من مختلف جوانب هذا العالم الاسلامي

وقد مرت بالأزهر عصور ازدهار وعصور اضمحلال ، ولكنه قاوم الأعاصير التي قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التي يتمتع بها في قلب كل مسلم في جميع أنحاء الأرض ، فانه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد للدراسات الاسلامية

العصر الفاطمي الأول

عصر القوة والازدهار

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة تنيف على القرنين (٣٥٨ — ٥٦٧ = ٩٦٩ — ١١٧١ م) غير أننا نستطيع أن نقسم هذه المدة قسمين على وجه التقريب . كانت الخلافة الفاطمية تتسم في كل منهما بسمات وصفات خاصة ، ففي القسم الأول ومداه قرابة قرن من الزمن وينتهي في المنتصف الأول من حكم الخليفة المستنصر تقريبا (حوالي سنة ٤٥٧هـ) بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شئون مصر الداخلية ، فنشرت الأمن في ربوعها ، ووضعت النظم الادارية الدقيقة ، وعنيت بالجيش والأسطول ، وعنيت بالزراعة ، ونهضت بالتجارة الداخلية والخارجية ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون

وفي هذه الفترة أيضا امتاز خلفاء الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها في أيديهم ، ونفوذهم على الشعب وفي رجال الدولة النفوذ الأول ، وللوزراء المكانة الثانية

وفيه امتد النفوذ الفاطمي الخارجي حتى وصل أوجه وأقصاه ، فخضعت لهم اليمن والحجاز ومصر والمغرب وصقلية والشام ، وخطب لهم في الموصل وبغداد وقتا ما

ونحن ما يلي هذه السمات التي اتسمت بها الخلافة الفاطمية في الشطر الأول من حكمها أن نستعرض جهود الخلفاء الذين تولوا الحكم في هذه الفترة

كان أول الخلفاء الفاطميين في مصر هو المعز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنوات (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ) ركز جهوده في خلالها لتنظيم مركز حكمه الجديد ، فعني أول ما عني بشئون مصر المالية ، لأن مصر كانت وشيكة الخروج من المجاعة الخطيرة التي أصابتها قبيل الفتح الفاطمي وبانه ، فشح لهم الغذاء بزيادة النيل . كما كانت العادة [illegible] وآخر الا يكتب بذلك الا اليه والى قائده جوهر ، حتى اذا تم الفيضان ووصل

بن الصباه أعلى ذلك مستمر ، ... وكان في الأحمية ... لتنس ، ثم عهد بإدارة شؤون مصر الماليه جميعا إلى ... من أهل ... وكان ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وصالح ابن المصبس ، فقاما بما عهد له ... حتى زادت ايرادات الدولة في وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكيدا لاستقلال مصر الاقتصادى عن الدولة العباسية أمر المعز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه ، وفضل الدينار المعزى في المعاملات الحكومية على الدينار العباسى ، فقلت قيمة هذا الأخير وطرد من السوق شيئا فشيئا

وفي عهده استبد خطر القرامطة وهددوا مصر برا وبحرا ، ووصل أسطولهم إلى مدينة تنيس ، فقاتلهم العزيز ، وأخذت عدة من سفنهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم

وأدرك المعز ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر ، فعنى بالأسطول عناية كبيرة ، وبنى دارا جديدة لصناعة السفن في المقس — ميناء القاهرة — وأنشىء بهذه الدار في عهده القصير ستمائة سفينة حربية ، لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا[1] .

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله ، وكان رجلا سمحا كريما شجاعا ، وإن كان عصر المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلى للدولة الجديدة ، فإن عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجى ، وامتدت الدولة المصرية في عهده من المحيط الأطلسى غربا إلى الخليج الفارسى شرقا ، ومن أقصى الشام شمالا إلى بلاد النوبة واليمن جنوبا ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر ، وخطب له المقلد العقيلى — صاحب الموصل — بالموصل وأعمالها في المحرم سنة ٣٨٢ ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن ، وخاف بأسه امبراطور الدولة البيزنطية فخطب وده ، وأرسل إليه رسلا يحملون الهدايا ، ويطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز واشترط شروطا شديدة التزموا بها كلها ، منها أنهم يحلفون أنه لا يبقى في مملكتهم أسير إلا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز في جامع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحمل إليه من أمتعة الروم كل ما اقترحه عليهم ، ثم وادعهم بعقد الهدنة سبع سنين »[2] .

وهكذا بلغت مصر الذروة في عهد العزيز فأصبحت امبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر والشام والجزيرة العربية والشام وجزيرة صقلية ، وبهذا فاقت الخلافة الفاطمية قوة ونفوذا واتساع ملك وأصبحت الدولة الإسلامية الكبرى في الشرق ، وبدأت تهدد ما بقى في أيدى

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٦٧ عن المسبحي

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٦ ، ٥٢

العباسيين من ملك ، وفي الوقت نفسه كان العزيز يوجه بصره نحو الخلافة الثالثة ، وهي الخلافة الأموية القائمة في الأندلس يريد أن يزيلها من الوجود لتصبح في العالم الإسلامي خلافة واحدة هي الخلافة الفاطمية ، فقد أرسل العزيز إلى خليفة الأندلس يهجوه ويتهدده ، غير أن الأندلس كانت في ذلك الوقت في عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها رداً على خطاب العزيز — جملته المشهورة التي يعرض فيها بنسب الفاطميين والتي تقول فيها « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك ».

وقد رأى العزيز أن الجيش القوي هو السياج الطبيعي لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف ، فصرف همه للعناية بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين بالعنصرين التركي والسوداني فأصبح في جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين ساعدوهم في فتح مصر وإقامة ملكهم بها ، وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة في أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة والإقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سبباً من أهم أسباب ضعف الدولة وانحلالها عندما دب بينها دبيب التنافس والمنافسة والتعصب بينها.

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر في عهده أكبر دولة إسلامية في الشرق الأوسط.

وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة فقد تمتعوا في عهده بالحرية التامة في أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم ، وبناء كنائس جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم ولده الحاكم — مسيحية روسية ، وقد عين العزيز أخويها بطريركين ملكانيين في الإسكندرية وأورشليم ، وكان من وزرائه يعقوب بن كلس اليهودي ، وعيسى بن نسطورس المسيحي.

وفي عهد العزيز نمت ثروة البلاد وزادت ثروتها فعاش الناس في رفاهية وعاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف ، وبنى لنفسه قصراً جديداً — عرف بالقصر الغربي — مقابل القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للمعز ، وكان يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند ، كما بدأ بناء جامعه الكبير الذي أتمه ابنه الحاكم فيما بعد ، وعرف باسم الجامع الحاكمي

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة حكم العزيز ، فقد حكمها واحداً وعشرين عاماً ، وتوفي سنة ٣٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طفل لا يجاوز الحادية عشرة من عمره

والحاكم شخصية عجيبة جمعت في الحقيقة جماع المتناقضات مما يدل على أنه كان مضطرب العقل غير متزن التفكير ، فقد امتاز عهده بالقسوة والعسف وكثرة سفك الدماء

وأوضح ما يبين الحاكم المتناقض ازدواج الشخصية ، فهو حينا ذكي بيكال وحينا آخر مسرف هادئ ، وهو تارة شجاع مقدام محب للعلم والعلماء وهو تارة أخرى جبان مترد مشتم من المنجمين كانت لهم ؛ وكان الغالب عليه السخاء ، غير أنه ربما بخل بما لم يبخل به أحد قبله ، وأقام يلبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس في الشمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة ، وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ثم محا ما كتب في سنة سبع وتسعين ، وأمر بقتل الكلاب ، ثم نهى عنه ونهى عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها ، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها ، ومنع من بيع العنب ، وقطع الكروم ، وأراق خمسة آلاف جرة عسل في البحر خوفا من أن يعمل نبيذا ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وهدم الكنائس في بلاده — ومن بينها كنيسة القيامة — ثم أمر بإعادة بنائها [١] وهكذا

وقد قتل الحاكم عددا من وزرائه ،

واتجه به الأمر الى أن ادعى الالوهية ، فتكونت طائفة جديدة تنادي بألوهيته هي طائفة الدروز نسبة الى الدرزي أول دعاتها !

ومع هذا التناقض العجيب في تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة ، يحترمه ويخشى بأسه الجميع ، وكان للخلافة الفاطمية في عهده الشأن الكبير والمقام العظيم ، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه ودولته نفوذ الى جانب نفوذه

ومع هذا ، فقد كان لشخصية الحاكم المضطربة وسياسته الخرقاء أثر جسيم خطير في الدولة ومستقبلها ، ففي عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف الدولة واضمحلالها

بدأت هذه البوادر بجرأة الخلافتين السنيتين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها ، وقد كانت شخصية المعز والعزيز تمنعانهما من قبل دون هذا الاجتراء ، وهذا الهجوم

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم إيجابي ، ولهذا فقد اتخذ هجومها شكلا سلبيا ، فجمع الخليفة القادر عددا من علماء بغداد وقضاتها وكتبوا محضرا مفصلا فيه في النسب الفاطمي وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه في أدعيائه خوارج ، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ، وأنهم في كفاية مسائل كاذبة ، ملحدون مطلوبون ، وللإسلام

[١] ... ج ٢٤ ص ١٧٦ - ١٧٨ نقلا عن سبط بن الجوزي في مرآة الزمان

فاطميون ؟ ومذهب الشيعة ، مخصوصة مجتهدون ؟

كمل هذا المحضر في سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه الجمهور من العلماء والقضاة وأرسلت منه نسخ الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، فكان له صدى قوي

وأما الخلافة الأموية في الأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية وخطرا ، فقد خرج في الصحراء الغربية خارج اسمه أبو ركوة — وادعى أنه ينتسب الى بني أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم حدود مصر الغربية وانضم اليه بنو قرة — من عرب البحيرة — وكانوا ناقمين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وصادر من أموالهم ، واشتد خطر أبو ركوة فأرسل اليه الحاكم جيشا لمقاتلته ، فهزم الجيش ، فأرسل اليه جيشا آخر فكتب له النصر وتتبع أبا ركوة في الصعيد ، وانتهى الأمر بالقبض عليه في بلاد النوبة وارساله الى القاهرة وقتله

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف الايمان ، فأصدرت هذا المحضر وأرسلته في أطراف العالم الاسلامي ، واتخذت ثورة أبي ركوة التي كانت تؤيدها الخلافة الأموية بالأندلس بالفعل ، ولكن هاتين الحركتين أثرتا دون شك في الدولة الفاطمية ، فأضعفت ما كان يحيطها من هيبة عظيمة ، وبدأ الشك يحركون عليها ، وتطور الأمر الى أن قام نزاع في الداخل بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمي من مغاربة وأتراك وسودانيين واشتد النزاع بين كل فريق والآخر ، ولم يهدأ بعضه الا بعد أن قتل عدد كبير من هذه الجيوش

ومن الأمور التي ساعدت لزعزعة كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الاسماعيلي ، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية يقضي أن تكون الامامة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون أن للامامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما ، ولقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ، ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه الى جانب اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على البنود والطراز ، كما أمر أن ينوب ابن عمه هذا عنه في الخطبة والصلاة والنحر والنظر في المظالم ، وأن يسايره في المواكب

وكادت هذه المحاولة أن تؤدي الى انقسام خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن في تغييرها هدما لركن قوي من أركان المذهب ، ولولا أن الحاكم قتل ، وقضت ست الملك أخت الحاكم على هذه المحاولة ، فدست الى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة

يتضح من هذا كله أن هـذه النوادر الأربع تختصر ما نسمي بالطعن في النسب الفاطمي ، ودعوة أبي ركوة ، والنزوع من عناصر الحكم الفاطمي ، ومحاولة الحاكم الخروج من أصول المذهب الاسماعيلي ، كان لها أثر قوي في مرتكزات الدولة الفاطمية فبدأت عوامل الضعف تعمل في بنيانها .

وولي الظاهر في سنة ٤١١ عرش الخلافة بعد أبيه ، وكان عند ذلك صبيا مراهقا في السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك ، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدي رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة ، وأبرز ما يميز عهده أنه أباح كل ما كان قد حرمه أبوه ، بل إنه قد غالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر ، ورخص للناس شربها فأقبلوا على حياة اللهو .

ومما يحمد له أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا في عهد أبيه ، فعقد المعاهدة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يفتح جامع القسطنطينية وأن يعين فيه مؤذن ويخطب فيه للظاهر ، وأن يعيد الظاهر بناء كنيسة القيامة بمدينة القدس .

وفي سنة ٤٢٧ ولي الخلافة المستنصر بن الظاهر ، وعمره ٧ سنوات ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما ، وهي أطول مدة حكمها خليفة مسلم ، وقد تمتعت الخلافة الفاطمية في القسم الأول من حكمه أوجها في سلطة داخلية وخارجية ، وزار مصر في هذا النصف الأول الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، ووصفها ووصف قصورها ومبانيها وشوارعها وأسواقها ومتاجرها ووصف المعجب بما رأى وشاهد .

وبدأت مصر في هذا النصف الأول ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية ، وأحس الخليفة العباسي بوادر الخطر فأصدر في سنة ٤٤٤ محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطعن في نسب الخلفاء الفاطميين ، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة في بغداد وأرسلت منه نسخ الى أنحاء العالم الاسلامي .

ولكن رد المستنصر كان قويا وإيجابيا ، ففي سنة ٤٤٨ خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيري ، والتجأ للخليفة المستنصر فأرسل اليه الأموال والسلاح ، وتقدم البساسيري في سنة ٤٥٠ فدخل بغداد وفر منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وأرسل البساسيري ثياب هذا الخليفة الفار وعمامته الى القاهرة ، وخطب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شهور ، وحذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد ، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالها

وهكذا نجحت الخلافة الفاطمية بمصر في النصف الأول من حكم المستنصر أن تج... وأن تمد سلطانها من المحيط الأطلسي الى العراق ، ولكن عوامل الضعف الكامنة لم تلبث أن بدأت تنخر في كيان الدولة في النصف الثاني من حكم هذا الخليفة ، فقد عزل ملك السلجوقي بغداد ، وقتل البساسيري ، وأعيد الخليفة العباسي الى عرشه ، فانقطعت الخطبة للمستنصر وعادت للقائم .

وقبل هذا بقليل نشب نزاع بين اليازوري — وزير المستنصر — والمعز بن باديس عامل الفاطميين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب وأقامها للعباسيين .

وفي سنة ٤٥٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة المعروفة التي ظلت سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٤) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت أحوال مصر الاقتصادية تدهوراً خطيراً ، والمقريزي يسمى هذه المجاعة « بالشدة العظمى » ، ويرجع أسبابها الى « ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الري »

وكان من نتائجها ... في ... « نزع السعر وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل براً وبحراً ، وتعذر السير الى الأماكن بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر ، واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر ديناراً ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً ، وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ... وآل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن « الجوع الجوع » تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعاً » الخ الخ[1]

وكان من نتيجة هذا الذي صاحب هذه المجاعة أن نضب معين ما كانت ترسله الى الحجاز من غلال ومؤن ، فقطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة ، وخطب للخليفة العباسي في سنة ٤٦٢ هـ وإن كانت قد عادت للمستنصر في سنة ٤٦٦

وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة ، فانفصل شمال افريقية كله وخطب للعباسيين ،

(١) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ... الطبعة الثانية ص ٢٤ – ٢٥

ثم غصبت الخطبة من بغداد والعراق بعد أن أقيمت للفاطميين عشرة أشهر، ثم غصبت الخطبة لهم في الحجاز بعد سبع سنوات، وأخيرا في سنة ٤٦٢ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها فخرجت بذلك من حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ قامت دولتهم في سنة ٢٩٧ هـ

وفي سنة ٤٦٦ هـ تفاقم الحال، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدا واختلت أحوالها، وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئا لعلاجها، فاستدعى واليه على عكا بدر الجمالي، فلبى الدعوة وتولى بعد مجيئه أمور مصر كلها، وتلاشت — منذ ذلك الحين سلطة الخليفة، وبدأ عهد سيطرة الوزراء.

وقد جرى المؤرخون الإسلاميون على تقسيم الوزارة إلى نوعين: وزارة تنفيذ، وفيها تكون السلطة كل السلطة بيد الخليفة وإنما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره، ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا على أمره، والأمور كلها مفوضة للوزير.

وبتطبيق هذا التقسيم النظري نستطيع أن نقول إن وزراء العصر الفاطمي الأول كانوا جميعا وزراء تنفيذ، أما وزراء العصر الفاطمي الثاني فكانوا جميعا وزراء تفويض، وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالي.

وقد أتاح ذلك لبدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم إليه، جاء فيه

«وقد قلدك أمير المؤمنين جميع ما وراء سريره، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد، ومصلحا للفساد، ومدمرا لأهل العناد».

وأصبحت الأمور كلها مردودة إليه، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالا مباشرا، وجعل له تعيين قاضي القضاة وداعي الدعاة — وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره —، ولهذا لقب بكافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين.

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من أرباب القلم، أي من رجال الفكر والأدب، أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أي من رجال الجيش — ولهذا لقب أيضا بالسيد الأجل أمير الجيوش، وهو اللقب الذي توارثه من بعده وزراء التفويض في العصر الفاطمي الثاني، فقد كانوا جميعا من أرباب السيوف.

ولم يحدث أن ولي الوزارة ابن بعد أبيه في العصر الأول، وإنما حدث هذا في العصر الثاني، فولي الوزارة بعد بدر الجمالي ابنه شاهنشاه، فوزر للمستنصر ثم للمستعلي ثم للآمر، وقد زيد في ألقابه لقب «الأفضل» وبه شهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه، وقد أصبح هذا اللقب لقبا للوزراء من بعده.

وبعد عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير

بلقب « الملك » ، وأول من لقب به رضوان ابن ولخشي وزير الحافظ لدين الله ، فقيل له « السيد الأجل الملك الأفضل » ، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء ، فلقب الصالح طلائع بن رزيك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة من أرباب السيوف — « بالملك الناصر »

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير في العصر الفاطمي الثاني أصبح هو كل شيء في الدولة ، فقد أصبح « السيد الأجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ، يقول المقريزي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية . » (٦)

وبهذا عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بعصر الوزراء العظام ، وتأييدا لسلطانهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخلافي يباشر فيها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى »

وكان لتولي بدر الجمالي الوزارة نتائج أخرى كان أهمها اضافة عنصر جديد الى العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فقد كان هذا الجيش في أول مرة مكونا من المغاربة — وخاصة قبيلة كتامة — الذين أتوا مع جوهر لغزو مصر ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عددا كبيرا منهم في جيشه ، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان في الجيش الفاطمي ، فلما ولي المستنصر استكثرت أمه من السودان — فقد كانت منهم — حتى يقال انهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك ، فتجدد النزاع بين العنصرين ، وقامت بينهما — كما يقول المقريزي — « حروب أدت الى خراب مصر وزوال بهجتها »

ثم قدم بدر الجمالي من عكا ، وقتل رجال الدولة وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن — فقد كان هو أرمنيا — ، وصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر ، وكثيرا ما أدى هذا النزاع الى خراب البلاد ونهب أموال الأهلين ، وكان أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي ضعف الدولة نفسها

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي

---

(٦) المقريزي : الخطط ج٢ ص ٥٣

دب الى ضعف الدولة و انحلالها ثم زوالها و قد كانت تتداخل بها كلما تقدم الزمن عدة عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر الثاني تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار مما زاد في شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم ، فقد ولي الخليفة الآمر وعمره خمس سنوات ، وولي الفائز في نفس العصر وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وولي العاضد كذلك وعمره أحد عشر عاما

ولقد ولي هؤلاء الخلفاء في هذه السن المبكرة لأن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية كان يقضي — كما ذكرنا — أن تكون الامامة — أي الخلافة — في نسل علي ابن أبي طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب الى الابن [1] ، فهم في هذا يختلفون عن أعدائهم الخلفاء السنيين من الأمويين والعباسيين ، الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا الى الأخ أو الى ابن العم أو الى أكبر أفراد الأسرة سنا ، لأنهم كانوا يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا عاقلا سليم الحواس ؛ وقد كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملا من عوامل الاستقرار ؛ وأنه جنب الأسرة والدولة — الى حد كبير — عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش

غير أن هذا النظام كانت له الى جانب هذه الفوائد مضار وعيوب ، منها أنه كان يرجح تولية هؤلاء الخلفاء الأطفال لا لشيء الا لأن كلا منهم كان ابن الخليفة السابق وقد نص على توليته ، مما أتاح الفرصة لاستبداد الوزراء بشئون الحكم ، وقيام أسباب التنافس والنزاع بين رجال الدولة المتطلعين الى منصب الوزارة

وكان من الشروط الهامة لصحة الامامة عند الشيعة الاسماعيلية الرسمية أو «النص» ، أي أن ينص الامام السابق على الامام اللاحق من أولاده ، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الامام السابق ، وبذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الامامة ، ويشترط في النص عندهم أن يصدر عن الامام وقت نقلته ، أي عند موته ، بمعنى أنه اذا صدر عن الامام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فانه لا يؤخذ الا بالنص الأخير الذي صدر عنه وقت نقلته و انتقاله الى الدار الآخرة ؛ لأنه في رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة

وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام الوراثي بجميع شروطه فيما عدا ثلاث حالات

— في المحاولة الأولى حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يخرج عنه ، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس ، وقد أشرنا الى هذه المحاولة وأثرها فيما سلف ،

[1] الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢

و أما أنه لم يكتب له النجاح ، فقد قتل الحاكم قبله بحوطها نزرت و لكشكوث ، وصف أخته « ست الملك » حتى أقامت « الظاهر » بن الحاكم على عرش الخلافة

— والحالتان الثانية والثالثة خولف فيهما هذا المبدأ فعلا ، وولى الخلافة ابن عم لا الابن ، فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله ولى الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله وبعد وفاة الخليفة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله ، وهو آخر خلفاء الدولة

وفى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة — كما نص عليه المذهب — حدث انقسام مذهبي سياسي ، وهذه الانقسامات المذهبية السياسية — وقد حدثت كلها فى العصر الفاطمي الثاني — ضربت الدولة ضربات عنيفة، وكانت من أهم العوامل التى أدت الى اضعاف الدولة وانحلالها

فعند وفاة المستنصر حدث خلاف فى تحديد النص ، فقال نزار — الابن الأكبر بأن النص والوصية له ، وقال الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبى القاسم أحمد — الذى ولى الخلافة باسم المستعلى — ، وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلى ، و انقسم الاسماعيلية منذ ذلك الحين الى فرقتين

الاسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى اقامة ملك لهم فى قلعة ألموت ثم فى الشام وقد لعبوا دورا خطيرا فى التاريخ الاسلامى فى القرنين الخامس والسادس

— والاسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر

وقد ناصب النزارية الفاطميين فى مصر العداء ، ولم يكن للخلفاء الفاطميين — منذ عهد المستعلى — أعداء أشد خطورة من النزارية ، بحيث نستطيع أن نقول ان تاريخ الحركة الاسماعيلية بوجه عام ، وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الاسماعيلية النزارية (الحشيشية) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من تدبيرهم كل فرصة ممكنة للتنكيل بهم والاضرار بهم

والحقيقة أن ابعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر انقلابا سياسيا (Coup d'état) واضح المعالم ، قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر ، فقد كان نزار — عند موت أبيه المستنصر — رجلا مكتمل الرجولة ، ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل — أثناء حياة المستنصر — علاقات طيبة ، بل لقد كانت على العكس علاقات مشوبة بالكره المتبادل

والانقسام المذهبى الثانى حدث بعد وفاة الخليفة الآمر ، فقد حدث أن وصل

المنصب ، وتولى الخلافة الحافظ ابن عم الآمر ، في حين أنه كان قد ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسمه « الطيب » وأخذت له البيعة بولاية العهد ، وبهذا انقسمت الإسماعيلية مرة ثانية الى

- إسماعيلية حافظية
— إسماعيلية طيبية

وقد مرت الدولة الفاطمية عقب مقتل الخليفة الآمر بأزمة عنيفة كادت تودي بها ولتضع حدا لحياتها ، وذلك أن بعض رجال النزارية تسللوا الى القاهرة وتربصوا للآمر وقتلوه في ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) ، وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة — ومعظمها مراجع سنية — أن الآمر لم يكن عند قتله قد أعقب ، ولم يترك من بعده أحدا ولكنه ترك إحدى زوجاته حاملا ، فعين الحافظ ابن عم الآمر حاكما مؤقتا ، حتى أن يكون ولي للعهد وكفيلا للطفل الذي يولد إن أتى ذكرا ، ولكن الزوجة أنجبت بنتا فاستمر الحافظ خليفة

كان هذا هو الرأي الذي تعرضه المراجع السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر في عالم المطبوعات مراجع تاريخية سنية تشير الى رأي آخر ، وأول هذه المراجع « تاريخ مصر لابن ميسر » ، وقد أورد المؤلف فيه نصا يشير الى أن الآمر كان قد ولد له قبل موته بشهور ولد سماه أبو القاسم « الطيب » ، واحتفل بمولده احتفالا عظيما ، ونص عليه بولاية العهد ، وأرسل السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى اليمن ، وأعلن هناك ، وبهذا يتمثل الإسماعيلية اليمنية — في معظمهم — بعد ذلك طيبية ، ثم يكونون بعد حالة أخرى في الهند تتبع نفس المذهب والفرقة

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا — وحتى اليوم — يشككون في هذه القصة وفي وجود الطيب ، لأنه منذ مات الآمر لم يظهر الى الوجود ، بل أعقب القصة الجديدة قصة وجود زوجة من زوجات الآمر حاملا ، وقصة كفالة الحافظ للمولود المنتظر

ثم ظهرت بعد ذلك بعض المؤلفات السنية والشيعية تحمل نصوصا جديدة عن الطيب ، وكلها تثبت وجوده وأنه ولد في ربيع الأول سنة ٥٢٤ ، وأنه أعلن بعد مولده ولي للعهد ، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة بهذه المناسبة ، وورد في كتاب « البستان الجامع » الذي نشره الأستاذ كلود كاهن نص يفيد أن الحافظ حين تولى الطفل — بعد مقتل أبيه — أحد أتباعه « وأخذه عنده ، ولم يظهر له خبر الى الآن بموت أو حياة »(١)

وهذه النصوص تفيد أيضا أن الطيبية — أتباع الطيب — انتشروا بعد ذلك في اليمن والشام دون مصر

اختفى الطيب اذن من الميدان — بعيد مقتل والده .. واستبد بالسلطة الفعلية الى

(١) السجلات — مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٧٦ — ٨٥

الرابع من رجال القصر هو هزار الملوك وهو عشي ، وحينما هدأ القائدان عبد المجيد بن عم الآمر [illegible] على السلطة من الناحية الشكلية فقط ومكونا كفيلا لمولود مرتقب كان الآمر ذكر

واختار عبد المجيد (الحافظ) هزار الملوك ليكون وزيرا له ، ولكن هذا الوضع الجديد لم يستمر غير نصف يوم ، فقد دفعت العصبية بعض إلى تحريض قائد آخر له مكانته على الثورة وهذا القائد الآخر هو أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكتيفات — وقد ثار هذا القائد فعلا ، وثار معه الجيش عقب الاحتفال بتولية هزار الملوك الوزارة ، وانتهت الثورة بالقبض على هزار الملوك وقتله

« واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكان يلقب بكتيفات ، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة »[1]

« واستدعى (الحافظ) الخلع لأبي علي ، فأفيضت عليه يوم الأربعاء خامس عشره ، وركب إلى دار الوزارة ، والجماعة مشاة في ركابه ، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم بين نصفين »

وكان أول عمل باشره أبو علي أحمد بعد توليه الوزارة أنه « أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الإيوانين وباب الصبح ، وتمكن أبو علي ، واستولى على جميع ما في القصر من الأموال والذخائر »

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، فأبو علي قائد من قواد الجيش له مكانة خاصة في الدولة ، فهو ابن وزير وحفيد وزير ، وأبوه وجده كانت لهما السلطة الفعلية الكاملة والمكانة الأولى في الدولة أيام وزارتهما ، وقد ثار أبو علي ثورة عسكرية انتهت بقتل الوزير القائم ، والقبض على الخليفة وسجنه ، ثم توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشارك.

ويضاف إلى هذا كله أمر هام بالغ الأهمية ، وهو أن أبا علي لم يكن اسماعيلي المذهب ، بل كان اماميا ، ولهذا بدأ باتخاذ اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب الاسماعيلي والعمل ، والاعتراف بالمذهب الامامي ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية الاسماعيلية ، وقيام دولة علوية امامية ، يقول المقريزي : « وكان (أبو علي) اماميا متشددا فالتف عليه الامامية ونصروا به على القصر مذهب الامامي »[1]

ومن هذه الاجراءات التي اتخذها أبو علي لاظهار مذهب الامامية أنه — رتب في الحكم أربعة قضاة ، قاضيين للشافعية ، وقاضيا للمالكية ، وقاضيا للاسماعيلية ،

---

(1) المقريزي مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٣ ب

(1) المقريزي مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٤

وخاصا للامامة — وصار كل شيء بحكم بمشيئته ، ويورث بمشيئته ، وعلق المقريزي على هذا بقوله : « ولم يسمع بمثل هذا في الملة الاسلامية قبل ذلك »[1]

— واسقط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق — الذي تنسب اليه الاسماعيلية — واسم الحافظ من الخطبة

— والغى الاذان الاسماعيلي الفاطمي

— وجعل الخطبة على المنابر له وحده باعتباره « ناصر امام الحق في حالتي غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره »

— وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر

حكم أبو علي أحمد اذن حكما مطلقا ، واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التي تهدف جميعها الى القضاء على الاسماعيلية ومذهبهم ، غير أنه ظل يشغله أمران : أمر بعض كبار أفراد الاسرة وولي العهد والكثيرين السابقين ، وأمر المولود الجديد الذي ولد بالامر

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ، ولم يكن له أعوان يشدون أزره ، وقد سجنه أبو علي أحمد ، وشدد عليه الرقابة في سجنه ، وقد فكر أكثر من مرة في قتله ولكنه لم يفعل

وأما المولود فقد ظل أمره يشغل بال أبي علي أحمد ، وظل دائب البحث عنه ، وقد تضاربت الأقوال في شأن هذا المولود ، فبعض المراجع المشهورة المتداولة تشير الى أن المولود جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو علي أحمد واطمأن ، وبعض المراجع التي لا تزال مخطوطة تشير الى أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه خافت على حياته خوفا عليه من الوزير أبي علي ومن الحافظ الى أن قبض عليه الحافظ فيما بعد وقتله

والرأي الثاني ذكره المقريزي في كتابه « اتعاظ الحنفا » نقلا عن الشريف محمد بن أسعد الجواني ، وهو الصحيح ؛ بدليل ما تذكره المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود قد شغل بال أبي علي أحمد كثيرا أثناء السنة التي انفرد فيها بالحكم ، وأنه ظل طوال هذه السنة دائب البحث عنه ، فقد قال المقريزي في نفس المرجع : « واشتد ضرره (أي ضرر أبي علي أحمد) على أهل القصر من الارجاف والابراق ، وأكثر من ازعاجهم ، والتفتيش على ولد الآمر » .

ولبث أبو علي أحمد يحكم مستقلا ما يزيد على السنة قليلا ، ولو طالت مدة حكمه لكان قد قضى على الدولة الفاطمية والمذهب الاسماعيلي نهائيا ، ولكن الاسماعيلية لم يرضوا عن حكمه ، وتكونت منهم معارضة قوية سرية ، على رأسهم الخليفة الحافظ ، وظلوا يتربصون بأبي علي الفرص للقضاء عليه ، الى أن تمكنوا من قتله في المحرم سنة ٥٢٦ هـ

فقضى ذلك على أبي علي أحمد ، وقضى

[1] المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٤

بنفسه الحال على المحاولة التي حاولها لحمل الدولة اسمه ، وعادت الدولة سيرتها كما كانت ، وعاد الحافظ بعد اطلاق سراحه الى منصب الخلافة

واعتبر هذا اليوم الذي قتل فيه أبو على أحمد وأعيد الحافظ الى الحكم يوماً عيد قومى — لا للحافظ نفسه بمناسبة اطلاق سراحه واعادته للحكم — بل للدولة كلها ، وللمذهب الاسماعيلى وأتباعه ، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه ، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيداً للاسماعيلية ، وسمى « عيد النصر » ، وضم الى قائمة الاعياد الرسمية ، وظلت الدولة تحتفل به سنويا فى عهد الحافظ ، وفى عهود من أتى بعده من الخلفاء الى أن زالت الدولة وزالت

ورغم تولى الحافظ الحكم فقد كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة ، فالمذهب الاسماعيلى — كما أسلفنا — لا يبيح ان يتولى الخلافة من ليس ابناً للخليفة السابق ، والحافظ ليس ابناً للآمر ، بل هو ابن عمه ، والطفل الذى ولد للآمر بعد مقتله والذى أخفته أمه كان لا يزال موجوداً ، ويبدو ان الحافظ كان يعلم بوجوده ، فلا يصح اذن أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل ، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تسمية الحافظ خليفة ، بل نادوه — كما كان — ولياً للعهد ، وكفيلاً للطفل المختفى ، يقول المقريزى « فاجتمع الناس ، وأشهد له نفسه على أنه ولى عهد كفيل من لم يذكر اسمه »[1]

ويؤكد هذه الحقيقة ما نعرفه من عملة ضربت فى الاسكندرية فى سنة ٥٢٦ هـ ، ومن المؤكد مما نعرفه من الحوادث التاريخية أنها ضربت فى الفترة بين المحرم وربيع الاول من هذه السنة ، تحمل اسم عبد المجيد ولقبه كولى للعهد ، ونص ما عليها « أبو الميمون عبد المجيد ، ولى عهد المسلمين »[2]

ويبدو أيضا أن الحافظ ظل منذ تلك اللحظة يعمل جاهداً ليبحث عن هذا الطفل ليتخلص منه نهائياً ، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة ، ولم يطل بالحافظ الوقت ، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين ، وحسم الأمر بقتله ، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة ، قال المقريزى يتحدث فى حوادث سنة ٥٢٦ هـ :

« وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله ، وبويع له بيعة ثانية بعد عدم الحمل »[3].

وأخيراً ولى الحافظ الخلافة ، وبتوليته حدث انقطاع فى الفرع الفاطمى الاصيل ، فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا قبله كلهم من نسل عبيد الله المهدى ، وكل خليفة

---

١ المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٦٣

٢ القسال : مجموعة النقود الفاطمية ص ٩٨ — ٩٩

٣ المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٣٥ ، ... تاريخ مصر ص ٧٥

منهم من الخليفة المستعلي ، وسمح الحافظ بعد ذلك لفرع جديد ، ولكن هذا التحول سبب للإسماعيلية انقساماً جديداً ، فانقسموا كما أسلفنا — إلى مستعلية حافظية وهم أتباع الخلافة الفاطمية الجديدة في مصر ، وإسماعيلية طيبية وهذه انتشروا في اليمن والهند .

وفي عهد الحافظ حدثت أزمة أخرى كانت معولاً جديداً ساعد على تحطيم ما بقي للدولة الفاطمية من قوة ، فقد أراد الحافظ أن يتخلص من سلطة الوزراء واستبدادهم بشؤون الحكم ، كما أراد أن يمهد لاستقرار الحكم في أسرته ، فأصدر في سنة ٥٢٨ سجلا بتولية ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد وإقامته مقام الوزير .

ولكن سليمان توفي بعد صدور هذا السجل بشهرين ، فأصدر الحافظ سجلا آخر بتولية ابنه الثاني حيدرة ولاية العهد ، فشق ذلك على أخيه حسن فقد كان أكبر أولاد الحافظ سنا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن بثورة حربية خطيرة ، وانقسم الجيش الفاطمي نتيجة لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه الوقعة — كما يقول المقريزي — « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها » .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لإخماد هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن ولم يجد بدا من مداراة حسن ، فأطلق أمره عما يصنع ، وكتب سجلا بولاية العهد ، وأرسله إليه ، فجرى على التماس ، فما أفاد ذلك إلا جرأة عليه ، واستبداداً له .

ولم تخمد هذه الفتنة إلا بعد أن قتل حسن ، ولكنها كانت عاملا جديدا من عوامل إضعاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه ومقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تنشب الصعوبات في هذا العصر الثاني في الداخل وحسب ، بل نشبت فيه صعوبات أخرى في الخارج ، أحدثت أثرها في كيان الدولة وعملت على نقص أطرافها طرفا طرفا ، وقد أشرنا من قبل إلى انفصال شمال إفريقية كله ثم انقطاع الخطبة الفاطمية في الحجاز لفترة ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانتقاص في طريقها ففي عهد المستنصر بدأ عدوان السلاجقة يهددون أملاك الدولة في الشام ، فاستولى الأتراك السلاجقة على دمشق والأجزاء الداخلية من الشام ، وقطعوا الخطبة للمستنصر وخطبوا للخليفة العباسي ، وفي عهده أيضا ، في سنة ٤٩٠ تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية لاحتلال سواحل الشام فملكوا أنطاكية ، وفي سنة ٤٩٢ ملكوا بقية الساحل وبيت المقدس ، ولم يبق بأيدي الفاطميين غير مدينة عسقلان .

وفي عهد الآمر استولى الفرنج على عدد آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبانياس وصور

وفي عهد الحافظ عظم الصليبيون الحظه نهم في اليمن ، وعظم النفس وهكذا تجمعت عوامل الضعف تعصف بمجموعها على دعائم الدولة ، وأصبح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلي ، بل انهم أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء ، ومن الشواهد الغريبة على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن رزيك عمد الى اختيار طفل صغير يلي الخلافة بعد موت الفائز ، وهو الذي سمي فيما بعد باسم «العاضد لدين الله» ، واجتمع الناس للاحتفال بتوليه وأحدثوا ضجة كبرى ، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له ان الناس يفرحون بالخليفة ، فقال : كأني بهؤلاء العجائز يقولون : ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أنني كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم»(1)

نهايـــة الدولة

كان أهم الأسباب التي أدت الى ضعف الدولة — كما أسلفنا — هو استبداد الوزراء بشؤون الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة ، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دموية في سبيل الوصول الى هذا المنصب ، وكان النزاع الذي قام بين شاور — وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين — وضرغام — صاحب الباب — هو آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة ، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة ، وفرار شاور الى الشام

وكانت الشام قد انسلخت من دولة الفاطميين واقتسمت ممتلكاتها قوتان : قوة نور الدين محمود بن زنكي في الداخل ، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين

وقد لجأ شاور الى القوة الإسلامية ، الى نور الدين ، وسأله أن يرسل معه جيشاً الى مصر يساعده في نضاله مع خصمه ضرغام ، وفي اعادته الى منصب الوزارة ، وعرض أن يدفع له — مقابل هذه المساعدة — ثلث ايرادات مصر ، وأن يدين له بالولاء اذا عادت اليه مقاليد الحكم والوزارة

ورحب نور الدين بشاور واستضافه ، وتردد أول الأمر في اجابته الى مطلبه ، ولكنه لم يلبث أن وافق ، ففي هذه الموافقة تحقيق لخطته التي كان يهدف من ورائها الى توحيد الجبهة الاسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه

وأرسل نور الدين مع شاور جيشاً بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ، وقدم

---

(1) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ٦٥ ب . انظر الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٦٢ – ٦٣

ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع لأنه لم يكن الجيش الفاطمي في حالة تمكنه من المقاومة أو احراز النصر ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الصليبية في الشام ، بالمسيحيين .

ووصل أسد الدين شيركوه الى مصر — وفي صحبته شاور — ، وانتصر على جيش ضرغام ، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه ، ثم قبض عليه وقتل ، وأعيد شاور — نتيجة لهذا النصر — الى منصب الوزارة .

غير أن شاور كان من طبعه الغدر والخيانة ، فلم يلبث أن حنث بوعده ، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه ، بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وتألم شيركوه لمسلك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلجأ الى عموري Amalaric ملك بيت المقدس الصليبي ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عموري بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه ، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم في الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عموري بجيشه في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين في بلبيس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر ، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين في الشام ، وهاجم بانياس ، مما جعل عموري يفكر جديا في الانسحاب ، وانتهى أخيرا مع شيركوه بأن ينسحبا معا في وقت واحد من مصر .

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول في كل مرة من المرات الثلاث أن تستولى على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا وفي الحملة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وقتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبيين مرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة ، فاختار أسد الدين شيركوه وزيرا ، غير أن أسد الدين لم يستمر في الوزارة غير شهرين ثم مات ، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرا .

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفا غريبا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمي الشيعي ، وهو في الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السني ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يتبع في سياسته ازاء رجلين الحكمة والتؤدة .

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، والخطبة للخليفة العباسي ، وكان نور الدين مدفوعا في هذا بسنيته ، وكرهه لشيعيته ، وبرغبته في

بحدة الخطبة العباسي الى خلبه ، فقد كان دائم الالحاح عليه أن يقيم به الخطبة في مصر ، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، وبعد آثر التمهل ، وأن يمهد الطريق قبل أن يصدر حركته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية عاضبين ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ، ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى في هذا التسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن يجمع هؤلاء في الثورة عليه، يقول ابن واصل في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب الى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، لميلهم الى العلوية ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه »[1]

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواده وحاشيته ورجال القصر فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على اقطاعاتهم ، ومنحها لقواده هو مقابل ولائهم واخلاصهم ، ثم أرسل الى نور الدين يستأذنه في أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله فأرسلهم اليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين ، فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وحزم وطول باع

وبدأ صلاح الدين كذلك بتدعيم حركة انشاء المدارس في مصر ، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتزعم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعي ، والدعوة للمذهب السني وتدريسه وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي أنشئت في الفسطاط لتدريس المذهب الشافعي ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكي ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته ، فانتشرت مدارس أخرى كثيرة في مختلف المدن المصرية

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة ، فعين القضاة في سائر الامصار المصرية شافعية ، يقول ابن واصل معقبا على حركة انشاء المدارس ، وعلى حركة تحويل القضاء من المذهب الشيعي الاسماعيلي الى المذهب الشافعي « فاشتهر مذهب الشافعية والمالكية ... وتدرس مذهب الأشاعرة بالكلية ... ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به ... » ولسنا أشد من هذا المعنى بدلالة على قيمة هذه الخطوات التي كان يخطوها صلاح الدين في حرص وحذر

---

[1] ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ...

للتمهيد بتحقيق خطبة الخليفة العباسي وهو الذي قطع الخطبة للعاضد

وبعد أن تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه يستشيرهم في أمر قطع الخطبة ، فترددوا كثيرا ، وأخيرا تقدم عجمي يدعى الأمير العالم وتطوع أن يكون هو منفذ هذه الفكرة ، وفي يوم الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخليفة العاضد ، وإنما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعا ، وبذلك تمت آخر خطوة في حياة الدولة الفاطمية

أما الخليفة العاضد فيقال إنه كان مريضا فلم يسمع بهذا النبأ إذ اشتد به المرض ، وتوفي في يوم عاشوراء ، أي في اليوم العاشر من محرم من هذه السنة ، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر في خلالهما امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة

الدولة الأيوبيـــة

للدكتور محمد مصطفى زيادة

يعرف المؤرخ الحديث من تاريخ الدولة الأيوبية في مصر من زاويتين متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلي الذي نبتت منه ، وهذا الكلام يعني العبارات الافتتاحية في قيام الأيوبيين بمصر مزيجا من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة فهي الشرق الأوسط في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي وأما أهم عناصر هذه البيئة وأوسعها أثرا في قيام الدولة الأيوبية فهي الخلافة الفاطمية التي سوف يحل الأيوبيون محلها في مصر ، ثم الخلافة العباسية التي عادت تستمد قوتها من السلطنة السلجوقية المقيمة في بغداد عاصمة العباسيين ، ثم المشكلة الصليبية التي تأسست في بيت المقدس وما حوله ، ثم الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي ، وهي الدولة التي تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يحسن صنعا إذا هو اختار سنة من السنوات يوقف عندها متابعة لاستعراض أحوال هذه الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة المختارة سنة بعد سنة رويدا رويدا حتى بعد تأسيس الدولة الأيوبية في مصر بحقبة تامة . ولتكن هذه السنة المختارة ١١٢٧ م ؛ لا لأهمية تاريخية خاصة أو عامة ، بل لصلاحية سببية معينة ، وهي أن عماد الدين زنكي أمير حلب بحق وراثة ابتزها من أبيه صار فيها أميرا كذلك على الموصل ، بحق تعيينه فيها من قبل السلطان محمود السلجوقي والخليفة المسترشد العباسي ، وبذا أصبح بحكم موقعه الجغرافي أمير أقوى دولة إسلامية في غرب آسيا في زمنه . ثم جمعت الصدفة التاريخية بين زنكي والأخوين الكرديين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، وهذا هو الأصل العائلي لهذه الدولة .

ووقعت هذه الصدفة سنة ١١٣٢ م ، حين وصل زنكي إلى قرب قلعة تكريت منهزما يريد عبور نهر دجلة ، كيلا يقع بجيشه في يد أعدائه ، فساعده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن هذه المروءة نشأت صداقة بين زنكي وأيوب وشيركوه . ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلهم على الرحيل في شيء من السرعة ليلا عن تكريت ، ويقال إن ميلاد صلاح الدين يوسف تلك السنة لم يستطع أن يؤخر ذلك

الرحيل دون ما شيء . ولكن سبب خطير هو الذي دعا الى انتقال الأخوين أيوب وشيركوه وأسرتيهما من تكريت .

وذهب أيوب ومعه شيركوه الى زنكي بالموصل ، ودخلا في خدمته ، ولم يلبث أن سار كل في ركابه وساعده ، وعمل على تكوين جبهة اسلامية قوية لاخراج الصليبيين من الشام . وفي سبيل ذلك لم يتحرج زنكي من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٣٩ ، على أنه لم يخرج من هذه الهجمة الا باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للامارة الدمشقية ، وعين أيوب حاكما عليها . وبفضل هذين القائدين وغيرهما من رجال الدولة الزنكية استطاع زنكي أن يتقدم بمشروع الجبهة الاسلامية المتحدة خطوات عسكرية واسعة ، أهمها استيلاؤه من الصليبيين على الرها سنة ١١٤٤ م . ثم توفي زنكي بعد ذلك بسنتين ، اذ اغتيل وهو على حصار حصن جعبر الواقع على نهر الفرات في الجنوب الشرقي من حلب .

ثم بعثت وفاة زنكي فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين محمود الذي آل اليه القسم الغربي من مملكة زنكي وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازي الذي آل اليه القسم الشرقي منها وعاصمته الموصل . ومن هذه البلاد بعلبك التي حاول الدمشقيون أمراؤها الأتابكة استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم يقو أيوب على دفعهم عنها بالقتال ، ففضل الرضوخ للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٤٦ وانتقل الى خدمة أمراء دمشق ، ولم يلبث أن أوغل في سياسة الامارة الدمشقية وحوادثها حتى أصبح القائد العام لجيوشها . أما شيركوه فالتحق بعد وفاة زنكي في خدمة ابنه نور الدين محمود بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام في الدولة النورية . وفي سنة ١١٥٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الاسلامية التي ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة . ومن ثم بدأ شيركوه في مفاوضة أخيه أيوب لتسليم دمشق بالحسنى ، وانتهت المفاوضات أواخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية مسيطرة على محور عاصمته حلب الى دمشق .

أما الأخوان أيوب وشيركوه فبلغا ذروة الثروة والنفوذ بعد تسليم دمشق ، اذ عين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله وعماله بحق الجلوس في حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكي . وتسمى شيركوه نائب السلطنة باقليم دمشق كله ، كما تمتع باقطاع كبير في حمص . وأما الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس لدينا من النصوص المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته (انظر أيضا موسوعة محمد علي سوسي ص ٨ – ٨٤) ما عدا أنه عاش بالبلاط النوري بدمشق ،

وأنه نشأ في سنة عائلة ، ولابد أنه قضى معظم أيامه في سني طفولته وشبابه . ويستخلص كذلك مما هو معروف من أخبار عصره أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، أي سنة ١١٦٠ م في وظيفة شحنة دمشق ، وهي وظيفة رئيس الشرطة والموكل بالأمن بها

هذه خلاصة عابرة ببعض أحوال الدولة الزنكية السورية التي نشأ فيها مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، ولا أقل هنا من عرض مشابه ببعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما ذو شأن في تأسيس الدولة الأيوبية . والمقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات حين استولى ملكها بالدوين الثالث على ميناء عسقلان الواقعة على الطريق بين الشام ومصر ، إذ ترتب على هذه الحركة الحربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق في السنة التالية ، كما ترتب عليها كذلك تطور السياستين النورية والصليبية إلى سباق جدي للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر وقتذاك في دور الاحتضار ، وخليفتها العاضد ألعوبة بيد وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد زعيمي هذه الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته ، على حين دعا ضرغام وهو الزعيم الآخر ملك عموري الأول لمؤازرته . وعند جرى سباق النوري الصليبي من ثلاث حملات عسكرية متتالية ومنتهية بمصر ، وأولها سنة ١١٦٣ م وآخرها ١١٦٩ م ، وهي السنة التي استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائيا من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي . وبعد حصول شيركوه بإيعاز نور الدين على منصب الوزارة كان نور الدين رأى في ذلك شيئا من الصرح الخطير

وصحب شيركوه في حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين في حروب هذه الحملات ومؤامراتها ، ودل على مهارة ملحوظة . فلما توفي شيركوه (مارس ١١٦٩) بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه الوزارة الفاطمية ، اختار جيشه والخليفة العاضد بعده لوزارته ظنا منهم أن السلامة السياسية تقترح عليهم إحلال الشاب محل عمه ، وعمره وقتذاك إحدى وثلاثون سنة ، باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النوري خبرة بشئون الحرب والسياسة . غير أن صلاح الدين لم يلبث أن ألقى على رجال القصر الفاطمي درسا لم ينسوه ولم يستطيعوا نسيانه ، وهو أنهم يثيرون ضده تلك السنة مؤامرة بزعامة خصي نوبي اسمه مؤتمن الدولة جوهر ، والعسكر السودان لترتيبه هجوم ... على ... في وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بمخاصمتهم كل مرة من ضعفهم فقضى على عددها

وشركائه بالقاهرة وأمر باعدامهم وأخمد حركة عصيانه بالحسن الفاطمي ، كما استطاع اجلاء أسطول صقلي بيزنطي متفق على دمياط وبذ صلاح الدين بذلك كله في مصر ، فائقة في غير جبهة ، حتى فاجأه نور الدين بحركاته الحربية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على عزمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه تقوية مركز الدولة النورية بالقاهرة

وكان اجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط تلك سببه لفعلة تحول في تاريخ صلاح الدين، وفي تاريخ الصلات الصليبية على مصر ذلك أن رجوع هذا الوزير العسكري من دمياط منتصرا ، أقنع الخلافة الفاطمية والباقين من رجالها ، وكذلك القاهرة وأهلها بأنه يستطيع حماية الدولة من غارة المغيرين ، فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين وبدأ بذلك يعمل على بناء سلطته في قلوب الخاصة والعامة . وعمل صلاح الدين هذه الفرصة فأرسل الى سيده نور الدين يطلب ارسال أبيه بالقدوم من أهله حتى وفدوا الى مصر ، ليستعين بهم في وظائف الدولة ، فوصلوا الى القاهرة في فبراير سنة ١١٧٠ ، وعلى رأسهم أبوه السيد الفاضل نجم الدين أيوب ، فجعله صلاح الدين على بيت المال ، كما جعل بهاء الدين قراقوش مسرور خصيه شيركوه واليا على القاهرة ، وأقطع اخوته وأعمامه وأولادهم اقطاعات الفاطميين الذين نموا الى الصحة بعد هدم ثورة من الدولة

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن نجم الدين جاء الى مصر بتعليمات معينة من عند نور الدين وأن قدومه الى جانب ابنه يوسف ضاعف من حركة هذا التطور فأعقب وصوله الى القاهرة مثلا تأسيس مدارس وكليات لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة وبذا بدأت مناهضة فقه المذهب الشيعي ومراكزه الرسمية . ثم أخذ صلاح الدين في ازالة كثير من مظاهر المذهب الشيعي في الأذان ، كما أخذ في اضافة أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة ، فضلا عن الدعاء لسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم حدث أن مرض الخليفة العاضد فاتفق صلاح الدين مع أبيه أيوب على استغلال ذلك بقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة واحلال اسم الخليفة العباسي محله في أحد جوامع القاهرة، وتم ذلك في الجمعة الاولى من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م) وتقرر أن يتم ذلك أنحاء القاهرة في الجمعة الثانية ، لكن العاضد لم يمد به أجله الى هذا الميعاد ، اذ مات خلال الأسبوع الواقع بين هاتين الجمعتين ، وسقطت الدولة الفاطمية سقوطا صامتا بعد قيامها في مصر قرنين ونصف قرن من الزمان

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر أصداء كثيرة في الشرق الأدنى كله ، اذ سر الخليفة العباسي والسلطان نور الدين بسبب أحدهما من استعادته على الشام بعد في ذلك

دمشق ، ولأبيهم ... م الامتداد سلطانه الى مصر ، على أن يكون نائبه فيها صلاح الدين وعلى سوريا ... ١٨ ... ٥٩٥ ... بعد كرات ٣٣) أما صلاح الدين نفسه فأصبح الحاكم الفعلي في مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المستبد بالسلطة الفاطميين ، فظل مقيماً في دار الوزارة ، ولم ينتقل الى قصر الخلافة حتى لا يثير انتقاله شيئاً من القلوب ، وفتح القصور الفاطمية ، لا ليستولي على ما فيها لنفسه ، بل ليوزع موجوداتها على أتباعه وأنصاره ، وليرسل لنور الدين منها هدية ضخمة . وأما أبناء البيت الفاطمي وأقاربهم فأودعهم صلاح الدين دوراً مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم بتحديد إقامتهم

ثم عكف صلاح الدين على التمكين لنفسه نهائياً في مصر ، وضاعف من جهوده في مد سور القاهرة حتى غدا محيطاً بالفسطاط والقطائع والعسكر ، وبدأ في تشييد القلعة على الأطراف الغربية من جبل المقطم ، لتكون مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، وأبعد عمه في برقة ، وأتبعها بحملته الثانية الى فلسطين لتأمين الدولة التي أرسى قواعدها في مصر وتقويتها عسكرياً واقتصادياً ، ولم يشأ أن ينتظر قدوم نور الدين الى فلسطين ، بل عمل جاهداً في مصر ... لنفسه

وبدأ الشك يساور نور الدين بسبب هذه الحركات الداخلية والخارجية ، وشاع في الأوساط الصليبية وحاشيته للأيوبيين في القاهرة ودمشق وحلب أن نور الدين يوشك أن يسير الى مصر على رأس حملة كبيرة ليؤكد بها سيطرة مصر وصلاح الدين للدولة النورية أو عزم على عزل صلاح الدين ، وقد بلغت هذه الاشاعة مجلساً جمع بالقاهرة أبناء البيت الأيوبي وأقاربهم وخواصهم ، وأوردت لنا جميع المراجع محضراً بما دار في ذلك المجلس ، وفيه دلالات على ما جاء في تكوين النزعات الأيوبية من مختلف النيات المعقودة على تكوين دولة للبيت الأيوبي في مصر أو في غيرها من بلاد الشرق الأوسط ، وهو على أية حال شرح لنظرية المقريزي في تكوين الدولة الأيوبية ، وتفسير ... « وفيها ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ، وعزم (نور الدين) على دخول مصر وقلع صلاح الدين منها ، فسمع بذلك صلاح الدين ، فجمع وجمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقي الدين عمر بن أخيه : إذا جاء (نور الدين) قاتلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد ، ووافقه جماعة من أهله على ذلك ، فشتمهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأي ومكر وقال لابن ابنه تقي الدين : اقعد ، وسبه والتفت الى ولده صلاح الدين ، وقال « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمي خالك ، أتظن في هؤلاء من يحبك ويريد الخير لك أكثر منا ؟ قال : « لا » فقال : نحن ندري والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكنا الا أن نترجل له ، ونقبل

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا ، فكيف سيكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات في سرجه ، وما يسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائب عنه فان أراد عزلك فأي حاجة الى المجيء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولي البلاد من يريد » وقال للجماعة كلهم « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم الى نور الدين بهذا الخبر ثم ان نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له « أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على ما في نفسك فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من بلاده جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وأسلموك اليه وأما بعد هذا المجلس فانهم سيكتبون اليه بقولي فاكتب أنت أيضا في هذا المعنى ، وقل له أي حاجة الى قصدي ؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فانه اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله في كل يوم هو في شأن » ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، و تعرجت الأيام كما قال نجم الدين

غير أنه يبدو أن صلاح الدين لم يطمئن الى هذا الموقف تماما فعاد الى التفكير في مركزه داخلا وخارجا ، في ضوء بعض هذه التجارب عن تفكيره في الانتقال عن مصر الى غيرها من البلاد فجاوز ، اذ أخذ بمشروعات لتكوين دولة أيوبية في القاهرة ، مثال ذلك تفكيره في غزو بلاد النوبة وارساله حملة كبيرة الى تلك البلاد بقيادة توران شاه وهو أكبر اخوته وسار توران شاه الى أسوان أواخر ١١٧٢ ، وزحف جنوبا حتى استولى على ابريم ، ثم عاد الى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للاغراض التي ينشدها صلاح الدين ومثال ذلك تقرير صلاح الدين ارسال حملة بقيادة أخيه توران شاه أيضا لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكللت هذه المحاولة بالنجاح أواخر سنة ١١٧٣ وأما من الناحية الداخلية فان صلاح الدين استطاع أن يهدم مؤامرة ثانية لاعادة الدولة الفاطمية اذ قضى على هذه المؤامرة وهي في مهدها ؛ وقبض على زعمائها ورئيسهم عمارة اليمني واستفتى الفقهاء فيهم فأفتوا بقتلهم ، فشنقهم جميعا في أبريل سنة ١١٧٤ ، وفي الشهر التالي توفي نور الدين و تعرجت الأيام ، كما قال نجم الدين أيوب الذي كانت وفاته في السنة السابقة لوفاة نور الدين

على أن الجو لم يصبح بذلك خاليا تماما لصلاح الدين ، وبذا لم يعني استقلاله بمصر مباشرة ، بل عمد أولا الى معالجة الموقف

انقضى بعض على وفاة نور الدين ، وخضع ابنه الطفل إسماعيل في المملكة النورية السابقة بدمشق وحلب . ثم كان هناك سيف الدين غازي صاحب الموصل، وهو ابن أخي نور الدين، ولابد لصلاح الدين أن يحسب له حسابه وهذا فضلا عن صاحب السلاجقة بالروم وأي آخر النصراني ، وهو مليح رسلان الثاني . على أن صلاح الدين لم ير في هذا أو ذاك ندا له أو منافسا أو بديلا ، إذ لم يلبث عنده أنه هو الوارث الكفء لمشروع نور الدين وسياسته في تكوين جبهة إسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذي يستطيع النهوض بذلك العبء المزدوج .

ويبدأ صلاح الدين عمله في سبيل تكوين جبهة إسلامية متحدة بالشام ، حيث كان المحيطون بالملك الطفل إسماعيل بن نور الدين حزبين ، أحدهما دمشقي يريد أن تكون دمشق عاصمة المملكة النورية ، ولتكون إقامة الملك الطفل إسماعيل بها ، وثانيهما حلبي يريد أن تظل حلب عاصمة للمملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتطلب الحلبيون مساعدة الصليبيين، واستنجد الدمشقيون بصلاح الدين، فحضر إليهم بسرعة خفية من الجند ، وأعلن أن غرضه حماية مصالح الملك الطفل . ودخل دمشق في نوفمبر سنة ١١٧٤ وذهب منها إلى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقيما . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها في وجه صلاح الدين ، فحاصرها حصارا قصيرا ، ثم ارتد عنها فاتحا مؤقتا بولاء الشام له من عدا حلب . وحين تحرك سيف الدين غازي صاحب الموصل ، لم يكن من الخطر منه أول الأمر حتى صار صلاح الدين يعتقد أنه يحمل مصلحة تجاه الصليبيين . وقد أرسل سيف الدين غازي جيشه إلى حلب لمؤازرة الحلبيين فيما سوف يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة إلى الجند الحلبي ، والتقت بجيش صلاح الدين قرب حماة عند بلدة اسمها قرون حماة في إبريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين انتصاره هناك بانتصار ثان على القوات الحلبية المرصلية في إبريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها تل السلطان ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك إسماعيل بن نور الدين صلحا اعترف فيه الأخير بشرعية سلطنة صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التي امتدت وقتذاك من مصر إلى قرب أطراف الفرات .

وبعد هذه السنة (أي ١١٧٦ م) أصبح صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام إذ شهدت تلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك إسماعيل بن نور الدين ، كما سيتعرض له توقيعه ووصل إليه من عهد الخليفة العباسي ، وقد ودقت فضلا عن ذلك النقود الذهبية والفضية والنحاسية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وتفرغ صلاح الدين في السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ إلى أعمال

داخلية ، ومنها بداية بناء القلعة وتحصين السور المحيط بالقاهرة وأسلافها من العواصم الإسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط والإسكندرية وتدعيم الأسطول بإضافة سفن جديدة. ومن أعمال صلاح الدين في تلك السنوات كذلك تأسيس المدارس — أي كليات التخصص في علوم الدين على المذهب السني — مناهضة للشيعة التي كوفحت بمصر على أيدي الفاطميين ، ومن هذه مدرسة الإمام الشافعي والناصرية والقمحية والسيفية بالقاهرة والفسطاط ، والحافظية والسلفية بالإسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع أصله إلى ما قبل أيام صلاح الدين. على أن هذه السنوات التي صرف صلاح الدين معظمها في أعمال سلمية داخلية لم تخل من أعمال عسكرية وسياسية أهمها بدء اصطدامه بقوى مملكة بيت المقدس الصليبية بقيادة أرناط أمير الكرك وهزيمته أمام تلك القوى عند الرملة سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس نافع للمستقبل. ويبدو أن هذه الصدمة أجنحت صلاح الدين إلى فكرة مهادنة الصليبيين مؤقتا ، بدليل عقده سنة ١١٨٠ هدنة لمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس ، وعقده هدنة مشابهة في أواخر تلك السنة مع قلج أرسلان ملك السلاجقة بالروم ، وأمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين. وقامت هذه الهدنة الثانية على مبدأ ما وصل إليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط ولما نص على استقلاله بمصر والشام سوى نصح سيى.

ثم توفي سيف الدين غازي أمير الموصل في أواسط سنة ١١٨١ وتوفي بعده إسماعيل ابن نور الدين في ديسمبر من تلك السنة ، فاضطربت شروط الهدنة القائمة بين صلاح الدين والأمراء المسلمين حين تعصبت بعض أولئك الأمراء إلى مفاوضة الصليبيين ليكونوا يدا واحدة على منع صلاح الدين من الاستيلاء على الموصل أو حلب. وجعل صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للزحف من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢ بقصد القضاء على جميع أنواع المقاومة ضده تمهيدا لإعلان الجهاد ضد الصليبيين. على أنه لم يشأ أن يكون البادئ بالعدوان ، فحرص على الهدنة المعقودة ، فظل بدمشق حتى تنتهي أجل هذه الهدنة في سبتمبر من تلك السنة ، ثم تحرك منها نحو الفرات ، فعبره عند مدينة بيرة وكانت انتصارات صلاح الدين في الأراضي الفراتية إذ سلمت له الرها وسروج والرقة وقرقيسيا ونصيبين وتقدم صلاح الدين أخيرا نحو الموصل في نوفمبر من السنة نفسها ، لكنها استعصت عليه ففضل الاستيلاء على غيرها من المدن مثل سنجار وآمد ، وما زال يعمل في تلك الأطراف حتى سلمت له حلب في يونية من السنة التالية.

وأضحى صلاح الدين بعد تسليم حلب أقوى دولة مسلمة في الشرق الأوسط ، وأحس هو نفسه بأهمية هذه الحقائق ، فجعل قوله للمحيطين به وهو مستعد في القلعة الحصينة ما سرب فتح مدينة كبرى فتح

هــذه المدينة ، والآن قد صدق آمي أمنت البلاد ، وعسى أن يمكن قد استقر ولـب ».

ومن الواضح أن دولة صلاح الدين بعد سنين قليلة قد أصبحت من حيث القوة والسعة والمنعة الحربية أعظم دولة في الشرق الأوسط كله ، كما أصبح اسمه موضع التجلة العميق ، ومصداق ذلك قول ابن جبير في مذكراته بصدد صلاة الجمعة أن الحجاج حين سمعوا دعاء الخطيب لصلاح الدين قد رفعت أصوات بالدعاء بالتأمين دعوة نبعتها القلوب الخاشعة والنيات الصادقة ، وخفق الألسنة بذلك حيثما يهيب القلوب تذكرنا لما وهب الله لهذا السلطان العادل (صلاح الدين) من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ». وليس عجيباً أن يشعر صلاح الدين بعد أن صارت له كل هذه التوفيقات أن واجبه أضحى يتركز في الجهاد ضد الصليبيين ، وإن كان ثمة ما يمنعه من الإقدام بكلياته على الجهاد حتى وقتذاك كبقاء الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجة عن دولته ، فإن صلاح الدين سار لافتتاح هذه البقايا سنة ١١٨٥ ، ولم تنته السنة التالية حتى دخل أمراء الموصل وشهرزور وأربل وغيرها في طاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان إلى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها من الإمارات الصليبية بالشرق.

وكان صلاح الدين عقد معاهدات مع نحوه والصمت في الأوساط الصليبية ، وذلك من الهزيمة على أيديهم في موقعة الرملة سنة ١١٧٧

كما دفع حلاوة النصر بعضهم إلى هزيمته بمرج عيون سنة ٧٩ على يد صلاح الدين ثم رأى أن يجعل مشروع توحيد الجبهة الإسلامية مرهوناً بما تأتي به الحوادث من حروب تحصر في ميدان المقاومة ضد الصليبيين وقد فضل الانصراف إلى شئون توحيد الجبهة الإسلامية ، وجنح سنة ١١٨٠ إلى مهادنة مملكة بيت المقدس مدة سنتين . غير أن عدو الصليبيين أفسد جو الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، إذ قصد هذا الأمير في أوائل سنة ١١٨٣ إلى القيام بحملة بحرية من خليج العقبة للإغارة على شواطئ البحر الأحمر ، بقصد الزحف على المدينة أو مكة . وأرسل العادل أخو صلاح الدين ، وهو وقتذاك والي مصر أسطولاً مصرياً لتعقب السفن الصليبية حتى اشتبكت معها في مياه الحوراء شمالي ينبع ، وألحقت بها وبجنودها هزيمة فادحة . حدث كل ذلك وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة الإسلامية مرهوناً بما تأتي به الحوادث من الصليبيين مدة أربع سنوات ابتداء من ١١٨٥ . وللمرة الثانية كان أرناط أمير حصن الكرك سبباً في إفساد جو الهدنة القائمة بين الطرفين، وذلك أنه هاجم قافلة تجارية سلمية وهي تمر على مقربة من حصن الكرك سنة ١١٨٧ فاستولى على متاجرها ، كما حجز لصلاح الدين كانت على سفر مع تلك القافلة على ما قيل . وقد أقسم صلاح الدين أن يقتل أرناط إذا وقع في يده يوماً من الأيام ، غير حادثة القافلة الهدنة وبدء

العدوان ، وأرسل في طلب النجدة من مصر والشام والبلاد المجاورة . وخرج صلاح الدين من دمشق في مارس سنة ١١٨٧ م قاصداً القتال ، فعسكر عند عشترى جنوبي نهر اليرموك ، حيث تلاحقت إليه حشود مختلف البلاد ، واستقر الرأي بين أرباب مشورته على السير نحو طبرية ، ليجبر الصليبيين على الزحف منها نحو صفورية حيث تجمعت عساكر مملكة بيت المقدس ، وهي قرية في منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيراً بين الفريقين عند قرية حطين وهي في منتصف الطريق تقريباً بين طبرية وصفورية ، وذلك في يوم السبت ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م ، وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب بها معظم جيش مملكة بيت المقدس ، فضلاً عن جيوش الإمارات الصليبية التي اشتركت في المعركة ، كما وقع فيه ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك ، وغيرهم أسرى في يد صلاح الدين .

وهكذا كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لمملكة بيت المقدس في فلسطين ، ويكفي برهاناً على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففي اليوم التالي عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فسلمت إليه قلعتها من غير مقاومة ، وهي التي استعصت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو بلاد الساحل ، فظفر بالاستيلاء عليها بعد عشرة أيام من معركة أوربية لمملكة بيت المقدس فضلاً عن أنه همزة وصل لها بين مصر والشام ، وكانت أقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين ومعداته مدينة عكا ، فاستسلمت له في ١٠ يوليه ١١٨٧ م ، وكانت شروط التسليم أن يرحل الصليبيون عن المدينة إذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بشرط دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرحيل صادرت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء البقاء بقيت أملاكه في يده . وأسرع إلى التسليم بعد ذلك معظم مدن الساحل شمالي عكا وجنوبيها ، فضلاً عن كثير من المدن الداخلية بما في ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التي كان تسليمها بعد حصار قصير ، وكل ذلك في مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وقعة حطين . والواقع أنه لم يأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية في يد صلاح الدين ، ولم يبق في حيازة الصليبيين سوى إمارتي أنطاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ، وأهمها صور التي نجحت في مقاومة الحصار بفضل مركيز ، بسبب ما اجتمع بها من جماعات ممن استولى عليهم صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية بحرية إليها وقتذاك .

ومن صور لبثت المقاومة ضد صلاح الدين ، فمنها سارت رسل إلى أوربا تستنهض ملوكها لتسيير الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا لمحاصرتها أملاً في استعادتها من صلاح الدين ، فحوصرت عكا منذ أغسطس ١١٨٩ م ، وحدثت حروب

نصف دائرة حرب ومركزها مدينة أيوبية تحاصرها عوامل ضعيفة ، وعندما أقبلت القوات الصليبية جاءتها صلاح الدين نفسه عليها محصورها للحامية الأيوبية من كرتها . ثم تم للفرقة الصليبية محصورة بالتالية أن وصلت كذلك الى عكا بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وانضمت السفن والجند الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية المحاصرة ، وشددت على عكا الحصار من ناحيتي البر والبحر حتى سقطت في يدها بعد حصار طويل في أغسطس ١١٩١ (يولية) أي مدة سنتين ترتيب تخللتهما حوادث بطولة حقيقية وتضحية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا من الشرق الى بلاده بعد سقوط عكا ، على حين بقي ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة كاملة بالشام ، وزحف من عكا قاصدا لاستعادة مملكة بيت المقدس . وفي هذه المدة استطاع ريتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة في أرسوف ، وأن يستولي على يافا ، غير أنه أخفق في جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تغير أعماله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث . لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين كقطب مجهود لا يستطيع جملة واحدة أو شخصا واحدا أن يمحوه في بضعة أشهر ، ومن ثم اتفق على وجب أن يقف الحرب عند حد بعد انتصاره في أرسوف مبادرة الى فكرة المفاوضة والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية تبقيه يمكن معه دولة صليبية قوية بالشرق الى جانب دولة صلاح الدين . وانتهت هذه المفاوضات بعقد صلح الرملة (سبتمبر سنة ١١٩٢) الذي اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية من عكا الى يافا بيد الصليبيين ، وأن يؤذن للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس على شرط دخولهم من عكا .

ويتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق في عهده أقصى ما تطلعت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، منذ قيام حروب الصليبيين بفلسطين ، وأحس صلاح الدين وهو في أوج مجده أن مهمته قد انتهت فعلا ، على أن الحروب والجهود التي تجشمها من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتوفي بدمشق (مارس ١١٩٣) ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ، وقبره على مسافة يسيرة من قبر أستاذه نور الدين بن زنكي ، ومن الجامع الأموي .

والباحث لا يستطيع الا أن يشعر بالفراغ الكبير الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، ومما يزيد في هذا الشعور أن الدولة الأيوبية المتحدة جرى عليها بعد صلاح الدين ما جرى على أمثالها في العصور الوسطى من تقسيم بين أفراد البيت الأيوبي ، اذ قسم صلاح الدين دولته في وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم يمض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى انضوى أخوه

الأكبر وهو العادل هذه الوصية ، ومثلا هو الفرع الذي أحدثته وفاة صلاح الدين ، وحدث بعد أن أجمع سلطانه جمع أبناء البيت الأيوبي ، ووحد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موقفه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين خطى الخطوة النهائية في سبيل توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بخلع حفيد صبي من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، إذ قال في مجلس من أمراء الدولة « إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي ، مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو من غلب . وارتأى أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره وقمت بمصالحه » ومنذ عهد العادل في الدولة الأيوبية تمتد فترة سنة (١٢٠٠ — ١٢١٨) وظلت السلطنة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبي ، ومثلما كان تاريخ الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، لم يعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى تهب الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ وتأثرت بهذه المنازعات الداخلية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاطينها القيام بجهود مشابهة لما قام به صلاح الدين ، بل عمدوا في سياسة مهادنة رغبة في تجنب البلاد ويلات الحروب .

وفي هذه السنوات تحول الصليبي نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، إذ اعتقدت الزعامات الصليبية في أوربا والشرق أنه لا فائدة من محاربة القوى الإسلامية بالشام ، ما دامت السلطنة الأيوبية قائمة بمصر . وشجعت على محاربة الإيطاليين على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبي على مصر سوف يمكن لهذه المدن من الحصول على جانب من تجارة الموانئ المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدن الفلسطينية وسوف يفتح لها الطريق إلى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية .

ووافق هذا التحول في النشاط الصليبي دعوة البابا أنوسنت الثالث ١٢١٦ م لإعداد مشروع حملة صليبية هي المعروفة بالخامسة . وتم تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبي كبير والذي ضرب الحصار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالقدوم من شمال الشام إلى مصر لدفع هذه الحملة الصليبية ، لكنه توفي في الطريق قريب من دمشق ، وأعقب وفاته تقسيم الدولة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، فوقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح المسالمة التي سار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل أيام أبيه العادل فعمد إلى معالجة المشكلة الصليبية الراهنة سلميا بجهودها في دمياط ، بعرض المفاوضة والمصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين .

وخلاصة ما عرض السلطان الكامل أن

يحتفظ الصليبيون بدمياط والسواحل المصرية جائزة لهم ، ولا يعدم السلطان [illegible] مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ، ويعطي معظم الممتلكات التي أخذها منهم صلاح الدين ، أي مملكة بيت المقدس الصليبية وبلادها كلها تقريبا ، مع عدم تدمير حصونها [illegible] الأعوام المصرية للصليبيين ، وهب الكرك والشوبك لما لهما من أهمية استراتيجية ، غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض السخي ، ولو كان غرضهم دينيا فقط لما ترددوا في قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل يتنازل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتصلة بالمسيحية بطريقة سلمية. أما الأسباب التي دعت إلى رفض عرض السلطان فهي أن مندوب البابوي في المعسكر الصليبي ومعه بلاجيوس رأى أن المفاوضة لا تكون إلا بعد هزيمة الأيوبيين ، وأن المعاهدة لا تكون إلا بعد دفع فدية يدفعها الصليبيون قبل أن يتحركوا من دمياط. ثم إن المدن الإيطالية التي اشتركت في هذه الحملة بجنودها وأموالها وأساطيلها عز عليها أن تكون هناك شروط تضمن تحصيلات في [illegible] وتحقق [illegible] التي [illegible] الإيطالية من [illegible] إلى جوف البلاد المصرية.

وفي [illegible] سنة ١٢٢[illegible] م والتي على [illegible] لإملاء إرادة المندوب البابوي [illegible] الصليبيون [illegible]

بأنهم استولوا [illegible] لأنهم لم يصلوا إلى غرضهم هذا إلا بعد [illegible] عشر شهرا [illegible] عسكرهم فيه [illegible] وشمالي معسكر الأيوبي عند [illegible] توقفت عمليات [illegible] في البر والبحر [illegible] استعداد لدفع الأيوبيين إلى الوراء ، [illegible] الطريق إلى القاهرة. غير أن السلطان الكامل أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، فغرقت مساحات شاسعة من الأراضي ، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تمنعهم من التقدم إلى الأمام ، وتعزلهم عن قاعدتهم العسكرية بدمياط ، [illegible] سبقا [illegible] أشموم طناح. هكذا انحسر الصليبيون ، وذهبت آمالهم في الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم مخرج إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقا شمالا إلى قاعدتهم في دمياط ، وانتهزوا فرصة [illegible] الانسحاب في حين [illegible] الظلام [illegible] وعسكر [illegible] ويحققوا هزيمة [illegible] بعد ذلك — وبعد قليل — رضي الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضي المصرية في [illegible] أواخر سنة ١٢٢١.

على أن فكرة معالجة المشكلة الصليبية بالمفاوضة والمصالحة لقيت طريقا في نفس الإمبراطور [illegible] الثاني [illegible] و[illegible] السلطان الكامل [illegible] التي [illegible] الأقدس على معاهدة [illegible] الطرفين [illegible] الإمبراطور [illegible] إلى السلطان على [illegible]

سنة ١٢٢٩ م أتوضح هذه المعاهدة الفريدة في تاريخ العصور الوسطى . وحسب هذه المعاهدة على أن يسلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للامبراطور فردريك خاصة [illegible] الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة وطريقا يصل من عكا إلى بيت المقدس ، على أن تظل منطقة المسجد الأقصى فضلا عن بعض الجهات الإسلامية بيد الأيوبيين . وتعهد الامبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك بأن يعمل على منع أية حملة صليبية من أوربا ، وأن يوقف الإمدادات الأوربية عن الإمارات الصليبية بأنطاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفا للسلطان الكامل . غير أن هذه المعاهدة الكاملية الفردريكية لقيت نقدا مريرا في الأوساط المسيحية الأوربية ، فضلا عن الأوساط الإسلامية في مصر والشام ، مع العلم بأنها ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين نحو عشر سنين . ومن الدليل على ذلك أن حركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث رغم ما نشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أمراء البيت الأيوبي بمصر والشام ، ورغم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضطراب أمور الدولة الأيوبية بعده للملك المسمى العادل الثاني بن الكامل ، وهو الذي خلعه أخوه الملك الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ .

على أن هذا الأفق السياسي من سحب صليبية كبيرة لم يكن معناه سلاما عاما دائما في الشرق الأوسط . وذلك أن عيونا [illegible] تنفصل وتتبدل فوق أطراف غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، وهي تلك التي سحقت هذه الدولة المغولية [illegible] فلولا وعناصر منتشرة تحاول الدخول في خدمة أي عرش في سبيل استخدامها ، كما جعل الشرق الأوسط كله عرضة لما سوف تقوم به جموع من هذه الجحافل أو على جوانبه لمقتضيات حركتهم التوسعية المترامية . واستخدم الملك الصالح أيوب بن الكامل من هذه الفرق الخوارزمية قوات عدتها عشرة آلاف فارس ، ووجهت هذه القوات إلى الشام ، فهاجمت ضواحي دمشق المعادية ، كما هاجمت مدينة بيت المقدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التوازن السياسي اختلالا أقلق الدوائر الصليبية في أوربا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل في تصحيح التوازن السياسي لصالحها صليبيا [illegible] وصلت إلى الشواطئ المصرية حملة صليبية فرنسية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وألفت هذه الحملة مراسيها كما فعلت الحملة الصليبية السابقة خارج دمياط ، وكانت رغبة الملك لويس التاسع بذلك أن يبدأ بهذه البداية من تجارب الحملة السابقة على حين أنه وقع في معظم أخطائها التي [illegible] الكامل [illegible] إلى استعمال [illegible] مشابهة في التحصين .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا ، لكنه لم يستسلم للمرض بل عكف على تحصين

قواته في البر والبحر، فعسكر بجيوشه أولا عند بلدة أشموم طناح جنوبي البحر الصغير، وكان معسكرها من التحالف الأثر الذي يحمل مركز مدينة في بلدة المنصورة التي عسكرت منصورة بانتصار أبيه الكامل على الصليبيين في الحملة السابقة. وأكثر الملك الصالح في تموين دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادا لما عساه يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة، وأنفذ القائد فخر الدين بن حمويه بجيش من الجيش للدفاع على البر الغربي قبالة دمياط نفسها على أهبة الأمر. غير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكره بحال وفاة الملك الصالح، وضرورة وجوده هو قريبا من المعسكر الأيوبي ليشترك في المؤامرات والمفاوضات التي تتلو أخبار الوفاة، فانسحب بعسكره إلى أشموم طناح، وباتت مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها، ولم تلبث أن رحل عنها أهلها جافلين. وبذا دخل الصليبيون دمياط دون حاجة إلى قتال أو حصار، واستولوا على ما فيها غنيمة باردة.

ثم استقر الرأي الصليبي على الزحف جنوبا نحو المنصورة، وخرجت الجيوش الصليبية من دمياط في نوفمبر ١٢٤٩. وبينما الصليبيون في أول زحفهم جنوبا توفي الملك الصالح، فتراءى للملك لويس التاسع أن الظروف قد أصبحت مواتية للصليبيين نصر سريع ... الأخبار عن ... وجهة الملك الصالح ... على ...

الدولة ... الى مصر، فاضطر الصليبيون الى مراقبة النصر الذي ساعدهم ... واستطاع الملك الفرنسي أن يصل بالجيش الصليبي الرئيسي الى ضفة البرمون الواقعة على البحر الصغير، وأصبح هذا البحر فاصلا بين المعسكر الأيوبي الممتد من أشموم طناح الى قرية جديلة وبلدة المنصورة وبين المعسكر الصليبي المتركز في البرمون وتناوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر — أي حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠. وكان الملك الفرنسي في هذه الأثناء مشغولا بإقامة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير يعبر منه الى المعسكر المصري الأيوبي، على أن هذا المشروع عبثا سيحتاج التنفيذ، ورفضه العمل فيه بعد أن جاء أحد الخونة الى المعسكر الصليبي وأرشد الملك الى مخاضة يعبر جيشه منها الى مواقع الجيش الأيوبي. وعبرت الطلائع الصليبية ذات يوم قبل الفجر بقيادة أخي الملك، وتقدمت حتى هجمت فجأة على المعسكر الأيوبي في جديلة. واشتبك الفريقان اشتباكا عاما مات القائد فخر الدين قتيلا في أوائله وانهزمت الجنود الأيوبية الى المعسكر الرئيسي بالمنصورة، ووراءها الطلائع الصليبية. وظن أخو الملك الفرنسي أن النصر الصليبي السريع أصبح قاب قوسين أو أدنى غير أنه لم يلبث أن ... في المعسكر القديم ... كل الحملة، إذ دخل طائفة المنصورة ... جانبه من المقاومة، ثم لم ... ضرب

من القصر الملكي حتى أحاطت بجيوشه حركة تطويقية محكمة عنيفة . وقد تعقب العسكر الصليبي عند جديلة بن هرمة طائفة عند المنصورة ، حيث تم حصاد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة في بضع ساعات ، وهو معظم هذه الطلائع الصليبية .

أما الملك الفرنسي فعبر البحر الصغير ، وتقدم استعدادا لما سوف يقوم به الجيش الأيوبي من حركات هجومية . وعندئذ حمي القتال بين الفريقين ، وتبادل الأيوبيون والصليبيون النصر والهزيمة ، وظل معسكر الصليبيين في مواضعه خارج المنصورة ، أملا في أن يدب النزاع في معسكر الأيوبيين بين السلطانة شجر الدر وولي العهد توران شاه عند وصوله إلى مصر . لكن النزاع لم يقع في المنصورة أو في الفترة التي تطلع إليها الملك الفرنسي ، إذ وصل الملك الجديد إلى المنصورة وتسلم زمام الموقف ودل على مهارة فائقة بما اتخذه من تدابير حربية متنوعة . وكان أول هذه التدابير أن أمر توران شاه باحضار أسطول من بعض السفن الخفيفة ، وحملها وهي مفككة على ظهور الجمال إلى مكان بعيد شمالي المنصورة ، حيث تم تركيبها وتعويمها في النيل واستخدامها ضد المراكب الصليبية الواردة بالمؤن من دمياط إلى الواقفين في معسكر الصليبيين . واستطاع هذا الأسطول أن يقوم بهذه المهمة ، وباتت الجيوش الصليبية مهددة بالمجاعة . ثم لم تلبث المجاعة أن أعقبتها الأمراض الوبائية الفتاكة ، ولا سيما حمى التيفوئيد التي اشتدت في معسكر الصليبيين اشتعالا مميتا .

وإذ ذاك جمع الملك الفرنسي مجلس قادة جيشه ، وقرر معهم وجوب التقهقر إلى دمياط ، على أن تكون عودة المرضى والجرحى على المراكب الصليبية الراسية في النيل ، وأن تكون عودة الجيش عن طريق شرمساح وفارسكور . وبدأت هذه الحركة التقهقرية في البر والبحر أوائل أبريل سنة ١٢٥٠ ، وكانت هذه البداية مؤذنة لعساكر الأيوبية أن تخرج من المنصورة لمطاردة الصليبيين وعرقلة تقهقرهم ، ثم لم تلبث هذه العملية أن تقلبت من مطاردة وعرقلة إلى حركة تطويقية غرضها الإحاطة بالجيوش الصليبية وإجبارها على التسليم . وأصبحت الهزيمة محتومة للملك الفرنسي وهو يعاني آلام المرض بالحمى وفتكها ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضي بالتسليم قبل فوات الأوان . وجاءت طائفة من الجند الأيوبي فحملت الملك الفرنسي أسيرا مكبلا في السلاسل إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها إبراهيم بن لقمان ، وهي دار لا تزال قائمة بشارع الجوهري بالمنصورة الحالية . ثم اتفق الطرفان على أن يجلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما ، وأن تبتعد السفن الصليبية عن الشواطئ المصرية في سرعة ، وأن يتعهد الملك بدفع فدية مالية عن نفسه وعن حاشيته ، وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه ، وكان ذلك مقابل إطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

عن عامة الأسرى الذين تم الاتفاق كذلك على إطلاق سراحهم بعد الوفاء بالحصر عدد من أصحاب الفرنجة المملكة

ثم كان من أوائل الدولة الأيوبية بعد هذه الحوادث التي تحدثنا فيها حدوث مصرع السلطان الصالح وسياسة زوجته شجر الدر ومهارة خلفه توران شاه ، ذلك أن توران شاه أساء الظن بصنائع أبيه ، وهم أصحاب الفضل في واقعة المنصورة ، واعتقد أنهم يعملون مع شجر الدر ضد حكمه ، فأخذ يضايق شجر بمختلف الوسائل ، ويطالبها بتحرير أموال أبيه وأعماله عنه ، ودبر مؤامرة للفتك بها وبزعماء المماليك ، غير أن هؤلاء سبقوه إلى مثل ما دبره لهم ، إذ قتلوه شر قتلة في فارسكور سنة ١٢٥٠ ، وهكذا كانت نهاية الدولة الأيوبية في مصر

وربما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة الأيوبية لا يعدو أن يكون تاريخ حروب جبهة إسلامية متحدة ، واستخدام صلاح الدين لما تأدى به تلك الجبهة المتحدة من قوة عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية تخريب وهدم . وذلك صحيح في جملته وتفصيله ويدل عليه ما نحس معظم سلاطين الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين إلى أيام توران شاه من تفانيهم في ميادين الحرب ، ولم نسمع إلا بينهما من دبلوماسية ماهرة اشتهر بها السلطان العادل صاحب الفضل في معاهدة الهدنة التي أبعدت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة عن مصر ، والسلطان الكامل صاحب معاهدة

الكاملة الفترة تركته التي عطلت مشروعات الصليبيين لمدة عشر سنين وجنبت من الويلات متنوعة من مستحدثات الفن الحربي ما يساعد على تقدير أعداد القوات البرية والبحرية التي استعان بها صلاح الدين في حروبه الصليبية ، ويقدر القوات البرية مثلا بما لا يقل عن خمسة عشر ألف فارس من الأتراك والأكراد ، وأولئك عدا جيوش الشام والجزيرة ، وعربان الأقاليم المصرية والشامية وشملت القوات البحرية على سفن حربية عدتها خمسون سفينة لحماية السواحل المصرية والشامية ، وثلاثون لأعمال الهجوم البحري على مراكز الصليبيين . وتنوعت هذه السفن ، فكان منها الشيني والغراب والطريدة والحراقة والشلندية والبطسة والحمالة ، والمركوش والعوقل وجرى الاصطلاح على تسمية رجال هذه السفن باسم رجال الأسطول ، كما نعلم من عناية صلاح الدين بشئون البحرية ما جعله يدبر لها خاصا سماه ديوان الأسطول

واستلزمت نفقات هذه القوات البرية والبحرية ، كما اعتمد جزء كبير من نفقات الدولة بمصر ، على تنظيم إقطاعي أحدثه صلاح الدين بمصر وبنى به محل نظام الرواتب والأعطية ، أسوة بالسلاجقة والزنكيين قبله بعد اعتبار الأراضي كلها إقطاعات للسلطان وأبناء البيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وجنادها ، بحسب عدد الأجناد عند كل نوعين ، وهما الإقطاعات الإدارية التي تختص

بين السلطان وأبناء البيت الأيوبي وكبار الأمراء والموظفين ، وكل من هؤلاء يمنح عادة مع وحدة اقليمية ادارية ، بل لاقطاعات الحربية التي يمنحها السلطان مقابل تأدية لخدمة للدولة من خدمات حربية باقتناء عدد من الفرسان وتقديمهم للجيش العامل زمن الحرب. ولم تكن هذه الاقطاعات بنوعيها وراثية ، بل للمقطع الاقطاع في يده وحدة مدى الحياة ، وكفى دليلا على ذلك أن الوظائف الكبرى كانت مربوطة الى اقطاعات معينة لا تتغير ، فاذا انتقل صاحب وظيفة ما الى وظيفة أخرى انتقل بذلك الى اقطاع جديد ، وهكذا.

وبالاضافة الى تنظيم الاقطاعي وموارده التي استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من نفقاتها ، اعتمدت الدولة كذلك على عدة منابع مالية أخرى ، وأهمها الخراج المتحصل من الأراضي المزروعة ، وخراج المعادن مثل الزمرد والشب والنطرون ، وأموال الزكاة التي أنشأ صلاح الدين من أجلها ديوانا خاصا ، وأموال الخمس المفروض على متاجر الأجانب الواردة من أوربا الى دمياط والاسكندرية ، وأموال المكوس المفروضة على البضائع من مختلف التجار الكارمية في البحر الأحمر الى عيذاب والقصير والطور والسويس.

وقد نشطت التجارة في دولة مصر الأيوبي نشاطا ... عدد ... السفن التجارية الأوربية الراسية في ميناء الاسكندرية وجدها تبلغ في شتاء سنة ٥٨٨ هـ سبعا وثلاثين سفينة ، ولا شك أن هذه الأعداد الكبيرة تشير الى فضلا عن الربح والصلح مع تلك ... ملاحة البحر الوسطى في البحر الأبيض المتوسط أقل عرضة للأخطار.

وجلبت هذه السفن وأصحابها من أوربا الى ميناء الاسكندرية وسائر موانئ مصرية بصفة كميات كبيرة من الفراء والجوخ والفضة والحديد والأخشاب والأسلحة ، وذلك رغم تحريم المرسومات البابوية على التجار أن يتاجروا مع مصر في المواد الحربية التي يمكن استخدامها في أغراض حربية. وأهمل التجار الأوربيون — ومعظمهم من البندقية وبيزا وجنوة — هذه المرسومات ، لأنهم كانوا يأخذون بالمال مقابل هذه بضائع شرقية تجلب الأسواق الأوربية التي تطلبها بكميات متزايدة سنة بعد أخرى ، وأهمها التوابل والأفاويه وعقاقير الطب والقرنفل والقرفة والكافور والعاج والبخور والشمع والمسك واللؤلؤ والزمرد والشب والنطرون والأقمشة الرفيعة والمنسوجات الكتانية والحريرية الموشاة بالذهب والفضة والبسط والسكر والحلوى.

وأنتجت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع المعدنية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد من قرب قوص ، والشب من قرب أسوان والواحات والنطرون من وادي النطرون ومن بعض الصحارى ، كما أخرجت مراكزها الصناعية في تنيس ودمياط والاسكندرية أنواع المنسوجات ، فضلا عن السكر التي ... من المعاصر بالوجه القبلي.

على أن الظاهرة الكبرى التي استقامت تصر في هذا الميدان التجاري هي كونها مشروع الدولي الهام لتجارة معظم الغرب والشرق ، فهو يكشف المصانع الأولية في موانئ المصرية اليمانية ، المتلألئة مواسمها الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة تجارية هبها من كسب البضائع الشرقية ما يجعل الطريق النهري من القاهرة إلى قوص ومن النيل الى أسيوط والقوص وعيذاب ، أشبه بشيء بطريق الامبراطورية البريطانية الى الهند في القرن الثامن عشر الميلادي . ووصف ابن جبير هذا الطريق الدولي العظيم وصفا حيا تاما بمشاغل الحج والقوافل عن شئون المتاجر والأموال والمكوس ، اذ تنقل بين مراحل حتى عيذاب ، فوصف قوص مثلا بأنها كانت مدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق لكثرة الصادر والوارد اليها من الحجاج المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، كما وصف عيذاب بأنها كانت من أحفل مراسي الدنيا في العصور الوسطى ، بسبب أن مراكب الهند كانت تهبط اليها وتقلع منها ، وهي فضلا عن مراكب الحجاج الى جدة ، وهي التي كانت تسمى الجلاب ، وواحدها جلبة . وشهد ابن جبير من قوافل البضائع في هذا الطريق ما أعجزه عن الاحصاء ، ولا سيما قوافل الهند التي تحمل سلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب ، ووصل اليه أن أحمال الفلفل والقرفة في هذه القوافل تتوازى التراب في كثرتها ، حتى كادت تعطلت هذه الأحمال في الطريق بسبب غياب الأمن الحاملة لها تبقى مطروحة لا حارس لها حتى يأخذها صاحبها مصونة من الآفات والسرقات ، ما يشهد بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادي في مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه الصورة الوضيئة الدالة على مركز مصر في تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تخل من نقد مرير لأعمال رجال الديوان (الجمارك) في مختلف الموانئ والمدن ، لأنهم لم يميزوا أحيانا بين الحاج والتاجر ، فيفتشون متاع هذا وذاك بحثا عن المال ، ويفرضون الزكاة على ما يجدونه ، سواء حال عليها الحول أو لم يحل ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل المكوس على الحجاج ، وهي سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية يدفعها الحاج الواحد عن نفسه بعيذاب أو بجدة ، برسم إمرة مكة والمدينة

وكانت الغاية هذه المكوس لتشكل جزءا من مدنية سببها ضخمة استهل صلاح الدين بها عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته السنية وللتخفيف عن كواهل الناس . وقد بلغت عدة المكوس التي ألغاها صلاح الدين مرة واحدة في مرسوم واحد خمسين مكسا ، قيمتها مائة ألف دينار سنويا ، أي مليون دينار في عشر سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من الغلال التي سامح بها ، وأبطل تحصيلها من مستحقيها . ومن هذه المكوس ما كان معروفا باسم مكس الملح ، ومكس البضائع والقوافل ، ورسم الحطب الطوال ، ورسم

التفييلي ، ومصرة الكتان ، ومرتبة العسل ، وغير ذلك من المكوس التي ... للسلطان . أما معنى هذه السياسة المصرية الحكيمة فهو أن مجتمع الأيوبي المصري تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادي سواء من ناحية تخفيف الأعباء العامة من المكوس ، أو من ناحية الحركة التجارية النشيطة في البر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التي تطلبتها حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالاضافة الى ما تطلبته الجيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسفن والأطعمة .

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادي ظل سمة للمجتمع المصري الأيوبي حتى بعد صلاح الدين بدليل المعاهدات التجارية التي عقدها خلفاؤه من سلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الايطالية والامبراطورية ، وبدليل تصدام ثورات الفلاحين في العصر الأيوبي كله ، وهذا وذاك فضلا عن قيس ثالث هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تصمد على حملتين صليبيتين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالخامسة بقيادة حنا بريين ، والحملة المعروفة بالسادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة في الحضارة الاسلامية في مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الفاطميين الشيعة الى الأيوبيين السنيين ، وأول ذلك ما عمد اليه صلاح الدين وخلفاؤه من محاربة الدعوة الشيعية ومذاهبها ، وتأسيس المدارس السنية بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التي رادف الى جدها الكتب الجامعة في العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصلاحية التي بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجوار مسجد الامام الشافعي للتدريس فيه للشافعية خاصة . وهذه المدرسة زارها ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفخيم الأنيق ، ووصفها بأنه لم يعمر بالشرق الأوسط مثلها من حيث المساحة والبناء ، حتى انه ليخيل من يتطوف عليها بأنها بلد مستقل بذاته ، وبازائها الحمام والمساكن للطلاب ، الى غير ذلك من المرافق

ولقي ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الخبوشاني ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضي الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول في اقامة الدولة الأيوبية

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التي أنشأها صلاح الدين في مصر ، كما أن فقه الشافعية الذي أصبح مذهب رسمي للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة للشافعية ، لم يكن كذلك المذهب السني الوحيد الذي حظي بعناية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هي مدرسة انشئت كذلك للشافعية ... الناصرية ، بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى احد أعيان الشافعية

الذي بدأ التدريس بها ، وصار يعرف بعد ذلك باسم المدرسة الشريفية نسبة الى الشريف قاضي العسكر [illegible] كذلك . وبجوار جامع عمرو بن العاص كذلك قامت المدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين للفقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن القمح الذي جمع من أوقافها بالفيوم كان يوزع مباشرة على مدرسيها وطلبتها . وأنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة السيوفية لمذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة باسمها هذا من أجل أنها أطلت على سوق السيوفيين بالقاهرة وقتذاك .

واستمرت هذه الحركة المتصلة بالعناية بالمدارس في أبناء بيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وكبار موظفيها ونسائها ، فأنشأ الملك العادل محمد أخو صلاح الدين المدرسة العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقي الدين عمر مدرسة معروفة بمنازل العز أو المدرسة التقوية نسبة الى الأمير تقي الدين نفسه ، كما أنشأ هذا الأمير مدرستين بالفيوم بعد أن صارت بلاد الفيوم جزءا من اقطاعه . وأنشأ القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهي المدرسة التي احتوت على مكتبة بلغت كتبها فيما قيل مائة ألف مجلد في مختلف العلوم .

ومن هذه المدارس كذلك المدرسة الأزكشية نسبة الى مؤسسها أزكش أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة العاشورية نسبة الى ست عاشوراء وجيهة هذا الأمير ، والمدرسة ابن الأرسوفي نسبة الى التاجر عفيف الدين عبد الله بن الأرسوفي .

ويستمر عدد هذه المدارس المتزايد في ازدياد ونمو زمن الأيوبيين ، كما تطور المعاهد فيها نحو التخصص ، فظهرت مدارس متخصصة تدرس علم الحديث ، وأنموذجها المعروف هو المدرسة الكاملية التي أنشأها السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى من نوعها في مصر ، ولم يسبقها في هذا التخصص سوى مدرسة حديثية بدمشق منسوبة الى السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي . ومن ناحية أخرى من ذلك التطور أن بعض المدارس أخذت تجمع بتدريس فقه المذاهب ، بحيث صارت هذه المدارس شاملة المذاهب الأربعة ، وأنموذجها المعروف المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح أيوب أواخر أيام الدولة الأيوبية .

ولم تقتصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية على مصر ، بل تعدتها الى الشام ، بحيث بلغت [illegible] الكبرى .

وفي هذه المدارس جرى تدريس عدة علوم مساعدة الى جانب الفقه والحديث والتفسير والقراءات والمنطق والحساب ، فاشتملت برامجها على النحو والبلاغة والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على مستويات مختلفة بحسب الحاجة اليها .

ويضاف الى هذه الجهود الثقافية جهود الدولة الأيوبية باستقدام من الفقراء الصوفية من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وحمل السلطان صلاح الدين من ذويه بمعرفة

دعاة للمذهب السني ، وخصص لهم دور تسمى الواحدة منها الخانقاه وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة . كما سمح لكثير من الصوفية المحبين على سمت الزهد و... سكنوها هداة ووعاظا متجولين بين الناس . وأولى خانقاه [illegible] هي الخانقاه الصلاحية وهي دار فاطمية كبيرة اسمها سعيد السعداء بجوار دار الوزارة ، واختار صلاح الدين هذه الدار عمدا لكي تصدر لتكون للفقراء الصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، ووقف عليها عدة جهات ، ورتب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى بجانبها حماما خاصا . واتخذ رئيس الصوفية سكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وتولى هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجويني ممن كان بهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش ومشيخة الصوفية ، على قول المقريزي ، ومنهم فخر الدين يوسف الذي قتله الصليبيون في وقعة جديلة قرب المنصورة .

وأصبحت لهذه الخانقاه الصلاحية صيت ديني ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا معتادا في كل يوم جمعة أن يأتي الناس من مختلف البلاد الى القاهرة ليشهدوا صوفيتها ، وهم متوجهون في موكبهم الى صلاة الجمعة بجامع الحاكم الفاطمي ؛ دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا الموكب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدامه ... الربعة الشريفة وهي محمولة على رأس أكبر خدامه ، والصوفية سائرون وراءهم في سكون وخشوع ، وعند وصول هذا الموكب الى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة بينها وبين المقصورة الخاصة ، ... الى البسملة المكتوبة في صدرها معروف ... ، فيصلي شيخ الشيوخ ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الربعة للقراءة قبل الأذان والخطبة . ثم اذا قضيت الصلاة قام قارئ من قراء الخانقاه ، ورتل بصوت آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين وسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بمثابة اشارة لاستعداد الموكب للعودة الى الخانقاه ، حيث يكون الناس في انتظارهم للتبرك بهم .

وبالاضافة الى هذه الخانقاه والمدارس التي غيرت ملامح المجتمع المصري وطقوسه زمن الأيوبيين اهتم صلاح الدين بالقلعة بالقاهرة وشرع في تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة . والرجح أن صلاح الدين بدأ في هذين المشروعين الكبيرين في وقت واحد ، وأراد من بناء القلعة أن يجعل لدولته وحكومته وجيشه مسكنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وقصورها وذكرياتها ، كما أراد ببناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حربية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما الى حرسية خاصة من الجند . وتعتبر القلعة من الناحية المعمارية أعظم ما شاده صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف أنه توفي قبل أن يكتمل بناؤها ، وأتم خلفاؤه من السلطان العادل فصاعدا ما فاته

بها اصطبلات سلطانية ومساحة كبيرة ، وهي
العادن الثلاثة الابراج المحرق الكائنة
بالمحلب لقسمى ، كما أنها ... الرحبة
الكبرى مواضع في الركن الشمالي الغربي
من جبانة الكامل حيث لا أبواب والقصور
السلطانية وباب السر المؤدي اليها ،
والاصطبلات وقاعة الصاحب الوزير ، وأبراج
حمام الزاجل التي هي مركز البريد بين مصر
وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى
حلب ، وخزانة الكتب التي ضمت مكتبة
القاضي الفاضل ، ونقل الكامل الى القلعة
دواوين الادارة والحكم ، وتحول هو من دار
الوزارة الفاطمية التي سكنها صلاح الدين
وأخوه العادل بعده الى أحد القصور
السلطانية الجديدة ، ثم بنى السلطان الصالح
أيوب بن الكامل القاعة الصالحية التي اتخذت
خصيصا لتكون مسكنا سلطانيا بعيدا عن
سائر المباني العسكرية وهكذا صارت القلعة
مقر الحكومة والبلاط والجيش في مصر ،
منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي غير
أن هذه المباني الأصلية لم يبق منها سوى
أسماء أو مواضعها ، وحلت محلها مبان جديدة
في عصر المماليك والعصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور فهي أولا
في تركيز الجهاز الحكومي والاداري والجيش
في القمة جبل القاهرة كنمو نموا جديدا من
الناحية العمرانية ؛ حتى تم الاتصال نفسه
بينها وبين الفسطاط ، كما أن امتداد السور
بجديده الى النيل من ناحيته الشمالية جعل
من الممكن أن تنمو القاهرة كذلك في هذه
الاتجاه ، ويعد ذلك استقلال العاصمة
الأيوبية بحركة بنائية واسعة ، ويشهد الرحالة
عبد اللطيف البغدادي الذي ... القاهرة
أواخر عهد صلاح الدين ، وظل بها مدة غير
قصيرة ، بما نجم عن هذه الحركة البنائية من
دور مسكنة عالية البناء ، وحمامات عامة
رحبة وأسواق مسقوفة .

واتصل عبد اللطيف البغدادي في أثناء
رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية أمثال
الوزير القاضي الفاضل ، والكاتب المؤرخ
عماد الدين الأصفهاني ، والاداري الشهير بهاء
الدين قراقوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا
في خلق حركة علمية أدبية كبيرة . وشجعت
الدولة الأيوبية بدورها هذه الحركة العلمية
تشجيعا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، وبحسبنا
لمن حق هذه الدولة وسلاطينها أن يختم هذا
التلخيص المختصر لحالتها باستعراض
لأسماء العلماء والأدباء ورجال سياسة الدين
الذين عرفتهم هذه الدولة ، وهم بالاضافة الى
المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين
الخبوشاني شيخ المدرسة الناصرية ، والأسعد
بن مماتي ناظر الدواوين ، وموسى بن ميمون
الطبيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن
حمويه شيخ الخانقاه الصلاحية سعيد
السعداء ، وبهاء الدين بن شداد المؤرخ
ومعه شهاب الدين عبد الرحمن المعروف
بأبي شامة ، والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ،
والقاضي جمال الدين بن واصل صاحب
التاريخ الحافل بحوادث عهد الدولة
الأيوبية وبدء عهد سلاطين المماليك

الدولة المملوكية الأولى

للدكتور محمد مصطفى زيادة

(١٢٥٠ – ١٣٨٢)

لم يكد العصر يحتفل على حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر قيام دولة المماليك ، وهي الدولة التي ضمت في عز أيامها مساحات واسعة تمثل في معظمها الرئيسية الامبراطورية الايوبية التي سبقتها في الشرق الأوسط . ذلك أن السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسورية ولبنان ، فضلا عن أن سلاطين المماليك مدوا سيادتهم المتقطعة على بعض القلاع والمدن في أعالي الفرات وبعض الجزيرة العربية في آسيا الصغرى وشمال السودان وبرقة والحجاز .

وإذا نجحت السلطنة الجديدة في أن تحل محل البيت الأيوبي في الحكم ، فإن عوامل هذا النجاح لا ترجع إلى النصر الذي أحرزه القادة المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فحسب ، بل إلى عوامل هامة مكنت لهؤلاء القادة من إقامة دولة استطاعت أن تكسر موجة الغزو المغولي في وجه الإسلام ، وأن ترفع معركة الجهاد ضد الصليبيين في المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية في الشرق .

وبالإضافة إلى هذه التوسعات الكبرى أسهمت السلطنة المملوكية الجديدة بسهم كبير في تطور الحضارة الإسلامية وثقافتها ، نتيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد إلى القاهرة ، وهذا فضلا عما أسهمت به من دور هام في التجارة الدولية منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى كشف طريق رأس الرجاء الصالح والهند وأمريكا في أواخر القرن الخامس عشر .

والمماليك — كما يدل عليه اسمهم — أرقاء أصبحوا في حيازة وملكية غيرهم عن طريق البيع أو المبادلة أو الأسر في الحرب أو المهاداة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة على بعض الحكام التابعين . ولكن إذا كان كل مملوك في أصله رقيقا فلم يكن كل رقيق من صنف المماليك . وذلك أن الرقيق في الإسلام قد أسود أو أبيض ، وفق أصولهم والبلاد المجاورة التي جلبوا منها . فالنوع الأول كان من الزنوج والسود عامة وخير مثل لهم جماعات الزنج بجنوب العراق في القرن التاسع الميلادي .

وكذلك الأمر كان الأجنبي الذي

حكم مصر فيما بين سنتي ٩٦٦ ، ٩٦٨ م . أما النوع الشمالي وهو الرقيق الأبيض فهؤلاء هم المماليك ، ومعظمهم في الأصل من ... من مختلف أقاليم ... أوقات السلم والحرب ... ثم تم بعد لقد سمحوا أن أصبح مصدرا حتى تحول جميع نوع الرقيق مجلوب من غرب آسيه وكثير من أقاليم أوربا ، مما فيها الجهات المحيطة بالبحر البلطي .

***

تدفق أولئك المماليك على المجتمع الاسلامي في أعداد كبيرة تباين باختلاف البلاد التي يستجلبون منها ؛ وذلك منذ أيام الخلافة العباسية في بغداد عندما أصبح الجيش العباسي يحوي أعدادا متزايدة من الرقيق الأبيض . لم تكن أنواع المماليك نتيجة نشاط حركة التوسع الاسلامي عن طريق الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركي واليوناني والصقلبي والكرجي والأرمني ، ولكنهم باتوا جميعا يسمونهم أتراكا « أتراك » ؛ من باب اطلاق الجزء الغالب على الكل ، ولا سيما بعد أن عمل أصحاب الأثر واضح في توجيه السياسة الاسلامية في العصور الوسطى ، كما أصبحت ... موضع دراسة المؤلفين . ومن أمثلة ذلك وصف ابن حسول المتوفى سنة ٤٥٠ ه للعنصر التركي بأنه لم يرض الا بأن ... في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه لا ... في خدمته الى ما يمت اليه بسوء من الخاصيين في الرق ، والمحتويين بالمسى ، ككسى الدار وسياسة الفوارس ... ذلك مما يستخدم فيه سائر الرقيق ... الرقيق التركي اذ خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو الترشيح لخلافة أو الرئاسة على فرقة ، والأمر واضح على عصبية !

وثمة شواهد تاريخية كثيرة في العصور المتقدمة والمتأخرة على مدى العناية بتربية هؤلاء المماليك وتدريبهم ليصبحوا عماد الجيوش التي اعتمدت عليها الدول الاقليمية المستقلة في العالم الاسلامي . ومن هذه سلطنة السلاجقة (١٠٣٧ — ١١٥٧ م) اذ نصت ملاحظها على هذا النوع من الجند ، ووصف وزيرها الشهير نظام الملك (ت ١٠٩٢) في مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل التي يمر بها المملوك منذ شرائه طفلا حتى في وقت عتقه ، حين يصبح حرا ويصبح فارسا ، ومن لم يستطع أن يرتقي في سلك الوظائف العسكرية والسياسية وفي أيام هذه السلطنة السلجوقية تم التحول من الاقتصاد النقدي الى الاقتصاد الاقطاعي العسكري ، بحيث صار أرباب الوظائف العسكرية والادارية — ومعظمهم من المماليك يمتلكون على أساس اقطاعي ... حربي .

وسارت الدولة الأيوبية (١١٧٤ — ١٢٥٠) التي تعتبر بطريق غير مباشر عن الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة من حيث الاعتماد على المماليك الى ...

النصف تقريباً في تكوين الجيش الأيوبي ، ومن حيث التمثيل في التمليك الإقطاعي لأوساط المماليك وغيرهم في مصر والشام وسائر أقاليمها في الشرق الأوسط . ومن الأدلة المؤكدة على ذلك أن صلاح الدين أحاط نفسه بمجموعة مختارة من المماليك الذين أحسن تربيتهم وتدريبهم تدريباً خاصاً في فنون الحرب . وأخذ هذا النظام المملوكي الإقطاعي ينمو على نطاق أوسع زمن خلفاء صلاح الدين في ممالكهم وإماراتهم ، وكانت كل جماعة من المماليك الأيوبيين ينتسب إلى مؤسسها أميراً كان أو سلطاناً ، فالأسدية مثلاً نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وسلفه في الوزارة على مصر ، والصلاحية نسبة إلى صلاح الدين نفسه ، وهكذا .

وأسهمت هذه الجماعات الصلاحية المملوكية بسهم كبير في حروب صلاح الدين قبل معركة حطين وبعدها ، ولدينا كثرة أسماء مواقفهم وجرحاهم على صدق الجهاد عند السلطان في حروبه وحملاته على جند المماليك في جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم من الأكراد .

وثمة دليل آخر على ضخامة العنصر المملوكي في امبراطورية صلاح الدين ، وهو ما تحمله الآثار والمؤسسات العمرانية والأوقاف من أسماء أولئك المماليك بالقاهرة ودمشق وغيرهما من المدن الكبرى في العصر الأيوبي .

ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين ازدياد أعداد المماليك وتضخم نفوذهم ، ولا سيما من الصالح أيوب بن الكامل (١٢٤٠ - ١٢٤٩) وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر . ذلك أن الملك الصالح لم يشعر بميل نحو الجند من الجماعات الأكراد .

كما أنه لم يثق كثيراً في الكاملية وغيرهم من طوائف المماليك الذين دان لهم بمساعدته في الوصول إلى السلطنة . وبدأ أكثر من شراء المماليك الجدد ، واستوردهم من مختلف الأسواق ، وإن كان معظمهم من الأتراك المتحدثين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح أيوب بجزيرة الروضة قلعة لنفسه تطل على بحر النيل . وانتقى من هؤلاء مماليك صفوة لتكون حرساً خاصاً له بتلك القلعة . وأطلق التنظيم المملوكي على هذه الفئة اسم المماليك البحرية الصالحية ، تمييزاً لهم عن سائر طوائف المماليك الصالحية السابقة واللاحقة ، كتمييز البحرية العادلية وغيرها من طوائف المماليك المشابهة التي عرفها التاريخ قبل قيام الدولة الأيوبية وبعدها .

على أن تسمية هذه الفئة باسم البحرية يعني مجاورة بحر النيل ، أو تعني هذه التسمية بصفة عامة من المماليك في مصر والشام ، من قبل [illegible] من الأيوبيين وبدا لنا أن هذا اللفظ جرى على المماليك المجلوبين من البلاد [illegible] أي بلاد ما وراء البحار . ويرجح هذا تقييد هذا اللفظ [illegible] نطاق هذا المعنى ، وهو المؤرخ المقريزي

الذي عاش مدة بين مماليك البحرية في مصر ، ومما يؤكد هذه النعمة ... قول بعض المؤرخين المعاصرين ... على خلاف بعض البحرية على الجماعات الصليبية بواقعة من ... [illegible]

ولعل توسلة مماليك البحرية الصالحية صدمة الحملة الصليبية على المنصورة (فبراير سنة ١٢٥٠) والتي يرجع الفضل في سرعة النصر من أسباب الحربية في وقت كانت مصر بدون سلطان بعد أن توفي سلطانها الصالح أيوب في نوفمبر من العام السابق . على أن حسن حظ البلاد أن تسلمت زمام الدولة امرأة قديرة ، هي شجر الدر زوجة السلطان الصالح أيوب المتوفي ريثما يصل ابنه وخليفته توران شاه من مقره بحصن كيفا بأعالي العراق . ثم وصل هذا الابن الى مصر ، فسلمته شجر الدر مقاليد الدولة ومسئوليات القتال ضد الصليبيين ، على أن مقتل توران شاه ١٢٥٠ م على أيدي زعماء مماليك البحرية الصالحية — وهو الحادث الذي أنهى الدولة الايوبية في مصر — أدى الى فراغ كان لابد من الاسراع الى ملئه ، قبل أن يفلت زمام الموقف من أيدي أولئك الزعماء . ذلك أنه كان هناك عدد كبير من أمراء البيت الأيوبي الذين تطلعوا منذ سنين الى الفوز بالسيطرة على مصر . وهذا فضلا عن الخوف من مجيء نجدة صليبية حربية الى مصر للانتقام مما حل بحملة ملك الفرنسي لويس التاسع . وهكذا وقع الاختيار على شجر الدر من جهة الامراء الأيوبيين الطامعين في

حكم مصر ، فاعتمد هؤلاء على زوجة السلطان الصالح أيوب ، وزوجها أيضا كوسيلة لوضع حد لأطماع بعض الأمراء الطامعين كذلك في الاستبداد بشئون السلطنة ، وسموها الوصية ... على عهدنا ... والزعيم المملوكي ... [illegible]

ثم عرض بعد ذلك منصب أتابكية العسكر — وهو من أهم مناصب الدولة — على أحد الأمراء الذين ظلوا مغمورين حتى ذلك الوقت وهو أيبك التركماني ، فقبله . وهكذا تم مولد دولة المماليك (سبتمبر سنة ١٢٥٠) التي لم تكن في الواقع سوى استمرار للدولة الأيوبية في سياستها الداخلية والخارجية . لأن المماليك التصقوا بسادتهم السابقين ، وظهر بهم في شئون الحكومة والادارة محدودة في دائرة النظام الاقطاعي الذي قام في مصر والشام في العصر الأيوبي .

وكان أول عمل اتخذته السلطانة شجر الدر هو إنهاء شئون الحملة الصليبية الفرنسية بإقرار شروط الفدية التي تم الاتفاق عليها بين توران شاه ولويس التاسع ، وسلطانة زوجة الملك لويس في دمياط أن يدفع نصف المبلغ المتفق عليه ، ورحلت الحملة الصليبية عن الشواطئ المصرية الى عكا بعد قيام الدولة الجديدة ببضعة أيام على الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيها في مصر فكرة اطلاق سراح الملك الفرنسي .

ثم أخذت شجر الدر تصرف في توزيع العطايا والمناصب والاقطاعات على جميع

هناك مماليك الذين ذهب بهم طموحهم إلى منصب السلطنة على حين كان [illegible] في القاهرة مستنكرا جلوس امرأة في السلطنة على أن حركة خطيرة في هذا الصدد كانت في دمشق حيث قبض الجند الأكراد على [illegible] على الولاة الموالين للسلطنة الجديدة، وأعلنوا الثورة واستعان هؤلاء الثوار بالملك الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب، وطلبوا منه أن ينهض — وهو سليل صلاح الدين — ضد مغتصبي الحكم في القاهرة. وقد زحف الناصر يوسف على دمشق التي فتحت له أبوابها، فقبض على جميع من كان فيها من المماليك. ثم ان الخليفة العباسي في بغداد لم يرض عن جلوس امرأة في حكم الدولة الأيوبية ولا سيما أنها كانت في وقت ما من جواريه، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دينية تنكر تولية امرأة في حكم أية دولة إسلامية.

لذلك استقر الرأي أخيرا في القاهرة على أن تتزوج شجر الدر من أتابك العسكر أيبك على أن تترك له العرش. وتم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيبك واعتلى أيبك عرش السلطنة المملوكية في شهر يوليه سنة ١٢٥٠. وعلى هذا [illegible] [illegible] في [illegible] الحكم على أنه [illegible] [illegible] [illegible] وقطاي، ولكنهم [illegible] [illegible] [illegible]

التخلص منه فيما بعد، وبدأ بعض [illegible] أيام على هذا أيبك في السلطنة حتى استقر الرأي بينه وبين بعض المماليك [illegible] وأقطاي على إشراك أحد أمراء بني أيوب في السلطنة [illegible] وجاءت هذه الفكرة [illegible] [illegible] للاحتفاظ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] معارضة [illegible] من جانب الأيوبيين، فوقع الاختيار على طفل من بني أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره، ليكون شريكا لأيبك في الحكم.

لكن هذه الحيلة لم تنطل على أصحاب الحق الشرعي من أمراء البيت الأيوبي الذين أخذوا يزحفون فعلا نحو مصر، وعلى رأسهم الناصر يوسف أمير حلب ودمشق، ثم ان ثلة من المماليك في القاهرة نفسها [illegible] أمير آخر من بني أيوب — وهو الأمير المغيث عمر أمير الكرك — ليكون سلطانا على مصر (سبتمبر سنة ١٢٥٠). أي أيبك الذي ظن البعض أنه شخص سهل يمكن التخلص منه دون صعوبة قد أثبت أنه أكثر مهارة مما يرى الناس، إذ أعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد، وأنه مجرد نائب للسلطة فيها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأيوبيين [illegible] على مصر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في عكة [illegible] بعض الأسرى

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر، فسمح هذا لم يلبث أن ترك مجالاً لأعدائه يوسف الناصر أو غيره من الصالحيين فأمر بهدم مدينة دمياط القديمة وتحصيناتها في أكتوبر سنة ١٢٥٠، ليحرمها من تجديدها في موقعها الداخلي بعيداً عن ساحل البحر. وفي هذه الأثناء تمت الاستعدادات في مصر لإرسال حملة بقيادة الأيوبيين لزحفهم من فلسطين إلى مصر، ودارت معركة بين الجانبين قرب الصالحية بالعباسة (فبراير سنة ١٢٥١) أي داخل البلاد المصرية، وحلت الهزيمة بالغزاة في هذه المعركة، ووقع كثير من أمراء الأيوبيين أسرى في أيدي المماليك وإن استطاع زعيمهم الناصر يوسف الفرار. على أن أيبك لم يقنع تماماً بهذه النتيجة، فأرسل أقطاي لهدم معاقل المقاومة الباقية بفلسطين، حتى لا يتمكن الأيوبيون بعد ذلك من الزحف على مصر أو اجتياح حدودها في سهولة.

وحوالي ذلك الوقت تزايد الخطر المغولي واتسع في غرب آسيا، يهدد الخلافة العباسية نفسها في بغداد. ورأى الخليفة أنه من الأمور الحيوية أن ينسى أمراء الدول الإسلامية ما بينهم من خلافات لمواجهة الخطر المشترك، وعقدت معاهدة (أبريل سنة ١٢٥٣) بين أيبك والناصر يوسف بحيث تكون لأيبك مصر وجزء من فلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك بيت المقدس، فضلاً عن الأجزاء الساحلية حتى نابلس، على حين ظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبي على إماراتهم في سائر فلسطين والشام. وهكذا اجتازت الدولة المملوكية المحنة الأولى التي اعترضت طريق تأسيسها في القاهرة، ولو إلى حين على الأقل.

على أن اعتماد أيبك على المماليك البحرية الصالحية في محاربة الأيوبيين زاد من سطوتهم بحيث صار من الصعب قيادتهم أو إخضاعهم لأي شخص عدا زعيمهم أقطاي. ومع هذا ظل أيبك حريصاً حذراً في تصرفاته نحوهم، طالما كان الخطر الأيوبي قائماً، حتى إذا انعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر يوسف، أخذ أيبك يتحرك في سرعة، فأبعد الطفل موسى الأيوبي عن منصب المشاركة في الحكم، وعين مملوكه قطز في منصب نائب السلطنة، ولم يبق لديه من المنغصات سوى المماليك البحرية. غير أن قيام ثورة العربان، ومناداة زعمائها بأن أمثال أيبك — وقد مسهم الرق — لا يصح أن يحكموا قوماً من الأحرار، جعل أيبك في حاجة إلى قوة المماليك البحرية الصالحية مرة أخرى، فعهد إلى أقطاي بإخضاع هذه الحركة الخطيرة التي ضمت أعداداً ضخمة من البدو، ونجح أقطاي في هدفه في وقعة حربية قرب بلبيس (يونيه سنة ١٢٥٣).

لكنه إذ كان النجاح في إخضاع هذه الثورة أدى إلى إزالة عقبة أخرى خطيرة

على حساب قيام سلطنة مملوكية في مصر على حد سواء ، اذ تخلص من خطر أقطاي وممالك البحرية الصالحية

وبعد ذلك وضح غضب أقطاي وحل نفسه محل السلطان ، فالشعائر التي هي من حق السلطان وحده ، ومنها زيارته من داره بالقاهرة الى مصر للسلطنة بالقلعة في موكب حافل ؛ ثم تزوج أقطاي من احدى أميرات البيت الأيوبي في حماة بالشام ، وطلب من أيبك أن يسمح له ولعروسه بالاقامة في القلعة ، على أساس أنه أصبح زوجا لسيدة أيوبية . وعند ذلك أحس أيبك أنه أمام أمر واحد لا ثاني له ، وهو التخلص من أقطاي قبل فوات الأوان ، واستدعاه الى القلعة ببعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سريعة لقتله ؛ وعندما ألقى برأس أقطاي الى أتباعه المنتظرين أسفل أسوار القلعة ، أصاب الذعر شتات المماليك البحرية الصالحية ، فهرب كثير منهم الى مختلف البلاد الخارجية كما قبض أيبك على الذين بقي منهم في القاهرة . وهكذا يبدو أن أيبك أكد سلطنته ولكنه في الوقت نفسه الآن على قمة مشكلة كبرى بهروب كثير من مماليك البحرية الى بلاد خصومه من الأيوبيين بالشام حيث عملوا لاجئين سياسيين يحرضون الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبي على مهاجمة مصر ، فضلا عن [illegible] المستمرة على فلسطين والأماكن المصرية . لذلك فقد أحدث معظم السلاطين السنوات الواقعة بين ١٢٥٤ و ١٢٥٧ برغم حركات المماليك البحرية في الشام ، ونجحا الى أسطورة القديم بغلاف نعته للخلافة وأرسله [illegible] الى بغداد يطلب العلم والتقاليد اللازمة ، ثم أنه جدد الهدنة مع الصليبيين وحالف الأمير الأرمني الأصل بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ، وسعى أن يتزوج ابنته ويتخلص بذلك من سيطرة شجر الدر ونفرغ لها من أهل المماليك البحرية المتمردين

غير أن هذه الخطوة الزوجية أثارت شجر الدر التي لم تتوقع أن يصل تنكر الجميل بالسلطان أيبك الى هذا الحد ، وهو الذي أصبح سلطانا بفضل مساعدتها . واحست شجر الدر بأن كبرياءها خدشت بعد أن هجرها أيبك ليقيم في منزل صيفي قرب جهة باب اللوق الحالية . ودبرت مؤامرة للانتقام منه فدعته الى اجتماع للتوفيق والصلح ؛ ولقي مصرعه في هذا الاجتماع على صورة وحشية في حمام القصر السلطاني بالقلعة (أبريل سنة ١٢٥٧) . وأذاعت شجر الدر أن أيبك مات ميتة طبيعية فجأة ، غير أن الحقيقة انكشفت ، فتعرضت هي الأخرى للقتل على صورة وحشية كذلك ، بعد ثلاثة أيام من مقتل أيبك

وقد تتبعنا تاريخ أيبك في شيء من التفصيل لذلك لأن [illegible] حكمه بداية [illegible] جديدة للدولة الجديدة على [illegible] غير أنه لم يقض للصبي على [illegible] أي حق

في ، أنه استطاع بعد موت في ظل النظام العسكري المملوكي ، ما عدا بعضه من ناحية كبار الأمراء في حرمهم وسعة سلطان حول ، وربما حتى نتيجة الاتصال بعيض السلطنة بين وثائب الأمراء فيهم ، وعندئذ يتخلصون من سلطان الصبي في غير جلبة أو اضطراب . وتكررت هذه التمثيلية مرة بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان مملوكي ، فأقام رجاله مماليك ابن السلطان المتوفى مؤقتا ، ثم تخلصوا من هذا الابن بالنفي إلى بعض جهات مصر أو بالخروج

وإذا استطاع بعض أولئك الأبناء أن يصل في السلطنة مدة من الزمن ، فلم يكن ذلك راجعا إلى اعتقاد المماليك في مبدأ الوراثة بل إلى عجزهم أحيانا عن الاتفاق على من ينبغي أن تؤول إليه السلطنة من بينهم أما مبدأ الوراثة نفسه فلم يكن معترفا أو معمولا في أوساطهم

هكذا خلف الصبي علي أباه أيبك وتولى الأمير قطز — وهو أقدم مماليك أبيه — في منصب نائب السلطنة . وظل هذا الصبي سلطانا نحو مدة سنتين ، لم يبد في أثنائها على شيء سوى مهارته في ركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة على حين كان قطز نفسه يباشر السلطة الفعلية في الدولة . وفي خلال هاتين السنتين كان الخطر المغولي على وشك أن يداهم مصر بعد سقوط بغداد والخلافة العباسية على يد هولاكو وجنوده في فبراير سنة ١٢٥٨ ، واكتسحت موجة من المغول جميع البلاد الإسلامية المجاورة ، وخاصة بلاد الشام حين أعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق عزمه على مقاومة المغول في آسيا الإسلامية واتصل من أجل ذلك بالسلطنة المملوكية . واستغل نائب السلطنة قطز هيبته ليحول وأخرج ومعنى الثورة ان التهديد المغولي سوف يلتهم مصر بعد الشام ، وان الموقف يستدعي قيام رجل قوي في الحكم بدلا من صبي قليل الخبرة بمسئولية . وهكذا خلع السلطان الصبي علي بن أيبك من السلطنة دون عناء وأعلن قطز سلطانا في ٨ أكتوبر سنة ١٢٥٩ .

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى أخذ هولاكو يزحف نحو حلب الأيوبية وسط مظاهر التدمير والسلب ، وشاركه في الاستيلاء عليها في فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة عسكرية من عند هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، وبوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبية ، وفي ذلك جاءت الأخبار إلى هولاكو بوفاة الخان المغولي الأعظم منكوخان ، فاضطر إلى الرحيل عن الشام إلى مقر المغول بعيدا في شرق آسيا ليشترك في اختيار خان جديد ، بعد أن أسند قيادة جيشه إلى كتبغا وهو أحد قواد المغول الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري ، ثم لم يلبث كتبغا أن زحف بجيوشه نحو دمشق ، وهي كذلك

حوزته ، فانهار أمامه جواد ملكها الناصر يوسف الايوبي ، واستسلمت له دمشق نفسها في أول مارس سنة ١٢٦٠ . وزحف بعد ذلك جيوش المغول نحو الجنوب ، وهددوا أراضي السلطنة المملوكية في فلسطين ، فهب قطز لمواجهة هذا الزحف الداهم بجيش كبير واستطاعت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقداري أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل قطز بعد قليل ثم زحف فورا نحو الشمال .

أما كيتبغا القائد المغولي فوعد الصليبيين في عكا أن يحالفهم ويساعدهم ضد السلطنة المملوكية ، مقابل قيامهم بعرقلة الزحف المملوكي وعدم السماح للسلطان قطز بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوعود المغول واستطاع قطز أن يحصل على حياد عكا الصليبية في هذه الحرب ، وأن يمر بجيشه في غير صعوبة في منطقة الجليل . ولم يلبث المغول أن فوجئوا بوصول المماليك الى طبرية ، وبفضل هذه المفاجأة تمكن السلطان قطز من انزال الهزيمة بالمغول في واقعة حاسمة عند عين جالوت قرب بيسان والناصرة ، في سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وهي أول هزيمة تحل بهم في تاريخهم الصاخب منذ أيام جنكزخان ثم أعقب ذلك تقهقر مغولي عام فانسحبت القوات المغولية عن دمشق ، وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتهم الى ما وراء الفرات .

وبذا أصبح قطز سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وخلصها من عبث أمراء الكرد الصغيرة من خلفاء صلاح الدين الأيوبي ، وذلك فضلا عن حماية السلطنة المملوكية من هجمة داهمة وخطيرة تعرض بسببها الخطر العظيم ، ولأن عين جالوت لم تنقذ مصر وحدها من المغول وقتذاك ، بل أنقذت كذلك أوربا المسيحية التي تعرضت أطرافها الشرقية للخطر المغولي .

على أن قطز لم يلبث أن جوزي عن هذا الانتصار جزاء عكسيا ، اذ وقع فريسة مؤامرة لقتله وهو في طريق عودته الى مصر في أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقداري . وأسرع الأمير بيبرس الى دخول القاهرة حيث نصب عرش السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرعب . ويقال ان بيبرس قام بارتكاب هذه الجريمة لا لرفض قطز تعيينه على حلب فحسب كما يتواتر في معظم المراجع ، بل تسوية كذلك لثأر قديم يرجع الى مقتل الزعيم أقطاي زعيم المماليك البحرية ، وهي حوادث كان للأمير قطز دور هام فيها .

ومن الواضح أن وصول بيبرس الى منصب السلطنة كان معناه عودة نفوذ المماليك البحرية . ولم يلبث السلطان الجديد أن أثبت ... على براعة فائقة في شئون الإدارة وقيادة الجيوش خلال حكمه الذي استمر عام (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) والواقع

أن أعمال بيبرس أكسبته لقب مؤسس دولة المماليك . ولا عجب فالسلطان ظاهر عملا يستطيع جهاز الإدارة والحرب على أسس سليمة غير أن اغتصاب بيبرس للسلطة لم يرق في عين نائب دمشق وهو الذي عهد إليه قطز إلى منصبه بعد هزيمة المغول ، ولذا رفض هذا النائب أن يعترف بذلك الاغتصاب ، وأعلن نفسه سلطانا في نوفمبر سنة ١٢٦٠ ، ودعا الأمراء الأيوبيين والنواب وأصحاب المناصب العليا إلى الاعتراف به ، وأرسل بيبرس حملة ضد هذا الأمير الخارج ، فقبض على حركته في سرعة ، وجاءت به إلى القاهرة مكبلا بالسلاسل في يناير سنة ١٢٦١ ، بعد أن أقامت مكانه في نيابة دمشق الأمير علاء الدين البندقداري ، وهو الذي كان في وقت ما سيد بيبرس ، أي أستاذه الذي اشتراه ورباه على حسب اصطلاح المماليك ، وفي تلك الأثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر يتزعمها رجل من الشيعة اسمه الكوراني ، وانضم إليه أتباع بدت كأنها صدى لثورة العربان أيام أيبك فهدمها بيبرس هي الأخرى في سرعة كذلك ، إذ قبض على رجالها وزعيمهم الكوراني الشيعي ، وشنقهم جميعا على باب زويلة (بوابة متولي الحالية)

وامتاز بيبرس في جميع أعماله بسرعة التنفيذ كما امتاز في سياسته بالجرأة والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال في وقت واحد ، وصرف نواحي نشاط الدولة أثناء حروبه الكثيرة في مصر والشام . ووضحت هذه المواهب في صفحة الأعمال الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شئون الداخلية ثم عالج مشكلة تطلبت منه جميع ما أوتيه من مهارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهي مشكلة الفراغ الذي نجم عن سقوط الخلافة العباسية في بغداد . وتفكير بعض ملوك الدول المجاورة في إحياء هذه الخلافة في بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبي حين كان أميرا على حلب ودمشق ، إذ حاول استمالة أحد العباسيين الفارين من وجه المغول إلى الشام ليعلنه خليفة عنده ، ويستعين به في مقاومة الزحف المغولي بقيادة هولاكو ، غير أن سرعة الحوادث أفسدت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بمثل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظافرا عقب موقعة عين جالوت ، إذ أعلن خلافة لأمير عباسي آخر . وأمده بعون وأسلحة ليعين على استرداد بغداد . وجاء بيبرس بعد هذا الحدث ، أي أنه لم يكن مبتكر لهذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضل الفعلي في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ١٢٦٢ . وهكذا استطاع بيبرس أن يجعل مصر قاعدة الخلافة الإسلامية ومعقد أنظار المسلمين ، وأصبحت القاهرة مركز العالم الإسلامي ، وهي أقرب إلى حواضر البلاد الإسلامية من بغداد . لذلك نجد كثيرا من علماء المسلمين يفدون إلى مدينة السلطان حيث وجدوا تشجيعا وافرا من الرعاية

والتشجيع وأصدر سعر مضبة عليه في مختلف معرفته ، على حين أمسى الخلفاء العباسيون في القاهرة أشباحاً سيئة على تصالك

وحق لبيبرس أن يفخر بهذه النتيجة التي جنت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل في إحياء الخلافة العباسية ، وأمست السلاطين من مستقبلهم في الشرق الأوسط وسائر العالم الإسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين بيعتها. غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلا عاجلا ، وهي أن المغيث عمر الأيوبي — أمير الكرك — ظل متعلق بحقه الشرعي في السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبي الذين ركنوا إلى الهدوء بالشام ورضوا بالعيش في سلام في ظل الحكم المملوكي. وعرف بيبرس أطماع المغيث عمر جيد المعرفة منذ تحوله إلى امرة الكرك أيام تشريد أيبك للمماليك البحرية ، واشترك معه في الاغارة أكثر من مرة على الأطراف المصرية. ولقد أسرع بيبرس على عادته إلى مواجهة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسي ، ولم يلبث أن ألقى القبض على المغيث وأرسله أسيرا إلى القاهرة ، حيث اتهم بالاتصال بالمغول والتآمر معهم ، وحكم بإعدامه في ابريل سنة ١٢٦٣.

وعمل بيبرس في هذه السنوات الافتتاحية التالية من حكمه على تنظيم الجيش المملوكي وتجديد بناء الأسطول ، وعادة توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد فضلا عن عنايته بانشاء الطرق واصلاح الجسور وحفر القنوات في مختلف البلاد المصرية على نحو لم تشهده مصر منذ أيام صلاح الدين. كذلك عني بيبرس بتقوية حصون الشام وشحنها بالجند من المماليك ، كما نظم المواصلات البريدية بين دمشق والقاهرة بحيث صار كتاب البريد بينهما مرتين في الأسبوع. أما الاسكندرية فعني بيبرس باصلاح حصونها وسورها ، كما عني بمداخل النيل عند رشيد ودمياط بإقامة الأبراج والسلاسل لحراستها ، وكل ذلك خشية حملة صليبية مرتقبة ، وفي هذه السنوات الافتتاحية كذلك بدأ بيبرس بناء الجامع والمدرسة المنسوبين إليه ، كما أنشأ مقبرة للفقراء

ولدى هذه الأعمال الداخلية المتنوعة على أن بيبرس كان يبني لنفسه وللسلطنة المملوكية في قلوب الناس ، وأنه كان يعد العدة الحربية للقيام بمشروعات عسكرية ضخمة ، والواقع أنه أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني ، واستطاع أن يحرز نجاحا لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك في أكثر من جهة واحدة. ذلك انه تعين على السلطان بيبرس مصادمة الأطراف المعادية للسلطنة من أعوان الدولة المغولية التي تأسست بعد هولاكو في فارس والعراق ، وبعض الامارات الصليبية مثل انطاكية التي

ذ ب على محالفة تلك الدولة، وذلك فضلا عن الاستعداد لمواجهة أية حملة صليبية جديدة تأتي من أوربا، وخصوصا أنه لم يكن لدى بيبرس أية معلومات عن تحول الأوربيين وأحوالهم السياسية التي جعلت إرسال حملة صليبية كبرى إلى الشرق أمرا غير ممكن أو ميسور، مثل قيامه بالأعمال الحربية المتقدمة لتأمين الحدود المصرية والشامية، واهتمامه بعقد سلسلة من المعاهدات والعلاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة، ومنهم الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس — وهو الخصم اللدود لصليبيي الشرق، وملك صقلية مانفرد هوهنشتاوفن بن الامبراطور فردريك الثاني. ويبدو أن هذا الحلف بين بيبرس ومانفرد حدا بالأمير شارل الأنجوي هو الآخر إلى إرسال بعثة لتأكيد حسن علاقته بالسلطان بيبرس، واستقبل بيبرس هذه البعثة، وأكرم وفادتها بالقاهرة سنة ١٢٦٤. وحالف السلطان بيبرس الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق وعاصمته سراي في وادي الفولجا، وهو أحد أحفاد جنكيزخان، وكان بركة خان على دين الإسلام مثله مثل بيبرس؛ غير أن العلاقة الدينية وحدها لم تكن هي التي أدت إلى هذا الحلف، بل كان اتجاه الدولة المغولية الفارسية نحو الأقاليم المجاورة لمملكة القبيلة الذهبية هي التي أدت إلى تبادل الرسل والسفارات بين القاهرة وسراي ضد هذا العدو المشترك.

أما محالفة بيبرس مع دولة سلاجقة الروم وآسيا الصغرى فلم تقل أهمية عن هذه المحالفات السابقة، لأن الوضع الجغرافي لهذه الدولة السلجوقية جعلها منطقة حجر على الأطراف الغربية الفارسية من ناحية، وأطراف مملكة أرمينية الصغرى المسيحية من ناحية أخرى. على أن أعظم ما اهتم له السلطان بيبرس وقتذاك هو احتمال قيام الدولة المغولية الفارسية بهجوم مفاجئ على الأطراف المملوكية الشرقية عن طريق أعالي الفرات، وكذلك عن طريق الغزو ومحاربة بني أيوب وغلاظه، على حين أصبحت القلاع الشامية التي سبق لهولاكو وجنوده تخريبها أثناء الزحف المغولي الأول.

ولم يكن عجيبا بعد هذه الاستعدادات والمحالفات والاحتياطات، وبعد المناوشات التجريبية الناجحة التي قام بها بيبرس أوائل سنة ١٢٦٥ ضد الصليبيين والمغول، أن يعزم هذا السلطان منذ أوائل هذه السنة القيام بحملات حربية ضخمة في أكثر من جهة واحدة. وإذا اتسمت حركاته التالية في هذه الجهات بكثير من الغدر والنكث والقسوة، فإن هذه الحركات كانت في ذاتها سلسلة من انتصارات مرموقة دالة على أن السلطان بيبرس امتاز بعزيمة لا تكل، وعقلية ناشطة، ومقدرة على [illegible] النقل بين مصر والشام، [illegible] دفة الحكم، وقادة مقاتلين ممتازين أكفاء.

وبدأ بيبرس هذه الانتصارات المتواصلة بالاستيلاء على قيسارية وعتليت وحيفا

ولم يتوقف عن الصليبيين حتى أن سقطت سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد الى مصر ليستأنف رحلة تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الإسكندرية ولتنظيم قواته بجيش جديد من المماليك . ثم رجع بيبرس الى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأصدر تعليماته الى الفاطمية على امتداد الساحل الشامي ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها الى دمشق ليسير بنفسه على رأس حملة ضد مدينة سيس عاصمة أرمينية الصغرى وانتهت هذه الحملة الأرمينية بتخريب سيس ، وكل ذلك في سنة واحدة وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧، ذهب بيبرس الى الشام حيث تفقد تحصينات صفد الجديدة ، ثم عاد الى القاهرة مزهوا بنتائج حروبه . ثم رجع بيبرس الى الشام أوائل العام التالي (سنة ١٢٦٨) فاستولى على يافا والشقيف أرنون ، وألقى الحصار أخيرا على مدينة انطاكية ، وهي وقتذاك عاصمة أهم الامارات الصليبية الباقية بالشام وتمكن الاستيلاء على هذه المدينة للسلطان بيبرس نصرا وأمنا ، فقضى أيام سنة ١٢٦٩ متنقلا في سلام بين مصر والشام وبلاد العرب وأدى فريضة الحج في نفس العام ، وأكد السيادة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد الى القاهرة بعد أن عين واليا في مكة للاشراف على الكسوة التي أعدها السلطان للكعبة مطرزة باسمه محروفه من الذهب .

وفي سنة ٢٧٠ [illegible] السلطان بيبرس مفاوضات مع طائفة الاسماعيلية الحشيشية بالشام ، وتم الاتفاق على أن تدفع هذه الطائفة [illegible] جزية سنوية ضمانا للسلام مع المماليك . وفي هذه السنة نفسها قام الملك لويس التاسع بحملته الصليبية على تونس ، فرأى بيبرس أن يظل بالقاهرة ليرقب أخبار هذه الحملة عن كثب ، وأعلن استعداده لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع في تونس بدد جميع مخاوف بيبرس فسار الى الشام سنة ١٢٧١ حيث استولى على صافيتا وحصن الأكراد وعكا ، وأعقب ذلك بحركات خاطفة استولى فيها على بعض قلاع الاسماعيلية عندما لم تنفذ ما عليها [illegible] وحربه وسلاما . ثم رجع بيبرس الى القاهرة أواخر تلك السنة ، لكنه عاد مرة أخرى الى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث تفقد حامياته التي استولى عليها من الصليبيين في حملاته السابقة .

وفي هذه السنة نفسها (١٢٧٢ م) أرسل بيبرس أسطولا عدته [illegible] عشرة سفينة للاغارة على قبرص ، فحطمته عاصفة قرب ليماسول ولم تستطع سفينة من سفنه أن تصل الى الشواطئ القبرصية . وفي العام التالي أي سنة ١٢٧٣ غادر بيبرس دمشق الى البيرة على الفرات ليدفع غارة مغولية تلك السنة [illegible] المغول هزيمة كبرى بعد أن عبر النهر سابحا على [illegible] من قواته [illegible] . وفي طريق عودته الى دمشق [illegible] بيبرس على [illegible]

قلاع الإسماعيلية ، على حين كانت قوات مملوكية تمعن في برقة وأرمينية الصغرى ، فضلا عن النوبة التي عقدت معاهدة على الدولة المملوكية في حل مشاكلها الداخلية ، ولا سيما وراثة عرش مملكة النوبة

وتعرضت الإمارات الصليبية وقتذاك إلى مستقبل مظلم بعد هدنة عامة عقدها بيبرس مع كل من هذه الإمارات سنة ١٢٧٤ ؛ وربما كانت هذه الهدنة هي التي شجعته على الزحف بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ؛ حيث استولى على سيس وأياس ؛ كما شجعته على الزحف بقوة حربية مرة أخرى إلى أقصى الشمال سنة ١٢٧٦ ، حيث أحرز انتصارا كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ؛ ودخل العاصمة السلجوقية قيصرية وجلس على عرش سلاطينها ، وأخيرا عاد بيبرس إلى دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ وتوفي تلك السنة وهو في أوج مجده بعد مرض قصير بسبب تناوله شرابا مسموما

ويقال إن بيبرس كتب في أواخر أيامه وصية إلى السعيد بركة ، وهو أكبر أبنائه وولي عهده في السلطنة وله نصحه في هذه الوصية بالحذر من كبار الأمراء بما نصه « من بلغك عنه أنه يعرض عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه في وقته ، ولا تمهله ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك » على أن الخطر على سلطنة بركة جاء إليه من ناحية

في أغسطس سنة ١٢٧٩ ، حتى خلعه خصمه قلاوون ، وأقاموا مقامه ابنا ثانيا لبيبرس وهو طفل في السابعة من عمره اسمه سلامش ثم لم يلبث قلاوون أن خلع سلامش كذلك في نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا

وكان السلطان قلاوون — مثل بيبرس — من المماليك البحرية ، ورفيقه وزميله زمن أيبك ، وعاد إلى مصر صحبة بيبرس تلبية لنداء قطز في محنته لقوى المغول. ولما آلت السلطنة إلى بيبرس خدمه قلاوون أحسن خدمة ، وظهرت كفايته في الحرب ضد المغول وأرمينية الصغرى ، ولكنه بدا مغضوبا عليه أواخر أيام بيبرس لأسباب غير واضحة ؛ وواجه قلاوون معارضة قوية لسلطنته ؛ واتخذت هذه المعارضة بشيء من ولاء لأبناء بيبرس ، وهي في الواقع لم تخرج عن أن بعض أمراء المماليك الذين أسهموا بقسط وافر في الانتصارات البيبرسية أحسوا أن لهم حقا مثل قلاوون في السلطنة

ومن هؤلاء سنقر الأشقر نائب دمشق الذي أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تأييدا لحركته في الشام وفلسطين. واستطاع قلاوون أن يقضي على هذه الحركة في موقعة حربية جنوبي دمشق ، غير أن سنقر تمكن من الفرار ، وذهب إلى بلاط أبغا بن هولاكو يطلب نجدته. وكان أبغا من أشد الدعاة لمشروع التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المماليك ، متمسكا بمبدأ الاستعداد لمساعدة أية حركة ثورية ضد السلطنة

المملوكية في مصر أو الشام ، وقد تمخض عن محاولة سنقر هذه حرب أهلية في شمال الشام في سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، وهرب كثير من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون بنفسه لمواجهة هذه الحرب ، على حين أرسل الى سنقر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن في شمال الشام يحكمها حكماً مستقلاً ، وأن تكون مرتبته من حيث الوظيفة والاقطاع تالية لرتبة السلطان. وبفضل هذه الترضية استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد المغول الذين زحفوا نحو حلب مرة أخرى بقيادة منكوتمر — أخي أبغا ، وانضم اليهم عدد من أرمينيا الصغرى وجورجيا وغيرهما من البلاد التي خضعت للمغول. وأخيراً وقعت الواقعة بين الطرفين عند حمص (أكتوبر سنة ١٢٨٠) حيث هزم منكوتمر ، واضطر الى الانسحاب من الشام.

وبعد ذلك بعام توفي أبغا وخلفه في الايلخانية الفارسية أحمد تكدار الذي ترك المسيحية واعتنق الاسلام ، وبعث خطاباته الودية الى قلاوون على مدى تعلقه بدينه الجديد وهي خطابات كرر فيها تكدار رغبته في العيش في ظلال السلم مع جميع البلاد الاسلامية المجاورة. غير أن الايلخانية نفسها لم تشاركه في هذه الرغبة ، حتى اذا اعتلى عرشها سنة ١٢٨٤ أرغون قلب سياسة تكدار رأساً على عقب ، وأخذ أرغون في احياء مشروع أبغا لانشاء حلف صليبي — مغولي ضد السلطنة المملوكية. على أن هذا المشروع لم يتحقق يوماً من الأيام مع العلم بأن قلاوون نفسه كان يخشى تحقيقه في عهده ، بدليل ما حرص على عقده من محالفات وصلات مع مختلف القوى الغربية والامبراطورية البيزنطية ومملكة فرنسا وقشتالة وصقلية ، وجمهورية جنوة ، وبعثة من الامبراطور رودلف هابسبرج ، متبعاً في ذلك أثر سياسة بيبرس.

وفي طريقه لصد الغزو المغولي ، أي قبل وقعة حمص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التي عقدها بيبرس في أواخر أيامه مع الدول الصليبية. وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة أعوام ، فأضاف اليها قلاوون شروطاً مجحفة دالة على مدى ما صارت اليه الامارات الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال. ومع هذا لم يكن في نية قلاوون أن يحترم هذه الهدنة بعد فراغه من المغول ، اذ أراد — مثل بيبرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين بدور حربي مشابه لما قام به صلاح الدين. ولما لم يكد قلاوون يعلم بخيبة مشروع أرغون في عقد حلف مغولي صليبي ضد سلطنة المماليك حتى أخذ هو يركز جهوده ضد المدن الصليبية.

وكان قلاوون عندئذ في الخامسة والستين من عمره ، ويبدو أنه اشتهى أن يختتم حياته بصفحة من الجهاد الذي اكسب بيبرس شهرته في خدمة الدين. وحصل قلاوون هدفه الأول حصن الاسبتارية بالمرقب على أطراف الأراضي المسيحية لامارة طرابلس ، فافتتحه وأتم

أسبوعه في مرقبة الاهلية حامية واضطر الاسبتارية الى التسليم والجلاء في مايو سنة ١٢٨٥. ثم حول قلاوون صوب مرقية وهي قلعة حصينة على ساحل البحر، وصاحبها تابع اقطاعي لكونت بوهيمند سابع أمير طرابلس. وأنذر قلاوون الكونت بوهيمند بأنه اذا لم تتجرد هذه القلعة من سلاحها وحاميتها، فانه سوف يشن الحرب على امارة طرابلس نفسها. فأسرع بوهيمند الى اصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٢٨٦، في سبيل انقاذ الامارة الطرابلسية. وأسرعت كذلك مرجريت أميرة مدينة صور الى شراء السلم من قلاوون بتنازلها عن املاكها، وعقد ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى اتفاقية مشابهة تعهد فيها بدفع جزية سنوية باهظة للسلطان.

وأحس قلاوون بأنه حقق مغانم كبيرة من الصليبيين في غير عناء، فأغراه هذا لتوجيه جيشه لقتال سنقر الأشقر، واستطاع أن يخرجه من امارته الواسعة في شمال الشام سنة ١٢٨٧، وأن يحمله على الفراغ بالعيش في القاهرة بطالا، أي بعيدا عن الحياة السياسية.

وفي السنة التالية (١٢٨٨) انصرفت جهود قلاوون نحو سورية، اذ أرسل جيشا تأديبيا لتنظيم العلاقة بينه وبين السلطنة المملوكية على قاعدة التبعية التي أنشأها بيبرس من قبل. وفي السنة نفسها توفي بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن يعقب وريثا، فاضطربت العلاقات السياسية حول هذه، فتمكن قلاوون بالاستيلاء على مدينته ثم أنشأ ...

وحاصرها وضرب حصونها حتى تم له الاستيلاء عليها سنة ١٢٨٩. وبعد ذلك بقليل استولى قلاوون على قلعة البترون جنوبي طرابلس بعد أن حرمها من الاحتواء، ثم عاد الى مصر حيث أعد العدة لحصار عكا، وهي البقية الباقية للصليبيين بالشام بعد أن ادعى أن التجار المسلمين يعاملون فيها معاملة سيئة، مبررا ما نواه من رغبة حربية ضدها. غير أنه مرض ومات قبل أن يحقق هذه الخطوة النهائية ضد الصليبيين، وكانت وفاته في نوفمبر سنة ١٢٩٠ في معسكره خارج القاهرة، وهو في السبعين من عمره.

واذا اقتفى قلاوون أثر بيبرس في سياسته ضد الصليبيين والمغول، بحكم تشابه الأهداف والأحوال، فانه اقتفى أثر بيبرس كذلك في اقامة مبان وعمائر في مدن مصر والشام، ومن ذلك مسجد وضريح مشهوران بالقاهرة. أما المستشفى العام أو البيمارستان الذي أنشأه قلاوون بالقاهرة، فاكتسب سمعة كبيرة خاصة، مع العلم بأن هذا المستشفى لم يكن الأول من نوعه في قاهرة العصور الوسطى. واهتم قلاوون بتقوية الجيش المملوكي ورفع مستواه، وأضاف فرقة جديدة تبلغ ثلث عدده القديم، وجعل اقامة هذه الفرقة الجديدة بأبراج القلعة، ومن ثم سمي أفرادها باسم البرجية.

وعين قلاوون ابنه الأكبر علي ليكون خليفا له في السلطنة، غير أن هذا الابن توفي في حياة أبيه، فصار أخوه خليل هو الوارث التالي، برغم ما اشتهر به من ميل الى العنف

والشر فضلاً عن الظن بأنه دس السم لأخيه الخول .

ولذا عص قلاوون التوقيع على تقليد خليل بولاية العهد ، وظل عدة أعوام حنقاً على خليل ، آملا منه في الاحتفاظ بولاية العهد لابن صغير أنجبه في أخريات أيامه من زوجة مغولية شابة ، اسمه محمد . لكن وفاة قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالا للتردد ، وأقيم خليل في السلطنة وعلى أن اجتمع مجلس المشورة بإعلان سلطنته في نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، وتقليده بولاية العهد ، فقال : إن السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني الله !

على أن السلطان خليل الأشرف ورث عن أبيه من ميل إلى القسوة والعنف ، فعكف على الانتقام من رجال أبيه ، مستبدا منه بأهم السبب في تشويه سمعته واتهامه بدس السم لأخيه . وقد بدأ حكمه من هذه الناحية بداية سيئة مخيفة من أعمال المصادرة والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأمير طرنطاي خصيمه القديم أول من ناله كل هذا وذاك حتى مات في السجن . وكانت حملته مع هذا نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك إذ رد مثلا من أملاك طرنطاي لابنه ، وأعفى رعى مصر والشام من المتأخر عليهم من بعض الضرائب من عهد أبيه ، كما أنه أحيا ذكرى أبيه قلاوون حيث سنويا حافلا

أما من الناحية السياسية الخارجية ، فقد عمل خليل على متابعة سياسة أبيه كما هو

واضح من تصرفاته في أكثر مواقفه . ذلك أنه أخذ في سعيه مشروع أبيه بالزحف على عكا فأضاف إلى الاستعدادات الكافية أعدادا من العدد وكسب من أدوات القتال ، حتى غاص الآلات العسكرية حول عكا في ربيع سنة ١٢٩١ أية كمية سابقة ضد أية مدينة من مدن الصليبيين بالشرق . على أن عكا كانت هي الأخرى محصنة تحصينا قويا ، وقد قاومت مقاومة مستمرة عشرة أيام متتابعة ، حتى قرر خليل مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يضيق المجال عن وصف أعمال الشجاعة والبطولة التي بذلها المهاجمون والمدافعون سواء ، مع العلم برجحان كفة الجيوش المملوكية ، بعد أن مات الصليبيون وليس لهم في الشام من المدن الكبرى سوى عكا . ثم كان الهجوم النهائي على عكا صباح يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ ؛ فعانت المدينة مدة عشرة أيام بعد ذلك تصبح نهبا للهجوم والدفع ، والكر والفر حتى انتهى الأمر بهدم تحصيناتها وسقوط المدينة نفسها في أيدي جيوش السلطان خليل بن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين بالشام ، وفي بضعة الأشهر التالية تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التي كانت لا تزال في قبضة الصليبيين ، فهدمت حصونها ، عاقبة ترتيب التي استخدمت إلى عهد ... قلاوون ...

وحين رحل السلطان خليل عن عكا إلى دمشق ، وفي موكبه عدد كبير من الأسرى

[illegible]

[illegible] على [illegible] التي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

والقصور في الزراعة ، فضلا عما توالى من نوازل الطبيعة المتعددة من القحط والمجاعة ، وفضلا عما أجراه الناصر في سنة من إصلاحات في نظم الزراعة في كل من مصر والشام .

وإذا تولى السلطنة المملوكية بعد الناصر محمد ثمانية من أبنائه ، واثنان من أحفاده ثم اثنان من أبناء أحفاده على التعاقب ، فيتضح من هذا وحده أن شيئا من مبدأ توريث الابن الأكبر للحكم قد حل محل ما سبق تفصيله من تنصيب أمير السلطان الذي يتولى مؤقتا على الطريقة المملوكية المعهودة . وقد أشبهت هذه السلسلة الطويلة من أبناء السلطان الناصر محمد سلسلة الملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى . غير أن سلطة الواحد من أولئك السلاطين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد إلا بمقدار ما سمح به زعيم أو آخر من زعماء المماليك ، وظل الأمر على ذلك تقريبا حتى استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد في سنة ١٣٨٢ ، فأضحى بذلك أول سلاطين المماليك البرجية أو الجراكسة في مصر .

وفي خلال هذه الفترة التي استمر فيها حكم أولاد الناصر وأحفاده بعد سلطنته الثالثة لمحمد بن قلاوون ، وقعت ثلاث حوادث مختلفة في أهميتها ودلالتها في التاريخ المملوكي . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذي نزل الفناء وأهلك أهل مصر وسائر سكان الشرق الأدنى فيما بين سنة ١٣٤٨ وسنة ١٣٥٠ ، وأدى كذلك إلى ... وأدى إلى خسائر فادحة في الأرواح والماشية والزراعة وترتب عليه نتائج اقتصادية واجتماعية في الشرق والغرب .

أما الحادث الثاني فهو أن أسطولا مؤلفا من سفن قبرص ورودس والبندقية وجنوة ، جاء يحمل جنودا من عناصر مختلفة ، وهاجم الإسكندرية في خريف سنة ١٣٦٥ وتولى قيادة هذا الأسطول بطرس الأول لوزنيان ملك قبرص ، وهو الذي أنشأ طائفة الفرسان الصليبيين المعروفة باسم طائفة السيف ، لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين . واستولى هذا الأسطول على الإسكندرية واستباحتها جنوده أسبوعا ، فلم يسلم من شرهم ونهبهم مسلم أو يهودي أو مسيحي . ثم غادر الأسطول ميناء الإسكندرية ، بعد أن حمل معه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من الرجال والنساء من اليهود والمسلمين والنصارى ، ويروي شاهد عيان من المسلمين أن سبعين سفينة من هذه السفن أبحرت من ميناء الإسكندرية محملة بأنواع الغنائم ، فضلا عن هذا العدد الكبير من الأسرى . وأعقب هذه الكارثة مفاوضات تعرضت للفشل والانقطاع بسبب ما جرى من حين إلى آخر من غارات قبرصية على سواحل الشام ومصر للضغط على السلطان وأخيرا تم عقد الصلح بين قبرص والسلطنة المملوكية

سنة ١٢٧٠ بعد أن توسط سعيد كل من جمهوريتي جنوة والبندقية.

أما تحدي الشمال فيرتبط بمملكة أرمينية في ... المصري بإقليم قيليقية بأطراف آسيا الصغرى ممتدة على الشام، إذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين في الشرق، فأصبحت بذلك هدفاً للإغارات المملوكية المتكررة حتى سقطت عكا في يد السلطان خليل. وظلت مملكة أرمينية الصغرى هدف الهجمات ... للحملات المملوكية، حتى استولى أمير حلب المملوكي على عاصمتها سيس، سنة ١٣٧٥، باسم السلطان شعبان، والتهم الأمراء المملوكون أراضي هذه المملكة، بعد إعلان تبعيتهم للسلطنة المملوكية. أما ليو السادس آخر ملوكها فقد وقع أسيراً، وحمل إلى القلعة بالقاهرة حيث بقي في أسره إلى أن جرى افتداؤه سنة ١٣٨٢، وهذه السنة هي التي صار فيها برقوق أول سلطان في دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكية الثانية.

ينبغي للقارئ هنا بعد هذا العرض الموجز تصور عام للحكم المملوكي من حيث البناء السياسي ونظم الحكم والجهاز الإداري والاقتصادي، فضلاً عن التركيب الاجتماعي والحركة الفكرية، والنشاط الثقافي الحضاري الذي تميز به عصر سلاطين المماليك. وأول ما يبدو واضحاً من ملامح هذا التصور أن أقلية حربية مملوكية حاكمة مستندة إلى طبقة عسكرية من المماليك هي التي تسيطر على البلاد. ورأس هذه الطبقة السلطان هو نفسه مملوك من هذه الطبقة الأرستقراطية، وأحاط نفسه بهذه الأقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان، وكانوا مماليك له أو ممن دخل في الخدمة السلطانية كخاصكي أو خدم الأمراء، ثم تدرج في المراتب العسكرية تدرجاً متناسباً مع طبقته. وكان المماليك جميعاً — مثل السلطان — غرباء عن البلاد، ينتمون إلى بلاد وأصول عديدة، وإذ كان معظمهم في القرن الثالث عشر من عنصر القفجاق الذي انتمى إليه بيبرس وقلاوون فإن أفراداً منهم جاءوا من إيطاليا وبلاد روسيا والصين ونشأ أولئك المماليك على أساس من الفروسية الإقطاعية، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة، بحيث حدث في بعضهم حصر للمناصب العسكرية والوظائف البلاطية وإقطاعاتها فضلاً عن الوظائف الإدارية الكبرى وإقطاعاتها في مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية. وكانوا جميعاً مسلمين بحكم اندماجهم في الزمرة المملوكية، وأطلق عليهم عموماً اسم رجال السيف تمييزاً لهم من رجال القلم، وهم أصحاب الوظائف الديوانية المدنية من أهالي البلاد مسلمين وغير المسلمين، ووضع عدد غير المسلمين في الوظائف الديوانية ولاسيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحساباتها أعداداً ... معظم الأحيان.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

برغم أخطائهم في مصر التي عدت من كبريات مظالمهم ، أو كان كونهم عبيدا بعيدين عن شئون الحكم جعلهم يشعرون شعورا خاصا بنقص مكانتهم ، أو كان حداثة عهدهم بالإسلام جعلتهم متحمسين لإقامة الشعائر الدينية ، من باب التقوى والزلفى الى الله ، أو من باب السياسة واجتذاب القلوب . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن السلاطين المماليك عنوا أكبر عناية بتخليد أسمائهم في منشآت معمارية أعطت ملامح القاهرة ومعالمها وآياتها مسحة من الجمال المعماري والذوق الفني بالإضافة الى مسحتها التي امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشآت المعمارية المملوكية عدد كبير من المساجد والمدارس والخوانق التي تزين المدينة القاهرية بمآذنها الرائعة ، من مآذن سامقة وقباب فاخرة ، وبلا أحياء القاهرة القديمة بآثار لا يرى فيها الزائر سوى صنعها البديع . وأول هذه المنشآت مدرسة بناها السلطان معز أيبك التركماني بمصر (مصر العتيقة الحالية) ، على شاطئ النيل ، قبالة مقياس جزيرة الروضة ، وأطلق عليها اسم المعزية نسبة اليه وهي فيما يرجح أول مباني الدولة المملوكية بالقاهرة ، وأعقب هذه الفاتحة المعمارية سلسلة من مباني متنوعة الدالة بكثرة عددها على مستوى ثروة الدولة المملوكية حينها ، واقتناع سلاطينها بما لتلك المباني من نصيب في ذلك الاستقرار ، فضلا

عن تأثيرها في نفوس السلاطين أنفسهم في الحياة الدنيا والآخرة ، ونذكر منها السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه ، والذي صرف به أحد أحياء القاهرة بحديثه ، وهذا المسجد بالإضافة الى مدرسته الظاهرية وهي كذلك بالقاهرة بشارع النحاسين . أما السلطان المنصور قلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصوري الذي وصفه أحد مديريه الإداريين ، وهو النويري المؤرخ ، وصفا تفصيليا في كتابه « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم عيادة طبية لأمراض العيون ، ويسمى مستشفى قلاوون ، ولهذا السلطان وعهده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح علي ، ومدرسة ابنه الثاني خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم يأتي بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهو عصر الذروة المعمارية المملوكية ، بكل ما في ذلك الوصف من معنى ، اذ استمر الحكم الفعلي المباشر لهذا السلطان مدة اثنين وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤١) ، وخلت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فانصرف السلطان — ونساؤه وأمراؤه معه — الى أعمال معمارية مختلفة المقاصد والمنافع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حافل من

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، إذ هي تبلغ نحو سبعين ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد بالقلعة ، ومسجد الأمير الطنبغا المارديني بالتبانة ، ومدرسة الأمير أقبغا عبد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وخانقاه الأمير قوصون بالقرافة القبلية ، وقبة طشتمر حمص أخضر بالقرافة الشرقية ، وجامع ست حدق المعروفة بست الناصرية . ويضيق المجال هنا عن ذكر ما عدا ذلك من هذه المباني التي تملأ أوصافها صفحات من كتاب المقريزي الذي عنوانه « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » .

وبالإضافة الى هذه المنشآت ذوات الصفات الدينية والتعليمية والتذكارية أكسب النشاط المعماري لمملوكي مجموعة معمارية ثانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التي بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرائهم ، أو بناها الأمراء أنفسهم بتشجيع سلاطينهم بمصر . وقد أنجبت عهود السلاطين العسكريين وهم أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون وخليل ، عدداً قليلاً نسبياً من هذا النوع الثاني من المنشآت المدنية ، نظراً لاهتمامهم بالمنشآت العسكرية ، فإن هذه القلة النسبية أبرزت عظمة النشاط المعماري الذي امتاز به عصر السلطان الناصر محمد ، ويوضح ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بالدار الجديدة بالقلعة « مواعظ ج ٢ — ٢١٣ » واقتصر عصر السلطان قلاوون على مآثره التي تقدمت الإشارة إليها ، كما اقتصر عصر السلطان خليل على الدار الأشرفية وقصر الرفرف « مواعظ ج ٢ — ٢١٣ » امتلأ عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشآت المدنية ، وأعظمها القصر الأبلق الذي بناه السلطان الناصر نفسه ، وجعله مطلاً على الميدان المخصص للعب الأمراء بالكرة والصوالجة « البولو » وعمر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع قاعات بقلعة الجبل « مواعظ ج ٢ — ٢١٢ » وجعله لجواريه وسراريه ، كما أنه عمر بالقلعة لكل أمير من الأمراء أزواج بناته الأحد عشرة دوراً خاصة . ثم إن السلطان الناصر عمر عدة قصور لبعض أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طقتمر الدمشقي بحدرة البقر ، وقصر بكتمر الساقي على بركة الفيل ، وقصر بهادر الجوباني تجاه قلعة الجبل « مواعظ ج ٢ — ٥١٥ » ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغدق عليهم السلطان الناصر محمد من منشآت ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور فخمة لأنفسهم ، ومن القصور التي امتدت على طول الخليج الناصري « الخليج المصري » من قرب ميدان باب اللوق الحالي الى منطقة سرياقوس الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمال القاهرة الحالية ومن هذه القصور دار الأمير آيدغمش أمير آخور ، ودار أقبغا ، ودار طقزدمر

[illegible]

[illegible]

والهوامش والحواشى عن ظهر قلب وهؤلاء وأولئك فضلاً عن نصوصه ، وهم إلى جو [illegible] ورعايهم [illegible] مصرعه [illegible] [illegible] والإرشاد

غير ان المجال لا يتسع [illegible] — الاجتماعية المديرة ، وربما [illegible]

موضوع المنشآت المملوكية [illegible]

[illegible]

يجلس بعقد به مجلسه في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع فيستعرض شئون [illegible] ويستمع الى الشكاوى التي تصل اليه ومن هنا عرفت [illegible] بالقلعة كدار [illegible] التي [illegible] السلطان — [illegible] وجميع [illegible] الأعمال [illegible] السلطنة ، وهي التي صدر شبابيك المشهور [illegible]

[illegible]

الدولة المملوكية الثانية

للدكتور محمد مصطفى زيادة

(١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

عن المقريزي المؤرخ على حساسية قوية بالحس التاريخية الدقيقة، حين وقف في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» عند منتهى أيام السلطان حاجي بن شعبان، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى، وقال عقب «لسلطان معين الأشراف ومدبر الدول»؛ ثم بدأ في السطر التالي بداية عهد السلطان برقوق، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية. بعبارة أخرى وقف المقريزي وقفته هذه ليودع دولة ويستقبل أخرى في آن واحد، لأنه يعلم تمام العلم أن الدولة المملوكية الثانية لن تكون في جملتها أو تفصيلها سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصائص العنصرية، والتنظيمات الإدارية، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السياسية، وهذا فضلا عن الشعور بين أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية من الرضى العام بالحكم المملوكي — أوله وتاليه — رغم أجنبيته وصبغته الاستعلائية على أهل البلاد.

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجي وإقامة السلطان برقوق دون احتجاج من ناحية بعض الشخصيات المملوكية التي سئمت حكم السلطان المخلوع كما سخطت على السلطان الجديد وصرفته إلى دست السلطنة. ولهذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تآمرت لإقامة الخليفة المتوكل العباسي سلطانا في دولة من نوع جديد، ثم لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه المؤامرة سنة ١٣٨٣، لكن مؤامرة ثانية تكونت سنة ١٣٨٩، وتزعمها أميران مملوكيان مناهضان للسلطان برقوق، وهما منطاش أمير حلب، ويلبغا أمير ملطية. واستطاعت هذه المؤامرة الثانية أن تقبض على السلطان برقوق وترسله منفيا إلى الكرك، وأن تقيم الصبي حاجي في السلطنة مرة أخرى. ثم هرب برقوق من سجنه، وجمع لنفسه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه، وأن يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محوطا بأنواع الاحتفال والترحيب، بعد أن أمر بخلع الصبي حاجي، مع السماح له بالإقامة بالقلعة وسط جواريه وحاشيته.

وبينما تغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت في الأفق الخارجي أخطار من

ناحية الغرب نحو آسيا الصغرى ، وأرجع به أرجاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . ذلك أنه لم يكد تيمورلنك يعود من فتوحاته بالهند حتى بدأ يتحفز بجنوده للبحث عن ميدان جديد للحرب والتدمير ، فزحف على العراق واستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ ، وعلى ماردين في السنة التالية ، وهي مدينة تابعة لسلطنة المماليك . ولم تكن السلطان برقوق تعوزه الشجاعة ، فنهض لمقاومة هذا الخطر الجديد ، واستطاع أن يقيم جبهة قوية متحدية لتهديدات تيمورلنك و تدراته . وأول ما قام به برقوق في سبيل تكوين هذه الجبهة أنه اتصل بملوك البلاد المعرضة لهجمات تيمورلنك ، وهم قرا يوسف التركماني ، وبرهان الدين أحمد سيواس ، وبايزيد الأول السلطان العثماني ، وطقتمش خان القبيلة الذهبية بحوض نهر الفلجا . وتوفر للسلطان برقوق من الصلابة والشجاعة ما جعله يرحب بمجيء الغريب سلطان بغداد المعروف باسم أحمد الجلائري إلى القاهرة . ولما أرسل تيمورلنك إلى برقوق سفارة لمفاوضته على قاعدة الاعتراف بالسيادة التيمورية ، أمر برقوق بقتل السفراء ، فجرى بذلك على نهج ما فعله السلطان قطز عشية معركة عين جالوت . وأعقب ذلك أن حشد جيش مملوكي عند مدينة البيرة على نهر الفرات ، وهي المدينة التي تهدد تحصنات الممالك على الجنوب من بيرس وفلاوس . أما تيمورلنك فإنه وجه كل همته وجنداله إلى جورجيا وبلاد الكرج بأقصى الشمال ، لقضاء طقتمش الذي اعتبره أخطر أعدائه . وأما برقوق فإنه مات في يونية سنة ١٣٩٩ قبل أن تتهيأ له الفرصة لتشجيعه وبطولته في قتال العدو .

وتولى السلطنة بعد برقوق ابنه فرج ، وهو أكبر أبنائه ، وأمه يونانية ، وكذلك كانت أم الأتابكة تغري بردي والد المؤرخ المعروف أبي المحاسن يوسف ، مؤلف كتاب « النجوم الزاهرة » . ولم يكن فرج عند سلطنته يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، فلم أن لعبت جاء في جو حافل من المؤامرات الداخلية بحكاية عند قيام سلطان صغير ، ولم يلبث أن سار إلى الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش المملوكي الزاحف لوقف الحملة التيمورية المباشرة نحو الأراضي المملوكية . وكان لتيمورلنك يتحول وقتذاك جيوشه في سرعة مدهشة ، فنهب حلب واقترب من دمشق ، وجرت معركة عنيفة شمال دمشق ، فارتد الجيش المملوكي على أعقابه ، وبادر السلطان فرج بالانسحاب إلى القاهرة ، وترك جيشه في كفة المقادير ، فاستسلمت دمشق على شروط استطاعها المؤرخ ابن خلدون من تيمورلنك . ولم تعرض عاصمة الشام برغم ذلك لكل ما اشتهر به المغول من التخريب . وبديهي أن السلطان فرج لم يكن كفئا

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بلاد الشام أرجاء الدولة المملوكية
مصر والشام ما يقرب من سنة ونصف سنة
ولم يعكر صفو هذا السلام إلا خروج نائب
صفد بالشام ونائب الصعيد بالأطراف
الشمالية، فأخمد السلطان هاتين الحركتين
في سهولة. غير أن برسباي لم يلبث أن ورد له
في أوائل سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه
الخطير جانبك الصوفي، من سجنه
بالإسكندرية، فأمر بالقبض على كل من
له صلة بالأمير الهارب، ولكنه لم يستطع
الحصول على شيء من أخباره. وكانت
هروب جانبك الصوفي مؤذنا بقيام عدة
مشاكل مختلفة في وجه برسباي في وقت
واحد، وهي خروج نائب دمشق عن الطاعة،
وغارة القراصنة الافرنج على سواحل مصر
على البحر المتوسط، وامتناع الأمير حسن بن
عجلان شريف مكة عن الاعتراف بالولاء
والخضوع للسلطنة المملوكية. وبدأ برسباي
معالجة هذه المشاكل الثلاث بإرسال حملة
الى الشام صحبة نائب جديد لدمشق اسمه
سودون، حتى إذا جاءته الأخبار بانتصار
سودون هذا على النائب الثائر وسجنه بقلعة
دمشق، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين
الأخريين. وكانت قاعدة القراصنة الافرنج
وقتذاك جزيرة قبرص اللوزنيانية، فأغار
برسباي على سواحلها مرتين للتجسس، ثم
عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦
ففي تلك السنة أنفذ برسباي جيشا ضخما
وأسطولا كبيرا من مصر والشام الى ليمسول

القبرصية، فاستولى على ليماسول ولارنكا،
وأوغل في الداخل حتى هزم جيش قبرص
بقيادة الملك جانوس لوزنيان، ودخل عاصمته
نيقوسيا. وعادت تلك الحملة منتصرة ومعها
جانوس أسيرا بين الأسرى، ثم لم يلبث
السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة،
على أن يصبح تابعا للسلطنة المملوكية في
مملكته قبرص. أما حسن بن عجلان شريف
مكة فجرى إخضاعه قبل نهاية هذه المشكلة
القبرصية، وبذلك استردت مصر سيادتها
على مكة وميناءها جدة وقدم الشريف حسن
الى القاهرة صحبة ركب الحاج المصري
وبحماية المملوكي العائد، فأكد لبرسباي
ولاءه وإخلاصه للسلطنة، وتعهد بأن يدفع
جزية سنوية تأكيدا لتبعيته. غير أن الشريف
توفي بالقاهرة فجأة قبل أن يتم تأدية القسط
الأول من هذه الجزية.

وعقب قليل مغادرة الجيش المملوكي
سواحل بلاد العرب أن وصلت الى جدة قافلة
من سفن تحمل متاجر الهند، وذلك بعد أن
أضحى ميناء جدة خاضعا لسيادة المملوكية،
وبعد أن تعهد القائد المملوكي لقائد هذه السفن
بتقديم كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة.
وكان ميناء عدن باليمن حتى وقتذاك ميناء
التوجيه الذي ترد اليه التجارة الهندية، غير
أن سوء معاملة بهذا الميناء دفع قائد هذه
السفن شمالا حتى جدة، فأدت هذه الاتفاقية
الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجيا
ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

بهذه التجارة الهائلة. واهتم السلطان برسباي بضبط البلاد على جدة بعد تدهور التجاري الجديد، فأنشأ بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على متوليه اسم شاد جدة، وصار هذا الشاد يجمع من هذه التجارة المصرية ضريبة تساوي ثلاثة العشر من قيمتها. ولم يكتف برسباي بهذا الدخل المالي الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه، فضلا عن صناعة السكر في مصر. وترتب على هذه الإجراءات ارتفاع جنوني في الأسعار بحيث لم يعد في استطاعة التجار الأوربيين احتمالها، على الرغم من استعدادهم للشراء. وأدى هذا الى قيام كل من البندقية وقطلونية وأرجونة بالشكوى والتهديد بمقابلة هذه الإجراءات بمثلها، أي برفع أثمان جميع السلع الأوربية الواردة الى مصر والشام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومواد معدنية وبحرية مما يلزم للجيش المملوكي والقصور المملوكية.

على أن برسباي لم يكتف باحتكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل في العملة والنقد بأن غيّر عيار الذهب والفضة بما يتفق مع مصلحته وغرضه، ومنع تداول النقد الأجنبي كي يشتريه بسعر منخفض. ثم أطلق تداوله بعد ذلك، مما أدى الى الحاق الخسائر الكبيرة بالتجار الأوربيين والأجانب على السواء. واشتد سخط الأهالي أيضا على السلطان بسبب ما اتخذه من طرق متعسفة لجمع الأموال، وبسبب رفع أسعار السكر مع احتكاره على حين اشتد الاحتكار واتسع تأثيره على شعب حسب الوقود والقمح والحبوب، ولم تعد سوق القاهرة مناسبة. ولقد انتشرت المجاعة في جهات كثيرة بمصر، كما انتشر الوباء أكثر من مرة بالقاهرة، وبلغ الحالة ســوءا ما حدث على أيدي عتاة مماليك الجلبان من أذى الناس في الطرقات والشوارع.

وترتب على تطبيق سياسة الاحتكار في الشام أن حل بالتجار والناس من الشدائد والمتاعب مثل ما حدث بمصر، غير أنه لم يتعرض السكان لما تعرض له أهل مصر من اعتداءات مماليك الجلبان لقصر وجودهم بأرض الشام. ثم شهدت الشام منذ سنة ١٤٢٩ عدة تحصينات حربية موجهة لمراقبة جبال التركمان، ومراقبة حركاتهم المختلفة على الأطراف المملوكية، وهم قبيلة الشاة البيضاء، وقبيلة الشاة السوداء، وقبيلة الدلغادرية. وكان وراء هذه الحركات العدائية التركمانية شاه رخ بن تيمورلنك الذي ساءه رفض السلطان برسباي السماح له بالمشاركة في كسوة الكعبة، ولقد حالف قبيلة الشاة البيضاء، وشجع زعيمها عثمان قرايلك على تحدي برسباي، ومقاومة العسكر المملوكي الذي ضربه برسباي بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٣. أما مسألة الدلغادرية التابعة اسميا للدولة المملوكية عهدا، فخلاصة حركتهم العدائية أنهم آووا الأمير جانبك الصوفي الهارب من سجن الإسكندرية سنة

السنة الأولى من سلطنة برسباي ، وأنهم أعلنوا عصيانهم ، على أن النصر تحقق أخيرا للسلطان برسباي ، إذ قضى عليهم ثم لقي مصرعه في حرب ضد قرا يوسف زعيم قبيلة الشاة السوداء وعاث جانبك الصوفي قليلا ، وقضت عليه قبيلة الدلغادرية في مدينتها المدينة

ولم يمهل برسباي طويلا ليتمتع بهذه الانتصارات التي لم يكن جديرا بها البتة ، على قول المقريزي المؤرخ المعاصر ، ومات هذا السلطان على ما أسرف عليه ، في يونيه سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذي يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له في السلطنة ، وعين أحد خلفائه من الأمراء وصيا عليه ، واسمه جقمق . وكان برسباي ملكا مسرفا محبا للمال . ولم يكن ما انتشر في عهده من هدوء وسلام دليلا على شيء من الرخاء أو الطمأنينة بين الناس ، فإن فتح جزيرة قبرص لم ينتفع به إلا مماليكه ، وسياسته الاحتكارية لم تملأ جيوبا سوى جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام فتحملوا أنواع الإرهاق أثناء ذلك العهد الذي امتد إلى ستة عشر عاما لم تفارقهم المجاعات والغلاء حتى في سنوات وفرة المحاصيل .

ولم تبق يوسف بن برسباي في السلطنة سوى ثلاثة أشهر وأربعة أيام ، عمل أثناءها جقمق على جمع مقاليد الأمور في يده . ثم ما لبث جقمق أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل ، وأقام نفسه مكانه في السلطنة في سبتمبر سنة ١٤٣٨ . وبينما يتجهز جقمق للسير على رأس جيشه إلى الشام لقمع عصيان كان قد أعلنه ضد سلطنته في دمشق وجد أن السجين يوسف تمكن من الفرار متنكرا في زي خادم مطابخ السلطانية ، ولحق به مؤيدوه في جوف الصعيد حيث قامت حركة معارضة أخرى ضد السلطان . على أن جقمق استطاع التغلب على هاتين الحركتين في شهرين ، إذ قبض على يوسف في أبريل سنة ١٤٣٩ وأرسله إلى الإسكندرية ليقضي أيامه بها حبيسا مكرما ، وفي الشهر التالي أخمد حركة دمشق وسار جقمق على نهج برسباي في الحد من القراصنة المسيحيين الذين نشطوا في البحر من جديد ، على الرغم من حرمانهم من مراسي جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم وجدوا في جزيرة رودس التابعة لهيئة الفرسان الاسبتارية موئلا ، وأغاروا منها على السواحل المصرية والشامية وعاثوا فيها فسادا . ولذا أرسل جقمق في أغسطس سنة ١٤٤٠ حملة لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ورغم أن المحاولة تجددت سنتي ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، فإن الجزيرة استطاعت مقاومة الاعتداءات المتكررة الثلاث . ورضي السلطان جقمق بالصلح على قاعدة منع القراصنة من العبور إلى سواحل مصر ، واحترام مصالح هيئة الفرسان الاسبتارية في كل من مصر والشام . وتوسط حل آسف المصري ، وساعد على عقد هذا الصلح

التاجر الفرنسي الشهير جاك كير على أن هذا التاجر الذي سيطر في زمنه على جزء كبير من التجارة بين فرنسا والدولة المملوكية لم يستطع أن يمنع السلطان جقمق من ... السياسة الاحتكارية التي ... برسباي.

وانتهج جقمق تجاه الدول الإسلامية المجاورة سياسة مبنية على التسامح والتفاهم فلم يكترث لآراء ... مشورة بشأن شاه رخ بن تيمور ، بل سمح له سنة ١٤٤٣ بإرسال كسوة الكعبة ، فأنهى بذلك مشكلة النزاع القائم بين الدولتين المملوكية والتيمورية منذ أيام برسباي ، وذلك دون أن يفقد شيئا من حقوقه أو كرامته . وحرص جقمق على استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثماني مراد الثاني ، وأمراء آسيا الصغرى ، وكان ذلك في سبيل السلام.

على أن جقمق لم يحرز من النجاح في السياسة الداخلية ما أحرزه في السياسة الخارجية بسبب ما عانت منه فترة حكم السلطانية من حركات التمرد والاستبداد من الأمراء ورجال الحكم والإدارة ، مما يملأ صفحات عديدة من التواريخ المعاصرة وازدادت اضطهادات أولئك للمدنيين ... الكبير والصغير حتى ... في أيام ... والأعياد ... ولم يستطع السلطان جقمق دفعهم ، وكذلك لم يستطع جقمق أن يوقف ما تسرب من الفساد في الاحتكار ... ومع هذا اتسمت حكومة جقمق بالاتجاه إلى روح الصلاح والتقوى التي ما اشتهرت به حكومة سابقة من الحكومات ، وتصف بعض مصنفات وحوليات معاصرة ... تقوى جقمق ، على ... في معظم مسائل ... وحرص على أن تكون أحكامه موافقة للقرآن الكريم من أحكام ، فقد ساوى ... في ... الشرع ، ومنع شرب الخمر ، وحرم استخدام الأدوات الموسيقية وكره الملابس المبهرجة وألزم رجال العسكر والأمراء بارتداء الثياب القصيرة ، ولقي ... الطريقة واشتهر جقمق بعدله وكرمه مع العلماء ، واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بثمن مهما ارتفع هذا الثمن . ثم مات جقمق وهو يناهز الثمانين ، في فبراير سنة ١٤٥٣ ، بعد مرض مزمن ظل يعانيه في صبر وشجاعة مدة سنة.

وتنازل جقمق عن السلطنة وهو على فراش الموت ، وهو أمر لم يكن له سابقة عند المماليك ، وترك أمر تعيين سلطان بعده للخليفة العباسي والقضاة وجماعة الأمراء ، واستدعى هؤلاء وأولئك بحضرته ، وخاطب الحاضرين قائلا إن الأمر إليكم ، فنظروا فيمن تسلطنوه ، اعتقادا منه أنهم سوف لا يعدلون عنه . وهكذا جرى اختيار عثمان بن جقمق ليخلف أباه في الحكم.

ولم يلبث عثمان بن جقمق السلطنة غير ... شهر حتى ... سلطانا ... أنه لم يكن طفلا صغير السن ، غير أنه كان أقصر عهدا من صغار الأبناء الذين خلفوا آباءهم في السلطنة

ويرجع سبب حفلة هذه السنة بالذات فقط من إعلان سلطنته إلى السنة التي دعي فيه إلى استعداد جميع ما كان استحقت عن سنوات حكمه وعند مناسبة آنية وله خاصرته هذه الفتار حفلة فيه بزعامة الأتابك ... بالقلعة في مارس سنة ١٤٥٣ وجرى فيها عن استقلاله للمحاصرين ، بموافقة الخليفة العباسي الذي اشترك في الاحتفال

ومع أن إينال تولى السلطنة وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، وأنه بلغ من الأمية والجهل ما جعله عاجزاً عن كتابة اسمه ، فإنه استطاع أن يظل في الحكم ثماني سنوات وتسعين هذه ، أن السلطان إينال التزم السياسة والمطاوعة والاستجابة لمطالب الفئات المملوكية التي وصل على أكتافها إلى السلطنة ، ولا سيما فئة المماليك الجلبان ... أن استمرار خضوع السلطان لمطالب المماليك التي هكذا الجلبان على أيديهم جعل هذه الفئة أخيراً مصدر فتنة وخطر على مركز إينال ، بدليل رميهم إياه مرة بالحجارة ، وهو في طريقه إليهم من القلعة فطلب من مطالبهم سنة ١٤٥٦ ومما زاد الطين بلة أن هذه الفتنة العارمة أدت باستمرار ... إلى الاستجابة لمطالب الجلبان ، ووصف المؤرخ أبو المحاسن يوسف هذه الأعمال في ... الحنا ... هذه الأعمال التي تؤدي إلى فتنة ...»

والواقع أن ... عدو ... هذه الترضيات ... كل ...

بالكرامة والاحترام ، ولم يسمح أن ملكوا وقام الحكم ، فصاروا معززين ومؤمنين من ... من الموظفين ، ولم يجوّز السلطان أن تؤمهم على ما ركبوه باسمه

ومما يبدو عجباً أن السلطان إينال استطاع إصلاح النقود الفضية سنة ١٤٥٨ ، إذ أمر بسحب النقود التي أصدرها السلاطين السابقون منقوصة العيار وأحل محلها عملة جديدة ، كما أمر بتوقيع العقوبة القصوى على المتهمين بغش النقود ، رغم أن فئة الذين كثرت أعدادهم منذ أيام الظاهر بالتقدم زمن برسباي

وأصاب السلطان إينال كذلك نجاحاً في السياسة الخارجية فاتسمت علاقاته بالسلطان العثماني محمد الثاني بالود الخالص ، وذهبت من القاهرة سفارة خاصة لتقديم التهنئة للسلطان بفتح القسطنطينية . ورحبت السياسة الإيرانية بدخول إمارة قرمان بآسيا الصغرى من ممتلكات العثمانيين ، وهي إمارة معروفة بولائها القديم لسلاطين المماليك ، وترتب على ذلك أن أغار أمير قرمان على الأطراف المملوكية بشمال الشام ، واستولى على عدة بلاد من إقليم قيليقية (أي أرمينية الصغرى سابقاً) ، غير أنه لم يلبث أن ... أن ... الى ... سنة ١٤٥٨ ثم ... في النزاع ... وراثة العرش في مملكة قبرص التابعة للسلطنة المملوكية منذ أيام برسباي ... إلى القاهرة

جيش بورجستان رئيس بمنوسا ، وطالب بحصته في العرش كما طالب بحصته كذلك نفيه الملكة شارلوت بورجستان . وعاد جيمس أو بيرس صحبة حملة مملوكية نجدة له ، واستطاع بمساعدة هذه الحملة أن يحتفظ بالعاصمة بقبرص غير أن النزاع بين جيمس وشارلوت استمر بضع سنوات ولم تظهر نتائجه في حياة اينال الذي كانت وفاته في فبراير ١٤٦١ ، وترك اينال أسرة تألفت من أربعة أفراد ، بنتان وولدان من زوجة وحيدة ، وهو أمر نادر الحدوث في التاريخ المملوكي غير أن مثار كثيرا لابد أن يدل على حياة السلطان الشخصية

وتنازل السلطان ينال ، قبيل وفاته بيوم واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذي تولى وظائف مسئولة مختلفة في حياة أبيه ، واشتهر بحبه للإصلاح ، وبلغ الثلاثين من عمره حين آلت إليه السلطنة ، وقد كان لأحمد بن اينال من الخبرة الإدارية والحماسة والنضوج السياسي ما يبشر بعهد جديد . غير أن العصبية المملوكية التي رفضت السلطان الجديد ترشيحه على طريقة اينال اجتمعت على تدبير مؤامرة لإقصائه عن العرش وإقامة الأتابك خشقدم أو غيره مكانه . وحوصرت القلعة بحصار المتآمرين في يونيه سنة ١٤٦١ ، ولم يشأ السلطان أن يلقي التسليم ، وتم عزله وخروجه من القلعة سجينا إلى الاسكندرية وجرت المناداة بخشقدم سلطانا

ويختلف خشقدم عن سائر سلاطين المماليك الشراكسة من حيث كونه بالأصل ينتمي إلى أصل يوناني ، وإليه يرجع تحريم مرور في مكران الحمير ، على أنه تخلص بالقتل والنفي والتشريد والمصادرة من أمراء المماليك الذين أقاموا في السلطنة ، وإلى الفئات المملوكية بعضها على بعض ، أملا منه في السيطرة بعد ذلك على مماليكه الجلبان ، واستخدام شغبهم في الاستيلاء على أموال الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا أطلق خشقدم الجو لمماليكه الجلبان ، فأصبحوا يثيرون فسادا كما يشاؤون ، ويقتلون الأبرياء ، وقد مضى على دأب السلاطين خشقدم على جمع الثروة بعيدة فيبع الوظائف الحكومية ، وهدم موازين العدالة بمساومة المتقاضين أمامه في دار العدل ، وأسوأ من ذلك كله ما نجحا به هذا السلطان من زيارة كبار الأغنياء ومفاجأتهم في بيوتهم ، ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللائقة بالسلطنة

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر عهد خشقدم بداية النزاع بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع الذي أدى أخيرا إلى زوال دولة سلاطين المماليك بمصر والشام ، واستيلاء العثمانيين على هذين القطرين أوائل القرن السادس عشر . وقد بدأ هذا النزاع في سنة ١٤٦٣ بسبب

جرى من خلاف حول الوراثة في امارة [illegible] حيث أيد السلطان العثماني محمد الثاني بك معروفا بعدائه للسلطنة المملوكية ، وأمده بقوة عسكرية مكنته من نزوله من عدة بلاد تابعة من الاطراف المملوكية ؛ غير أن هذا النزاع لم يؤد الى حرب بين دولتين زمن السلطان خشقدم

وجرى خشقدم في عرض شئ سياسة سلفه اينال بعرض أعمل من مجرد مساعدة حربية لملكة جيمس الثاني ضد أخته شارلوت ، وكان هذا العرض هو التخلص من بقايا الفئات المملوكية التي غدت ناقمة على السلطان بمصر والشام ، وتبين تكرار هذه المساعدة الحربية دون الحاجة اليها . وفي أواخر حكم خشقدم ، أحدثت قبائل البدو شيئا من الرعب والاضطراب لا في الوجه القبلي فحسب ، بل في الشام وفي بلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لسطوهم ونهبهم . وبينما تجري الاستعدادات لارسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرض بالسلطان خشقدم ، ومع أن حملة سارت فعلا الى شمال بلاد العرب فان حملة أخرى الى الصعيد ؛ رفضت المسير ؛ اذ فضل قائدها البقاء في القاهرة ليرقب ما يأتي به الأيام بعد موت السلطان . وفي اكتوبر سنة ١٤٦٧ ، مات خشقدم ، وترك وراءه أكبر هم هو المعروف باسم مصر

وفي الشهور الأربعة التالية عرفت القاهرة سريعا لمؤامرات وخطر بات من الفئات المملوكية ذوي السلطة في عهدها المملوكي الصحيحة سلطانين . وتفصيل ما حدث أن السلطان خشقدم لم يجر على القاعدة التي درج عليها السلاطين السابقون ، فلم يرشح ابنه منصور ليخلفه ، ولم يومئ الى أحد بترشيحه ، ولم يعمل زعماء المماليك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رغبات باطنة حول هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعا قبيل وفاة خشقدم بساعات قليلة ، واتفقوا على اقامة أحدهم وهو الأتابك يلباي في السلطنة ، وهو المشهور بالمجنون ، وجرى احتفاله سلطانا في نفس اليوم بعد الانتهاء من تشييع جنازة خشقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط قرر أولئك الزعماء عزل يلباي فعزلوه ، لأنهم أرادوا اقامة زعيم آخر منهم فأقاموه ، وهو تمربغا اليوناني الأصل في ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يمكث تمربغا في السلطنة أكثر من أيام سلفه سوى أيام معدودات ، اذ رأى معاصريه أن سوف تتكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هي فيه من منافسات وفتن ، وما دامت زعامتها لا تحتوي الا على أمثال يلباي وتمربغا . غير أن الحوادث لم تلبث أن أنجبت رجلا من نوع آخر ، وهو الأتابك قايتباي الذي أقامته الفئات المملوكية سلطانا في يناير سنة ١٤٦٨ ، على ظن منها أنها سوف تتخلص منه سريعا كما تخلصت من سلفيه . ولكن قايتباي ظل سلطانا ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذا

لتحير الى شخصيته ، كما يرجع الى جسامة المشاكل الخارجية التي واجهته منذ أوائل سلطنته وهي مشاكل صرفت القناصل المملوكية عن سياستها القديمة التي لم تنقطع منذ سنين ، وأدت بها أخيرا الى التكتل وراء السلطان في سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية وصيانتها . لم يكن عهد قايتباى أسلوب جهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ، بل أكثرها توفيقا ونجاحا . وأول هذه المشاكل الخارجية حركة الزعيم التركماني شاه سوار رئيس أسرة الدلغادرية وآسيا الصغرى ، اذ تمكن هذا الأمير من الاغارة على أطراف السلطنة المملوكية ، معتمدا في ذلك على معونة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزمته وحملته أسيرا الى القاهرة حيث أعدم أواخر سنة ١٤٧٣

ولم يكن قايتباى أقل اعتدالا في جهوده ضد أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الشياه البيضاء الذي حاول له أن يتظاهر بالولاء والاخلاص لسلطان قايتباى أثناء حركة شاه سوار وأرخى له قايتباى الحبل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بمشاركة السلطنة المملوكية في كسوة الكعبة كما طالب به قبلا شاه رخ تيمورلنك من السلطان برسباى وقد عمل قايتباى على هدم هذه المطالبة بارسال حملة مملوكية لم تتم في تعزو الأراضي الفراتية التابعة لشياه البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨

على أن مشكلة الخارجية الكبرى في عهد قايتباى جاءت من ناحية الدولة العثمانية التي جدت منذ نشأتها في السيطرة على البلقان تعمل على الاستيلاء على ما بقى خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى . وقد أشرنا فيما سبق الى تصادم حدود دولتي العثمانيين والسلاطين المماليك وتنبيههما بتمديد الدولة المملوكية في سوريا الأمن والدفاع عن أطرافها الشمالية . ورأى قايتباى معالجة هذه المشكلة بمساعدة واتفق السلطانان العثمانية والمملوكية فيما على عدم التدخل في شئون حالي الامارتين ، وبحسب هذا الاتفاق ظلت العلاقات في وئام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثماني محمد الفاتح في سنة ١٤٨١ . ثم حدث أن أساء قايتباى الى السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني باستقبال أخيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل ان قايتباى قدم لهذا الأمير فيما بعد نوعا من المساعدة للقيام بثورة فاشلة ضد بايزيد الثاني في آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به عمال قايتباى من اعتراض سفارة هندية الى البلاط العثماني ، أعلن بايزيد الحرب على مصر في سنة ١٤٨٦ فاستولى جيش عثماني على أذنة وطرسوس وسائر مدن قيليقية ، على حين استخدم جيش مصري [illegible] ، وكلها مدن تابعة للسلاطين المماليك ، وبعد ذلك [illegible] حرب [illegible] الجيوش المملوكية على العثمانية أكثر من مرة ، وانتهت بصلح سنة ١٤٩١ لاعادة

الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، غير أن هذا الصلح لم يكن سوى هدنة من سحاب الهدوء قبل العاصفة

واستطاع قايتباي برغم انصرافه إلى كل هذه المشكلات والحروب أن يحقق نصراً دبلوماسياً الهادئة في مطالب جزيرة قبرص بعد أن صار عرشها إلى الملكة كاترينا كورنارو والتي ترجع إلى أصل بندقي ، وبعد أن غدت البندقية كلمة نافذة في شئون ذلك العرش ذلك أن الملكة كاترينا لم تواظب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨، فما زال قايتباي يضغط على جمهورية البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضييقات التجارية بالاسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لارسال الجزية المقررة في نظام . على أن دبلوماسية قايتباي لم تنجح في كل الأحوال ، إذ حاول مساعدة أبي عبد الله ملك غرناطة ، بأن هدد فرديناند ملك أسبانيا المسيحية بتدمير بيت المقدس واستئصال شأفة مسيحيي مصر والشام إذا لم ينته من هذه الحرب بصلح عاجل . غير أن الملك فرديناند أبى أن يعبأ بهذا التهديد وظل يحارب مملكة غرناطة حتى استولى عليها تماماً ، وكل ذلك دون أن يفكر قايتباي في تنفيذ أية ناحية من نواحي تهديداته

أما سياسة الداخلية زمن قايتباي ، فأول مميزاتها أن السلطان اتبع طرقا ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين المراكسة سطوة وجنده . ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من حل في حبسه من السلاطين وأبنائهم ، إذ حرص على دعوتهم إلى مشاركته في لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بتأدية فريضة الحج ، بل إنه أجاز لهم التزوج إلى القاهرة إلى حبيبة ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يخش كيدهم . وأكثر قايتباي من مغادرة القلعة لا للنزهة والصيد خارج القاهرة فحسب ولا للحج وحده ، بل لمعرفة أحوال المدن والحصون ، فزار جيرون وبيت المقدس والاسكندرية ودمياط ودمشق وحلب ، ومنابع شاطيء الفرات ، وهو طرف السلطنة المملوكية . وخلف قايتباي أيضاً عدة آثار دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس ومستحكمات ، ومن هذه القلعة المعروفة باسمه بالاسكندرية حتى العصر الحاضر

على أن قايتباي لم يعتمد في نجاحه في سياسته الخارجية والداخلية إلا على شخصيته الناضجة ، فإلى جانب ما اشتهر به من الكياسة والشجاعة ، كان قايتباي كذلك سلطاناً حازماً مسيطراً بقوة الخلق على مماليكه الجلبان تمام السيطرة وبفضل مساعدتهم الخاصة له استطاع أن ينجح في ضبط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبدا المتغير في السلطنة المملوكية من مظاهر الأمن ما لم يكن معروفاً من قبل . غير أنه كان أيضاً مسرفاً مكثراً مطالب نفقاته الاضافية التي فرضها قايتباي على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للصرف على حملاته الحربية وعمائره

الضعيفة ، فلم يكتف مثلا بما فرضه على الأملاك العقارية من ضريبة مبلغها إيجار سبعة شهور ، بل فرض مكسا باهظا في أواخر أيامه على ما يجري بيعه من القمح . واستند قايتباي كذلك إلى استخلاص الأموال من اليهود والنصارى ، ولم يسلم كبار موظفي الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان الأقاليم الذين أكرمهم السلطان بزيارته الرسمية ، كي يحصل منهم على هدايا ثمينة لم يقدموها إليه عن طيب خاطر .

ثم اشتعل بمصر وباء سنة ١٤٩٢ ، واجتاح القاهرة والأقاليم حتى أفنى ما يقرب من مائتي ألف من أهل البلاد ، عدا ثلثي المماليك من مختلف الفئات ، وذهبت ضحيته ابنة السلطان وأمها في يوم واحد . وما كاد ينقضي على الوباء سنتان حتى أصاب القحط عامة البلاد المصرية ، وتفشت الأمراض في الماشية . ثم أعقب ذلك موجة من الشغب بين الفئات الباقية المملوكية ، ومع أن السلطان بلغ وقتذاك الخامسة والثمانين من عمره ، فإنه نهض لإخماد الفتنة دون سفك دماء سنة ١٤٩٥ ، غير أن الشيخوخة أثقلته ، ومرض فتغلب عليه وكانت وفاته في يونيه سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة في السنوات الخمس التي أعقبت وفاة قايتباي عهودا خمسة من السلاطين اتسمت بالفوضى الداخلية والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد للسلطان قايتباي من حظيته أصلباي ؛ وكذلك عهد خاله قانصوه الأشرف ، ولقد لم يستقر الحال إلا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم في السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباي في حب الفن والحرص بشئون الحكم والمثابرة في معالجة مشاكل المملكة واسمه قانصوه الغوري .

وعلى الرغم من أن السلطان الجديد تجاوز الستين من عمره ، وأنه تولى السلطنة بفضل اتفاق جماعة من الأمراء على توليته ، فإنه لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون صنيعة أحد منهم . ولم يختلف السلطان قانصوه الغوري عن سائر سلاطين المماليك حيث واجهه عند توليته من اجتماع فئات المماليك حول القلعة وإلحاحهم في طلب ما جرت به العادة من نفقة التولية ، الأمر الذي استلزم منه معالجة مشكلة الضائقة المالية التي كابدتها أجهزة السلطنة المملوكية منذ أواخر أيام قايتباي ، ووجد توزيع أموال النفقة المطلوبة في أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان الغوري من الضرائب الفجائية ما لم تشهد دولة الجراكسة له مثيلا ، إذ أمر بجباية إيجار العقارات عشرة شهور دفعة واحدة ، ولم يقتصر في ذلك على الدور والحوانيت فحسب ، بل تعداه إلى الحمامات والسواقي ، والطواحين والمعاصر ، [illegible] . وفرض على الأوقاف الخيرية أيضا أن تدفع ما مقداره ريع سنة كاملة ، وعمد فضلا عن ذلك إلى تخفيض سعر النقود لمصلحة الخزانة السلطانية . وترتب

على هذه الاجراءات أن يوفر للسلطان الغوري من المال ما استطاع به أن يدفع أموال النفقة لقتال البرتغاليين بحسب وعدة سفن كما أنه اشترى عددا كبيرا من العبيد. ألف منهم طوائف جديدة تنتسب اليه، وهي طائفة الغورية. على أن المعروف أن الغوري أنفق جانبا كبيرا من هذا المال كذلك في تقوية حصون الاسكندرية ورشيد وحلب، وفي اصلاح طريق الحجاج الى مكة، وتشييد مسجده ومدرسته بالقاهرة.

وبدا ساد الهدوء مدن السلطنة المملوكية، برغم ما أمعن فيه من جمع الأموال ولم يقع من الحوادث ما يعكر صفو الأمن في السنوات الأولى من عهده، اذا خلا حركات البدو المعتادة في مصر والشام، وما تطلبه من حملات تأديبية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين. غير أن ما حدث من وصول البرتغاليين الى الهند واقامة أول محطة تجارية أوربية على الساحل الغربي لهندي أخذ يؤثر منذ أوائل عهد الغوري في التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والشام عن طريق مصر وجدة، اذ تحولت هذه التجارة الضخمة تدريجيا الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح. وذهبت معها حصيلة الضرائب الجمركية الهائلة فيما مر من موارد كانت تحصلها سلاطين المماليك على هذه التجارة، كما ذهبت أرباح التجار المصريين والشاميين الى البرتغاليين. وأصاب سوءا الى هذه تحول ما عمد اليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية في بحار الهند، وكان الغوري يسمع وحداثة ما كونه له حضوره انشغله من الصحيح، فبادر الى استخدام القوات البحرية المملوكية لوقف الاعتداء البرتغالي قبل استفحاله، ولكنه حاول الوصول الى تسوية سلمية، وبعث رسولا الى روما سنة ١٥٠٤ يشكو الى البابا يوليوس الثاني تتضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة في فلسطين اذا لم يمتنع ملك البرتغال عن أذى مصالح التجار المسلمين بالهند، وتهديد سفنهم التجارية. غير أن هذه السفارة لم تحقق شيئا، وترتب على ذلك أن أعد السلطان أسطولا كبيرا في البحر الأحمر لقتال البرتغاليين في البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكي البرتغاليين في ميناء شول بالهند سنة ١٥٠٨، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الاسلامية أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين. غير أن البرتغاليين انتقموا لأنفسهم في السنة التالية في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تقم للبحرية المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة.

ولم يمض على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان العثماني سليم الأول، وذلك أنه منذ مطلع سنة ١٥١١ بين السلطان قانصوه و سلطان بايزيد الثاني ؛ ظلت العلاقات ودية بين المماليك والعثمانيين

ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تحولت تحولا خطيرا سنة ٩٢٢ هـ بعد سلطنة سليم الأول العثماني الذي اشتهر بأطماعه التوسعية استعدادا لمعركة لعشيرته الدائمة ، وتحقيقا لسيطرة العثمانيين على العالم الإسلامي ، فما كاد ينتهي سليم من هزيمة الشاه إسماعيل أول ملوك الأسرة الصفوية الشيعية بإيران في معركة تشالديران سنة ١٥١٤ م حتى وجه اهتمامه إلى الأطراف المملوكية بشمالية الشام المصري ، فاستولى على إمارة ذي القادر وعاصمتها الأبلستين ، رغم الصلح القائم بين المماليك والعثمانيين. ثم عزم سليم الأول على محاربة السلطنة المملوكية ، فاتخذ من الاتهامات الباطلة التي وجهها إلى السلطان قانصوه ذريعة للحرب ، والتقى بالجيش المملوكي في أغسطس سنة ١٥١٦ في مرج دابق شمالي حلب ، حيث انهزم السلطان قانصوه هزيمة ساحقة ، ولقي حتفه في الميدان. وترجع هذه الهزيمة إلى تفوق عدد الجيش العثماني ، وإلى المدفعية العثمانية التي لم يكن لدى الجيش المملوكي ما يعادلها ، وعلاوة على ذلك فضلا عن خيانة قائد الجناح الأيسر للجيش المملوكي ، ونائب حلب خاير بك ، وهو الذي بعث إلى سليم باسم خاير بك ، فسلمت له حلب دون مقاومة ، كما سلمت له دمشق كذلك بعد مقاومة قصيرة ، ولقي العثمانيون أحسن حظوة كل مظاهر الترحيب من بعضهم لاتحاد البلاد وتخلصهم من المماليك.

وهكذا دخل القاهرة وأهلها بأخبار هزيمة السلطان قانصوه الغوري ومصرعه ، جرى تعيين سلطان جديد في أكتوبر سنة ٩٢٢ هـ وهو الأمير طومانباي الذي عهد إليه قانصوه بتصريف أمور الحكم أثناء غيابه. وقبل طومانباي السلطنة كارها ، بعد أن أقسم الأمراء له في مقبرة ولي من أولياء الله وهو الشيخ أبو السعود ، بأنهم سوف يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل دفع العثمانيين عن البلاد.

أما العثمانيون فأسرعوا في زحفهم نحو مصر ، وعلى الرغم مما بذله طومانباي من جهود لوقف الزحف السريع حلت الهزيمة بالجيش المملوكي أولا في بيسان قرب غزة ، ثم في الريدانية خارج القاهرة. ووقعت معركة الريدانية في يناير سنة ١٥١٧ ، وفي اليوم التالي لوقوعها تم الاعتراف بسليم الأول سلطانا على مصر والشام وجرت الخطبة باسمه على منابر القاهرة. واستمر طومانباي يناضل بضعة أشهر ، غير أن الهزيمة حلت به مرة بعد مرة ، ووقع أخيرا في قبضة العثمانيين وجرى إعدامه شنقا في أبريل سنة ٩٢٣ هـ على باب زويلة (بوابة المتولي حاليا) ، وبإعدامه انتهى أمر السلطنة المملوكية.

ولا يأسى المؤرخ في وصفه الأيام الأخيرة من حياة طومانباي عن ملاحظة الحرب على ما صادفته مصر من النصر بعد انحلال السلطنة المملوكية ومجيء

العثمانيين ، على أنه لم يرَ في ذلك التغيير سببا إلا ما جرت به المقادير التي ليس للإنسان عليها سلطان ، ولم يدرك أو لعله لم يستطع أن يدرك أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة كانت تنخر في الجسم السياسي للدولة المملوكية ، وأن معظم هذه العوامل ورد صراحة وتلميحا في تاريخه الكبير . وحزَّ في نفس ابن إياس أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون » .

وعاش ابن إياس بالقاهرة سنوات طويلة بعد حلول العثمانيين بالبلاد وشهد بعينه انتقال مصر إلى بداية عهد أجمعت المراجع على أنه من أحلك العصور في التاريخ المصري الطويل .

ولما انتهت السلطنة المملوكية في مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية على هذا النحو الكبير ، وذلك بعد مرحلة زمنية بدايتها ١٣٨٢ م ونهايتها ١٥١٧ ، أي مدة مائة وخمس وثلاثين سنة فلا أقل من استعراض بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة أن تمكث مدتها في شيء من الاطمئنان الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية الخارجية فمن الواضح أن الأخطار المملوكية في فارس وبلاد الروم وأطراف العراق وآسيا الصغرى جعلت للحكم المملوكي هيبة عامة في البلاد المصرية والشامية ، على غرار ما كان للدولة المملوكية الأولى من هيبة عامة في نفوس الناس ، فضلا عن ضخامة ما في خزائنه ومخلفاته السياسية بالقاهرة ، وفي دعم الحكم من نصيبي ومولى من البلاد .

أما العوامل الداخلية التي مكنت لهذه الدولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن مستوى سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، فلا مشاحة أن أول هذه العوامل هو أن مماليك الجراكسة سيطروا على جميع الوظائف العسكرية والإدارية كما سيطروا على وظائف البلاط السلطاني ، ثم لم يجرؤ أحد — ابتداء من السلطان إلى المملوك المجلوب حديثا — أن يفكر مرة أو يجازف بمغامرة منعزلة عن سائر أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية ، ومن هذه الطبقة تألفت فئات الجيش العسكري الوحيدة في البلاد ، وأدركت هذه الطبقة ضرورة التكتل والتماسك بين أجزائها ، وعرفت كيف تحصر ما وقع من منازعات داخلية في دوائرها المملوكية ، ولم تلتمس في هذه المنازعات مساعدة المصريين أو البدو بالأقاليم ، ولم تقبل أن يتدخل فيها جيرانها . ولم يخرج على هذه القاعدة سوى قلة من الأمراء المتمردين الذين التمسوا لأنفسهم مأوى خارج البلاد ، وتمسكوا للسلطان القائم في ذلك بالتطاول على أطراف السلطنة ، على أن معظم البلاد المجاورة لم تسمح بحركات أولئك الأمراء

المتمردين ، بل ظل ملوك الحبشة في سلام ووئام مع السلطان المملوكي .

ثم إن السلطنة المملوكية توفر لها جهاز إداري بالغ الدقة ، يعتمد على الاستقرار الداخلي ، برغم ما أحاط به أحيانا من مظاهر الاضطراب لأن عامة موظفي هذا الجهاز الإداري كانوا من المصريين والشاميين على اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يتأثروا بما جرى في دوائر السلطنة ، أو بين طوائف المماليك من أحقاد ومنافسات .

والواقع أن أهل مصر والشام لم يسببوا لحكامهم المماليك متاعب كثيرة ، إذ شغلوا بزراعة الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم من ضرائب ثابتة محددة ، وصنعوا ما احتاج إليه السلطان والأمراء والجيش من معدات مدنية وعسكرية ، ورضوا بما أصاب عملهم أعمالهم في الزراعة والصناعة من أرباح يومية قليلة . وبذا لم يكن أهل مصر والشام أداة راضية في أيدي السلاطين فحسب ، بل أداة طيعة كذلك ، وكان ما اشتهروا به من الوداعة والهدوء مما يسر للسلاطين المماليك أن يقوموا بحروبهم خارج البلاد . أما البدو بالأقاليم الذين لم يخضعوا تماما للقانون من سلطان فلم يشتهروا بما اشتهر به المصريون والشاميون من الرضى التام والميل إلى السكون والهدوء ، بل كانوا خطرا على الحكم المملوكي منذ أيامه الأولى . وكانت [illegible] للسلطات [illegible] من [illegible] للدولة المملوكية منذ نشأتها .

ويستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثانية أن يفخروا بعدد من منشآتهم النفيسة والتذكارية ، فضلا عن المعالم التجارية الدالة على ما بلغته تجارة مصر الخارجية في عهدهم من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء مع غرب أوربا والجمهوريات الإيطالية من ناحية ، أو مع الهند والصين عن طريق البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المباني الدينية والتذكارية فأهمها مدرسة السلطان برقوق ، وموضعها شارع المعز لدين الله الفاطمي ، وهي المدرسة التي ألقى فيها المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون دروسه في مذهب فقه المالكية . ولابد أنه ضمن هذه الدروس إشارات كثيرة إلى نظرياته الاجتماعية والاقتصادية التي اشتهرت بها مقدمته المشهورة ، وهي النظريات التي تأثر بها المقريزي في مؤلفاته . ومن هذه المباني كذلك ، خانقاه السلطان فرج بن برقوق ، وموضعها القرافة الشرقية الحالية بالقاهرة ، ثم مسجد المؤيد شيخ ، وهو المسجد الذي ظل حافلا بحلقات تدريسية أزهرية حتى العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد بالسكرية بجوار باب زويلة (بوابة المتولي) ، وهناك كذلك المدرسة الأشرفية برسباي ، وهي التي وافق الانتهاء من بنائها مجيء [illegible] إلى القاهرة [illegible] الفرنجي جانوس الثاني [illegible] إلى الإسكندرية في ركاب الحملة المملوكية العائدة من قبرص ، وبذلك تم للسلطان برسباي [illegible]

خانقاه على باب تلك المدرسة ، تذكارا لنهضة فرعين العمارة المملوكية . ولا تزال هناك مدرسة قائمة على رأس سوق النحاسين بالقاهرة الجديدة . وللسلطان برسباي كذلك خانقاه ومدفن بالقرافة الشرقية ، فضلا عن مسجد لا يزال كذلك قائما ببلدة الخانكة الحالية ، شمالي القاهرة . وللسلطان اينال كذلك خانقاه ومدرسة ومدفن بالقرافة الشرقية ، أما السلطان قايتباي وهو الذي ظل في دست السلطنة المملوكية لمدة تسع وعشرين سنة ميلادية ، فهو صاحب أكبر مجموعة من المنشآت المعمارية ، ومنها مسجد ومدفن بالقرافة الشرقية ، ومنها كذلك القلعة التي بناها هذا السلطان بالاسكندرية على أنقاض المنار القديم ، وفي بنائه هذا دلالة واضحة على خشية الدولة المملوكية من ازدياد القوة البحرية العثمانية ، بعد أن أخذ السلاطين العثمانيون يمدون أبصارهم نحو جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى

وللسلطان الغوري مدرسة وقبة بجوار الجامع الأزهر ، ولا تزال القبة تستخدم لأغراض ثقافية ، وهي إحدى القباب المملوكية التي شاءت المقادير أن يموت صاحبها بعيدا عنها ، فلا يدفن فيها . ومما يتصل باسم السلطانين قايتباي والغوري أنه منشآت تجارية ، وكالة قايتباي عند باب النصر ، ووكالة الغوري في نهاية شارع الغورية ، وكلاهما من المعلومات الدالة على مستوى الحضارة والفن أواخر عصر سلاطين المماليك .

وشيد عدد من أمراء الدولة المملوكية الثانية منشآت لهم في القاهرة والصعيد ، كما شيدت أيام الدولة المملوكية الأولى ، ولكن على مقياس أصغر من حيث المقياس والضخامة والكثرة العددية ، فبنى جركس الخليلي الخان المعروف باسمه ، وهو السوق الذي يعد أحد المباهج السياحية بقاهرة العصور الوسطى ، وبنى القاضي يحيى مدرسته الثلاث بشارع الأزهر الحالي ومسجده الأول بشارع المحكمة ببولاق ومسجده الثاني بالحبانية ، وترجع لعهد قايتباي عدة منشآت أميرية ، أولها مدرسة الأمير قجماس الإسحاقي ، ومدرسة أبو بكر مزهر وقبة يشبك بن مهدي الدوادار ، وهي القبة الفداوية بالعباسية

وهناك كذلك مدرسة أزبك اليوسفي في طولون ومدرسة قصري بردي الشاوي بالعبيبي

وفي هذه المباني السلطانية والأميرية ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية الثانية وأمراءها لم يكونوا أقل اهتماما بالمباني الدينية والتذكارية من سلاطين الدولة المملوكية الأولى وأمرائها ، طواعية لبعض العوامل المساعدة ، وإشباعا لبعض الأغراض الدنيوية والأخروية

وعنى سلاطين الدولة المملوكية الثانية

بالقلعة عشرات مخطوطات ، وهم الذين نشأوا بها ، واشتهروا باسم البرجية نسبة إلى سكنهم بأبراجها . ولم تكن تخرجهم من الحروب الخارجية ما تصطرعهم في الشمال والشام بعيدا عنها ، بل كانت تهمهم من نفس الداخلية ، حملهم مشغولين بها . ولقد أقاموا بها أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، على أنهم لم يحدثوا بها جديدا ، نظرا لاكتمال مبانيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها وأحواشها ، فضلا عن مبانيها السكنية والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . ولذا اقتصر اهتمامهم بها على أعمال ترميمية وإضافات تكميلية وتجديدات محدودة ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان برقوق عمّر بها صهريجا وطاحونا ، وأنشأ بها جديدة لدار العدل ، وأن السلطان جقمق جدد باب المدرج ، وأن السلطان قايتباي جدد عمارة الإيوان الكبير ، وأنشأ مقعدا [illegible] بالحوش السلطاني ، كما أن السلطان الغوري جدد عمارة المطبخ الكبير ، وأنشأ المقعد [illegible] بشمير .

• • •

وإلى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية [illegible] عن الدولة المملوكية الأولى [illegible] عمر هذه الدولة [illegible] على سلاطينها [illegible] حركة [illegible] في [illegible] من جلدتها إلى القاهرة [illegible]

الاجتماعية والاقتصادية في حلقات دروسه ، وتأثيره في تلميذه أحمد المقريزي وغيره من معاصريه الذين تتلمذوا عليه . ويتضح ذلك [illegible] وضح في كتاب [illegible] والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار [illegible] حيث جعل المقريزي مشكلة إسلامية كبرى إلى جذور تاريخية قديمة ، كما وضح في كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » حيث خصص المقريزي تأليفه فيه في أربعة أجزاء ضخمة لتاريخ مصر زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية حتى سنة وفاته ، وهو الكتاب الذي تقدمت الإشارة إليه في المقدمة من هذا الفصل .

ويلاحظ أن المقريزي خصص كتبا أخرى لعصور معينة من التاريخ المصري ، مثل « عقد جواهر الأسفاط في ذكر تاريخ الفسطاط » و« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين » .

وتبدو هذه النزعة المصرية القومية الخالصة في مؤلفات أخرى للمقريزي مثل « المقفى الكبير » الذي أراد المقريزي أن يجعل منه معجما مصريا من أقدم العصور إلى عصره ، ومثل « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » وهو معجم تراجم لمعاصريه . وسرت هذه النزعة القومية في تلاميذ المقريزي والتابعين لهم ، فكتب أبو المحاسن بن تغري بردي تاريخه الضخم المسمى « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » ، وكتب عبد الرحمن السيوطي « حسن المحاضرة في

تاريخ مصر والقاهرة » كما كتب محمد بن اياس « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، وهو كذلك في التاريخ مصري

ويبدو تأثير ابن ظهيرة واضحا في نوع جديد من المؤلفات ، منها « نهاية الأسية بكشف الغمة » للمقريزي ، « والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوي ، « والشماريخ في التاريخ » للسيوطي

وفي هذه العناوين شواهد على نقلة ثقافية بالسطور في مفاهيم التاريخ ، ولكنها شواهد لم تلبث ان زالت بزوال عهد مصر من كيان سياسي ، نتيجة للفتح العثماني الذي جعل البلاد المصرية ولاية تابعة لدولة لا تعرف ولا تعرف من اللغة العربية والآداب سوى القدر اليسير الضروري لشرح الدين

الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث

للأستاذ أمين الخولي

حول منهج

الدين والتدين

« هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشئ السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ... »

سورة الرعد آيتي ١٢ و ١٣

منذ وجد الإنسان على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، قبل أن يكتب تاريخه وبعد أن كتبه ، كان يتحكم في حياته هذان الشعوران : الخوف والطمع ، إزاء مواقفه أمام الظواهر الطبيعية ، الأرضية والسماوية ، وحيالها الواضح ضعفه ، وعجزه ، وجهله ، أمام ضخامتها ، وشمولها ، وغموضها ، وتكرارها وما إلى ذلك .

ولذلك نجد الإنسان في كل زمان ، وكل مكان لونا ما من ألوان التدين ، تنوع ما بين أنواع تدين عرفت به ديانات وثنية مختلفة في أنحاء الأرض ، كما كانت له ديانات موحدة ، في [illegible] من الكتب .

وقد درس العلم ظاهرة التدين والديانات المختلفة على منهجه [illegible] فيحدث من نشأة — وتطور — ومقارنات ونواميس تنظم الحياة الدينية [illegible] الاجتماعية لها [illegible] ونحو ذلك .

وهو منهج لا يد لأحد بالخروج عليه ، ولا قدرة على إنكاره . وما أحاول في الحديث عن الحياة الدينية المصرية إلا مصيبين لما يقوله في هذا ، غير منكرين لما يرى من صلات مثلا بين ألوان التدين المختلفة ، في مصر وفي سواها من بلدان أخرى ، وما يجد من روابط بينها ، أو مشابه ، وما نفسر به شيئا من هذا كله .

وهو [illegible] في [illegible] دون [illegible] المصطفى [illegible] نشأ من [illegible] أو [illegible] بكر [illegible] إنا نجمع الدرس بينها وبين ألوان من التدين

انـدائي أو منظور ، لا تعدو صنعة البشر الذين لا صلة لهم ... بخرافات ، أو تحريفات سوف ... عقائد ... الأستاذ ... كريمة ...

ومن أجل هذه الخشية المتحرجة ... هذه الكلمة من « تدين » و« التدين » تنفر فيها لمثل هذا المتحرج أو المتنكر ... مقررات المنهج العلمي الاجتماعي ، في درس تاريخ الأديان ومقارناتها ... إلى هذا المنهج لا يسيء إلى الأديان السماوية ... حين يقرنها في درسه إلى الديانات الأخرى ، التي تعدها الديانات السماوية ضلالات ، وخرافات ، أو تحريفات لحقائق صحيحة

نعم لا يسيء ذلك إلى الأديان السماوية في شيء ، ويبين هذا بيانا كافيا موقف الإسلام بخاصة ذلك الموقف الذي يقدم لنا تفسير ... العلم فيما يتصل به بين هذه الديانات التي يختلف بعض المتدينين بها ، وهو موقف يتلخص في أصلين اجتماعيين دينيين ، قررهما القرآن في صراحة ووضوح ، وبهما التوفيق بين تناول العلم ، والتكريم المؤمن لعقيدته ، وبهما تفسير الجمع بين أديان هي تحريفات ، أو ضلالات في رأي المؤمنين مع غيرها من الأديان المنزلة ، فبهما يمكن للعلم أن يستكملها معا ، حينما يدرس ظاهرة التدين الاجتماعية

وهذان الأصلان الاجتماعيان الإسلاميان اللذان يهيئان هذا التوفيق هما :

أولا : وحدة الأديان ، التي قررها القرآن بوضوح وصراحة تكررت في مثل الآية ١٣ من سورة الشورى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه » الآية فهو يقرر أن الحقيقة التي شرعها ووصى به الرسل المتعددين واحدة ، والوحي الذي أوحاه إليهم جميعا متماثل ، وحدة الرسالات مهما دخل عليها مع الزمن من التغيير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى ، كما يحدث القرآن نفسه عن ذلك فيما بين اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى إلى رسله ، وأوصوا به واحد ، والصلة بينها قائمة في الأصل ، وأهم العوامل التي طرأت عليها في تاريخها وتطورها يبيح للباحث أن ينظر إليها في ظل هذه الوحـــدة ، وأن يلتمس العوامل الفعالة في حياة هذا الأصل الموحد ، وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أن يجد المتدين المؤمن غضاضة في الجمع بين ما جاءت إليه رسالة نوح وإبراهيم ، وما في رسالة موسى وعيسى ومحمد بعضها مثلا

(١) في معنى هذه الآية الكريمة نحو ... الدينية آية ١٦٣ ... من سورة النساء « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق » الآية ، وآية ١٣٦ من سورة البقرة ، و ٨٤ من سورة آل عمران ، وغير هذه الآيات مما لا حاجة بنا إلى إحصائه

وعلى الأساس الذي قررهما الاسلام، وبحسب المنهج العلمي نفسه هو أن كل أمة قد جاءها نذير ، أي أنه قد أنزلت إليها رسالة سماوية ، كانت مناسبة لوقتها ، وملائمة لحالها ، وهو ما نقرؤه دوماً ، بصيغة القصر في آية ٢٤ من سورة فاطر «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» ونظائرها في مثل آية ٤ من سورة إبراهيم «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم».

وما دام الأمر كذلك فيمكن أن يقال إن ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها على يد نذير ، وله أصل سماوي ، ثم بعد مع الزمن كما تقضي بذلك سنة التطور ، فإن كانت فيها حقيقة أو حقائق قد جاءت بها رسالات سماوية أخرى فليس ذلك مما ينقل فيه تدين حرفي أو مصادفة مع دين سماوي ، يرفضه المؤمنون ، بل هي من الحقائق التي اشتركت فيها الوحدة الدينية في الرسالات ، ووصية السماء ، وما حولها من ماثل في رأي المؤمنين هو ما لحقها من تشويه أو تحريف أو تغيير.

وعند ذلك مثلاً يزيد الأمر وضوحاً وهو الميزان الأخروي ، ووزن الأعمال في دار الجزاء على النحو الذي يوضح به ويرسم في الوثنية المصرية ، فليس هو من الوثنية المصنوعة ، وقد ينقل إلى الديانات الموحدة غيرها بعد ذلك ؟ بل هذا ما نقله من المقدس محرماً تلك الديانات غيرها ، ثم إن هذه الوزن والميزان في الوثنية المصرية يمكن أن يقال في ظل ما قرره القرآن من الوحدة الدينية ، وإرسال النذر إلى جميع الأمم كافة ، إنه حقيقة دينية موحاة جاء بها نذير ، ثم بقيت من أمر هذه الرسالة ما بقي ، وحصلت بها التغييرات والتحولات الوثنية.

وإذا ما أمكن أن يقال هذا فلا بأس على الدارس المصطنع للمنهج العلمي في فهم ظاهرة التدين الإنساني أن يقرر الصلة بين التدين في مختلف ألوانه ، ومتعدد صوره ، وأن يقارن ويوازن بين الأديان المختلفة ، وأن يخضعها للقوانين معرفة ، وهي موحدة ، لأنها في حديث «وحي الله» من القرآن ، ليست إلا حقيقة واحدة ، ولا غرابة في أن يكون قد علا في أصلها — حيث كانت — نذير من السماء بها ، ولا مانع في الربط بين الأديان المختلفة ، في أي زمن من الأزمان ، ولا يصح أن يشق ذلك على مؤمن ، أو يرى فيه بأساً ، أو ميلاً عن دينه الذي يدين به.

وهكذا يزيل الهدى القرآني كل صعوبة لعرض المنهج العلمي في درس الأديان على مستوى اليوم ، فيستطيع المتحدث فيها أن يقرب ما يجده من صلة بين الدين والتدين في الحياة المصرية ، على اختلاف أزمنتها ، وتنوع ديانتها ، وأن يبحث أوجه التشابه بين هذه الصور المختلفة ، وأن يستخرج منها دلالات على الشخصية المصرية الدينية مثلاً ، مع ما يمكن من أن يظن أن هذا المنهج خطر على عقائد مؤمن برسالة سماوية ، أو ميلاً

منها في شيء . وعلى هذا المنهج تقدم في بحث ما قصد اليه من

<u>التاريخ الحضاري</u>

فمعوب ... في ... تحس ... الساعل ... يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسي وما أشبه ، على أنه أحداث معروفة ، وأسماء معدودة ، وسنين مرقومة ، فانه لا مجال مطلقا لأن تقبل — بأي سبيل — كتابة التاريخ الحضاري على مثل هذه الصورة

أما تاريخ الحضارة حديث عن خصائص ومميزات مجتمعة من الناس ، وطوابع لها ، ومقومات ، يمكن في ضوئها تفسير اتجاه خطوات تلك الجماعة المؤرخة ، في طريق التقدم الانساني ، وتفسير التمدن البشري وفهم أهدافها في نشاطها ذاك ، وكشف البواعث والدوافع التي صدرت عنها أحداثها ، في هذا المجال . وتبين العوامل النفسية التي سيطرت عليها في أدوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابعة . وتحديد الفكرة الثابتة التي دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تقديرها لشئون الكون ، ومنهج ادراكها لمشكلات العالم ، وآفاق المستقبل

وفي طريق معرفة ذلك وما اليه في حياة مجموعة انسانية موحدة بشكل عام لشخصية خبيرة ، وهي على متماسكة ، واضحة ... ، كما تكون الأسباب الفردية تكون في شخصية ... أو هي منها ... مهيرة متميزة ، كما تكون الأسباب ... عرد الصحة ، وتكون شخصية

ومن هنا تكون ... في هذا التاريخ الحضاري ، دائما قيمة النسبي بشخصيته والاهتمام بعناصرها ، بالتحليل والتتبع تارة وبالتحليل والتجريد تارة ، وما يتطلب ذلك من النظرة الشاملة ، العميقة ، الفاحصة ... للحياة المؤرخة في مختلف عصورها ، ومتشعب أحوالها ، وتنوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، ولقيت بها الظروف ، من بؤس ونعيم ، ونصر وغلبة ، أو هزيمة وضعف ، ورخاء وجدب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك

تكون هذه النظرة خلاصة المشتبه في حياة الجماعة ، على أنها كل لا يتقطع ، ووحدة لا تتجزأ ، مثلها مثل النهر المتواصل الجريان ، المتلاحق الأمواج ، لا تجد في تياره فجوة ، ولا ترى بين أمواجه تقصيرا ... وان تفصلت وادية فواصل .. أو توزعته سبل

وليس من الصواب في شيء أن يحاول باحث يفقط أن حاضر جماعة بشرية يمر من ماضيها ، أو يثبت ما بين مستقبلها وحاضرها ، فذلك ما لا تسمح به الحياة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يمكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النواميس الكونية والاجتماعية مطردة

وما دام الأمر كذلك فمن تستطيع الحديث عن شيء من آثار الحياة النفسية في مصر الاسلامية ، خلال وسيط التاريخ وحديثه

الا بعد أصول من الشخصية المصرية القديمة في قديم تاريخها وأوله.

وكذلك لن يكون حديثنا العصري عن هذه الفترة الا حديثا عن جماعة عامة بعصرها وبمثلها، وتحديدها، عوامل الشخصية المصرية، التي صبغت تاريخ هذه الأمة، منذ نشأت في هذا الوادي، وما زالت الحياة في جنباته.

ولئن ألزمنا ذلك — ولا محالة — بأن نستحضر في أذهاننا، ونحضر للقارئ معنا صورة واضحة الملامح للشخصية المصرية الدينية بخاصة — على الأقل — فانا سنحاول ذلك، في أقصى ما يمكن من الايجاز والاجمال، تاركين كل تفصيل أو استدلال لثقافة القارئ، ونحن نعتقد أن التاريخ العصري لمصر، فيما كتب من هذا الكتاب قبل الفترة الاسلامية التي نتحدث عنها، لابد أن قد هيأ القارئ لما نحيل عليه، ونجمل القول فيه، من سمات هذه الشخصية، وسلوك الأمة المصرية، في أعصرها السابقة على العهد الاسلامي من حياتها.

والى القارئ ما لا بد منه، أساسيا، من الفكرة القصيرة المركزة عن

ملامح الشخصية المصرية الدينية

ولمصر — على مر التاريخ — شخصية واضحة السمات، بارزة القسمات، بينة الملامح، راسخة العرق، لا تكاد تخطئ [illegible] عهد بالتحضر، قديمة الأثر في التمدن، مؤسسة ممعنة [illegible]

وتلك الشخصية المصرية جامعة [illegible] العلم، فيما يدنو من شعور الحس، والوراثة، والبيئة، ويفرقها الدارس حين يحسبه ولا يحصر [illegible] وليس عسيرا تلك الشخصية حرفا من الكلام، ولا سيما من نبوءة، أو اقتطاعا من عواطف قومية.

وكما رسمت خطة الحديث لا لتعرض شيء من أصول ذلك ودلائله، بل لنكتفي بالاشارة الخاطفة، بعبارة موجزة [illegible]، تفصح عن أمر هذه الشخصية الى أصول عامة، وعوامل جامعة، وهي —

« [illegible] الأمر [illegible] الذي أدى بالجنس المصري، منذ تكونه البطيء، في عزلة عن الشعوب بحاجزي الصحراء والماء، الى نوع الوحدة القوية، التي استخرجها من أمته القديمة، واحتفظ بها الى أيامه هذه ظاهرة في أبنائه ظهورها على تراكيب [illegible] وصوره اللائقة من آلاف السنين »

* * *

ولتلك الشخصية المصرية جوانب مختلفة، ونواحيها المتعددة، من دينية، وخلقية، وعقلية [illegible] وسواها، ويعنينا هنا من ذلك الجانب الديني، الذي نسعى الى الحديث عن بضعة عشر قرنا من تاريخه [illegible] ما قدمنا الآن من الفترة [illegible] أن نصف ملامح تلك الشخصية الدينية، ليضع في يد القارئ بذلك ما يفسر ظواهر الحياة الاسلامية في مصر، ويردها الى مستقر [illegible] شخصيتها على الزمن

ومن أبرز ملامح الشخصية المصرية الدينية

فمنذ أن ... البعث عرف المصريون ... التدين، ولا نعني في ذلك، بل يكفي ما قاله أبو التاريخ هيرودوت: إن المصريين أشد البشر تدينا، ولا نعرف شعبا بلغ من التقوى درجتهم فيها، لأن صورهم بجملتها تمثل ناسا يصلون أمام الرب، وكتبهم — على الجملة — أسفار عبادة ونسك.

وسنرى سيطرة الشعور الديني ما يمكن أن نلمحه من أثر في حياة المصريين الدينية على اختلاف العصور، ومع مختلف الأديان.

ثم إن من أوضح ملامح الشخصية المصرية تدينية أيضا —

قوة الإيمان بالحياة الأخرى

فنحن لا نجد في أمة من الأمم القديمة مثلا عناية بتلك الحياة كما نجد أن المصريين قد احتقروا الحياة الدنيا مخالفين كل جنس سواهم، ولم يقبلوا الموت — كما قيل — فلم يكن المصري يهتم بما يسر أو يحزن، أو بمن يحب ويبغض، ويبكي ويضحك، على صفائه لشيء، وإنما يصرفه عنه إلى دومية تحته. والمصريون — وهم أقدر البنائين القدماء في العالم لم تكن قصور ملوكهم إلا حالات بالنسبة للقبور، وذلك لأن المسكن يبني عندهم ليؤوي إليه الإنسان في حياته، والقبر ... على الدهر، وما القدم ... هذا يعني في فهم المصريين من حولهم من الأمم، كالسوريين.

ومن الأثر القريب لهذا الإحساس القوي بالحياة الثانية عقيدة البعث، وما اتصل بها من ... بالخلود، وبعض مصريه في حال ... لم في بعض من أجله.

فعقيدة البعث في بعض عصريه هي محور النشاط العملي في وجودها، وهي أوضح البواعث والدوافع في أعمالها، وهي سر تاريخها، وخلاصة فلسفتها في تفسير حياة الكون والإنسان.

وقد وجدت في البيئة المادية حولها تعبيرا وتصويرا لهذا المعنى، فالشمس تحكي ذلك كل يوم بشروقها الذهبي، فظهيرتها القاسية، إلى أصيلها الكابي، فغروبها القاني في ظلام يعقبه بعث وميلاد مصبح، إذا الصبح تنفس.

والنيل تكتسح فيضانه الزاخر رمال الصحراء، وجمود الجدب الميت، فيحيي الأرض بعد موتها، ثم إذا هو يهبط وينحسر في مجاريه فتتسرب الحياة من الأرض الرابية رويدا، ويسودها موت في بعث جديد بفيضان معاود، وكذلك عمر القلب المصري بأمل لا يغيب في الحياة الثانية تفصيل ما يعقبه من ذلك ... وترصده.

وفي سبيل هذه العقيدة ... جميعا قدم مصر ما قدم، وبذلت ما بذلت لأجلها من ... عوامل الفن، ... كالأهرام، ... والمقابر ...

تهيء لذلك كله ، وتمكن من صنوف الحضارة ، تلقى الروح في يوم الموعود ، وتشرب في الوادي تلك المشاعل المضيئة في جنوب الأمم ، وتلك المعالم الساطعة على سطحها .

وكانت مصر بذلك منبعًا دينيًا لها سمات الخلود بحياتها وتأثيرها برسالة الأصيل ، وإن اختلفت صورها . فمصر الفرعونية هي هي مصر الأخيرة ، ثم هي هي مصر المسيحية بعمق روحها الدينية ، وتطلعها للحياة الأخرى — واستشرافها لروحي الأمل .

ومصر بهذه المعاني هي مصر التي تستحق من معاني تدينها في إخلاصه ، وعمقه ، وانتقاله من العقيدة إلى السلوك تلك العصور الجبيرة التي كانت صورها صنوفًا . وكتبه أسفار عبادة ، وعنوان إعداد للبعث وتمكين من الخلود . وسنرى حياتها الدينية الإسلامية فيما يلي — امتدادًا متصلًا بهذه المعاني الدينية بلا تخلف .

ثم من أبين ملامح الشخصية المصرية الدينية التي تؤازر عمق التدين ، وقوة اليقين الأخروي

سعة الأفق الديني

فقد أوتيت مصر سعة في النظر الديني ، وتطلعًا إلى فسيح الآفاق وتجديدها في عالم التدين ، وكان من ذلك أن ... في البحث المقارن في الأديان السماوية مجالًا ... وبروزًا ، وسماحة بأديان مختلفة في مواطن عريقة التدين ، فإن مصر ... كله واسعة

امتدادي في بيئتي المشرقة بسبب هو ظاهرة حضارية ، في حياة المصير الإسلامي

ومنذ كان التدين وسمة بخصيصة ترعى مصر من هذه الوجهة الكبيرة ... الوثنيات القديمة في أقاصي الأرض وتصل بمعانيه مختلفة الصور إلى مقامات متعددة . فوثنية مصر قد عرفت تعدد الآلهة ، وتختلف الأقانيم من ثلاثة إلى ما بعد التسعة . كما عرفت تلك الوثنية عقيدة الفداء والتخليص وولادة المخلص الإلهي ، وقيامه من بين الأموات . وكما عرفت أمومة العذراء وما يتصل بذلك . وكان لها من الطقوس الكثير ، فعرفت التعميد والرهبنة و ... مما تكشف مقارنة الأديان عن قوة المشاركة المصرية فيه .

ثم إنه ما كان التدين توحيدًا عرفت الديانة المصرية في عهد التوحيد ما تعرف من محاولات وتفسيرات . وهكذا ندرك من هذا الإجمال مدى ما في الشخصية المصرية الدينية من سعة الأفق ، وسعة النظر الديني . ونقدر أنها بذلك ... إليه من ملخصات للتراث في حياة التدين البشري بعامة ، وفي حياة الأديان الكبرى المعروفة ... نظرية ... مصر ، وفي حجرها ... موسى ... والمسيح ... موضع ...

... لا تنقص ... لتقديم ، بل

بعد ... ب اليهودية شيء منها ... والإسلام مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل. وتلك نتيجة ... النظرية الاعتقادية في مصر في حياة الأديان الكبرى عندها

وأما مشاركة الايجابية العميقة ومن أثر مصر في مختلف عصورها في حدمات جلى بحياة هذه الأديان فقد مثلها فيها راسخة، وجهدها عنصري في لحظات دقيقة، ومواقف حاسمة، لعدل في مثلها من أدلة كذلك من الحدثات الحية بحاسة نعمية ... وصول التراث الاسلامي ... كما صدت التراث الاسلامي الوجداني الاعتقادي

وهذه المشاركة العميقة الايجابية في حياة الأديان والحضارات مما لا نرغب هنا القول فيه تفصيل ولا اجمال، وحسب القارىء ما تذكره به هذه الاشارة من لفتات التاريخية عن تلك المشاركة المصرية

* * *

وحسبنا هنا أن نقول ان هذه الشخصية المصرية الدينية قد هيأت مصر المشاركة في الأديان الكبرى، بعرفتها ... وافالها وتقبلها في أناة وتعقله ... ولتمكينها من الحياة في بيئتها الاعتقادية، ثم الوقوف ... بعد التمثل الصحيح لها، وبوقف المستشهد العنيف لاسا

وبعد ... هذه لاشارات العابرة، مصورة لقسمات الشخصية المصرية وملامح تعريفها ... لما يهدف اليه من ...

التصوير ... مظاهر العامة المعروفة التي تحاول هذه الشخصية، فسنرى معي بأن مصر صاحبة هذه الشخصية الدينية قد حفظت على اختلاف الأزمنة معاني تمسيد ... في فهم جانب الشخصية الاسلامية، ... فالتاريخ الحضاري من جانبه الديني وتلك مظاهر العامة هي أنها —

[أ] لانية التدين بحيث كما يقول التعبير العربي، ... تتحفه في سهولة ... في سهولة. كلا بل هي متانة فيما تقبل من عقيدة، لا تجد أصلا في أقدم تدينها، ونرى ذلك في الحديث قريب من التدين الاسلام

ثم هي ... تقبلت في أناة ظهر أثر هذه التأني في تدينها، ورأيت بذلك أنها —

(ب) ... روح الدين الذي تعتقه لا تقف ... عند القشور والظاهريات بل تستكشف اللباب وتدرك الجوهر، وسنرى هذا في الاسلام بعد اعتناقه ... ويمكنها بهذا لا ... جهدا كبيرا في متعمقة بخلاف الدينية وافتراق المقالات الاعتقادية، بل نرى موقفها في هذه النحل والخلافات هو موقف غير متقبل ولا منصرف ... وهو ما سنجد أمثلة له في الكلام على حياة الاسلام فيها

ثم انها ... تعصب في تدينها رأيت ... -

... متصفة في ... التدين الذي تلمسه في أناة وتعمق ... وتكاد تجد ... في مختلف الأديان على شتى الصور

تأصلت في الوثنية التي عاشت بها أجيالا ثم لما تلقت المسيحية قدمت لها شهداء في مقاومة عن مسيحيتها ، حتى تلقت الإسلام في أناة — ولما جمعته سبب في سبيل حماية عقيدته ودولته ما يحدث في صراعها الدامي مع الحروب الصليبية والغزو التتري الهمجي، وقد كادا يقضيان عليها من الجانبين في عصر واحد.

ويكفي هذه الملاحظة العامة لنشعر أننا قد مهدنا بالقول الإجمالي في التاريخ الحضاري الديني لمصر الإسلامية ، وأقمنا من المقدمة ما يرد الحديث عن هذا العهد الإسلامي في معالم عامة ، تدل على تتابع أمواج من الحياة المصرية ، متلاحقة متواصلة يجيء سابق منها بلاحق ، ويربط الأول [illegible] الثاني [illegible] به التيار [illegible] ، [illegible] كما ينبغي أن تكون الأمر في تاريخ الحضارة ، يمكن أن يلقى أضواء جلية مركزة على الأحداث وتطورات الحياة ، ويجمل لقارئه شخصية مصر الحضارية ثابتة الأسس ، أصيلة المنهج ، لا تكرار ولا تعثر ولا تعصب ولا انحراف [illegible]

وعلى هذه الأسس ننظر الى

مصر ملتقى الإسلام

ولمصر بعهد الإسلام [illegible] صلات كثيرة ، بعضها يتحدث عنه التاريخ الديني [illegible] وبعضها يتحدث عنه التاريخ [illegible] المصادر

فأما ما يتحدث عنه التاريخ الديني فأمومة هاجر المصرية للعرب المستعربة ، إذ أهداها صاحب مصر لإبراهيم [illegible] حين دخل مصر [illegible] ، وكان من أمره وأمرها مع ملك مصر ما يحكى.

ثم هي صلة يحدثنا [illegible] المقوقس مارية القبطية التي وهبت لرسول [illegible] — وولدت له إبراهيم على ما هو معروف.

ويلحق بما يتحدث عنه التاريخ الديني من صلات ما يحكي الرواية العربية من دخول العرب الى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ، ووقوع الكرة في كمه ، بملعب الإسكندرية ، وأن من كانت تقع في كمه تلك الكرة يملك مصر ، ولذا عجب المصريون من وقوعها في كم هذا الأعرابي ولكنه أخيرا ملك مصر !

ومهما يكن الرأي في هذه الروايات كلها فإن لها دلالة اجتماعية على صلة ما بين الإقليمين القائمين على شاطئي بحر واحد هو البحر الأحمر ، وبهذا الجوار ما يكون لمثله من الصلات ، وصلات مادية ومعنوية لا مفر منها.

والتاريخ المادي المصدر يتحدث عن هذه الاتصالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية وتجارات [illegible] ، ولكن لنشر الى ما يذكره ذلك التاريخ من صلة [illegible] والوثنية العربية [illegible] الوثنية العربية ترجع في أصلها الى معبودات مصرية ، حتى أمكن رد

أسماء الآلهة المعبودة التي ورد ذكرها في القرآن وهي اللات والعزى ومناة ، قد رد بعضها أيضاً إلى نظائر من آلهة مصر ، منها سميه بالاسم العربي ، ومنها شبيه في وصفه بمصر لتثبت الإلهة وعملها ، فاسمها واسمها مصري .

واللات مثلا ، هي معبودة مصرية ، اسمها المصري شبيه بالاسم العربي ويرمز بها في مصر إلى العصاة ، حين يذكر في العربية أن الاسم من لت السويق ، المتخذ من الحنطة والشعير .

وقد توفي هذا البحث الأثري المصري المرحوم أحمد كمال باشا . ولا يتسع المقام للخوض في شيء منه هنا ، لكننا نكتفي بالإشارة إلى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية على أساس أقوى من مجرد الخبر الذي تعرضه الروايات العابرة الشائعة . ونحن نتجه إلى الناحية الدينية في البلدين بخاصة ، وهي موضع عنايتنا هنا .

ولا نعرض كذلك لشيء من أخبار تلك الصلة بين البلدين في العهد القريب من الإسلام . ولكننا بالنظرة العامة نشعر في اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناتجة من الجوار ما يمتد إلى جذور عميقة في حياتهما . ويحصل لهما من الروابط الدينية والاجتماعية مع بعض الفروق المقصودة باعتبارهما جارين متقاربين على جانبي بحر واحد . كما نعلم .

ولعله ليس من البعيد أن نجد الصلة بين هذا المركز الديني الهام في الحجاز وبين الجزيرة العربية وبين معاملة هذه العرب ، ت الحياة نتيجة المخالطة القوية ، بواسطة الأمن . وهو حصار تكبير به بالأسرة في نوع الاتصال بين مصر وبين عهد الإسلام وبعثته الأولى ، لنرى أن الإسلام لم يكن دعوة غريبة على مصر ، ولا بعيدة عن جوها وبيئتها الدينية ، على ما ذكرنا إليه .

وقد كان لهذا الجوار أثره في أن وجهت الدعوة الإسلامية في مصر برسالة من محمد نبيه إلى المقوقس أو — قيرس — حاكمها السياسي ورئيسها الديني ، في السنة السادسة من الهجرة . وكان الرد على هذه الرسالة من خير الردود على ما وجهه الإسلام من رسائل إلى الملوك والحكام حوله ، إن لم يكن خيرها . وتتوسع المصادر العربية في وصف تلقي المقوقس للرسالة ، وسؤاله حاملها في خلوة خاصة ، عن صفة رسول الإسلام — ص — وعلائم ظهور الدعوة الإسلامية ، وانتظار ظهورها وظنه إلى حد القول بأنه سيترك بساحتهم هذه — مصر —

وإن لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت الروايات الإسلامية قال الهدايا مرسلة ، والرد الحسن يكفي في وصف تقبل المقوقس لهذه الدعوة .. وسواء أكان هذا التقبل الحسن نابعا من الرجل ، أم كان حصيلة تقبل الحياة الدينية فإنه يعطينا على كل حال ... وصف في ملامح الشخصية

مصرية ، من سمة أفقها الديني مع كثير من الواسعة في حياة الدين الاسلامي

ولعل مما يؤيد هذا المعنى أيضا ما نسوقه المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة في رحلة له الى مصر قبل أن يسلم ، قد تحدث الى المقوقس بشأن صاحب الدعوة الاسلامية الحديثة في بلاد العرب ، كما تحدث الى أسقف قبطي بهذا الشأن ، ثم رأى المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره عن آخر الأنبياء ، النبي الأمي العربي ... الخ

وهي روايات ، ان لم تصح كلها فان بعض دلالتها على ما كان في البيئة المصرية من علم بالشئون الدينية ، يؤيد ما وصفت به من أفق واسع في التدين

ثم لم تمض بصحة عهد طويل من هذه الدعوة النبوية حتى جاءت دعوة الاسلام متوجهة ... فأقامت له دولة دينية في مصر ، بعد ما كان من وقائع الفتح التي لم تستغرق وقتا طويلا .

ولا يبعد أن تكون قلة من مصر القبطية المتدينة ، المنتبهة بالأديان قد كانت لها مشاركة في حياة الدين الاسلامي ، خارج مصر ، في عهده بالحجاز ، ثم في مصر نفسها ، على عصور مختلفة

على النحو ... بين صحابة الرسول ... عدد ... من وجد منهم بالقبطي ، مثل جبر بن عبد الله ... سنة ٦٣ هـ ... الذي نعت في كتب الصحابة بالقبطي ، ويروى السيوطي أن القبط تفخر بأن منهم من صحب النبي ... عم ...

وفي نص من القوم عن هذا الصحابي القبطي أنه كان مولى للمقوقس جاء به الى رسول الله — صلعم — فبقي هناك وأسلم وصحب ... وان كانوا يقولون مع هذا أن منهم من رأى بعض وفده بمصر ... فهو على هذا ليس مجهولا ، قد هاجر الى الحجاز ... ثم عاد هو أو نفر الى مصر ، وكانت لهم فيها أسرة

ومن الصحابة المعروفين بالقبطية أيضا صحابي ذوى الصلة برسول الاسلام نفسه هو

أبو رافع القبطي مولى النبي — صلعم —

بأنه هو الذي ... في رواية — وليس فيما رأيت من أخبارهم عنه ما يبين مصريته ، أو سبب انتقاله الى الحجاز الا أن ... واحد هو رواية تهم ، في ... الاولى ، انهم يقولون كان اسمه أقزمان ، ثم غير الى أسلم ، أو ابراهيم أو ... صيغة التصغير التي كان يلقب بها

وعلى كل حال فان ... الذي عدته كتب الصحابة بالقبطي رواية لحديث عن النبي ... وعن عبد الله بن مسعود ، كما روى عنه أولاده ، وأحفاده ، وغير قليل من الصحابة

وان هؤلاء وأمثالهم ممن ... بالاسلام في عهده ... وكانت لهم مشاركة من مصر

وشيئها في تلقي الدعوة الإسلامية التي وجهت مصر منذ عهد مبكر

ثم نضيف مصر جهدها بالإسلام ، ونحته نسبته إلى الثقافة الإسلامية الخاصة في مدارسة القرآن ، والحديث ، و... بعض ... من العلوم الدينية عامة ... فاد مصر تشترك في ذلك رجال غير مصريين ، ولا يزالون يحترون بالقبطية ، عند الحديث عنهم بين المعدودين في حياة تلك الثقافة الدينية بخاصة .

ففي قراءة القرآن ونقله ، وتحرير نصه ، ووصل السلسلة في تلاوته نشترك معنى من وجوه القراءة السبعة المعروفين ذوي الأسماء الشائعة إلى اليوم ، هو القارئ

ورش — القبطي المصري مولداً ووفاة — ١١٠ هـ — ١٩٧ هـ ، الثقة الحجة في القراءة ، والذي ينعته أصحاب هذه المادة فيهم بأنه شيخ القراء المحققين ، وإمام أهل الأداء المرتلين ، وأنه انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية في زمانه . أخذ عن نافع بن أبي نعيم ... — في القراءة — خالفه فيه ... وكان جيد القراءة ، حسن الصوت ، لا يمله سامعه

ثم في ميدان الفقه ، ونجده مبكراً نجد بين العلماء ... من أصحاب الشافعي الذين ... فقههم هو

أبو حفص الأسود ... المصطي ... ٢٣١ هـ ... وسنه ... أبي ... ، ... صحب الشافعي ، وكتب الكثير من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من السنن والأحكام ... وكان آخر من صحب الشافعي موتا ... ونبغ في الفقه ... فكان ...

• • •

هذه وما إليها شواهد على مشاركة من مصر وبيئتها في تلقي الإسلام تلبيه مبكر الوقت ، ووضح المصدر ، ... الصور والتأثير ليحياة الإسلام عقيدة ، وعلماً دينياً

وهي شواهد ... مصر مع ما نعرفه من أن الكتاب ... في الموارد المختلفة يحوي بالقبطية من أهل مصر ، وقد كان رومانياً مثلاً ومع ما نعرف من أن المسيحية قد اعتنقها في مصر أخلاط من عناصر شتى ... ومع هذا وما به تمد تلك الشواهد مشاركة مصر وبيئتها وطابعها الديني ، الذي عرف مثله قريب ، لأن ذلك في التاريخ حضري ... ، ولا يتعين بلون من عرق أو جنس ... بوتقة تمزج العناصر المختلفة التي تستقر فيها وتطبعها بطابعها ، على قدر قوته وأصالته

ونحن لا نقصد إلا على مثل هذه الأصل فيما قررناه وقررناه من المبادئ الاجتماعية التي نرى فيها التفسير ... لشخصية مصرية ، والحياة مصرية ، في ... ، برغم اختلاف الأشكال وتصور ... الصفة ... عن ... من ... المصرية ... واتجهه

ثابته . وهو ما يرجح أن نجد القارئ صحته في هذا التعقيب الذي يحي شواهد عديدة ، واطرادا مستمرا .

ولكن ما هذه الشواهد المستمدة من الشخصية المصرية الاسلامية التي تشتمل عليها قصة تدين المصري ، وسعة الأفق الديني المصري — كما بينا — فاذا لا تنسى ما تحتويه من معالم الثابتة لتلك الشخصية . وأنها ستأتية فيما نقل من قصصه ، لا نعدم أمثلة في تدينها — ص ٥٣٦ — فهل تختلف هذه المظاهر في تلقي مصر للاسلام ؟ سترى الجواب فيما كان فعلا من

تحول .. في سريع

اذ انك تقرأ في تاريخ الحضري ، من حوادث سنة ٢٠ هـ أن صاحب الاسكندرية عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب سبيا كثيرا ، بعد فتحه مدينة وسكه ، أن يعطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من سبي . ورأى عمرو أن يستأذن عمر في ذلك ، فرأى عمر أن ما تفرق من سبي بأرض العرب تبلغ مكة والمدينة واليمن لا قدرة على رده ، وأما من في أيدي المسلمين بمصر من السبي فيخيرون بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . وافق صاحب الاسكندرية على ذلك قال ... فجمعنا ما في أيدينا من السبايا ، وجمعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ، ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، ثم نحوزه الينا ، واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم . قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغ منهم ، وقد أتى فيمن أتى به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال — القاسم : وقد أدركته وهو عريف بني زبيد — قال فوقفناه فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه واخوته في النصارى ، فاختار الاسلام فحزناه الينا ، ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفنا .

وأحسب انا لو أردنا أن نلتمس هذه التجاذب الديني في مصر منذ عرفت الاسلام لما وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية التي ساقها الطبري ، فهي تصوير مادي ونفسي قيم لهذا التجاذب في أرض مصر على اختلاف الأزمان ، ومع سلطان العقيدة الدينية او دائما وهذا التصوير في الوقت نفسه دلالة على ما نجده في شخصية مصر من عدم سرعة تحولها من دين الى دين ... وأنها في ذلك على نقيض ... من سكت أن تقول

* * *

ونعرف في الطبري ، من خبر هذه القصة نفسها ... ٢٠ هـ ... ما يلي

وحضر القبط الى عمرو ، وعلم عمرو أنهم يقولون ... أن العرب ... وأنهم ... عليهم أنفسهم ، فأراد ... ذلك لهم ، فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجزر فذبحت ، فطبخت بالماء والملح ، وأمر الأجناد أن يحضروا ، وأحضر أصحابهم ، وجلس ... وأذن لأهل مصر ، وجيء باللحم والمرق ، فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا ... انتشلوا وحسوا ، وهم في العباء ، ولا سلاح ، فافترق أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر فرأوا شيئا غير ما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا كدنا ، وبعث اليهم أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم ، ثم قال : إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت أن أريكم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في الحرب فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني ، وراجع الى عيش اليوم الأول ، فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم ، وبلغ عمر فقال لجلسائه : والله إن حربه للينة ما لها سطوة ، ولا سورة كسورة الحروب من غيره ، إن عمرا لعض . ثم أمره عليها وأقام بها .

وأحسب أن هذه القصة — مهما يكن أصلها — تمثل أبين التمثيل التنافس الاجتماعي بين العرب والمصريين ، وعواقبه وأهدافه ، حتى ما نجد أبلغ منها في عرض ذلك كله موجز دال ، وإن فيها من صدق التمثيل الصادق الإشارة ما يغني عن نظرة المصريين للعرب تلك النظرة التي تلمس عندهم في صدور التحول الديني أو الاجتماعي — إن لم يكن في بعثه — إن شئت أن تقول

وتعقب كل ما سبق من موجهات ملازمات نعمت الحياة في مرتبتها ، وكانت ثورات في مصر خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، وصدرا من القرن الثالث ، تارة من المصريين منفردين ، وتارة مع عناصر عربية شاغبة ، حتى أوفد اليها المأمون ... المعتصم ، ثم لم يكف ذلك ، واقتضى الأمر مجيء الخليفة نفسه ، من بغداد الى مصر ، وحصر المأمون فتن المغرب والشرق ، والبربر أيضا .

وكل ذلك ... التنافس الاجتماعي في سبيل ... على ... من هذا التحول ... شعب مصر ... في

أغانيهم إلى الإسلام ، وقد أنصت إلى جانبه ما نقل من مسيحيتها ووثنيتها الدفينة ، وما لها من أثر في مسيحيته وجاء أهلها في هدوء بطمأنينة من أثر صحبه ، ومنتهى اعتساف الانقلاب ، وما معها من مواريث لاهوتية وفلسفية من مدرسة الإسكندرية ، وأديرة الوادي

* * *

استقر الإسلام في مصر دون الفلسطينية البارزة ، الواضحة بمعالم الدينية ، على ما بيننا — أول هذا الحديث — وحسب هو بحسب التي ذكرناها في كتابنا واضحة — ص ٥٣٤ ، ٥٣٥ — بوجه حياة الإسلام في مصر بوجهها بها ، يسير حياة هذا الإسلام في مصر من حياته في غيرها ، ويتحدى التفكير في الإسلام ، كما يتحدى بعض كذلك بعناصر عن غاية الشيء هي التي أسهب بها في مجال لا يسمح المقام بأكثر منه . فنتحدث عن

روحية مصر .. في الإسلام

وتتجه في ذلك أول ما تتجه إلى التصوف ، الذي هو حركة سلبية عاطفية خاصة ، متصاعدة ، في حياة التدين البشري ، على اختلاف ألوانه ، وتتعدد صوره ، وترتد دياره حركة سلبية من دقة الحس الديني ، ورهافة الوجدان الاعتقادي ، لتمضي بالتدين إلى أعمق من التكاليف العملية ، والعبادات المرسومة ، وتتمثل روح الإيمان ، ودافعه إلى التفاني في معبوده ، واستلاء القلب بتمسه ، وحبه ، وحسب كل ما سواه ، و تصديه في كل شيء عن صنعه ، وهي مستدام لا تتم

إلا عن طهر ، تروح ، وتصعيد للقلب وتهذيب للنفس ، وتخلص من ترابيه الشهوة وتحلل من ظلام المادة . كما يعرف التصوف دونه

وقد كان للمصريين نصيبهم من هذا الاتجاه منذ ظهور الإسلام ، بما في كتابه وهدي نبيه ، من زهد مترفع عن الشهوات ، لا ينتهي به إلى زهرة الحياة الدنيا

ثم تقدم بعض المسلمين في ذلك من الأخذ بصور من الرياضة الخاصة في العبادة والعمل ، ثم إلى امتداد ذلك بتفكير روحي ديني ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء قوية التمثل في تفسير الكون والحياة والصلة بالله ، وهو تفكير لا يعدم تأثره بمذاهب تتجه من الفلسفة العامة ، والأديان القديمة ، من التصوف الشرقي أو أدنائه ، قد توثقت الرابطة بينه وبين الفكر الإسلامي ، حتى غاصت في بيئات كانت موائل له ومواطن

وما نحسب لا تحسب أن هذه الصورة العميقة من التصوف الإنساني ، أو التصوف الإسلامي ، لا تثبت حيث تمثلها في تلك الآفاق السامية ، بل تنحو مع الزمن حتى تصير إلى صور من الشكليات التافهة ، والمظاهر السطحية الجامدة ، يوجهها جهل مشوب بالدين وتستهوي العامة جميعها ، وتسودها خرافة وشعوذة ، تتأذى بها الدين والعقل ، حين ... وهو ما لن نستطيع ، ولا يجب أن نسير التاريخ ، أنا لا نعمد حتى نتحدث عن

عن التصوف . وعن أثر الروح المصرية في تصوف الإسلام ، فلا يمكن أن ننسب إلا التصوف في نشأته ، وفي نموه نحو الكمال إلى عنصر واحد من الأجناس .

* * *

وقد كانت مصر بما هي بيئة دينية عريقة التدين ، واسعة الأفق ، غنية بما فيها ، لم تكن هي بيئة فكرية أيضا ، فقد شاركت في جهاد الإنسانية العقلي ، وأخصبت ما حولها من أقطار ذات ماض فكري ، واتحدت منها ، وجمعت الثقافات والحضارات — كما أشرنا — كانت مصر تمثل أوساطا في عهد انتشار الإسلام بأنحاء الحبشة القديمة ، ذات تأثير واضح ، في بعث التفكير الروحي الصوفي للمسلمين

وفي مقدمة هذه العناصر الدينية والفلسفية جميعا ، ومشاركتها في نمو هذا التصوف وتطوره . ونحن نكتفي بهذا الإجمال لكان في ثقافة مصر ما يجعله وجيها من البيان ، قريبا أو بعيدا . وذلك لأن الزهد الإسلامي الذي جاء به القرآن ، وجاءت به السنة قد اتصل في مصر — خاصة — بمؤثرات دينية ، من الأديان الشرقية المختلفة ، وتعرضت مصر في عصور متعددة ، من الحروب والرحلات ، ووفادة الأمم المختلفة ، ونحو ذلك الأديان المتعددة في مصر نفسها ؛ من وثنية ويهودية ومسيحية

واتصل الزهد الإسلامي كذلك في مصر خاصة — بمبادئ فلسفية من الأفلاطونية الحديثة ، والفلسفة الدينية اليهودية ، والفلسفة الدينية المسيحية ، والمذهب الغنوصي ، وهو مذهب الفلسفي الديني الذي يستطيع أن نسميه مذهب العرفان ؛ لأنه يقوم على معرفة الله وحده

فكل أوساط وبيئات من النماذج الفكرية كانت الإسكندرية من أهم مراكزها ، وكان في مصر تأثيرات الفلسفة والدين ، وأثر الدين بالفلسفة ، وإليها هاجرت الثقافة اليونانية بعد سقوط عاصمتها ، وبعد انتقال طويل أصبح بين مصر وهذه الثقافة والحضارة

ومؤرخ الفكر الإسلامي يعرف جيدا أن المسلمين قد عرفوا فلسفة أرسطو نفسها عن طريق الأفلاطونية الحديثة التي تسربت بينهم أوسع الانتشار ، ومصر وما حولها قد كانت موطنا لتلك الفلسفة ، لم يوطن ما نشره لديه من التيارات الأخرى ، فلسفية ودينية . كما يعرف مؤرخ التصوف الإسلامي أن هذه الفلسفة نفسها كانت وثيقة الصلة بالتصوف والتصوف الإسلامي المتطور ، الذي تبدو فيه آثار تلك الروافد الفكرية والاعتقادية واضحة ، يعرفها الباحثون

ونحن نكتفي كذلك بهذا الإجمال من البيان اعتمادا على ثقافة القارئ العامة لكان فيه من ذلك ما يصح السبيل إلى إدراك دائرة ومكانة مصر على الإسلام في تصوفه الفني الذي هو شيء سماوي ديني فيه ، نكل بعد ذلك وراء هذه من مظاهر ... لأنه من الإسلام في بعض خطوطه الكبرى

فهذا مصري ... أو نوبي ... من احبيه كان تأثير ملامحه ... جسم ، لأنها ... من ... الحكمة القديمة ... لقدمه ، ... أصحاب ... الله ما ... على ... لا ... علم ما فيها من ... هو الحكيم الصوفي

ذو النون المصري — ت ٢٤٥ هـ —

تقول عنه المصادر الاسلامية إنه وحيد دهره علما وعبادة ، وحالا ، ومعرفة ، وأدبا وإنه هو رأس هذه الفرقة — الصوفية — فالكل قد أخذ عنه ، وانتسب إليه ، وقد كان المشايخ قبله ، ولكنه أول من فسر الإشارات الصوفية ، وتكلم في هذا الطريق.

ويعتبر الباحثون المحدثون عن ذي النون المصري هو أهم رجال الصوفية — على الإطلاق — فإن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف

ولو كان في المجال شيء من سعة لبينت من أقوال ذي النون المصري وأعماله ما يكشف عن التأثير الواضح للتأثير على التصوف الإسلامي من البيئة المصرية الخاصة ، بمذاهبها الفكرية من معرفة ، وبالمتداول فيها من معارف كيماوية ، وغيرها ، وبالنشاط التعبدي في صور مختلفة ... الخ ... ذلك كله يحتاج ... وحسبنا ما مضى برهانا على ما ذكرنا عنه ملامح الشخصية المصرية من ... الروحية ... في الإسلام ، بتوجيه تصوفه وعلائه .

على أن الصوفية ... يهيم ... في الوجد والأذواق والأحوال ، ... من ... معانيه ، ... فيها ... موسيقية ... في هذا ميدان الصوفي ، لحن ، ...

ابن الفارض — ت ٦٣٢ هـ — الذي يوضع في الطبقة الأولى ، من أصحاب الشعر الصوفي ، بما في كثير قصائده من جمال النظم ، ورقة الأسلوب وألفاظه ، وقوة الروح ، وسمو المعنى ، مما يقول الباحثون المحدثون عنه أنه من البعيد أن يكون عملا ... ، بل هو نتيجة ... أحوال الوجد الصوفي ، الذي يشبه ما يسمى في عرف علم النفس الحديث « الكتابة الآلية »

وكذلك قدمت البيئة المصرية ... الفني ، ... بالألباب ، ... التصوف ... الحب الإلهي المتفاني ... ولا ... من هذه في الروحية ... ولا ... على ما أشرنا إليه من روحية مصر في الإسلام

* * *

والحديث عن التصوف ... القول في ... التسامح ... الذي هو ... والتعرف به على الوحدة ... التي ... القرآن ... من ٥٣٠

وفي هذا النحو يمثل القديس كيرلس
شخصية مصر وصبغة القسمات الحبشية
بمواقف تمثل الاحداث ، ويمضي في التاريخ
محطماً كل شيء يصده ، فهو في تاريخ
الرهبنة مسيحية ، أما الرهبنة ... فهي
هي في تاريخ التصوف الاسلامي والتصوف
العالمي ، هي في كليهما ... بموت
التدين التي استغرقت فيها منذ قديم الزمن
لاتماس التجرد الروحي ، والتبتل النفسي
والخشوع المبني ، واستشفاف أسمى معاني
التدين وأثمن أغراضه ... ومن الرهبنة
والتصوف مصادر لشخصيتها ، ومن سماتها
واصالة ، لا يسهل على الناظر الثاقب تجاهلها
أو تناسيها ... وللقديس في مثل هذه مكانة
الخاص

ويعتبر الحب بالرهبنة ، على الزمن
وامتداده ، كما يعتبر بالتصوف كذلك ، فيكون
بينهما من السر والفساد ما يكون ... والتقى
منهما الحياة بما لتلقي به ... وهو ... يشير
الى شيء منه في الكلمة عن الدين والمجتمع
المصري

وفي الحق أصعب من روحية مصر ... في
الاسلام ما يهيء لأسباب عامة كذلك من

حيوية مصر ... في الاسلام

ففي هذه ... التي قاد حياتها الاسلامي
... وفي تاريخها ... التي ...
... وقد ... في هذه ...

تكون الحياة الدائمة ... وأقل ما شهدنا
وفكره سائدة ... وأيضاً وجد ذلك في عرب
... وفي موضوع ... تشخص أحداث حتى
... تلك ... مرحلة ، فعالم
الحياة في مصر ... بعد ... كان هذا
الكوكب ... قاد طرق محصورة الى الساعة
التي أتت فيها ... فيهم كل حقبة كانت
دالة على مسرح هذا التاريخ مائلة ظاهرة
ثم ... تخلفت أمم
قديمة دالت يد على محصورة ، بعد أن بعثت
دورها القصير أو الطويل ، فالرومانيون
والبيزنطيون والأشوريون الكلدانيون
وسواهم قد قاموا بنصيبهم من المشاركة في
الحياة ، ثم ... فلا أثر ... حجبهم عن
الانظار ، وخفتت أصواتهم ، وعبر لشأنهم ،
فاذا بلادهم أقاليم مهملة ، أو مناطق مغمورة
لا تحصى فيها دولة ، ولا يعتبر لها كيان
على حين ترى مصر في قديم ... تاريخ ،
ووسيطه ، وحديثه ، تقدم شعوب المجال
الحيوي الصالح ... على الشباب والنهوض ،
في مصر ... ومصر ... وعاصمة مصر ... القرن
يوم كانت تحمل مشعل الحضارة ... دولة واحدة
تنافس أمهات العواصم ، التي دارت حولها
الدنيا ... لا يفرق حالها مع روما ، عن حالها
مع بغداد ... ولا مصر عن مركز ... الاستانة
... الزاهرة ... وتحمي الخلفاء ... ومصر
السلاطين ، وتحد الطامعين من الفرنسيين
للاستقلال ... عن العاصمة الكبرى

ما يجيء بهم لتدوينه القوية ، ومعالجة الصحيحة ، وتجري الأمة في ذلك على نسق متماثل ، فلا تكاد تكون موحدة في مسيرتها فمن الموحدين والخلافة في بغداد في القرن الميلادي كمحمد علي وخلافة الإسلامية في القرن التاسع عشر ، ترسم سبيلها لأهدافها سياسة مستقلة هم مصر ، ويمضون هم بمصر الخلافة الكبرى ، ويراعون تصدع بها مصر ويجد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفي كل حين مصر في الميدان التاريخي ، وتلعب العبقرية لأمة مرموقة ، فعالة مؤثرة دائمة حيوية

وتلك الحيوية الزاخرة هي التي نحاول أن نلمح شمسها الدائمة في حياة الإسلام بمصر ونفسر — بين يدي ذلك — ما في سمة التدين من مرونة في معالمه ، وجنوح في لين ، وسمو عن التعصب ، بل شبه إنكار بالمصير ولكن ويجددون مع هذا في الإسلام نشاطا حيويا ، يتسع لاستئناف النشاط ، وتجديد النظر ، واستدامة النمو ، واستمساك الحياة بالمعنى الجديد ، والتصرف الحر ، الذي يحتفظ للأصول الجوهرية سلامتها ، ويصونها من عوامل التحلل والجمود . وهذا هو الله جدير وإن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها وهو معبر عن تلك المحاولة التي

فكرية في العالم الإسلامي ، وأعانت على الطريق الإسلامي الحديث مع الأجيال

في حياة هذه مصر — مشاركة الذي يجسده في البحث ومن أجل البحث

وهذه المحاولة كل قرن صورة من صور البحث الذي آمنت به مصر ، فكان من الإسلامي أن قدمت جمهرة من رجال الدين وأشهرهم مجددي قرون متعددة ، بين الذي يتصدر على رأس عشر قرنا من حياة الإسلام

ويبدأ العادون من القدماء ، ومحدثي عمر بن عبد العزيز ، ربيب مصر ، وساكن حلوان ، ويمضون فيعدون حتى يكون الكثرة — أو الأغلبية اليوم — ممن نشأتهم مصر ، من وجوه رجال الدين — ثم ينتهي المعدلون إلى أن يعدوا مجدد القرن الرابع عشر الهجري في الإسلام مصريا في العصر الحديث

ولا نجد مجال من النصوص التجديد والمجددين

كذلك ... وجب هذا تلك المعالم العامة التي يجيء مؤرخ لعصره أن يتحدث عن هوية مصر في الإسلام

ونمضي بعد ذلك الى لمحة من خصائص تدين مصر بالإسلام ، وما تفرد به مصري

اسلام مصر .. بلا نحل ولا مقالات اعتقادية

ويجب أن نرد هنا — كما قدمنا — الى خصيصة أصيلة لمصر ، وطبع بها مألوف ، بعد الذي عرفناه من ملامح شخصيتها الدينية فنجد أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق الديني ، المستمسكة بجوهر الدين الذي تأخذ به وروحه — ص٤٣٤ ، ٤٣٥ — نجد أن مصر الذي هذا شأنها — كما عرفنا — لم تهتم كثيرا بالجدل الاعتقادي في الإسلام ، ولم تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل وأرباب المقالات الاسلامية ... وقبل أن نمضي في بيان هذه الظاهرة وتعليلها نقف أمام

سر تاريخي ... ذلك ما يذكره بتلر صاحب «فتح العرب لمصر» عند حديثه عن مقاومة المصريين لما أراده هرقل من حملهم على مذهب الديني نحو قسرا بطاركته ، وأنهم تلقوا ذلك بكراهة شديدة لم تسبق بهذه الكراهية سوابق ... وقد كان استقلالهم في أمور الدين كبيرا ... التعلق به نفوسهم فانهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ، وأن الاستقلال في أمر الدين قد تمسكوا من أجله وجاهدوا في سبيله ، ثم صبروا عن ذلك في وقت من الأوقات ... محن خلقدونية ، وكانوا هم الصابرين على طوع ذلك ... لا تعرف حسبه فلو صبروا ولا يحجمون عن بذل كل شيء في سبيله مهما يطل ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعا »

هكذا يصف المؤرخ ... سر تاريخ هؤلاء المصريين — أو القبط ان شئنا — هو أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ، و ... عرفوا الاستقلال الديني ، ولاقوا من أجله ولم يحجموا عن بذل أعظم شيء في سبيله

وعلى المؤرخ ... لنا شيئا للوسائل معروفة ... تسرتم بها تاريخ لغير حالا ... معرفة محددة ... تزعمون به أن لم يعرف هذا الاستقلال الفرعي منذ آخر عهد الفراعنة ... ولم تحكم نفسها منذ ذلك العهد ... ثم ... منذ اخترتم وجاراكم فيه من ج ... حتى اليوم ، وبعد ذهاب ... يرددونه

ولكنا بعد ذلك لنذكرون خاصة ظاهرة جلية من خصائص هذه البيئة المصرية ، وتلك هي ملامحها بتكوينها البيئي المتميز ، المتجدد ، بتطور مواصلة من الصحراء والماء ، لأن تكون مهدا لوجود المستقر والدولة المتمركزة والقومية المتماسكة وتعطيه بحاصية الفطرة نفسها ، ولن تكسبه لأهلها

من خصائص معنوية وهبة يهبها لها القدر ذات الشخصية في تاريخ الأمم التي تتصف بها ، وبدوام ... كما أشرنا آنفا ... وبعد ... والشخصية ... وكانت مصر بهذه الشخصية عجيبة تراها في كل الامبراطوريات التي وضعت حبلها بها ، وظلت على مسرح التاريخ لم تختف منه أبدا ، بل لم تسقط عنها ظلال تلك الأضواء على ... ومميزاتها

فحديث التاريخ الصريح أن مصر ... استقلال بطبيعتها ... واحتفظت بذلك من أكثر الناس شعورا بهذا الاستقلال ... وليس هذا معناه الذي وصفت ... روائع في المقاومة ، الا نوعا من قوة تلك الشخصية التي لا تتجزأ ولا ينفصل منها جانب عن جانب

وحديث عن المصريين من الحاكمين بمصر ليس الا ... أو ... باسمهم ، لأن تلك العهود لم تعرف القومية الاقليمية ، والوطنية ... كانت مصرية وشملها عصبيات من غير هذا اللون ، هي في الأمم الأخرى عصبيات دينية أو سياسية ، تلونها أمة غالبة حيث كانت ظروف الحياة المادية ومواصلاتها تتيح لأمة واحدة أن تحمل شعلة الحضارة ... حتى ... مستعدة ... لها أمة أخرى ... لم يقف المؤرخ ... طويلا ... على شيء من ... تاريخ المقاومة المصرية للمذهب الديني الواحد ، ... وقفت هذه أمام ... الذي ... إلى

... من ... بهذه الظاهرة ... بعد أن نصف ... مصر الاسلامية فيها ، ... على شواهد عليها

ففي ... الذي ... الخلاف ... في القسطنطينية بأمر ... وقاومته مصر بمقاومة شديدة ... من أمر أحد رجال المسيحية فيها ، ... بالقار المشتعل ، وتسيل نارها على جسمه حتى يسيل دهنه من جانبه إلى الأرض ، ولكنه لم يتزحزح عن إيمانه ، ... ثم وضع في كيس مملوء من الرمل ، ... في البحر ، حتى صار على ... من الشاطئ ، ثم ... عليه الحياة ... ثم ... ذلك ثلاثا ، وهو يرفض في كل مرة ، ... به في البحر ، ... غرقا

ولك ... في هذه مبالغة ، أو ... بل لك أن تعده ... لكنه على كل حال ... الدينية والاجتماعية ... من ... الذين ... أنفسهم ... يجدونه من شعور ديني ، ... المقاومة ... ، ... هذا الشعور في ... هذه المقاومة ... ولكنهم ... ولا ... الذي ... شهيدا ... هو ... مسيحي

... أكثر من مائتي عام ...

الأحداث في ميدان الديني بمصر دار الفتنة المسماة بالمحنة عهد المأمون سنة ﴿ هرقل ﴾ في عرض مسألة اعتقادية هي قضية خلق القرآن المعروفة التي نطقت بها وبتحقيقها بعد عصره. ويكتب الخليفة الواثق إلى الولاة بالامتحان فيها، كما فعل المأمون، ويجيء الأمر إلى والي مصر، فامتحن البويطي الفقيه المصري، أكبر أصحاب الشافعي، ت ٢٣١ هـ — وامتحنه الوالي فلم يجب، وقرر مخالفته، وكان الوالي حسن الرأي فيه فيقول له: قل فيما بيني وبينك، فيرد عليه البويطي: إنه يقتدي بي مائة ألف لا يدرون المعنى. ثم يحمل البويطي من مصر إلى بغداد، على بغل، في أربعين رطل حديد، في غل في عنقه، وقيد في رجليه، وبين الغل والقيد سلسلة، فيقول: لئن أدخلت عليه — يعني الخليفة — لأصدقنه، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم. ويسجن في هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة، إذ كان مغلقة ساقيه، مشدودة يداه إلى عنقه، ويموت البويطي في سجن بغداد، في القيد والغل، كما مات أخ له هو ... في السجن ... .

وقد شئت في أن عامة كانوا ... مثل هذه الاضطهادات، وقد أتوا على ... مثال ﴿ هرقل ﴾ ﴿ المأمون ﴾ نكبي الذي ... هو الجانب المهم. وإن مصر لا تلجج في البحث الاعتقادي، ولا سولاه بالعقة أو كانت تيبيء على ... وحسبي تعليل ذلك بطبيعة مثل هذه الطبقات التي سارت مصر في التحدي، على نحو ما سمعنا في حادثتي، من دينين مختلفين، في زمانين متباعدين، تركتا إن شيئة في هذا ميلا خاصا.

ومن نظرت النظرة العامة إلى موقف مصر من مقالات الإسلاميين الكلامية على اختلافها تخرجت بالنتيجة التي صدرنا القول بها، وهي عدم الإقبال في إسلام مصر على هذا الجدل الاعتقادي، وعدم رواج النحل الإسلامية في مصر، مهما تشتد غاية ناشطيها في غير مصر، ومهما يكن من تلك النحل فيها والخصومة حولها، ومهما تساعد الظروف العملية سياسية أو غيرها على رواج هذه النحلة أو الفرقة أو المقالة، ومهما تظفر فعلا بشيء من ذلك في مصر، تحت تأثير العوامل المختلفة، فإنها لا تلبث أن تفتر، ولا تترك من الانتصار بها ما يسم مصر بسمة خاصة، في المقالات الكلامية، أو يجعلها وطنا خاصا لفرقة من الفرق، كما كانت العراق مثلا مركز التشيع قديما وحديثا، أو كانت اليمن موطن الزيدية، أو ما إلى ذلك. بل لا تلبث مصر أن تلوذ بالمعنى الجامع ... ، ... بالجوهر الخالص ... من الدين، وكانت نحو ... الديني دون

الاندفاع الحاد ، والتحيز المسرف لفريق دينه دون فريقه

ولعلنا واجدون فيما يلي من ضوء على الظروف المصرية في الأمور المذهبية ، والأحداث التاريخية الخاصة ما يؤيد هذه السمة المصرية في الاعتدال والوسطية السمحة في ادراك هذه الشئون المذهبية والتديين بها ، وعدم الاندفاع الكثير الى الاطراف المتطرفة فيها

* * *

وفي عرض موجز عابر للنظر الى بعض الفرق الاسلامية في البيئة المصرية ، ومن كان من أمرها ، نختار لذلك أولا

نحلة ذات صفة سياسية واضحة ، فان لها بحكم بعدها من أسباب التأثير القسرى قدر كبير ، فقد حشدت السياسة دولها ، وحشدت القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف وسائل الترغيب والترهيب ، وتلك هي

التشيع ، فقد جاء مصر أصله وجذوره المسمى ـ أى مبدأه ـ مهما تكن شخصيته ـ حتى طورد في خارجها ، فاستقر بها ، وجعل يعمل لما يعزى اليه من مذهبه الاسلام ووحدته مستعينا بمختلف الوسائل ، ومن ذلك حديثه عن وصايته على ، وأخذ عثمان الخلافة منه بغير حق ، فكان من بعض متعاطفيه عثمان ـ كما هو معروف ـ وبعثه الاحتدام الى التشيع لعلي ، لكن مقامه ما عمرو بن العاص لمعاوية ، واطعامه اياه مصر طعمة حتى الأمر بسبب معاوية والصحابة ، وبعث سوء التشيع ، ومظاهر ذلك حسب غير

ثم نفوذ الأموية حتى نهايته ، وفي عهد العباسيين كان يخرج بمصر علويون ثم كانوا يظاهرون الخارجين على أبناء عمهم العباسيين ، فتكون نتيجة هي اخراج العلويين من مصر الى العراق ، فيد يسره ويستعيدون فيخرج الأمر في مصر فلا يلقى سوى ضيمه ، ولا يركب فرسه ، ولا يسافر من الفسطاط الى قرية من أطرافها ، وان يمنع العلويون من اتخاذ العبيد ، الا العبد الواحد ، وان من كان بينه وبين علوى خصومة قبل قوله في العلوى ولا يطالب ببينة الخ

ثم جاء العصر الطولوني فثار الحديث عن عصبية أهل البيت وبنقم الناس بلبأنه حتى يرجع القوم به ، فيقوى أمر الشيعة بمصر شيئا ما ، لكن لا يبصر ذلك ولا يرداد

فلما منتصف القرن الرابع الهجرى يهيج سوداء على الناس منكرين ذلك ، منشدين فيه ، حتى يتساءلون لدى يلقاهم في الطرق من خالك ؟ فان لم يقل خالى معاوية بطشوا به ، وكان في مصر من يهتف على باب المسجد يوم الجمعة معاوية خالى ، وخال المؤمنين ، وكاتب الوحى ، ورديف رسول الله ـ صلعم ـ وكان المشيعون يصدعون

وبعث الفاطميون من نصرتهم الخاصة ومحدثون في مصر كلها النسبة التي صوم بدولة

مصر [illegible] أسها [illegible] [illegible] من
[illegible] ، و [illegible] مصر عهدا من التشيع
[illegible] ، بعد [illegible] الدعوة [illegible]
الخاصة بأبواب القواطع [illegible] ، [illegible]
[illegible] الإسماعيلي ، [illegible] من [illegible] والرجال ، مثل
[illegible] اليوم [illegible] الحديثة أو بأكثر
منه . ويحدث التاريخ عن رجال [illegible]
[illegible] ، والسري منهم والعلني
الخ مما يستهلك [illegible] كتب لهم ، وكتب عنهم

وهكذا يسود التشيع في مصر ، ويجرى
العمل على الفقه الشيعي ، فمثلا لا يرث مع
البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ، ولا جد ،
ولا ابن أخ ، ولا ابن عم . [illegible] في ذلك
عداوة الفاطمية [illegible] — [illegible] —

ويمتد ذلك إلى الأعمال العادية في حياة
الناس الخاصة فيصدر مرسوم حكومي
بتحريم بيع شراب الفقاع ، وضرب من يبيعه
لأن عليا كان يكرهه ، وإلى مثل هذا ترجع
أوامر الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من
الأوامر بتحريم الطعام أو الشراب

ويبدو أنه كان يسب علنا على المنابر
يكتب سب الصحابة على أبواب المساجد ،
وفي داخلها ، وعلى الدكاكين بل على المقابر
وفي الصحراء ، [illegible] ذلك بالأصباغ
[illegible]

[illegible] الدولة الفاطمية [illegible] كل هذا
ولا يمضي كثير من الزمن حتى [illegible]
خلفائهم التي كانت في مكان جامع الحاكم ،

وكانت [illegible] من [illegible] ، [illegible] عظامهم
[illegible] في [illegible] . و [illegible]
[illegible] أحدثها [illegible] الدولة
وأنتج [illegible] أسباب التشجيع والاستمرار
[illegible] مقالة [illegible] من مقالات الفرق
الإسلامية . ولكن مصر فيما رأينا لا تلبث
[illegible] هذا ، ولا [illegible] شيئا في الدين

ويزيد الأمر جلاء أن نلمح في مسرحه لونا
آخر من ألوان النزاع الاعتقادي غير السياسي
في أصوله وهو

الاعتزال فإنه مقالة كلامية ، فلسفية ،
[illegible] في أصولها كالتشيع ، وإن
[illegible] في السياسة [illegible] . والاعتزال
— كما نعرفه — قد عد أركان الحياة العقلية
الإسلامية بدعوته إلى احترام العقل ،
و[illegible] من النظر ، كما هو أركان الحياة
الإسلامية [illegible] مدى طويلا ، إذ جعل
[illegible] عقائد يلزم الناس بها ،
ويضطهدون أشد اضطهاد مخالفيها ، كما
[illegible] المأمون وخلفاؤه بعده في مسألة خلق
القرآن ، التي هي المحنة [illegible]
الناس بسببها العنت الكثير ، وكان منه في
مصر ما سمعت قريبا من أمر البويطي الفقيه
الصعيدي حتى [illegible] في التاريخ بعض
[illegible] على [illegible] .

[illegible] كان [illegible] الاعتزال في
مصر [illegible] أنه [illegible] ، [illegible]
بالاعتزال [illegible] عن [illegible] ، لأن

السياسة قد تضعف منه . وقد جذب القاهرة
الى مصر من الخارج . وفضلا عن ذلك نستطيع
ان نعتبر ان لم تأخذ في مصر بنصيب تقاس في
شيء الى ما كان له في بغداد ، وغيرها من
جدل وتأليف ومؤلفين ومجادلات
ومجادلات . وكذلك تلبث مصر اسلامية
بلا خلاف اعتقادي هام — ولا فرق ولا
مقالات رائجة

* * *

والمذهب الاعتقادي في الاسلام بما كان صدى من أصداء الفلسفة منطقية ، ونظريا من صدى الفلسفة الميتافيزيقية النظرية التي تلقاها العرب عمن سبقهم ، وكانت في تقدير بعض المفكرين مشغلة للعقول عن الروح العملي الجاد ، وسواء أكان الرأي حقا أم كذبا ، أو لا ، فإن صلة علم الكلام الاسلامي بالفلسفة قوية واضحة . ومن هنا نستطيع أن نفسر بعد مصر عن الجدل الكلامي وصلته — الى حد غير قريب — بنظرها الى الفلسفة ، وقلة نشاطها في ذلك . وبعض القائلين تعليلات في هذه الظاهرة تستحق مناقشة . ولكن يبدو من عملنا الأول هنا أن نؤرخ مركز مصر الفلسفي في العصر الإسلامي . فنترك ذلك كله للناظرين في الحياة العقلية ، من هذا التاريخ الحضاري ، شاعرين بأن نظرة مصر الفلسفية الى الفلسفة لم تكن نظرة الجفاء لها ، ولا الفهم . وكذلك ـبه من طابع حضارة مصر العام . ومن الظروف الخاصة في مصر الاسلامية ما يصعب عنده التخصص

ونرى الفرق في خصائص ميلاد مصر أن يتحدث عن

مصر ونزاع الخلاف الفقهي

ونعرف أن هذا الخلاف الفقهي في استخراج الأحكام الفقهية مما يقتضيه اختلاف مطالع البيئات ، التي عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم كما نقدر أن هذا الاختلاف رحمة — كما يقولون — ولكنا في الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد منذ عصر مبكر ، حينما ظهرت آثار هذا الاختلاف التشريعي ، ولا نشير من هذا الى أكثر مما يذكر من سبب تأليف « مالك » مجموعة الحديث الفقهي المعروفة باسم « الموطأ » ، وأن طلب تأليفه من الخليفة العباسي الذي طلبه — على اختلاف الرواية في تعيينه — إنما كان تطلعا الى هذه الوحدة الشرعية ، وبرماً بآثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا في رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصحابة . وفي الحوار بين الخليفة ومالك ، ورغبة الخليفة في حمل الناس على الموطأ .

وهذا التطلع الى وحدة مركزة في التشريع الاسلامي قد بدت حوافز التشريع بعد ذلك حسن أثره ، اذ كان بين الفقهاء من سمحه

بالخلاف وعنفه ما كان منه أبو حنيفة ببغداد القوم ويتحرجون بصوته من كل منهم على صاحبه حتى لا يسمع القاضي في هذه موجز شيء من تفاصيلها ويخطئهم الفقه والكلام أحيانا للتكافؤ الفني بين القديمة والحديثة وفوق كل ذلك كانت تستفيض حتى شعر أبناء عصرنا هذا بالحاجة الماسة إلى التقريب بين المذاهب، وكانت تهمهم في ذلك التقريب محاولة تأخذ طريقها كما اشتغل بعض المصريين بجمع ما يسمونه الفقه الموحد يرجون رجوع المسلمين كلهم إليه

وكل أولئك كان بين الآثار الاجتماعية غير محببة بمذهبيته الفقهية، وعنيت الصفوة مصريه في العصور السابقة ضربا من دقة الإيمان وسلامة الفطرة، ونقاء الذهن

وبعد هذا البيان نستطيع أن نلخص عمل مصر في هذه الناحية إذا ما وصفنا موقفها من الخلاف الفقهي

* * *

وما عرفناه عن السلوك المصري في الخلاف الكلامي يهيء للرأي في شعور مصر نحو الخلاف الفقهي، منذ أول شيوع هذا الخلاف

لقد عرفت مصر المذهب المالكي، لتقدمه وصلته بدار الهجرة، ثم وفد عليها الشافعي في القرن الثاني الهجري، وكان أصحاب من هذا الرأي حفظا ما دونه على محمد بن الحسن الشيباني وصيرورته كتبه ... محمد

به الشافعي فكان له حظه من النظر والقياس الذي لم تعرف مثله مصر ... مصر من بعد لهذه الوفادة من حظ المعرفة، فكان قاضي مصر ... صحيح بالشافعي ... تأكد ... هذه سلامة وأمة واحدة، ورأي واحد، فتعرف بيننا، والقمر بيننا الفجر، فرق الله بين روحنا وجسدك ومهما يكن لقول هذا القاضي من أسباب شخصية أو غيرها فإنه يدل على رغبة البيئة في هذه الوحدة في الأمر والرأي، وعلى أن القاضي عبر بما يعاب به قائله

ومع ذلك شيء من ذلك لم ينتشر المذهب الحنفي بمصر، لأنه مذهب الرأي الواضح، وإن كان المقريزي يعلل ذلك بأن مذهب أبي حنيفة يبيح استبدال الأوقاف، فثقل أمره على أهل مصر وسنشهره ... وهو تعليل غير كاف وحده لأن صاحبي أبي حنيفة لا يبطلون الاحتباس، والعمل عليه يجري على قولهما

وعلى كل حال فقد هيأت الشخصية المصرية التي عرفت خصائصها للكراهية للجدل، في أي لون منه، وتزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما تقصه علينا التواريخ من شعور الشعوب بعد تلقي الاختلاف وتأسفه بأن سوفي تزوجه بهذه المذاهب المختلفة بصمة تسوم بها نعمة جليل، وشعوره هو من تفقه مصر الذين، وفي مطلع القرن السابع الهجري ... الحمد ... لو ... الله تعالى بعد الأئمة الأربعة في هذه

الزمان مجتهد عارفاً بمذاهبهم أجمعين ، ليس يتبعه مذهب من الأربعة بعينه عند شهادته في المسألة كلها لا عالم الزمان ... فاتفق رأيهم على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقي الدين السبكي ، ولا يتعدى سواه ، والسبكي هذا هو الذي انتهت اليه رياسة العلم بمصر ، وقالوا ما جاء بعد الغزالي مثله ، وقال الصفدي إنهم يظلمونه بهذا ، وما هو عندي إلا مثل سفيان الثوري وبعض العلماء رشحوه لهذا التوفيق لصلح لأن نزعته نحوه معروفة

وإذا لم يكتب لهذا الميل الى التوفيق مصرياً أن يتم في هذا الشاهد فإنا نجد هذا الميل مصري للتوفيق ، بل الفكرة فيه يتجه اليها صوفي مصري بلدي السبكي الصوفي هو الشعراني صوفي أيضاً ، وهو أصيل في الفقه فوق كونه صوفياً من طراز الأولى وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة ، كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ، ويقول المؤرخون العربيون انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظير وحسبت به تركيه بين البيئة المصرية الى هذا التوفيق الفقهي ، الذي لا يسمع فيه لهذه العصور صوتاً أجهر من هذا الصوت

* * *

وبعد ذلك يبدو كلام مصر يسمى الحروب ... الاخر ... في وحدته التي فاتت التصوف ... والديانة الذي ... للحس وفي فقهه الديني . نعم عن الخلاف المذهبي لفترة ... ودعا الى توحيد ... حال ... وجاوبه فعلاً ... وكل أولئك يؤيد ما نشاهده من ملامح الشخصية المصرية الدينية في نص مدينتها ... وسعة افقه وإدراك الجوهر الصافي للدين

* * *

على أنا نجد للنص الدلالات الاجتماعية العجيب موقف مصر من المذاهب الفقهية ، ونظرتها الى الاختلاف والتحزب لا ينسى مع كل ذلك ان هناك عوامل سياسية واجتماعية وغيرها تؤثر في انتشار المذاهب الفقهية وشيوعها ، فتستقر المذاهب غير قليلة في مصر أو يسود مذهب منها على هذه الاعتبارات ، أو تقدم البيئة المصرية الفقهية أئمة ووجوهاً من عيون مذاهب مختلفة ... أو يكون في مصر قضاة ممثلون لتلك المذاهب على اختلافها ... حدث كله وما اليه لا يؤثر على ما اطمأننا اليه ، من انصراف الروح المصرية الاجتماعية الى تلك الآفاق العامة ، والعادات السيدة من الترفع عن الخلاف ، والدعوة الى الوفاق ، في الأسلوب الاعتيادي والعملي ، ... من كلامها وفعلها ... ولا تأثير ... على ذلك ، ولا يطال بهذا ... وبعض مؤرخي الفقه ... الى وصفه ... مصر ... فيها مذاهب الفقهية مختلفة مع كل هذا الذي ... ان ... الحصار في نظرته التكاملية العامة ... والكل ...

والآن وقد بينا اتجاه مصر ، وآمالها في الحياة الإسلامية الاجتماعية ، وحنينها للإسلامية الصحيحة ومن عدة سنين ذات الطابع المسيحي الواضح ، الآن يسير بشرق ، توجيه مثل هذه الحركة الشعبية السلمية الى

الإسلام والمجتمع المصري الشعبي :

هذه العصور التي نتحدث عنها من القرن السابع الميلادي الى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي أنها عصور تسودها النزعة الدينية ، وتسيطر الروح الدينية في توجيه الحياة وتدبيرها . ومصر هذه بخاصة قد عرفت في هذا الروح الديني القوي ، وذلك التعمق الروحي في التدين فلا غرابة في أن يكون الدين في تلك العصور مثيرا قويا للشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .

* * *

وقد كان المجتمع المصري يتألف من مسلمين ، وذميين ، من أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، كالنصرانية واليهودية ودون أن ننظر الى نظام الذمة النظري في الإسلام ، ومدى تطبيقه ، نستطيع أن نقرر في ثقة أن النظام الإسلامي للذمة لم يكن دائما وفي كل حين هو النظام الواقعي المطبق في الحياة ، إذ لابد من وجود الفرق — رغم كل شيء — بين المثال المنشود والواقع المتحقق والتاريخ الحضاري [illegible] نحو [illegible] ، وان لم يحقق التطبيق المثالي

ظله في الدولة على حسن [illegible]

وبملاحظة الواقع العملي نجد أحيانا مختلفة بعضها لا يحقق المثال الإسلامي لحياة الذميين ، وبعضها يجاوز أن يحقق المثل الصحيح الذي أرادته الإسلام . فحينا يصدر والي مستبد مرسوما بهدم الكنائس المحدثة مثلا وآنا نرى والي آخر متسامحا ، يستشير الفقهاء أو القضاة الكبيرين ، الذين يصححون ذلك بأن هذه الكنائس من عمارة البلاد ، وأن الكنائس التي بمصر لم تبن الا في الإسلام زمن الصحابة والتابعين .

وإذا ما عرفنا أن حكومات هذه العهود لم تكن تفكر في شيء من اصلاح خلقي أو اجتماعي ، للشعوب المحكومة الا بقدر ما يسير الأمور ويستقر النظام ، وأن الأعمال الإصلاحية الاجتماعية كانت نشاطا فرديا لشخص من الخيرين ، يتقربون به الى الله

ثم اذا ما قدرنا أن حكام هذه العصور أنفسهم لم يكن لهم من سعة الأفق وبعد النظر ما يفهمون به معاني الديمقراطية السامية أو يتشربون روح التسامح الذي توجه نظرة الإسلام الى الوحدة الدينية الانسانية مثلا وكان العامة المتعصبين جاهلين يحركهم الدين [illegible] الغريب ، ويرون المخالفين عدوا [illegible] ومستغلا ، والحكام في حاجة الى ترضيتهم ، قد يقسو على أهل الذمة أو يضطهدهم ، بل الحكام أنفسهم كانت [illegible] الأماني

والى جانبهم علماء ، منهم من كانت معظم تلك المساحة برمته ... ويكون أولئك ... من رهبان أو أعقاب مسيحيين ... قاسية ، و ... حقيقة ، دفعت اليها ... الحياة اذ ذاك وروح العصر نفسه

وهكذا يتردد الأمر بين تسامح يولى الذميين من النصارى و اليهود مراكز رئيسية في الوزارة والادارة ، وعنت يضطهدهم ويحرجهم في ذلك ، فلا يستطيع المنصف أن يتخذ من التسامح الأول صورة لحياة هؤلاء الذميين في المجتمع المصري بعهد من العهود ، أو في العهود جميعها ، كما لا يستطيع أن يتخذ تلك الصورة لحياة الذميين في المجتمع المصري من الاضطهاد الذي قد تدرسه قلوب قاسية شريرة ، وتتلمس الأسباب من نظائرها

ولعل الانصاف أن يقدر المؤرخ الحضاري الدرجة التي يقف فيها هؤلاء الناس — حكاما وأفرادا — من سلم الرقي الانساني ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يرتفعوا عن آفاق عصرهم ، وينظروا الى درجة أعلى من الدرجة التي أتيح لهم الصعود اليها

والحق الذي ينبغي أن تنتهي اليه اليوم هو عدم التكثر في ادعاء الانصاف ... مع عدم التجني في المؤاخذة بالاعتساف دون تقدير الظروف لحقيقته ولو ... أن سياسة لا ... كما قالوا ... وأن هؤلاء الحكام في معاملتهم ... أنفسهم بل في معاملة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم بعضا فقد كانوا يعيشون في ... بعض ... الواجب الاجتماعي عليه من الحكم ... ومستواه الانساني ولا يعني ذلك للذمي في نظامه البشري وروحه الاجتماعية ولا يتهم به شيئا في الأنفس اليوم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولا يسأل عن أعمالها دين أو تعاليم بل عصر بمعرفة مستوى الحياة بعهدها ، ودرجة التحضر والمعاني الانسانية في أيامها

وعلى كل حال فقد كان العنصر الاسلامي في المجتمع المصري يقدر العنصر المسيحي بخاصة ، ويعرف عنه اللزوم ... في خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحيي مصر ومن حولهم من أصحاب مذهبهم ، كالذي كان في القرن الخامس من رسالة الخليفة المستنصر بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنية لملكها ، من أجل نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك فأمر ملك الحبشة بفتح سد يجري منه الماء الى أرض مصر ، فانفتح ، وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع — على ما يروى —

الحكومة في مثل هذه البحوث ... الحكومة ... الى ... فأساس السلطة هو الأمر الالهي بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ وأطيعوا الله

واطيعو الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول »

وقد نصحوا من حكامهم ولاة أو أمراء أو خلفاء أو سلاطين من هو جدير بنصيحتهم من حوله ، دون نظام معين أو ترتيب محرم ، مع الأمر القرآني الصريح بالشورى « وشاورهم في الأمر » وأنها الشأن الثابت « وأمرهم شورى بينهم »

وفي هذا الوضع كان الفقهاء المسيون بصفة ثقافتهم وتخصصهم ، هم الذين يمثلون حقيقة الشعب ، لأنهم كما هم مسئولون يوم القيامة عما يسأل عنه الانبياء وهم يعرفون أن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم ، وهم يعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي صارت به هذه الامة خير أمة أخرجت للناس وأن تغيير المنكر مأمور به باليد ، أو اللسان ، وأضعف الإيمان أن يكون التغيير بالقلب

ولكن الفقهاء المشاغبين هم موجودون دائما ، فمنهم كما رأينا حتى في أعصرنا من يؤول الآية القرآنية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل ، بل منهم من كانوا أدوات ووسائل تتحمس رغبات الحكام والظالمين من بتأويلاتهم والتوضيح الذي يقذف عليهم خلط سهام الاتهام به

وفي مصر بالذات نجد عن فقيه شافعي سلطة الشعب هذه وجهاد متحكم في مقاومة الظلم ، ومواجهة الظلم . ففي القرن الثامن الهجري الموظف وجد . صوتا في جهده يحارب من بعده ان جاءوا ليأتوا في جهادهم كما رأينا الشيخ بن سعد وغيره ممن ذلك مقاومون هدم الكنائس ويرون منعها من عماره البلاد .

وفي القرن الثامن الهجري نرى بين مؤلفات السبكي كتابا اسمه « كشف الدسائس في هدم الكنائس » وهو اسم ان دل على شيء فانما يدل على مقاومة رغبة موجهة في هدم الكنائس والاستيلاء على ما فيها كما كان يحدث في الظروف التي أشرنا اليها سابقا

من أننا في القرن السابع الهجري نسمع عز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الجليل — سنة ٦٦٠ هـ — يعلم في مصر والشام أن المخاطرة بالنفس مشروعة في اعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن من غالب ظن السرير بالنفوس لا يجوز نفسه تعد من الحسن ، والأي عن الصواب

ولقد عرف هذا الامام الكريم بأنه سلطان العلماء وامام عصره بلا مدافعة ، والقائم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في زمانه وله في الصلابة والمخاطرة ، والتحدي الطغيان مواقف مشهورة بأن لا نرى ... من الكثيرة ... لا تحد بها منكان ... وحسبه منها وحده هي ... موقفه من أمراء دولة المماليك

الأمراء في مصر، إذ لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، ومن جملتهم نائب السلطنة نفسه، فهالهم ذلك واستشاطوا غضباً فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال: نعقد لكم مجلساً، وننادي عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي. فرفعوا الأمر إلى السلطان، وسمع الشيخ أن السلطان أنكر دخوله في الأمر، وقال: إن هذا لا يتعلق به فغضب الشيخ (عز الدين)، وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمير، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة، قاصداً نحو الشام، فلحقه غالب المسلمين. لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار. فبلغ نبأ هذه المظاهرة الهائلة إلى السلطان، وقيل له متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه، ولحقه، واسترضاه، وطيب قلبه فرجع، واتفقوا معه على أنه ينادي على الأمراء، ثم أرادوا ملاطفته فلم يفد ذلك معه وأصر على رأيه. وانزعج هؤلاء الأمراء: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ وقال نائب السلطنة: والله لأضربنه بسيفي هذا. وركب بنفسه في جماعته، وجاء بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، وعرف الشيخ الحال فما اكترث، ولا تغير، وقال لابنه الذي وصف له ما رأى: يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله. ثم خرج، وكأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يده وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خير أي شيء تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: من يقبضه؟ قال: أنا. فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير.

ومع كل إعجابنا بهذا الموقف وغيره مما يروى عن حياة العز بن عبد السلام لا نقول إلا أنه مثل من مثل عن مظاهر الانسانية، وأحداث الاضطهاد في معاملة الشعب، نقول: إننا لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف علماء الدين من الحكومة عن طريق هذه المواقف البطولية وحدها، كما لا نستطيع أن نأخذ تلك الصورة عن مواقف المسألة أو التراجع أمام الحكام. فلا هنالك سلطة مقررة لمعارضة العلماء، ولديهم من تفكير ولا هنالك ضعف دائم أمام السلطة الحاكمة وإنما هو مجتمع في مرحلة ماضية لعصره لا حدود مقررة لمقولاته، ولا اهتداء بمنشور بهذه الحقوق، فهي نوع من الصدف والاتفاق، والجود المنفصل، لم تشعر الحكومة معها بواجب ملزم، ولم تشعر

العبده فهو دائب مستمر، واضح يحقق غرضه ولا تنشعب بين هذين هذا كله خصص على طلبه ويقدم من نفسه كما اقتضى الشيخ العز بن عبد السلام أكفأ الأمراء إلا الحاكمين وصرفهم في مصالح الرعية — وذلك كما قال تاكلم عنه المؤرخ «مما لم يسمع بمثله»

•••

إلى هنا حديثنا عن الحياة الدينية في سير حضارة الاسلامية بمصر خلال أجيال تاريخها المتوسط عصر الاسلام، من القرن السابع الهجري الى مطلع التاريخ الحديث، نضعها بين يدي القارئ . ليستزيد — الإطار

العام، الذي يحدد ويبسط صور الحياة، وأحداث الزمن في عهد العصور، واضحة الدلالة، مفسرة الأسباب، مفهومة الأهداف في الحياة الدينية، وفي بعض الحياة الاجتماعية بما تؤثر فيها الدين عامة والإسلام خاصة

ونعتقد بهذا الإطار قد ميزنا صورة مصر نفسها، أو صورة إسلام مصر عن غيرها من البيئات الإسلامية الأخرى أو عن الإسلام في تلك البيئات

وفي كل حال فإنه تلخيصه يهيء للحديث عن

الحياة الدينية بمصر في العصر الحديث

الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

لئن كانت الروح الموجهة للحضارة الإسلامية — وهي الإسلام — قد برزت أول ما برزت في بلاد العرب ثم جاوزت آثارها في البلاد التي أشرقت عليه والممتدة من المحيط الأطلسي إلى ما وراء الخليج الفارسي في بلاد الهند والصين، إلا أن تراث هذه الحضارة قد ضاعت معظم معالمه — بفعل الحروب أو الإهمال أو بهما معا — في كثير من تلك البلاد إلا مصر فقد بقي فيها جانب كبير من هذا التراث تشاهده في مساجدها وكنائسها وفي مدارسها وقصورها وفي عمائرها وقلاعها وأسوارها وفيما تنطوي عليه جوانح متاحفها الإسلامية من تحف متنوعة.

وتتكون هذه الآثار، سواء ما كان منها ثابتا أو منقولا، سلسلة متماسكة الحلقات

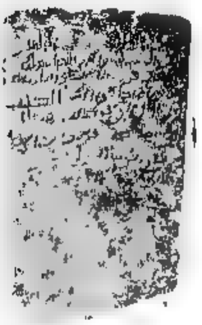

٢ – شاهد قبر من العصر العباسي ... مؤرخ سنة ٢٣١ هـ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

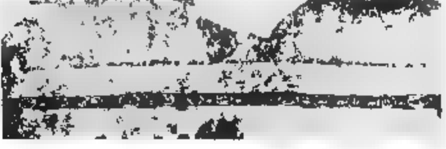

١ – من عصر الأمويين قطعة نسيج مؤرخة سنة ٨٨ هـ بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

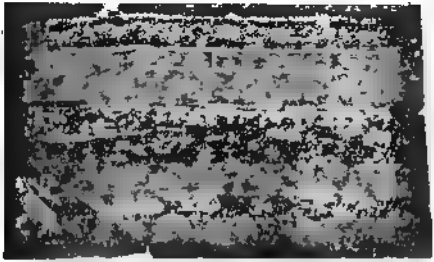

[illegible] من عصر [illegible] ، قطعة نسيج من [illegible] عصر [illegible] سنة ٤٦٨ هـ (بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

تشتمل العصور المختلفة بالمتحف الإسلامية في مصر آثار من عصر الراشدين (صورة رقم ١) ، وفيها آثار من عصر الأمويين (صورة رقم ٢) ، وفيها آثار من عصر العباسيين يوم كانوا أقوياء (صورة رقم ٣ ، ٤) ، وآثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء ، وفيها آثار ينعكس فيها تأييد المذهب الشيعي ولباب أركانه ، وفيها آثار تنطق باستعادة المذهب السني مكانته ونفوذه .

وهذه ميزة التي تتمتع بها مصر دون غيرها من بلاد العالم الإسلامي إنما ترجع إلى أمرين : الأول أنها كانت بنجاة من بعض الكوارث التي تعرض لها العالم الإسلامي لا سيما في جانبه الشرقي ، والثاني أن العصور [illegible] ترك [illegible] ما استمتع به غيرها من البلاد الإسلامية [illegible] تكشف عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوى ما تداعى منه ، وتكمل ما ضاع من أجزائه ، وتسعى جاهدة لكي تجليه على الناس في الصورة الرائعة التي كان عليها يوم شيدته أو صنعه المصريون في العصور الوسطى .

والصفحات القليلة المحدودة لي في هذا الكتاب لا تكفي لإبراز الصورة الكاملة لهذا الجانب الفني من حياة مصر الإسلامية ، ولكنني سأبذل قصارى جهدي في أن أرسم لهذا الجانب صورة أبين عناصرها بالتفصيل في كثير من أجزائها بلا يعرفها بوضوح ، ولعل في هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارئ إلى مشاهدة هذه الآثار ويدفعه إلى مطالعة المراجع المطولة التي تعنى بها فيزداد إيمانا بعظمة مصر في العصور الوسطى ، ويؤمن بأن قد لمعت معنى المكانة السامية التي احتلتها مصر من قبل في عصورها الذهبية

العمارة

(العصر ما قبل الطولوني)

ويعتبر المسجد ... أول المساجد التي شيدها العرب في مصر ... الإسلامية في عهد ... الذي كان المرحوم علي بهجت ... الكشف عنه في سنة ١٩١٢ ويرى ما ... شيئا من تاريخ ... (صورة رقم ١) ... [illegible] ... لم تظهر بمرور الزمن حتى وصلت ... الراهنة في

شكل - ١

عصر ... كان فيه الأعمدة الرابعة ... التي وصل عددها إلى أربع ... [illegible]

٢ - جامع عمرو كما هو الآن ونرى فيه بعض الأعمدة ... العقود ...

فيها الأحجار والأخشاب من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الإيراني ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري (١٠٤٦ م) وكان فيها أسواق الأحياء المصرية بمساكنها وحوانيتها ومسجودها العديدة ، وكان فيها الأسواق العامرة بالمتاجر ، ومصانع السكر ، والصابون ، ومسابك الزجاج والنحاس ، وأفران الخبز والفخار ، ولا تزال بعض الأطلال تؤيد إلى حد كبير ما ورد في بطون الكتب عنها .

والأثر الوحيد القائم بين خرائب هذه المدينة والذي لا يزال إلى اليوم يحمل الغرض الذي من أجله أنشىء هو جامع عمرو (صورة رقم ٥) الذي بدأ ساذجا كما بدأت الفسطاط ، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر السنين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتفعت حضارتهم ، انعكس ذلك فيه فاتسعت رقعته ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذي هو عليه الآن صحن مكشوف ، يحيط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مسقوفة معظمها صاحت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظا شكله .

ومهما اختلفت آراء علماء الآثار في مصدر هذا التصميم فالذي لاشك فيه أنه نابع من أعماق نفوس العرب ، متكيف بظروفهم ، وليس منقولا عمن سبقهم من الأمم فإذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الإسلام وتذكرنا بساطة الإسلام وبعده عن الطقوس لعرفنا سهولة نشأة هذه التصميم ، فالمسجد الذي أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، في المدينة الذي أصبح نموذجا للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة من الأرض مربعة الشكل أحيطت بجدران أسس من الحجر والقوائم من اللبن وبعد أن تحولت القبلة — بعد — الأولى — أقيمت سقيفة من الجريد المحمول على جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة إلى الكعبة في مكة أقيمت سقيفة جديدة مثل السابقة وتركت الأولى حيث هي يستظل بها فقراء المسلمين وهكذا أصبح المسجد مشتملا على مكان مكشوف أحدهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب ، ولما زاد عدد

ـ من جدار ... جامع عمرو كما كان في العصر العباسي الأول

طنفسي ، وسبب الحاجه الى عدد أكبر من الظل ، وأمن ما بين عالم الشمس سلفسي جامسي جماعه النبي والا مرى الصحان ، وهكذا وجد تصميم بناء المساجد

وطبيعي أن يطور المسجد بتطور العرب الذين تأثروا بما رأوا في البلاد التي فتحوها من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل التي كانت تحمل السقف بعمد الرخام (صورة رقم ٥) وإذا نحن تأملنا في رؤوس الأعمدة التي تحمل سقف جامع عمرو ، وجدنا أن تيجانها من طرز مختلفة ، ذلك أن العرب استخدموا ما وصلت اليه أيديهم من عمد معابد والكنائس المهدمة ، كما هو الحال شأن الرومان من قبلهم اذ كانوا يستعيرون من المعابد الوثنية القديمة الى معابدهم ولم يثبت قط أن العرب قد هدموا معبدا أو كنيسة لكي يحصلوا على أعمدته كما يدعي بعض الناس . ويجب أن نتذكر أن الصور التي نراها اليوم في مسجد عمرو انما هي من عمل السلطان مراد بك أحد سلاطين المماليك في العصر التركي ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلي الا في القليل نشير عليه

* * *

٦ - جامع عمرو من الخارج بعد أن جددته مصلحة الآثار

ومنذ عصر الراشدين ثم عصر الأمويين وجاء عهد العباسيين الذين تحولوا إلى شمال الفسطاط وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هي العسكر التي حاطت بمثيلتها ولكن تستطيع أن تتصور موضعها في منطقة القرية

الخاصة بالسودانية ومسجد ابن المسعود والأثر الباقي من عهد العصر العباسي ... أقدم أثر مصري إسلامي محفوظ [illegible]

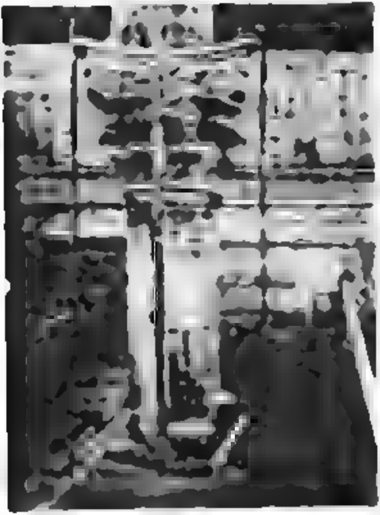

المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (صورة رقم ٧)، والمقياس من الآثار الصحيحة التي تدل على عناية أجدادنا في العصور الوسطى بأمر النيل كما كان يعنى به أجدادهم في العصور القديمة ومن الآثار التي جددتها مصلحة الآثار العربية كثيرة الذين يعنون بالناحية الأثرية فيه تقدم

مرور الكتابة الكوفية في مصر وهي آية من آيات التحسين الفنية بها (صورة رقم ٨)

(العصر الطولوني)

وبدأ في مصر عصر جديد جدا ولي أمرها أحمد بن طولون ، فمصر أصبحت فيه أمة جديدة يدين معظم أهلها بالإسلام ،

مسجد ابن طولون من الداخل ترى قبة الفسقية

وسكنها معظم عهده ثم بنى [illegible] بدلاً من الفسطاط واستجابة منه الى استكمال مقتضيات الجديدة بالاستقلال [illegible] عن الخلافة العباسية في [illegible] كانت عاصمتها في [illegible] حتى [illegible] هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة في الشمال من مدينة العسكر سماها القطائع وشيد فيها مسجده الرائع الذي لا يزال قائماً يحدد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التقريب ، ثم أقام الى جواره قصره الذي أمعن في تحديده وتجديد عمارته وكان آية في عظمته على حد وصف المؤرخين له ، ولكن لم يبق منه من الوجود [illegible] وبقيت في بطون الكتب

أما المسجد فيسير في تصميمه على النهج الذي شاهدناه في مسجد عمرو ولكنه خطا نحو التطور خطوات كبيرة في خمسة عناصر هي النافورة والمئذنة والنوافذ والزخرفة واللوحة التأسيسية

أما النافورة التي تتوسط الصحن فقد أعدت في الأصل لشرب الناس ولكنها في العصر [illegible] جعلت [illegible] للمسجد [illegible] كما تدل على ذلك الآية القرآنية المنقوشة بداخل القبة التي تعلوها

وأما المئذنة فهي الوحيدة في مصر التي لها هذا الشكل العجيب ، وهي متأثرة بمئذنة المسجد الجامع في سامراء [illegible] من رأي [illegible] كل [illegible] في الأصل [illegible] الفارسية المعروفة باسم [illegible]

وأما النوافذ التي تحمل العقود فهي الأولى من نوعها في مصر الإسلامية ، وهي كذلك من خصائص العمارة العراقية التي قدمت الى مصر في هذا العصر الذي نعرفه [illegible] الفن العباسي الذي شاع في العالم الإسلامي [illegible] ٩

وأما الزخرفة فهي تطلع علينا صورة صادقة للفن الإسلامي كما ازدهر في العراق ونحن اذا تأملنا في هذه الزخرفة قليلاً وجدنا اننا لا نستطيع أن ننسبها الى الفنان المسلم فحسب ابتكاراً وجدانياً لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل في الفنون السابقة على الاسلام ، إلا أننا لا يمكننا أيضاً أن نجحد مقدرة الفنان المسلم في طريقة توزيعها والتأليف بينها ، وخضوعها لنسب جعلتها تبدو كأنها تخترع لأول مرة وما هي كذلك ، ولكنه صهرها في بوتقته ، وسلط عليها أشعة عبقريته ، فخرجت من بين يديه فناً جديداً لا يخفى طابع أصله ولكننا لا نستطيع أن ننكر عليه شخصيته القوية

وأما اللوحة التأسيسية فثبتت على إحدى الدعامات ، [illegible] التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية عظيمة ، فقد استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقي لإنشاء هذا المسجد ٢٦٣ هـ ، بعد أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة في نقل الأخبار

ولعل المحراب الجصي الذي كشف عنه المرحوم حسن الهواري سنة ١٩٣٤ م بالقرب

[illegible]

من منتصف القرن [illegible] من الأمثلة النــــادرة للصورة القديمة في مصر (الصورة رقم ١٠) ، وهي في تخطيطها وزخرفتها ينهج على نهج فن مدرسة [illegible] من رأى [illegible] بالعراق [illegible] أساس هــــذا التخطيط ، وعلاقة الزخارف ينسب هذا الفرع الى العصر الطولوني

(العصر الفاطمي)

[illegible] خلال عصر [illegible] في العصر الطولوني ، [illegible] كما كان في العصر الفاطمي [illegible] مصر [illegible] النسلالة [illegible] في [illegible] ، والصـــلات الاسرية في الأندلس ، [illegible] من أكثر [illegible]

[illegible] البلاد في سبيل حضارة مادية خطوات [illegible] ٢٣٠ [illegible] المتنوعة تعكس هذه الحضارة [illegible] ، وتبرز شخصية الفن المصري الاسلامي الذي [illegible] فيه [illegible] المصريين في [illegible] كثيرة [illegible] الاعجاب على كل من يشاهدها

ولقد كانت حدود المراسيم الاسـلامية [illegible] — الفسطاط و [illegible] قد [illegible] العاصمة [illegible] كانت [illegible] عليها في [illegible] الا [illegible]

باب النصر والعمر عام ١٠٨٧ وباب الفتوح ، وقد وضع النظام في الكتابة الكوفية على السور الشمالي بين هذين البابين وجعلت أن تسميته هو باب النصر ، وباب الإقبال

وسورها الشرقي لا يزال يجري على مقربة من خلال الدراسة ، وقد كشفت معاول عمال المدينة وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة الحديثة عن باب سوريين سمي بقلعة المحروق

وسورها الجنوبي لم يبق منه إلا باب زويلة أو بوابة المتولي كما يسميها العامة

وسورها الغربي كان يسير بموازاة شارع الخليج ، ولم يبق منه إلا القليل الذي لا يستأهل الذكر . ولكن لا ريب ستظل هذه تحمل لتحمل عبقرية بذكرى مجد القاهرة في هذه الحقبة

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع العمائر الحربية في العصور الوسطى في العالم أجمع ، وقد كانت ، ولا تزال ، موضع الإعجاب والتقدير من كل من رآها أو يراها (الصورة رقم ٩٢)

وفي داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة شيد الفاطميون قصرين عظيمين صاحب معالمهما وتعينت مواقعهما القصر الكبير ويشغل اليوم المشهد الحسيني وخان الخليلي جزءا من

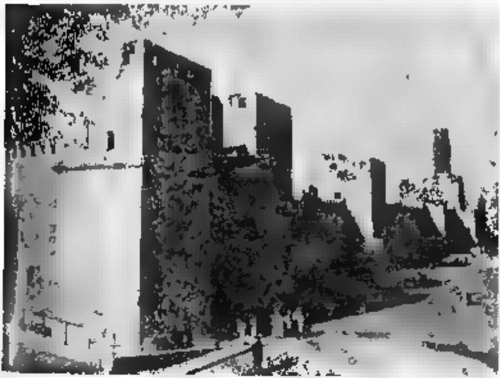

جانب السور عند الأبواب الشمالية بالقاهرة

موقعه ، والقصر المعمور ، ويحتل اليوم المسجد ومستشفى قلاوون جزءاً من موقعه

وفي القاهرة المعزية وفي ما حولها شيد الفاطميون المساجد والجوامع ولا يزال بعضها قائماً حتى اليوم

ويعرض علينا سبيل المثال أن نختار من بين الآثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظاً بمعالم هذا العصر في بنيانه ، فالأزهر (مصورة رقم ١٣) على شهرته البالغة لا يستطيع أن يحقق لنا هذا الهدف ، لما تصدع منه ، ودخل عليه من التجديد والتحوير ، بينما الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله ، على

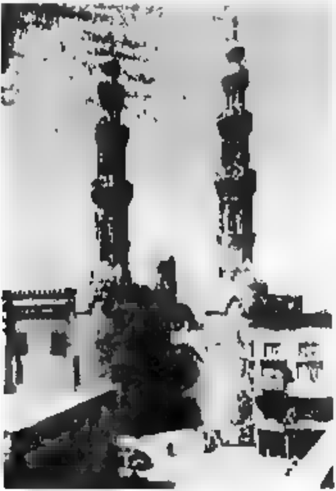

[illegible] أحد الأبواب [illegible] بالقاهرة

م – بجامع الأزهر من الداخل

سوء حالته ، يبرز لنا هذا المشهد بخصائص ، وبجامع الأقمر على صغر حجمه يتجلى عبث جمال الفن الزخرفي في صورة واضحة قوية ، ومشهد الجيوشي يكشف لنا عن الغرض من مثل هذه الأبنية التي ظهرت لأول مرة في مصر في هذا العصر ، والحمام الفاطمي هو أقدم مبناه موجود من نوعه في هذه البلاد

وجامع الحاكم محتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهي الواجهة الحجرية ، والمدخل البارز ، ومجاز القبة ، والقباب البلاد

أما واجهته فمنقطعة النظير في مساجد مصر السابقة ، يقوم في ركنيها برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منهما مئذنة عالية تعد أقدم المآذن المؤرخة في مصر (صورة رقم ١٤) ، تزدان كل منهما بزخارف رائعة ، وبكتابة كوفية تتضمن اسم الحاكم بأمر الله ؛ وقد تصدع الجزء العلوي من هاتين المئذنتين أثر زلزال شديد أصاب البلاد في عصر المماليك ، وعندئذ شيد هذين الجزءين على الصورة التي نراها الآن

والمدخل الرئيسي واقع في منتصف الواجهة ، بارز عن سمتها نحو قرنا وقد

صورة جامع الحاكم من الخارج [illegible]

[illegible]

تعرف بالخلافة أخير [illegible]
يتمسكون بها الخلافة العباسية في الشرق
والخلافة الأموية في الغرب

[illegible]

من زخارف جامع الحاكم بأمر الله

من جانبيه الأيمن والأيسر لتسير في اتجاه عمودي على جدار القبلة بينما تسير باقي عقود المسجد في اتجاه مواز لجدار القبلة. والغرض من هذا المجاز هو إبراز أهمية المحراب في المسجد باعتباره أهم بقعة فيه.

والقبة لم يبتدعها المصريون في العصور الوسطى ولكن فضلهم في تطورها عظيم، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها الإغريقيون والرومان، ثم استعملها المسلمون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من مميزات العمارة في الفن الإسلامي، ولم تفقد القبة المصرية الإسلامية هذا العهد الذي نراه في القباب الثلاث الموجودة في هذا المسجد والتي نشاهدها في أقصى اليمين وأقصى اليسار من جدار القبلة كما نراها أيضا أمام المحراب — بل نراها قد تطورت لتطور يبلغ أقصاه في عصر المماليك. والزخارف التي نشاهدها في هذا المسجد في نوافذه (لوحة رقم ٦٥) وفي مدخله، وفي واجهته كلها تنطق بأن الفنان المصري قد تخلص من قيود الفن الطولوني الذي نراه مستعملا في الجامع الأزهر، وقد بدأ يستعمل الآن العناصر الزخرفية التي كان يعرفها أجداده قبل الإسلام والتي [illegible] أنه غير محصور. كما تدل أيضا زخارف هذا المسجد على بدء ظهور روح الأندلسية في الزخرفة المصرية الإسلامية.

وبالجامع الأقمر [illegible] واجهة تعتبر قطعة من الفن الجميل (انظر الصورة رقم ٦٦)، تنطق بالتطور الفني الذي وصلت إليه [illegible] في القرن السادس الهجري (١٢ م)، وتدل على أنهم يعرفون بعض [illegible] على تقدم [illegible] مع زخارف الفن [illegible] والإغريقي [illegible] العناصر الزخرفية [illegible] في هذه الواجهة [illegible] أن نقول إننا نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite، والتي أصبحت من أخص مميزات الفن الإسلامي، كما نشاهد فيها الأحجبة التي

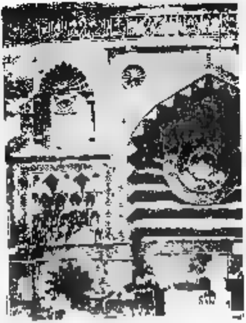

... جزء من واجهة الجامع الأقمر ...

تمس البناء في فخامتها وعظمتها وهي ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة في مصر في مصر البطالمة في مقابر كوم أبو صير ثم اختفت لتظهر من جديد في هذه الواجهة كما نشاهد أيضا كثير من العناصر الزخرفية التي كانت مألوفة في العصر الفاطمي ... على طريقة ... تدل على نضوج ملكة الفن ... والواقع أن ... في زخارف هذه الواجهة ... البساطة ... الروح ... المصرية ... من ... غريبة واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبي الذي فرض على البلاد في العصر ... والكلام على مساجد الفاطمية التي حفرنا

منها نحوض في صورة رقم ١٧ عرض ... عن الآن في تلك البدعة التي استحدثت في الإسلام ، ونقصد ... مسميت في ... البدع ، وهي ... إنشاء مساجد فوق قبور البارزين والعظماء من رجال الدنيا والدين ، وأغلب الظن أن الدافع إلى هذه البدعة ... هو الرغبة في تكريم هؤلاء الناس بعد وفاتهم كما كانوا مميزين في حياتهم ، وقد ظهرت هذه البدعة أول ما ظهرت عندما اتجهت النية في تمييز بعض البقاع التي تحتل من نفوس المسلمين مكانة سامية لاتصالها بتاريخ النبي الكريم مثل صخرة بيت المقدس التي يقال أن النبي عرج منها إلى السماء ليلة أسري به ، فشيدوا عليها قبة عظيمة تعد حتى اليوم من أروع الآثار الإسلامية أن لم تكن أروعها جميعا ، وقد كان طبيعيا أن ينتقل من تكريم البقاع التي قدستها الذكريات إلى تكريم القبور التي تضم رفات من كانوا أعزاء عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من الأبنية التي سماها الفاطميون بالمشاهد أي مكان الشهداء لأنهم كانوا يرون أن الأئمة وعظماءهم قد استشهدوا واستحقوا درجة الشهداء في سبيل نصرة مبادئهم ، ومشهد الجيوشي قد ... الأفضل ... المعالي كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية التي ... مدخله ، و... النظر ... ... في التسمية لأول ... المصرية

٧ - مشهد الجيوشي من الخارج

وعند الاستحمام يكشف لنا عن ميزة معمارية تجعل للمهندس المصري في العصور الوسطى فضل السبق على زميله الأوربي المعاصر له، ومحراب هذا المشهد يعد آية من آيات الفن الإسلامي تتجلى فيه عبقرية الفنان في روعة صورها وأبدع مقاطعها (صورة رقم ١٨)

وآخر ما نذكره من بين الحمامات الفاطمية «الحمام الفاطمي» الذي كشف عنه متحف الإسلامي بالقاهرة سنة ٩٣٤ م، وهو يقع بالقرب من ضريح [illegible] الذي [illegible] الأساس [illegible] وهو يعد أقدم حمام إسلامي في مصر

والحمامات عامة ليست من بدائع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم، ولقد سار المسلمون في تخطيط حماماتهم على النهج الروماني الذي وجدوه بين أيديهم، وتحدثوا عنها طويلا في كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها ومزاياها وآدابها، ووصفوا ما ازدانت به جدرانها من صور جميلة، وأوضحوا ما تبعثه الصور من أثر في نفوس المستحمين، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى في مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، والحمام الفاطمي كان، في أغلب الظن، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور لصغر مساحته، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تصميم الحمامات، وطريقة إيقاد النيران فيها، وتوزيع المياه في أجزائها المختلفة، ولا تزال البئر التي كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم، أما الصور التي كانت تزين قبته وجدرانه فقد نقلت إلى متحف الإسلامي بالقاهرة (صورة رقم ١٩)

(العصر الأيوبي)

ولقد خضعت مصر في أواخر العصر الفاطمي، وتعرضت فيها من جهة [illegible] الصليبيين الذين أسسوا لأنفسهم ممالك

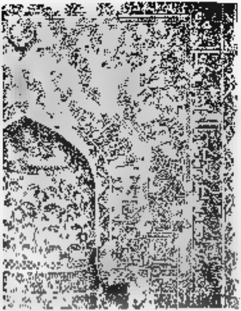

٨ - محراب مشهد الجيوشي .

محفورة على خشب ... كانت بالجامع الفاطمي ومحفوظة الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

صغيرة في بلاد الشام ، ومن جهة أخرى مسلمو الشرق (الأتراك السلاجقة) ، وكان المسئول بأعنة الوزارة في مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ... الخليفة الفاطمي العاضد ... الخلافة الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، وسرعان ما كان هو الدولة الأيوبية التي ... بالقضاء على الشيعة في مصر ، ... الصليبيين في الشام .

ولقد وجد صلاح الدين نفسه مهدداً بثورات داخلية من ... الفاطميين الراغبين في إعادة ملكهم ، ... خارجية من الصليبيين الطامعين في مصر لتأمين ملكهم في الشام والاستفادة بخيراتها ... ، ... فيه هذا الموقف أن يبحث عن مكان حصين يتخذه مقراً له ، ويدافع به عن عاصمة البلاد شر العدو المهاجم ، ووقع اختياره على مكان القلعة المشرفة على القاهرة اليوم (صورة رقم ٢٠) ... لا تزال ... الأ ... ي ... وهو ... بوابة القلعة ... ي ... صلاح الدين ... القلعة ... ٥٧٩ هـ ٨٣ م ... الكامل ... الذي ...

قلعة صلاح الدين من الخارج

لا يزال يزهو بعمارته حتى اليوم للدلالة على جمود الفكر والتعسف في الحكم (الصورة رقم ٢١).

واتحد العمران بين الفسطاط والعسكر والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا الفسطاط. وأمر صلاح الدين باحاطتها بأسوار تتصل بأسوار القاهرة الفاطمية. وفقدت القاهرة أهميتها بعد أن انتقل منها الحكم والحكام إلى القلعة التي ارتفع نجمها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو إسماعيل الذي بنى قصر عابدين.

وتحدثنا القلعة بعمرانها وآثارها عن [illegible] في مساجدها من عصور مختلفة ، فتحكي [illegible] على تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد علي ، فالعصر الأيوبي يمثله أوضح ما يمثله في الأبراج التي نشاهدها في الجانبين الشرقي والجنوبي ، والعصر المملوكي يمثله أجمل ما يمثله في مسجد الناصر محمد ذي المئذنتين الرائعتين اللتين تزدان قمة كل منهما باللوح القاشاني الأخضر الجميل ، والعصر التركي يتمثل في طرازه الجديد في بناء المساجد في جامع سليمان باشا [illegible] في مصر ، وهو أول مسجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التي تأثرت في تصميمها بكنيسة أيا صوفيا [illegible] في وسطها [illegible] في محراب [illegible] عظيمة تحيط بها أربعة أنصاف

٢- الكتابة الأثرية على أحد أبراج قلعة صلاح الدين

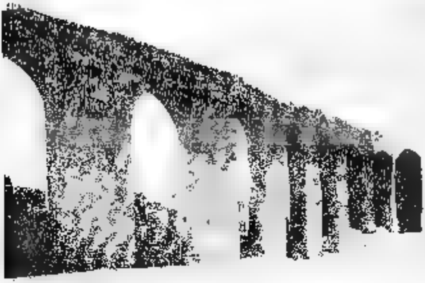

٣- قناطر المياه التي كانت تحمل الماء من الجبل إلى القلعة

في حافلة بالتحف المنقوشة والكتابات ، كما
سجل أمين هذا العصر في باب القبة المشرف
على ضريح صلاح الدين المخروطة من المرمر
والذي يحف به من جانبيه برجان عظيمان
سطلان بأن البناء المصري كان لا يزال في
هذا العصر يحتفظ ببراعته القديمة . وعصر
محمد علي يتمثل لنا في المدخل الرئيسي
للقبة الذي نستعمله الآن ، وفيما وراء هذا
الباب من مصاطب المقصورية والدواوين
والمدارس ، وفي المقصورة التي من أهمها مقصورة
الجوهرة الذي رجع اليه تعيين وزراء الأوقاف
والارشاد ، ووضعت فيه من الكتابات في
الصورة الجميلة التي كان عليها ، وفي مسجده
العظيم الذي دفن به والذي يشرف بمئذنتيه
الرشيقتين على القاهرة .

وطريقة يصل بها الى تلك القمة العالية
في العصور الوسطى جديرة أن نقف عندها
قليلا فهي تكشف لنا عن مدى نضوج أجدادنا
في تلك العصور في الهندسة المدنية اذ كانت
المياه ترفع من النيل بواسطة ست سواق
كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجري منه
الماء في قناة محمولة على قناطر بنيت
خصيصا لهذا الغرض تمتد من حرار مجرى
النيل وتنتهي الى القلعة (صورة رقم ٢٣) ،
ولا تزال حتى اليوم — منذ تم الحسبع —
آثار هذه السواقي وكثير من قناطر هذه
التي جددت في عصر الغوري أحد سلاطين
المماليك ، وتحمل مصلحة الآثار مهمة

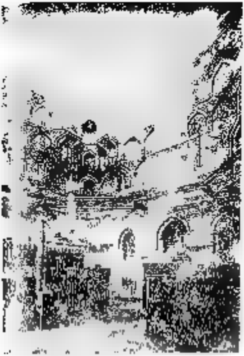

٢٣ قبة الامام الشافعي من الداخل .

وبمدينة القاهرة من جهة أخرى لاظهار هذه
القناطر وتنسيق الطريق الذي يحف بها من
الجانبين كما هو في الصورة التي كانت عليها
عند انشائها . ولكن سكان القلعة يشعرون دائما
بالأمن من انقطاع مياه النيل عنهم بسبب من
الأسباب ، لذلك حفرت في داخل القلعة بئر
عميقة تستخدم مياهها عند الضرورة ، وهي
لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر
يوسف .

وتمثل في هذا العصر قبة الامام
الشافعي بعظمتها الفريدة من حيث القباب
وأحجامها وعدد زخارفها من الداخل

والخارج وتتجلى في الزخارف المحفورة في رقبة هذه القبة من الخارج ... لا تخطئها ... (صورة رقم ٢٣)

وفي ... ضريح ... والقرافة ... الملك الصالح نجم الدين أيوب الشاهد ... الخصر الفسيفساء ... تحفة تزين محراب

(العصر المملوكي)

وضعفت الدولة الأيوبية، واشتد النزاع والتحاسد بين أفراد أسرة بني أيوب، واستكثر أغلبهم من شراء المماليك ليكونوا عونا لهم ضد منافسيهم من أقاربهم، وسما هؤلاء المماليك رجال الجيش والقصر ووصلوا الى درجة عظيمة من النفوذ، ونجحوا آخيرا في الاستيلاء على الملك والتربع على عرش مصر أكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد فيها من الناحية السياسية مسرحا للفوضى ولكنها بلغت من الناحية الفنية درجة سامية لم تبلغها من قبل في عصرها الاسلامي. ولا عجب لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يكتبوا لأنفسهم في تاريخ الفن المصري صفحات تلمع من بين سطورها آيات النضوج الفني التي نقرأها فيما تركوه وراءهم من ثروة عظيمة من المساجد، والقباب، والحوائط، والقصور، والمدارس، والمعاهد، والقلاع، والأسبلة، والمشكاوات، ومن التحف المنقولة التي تعج بها متحف الآثار الاسلامية بالقاهرة، وفي الكتب المصرية، وكثير من متاحف الشرق والغرب.

٢ – مسجد الظاهر بيبرس من الخارج

المساجد :

وأقدم المساجد المملوكية هو مسجد الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ) الذي خلع اسمه على حي عظيم من أحياء القاهرة (حي الظاهر) (صورة رقم ٢٤) والذي يعد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منذ أمسك المماليك بزمام الحكم فيها حتى العصر الحديث، ففي بنائه الفخم مظهر لعظمة مصر في عصر المماليك، وفي اهماله وبيع أنقاضه مظهر للفوضى التي سادت في البلاد بعد الفتح التركي، وفي جعل الفرنسيين منه قلعة في وسط القاهرة مظهر للغزو الفرنسي، وفي تحويله على يد الانجليز الى مذبح يجهزون فيه ما يأكلونه من الحيوان حتى ليعرف الى اليوم عند العامة بمذبح الانجليز مظهر للاحتلال البريطاني، وفي بدء العناية به ومحاولة اعادته الى أصله ... الآثار مظهر لعهد الاستقلال. وهو أول مسجد

صحن وجهة جامع الظاهر التي تعد ذات دور هام في العمارة الإسلامية حتى ذلك العصر علما بأنها ذات زخارف ، والواجهة بأشرطة ثم بعقود معقودة بلونين أحمر وأصفر على التوالي ويلاحظ أنها من أقدم الأمثلة لاستعمال نوعين من الحجارة يختلف كل منهما عن الآخر في لونه ، وصحن المسجد تشغله اليوم حديقة عامة ، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل إلا بعض الزخارف الجصية ورواق المحراب ، الذي بقي منه جزء ثناء عيه العمائر

القباب

وأجمل القباب قبة قلاوون (٦٨٣ هـ) التي تعتبر من أروع مفاخر الأثرية الإسلامية في مصر ، (الصورة رقم ٣٥) ، وهي تتكون من غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تستند عقوده على ٤ ستة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر ثم يحيط به والواضح على أنها من صنع المصريين في عصر البطالمة ، ومحرابها تحفة من الفن الجميل ، ووجهها من الداخل ومن الخارج مثال ناطق على مدى ما وصل إليه البناء المصري في عصر المماليك من التصرف الفني (الصورة رقم ٣٦) . والواقع أن هذه القبة ترهف الوجدان بجمالها الرائع ، وتحدي النفس بضخامتها المحكمة ، وتوسع آفاق العقل بما فيها من تكوينات فاخرة . وإذا كان التأثيرات الأندلسية قد ظهرت على استحياء في العصر الفاطمي في بعض زخارف جامع الحاكم ، والمغرب فضلا عن تغلغلها في العصر الأيوبي في زخارف قبة الإمام الشافعي فهي في عصر المماليك تبدو قوية واضحة في زخارف الواجهة الداخلية لهذه القبة (الصورة رقم ٣٧) التي تذكرنا عند مشاهدتها بالزخارف الجصية لقصر الحمراء .

٣٥ — واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج

المارستانات

والمارستان [illegible] في القبة ، [illegible] من أبواب [illegible] بها أسرة [illegible] للمرضى [illegible] الرجال ، ولكل مرض قسم خاص ، وفي مخازنه الملابس التي يرتديها المرضى عند دخولهم به ، كما هو الحال في أحدث المستشفيات اليوم ، وقد كان يتعهد شئونه أسند من قبل الدولة [illegible] بجميع الأدوية والأغذية .

ومارستان قلاوون [illegible] قد اختفى الآن ولم يبق منه إلا الأرض التي تشغلها اليوم مستشفى [illegible] الرمد تحمل اسم قلاوون ، والأطباء لا يستطيعون التذكر ، [illegible] من [illegible] في مصر [illegible] أخرى [illegible]

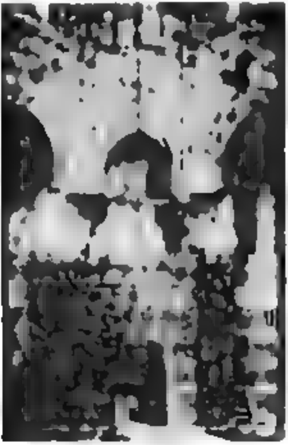

[illegible] مستشفى قلاوون [illegible]

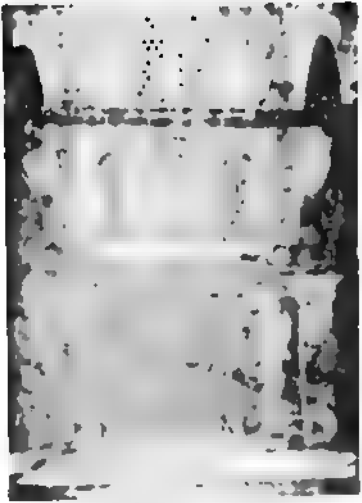

لوسطى ... عصور التعصب الديني ... والعبد ، والذكر والأنثى »
والمتعة الاجتماعية ... غير ثلاث العبارة التي ... الطرائق .
كان فلاويوس عند تخرج من ...

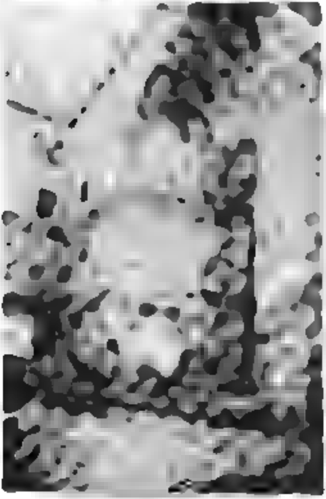

٨ — سانتا ... من الثاني من الخارج

وقد [illegible] فكرتها [illegible]

ويرجع الدافع في التصوير [illegible] بعض الناس إلى الرغبة [illegible] الاجتماعية التي [illegible] ، [illegible] فهل هؤلاء مصريون ، وقد [illegible] في مصر [illegible] للهرب في عصر صلاح الدين ، وتعد الخانقاه الجاولية (٧٠٣ هـ) من أجمل ما شيد من هذا النوع ، وواجهتها المطلة على شارع مارسينا تقع في [illegible] الذي [illegible] ، والقباب [illegible] هذا [illegible] ، [illegible] وامتداده [illegible] إلى جوارها [illegible] فيها أصبحت [illegible] الفن بصورة رائعة، وقد امتد [illegible] التعريب إلى [illegible] ، ولكن [illegible] المعمر [illegible] لا مثيل لها في العمارة الإسلامية في مصر [illegible] صورة رقم ٣٩

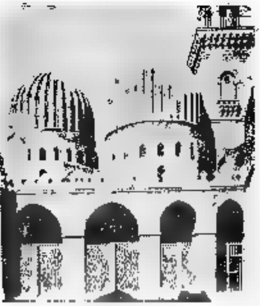

٣٩ الخانقاه الجاولية من الداخل ويظهر في الصورة الشبابيك الحجرية الجميلة

القصور

وقصر الأمير بشتاك (٧٣٩ هـ) كان من أعظم مباني القاهرة يستطيع الإنسان أن يشرف من أعلاه على القاهرة والقلعة والجبل [illegible] في قاعة [illegible] ذات [illegible] بعض الأجزاء التي [illegible] على [illegible] فكرة عن [illegible] العصر [illegible] في هذا العصر الذي [illegible]

القصور كما تعرف في جميع العصور المصرية الإسلامية قبل الفتح التركي ، ومن السبب في ذلك خشية الناس من الاعتداء على بيوت الله من عقاب الله تعالى الكثير من هذه البيوت حتى وصل إلينا ، أما بيوت الأمراء من العصر فما أهون الاعتداء عليها [illegible] ملك الإنسان السلطة والقوة

المدارس

وقد كانت مساجد العصر [illegible] في مساجد وظل [illegible] [illegible] الطلاب والأساتذة أحيانا في

(مدرسة السلطان حسن (من الخارج)

عند المذهب الواجب تدريسه في المسجد ، فرأى أن يخصصوا المدرسة كلها في دروسهم ، فعقد مدارس المذاهب بالشكل الذي تراه ... خاصة هي المدارس التي عرفت لأول مرة في القرن السادس الهجري في بلاد ثم انتشرت بعد ذلك في العالم الإسلامي . ودخلت مصر مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على إنشائها بعد ذلك إقبالاً شديداً .

وتعد مدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) (صورة رقم ٣٠) من أعظم الآثار الإسلامية

مدرسة السلطان حسن من الداخل

[illegible]

[illegible] أنه كان في [illegible]
لا مع [illegible] والعيب ،
[illegible] والآخر [illegible] ، وكان
[illegible] أحمد [illegible]
والثاني [illegible] . والثالث [illegible]
. [illegible]

وكان [illegible] الذي [illegible]
[illegible] من [illegible] أحمد
[illegible] الذي كان [illegible] في النصف
الثاني من القرن الثامن الهجري ؛ وقد كان
[illegible] في الأصل أشبه ما يكون [illegible]
[illegible] واحد هو أنه كان [illegible]

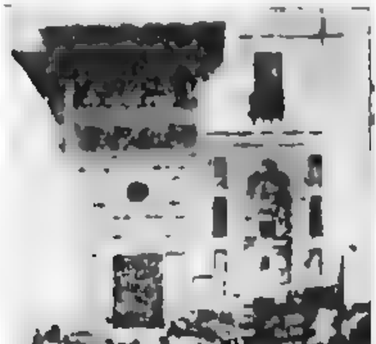

[illegible]

المسافرين . وقد كان أصحهم من التجار وصنع كذلك ما يحتاجونه من بضاعة . وفي صحن الخانقاه كانت ترتفع الدواب وفي وسطه الصهريج في تلك الأيام . وفي غرفة التي تطل على الصحن كانت تحفظ البضائع . وفي غرفة التي تشرف على الطريق كان يعرض التجار من هذه البضائع القليل . وفي الطبقة العليا غرف يسكنها أغنى التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم السلطان الغوري هذا الخان وأنشأ مكانه حواصل وحوانيت وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم (الصورة رقم ٣٢)

الأسبلة

وسبيل السلطان قايتباي (٨٨١ هـ) بالصليبة يعد من أروع ما شيده هذا السلطان من عمائره الكثيرة ، ومن أحسن ما يطلق عليه هذا النوع من الأبنية ، وهو يتكون في أسفله من حوض ... عذب يشرب منه الناس ، وفي أعلاه « كتاب » لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والحساب . وقد كان السبيل « والكتاب » جزءا من المدرسة أو المسجد ثم استقلا بوجودهما كما هو الحال هنا وأقبل الناس على الإكثار منهما ، وحبسوا عليهما الأعيان التي تصرف غلتها على التلاميذ ومعلميهم وعلى توفير ماء الشرب للناس في تلك الجهة ... هذا أمر ... الله من سقي الماء ... (الصورة رقم ٣٣)

الفنون الزخرفية

نعني بعد أن تحدثنا في العمارة عن مصنوعات ما كان بها من فنون زخرفية وهي الركن الثاني من ركني الحياة الفنية في مصر الإسلامية

وإذا كانت العمائر الدينية التي درسناها طابع خاص يكاد يكون منعدم الصلة بما سبقه من عمائر دينية في مصر ، طابع يرجع من الدين الحنيف الذي دخل في هذه البلاد ويمشي من حيث التصميم والمظهر مع العمائر الدينية الإسلامية خارج مصر فالأمر ليس كذلك في المصنوعات ، وما تزدان به من فن زخرفي إذ ظلت التقاليد المصرية سائدة بعد الإسلام واضحة وسارت قوية في مصر تسيطر على الفنون حتى يصعب علينا في بعض الأحيان أن نفرق فيها بين ما صنع قبل الفتح العربي وما صنع بعده بقليل

ولكي ندرك مدى ما أحدثه أجدادنا في العصور الوسطى من تطور في صناعة المصنوعات وزخارفها نرى لزاما علينا أن نحصي كل مادة من المواد التي استخدمت في الصناعة بكلمة خاصة ندرك ما كانت عليه قبل الفتح العربي ثم نتتبع تطورها حتى الفتح التركي

مواد البناء

نعني مواد ... بلاحظ أنه على الرغم من وجود المحاجر التي ... المصريون في عصور ... الأحجار ... عمائرهم

فإن العرب استعملوا قطع الحجر و ... في عمل الفسيفساء التي استخدمها الأمويون . وعندما جاء ابن طولون الى مصر حمل معه طريقة العراق في البناء وهي طريقة كذلك تعتمد على استخدام الطوب والطوب المحروق لعدم توفر الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجه السابق ، وقد كان طبيعيا أن يغطى الطوب بالجص وأن تنقش الزخارف على هذا الجص

وفي العصر الفاطمي — ذلك العصر الذي أحيا تقاليدنا القديمة كما ذكر من قبل — نجد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود الشاهد الى المحاجر ، ونلمس في واجهة جامع الحاكم ومئذنتيه ، وفي واجهة جامع الأقمر ، وفي أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة للمهارة الفائقة في البناء ، وفي النقش على الحجر .

وظل استعمال الحجر بارزا في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وتجلى في هذا العصر حذق أجدادنا في نقشه ، وفي طريقة استعماله في المآذن و القباب والشبابيك

ولم يستخدم الحجر في البناء وحده بل اتخذت منه شواهد للقبور (الصورة رقم ١) وبالمتحف الإسلامي بالقاهرة عدد من هذه الشواهد التي تعطي الباحث فكرة واضحة عن تطور الخط الكوفي والنسخي ، كما نقش منه أيضا ... و ... والتماثيل وهذه الأخيرة وإن كانت نادرة الا انها كافية لكي تثبت أن الفن الإسلامي قد عرف فن النحت

وهو وإن كان لم يصل فيه الى الدرجة التي سمت بها الفنون القديمة بسبب عدم تشجيع الإسلام الا أن هذا لا يعد دليلا على تأخر ... له ... فيه ... لسكانه ... على يد ... ، لأن الكثير من بيئته التي نشأ فيها والظروف التي تحكمت في نشأته ، والقرآن الكريم لم يحرم من النحت والصناعة التشكيل ، وقد أدرك أسلافنا أن التحريم انما وجه فهو منصب على التماثيل التي تعبد من دون الله ، وأما غيرها فلم يتحرجوا من استعمالها في تزيين قصورهم وقد وصلت الينا أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الإنسان ومنها ما هو على هيئة حيوان ، وفي القاعة الفاطمية بمتحف القاهرة تمثالان من الحجر يمثلان أسدين يرتكزان على ... لتجلى فيهما العضلات والقوة بشكل واضح

ولا ينبغي أن ننسى أن استعمال الحجر

١

٢ - قطعة الحجر ... تمثل كتابة ... من قطع ... بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

التي معناها عدم استعمال الطوب والجص في البناء بعد ، والحجر الذي كثر استعماله منذ العصر الطولوني في استعمال الجص على تطور وتنوع. حتى وصلت الى حالة ممتازة في عصر المماليك الذي شهد أروع أمثلة الزخارف الجصية سواء في النوافذ أو على الجدران.

والرخام الذي استعمل على قلة قبل عصر المماليك قد راج استعماله في هذا العصر ووصلت الينا منه آثار عظيمة منها ما نراه في الأبنية القائمة ومنها ما هو معروض بالمتحف الاسلامي بالقاهرة. ويكفي أن نشير الى أرضية كثير من المساجد التي تكسوها ألواح الرخام المختلفة الألوان ، والى النافورة الرخامية في المتحف سالف الذكر.

الأخشاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في الأنواع الجيدة من الأخشاب ، فاستوردتها من لبنان [الأرز والصنوبر] ، ومن السودان (الأبنوس) ومن الهند (الساج) ، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية [الجميز والنبق] في صناعاتها المختلفة ، وفي المتحف المصري وفي المتحف اليوناني الروماني ، وفي المتحف القبطي أمثلة رائعة تدل على المهارة والحذق في صناعة النجارة.

ومهر المصريون في العصر الاسلامي على النهج القديم في صناعة وفي الزخرفة ، فاستعملوا الحفر ، والتطعيم ، والتجميع كما

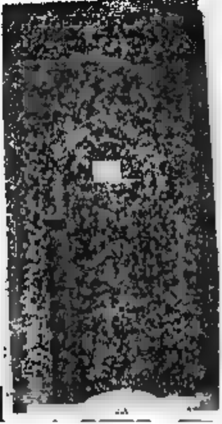

١٩ — محراب السيدة رقية من الخشب وسجل فيه طريقة التجميع والحفر بالمتحف الاسلامي بالقاهرة

عن أجدادهم ولكنهم في العصر الطولوني خرجوا على ما ألفوه من فن ، واستخدموا طراز زخرفة جديدا جاء معه أصحابه من سامرا في العراق [الصورة رقم ٤٢] ، وشهد المقريزي على التماثيل الخشبية التي كانت تزين قصر خمارويه والتي تدل من غير شك على استمرار التقاليد القديمة في هذه الناحية

على أننا عدنا إلى التقاليد القديمة بشكل واضح في العصر الفاطمي، فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التي ألفها أجدادنا، ونجحت في صور رائعة شاهدناها في حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطي وفي المنبر الموجود في مسجد قوص، وفي محراب السيدة رقية (صورة رقم ٣٥)، وفي ألواح القصر الفاطمي المحفوظ في المتحف الاسلامي. وإذا كانت هذه التحف الخشبية تعكس لنا رقي الذوق الفني عند أجدادنا في العصور الوسطى فالتحفتان الأولى والأخيرة تساعدنا على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية في تلك العصور بما فيها من صور تمثل مناظر الصيد، ومجالس الطرب، وأشكال الرقص، وطرق الاحتفال، ومظاهر الزي.

وتقدم فن الحفر على الخشب تقدما ملحوظا في العصرين الأيوبي والمملوكي، ولقد عنى النجارون في هذين العصرين أكثر ما عنوا بالزخارف الهندسية والنجمية التي أتقنوها إتقانا يسترعي الاعجاب من كل من يراها، ويكفي دليلا على ذلك ما نراه في تابوت الامام الشافعي (بقبته) وتابوت الامام الحسيني (بالمتحف الاسلامي)، والمنبر الموجود بمسجد ابن طولون.

على أنه لم تفتنا في العصور الوسطى خصائص تلك الطرق التي ورثناها عن أجدادنا في صناعة الأخشاب بل ابتدعنا طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل، وذاعت شهرتنا في الشرق عامة وعرفت كطريقة التطعيم، وطريقة التجميع وطريقة الخرط. والطريقتان الأولى والثانية شاهدناهما في التحف التي ذكرناها وفي غيرها من تحف كثيرة. والطريقة الثالثة تتجلى فيما نعرفه «بالمشربيات» التي كانت تزين واجهات كثير من منازلنا وقصورنا في العصور الوسطى والتي كانت من غير شك متفقة مع جو بلادنا، ومتلائمة مع نظامنا الاجتماعي حينئذ، فهي تساعد على دخول الضوء اللطيف، ومرور النسيم العليل، وتوفر بذلك في المنزل جوا مناسبا في بلد تشتهر بشمسه الساطعة ومناخه الحار، وفي المتحف القبطي والمتحف [illegible] أمثلة جميلة لهذه المشربيات.

التصوير

والاستعانة بالتصوير في تزيين الجدران أمر كان معروفا عند أجدادنا المصريين، وكان معروفا أيضا عند العرب في جاهليتهم فلقد زينوا دعائم الكعبة — قبل الاسلام — بصور الأنبياء، وكان من بينها صورة ابراهيم خليل الرحمن، وصورة السيد المسيح وأمه على حد قول الأزرقي في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار.

ولما جاء الاسلام اقتصر المسلمون في استعمال التصوير على تزيين القصور والحمامات دون المساجد، ولم يكن الدافع إلى ذلك كراهية التصوير فحسب ولكن كان شعور بالاسلام كدين يرتفع فوق الماديات، ويجعل الصلة بين العبد وربه صلة روحية

لوحة التجسيد من كل ما هو مادي . وقد كشفت الحفائر الأثرية سواء في مصر أو في خارج مصر عن صفحات مصورة ترجع من القرن الثاني والثالث والرابع بعد الهجرة كانت تزدان بالصور المصغرة [illegible] بمتحف الاسلامي [illegible] على

الجدران [illegible] من الصدام الشخصي الذي أثاره [illegible] رقم ١٩ [illegible] [illegible] على الذين [illegible] الاسلام [illegible] التصوير [illegible] الرغم من [illegible] [illegible] من أي [illegible] [illegible] [illegible]

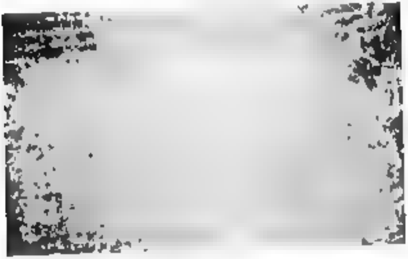

[illegible] بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة

[illegible] بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة

لقد حرم التصوير مع ما له من دور خطير في تنمية الثقافة والعقلية الاجتماعية

المنسوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق هذا الفجر عرفت مصر صناعة المنسوجات ، والأمثلة التي تنطق بمهارة أجدادنا في هذه الناحية في كل العصور تزخر بها المتاحف في مصر وفي الخارج ، والمكانة السامية التي وصلنا اليها في العصور القديمة في هذه الناحية احتفظنا بها أيضا في العصور الوسطى ، (الصورة رقم ٣٦) وكان من تقاليدنا في تلك العصور من كسوة الكعبة ، وعادة صنع الخيم ما حافظ على روح هذه الحرفة بل وتجاوزها في كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطع النسيج الإسلامية المعروضة في المتحف والفضل في ذلك راجع الى الدور الذي لعبته « دور الطراز » أو بعبارة أوضح مصانع الحكومة للنسيج التي انتشرت في طول البلاد وعرضها ، وكانت تستخدم أمهر النساجين وأشهر الرسامين وأعلى المواهب تقدما حتى تستطيع أن تخرج من الأنسجة ما يليق بالخلفاء والأمراء والحكام ومن حولهم ، وقد كان الشعب من ورائهم يرسم خطا مستقلا يقتبس منه ، وينسج على هديها (الصورة رقم ٣٧) وليست « دار الكسوة » الموجودة حتى اليوم الا بقية من « دور الطراز » القديمة ، وهي لا تختلف عنها الا في اكتفائها بأعمالها ، واقتصارها على نسج كسوة الكعبة التي ترسلها كل عام الى مكة

٣٨ قطعة من طنفسة مصرية صنعت تحت التسلط العثماني بأيد مصرية

ولقد ساهم أجدادنا في العصور الوسطى في نشر الحرير في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد تزعموا تجارته في تلك العصور ، ولعبت الاسكندرية دورا هاما في هذه التجارة اذ كانت هي التي تحدد أسعاره بالعالم المتحضر حينئذ

النحـــاس

وهناك صفحة من عظمة مصر في الصناعة حولها النسيان ، وكشفت عنها التحف الأثرية هي فنون مصر في العصور الوسطى في صناعة

الإسلامية ذات الجص أو الخزف كما يسمى أن يسمى. وقد كانت مصر أكبر منافس لبلاد العجم في هذه الصناعة، وأصبحت مصانع الفسطاط ... هذه الصناعة عندنا منذ العصر العباسي، واستمرت كذلك حتى العصر المملوكي الذي بلغت فيه ذروة نضوجها (الصورة رقم ٣٨) والأمثلة الثمينة الموزعة بين متاحف أوربا لا سبيل لنا إلى ... للمهد بعد الخروج؛ وفي متحفنا بالقاهرة مثال منها يقل في أهميته وجماله عن تلك الأمثلة التي ليست في دار الغربة، وتؤدي لنا هناك رسالة عظيمة هي في الواقع سفير صادق يكشف للغير عن مجدنا وحضارتنا في العصور الوسطى.

المعادن

ولقد سرنا في صناعة المعادن في العصور الوسطى على النهج القديم الذي كان يسير عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا إلى طرق الزخرفة القديمة من حفر غائر أو بارز، أو تخريم، أو ترصيع بالمينا، طريقة جديدة هي طريقة التكفيت أي التطعيم الأواني بالذهب أو بالفضة أو بهما معاً — التي ابتكرها أجدادنا من المسلمين، وقد شاعت هذه الطريقة، وتعلمها الأوربيون على أيدينا، ويمكن أن نشاهد في المتحف الإسلامي عندنا أمثلة مصرية إسلامية، وأمثلة قد صنعت في إيطاليا تقليداً لهذه التحف الإسلامية حتى يدرك مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل التلميذ.

ويلاحظ أنه لم يصل إلينا من التحف

٥٠ - تمثال صغير من البرونز وجد في خرائب الفسطاط – بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

تمثال من برونز من العصر الفاطمي موجود الآن في مدينة بيزا بإيطاليا

معدنية إلا القليل [illegible] هذه الصناعة
الأواني المعدنية كما تدل عليه [illegible] التي
[illegible] وفي المتحف الإسلامي
بالقاهرة بعض [illegible] الكاملة مصنوعة من
البرنز (الصورة رقم ٣٩، ٤٠) [illegible]
برنزي من هذا العصر موجود في مدينة [illegible]
[illegible] وهو يمثل حيوانا له جسم أسد ورأس
نسر وبه زخارف محفورة من بينها كتابة
عربية (الصورة رقم ١٠) وقد أينع الفن في
عصر المماليك كما يشهد المقريزي
بالأواني المعدنية، وفي المتحف مجموعة طيبة
من هذا العصر تشتمل على ثلث الثريات والقماقم
والأباريق والأواني، ونخص بالذكر منها
كرسي (مائدة صغيرة) من عصر السلطان
الناصر محمد بن قلاوون (الصورة رقم ٤١)
ودواة من عصر هذا السلطان (الصورة
رقم ٤٢)، وكلاهما من أروع التحف المعدنية
في العالم

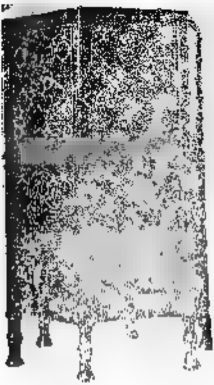

كرسي (مائدة صغيرة) من النحاس المكفت بالفضة من عصر المماليك – بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

٤٢ دواة من النحاس المكفت بالفضة من العصر المملوكي

الخزف

وإذا كانت التحف المعدنية التي وصلت الينا قليلة كما ذكرنا فان التحف المصنوعة من الفخار والخزف كثيرة لا تحصى ولا عجب في ذلك ، فالأواني من الفخار يصعب كسرها ولكنها لا تبلى مهما تقادم عهدها .

وصناعة الأواني من الفخار عريقة في القدم ، أتقنها أجدادنا الفراعنة فأخرجوا أواني فخارية جميلة ، وابتكروا الخزف أي الفخار المغطى بطبقة زجاجية ، وحذقوا صناعته ، وعلموها غيرهم من الأمم .

والملاحظ أن صناعة الأواني الفخارية أو الخزفية في العصور السابقة على الاسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء قد اتخذوا معظم أوانيهم من الذهب والفضة والبرنز ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة في أول الأمر تطوراً يذكر ، ويظهر أن الصناع الأمويين في الشام قد ساروا على نهج صناع الخزف الساسانية والبيزنطية ففضلوا استعمال الأواني المعدنية على غيرها ، أما في العصر العباسي فقد تغير الحال ، اذ كان من أثر تبادل الرحلات والتجارة بين البلاد الاسلامية وبلاد الصين أن وجدت الأواني الخزفية الصينية طريقها الى أسواقنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين الطبقة المختلفة من حيث على تقليدها وقد نجحنا في هذا التقليد نجاحاً باهراً يتجلى في الخزف الفيوم » الذي نشاهد منه أمثلة جميلة في المتحف الاسلامي لم ينتقل من مرحلة التقليد الى مرحلة الابداع وكان لبعض الأحاديث النبوية التي تزجر الناس عن استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة أثر واضح في هذا الابداع فظهر نوع جديد من الخزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، له بريق كبريق الذهب هو المعروف « بالخزف ذي البريق المعدني » الذي نراه لأول مرة في العصر الطولوني (ولا يستبعد أن تكون الفكرة قد أتت الينا من العراق مع أحمد بن طولون) ، والتوفيق في صنعه في العصر الفاطمي وصل به الى درجة سامية يؤمن بها كل من يشاهد الأمثلة الفاطمية المعروضة من هذا الخزف في المتحف الاسلامي (الصورة رقم ٤٣)

وقد سار انتاجنا في شتى أنواع الخزف يتقدم عبر العصور ، وأبدعنا في عصر المماليك أنواعاً جديدة منها ما هو مبتكر (الصورة رقم ٤٤) ومنها ما هو تقليد لأنواع شتى من خزف الصين (الصورة رقم ٤٥) وخزف ايران

وقد عرفنا الكثير من أسماء الخزافين الذين عاشوا في العصر الفاطمي أو العصر المملوكي ولكن معرفتنا بهم لا تتجاوز أسماءهم المنقوشة على الأواني التي صنعوها

وفي خلال عصر المماليك ظهرت صناعة القراميد (ألواح القاشاني) التي تستعمل في تكسية الجدران ولا تزال قائمة ماثلة في بعض مساجد المملوكية (الصورة رقم ٤٦)

وبه سلبت تميز [illegible] مما يمكن أن [illegible] يكشف لنا [illegible] الأحفاد في العصور الوسطى [illegible] التي [illegible] وحرصوا على أن يطبعوا على كل ما أخرجته أيديهم طابعا زخرفيا يتميز [illegible] في التصوير ويتصف به [illegible] يتغلب على [illegible] آنية [illegible] المصنوعة من النحاس ، وآنية [illegible]

(آنية من الخزف [illegible] به [illegible] بلاد [illegible] في العصر المملوكي ، بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

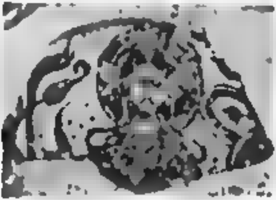

(... من الخزف ذي البريق المعدني به صورة [illegible] بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

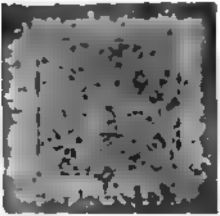

(بلاطة من القاشاني من العصر المملوكي بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

(آنية من [illegible] من العصر المملوكي بالمتحف الإسلامي بالقاهرة)

٤٧ ـ سلطانية من الفخار بالمتحف الاسلامي بالقاهرة

من الطين ، هذه السلطانية الرخيصة ليست سوى « طبق » من الفخار تفنن الفخراني في زخرفته تشبيكها (الصورة رقم ٤٧) تلفت شرع الاعجاب من كل من يراها .

الزجاج

ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة والرومان والبيزنطيين من أعظم مراكز صنعه في العالم ، وقد حافظت مصر في العصور الوسطى على هذه المكانة ، ولا عجب فقد أدرك أجدادنا بعدهم الدور الذي يلعبه الزجاج في الحضارة فأقبلوا على صنعه ، وأثبتوا في كتب الأدب ما يميزه على غيره من المواد ، فقالوا ان أوانيه لا تصدأ ، ولا تسحق ، ولا يمسها وسخ ، وإذا اتسخ فالماء وحده ينظفه ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن يشرب فيها فكأنما شرب في اناء وماء وهواء وضياء .

وفي العصر الطولوني أخذ الفسطاط مكان الصدارة في صناعته ، وأمدتنا حفائره بكثير من القطع الزجاجية ومن القنينات الصغيرة ذات الأشكال المختلفة العجيبة ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة الى الأمام خطوات واسعة (الصورة رقم ٤٨)

وفي العصر الفاطمي استمرت عجلة التطور تدور ، وقد أثبت ذلك الرحالة ناصري خسرو اذ قال انه كان يصنع بمصر زجاج شفاف عظيم النقاوة ، وقال أيضا ان التجار في مصر كانوا يسلمون المشترين أواني من الزجاج لكي يضعوا بها السلع التي اشتروها مما يدل على انتشار صناعة الزجاج وشيوعها ، وقد ابتكرنا في هذا العصر « الزجاج ذا البريق المعدني » وأضف الى هذا الابتكار ابتكاراً جديداً اهتدينا اليه في العصر الأيوبي هو « الزجاج المموه بالمينا » الذي وصلنا فيه الى ذروة الاتقان في العصر المملوكي (الصورة رقم ٤٩) والمصابيح الزجاجية أو « المشكاوات » كما تسمى عادة التي يزخر بها متحف الفن الاسلامي (الصورة رقم ٥٠) هي خير ما يعرض عليك جمال هذه الطريقة التي ابتدعناها لزخرفة الزجاج في العصور الوسطى ، والتي نقلها عنا الايطاليون وقلدونا فيها تقليداً نراه في معرض التحف المعروضة بقاعة الزجاج في المتحف الاسلامي

١٨ – آنيـــة من زجاج من العصر الطولوني بالمتحف الإسلامي بالقاهرة

١٩ – دورق من الزجاج المموه بالمينا من العصر الأيوبي بالمتحف الإســلامي بالقاهرة .

[illegible]

فن الكتب

ونحن نعرف ما تقدم به هذا العرض السريع للجانب الفني من حياة مصر الإسلامية مع ما كان لأجدادنا في العصور الوسطى من نصيب عظيم على فن الكتب ... أي من إخراج الكتب في العصور التي وصلت إلينا ، وفي مقدمتها القرآن الكريم ... بالخط الذي كان يكتب عليها ... والمواد التي كان يكتب بها ... والصور التي توضح موضوع الكتب ... والتذهيب والتجليد

ولقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب وعلى الفخار والعظم وعلى الكتان والجلد ، وفي معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة عليه هو البردي والرق والورق ، والبردي نبات كان ينبت بكثرة في مصر ، وقد لعب في العصور القديمة والعصور الوسطى الدور الذي يلعبه الورق في عصرنا الحاضر ، ولم يكن عصر مناسبا في ثنيه ، والكتاب المجلد منه كان يتكون في معظم الأحيان من صحائف يلصق بعضها إلى جانب بعض بحيث يتكون من ذلك شريط طويل مستطيل الشكل يلف ليصبح في شكل الاسطوانة ، وقد كانت الصفحة الأولى في هذه اللفائف أكثر سمكا من الصفحات الأخرى لأنها كانت تغطي اللف وتكون له بمثابة غلاف

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا آخر غير شكل اللف هو الشكل الذي نراه عليه الآن وذلك في الغالب عندما استعمل الرق (وهو ما اتخذ من جلد الحيوان لا سيما الضأن والغزال) للكتابة عليه ، إذ كان جمع الرقوق المختلفة بعضها إلى بعض يحتاج إلى غلاف يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت بين لوحين من الخشب ، وقد عني أجدادنا قبل الإسلام بزخرفة هذه الألواح الخشبية ، وتحليتها بالمعادن الثمينة والأحجار الكريمة ، ثم خطوا في العصر القبطي خطوة جديدة حين استخدموا بدل هذه الألواح الخشب قطعا من البردي قد أحكم لصقها بعضها إلى بعض حتى أصبحت كالورق المقوى (الكرتون) ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذه الجلود وهذه الكيفية تكون أساس الطريقة التي تتبع اليوم في تجليد الكتب

واختراع الورق ، لم يستتبع تحولا في الرق ، ثم يحدث تغييرا في صناعة التجليد التي ظلت تسير على نهج القديم ، على أنها تستطيع أن تسجل لأجدادنا في العصور الإسلامية مثل التقدم نحو الأمام خطوة جديدة في هذه الناحية هي ابتكار « اللسان »

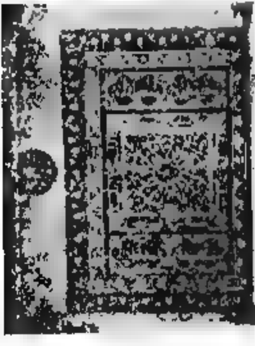

• الصفحة الأولى من مصحف السلطان شعبان بخط [illegible] – في معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة

الذي تحتوي مكتبته الأطراف الأمامية للصفحات ، وإذا كنا قد فقدنا صناعة تجليد الكتب من البيزنطيين فقد علمناها نحن إلى الإيطاليين في البندقية ومن هناك نقلها عنهم الأوربيون.

ولقد عني أجدادنا بإنشاء المكتبات في كل عصور حياتهم عناية عظيمة ، ومكتبة الإسكندرية الشهيرة ، ومكتبات الأديرة والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ، ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت لنا أمثلة كثيرة من كتبهم التي ساهم في عملها الخطاطون ، والمذهبون ، والمصورون ، والمجلدون ، ولكن القليل الذي وصل الينا والذي نستطيع أن نراه بالمتحف القبطي ، ونراه في المجموعة الرائعة بدار الكتب المصرية يعوضنا بعض العوض.

والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة نضجه في عصر المماليك ، كما تشهد بذلك المصاحف الجميلة المعروضة في دار الكتب . (صورة رقم ٥١)

فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

القسم الأول

صفحة

العصر اليوناني والروماني والعصر الاسلامي — للدكتور ابراهيم نصحي

مصر في عصر البطالمة —

الفصل الأول — دولة البطالمة	٤
الفتح المقدوني	٤
الاسكندر في مصر	٤
مؤتمر بابل	٥
قيام دولة البطالمة	٦
تفكك الامبراطورية المقدونية	٧
بناء امبراطورية البطالمة	٨
بداية النهاية	١١
زوال امبراطورية البطالمة	١٢
سيطرة روما	١٣
الفصل الثاني — ادارة الحكم — السلطة المركزية — الملك — الوزراء	١٦
المدن الاغريقية	١٧
الاسكندرية	١٨
نقراطيس — بطلمية	٢٢
السلطة المحلية — ثروات البطالمة — الجيش	٢٣
الأسطول	٢٦
الشرطة	٢٧
الفصل الثالث — سياسة البطالمة الدينية — البطالمة والمصريون — اتحاد مصالح الرعية —	
احترام الديانة المصرية	٢٨
موقف البطالمة من الكهنة المصريين	٢٩
البطالمة والاغريق — عبادة البطالمة عبادة اغريقية خاصة	٣
احترام الديانة الاغريقية	٣
الاغريق والديانة المصرية	٣٤
البطالمة وعناصر السكان الاخرى — اليهود — الفرس	٣٥
عناصر أخرى — ديانة سرابيس	٣٦
الفصل الرابع — السياسة الاقتصادية — الزراعة	٣٩
الصناعة	٤١
التجارة	٤٢

	صفحة
[illegible]	٤٧
الفصل الخامس ـ النظام المالي ـ الإدارة المالية	٥٠
نظام الأراضي ـ أرض الملك	٥١
أرض المعابد ـ الأرض [illegible]	٥٢
الإقطاعات العسكرية	٥٣
أرض الجباية ـ أرض الأملاك الخاصة	٥٤
نظام الصناعات والحرف ـ صناعة البردي	٥٥
صناعة النسيج ـ المصارف المالية	٥٦
نظام التجارة ـ التجارة الداخلية	٥٧
التجارة الخارجية	٥٩
ضرائب شتى	٦٠
نظام جباية الضرائب	٦١
الفصل السادس ـ القضاء ـ القانون المدني ـ الأحوال الشخصية	٦٢
الأحوال المدنية	٦٤
القانون الجنائي	٦٦
الهيئات القضائية ـ محاكم المصريين ـ محاكم الإغريق	٦٧
محكمة مختلطة	٦٨
محاكم القضاء الخاص	٦٩
الفصل السابع ـ الحياة الاجتماعية ـ الإغريق ـ حالتهم في عهد البطالمة الأوائل	٧٠
علاقتهم بالمصريين	٧١
حالتهم في عهد البطالمة الأواخر	٧٢
علاقتهم بالمصريين	٧٣
نساء الإغريق	٧٤
حضارة إغريق مصر	٧٤
المصريون ـ طبقاتهم و [illegible]	٧٥
حضارة المصريين	٧٨
النزعة القومية	٧٩
الأجانب	٧٩
اليهود	٧٩
الأدب	٨٢
دار العلم ومكتبته	٨٣

صفحة

الرسم ٨٣
النقش ٨٤
الموسيقى ٨٥
الطب والجراحة ٨٥
علم الحيوان والنبات ٨٥
العلوم الرياضية ٨٦
الفنون والعمارة والمقابر ٨٧
المنازل والمعابد ٩٢
النحت ٩٤

مصر في عصر الرومان – للدكتور إبراهيم نصحي

الفصل الأول – مصر تصبح ولاية رومانية ١٠٨
الفتح الروماني ١٠٨
سياسة أباطرة الرومان في مصر ١

الفصل الثاني – أداة الحكم ١٢٤
السلطة المركزية ١٢٤
السلطة المحلية في القرنين الأول والثاني ١٢٥
المدن الإغريقية ١٢٩
التعديلات التي أحدثت في القرن الثالث ١٣٠
الشرطة ١٣٢
الجيش الروماني ١٣٣

الفصل الثالث – السياسة الدينية ٣٥

الفصل الرابع – السياسة الاقتصادية – الزراعة – الصناعة – التجارة ١٤٠
النقود ٤١
المصارف ١٤٢
حالة البلاد الاقتصادية ١٤٣

الفصل الخامس – النظام المالي – الإدارة المالية [illegible]
تطور النظام المالي ١٥
نظام الأراضي ٥٢
التجارة والصناعة ٥٨
التجارة – التجارة الخارجية ١٦٢
التجارة الداخلية ٦

	صفحة
ضرائب [illegible]	١٦٥
نظام [illegible]	١٦٨
الفصل السادس — النظام القضائي	١٧٠
القانون المدني	٧١
الاحوال الشخصية	١٧١
الاحوال المدنية	١٧٢
القانون الجنائي	٧٣
الهيئات القضائية	١٧٣
الفصل السابع — الحياة الاجتماعية	١٧٥
عدد السكان وحالتهم	١٧٥
طبقات السكان	١٧٦
الاغريق وضعهم وشئونهم	١٧٦
حضارة الاغريق	١٨٠
اليهود	١٨٢
المصريون [illegible]	١٨٤
حضارة المصريين	١٨٥
ثورات المصريين	١٨٦
الفصل الثامن — الآداب والعلوم والفنون	١٨٧
الآداب [illegible] الجامعة والمكتبة	١٨٧
الشعر	١٨٩
النثر	١٨٩
النجوم	١٩١
الطب والجراحة	١٩١
العلوم الرياضية	١٩٢
الفنون	٩٣
فن المعمار	١٩٣
[illegible]	١٩٣
[illegible]	٩٤
[illegible]	١٩٤
[illegible]	١٩٥
فن النحت	١٩٥

صفحة

من دقلديانوس الى دخول العرب ـ للدكتور مراد كامل

مقدمة ١٩٧
من دقلديانوس الى هرقل ١٩٧
دقلديانوس ١٩٧
من قسطنطين الى يوستنيانوس ١٩٨
اسرة يوستنيانوس ١٩٩
الحالة الكنسية ١٩٩
الاصلاحات الداخلية ٢٠٠
الحالة الاقتصادية في عهد يوستنيانوس ٢٠١
خلفاء يوستنيانوس ٢٠١
هرقل ٢٠٢
النظام الادارى والمالي ونظام الجيش والحالة الاقتصادية في مصر في العصر البيزنطي ٢٠٣
النظام الاداري ٢٠٣
الجيش ٢٠٥
النظام المالي ٢٠٥
الحالة الاقتصادية ٢٠٦
الفصل الاول ـ الحياة السياسية ٢٠٩
الصراع مع الاباطرة الوثنيين ٢١٠
الصراع مع الاباطرة المناصرين للهراطقة ٢١٢
هرطقة اريوس ٢١٣
اثناسيوس وجهاده ٢١٤
فترة هدوء ٢١٧
الأب كيرلس وبدعة نسطور ٢١٧
الصراع مع الاباطرة المناصرين لبابا روما ٢١٨
بدء انقسام الكنيسة ٢٢٠
ثورة عامة ٢٢٢
موجة الاضطهادات ٢٢٣
الفصل الثاني ـ الحياة الفكرية ٢٢٦
مراحل تطور اللغة المصرية ٢٢٦
اللغة المصرية القديمة ٢٢٦
اللغة المصرية الحديثة ٢٣٠
اللغة المصرية المتوسطة ٢٣٦

	صفحة
الديموطيقية	٢٢٦
القبطية	٢٢٦
السلم	٢٢٧
الخط الهيروغليفي	٢٢٧
الخط الهيراطيقي	٢٢٨
الخط الديموطيقي	٢٢٨
الخط القبطي	٢٢٨
اللهجات القبطية	٢٢٨
لهجات مصر السفلى	٢٢٨
لهجات مصر العليا	٢٢٨
انحصار اللغة القبطية	٢٢٨
أثر اللغة القبطية خارج مصر	٢٢٩
اللغة القبطية وأثرها على العربية	٢٢٩
الفصل الثالث ـ الحياة الفكرية	٢٣٠
الإنتاج العلمي والفلسفة	٢٣٢
الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية	٢٣٢
الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية	٢٣٢
الفلسفة الغنوصية	٢٣٣
الغنوصية وتاريخها ومدارسها	٢٣٤
فالنتينوس	٢٣٤
الوثائق القبطية	٢٣٥
الغنوصيون الأرثوذكس	٢٣٥
الإفلاطونية الحديثة	٢٣٥
أمونيوس سكاس	٢٣٦
مدارس الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافي	٢٣٦
لمحة عن نشأة هذه المدرسة	٢٣٧
تاريخ المدرسة ومشهوريها	٢٣٧
مشاهير علمائها	٢٣٨
كليمنتس الاسكندري	٢٣٩
أوريجانوس	٢٤
ديديموس الضرير	٢٤
باقي الأساقفة	٢٤٢
	٢٤٣

	صفحة
علاقة ... [illegible] والمسيحية	٢٤٣
الانتاج العلمي والأدبي ...	٢٤٥
الانتاج المسيحي	٢٤٥
صناعة الورق	٢٤٧
تاريخ الكنيسة	٢٤٨
تاريخ بطاركة الاسكندرية	٢٤٨
المصادر التاريخية عن البطاركة	٢٤٩
يوحنا النيقيوسي	٢٤٩
ساويرس بن المقفع	٢٤٩
الأنبا ميخائيل أسقف تنيس	٢٤٩
الأنبا يوساب أسقف فوة	٢٥٠
استكمال	٢٥٠
تاريخ مجمع	٢٥٠
مجامع محلية	٢٥٠
مجامع القوانين الكنسية	٢٥٠
يوحنا النيقيوسي	٢٥١
الانتاج الأدبي والفلسفة الشعبية	٢٥٢
ترجمة الكتاب المقدس	٢٥٢
أقوال الآباء	٢٥٢
سير القديسين	٢٥٤
القصص	٢٥٣
الإصلاح الاجتماعي	٢٥٣
أمراض الجسد	٢٥٣
العلم	٢٥٣
الطب	٢٥٤
لغة الأدب	٢٥٤
أقوال الآباء الرهبان وشروحها	٢٥٥
كتابات الآباء اللاهوتية	٢٥٥
أقوال الآباء في السياق	٢٥٦
اهتمام العالم بمخطوطات القبطية	٢٥٧
الفصل الرابع – الحياة الفنية	٢٥٩
الفنون القبطية	٢٥٩
الصفات العامة للفن القبطي	٢٥٩

صفحة

فن [illegible]	٢٥٩
فن دينى ومدنى	٢٦
فن [illegible]	٢٦
[illegible]	٢٦
[illegible] لا [illegible]	٢٦
فن [illegible]	٢٦٠
فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية	٢٦
صور من الفنون القبطية	٢٩١
العمارة	٢٩١
التصوير	٢٦٣
النقش على الحجر والخشب	٢٦٤
المنسوجات	٢٦٤
الفنون الصغرى	١٧٢
الحفر و[illegible]	٢٧٥
حالية	٢٧٥
الرواسب الفنية	٢٨٠
الموسيقى والألحان	٢٨
الفصل الخامس - الحياة الاجتماعية	٢٨٤
مركز المرأة في الحياة المصرية	٢٨٤
الأسرة	٢٨٨
العادات	٢٩٢
الأصوام	٢٩٥
الأعياد	٢٩٦
المسرات	٢٩٧
التقويم القبطى	٢٩٩
قيمة التقويم المصري	٣٠١
شهر توت	٣
شهر بابه	٣٠٢
شهر هاتور	٣٠٢
شهر كيهك	٣٠٢
شهر طوبة	٣٠٢
شهر امشير	٣٠٢

	صفحة
شهر برمهات	٣٠٢
شهر برمودة	٣٠٢
شهر بشنس	٣٠٢
شهر بؤونة	٣٠٢
شهر أبيب	٣٠٢
شهر مسرى	٣٠٢
الدولة الرومانية والتقويم المصري	٣٠٣
تطور التقويم المصري الى القبطي	٣٠٣
أغراض التقويم القبطي	٣٠٣
التقويم القبطي الكبير	٣٠٤
الشهور القبطية	٣٠٤
التقويم الأبيوبي	٣٠٥
الرهبنة البدوية في مصر	٣٠٥
أطوار الرهبنة	٣٠٦
التوحد	٣٠٦
القديس انطونيوس	٣٠٦
الرهبنة الاجتماعية	٣٠٧
القديس مكاريوس	٣٠٧
الرهبنة الديرية حياة مشتركة	٣٠٨
الأب باخوميوس	٣٠٨
نظام الأب شنودة	٣٠٩
آثار الرهبنة	٣١٠
التربوية	٣١١
الاجتماعية	٣١١
انتشارها في بقية العالم المسيحي	٣١٢
في الشرق	٣١٢
في السودان	٣١٦
في الغرب	٣٠٥
فهرس أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الاسكندرية في العصر البيزنطي	
في عصر الروم	٣٠٧
الأباطرة الرومان	٣٠٧
أباطرة العصر البيزنطي	٣١٧

صفحة

أسرة قسطنطين ... ٣١٧
أسرة ثيودوسيوس ... ٣١٨
أسرة ليو ... ٣١٩
أسرة يوستنيانوس ... ٣١٩
أسرة هرقل ... ٣٢٠

القسم الثاني

العصر الإسلامي :

تاريخ مصر من الفتح العربي الى أن دخلها الفاطميون — بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح العربي لمصر ... ٣٢٣
مشكلات تتصل بالاعلام والمؤرخين ... ٣٢٥
سير الفتح ... ٣٢٩
بابليون ومصر ... ٣٣٢
موقعة عين شمس (هليوبوليس) والاستيلاء على الحصن ... ٣٣٥
معاهدة بابليون ... ٣٣٨
استكمال فتح الوجه البحري والصعيد والفيوم ... ٣٤٠
فتح الاسكندرية ... ٣٤١
مصر جزء من الدولة الاسلامية ... ٣٤٣
الفترتان الأموية والعباسية ... ٣٤٨
الادارة ... ٣٤٨
شئون المال ... ٣٥٢
الاسلام والتعريب ... ٣٦٣
الأحوال العامة ... ٣٧٢
الزراعة والصناعة والتجارة ... ٣٧٢
الفسطاط والجيزة ومساكن العرب في الاسكندرية ... ٣٧٦
أهم أحداث مصر من الفتح العربي الى قيام دولة أحمد بن طولون ... ٣٨٠
دولة بني طولون ... ٣٨٨
أحمد بن طولون ... ٣٨٨
خمارويه وأبو العساكر وهارون بن خمارويه ... ٣٩٩
نظرة عامة على دولة بني طولون ... ٤٠٢
من الطولونيين الى الاخشيديين ... ٤٠٥
الاخشيديون ... ٤٠٦

صفحة

مصر في العصر الفاطمي ـ ملامح مصر في العصر الاسلامي الأول ـ للدكتور جمال الدين الشيال ٤١٨
من هم الفاطميون ... ٤١٩
الحزب الشيعي ... ٤٢١
نشأته وتطوره ... ٤٢٠
قيام الدولة الفاطمية في المغرب ... ٤٢٣
الخلفاء الفاطميون في المغرب ومصر ... ٤٢٥
الدولة الفاطمية في المغرب ... ٤٢٩
الفتح الفاطمي لمصر ... ٤٢٨
مصر في العصر الفاطمي ... ٤٣١
تأسيس القاهرة ... ٤٣١
الجامع الأزهر ... ٤٣٥
العصر الفاطمي الأول عصر القوة والازدهار ... ٤٣٨
العصر الفاطمي الثاني عصر الضعف والانحلال ... ٤٤٤
انتهاء الدولة ... ٤٥٤
الدولة الأيوبية ـ للدكتور محمد مصطفى زيادة ... ٤٥٨
الدولة المملوكية الأولى ـ للدكتور محمد مصطفى زيادة ... ٤٨١
الدولة المملوكية الثانية ... ٥٠٨
الحياة الدينية في مصر الاسلامية (من ظهور الاسلام الى مطلع العصر الحديث)
للأستاذ أمين الخولي
الدين والتدين ... ٥٢٩
التاريخ الحضاري ... ٥٣٢
ملامح الشخصية المصرية الدينية ... ٥٣٣
عمق الروح الدينية ... ٥٣٤
قوة الايمان بالحياة الأخرى ... ٥٣٤
سعة الأفق الديني ... ٥٣٥
مصر تتلقى الاسلام ... ٥٣٧
التحول غير سريع ... ٥٤١
روحية مصر في الاسلام ... ٥٤٣
حيوية مصر في الاسلام ... ٥٤٦
اسلام مصر بلا عنف ولا مغالاة اعتقادية ... ٥٤٨
مصر وراء الخلاف المذهبي ... ٥٥٣
الاسلام والمجتمع المصري ... ٥٥٦

الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي – للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ... ٥٦١
العمارة (العصر ماقبل الطولوني) ... ٥٦٣
(العصر الطولوني) ... ٥٦٧
(العصر الفاطمي) ... ٥٦٩
(العصر الأيوبي) ... ٥٧٦
(العصر المملوكي) ... ٥٨١
المساجد ... ٥٨١
القباب ... ٥٨٢
المارستانات ... ٥٨٣
الخوانق ... ٥٨٥
القصور ... ٥٨٦
الخانات ... ٥٩٠
الأسبلة ... ٥٩١
الفنون الزخرفية ... ٥٩١
مواد البناء ... ٥٩١
الأخشاب ... ٥٩٣
التصوير ... ٥٩٤
المنسوجات ... ٥٩٦
الطنافس ... ٥٩٦
المعادن ... ٥٩٨
الخزف ... ٦٠٠
الزجاج ... ٦٠٣
فن الكتاب ... ٦٠٤

تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني
و العصر الإسلامي

تأليف

أمين الخولي * محمد مصطفي زيادة * إبراهيم نصحي * مراد كامل
حسين مؤنس * جمال الدين الشيال * محمد عبد العزيز مرزوق